أباطيل التوراة والعهد القديم
(٢)

الله جل جلاله والأنبياء عليهم السلام
في التوراة والعهد القديم

(دراسة مقارنة)

تأليف
د. محمد علي البار

دمشق
الدار الشامية
بيروت

الله جل جلاله والأنبياء عليهم السلام
في التوراة والعهد القديم

بسم الله الرحمن الرحيم

أباطيل التوراة والعهد القديم

(٢)

الله جل جلاله والأنبياء عليهم السلام

في التوراة والعهد القديم

(دراسة مقارنة)

تأليف

د. محمد علي البار

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت

الطبعة الأولى
١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧

الدار الشامية
للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على حبيبه المجتبى وعباده الذين اصطفىٰ، الذين وصفهم الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح، ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمٰن خروا سُجَّداً وبُكيّاً. فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيّاً﴾ [مريم ٥٨، ٥٩]. أولئك القوم الذين أمر الله سبحانه وتعالى نبيه وحبيبه وخيرته من خلقه أن يقتدي بهم: ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ [الأنعام ٩٠].

وفي هذا الكتاب تعرضنا أولاً لصفات المولى سبحانه وتعالى كما وردت في التوراة والعهد القديم والتلمود، وما فيها من البهتان العظيم، إذ جعل أحبار اليهود الذين يكتبون الكتاب بأيديهم ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله، جعلوا المولى سبحانه وتعالى في صورة بشر حقود سريع الغضب كثير الندم. شديد الحرص على أبنائه اليهود الذين زاغوا وعبدوا العجل والبعليم وعشتاروت وغيرها من الأرجاس.. «**وقال الرب لهوشع: اذهب أيضاً احبب امرأة، حبيبة صاحب وزانية، كمحبة الرب لبني إسرائيل وهم ملتفتون إلى آلهة أخرى ومحبون لأقراص الزبيب**» (سفر هوشع، الإصحاح الثالث).

وقال أيضاً أول ما كلم الربّ هوشع، قال لهوشع: «**اذهب خذ لنفسك امرأة زنى وأولاد زنى لأن الأرض قد زنت زنى تاركة الرب**». (سفر هوشع ١ : ٢).

ويزعمون أن هوشع ذهب فتزوج الزانية جومر وولدت له. . ثم يزعمون أن الرب (تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً)، قال: «**حاكموا أمكم (أي إسرائيل) لأنها ليست امرأتي وأنا لست رجلها، لكي تعزل زناها عن وجهها وفسقها من بين ثدييها. لئلا أجردها عارية وأوقفها كيوم ولدتها وأجعلها كقفر. . ولا أرحم أولادها لأنهم أولاد زنى، لأن أمهم زنت، التي حبلت بهم صنعت خزياً، لأنها قالت: أذهبُ وراء محبّيَّ الذين يعطونِ خبزي ومائي وصوفي وكتاني وزيتي وأشربتي. . لكن هائنذا أتملقها وأذهب إلى البرية وألاطفها وأعطيها كرومها من هناك. . وهي تغني هناك كأيام صباها وكيوم صعودها، ويكون في ذلك اليوم يقول الرب: إنك تدعينني رجلي ولا تدعينني بعلي (لأن الرب ينفر من كلمة البعل، وهو صنم كان يعبد في منطقة لبنان وفلسطين وعبدته إسرائيل فترة طويلة). . وأقطع لهم عهداً في ذلك اليوم وأخطبك لنفسي**». (سفر هوشع ٢: ١٢).

وتصف التوراة المحرفة المولى سبحانه وتعالى بكل صفات اليهود الحقيرة المرذولة. . من الحقد واللؤم والخسة، وأنه يسير وراء حبيبته إسرائيل في البرية ويسكن معهم في خيمة الاجتماع ويجلس في التابوت الذي يسمّى «تابوت رب الجنود الجالس على الكروبيم». ويقاتل معهم الفلسطينيين ويحقق لهم الانتصارات. . ورغم ذلك استطاع الفلسطينيون أن يأسروا الرب!! وأخذوه معهم أسيراً في تابوته، ولكنه ضربهم بالفئران والبواسير، فاضطر الفلسطينيون أن يعيدوه إلى بني إسرائيل مع فدية خمسة فئران من ذهب وخمسة بواسير من ذهب!!

وقد أفضنا في هذه العقائد المرذولة في الفصل الأول من هذا الكتاب تحت عنوان «الله جل جلاله كما تصوره التوراة والتلمود». .

وتأتي أهمية دراسة هذه العقيدة اليهودية في الله سبحانه وتعالى من أنها توضح عقائد اليهود وسياسة بني إسرائيل الذين يعتقدون اعتقاداً جازماً أنهم أبناء الله وأحباؤه على الحقيقة والمجاز. . وأنه لم يخلق البشر إلا لخدمتهم ولعق أحذيتهم. . وأنه يجوز، بل يجب عليهم أن يبتزوا البشر على مختلف صنوفهم وأنهم هم وحدهم شعب الرب المقدس. . وإليه ينتسبون انتساب الدم وانتساب المودة والمحبة.

ثم استعرضنا بعد ذلك سير الأنبياء عليهم السلام كما وردت في أسفار التوراة والعهد القديم من آدم عليه السلام إلى حجي وصفنيا وزكريا وملاخي. وإذا كان اليهود قد صوروا المولى سبحانه وتعالى بصورة بشرية مقززة، فكيف يمكن أن نتخيل وقاحتهم وتصويرهم للأنبياء عليهم السلام؟ وقد لوثوا سيرة هولاء الأنبياء بصورة لا يكاد يصدقها عقل.. ووصفوهم بأقذع الصفات ونعتوهم بأشنع الأخلاق.. فهم كذبة فجرة قتلة زناة جبناء لصوص ديوثون... إلخ.

ولم يسلم من هذه الصفات المرذولة أنبياؤهم الذين يزعمون أنهم إليهم ينتسبون، ابتداء من إبراهيم وإسحاق عليهما السلام مروراً بيعقوب وبنيه (يوسف والأسباط) وموسى وهارون ويوشع بن نون وداود وسليمان، وانتهاء بالأنبياء المتأخرين من أمثال هوشع وأشعيا وأرميا وحزقيال وعوبديا ودانيال وميخا وناحوم وحجي وملاخي وزكريا وصفنيا..

وقد ذكرنا سيرة هؤلاء الأنبياء في التوراة والعهد القديم وقارنّا تلك الصورة القاتمة بالصورة المشرقة الوضيئة التي جاءت عنهم في القرآن الكريم وبعض ما ورد في السنة النبوية المطهرة.. «وبضدّها تتبين الأشياء».

وقد استعرضنا في الجزء الأول من هذا الكتاب «المدخل لدراسة التوراة والعهد القديم» أسفار العهد القديم وتقسيماتها المختلفة عند اليهود والنصارى بفرقهم المختلفة.

ولم نتحدث عن أسفار الشعر والحكمة إلا باقتضاب، وذلك لأننا اضطررنا لاستعراضها في هذا الجزء. حيث ألحقنا مزامير داود عليه السلام بفصل يأتي مباشرة بعد الفصل الذي تحدثنا فيه عن داود. وكتبنا فصلاً عن أسفار الشعر والحكمة المنسوبة إلى سليمان عليه السلام، وهي: سفر حكمة سليمان وسفر الجامعة ونشيد الإنشاد.. وقد جعلنا هذا الفصل بعد الفصل الذي كتبناه عن سليمان عليه السلام..

وأوضحنا ما في هذه الأسفار من الحكمة وما فيها من الغثاء والكفر والزندقة والشعر الجنسي الفاضح.

ثم تحدثنا عن أيوب عليه السلام في القرآن الكريم، وعن أيوب كما جاء في

سفر أيوب، وهو من أسفار الشعر والأدب والحكمة. . وقد أوضحنا ما جاء في هذا السفر من كفر بالله وتحدٍّ له وصل إلى حد إنكار وجوده على لسان أيوب عليه السلام ــ حسب زعمهم ــ حيث يقول: «هأنذا أذهب شرقاً فليس هو هناك وغرباً فلا أشعر به، وشمالاً حيث عمله فلا أنظره، يتعطف الجنوب فلا أراه»:

لقد بحث أيوب ــ حسب زعمهم ــ عن الرب في الجهات الأربع فلم يجده. .

ثم تحدثنا عن يونس عليه السلام (سفر يونان) كما ورد في القرآن الكريم وقارناه بالغثاء الموجود في العهد القديم.

وتحدثنا في الفصل الأخير عن الأنبياء المتأخرين ابتداء من إيليا (إلياس)، الذي ورد ذكره في القرآن الكريم، وانتهاء بملاخي وحبقوق وعوبديا وصفنيا وميخا وحجي، الذين لم يرد لهم ذكر لا في القرآن الكريم ولا في السُّنَّة المطهرة.

ويوضح هذا الكتاب عقائد اليهود الملتوية المعوجة وأنفسهم المريضة المليئة بالحقد على البشرية وغرورهم وعتوهم وتجبرهم وجبنهم وخستهم كما يوضح سياسة إسرائيل التي عليها قامت والتي عليها تسير.

ولا شك أننا إذا أردنا أن نواجه هؤلاء اليهود المتجمعين اليوم في دولة إسرائيل يجب أن نفهم عقائدهم وأساليبهم وطرقهم الملتوية. . كما أنه من المؤلم جداً أن نجد هؤلاء اليهود يسيطرون على الغرب سيطرة كاملة وخاصة الولايات المتحدة. . ويستخدمون في ذلك وسائل متعددة ليس أقلها أهمية أساطير التوراة والعهد القديم.

ففي الولايات المتحدة اليوم أكثر من أربعين مليون شخص يؤمنون إيماناً كاملاً بمجيء مسيح الرب (يسمونه الرب) حسبما بشّرت به أسفار العهد القديم وأنه لن يأتي إلا بعد هدم المسجد الأقصى وبناء هيكل سليمان على أنقاضه. ومن هؤلاء الرئيس السابق كارتر والرئيس ريجان اللذان يؤمنان إيماناً جازماً بأن الرب سيأتي إلى أورشليم وينزل إلى مسكن قدسه في جبل صهيون ويسكن في بيت الرب (الهيكل)، وتتمجد به كل الشعوب عبر تمجدها بلعق حذاء إسرائيل!! لأن إسرائيل هي شعب الله المختار. . الشعب المقدس الذي اختاره الله من بين البشر وأعطاه عهده الأبدي الدائم بأن يفترس جميع الشعوب وأن يأكل جميع الأمم وأن يبيد أول ما يبيد الفلسطينيين الذين أمر الربُّ

بقتلهم وطردهم من الأرض التي أنت ذاهب إليها يا إسرائيل. . والتي وعدها الربُّ إبراهيم وإسحاق ويعقوب. . وكرر ذلك العهد والأيمان المغلظة مئات المرّات وأكدها بغرلة الختان والدم!!

ونحن نؤمن بأن اليهود سيتجمعون في آخر الزمان، ﴿وإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً﴾. . وأن هؤلاء اليهود ستقوم لهم دولة. . وسيظهر فيهم المسيح الدجال الأعور الذي يدَّعي الربوبية. . وأن معظم شعوب الأرض ستخضع له لفترة وجيزة، ثم ينزل عيسى عليه السلام من المنارة الشرقية للجامع الأموي بدمشق والمسلمون يصفّون صفوفهم وإمامهم منهم. . وأن عيسى عليه السلام يصلي خلفه. . ثم يقوم بقتل المسيح الدجال عند باب لُدّ (مطار تل أبيب حالياً) ويقتل المسلمون اليهود حتى يقول الحجر والشجر: تعال يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي ورائي فاقتله، إلا الغرقد فإنه شجر يهود. .

وتكون المعركة العظمى عند نهر الأردن (نهر الشريعة) الذي يفصل ما بين الضفة الغربية التي ستمتلأ باليهود والضفة الشرقية التي عليها المسلمون. . وتتطهر الأرض يومئذ من يهود ورجس يهود ودنس يهود ومسيح اليهود الدجال الأعور الكذاب. . ويعمم الأرض السلام وتظهر الأرض بركتها وخيرها.

وقد أخبرنا بذلك كله الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى ــ عليه أفضل الصلاة والسلام ــ وبوادر ما ذكره في الأفق. . وهاهم اليهود يأتون من كل حدب وصوب ليحتلوا أرض فلسطين ويطردوا منها أهلها. . وها هم يهود الاتحاد السوفييتي يقدمون بمئات الآلاف ليسكنوا الضفة الغربية من نهر الأردن ويطردوا منها ما بقي من أهلها وسكانها حتى تتم النبؤة وتبدأ تباشير الفجر الذي طال ظلامه واسودَّ حالكه وكثرت رزاياه.

﴿والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾.

د. محمد علي البار

الله جل جلاله كما تصوّره التوراة التلمود

يصدم المرء حينما يقرأ التوراة الموجودة بين أيدي الناس اليوم، كما يصاب بالهلع والروع عندما يفاجأ بصفات الله سبحانه وتعالى في التلمود.. ولا شك أن أحبار اليهود عليهم لعائن الله قد حرّفوا التوراة التي أنزلها الله على موسى عليه السلام وجعلها هدى ونور... ﴿ويحرفون الكلم عن مواضعه﴾، ﴿يحرفون الكلم من بعد مواضعه﴾ ﴿فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾.

ولا شك لدينا أن يعقوب - إسرائيل - عليه السلام وبينه كانوا موحدين كما كان آباؤه من قبل. قال تعالى في القرآن الكريم على لسان يوسف عليه السلام:

﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٣٨)﴾ (يوسف: ٣٧، ٣٨).

وقال تعالى:

﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٣٢) أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣)﴾ (البقرة: ١٣٢، ١٣٣).

ولكنّ بني إسرائيل حرّفوا دينهم واتبعوا أهواءهم، وساروا وراء الضلالات،

وقلدوا الأمم السابقة، فعبدوا الأصنام والأوثان، فعاقبهم الله على ذلك عقوبات شديدة. . ونرى بني إسرائيل وقد أنقذهم الله من فرعون، يمرون على قوم يعبدون الأصنام، فيطلبون من موسى عليه السلام أن يجعل لهم آلهة كما لهؤلاء القوم.

قال تعالى:

﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾. (الأعراف: ١٣٨).

وما كاد موسى عليه السلام يذهب للقاء ربه حتى عبد بنو إسرائيل العجل.

قال تعالى:

﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾. (الأعراف: ١٤٨).

﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ ﴿١٥٠﴾ ﴾. (الأعراف: ١٥٠).

وقال تعالى في سورة طه:

﴿ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾.

(طه: ٨٥ ـ ٩١).

ولقد برّأ الله هارون عليه السلام مما ألصقته به التوراة المحرفة من أنه هو الذي دعاهم لعبادة العجل وهو الذي صنعه لهم بيديه كما سنستعرضه في حينه.

وخلاصة القول أن إبراهيم عليه السلام وبنيه كانوا موحدين على أنقى صور التوحيد.. وأن بني إسرائيل كانوا في الأصل موحدين، ولكنهم تأثروا بالأمم من حولهم، فعبدوا الأوثان وصوروا الله سبحانه وتعالى بصورة بشر، سريع الغضب، كثير النسيان، يستيقظ وينام، ويحزن ويبكي، ويندم على أفعاله، ويخادع ويخاتل، وينشر الشر، ويحب الدماء جداً.. ولا يتنسم نسيم الرضا إلا عندما يشم اللحم المشوي الذي يغرم به كثيراً. فإذا قدم له أحدٌ المحرقاتِ واللحم المشوي أعطاه ما يريد من أموال وجعل الشعوب له عبيداً.. وهو ليس رب العالمين، بل رب شعب إسرائيل ابنه البكر.. وذلك لأنه قد أعطى العهد لإبراهيم وإسحاق ويعقوب مرات عديدة، لأنهم قدموا له لحماً مشوياً كثيراً من أحسن أنواع اللحم الذي يحبه. كما أن يعقوب صارعه طوال الليل حتى أخذ منه العهد له ولبنيه بالقوة، ولم يطلقه حتى أخذ منه العهد كما سنستعرضه بعد قليل.

لهذا السبب نجد أن كثيراً من الباحثين من اليهود والنصارى والملحدين ومن تابعهم من كتّاب المسلمين يقولون: إن اليهود لم يكونوا موحدين أصلاً.. وإن إبراهيم عليه السلام أسطورة لا وجود لها.. وإن قصة العهد مختلقة من أساسها.. ولم يكن هناك قوم معينون عبروا مصر فسموا العبريين.. وإنما هم قبائل شتى من جزيرة العرب وسوريا الكبرى، أصابها الجوع فعبرت النهر إلى مصر. وسميت تلك القبائل المختلفة العبرانيين لأنهم عبروا النهر.

ووصل الأمر ببعض هؤلاء الكتاب ومنهم فرويد اليهودي أن يذكر أن موسى لم يكن أصلاً من بني إسرائيل، وإنما هو من الفراعنة، وكان قائداً لجيش فرعون.. وأن كل ما تعلق بقصة موسى مختلق من أساسه.

وزعم بعض هؤلاء الكتاب أن عقيدة الله تطورت عند البشر من عبادة الأرواح والأشباح، إلى عبادة الطوطم، إلى عبادة الظواهر الكونية، مثل النجوم والشمس والقمر، إلى عبادة الأوثان، والآلهة الكثيرة المختلفة، مع الاعتراف بأن هناك رب

الأربـاب ـ زيوس عنـد الاغريق، جـوبتير عنـد الرومـان ـ إلى عبـادة إلـه واحـد للقبيلة والشعب. . .

وهذا ما وصل إليه بنو إسرائيل الذين عبـدوا الله ـ ألـوهيم أو يهـوا ـ وجعلوه إلهاً خاصاً لشعب بني إسـرائيل. . وهـو رب الأرباب الأخـرى التي يدخـل معها في صـراع ويدمرهـا. . وهو لا يهتم بـأن تعبد الشعـوب الأخرى آلهة أخرى، ولكنـه يهتم اهتمامـاً شديداً بأن يعبده أبناؤه وشعبه، شعب إسرائيل، ويغار غيرة شديدة عنـدما يتجهـون إلى غيره. . لأنه اصطفاهم وجعلهم أبناءه وأحباءه ولا يـريد أحـداً غيرهم أن يعبـده. . وهو لذا لا يريدهم أن يعبدوا غيره.

وهـذه الصور المختلقـة التي يـزعمهـا هؤلاء الكتـاب نـابعـة من اعتمـادهم على ما هو موجود اليوم من صحائف التوراة المحرفة، وتعاليم التلمود المغرضة. ولهذا وقـع هؤلاء الكتاب في هذا الخطأ. . وإذا كنا نجـد بعض العذر للكتـاب الغربيين الـذين لم يقرأوا القرآن ولم يؤمنوا به، فإننا لا نجد أي عذر للكتاب المسلمين الذين يفترض أنَّهم قرأوا القرآن الكريم وآمنوا به. . والذي فيه الأدلة القـاطعة على وجـود الأنبياء الكـرام، ابتداءً من أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام إلى خاتم الأنبيـاء محمد صلى الله عليـه وآله وسلم. . وأن أنبياء بني إسرائيل دعوا قـومهم إلى عبادة الله وحـده. . وأن بني إسرائيـل موحدون في الأصل وأنهم انحرفوا على فترات من الـزمن. . وأن منهم أقوامـاً صالحين عبدوا الله فأحسنوا العبادة وجاهدوا في الله حق جهـاده. . وأن ما بين أيـدينا من تعـاليم التوراة والتلمود هي من تخرصات أحبـار يهود وتحـريفـاتهم التي أضـافوهـا إلى التوراة الحقيقية، وأنهم طمسوا كثيراً من تعاليم الله، وأبدلوها بتعاليمهم، وجعلوا أنفسهم آلهة من دون الله ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾ وشرّعـوا لأقوامهم وقـالوا لهم هذا حلال وهذا حرام ليأكلوا أموال الناس بالباطل.

نماذج مما ذكرته التوراة والتلمود من صفة الله سبحانه وتعالى:

قصـة خلق آدم على صـورة الله وشبهـه، وأن آدم من ذات الله ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ واليهود هم أبناء الله وجزء منه كما أن الابن جزء من والده.

جاء في سفر التكوين: الإصحاح الأول: «**وقال الله نعمل الإنسـان على صورتنـا**

كشبهنا. . . فخلق الله الإنسان على صورته. على صورة الله خلقه».

وجعل الله آدم في الجنة وأمره أن لا يأكل من شجرة المعرفة. وعندما أكل آدم من هذه الشجرة بإغراء زوجته حواء التي أغرتها الحية، لم يعرف الرب أن آدم أكل من شجرة المعرفة إلا عندما اختبأ منه آدم. وكان الرب حسب زعمهم يتمشى في الجنة. «وسمعا صوت الرب الإلـه ماشياً في الجنة عند هبوب ريح النهار، فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإلـه وسط شجر الجنة. فنادى الرب الإلـه آدم وقال له: أين أنت؟ فقال: سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأني عريان فاختبأت. فقال: من أعلمك أنك عريان؟ هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك أن لا تأكل منها؟ فقال آدم: المرأة التي جعلتها معي أعطتني من الشجرة فأكلت» (سفر التكوين، الإصحاح ٣).

وغضب الرب لذلك ولعن حواء والحية وآدم والأرض «ملعونة الأرض بسببك». وخاف الرب جداً حسب زعمهم من معرفة آدم للخير والشر لذا قال: «وقال الرب الإلـه هوذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفٍ الخيرَ والشرَّ ـ كأن هناك آلهة كثيرة ـ. والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً ويأكل ويحيا إلى الأبد. فأخرجه الربُّ الإلـه من جنة عدن ليعمل الأرض التي أُخذ منها. فطرد الإنسانَ وأقام ـ الرب ـ شرقي جنة عدن الكروبيين ـ الملائكة الكروبيين ـ، ولهيبَ سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة». (سفر التكوين، الإصحاح ٣).

ويعتقد اليهود أن آدم ابن الله ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ لأن الله خلقه من روحه. ويظنون أن ذلك معناه أن فيه جزءاً من ذات الله ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ كما يعتقدون أن الله خلق آدم على صورة الله ذاته كما سيأتي في قصة آدم. ويذكر التلمود أن آدم اتخذ خليلة من الشياطين اسمها ليليت وعاشرها لمدة ١٣٠ سنة فولدت له أبناء وبنات كثيرين كما أن حواء اتخذت لها مجموعة من الشياطين عشاقاً وولدت منهم أبناء وبنات. . ومع ذلك أنجبت حواء من آدم مجموعة من الأبناء والبنات. ولذا فإن أبناء آدم وحواء هم أبناء الله. أما أبناء الزنى من الشياطين فهم أبناء الناس. وقد جاء في الإصحاح السادس من سفر التكوين ما يلي:

و «حدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض وولد لهم بنات. أن أبناء الله رأوا

أن بنات الناس أنهن حسنات فاتخذوا لأنفسهم نساءً من كل ما اختاروا فقال الرب لا يدين روحي في الإنسان إلى الأبد. لزيغانه هو بشر. وتكون أيامه مئة وعشرين سنة، كان في الأرض طغاة في تلك الأيام. وبعد ذلك أيضاً إذ دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم أولاداً. هؤلاء هم الجبابرة الذين منذ الدهر ذوو اسم»(١).

وهكذا تزعم التوراة المحرفة (سفر التكوين، الإصحاح ٦): أن أبناء الله ـ تعالى الله عن ذلك ـ تزوجوا من بنات الناس فأنجبوا الطغاة والجبابرة.. وهي هي عقائد الطغاة في كل زمان ومكان بأنهم من نسل الإلّه.. هكذا زعم الفراعنة في مصر ونمرود في العراق.. وملوك الهند.. وأباطرة الصين واليابان..

وقد غضب الرب غضباً شديداً لاختلاط نسب أولاده بأنساب أبناء الناس وبناتهم فقرر أن يغرق الأرض ويحدث الطوفان ويهلك جميع من في الأرض من إنسان وطير وحيوان ما عدا نوح، لأنه وجد نعمة في عيني الرب.. وكان نوح من نسل آدم وحواء ولم يكن قد دخل نسبه شيء من بنات الناس ـ أي بنات حواء وآدم من زناهما مع الشياطين ـ **لهذا كله نجّى الله نوحا وزوجته وأولاده الثلاثة وزوجاتهم لأنهم من نسل الله... وتسير خرافات التوراة بعد ذلك لتطرد كنعان بن حام بن نوح وتجعل سلسلة نسب الإلّه في سام جد اليهود.. ولهذا فاليهود هم أبناءُ الله وأحباؤه. ولهذا جاء في**

---

(١) من الطريف أن نقرأ تعليق الترجمة الفرنسية المسكونية وترجمة أورشليم الفرنسية للكتاب المقدس كما تنقلها الرهبانية اليسوعية. الكتاب المقدس ـ كتب الشريعة الخمسة، دار المشرق ١٩٨٥م.

يقول التعليق: «يعود المؤلف ـ أي مؤلف سفر التكوين ـ إلى أسطورة شعبية عن الجبابرة، يقال إنهم وُلدوا من زواج بين كائنات بشرية وكائنات سماوية. وهو لا يبدي رأيه في قيمة هذا الاعتقاد، ويخفي وجهه الأسطوري!! فيقتصر على التذكير بهذا الجنس الوقح من الجبابرة، كمَثَل للفساد المتزايد الذي سوف يسبب الطوفان. أما اليهودية اللاحقة وجميع المؤلفين المسيحيين الأوّلين تقريباً رأوا في «بني الله» هؤلاء ملائكة مذنبين. لكن آباء الكنيسة، منذ القرن الرابع الميلادي، فسّروا جميعهم «بني الله» ببني شيث. وبنات الناس بذرية قاين ـ قابيل ـ. اهـ.

وأما ما ذكره التلمود فيدل على أن بنات الناس هنَّ نسل حواء من الشياطين ونسل آدم من زناه بالشيطانة ليليت.. ويعتبرُ التلمود أولاد شيث أبناء الله، كما ذكرناه.

التلمود: «تتميز أرواح اليهود عن باقي الأرواح بأنها جزء من الله كما أن الابن جزء من والده.. وأن أرواح اليهود عزيزة عند الله لأن أرواح غير اليهود هي أرواح شيطانية.. والإسرائيلي معتبر عند الله أكثر من الملائكة.. وجاء في التوراة المحرفة: «هكذا يقول الرب.. إسرائيل ابني البكر». ويقول عن إسرائيل: «أنا اليوم خلقتك لتكون لي حبيباً محبباً مثل الابن لأبيه».. وجاء في التلمود الذي كتبه أحبار يهود: «إذا ضرب أممي إسرائيلياً فكأنما ضرب العزة الإلهية. والفرق بين درجة الإنسان والحيوان كالفرق بين اليهودي وباقي الشعوب. ولو لم يخلق اليهود لانعدمت البركة من الأرض، ولما خلقت الأمطار والشمس»..

لهذا قالوا نحن أبناءُ الله وأحباؤه.. وهم لا يقصدون فقط المحبة المعنوية والبنوة المعنوية كما قد يتبادر إلى الذهن لأول وهلة، ولكنهم يقصدون أن أرواحهم جزء من ذات الله تعالى، لأنهم هم الممثلون لنسل آدم وحواء في نقائه. وبما أن آدم مخلوق على صورة الله وشبهه تماماً، وروحه جزء من روح الله وذاته، ـ تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً ـ فإن اليهود هم أبناء الله الحقيقيون حساً ومعنى.

وجاء في سفر التثنية من التوراة المحرفة (الإصحاح السابع):

«سبع شعوب أكثر وأعظم منك ودفعهم الربُّ أمامك فإنك تحرّمهم ـ أي تبيدهم وتقتل النساء والأطفال مع الكبار ـ لا تقطع معهم عهداً ولا تشفق عليهم، لأنك شعب مقدس للرب إلهك. إياك قد اختار الرب لتكون له شعباً، أخص من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض. مباركاً تكون فوق جميع الشعوب. وتأكل كل الشعوب الذين الربُّ إلهك يدفع إليك. لا تشفق عيناك عليهم»..

وجاء في سفر التثنية (الإصحاح ١٤):

«أنتم أولاد الرب إلهكم» وفي سفر صموئيل الثاني (الإصحاح ١٣) «أنا أكون له أباً وهو يكون لي ابناً». ويقول داوود كما يزعمون: إن الرب قال له: «أنت ابني. أنا اليوم ولدتك اسألني فأعطيك الأمم ميراثاً، وأقاصي الأرض ملكاً» (المزمور الثاني).

وقال عن سليمان بعد أن عبد الأوثان حسب زعمهم «هو يبني بيتاً لاسمي وهو

يكون لي ابناً وأنا له أباً وأثبت كرسي ملكه على إسرائيل إلى الأبد» (أخبار الأيام الأول ٢٢ : ١٠).

مما تقدم يتضح الآتي:

(١) أن الله قد خلق آدم على صورة الله وشبهه تماماً حسب زعمهم.

(٢) أن الله عندما نفخ في آدم من روحه، جعل فيه جزءاً من ذاته. تعالى الله عن ذلك.

(٣) أن آدم ابن الله على الحقيقة لا على المجاز.

(٤) أن هذه البنوة بقيت في أولاد آدم من حواء. أما أولاد آدم من زناه مع الشيطانة ليليت وأولاد حواء من زناها مع الشياطين فتسميهم التوراة بنات الناس وأبناء الناس. وأن زواج أبناء آدم وحواء ـ الذين تسميهم التوراة أبناء الله ـ من بنات الناس نتج عنه الجبابرة الذين هم منذ الدهر لهم اسم.

(٥) أن البنوة تسلسلت في نوح. وبما أن العالم كله قد غرق ولم يبق على الأرض إلا نوح وأولاده فإن البنوة بقيت في نوح وابنه سام. لأن حام نظر عورة أبيه فصار هو ونسله ملاعين وخرجت منهم روح الله. وسكن الله في خيام سام.

(٦) تسلسل البنوة من سام إلى إبراهيم ومن إبراهيم إلى إسحاق إلى يعقوب ـ إسرائيل ـ وبنيه.

(٧) أن الله حسب زعمهم لا يريد للإنسان أن يعرف الخير والشر، ويريده أن يبقى جاهلاً حتى لا ينافسه. ويخاف الله حسب زعمهم أن يأكل الإنسان من شجرة الخلد ـ شجرة الحياة ـ فيحيا الإنسان إلى الأبد. ولذا يطرد الله الإنسان من الجنة، ويضع عليها حراسة مشددة حتى لا يدخل ويأكل من شجرة الحياة.

(٨) أن الله يجهل ما يحدث، ولم يعرف أن آدم أكل من شجرة المعرفة إلا بعد أن اختبأ آدم وأخبره بذلك.

(٩) أن الرب يمشي ويقوم وينام ويصحو ويعمل ويتعب ويحتاج للراحة، حسب زعمهم.

(١٠) أن الرب حسب زعمهم لا يهتم إلا بإسرائيل ابنه البكر. . ولذا فقد وضع عهده معهم ليكون لهم رباً وليكونوا هم له أبناء. . وأن لا يعبدوا معه آلهة أخرى. وهو لا يهتم بالشعوب الأخرى التي تعبد آلهة أخرى بل يهتم ويحزن لأن شعبه وابنه البكر ذهب ليقدم القرابين لآلهة أخرى غريبة. ويستخدم كاتب العهد القديم أسلوباً بذيئاً حيث يصور الرب وكأنه قد تزوج إسرائيل التي ذهبت تزني وراء البعليم وعشتروت وملكوم - أوثان - وهو يغار عليها ويرجوها أن ترجع إليه كعهدها السابق.

جاء في سفر هوشع (الإصحاح ١ : ٢ - ٩):

«**أول ما كلم الرب هوشع قال الرب لهوشع: اذهب خذ لنفسك امرأة زنى وأولاد زنى**». هذا أمر غريب وعجيب حقاً أن يأمر الرب نبيّه هوشع بأن يأخذ لنفسه زانية وأولاد زنى. وبالفعل يزعم كتاب العهد القديم أن هوشع تزوج من زانية. ويستمر كلام الرب في هذا السفر معللاً هذا الأمر الغريب بأن الأرض قد زنت تاركة الرب. . والمقصود أن بني اسرائيل عبدوا آلهة أخرى وانتشر الزنى بينهم انتشاراً ذريعاً.

يقول كاتب سفر هوشع: «فذهب - أي هوشع - وأخذ جومر بنت دبلائم فحبلت وولدت له ابناً. فقال له الرب: ادع اسمه يزرعيل، لأنني بعد قليل أعاقب بيت ياهو على دم يزرعيل، وأبيد مملكة بيت إسرائيل. ويكون في ذلك اليوم أني أكسر قوس إسرائيل في وادي يزرعيل. . . لأنكم لستم شعبي وأنا لا أكون لكم». وسرعان ما يعود الرب ويناقض كلامه حسب زعمهم: «**لكن يكون عدد بني إسرائيل كرمل البحر الذي لا يكاد ولا يعدّ عوضاً عن أن يقال لهم لستم شعبي يقال لهم أبناء الله الحي. ويجمع بنو يهوذا وبنو إسرائيل معاً ويجعلون لأنفسهم رأساً واحداً ويصعدون من الأرض، لأن يوم يزرعيل عظيم!!**».

وفي سفر هوشع (الإصحاح ٢ : ٢ - ٢١):

يقول الرب لهم: «**حاكموا أمكم - أي إسرائيل - لأنها ليست امرأتي وأنا لست رجلها، لكي تعزل زناها عن وجهها وفسقها من بين ثدييها. لئلا أجردها عريانة وأوقفها** كيوم ولادتها وأجعلها كقفر. . **ولا أرحم أولادها لأنهم أولاد زنى. لأن أمهم زنت.**

التي حبلت بهم صنعت خزياً. لأنها قالت: أذهب وراء محبيّ الذين يعطون خبزي ومائي وصوفي وكتّاني وزيتي وأشربتي.. لكن هائنذا أتملقها وأذهب إلى البرية وألاطفها وأعطيها كرومها من هناك.. وهي تغنّي هناك كأيام صباها وكيوم صعودها من أرض مصر.. ويكون في ذلك اليوم يقول الرب: إنك تدعينني رجلي ولا تدعينني بعد بعلي» ينفر الرب حسب زعمهم من كلمة بعل لأن إسرائيل عبدت البعل ـ أحد الآلهة الموجودة في فلسطين آنذاك وفي منطقة لبنان ـ ولهذا فهو يكره كلمة البعل. ويريد من إسرائيل أن تكون زوجته وتقول له أنت رجلي.. ولا تزني من ورائه مع عشاق كثيرين وآلهة كثيرين ولهذا فهو يغار منها ومن زناها.. ورغم زناها مع من هبَّ ودبَّ إلا أنه لا يزال يحمل في قلبه لها الحب والود ويريدها أن ترجع له، وينزع أسماء البعليم ـ هو نفسه البعل ـ من فمها فلا تذكرها.. «وأقطع لهم عهداً في ذلك اليوم... وأخطبك لنفسي إلى الأبد وأخطبك لنفسي بالعدل والحق والإحسان والمراحم.. وأخطبك لنفسي بالأمانة فتعرفين الرب».

«وقال الرب لهوشع: اذهب أيضاً أحبب امرأة حبيبة صاحب وزانية، كمحبة الرب لبني إسرائيل وهم ملتفتون إلى آلهة أخرى ومحبون لأقراص الزبيب» (سفر هوشع: ٣).

وهكذا يصورون الرب ـ تعالى الله عن ذلك ـ أنه مغرم بفتاته إسرائيل ولهذا فهو يحبها رغم زناها ويدعوها إليه.. ويأمر هوشع نبيه أن يتزوج زانية وأن يخالل امرأة رجل آخر لأن هكذا فعل الرب!! ـ أعوذ بالله ـ فقد أحب الرب إسرائيل وهي تحب رجلاً آخر وتزني معه وتترك الرب إلـهها.

شعب إسرائيل هم أبناءُ الله وأحباؤه على الحقيقة وعلى المجاز.. ومحبته لإسرائيل أشد من محبة الرجل لزوجته وحبيبته.. وهو مغرم بها جداً رغم خيانتها وزناها وفجورها.. ويريدها أن ترجع إليه بأي ثمن، ومستعد أن يعطيها كل ما تريد.. فقط ترجع إلى أحضانه!!.

ورغم ما في ذلك الكلام من أسلوب بذيء ووقح، إلا أنه يعبر عما يعتبره كاتب العهد القديم الحقيقة الأزلية، وهي أن ألوهيم أو يهوا ـ الله ـ هو رب إسرائيل فقط

وحبيبهـا هي. ومهما فعلت إسـرائيل من جـرائم ومن عبادة الأوثـان فهو لا يـزال يجري ويلهث وراءهـا. . ويريـدها أن تعـود إليه كمـا كانت أيـام خروجهـا من مصـر، مـع أن خروجها من مصر عبدت فيه الأوثان أيضاً.

الله يتعب ويرتاح ـ حسب زعمهم ـ :

جاء في سفر التكوين، الإصحاح الثـاني: «**وفرغ الله في اليـوم السابـع من عمله الـذي عمل فـاستراح في اليـوم السابـع من جميع عمله الـذي عمل. وبـارك الله اليـوم السابع وقدَّسَه لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل الله خالقاً.** ولهذا فيوم السبت مقدس تجب فيه الراحة. .

وهكذا تصور التوراة المحرفة أن الله ـ سبحانـه وتعالى ـ يصـاب بالتعب والنصب ويحتاج إلى الراحة. وقد نفى القرآن الكريم هذه الفرية.

قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾. (ق: ٣٨).

الربّ يستيقظ وينام ويلعب كما تزعم التوراة والتلمود:

جاء في سفر زكريا من التوراة المحرفة (الإصحاح ٢: ١٠ ـ ١٣):

«ترنمي وافرحي يا بنت صهيون لأني هائنذا آتي وأسكن في وسطك يقول الرب. فيتصـل أمم كثيرة بـالرب في ذلـك اليـوم. ويكـونـون لي شعبـاً فـأسكن في وسـطك. فتعلمين أن رب الجنـود قـد أرسلني إليــك. والـرب يـرثُ يهـوذا نصيبــه في الأرض المقدسة، ويختـار أورشليم بعد. **اسكتـوا يأكـل البشر قـدَّام الرب لأنـه قد استيقظ من مسكن قدسه**».

رؤية الرب:

الرب في التوراة متجسد على هيئة بشر، ولذا يمكن رؤيتـه في الدنيا.

ويصف أشعيا الرب (سفر أشعيا ٦: ١ ـ ١١) بعد أن رآه قائلاً:

«في سنة وفاة عـزيا الملك رأيتُ السيـد الرب جـالساً على كـرسي عال مـرتفع،

وأذيالاً تملأ الهيكل. السرافيم واقفون فوقه، لكل واحد ستة أجنحة، باثنين يغطي وجهه، وباثنين يغطي رجليه، وباثنين يطير. وهذا نادى ذاك وقال قدوس قدوس قدوس. رب الجنود مجده ملأ الأرض، فاهتزت أساسات العَتب من صوت الصارخ، وامتلأ البيت دخاناً. فقلت ويل لي!! إني هلكت لأني إنسان نَجس الشفتين، وأنا ساكن بين شعب نجس الشفتين، لأن عيني قد رأتا الملك رب الجنود. فطار إليّ واحد من السرافيم وبيده جمرة قد أخذها بملقط، ومَسَّ بها فمي. وقال إن هذه قد مست شفتيك فانتزع إثمك وكفّر عن خطيئتكَ».

وليس أشعيا وحده هو الذي رأى الرب. فآدم وابنه القاتل قايين ونوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب ـ صارعه أيضاً ـ وكل الأنبياء، وموسى والسبعين من مشايخ إسرائيل، وأخت موسى مريم.

وجاء في سفر الخروج (٢٤ : ٩ ـ ١١):

«ثم صعد هارون وأبيهو وسبعون من شيوخ إسرائيل، ورأوا إله إسرائيل، وتحت رجليه منصة من العقيق الأزرق الشفاف، وكذات السماء في النقاوة. ولكنه لم يمد يده إلى أشراف بني إسرائيل فرأوا الله وأكلوا وشربوا».

رؤية إليا ـ النبي الياس :

لقدرأى «إليا التشي» ـ إليا هو النبي ـ اللهَ حسب زعم سفر الملوك الأول بعد أن كلمه مراراً «وعندما هرب إليا من الملك الفاسق أخاب بن عمرى ملك يهوذا، ذهب إليا إلى المغارة فجاءه الرب وقال له: ما بالك هاهنا يا إيليا؟ فقال ـ إيليا ـ : إني ثرت ثورة للرب إلّه الجنود لأن بني إسرائيل قد نبذوا عهدك، وقوضوا مذابحك، وقتلوا أنبياءك بالسيف، وبقيت أنا وحدي، وقد طلبوا روحي ليأخذوها. فقال ـ الرب ـ : اخرج وقِفْ على الجبل أمام الرب، فإذا الرب عابر، وريح عظيمة عاتية تصدّع الجبال وتحطّم الصخور أمام الرب، ولم يكن الرب في الريح. وبعد الريح زلزلة، ولم يكن الرب في الزلزلة، وبعد الزلزلة نار، ولم يكن الرب في النار، وبعد النار حفيف نسيم لطيف، فلما سمع إيليا ستر وجهه بردائه وخرج ووقف بمدخل المغارة، فإذا بصوت يقول له: ما بالك يا إيليا؟ فقال: إني ثرت ثورة للرب إلّه الجنود وكرر عبارته السابقة. فقال له الرب: امضِ فارجع في طريقك نحو برية دمشق فإذا وصلت فامسح حزائيل ملكاً على

أرام، وامسح ياهو بن نمش ملكاً على إسرائيل، وامسح اليشع بن شافاط من آبل محولة نبياً، خليفة لك» (سفر الملوك الأول ١٩ : ٩ ـ ١٥).

الله يسير أمام بني اسرائيل ليلاً ونهاراً حتى يهديهم إلى الطريق في برية صين:

تزعم التوراة أن الله عندما غضب على بني إسرائيل لرفضهم دخول الأرض المقدسة التي كتب الله لهم، أتاههم في صحراء سينا (برية صين). ولكنه مع ذلك لم يتركهم لأنهم شعبه وابنه البكر الأثير لديه جداً مهما فعلوا. لذلك كان يسير أمامهم في الطريق ليلاً ونهاراً حتى لا يضلوا. ورغم هذا الجهد الجبار لم يستطع حسب زعمهم أن يدلهم على الطريق لمدة أربعين عاماً.

جاء في سفر الخروج (الإصحاح ١٣ : ٢٠ ـ ٢٠):

«وارتحلوا من سكوت ونزلوا في أيثام في طرف البرية. وكان الربُّ يسير أمامهم نهاراً في عمود سحاب ليهديهم في الطريق، وليلاً في عمود نار ليضيء لهم، لكي يمشوا نهاراً وليلاً. لم يبرح عمود السحاب نهاراً وعمود النار ليلاً من أمام الشعب».

موسى إلّه فرعون، وهارون نبي موسى:

جاء في سفر الخروج (٧ : ١ ـ ٣):

«فقال الرب لموسى انظر: أنا جعلتك إلّـهاً لفرعون!! وهارون أخوك يكون نبيّك أنت تتكلم بكل ما آمرك. وهارون أخوك يكلم فرعون ليطلق بني إسرائيل من أرضه، ولكني أقسّي قلب فرعون. وأكثّر آياتي وعجائبي في أرض مصر».

ولا بد أن كاتب التوراة كان يهذي فكيف يكون موسى إلّـهاً لفرعون! وهو الذي جاء لدعوة الناس إلى عبادة الله الواحد الأحد!؟ أفيكون مثل فرعون مدعي الألوهية؟! ويكون الذي يأمره بهذا الكفر الله ذاته؟! إن هذا لشيء عجاب!! ثم كيف يكون هارون نبياً لموسى؟ وإنما يمكن أن يكون هارون من أنبياء الله وقد كان كذلك بالفعل.

ولماذا يقسّي الربُّ قلبَ فرعون؟! فقط ليستعرض قوته وعجائبه وحاشا الله أن يفعل ذلك، إنما يأمر بالخير والبر.

وجاء أيضاً في سفر الخروج في أكثر من موضع، أن فرعون قال لموسى وهارون: «صليا لأجلي» (سفر الخروج ٨: ٢٥ ـ ٢٩، والخروج ٩: ٢٧).. وهكذا تزعم التوراة أن فرعون كان يريد الخير، ويريد من موسى وهارون أن يَدعُوَا له.. وكان حريصاً على الخير.. لكن الرب هو الذي قسّى قلبه!!

الرب يكتب اللوحين بأصبعه حسب زعمهم:

جاء في سفر الخروج (٣١: ١٨):

«ثم أعطى (الله) موسى عند فراغه من الكلام معه في جبل سينا لوحي الشهادة.. لوحي حجر مكتوبين بأصبع الله».

ومع هذا فقد كسّرهما موسى عندما غضب ورأى بني إسرائيل يعبدون العجل الذي صنعه لهم حسب زعمهم هارون عليه السلام: «وكان عندما اقترب ـ أي موسى ـ إلى المحلة أنه أبصر العجل والرقص... فغضب موسى وطرح اللوحين من يديه وكسّرهما أسفل الجبل». (سفر الخروج ٣٢: ١٦).

ولكن الربَّ صنع له لوحين آخرين كتبهما مرة أخرى بأصبعه:

«وفي ذلك الوقت قال لي الرب: أنحت لك لوحين من حجر مثل الأولين، وأصعد إلى الجبل فأكتبُ على اللوحين الكلمات التي كانت على اللوحين اللذين كسرتهما». (سفر التثنية ١٠: ١، ٢).

نزول الرب وكلامه:

يتكرر نزول الرب إلّه إسرائيل إلى الأرض مرات ومرات. ويمشي أحياناً أمام إسرائيل على هيئة عمود سحاب نهاراً وعمود نار ليلاً، ليدلهم على الطريق.. ويتكلم الرب مع أي إنسان يريد أن يؤذي إسرائيل ويهدده.. تكلم الرب مع لابان خال يعقوب، عندما هرب يعقوب سارقاً الأغنام وبنات لابان حسب زعمهم وهدده. وتكلم مع أبيمالك ومع فرعون، عندما أعطى إبراهيم زوجته سارة لهما لكي يكسب مالاً. وتكلم مع بلعام بن باعور الذي طلب منه ملك موآب أن يلعن بني إسرائيل: «فأتى الله إلى بلعام، وقال: من هم الرجال الذين عندكم؟ فقال بلعام: بالاق بن صفور ملك موآب قد أرسل إليّ يقول: هوذا الشعب الخارج من مصر قد غشى وجه الأرض.

الآن العن لي إياه، لعلّي أقدر أن أحاربه وأطرده. فقال الله لبلعام: لا تذهب معهم ولا تلعن هذا الشعب لأنه مبارك».

وتكلم الله أيضاً مع شيوخ بني إسرائيل بل وسمع كل بني إسرائيل كلامه ورأوه بأعينهم: «وأما السبعون فقد رأوه وهو واقف وتحت رجليه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف وكذات السماء في النقاوة». (سفر الخروج ٢٤ : ٩ - ١١).

ونزل الرب مئات المرات إلى خيمة الاجتماع. . وغضب الرب حسب زعمهم على هارون ومريم، شقيقا موسى، لأنهما تكلما على موسى بسبب زواجه من الكوشيه: «ونزل الرب في عمود سحاب، ووقف الرب في باب الخيمة ودعا هارون ومريم كلاهما وقال: اسمعا كلامي فلماذا لا تخشيان أن تتكلما على عبدي موسى، فحمي غضب الرب ومضى. فلما ارتفعت السحابة عن الخيمة إذا مريم برصاء مثل الثلج». (سفر العدد ١٢ : ٤ - ١٠).

النبي أرميا يصف الله بالخداع - تعالى الله عن ذلك - :

يقول أرميا النبي للرب: «فقلت آه يا سيدي الرب. حقاً إنك خدَّاع خدعت هذا الشعب - يقصد شعب إسرائيل وأورشليم - قائلاً: يكون لكم سلام. . وقد بلغ السيف النفس» (سفر أرميا ٤ : ١٠).

الرب يأمر أشعياء بأن يتعرى ويدعو بني إسرائيل وهو عاري لمدة ثلاث سنوات :

وأما أشعيا فقد أمره الله بأن يتعرى تماماً، ويمشي عارياً وحافياً ثلاث سنوات ليكون أعجوبة لله!! «تكلم الرب عن يد أشعياء بن آموص قائلاً: اذهب وحل المسح عن حقويك، واخلع حذاءك عن رجليك. ففعل هكذا ومشى معرّى وحافياً.

فقال الرب: كما مشى عبدي أشعيا معرى وحافياً ثلاث سنوات آية وأعجوبة». (سفر أشعياء ٢٠ : ٢، ٣).

قصة جدعون مع الرب وامتحانه له :

أراد الرب أن يخلص بني إسرائيل فأرسل ملاكه إلى جدعون بن يواش ليقول

لـه: «الرب معـك يا جبار البأس». ولكن جـدعون لا يقتنـع بكلام المـلاك ويعتذر عن المهمـة ويقول بكـل وقاحـة: «إذا كان الـرب معنا فلمـاذا أصابتنـا كـل هـذه؟» يقصـد الهزائم.

ونـزل الرب بنفسـه وكلم جدعـون قائـلاً: «اذهب بقوتـك هذه. خلّص إسرائيل». ولكن جدعون أراد أن يتملص من هذه المهمة، وادعى أنه لا بد أن يتـأكد أن يخـاطب الـرب، فقال جـدعون: «إنـك أنت تكلمني لا تبرح من هنـا حتى آتي إليـك. وأخـرج تقدمتي وأضعها أمامك. ووافق الرب قائلاً: إني أبقى حتى ترجع».

وذهب جدعون وأتى بجدي معزى ودقيق حتى يتـأكد أن الـرب يتقبلهما.. لحم مشوي فأكل الرب وتنسم نسيم الرضا عنـد رائحة المشـوي!! وقال جـدعون بعـد ذلك كله ليمتحن الرب: «إن كنت تخلص بيدي إسـرائيل كمـا تكلمت فها إني واضـع جزّة الصوف في البيدر فإن كان طلٌّ على الجزة وحدها، وجفافٌ على الأرض كلها، علمت أنك تخلص بين يدي إسرائيل». ووافق الـرب على ذلك وفي الصبـاح كان الـطل على الجزة وعصر منها ملء قصعة من الماء وكانت الأرض جافة. ولم يكتف جدعون بذلـك وقـال للرب: «لا يحمَ غضبك عليَّ، فـأتكلم هذه المـرة فقط، أمتحن هذه المـرة فقط بالجزة. فليكم جفاف في الجزة وحدها، وعلى الأرض فليكن الطل».

وكأنما الرب خادم عند جدعون يفعل له ما يريد. وبالفعل تـزعم التوراة. (سفـر القضاة ٦: ٣٦ ـ ٤٠). أن الرب فعل حسبما أمر جدعون..

وهكـذا يرفض جـدعون أوامـر ملاك الـرب فيأتي الـرب إليه بنفسـه ويقف أمامـه ويكلمه. ولا يقتنع جدعون حتى يرى الرب وهو يتناول التقـدمة.. واقتنـع جدعـون أن الرب فعلاً يكلمه ولكنه لا بد أن يقتنع أن الـرب سيحارب معـه ويخلص إسرائيـل على يديه فيمتحن الرب امتحاناً وراء امتحان!! تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وجاء في سفر صموئيل الثاني الإصحاح السادس: ١٢ ـ ١٦ من التوراة المحرفة أن داوود وجميع الشعب أخـذوا تـابـوت الله الـذي يسمى رب الجنـود الجـالس على الكروبيم. وجرّوا التابوت على عجلة والرب جالس في التـابوت وهـو يتفرج عليهم.

وداوود وكل شعب إسرائيل يرقص ويغني ويلعب بالرباب ويضرب بالدفوف والجنوك وينفخ في المزمار ابتهاجاً بالنصر على الأعداء.

وجاء في التلمود أن الله ينام في الليل ويعمل في النهار ويتدارس التوراة ويلعب مع الحوت ملك الأسماك.. وعندهم أن الله يقسم اليوم إلى اثنتي عشرة ساعةِ ليلٍ ينام فيها ويرتاح، واثنتي عشرة ساعةِ نهارٍ، ويقسمها كالتالي: في الثلاث ساعات الأولى يدرس التوراة مع أحبار اليهود، وفي الثلاث الثانية، يحكم العالم ويدبر شؤونه، وفي الثلاث الثالثة، يطعم العالم، وفي الرابعة، يلعب مع الحوت ملك الأسماك.

الرب يبكي ويلطم وجهه كما يزعمون:

ولكنه يغيّر البرنامج بعد أن شُرّدَ أبناؤه اليهود من فلسطين وخُربَ الهيكل. فيجعل الثلاثة ساعات الأخيرة من النهار ليبكي على تشريد أبنائه اليهود، فيصرخ ويزأر قائلاً: تبّاً لي لأني صرّحتُ بخراب بيتي وإحراق هيكلي ونهب أولادي. وتسقط كل يوم منه دمعتان في البحر، فيُسمع دويهما من بدء العالم إلى منتهاه، وتضطرب المياه وترتجف الأرض في أغلب الأحيان فتحصل الزلازل.

وحينما يسمع الربّ أبناءه اليهود يمجدونه رغم كل ما فعله بهم، يبكي ويقول بعد أن يلطم وجهه: «طوبى لمن يمجّده الناس وهو مستحق لذلك. وويل للأب الذي يمجّده أبناؤه مع عدم استحقاقه لذلك، لأنه قضى عليهم بالتشريد والشقاء».

قصة الملك آخاب مع الرب:

(سفر الملوك الأول ٢١ : ١ ـ ٢٩ و٢٢ : ١ ـ ٤١):

كان آخاب ملكاً على إسرائيل. وكان أحد رعيته ـ ويدعى نابوت ـ يملك مزرعة كروم قريبة من القصر. فمر آخاب ذات يوم وهي محملة بالعناقيد، فأعجبته جداً. واستدعى نابوت اليزرعيلي ـ نسبة إلى قرية يزرعيل ـ وطلب أن يشتري منه المزرعة فرفض نابوت. واغتمَّ الملك آخاب. ورأته زوجته إيزابل وهو مكتئب وعرفت منه سبب اكتئابه، فقالت لزوجها: «أنت الآن تحكم إسرائيل. قم كل خبزاً وطب نفساً. أنا أعطيك كرم نابوت». ثم كتبت رسائل باسم آخاب وختمتها بختمه وأرسلت الرسائل

إلى شيوخ بني إسرائيل وأشرافهم تتّهم فيها نابوت بأنه جدّف على الله وعلى الملك، وأتت بشاهدي زور. . فأخرجوا نابوت من المدينة ورجموه حتى الموت. وقالت إيزابل لزوجها آخاب: «قم رث كرم نابوت اليزرعيلي الذي أبى أن يعطيك إياه بفضة، لأن نابوت ليس حياً، بل هو ميت». وقام آخاب وأخذ المزرعة واستولى عليها حسب قانون إسرائيل.

فغضب الرب لذلك وتكلم مع النبي إيليا التشّي، وأخبره بأن يكلم آخاب، ويقول له: «**هل قتلت وورثت أيضاً؟ في المكان الذي لحست فيه الكلاب دم نابوت، تلحس الكلاب دمك أنت أيضاً**». ولما سمع آخاب هذا التهديد الرعيب، قام وجعل مسحاً على جسده، وصام ومشى بسكوت، فظهر الربُّ للنبي إيليا وقال له: «هل رأيت كيف اتضع آخاب أمامي؟ **فمن أجل أنه اتضع أمامي لا أجلب الشرّ في أيامه، بل في أيام ابنه أجلب الشر على بيته**» (أمر في منتهى الغرابة. . ولنفرض أن الرب تراجع عن قراره بالانتقام لنابوت فما ذنب ابن آخاب؟! ولا تزر وازرة وزر أخرى. هذا مع العلم أن آخاب عبد الأوثان المختلفة وترك عبادة الرب).

وبقي آخاب في الحكم فترة أخرى، وفجأة تذكر الرب أن آخاب كان يعبد الأصنام وأنه قتل نابوت اليزراعيلي، فقرر أن ينتقم منه، رغم أنه كان قد أجلَّ موضوع الانتقام. واجتمع ملك يهوذا ـ واسمه يهوشافاط ـ بملك إسرائيل آخاب، وتبادلا الرأي في الهجوم على ملك أرام، واستنقاذ أرض راموت جلعاد. وكالمعتاد استشار الملكان المنجمين ويسمونهم أنبياء. . استشاروا أربعمائة نبي، وكلهم قالوا لهما: اصعدا إلى راموت جلعاد، وسيكون النصر لكما. ولكن الملك يهوشافاط لم يطمئن لنبوءة هؤلاء الأربعمائة، وقال: «أما يوجد هنا بعد نبي للرب فنسأل منه؟» فقال آخاب ملك إسرائيل: «نعم هناك نبي ولكني أبغضه لأنه دائماً يتنبأ بالشر» وهو ميخا بن يمله.

ودعوا ميخا فلما حضر إلى الملك، سأله الملك: أنصعد يا ميخا إلى راموت جلعاد أم نمتنع؟ فقال ميخا: «اصعد وافلح فيدفعها الرب ليد الملك». فقال له الملك: «كم مرة استحلفتك أن لا تقول لي إلا الحق باسم الرب». فقال ميخا: «رأيتُ كل إسرائيل مشتتين على الجبال كخراف لا راعي لها. فقال الرب: ليس لهؤلاء

أصحـاب فليرجعـوا كل واحـد إلى بيته بسـلام». فقال آخـاب ـ ملك اسرائيـل ـ لملك يهوذا ـ يهوشافاط ـ: «أما قلت لك: إنه لا يتنبأ عليّ بخير؟».

فقال النبي ميخا: «اسمـع إذاً كلام الـرب. قد رأيت الـرب جالساً على كرسيـه وكـل جند السمـاء وقوف لـديه عن يمينـه وعن يساره. فقـال الرب من يغـوي آخـاب فيصعد ويسقط من راموت جلعاد؟ فقال هذا هكذا، وقال ذاك هكذا. ثم خرج الروح ووقف أمام الرب. وقال أنا أغويه!! وقال له الرب: بماذا؟ فقال: أخرج وأكـون روح كذب في أفواه جميع أنبيائه. فقال الرب: إنك تغويه وتقتـدر. فأخـرج وافعل هكـذا» «وغضب الأنبياء الموجودون، وقام أحـدهم وضرب ميخـا على فكه، وقـال من أين عبر روح الرب فيَّ ليكلمك؟! ـ أي كيف دخل في فمي وتكلم باسمي ـ فقـال ميخا: إنـك سترى في ذلك اليوم الذي تدخل فيـه من مخدع إلى مخـدع لتختبىء. فغضب الملك آخاب وأمر بسجن النبي ميخا، وقال ضعـوه في السجن حتى آتي بسلام. فقـال ميخا: إن رجعت بسلام فلم يتكلم الرب بي.

وصعـد الملك آخاب ومعـه الملك يهوشـافاط إلى رامـوت جلعاد. وتنكّـر آخاب حتى لا يعـرفه ملك آرام. . . وأمـر ملك آرام جيشـه بـأن لا يقـاتـل إلا ملك إسـرائيـل آخاب. . فلما هجموا صاح يهوشافاط بأنـه ليس ملك إسرائيـل فتركـه الجنود. وجـرح آخاب بسهم وانتصر جيش ملك آرام. . وعندما رجع آخاب إلى عاصمته السامرة مـات الملك آخـاب. وغسلت المركبـة التي أصابهـا دم آخـاب في بـركـة السـامـرة فلحست الكلاب دمه كما تكلم الرب».

هذه هي قصة آخاب كما رواها كاتب سفر الملوك الأول (الإصحاح ٢١ و٢٢)، وهي مليئة بالتناقضات. . ووصف المولى سبحانه وتعالى بمـا لا يليق. فهو أولاً يغضب على آخاب، لأنه قتل المزارع نابوت، وعبـد الأصنام، ويقـرر أن يميته. . ويـرسل لـه النبي إيليا ليخبره بذلك، فيتواضع آخاب ويجعل مسحاً على جسده ويمشي بسكون. . فيرجع الـرب عن قراره ويقـول لإيليا «فمن أجـل أنه اتـضـع أمامي لا أجلب الشـر في أيامه. بل في أيام ابنه أجلب الشر على بيته». ثم يقوم الرب حسب زعمهم في اجتماع مـع الملائكـة ويسأل من يغـوي آخاب؟ ويتقـدم روح القدس ويقـول: إنـه هـو الـذي

سيغوي آخاب ويكون روح كذب في فم أنبياء آخاب. والغريب أن النبي ميخا يفضح خطة الرب، ويشرح لآخاب الخطة ومع هذا يذهب آخاب للحرب، ويصاب بسهم وتلحس الكلاب من دمه ويموت!!

الرب يصارع يعقوب حسب زعمهم:

جاء في التوراة المحرفة في سفر التكوين (الإصحاح ٣٢: ٢٣ ـ ٣٢):

«**فبقي يعقوب وحده، وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر. ولما رأى أنه لا يقدر عليه** ـ أي لا يقدر على يعقوب ـ **ضرب حُقَّ فخذه** ـ أي فخذ يعقوب ـ **فانخلع حُقَّ فخذ يعقوب في مصارعته معه. وقال الربُّ: أطلقني، لأنه قد طلع الفجر، فقال يعقوب: لا أطلقك إن لم تباركني، فقال له** ـ الربُّ ـ **: ما اسمك؟ فقال: يعقوب. فقال** ـ الرب ـ **: لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل إسرائيل لأنك جاهدت** ـ أي صارعت ـ **مع الله والناس فقدرت.. وقال يعقوب: أخبرني باسمك؟ فقال الرب: لماذا تسأل عن اسمي؟ وباركه هناك. فدعا يعقوب اسم المكان فينئيل قائلاً: لأني نظرت الله وجهاً لوجه ونجيت نفسي**» ومعنى فينئيل: مكان الله ـ أئيل الله وفيني مكان ـ.

الرب يعترف بخطئه أمام كبير الأحبار كما يفترون:

جاء في التلمود أن خلافاً نشأ بين الله وبعض الأحبار حول بعض المسائل التي يتدارسها الله مع الأحبار في التوراة، ضمن برنامجه اليومي، وطال الجدل بين الله والأحبار، وأخيراً تقرر إحالة الخلاف إلى محكمة الأحبار العليا (السنهدرين) حيث حكم كبار الحاخامات بخطأ الله ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ وصواب موقف الأحبار. مما اضطر الرب إلى الاعتراف بخطئه أمام السنهدرين، وسحبِ جميع أقواله في هذه القضية والاعتذار عما بدر منه.

ألا لعنة الله على اليهود أبد الآبدين.

مسكن الرب:

يعتقد اليهود أن الرب أمر موسى وهارون ببناء خيمة الاجتماع، ليسكن فيها، ثم بعد ذلك أمر ببناء التابوت، ليكون مقره، وليكون على مقربة من أبنائه اليهود، يرعاهم ويدبر أمورهم، وينصرهم على أعدائهم، ويسمونه ربّ الجنود الجالس في التابوت.

ثم إن الفلسطينيين أخذوا التابوت وبقي معهم سبع سنين والرب مسجـون عندهم ولكن الرب ضربهم بالبواسيـر، لهذا أعـاد الفلسطينيـون الرب وتـابوتـه إلى بني اسرائيـل مع بواسير من ذهب وثيران وعجول. . وعـاد الرب في تـابوتـه إلى بني إسرائيـل. وكل من نظر إلى التابوت يموت. ثم قرر الرب أن يسكن في جبل صهيون في أورشليم. وأخيراً بنى له سليمان الهيكل العظيم، ليستقر فيه ويرتاح من التجوال في التابـوت الذي كثيـراً ما يأخذه الأعداء. . ولكن الهيكل نفسه تهدم وتحطم، وانتقـل منه الـرب إلى السماء، ولكنه يعاود زيارته لجبل صهيون. وسيعـود مرة أخـرى للسكن في الهيكل عنـدما يـأتي المسيح ـ الدجال ـ ويسكن فيه إلى الأبد مع شعبه وحبيبه وابنه البكر إسرائيل، بعـد أن يبيد كل الأمم التي تحارب ابنه وتعاديه.

الرب يندم ويحزن وينسى حسب زعمهم:

تصور التوراة المحرفة الـرب سبحانـه وتعالى بـأنه شخص كثيـر الندم. «فعنـدما ابتـدأ أبناء الله ـ أي أبنـاء آدم وحواء ـ يتـزوجون بنـات النـاس ـ أي بنـات آدم من زنـاه بالشيطانة ليليت وبنات حواء من زناها مع جمهـرة من الشياطين كمـا يزعمـون ـ غضب الربُّ جداً، لاختلاط الأنساب، وقرر أن روحه لا تبقى في الإنسـان. كما قـرر أن يبيد الأرض بمن عليها، وندم أنه عمل الإنسان خالقاً!!!!.

جاء في سفر التكوين (الإصحاح ٦):

«وحـدث لما ابتـدأ الناس يكثـرون في الأرض وولد لهم ولـد، أن أبنـاء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات فاتخذوا لأنفسهم نساءً من كل ما اختاروا فقال الـرب لا يدين روحي في الإنسان إلى الأبد، لزيغانه هو بشر. . . ورأى الرب أن شـر الإنسان قـد كثر في الأرض. وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير **فحزن الرب أنه عمل الإنسـان في الأرض وتأسَّف في قلبه. فقال الرب: أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته»**.

وبعد أن محا الحياة من على وجه الأرض. بالطوفان ما عـدا نوح الـذي كان من نسـل أبناء الله وبنـات الله!!! ولم يكن من نسل بنـات الناس نـدم الرب أيضـاً: «وقال الـرب في قلبه: لا أعـود ألعنُ الأرض أيضاً من أجـل الإنسان لأن تصـور قلب الإنسان شـريـر منـذ حـداثتـه. ولا أعـود أيضـاً أميت كـل حي كمـا فعلت». (سفـر التكـوين، الإصحاح ٨: ٢٠ ـ ٢٢).

وحتى لا ينسى الله عهده مع نوح بألا يغرق الأرض مرة أخرى، تزعم التوراة المحرفة: أنه وضع قوسه في السحاب. فعندما يرى المطر هاطلاً، يضع قوس قزح، فيذكر أنه قد عقد عقداً مع نوح ألا يغرق الأرض فيكف المطر. «وقال الله: هذه علامة الميثاق الذي أنا واضعه بيني وبينكم وبين كل ذوات الأنفس الحية التي معكم إلى أجيال الدهر. وضعت قوسي في السحاب فتكون علامة ميثاق بيني وبين الأرض. فيكون متى أنشر سحاباً على الأرض، وتظهر القوس في السحاب، أني أذكر ميثاقي الذي بيني وبينكم.. فلا تكون أيضاً المياه طوفاناً.. فمتى كان القوس في السحاب أبصرها لأذكر ميثاقاً أبدياً بين الله وبين كل نفس حية في كل جسد على الأرض» (سفر التكوين الإصحاح ٩: ١٢ - ١٦).

وجاء في سفر الخروج (الإصحاح٣٢): «أن الرب غضب غضباً شديداً على بني إسرائيل عندما عبدوا العجل. وقال لموسى: «فالآن اتركني ليحمى غضبي عليهم، فأصيّرك شعباً عظيماً. فتضرع موسى أمام الرب إلهه. وقال له: **ارجع عن حُمُوّ غضبك واندم على الشر بشعبك**. اذكر إبراهيم وإسحاق وإسرائيل عبيدك الذين حلفت لهم بنفسك وقلتَ لهم: أُكثِّرُ نسلكم كنجوم السماء وأعطي نسلكم كل هذه الأرض التي تكلمت عنها فيملكونها إلى الأبد. **فندم الربُّ على الشرِّ الذي قال إنه يفعله بشعبه**». وفي سفر يونان - يونس - ٣: ٥ - ١٠ أن أهل نينوى نادوا بصوم لعل الله يندم عن حمو غضبه فلما رأى الله أعمالهم «**ندم الله على الشر الذي تكلم أن يصنعه بهم**».

وفي سفر العدد (الإصحاح ١٤): «**قال الرب لموسى: حتى متى يهينني هذا الشعب!!.. حتى متى أغفر لهذه الجماعة الشريرة المتذمرة عليّ؟!**. ولكن ما أن قدم له بنو إسرائيل اللحم المشوي الذي يحبه جداً حتى انبسطت أساريره، وعفا عن بني إسرائيل وأعطاهم كل طلباتهم، وندم على ما نوى أن يفعله بهم.. وكتب ميثاقاً جديداً ليعطيهم أرض كنعان».

ورغم أنهم يقررون أن الله قد ندم في مواضع كثيرة من التوراة المحرفة، يأتي كلام مهم في سفر العدد (الإصحاح ٢٣: ١٩) «**ليس الله إنساناً فيكذب ولا ابن إنسان فيندم. هل يقول ولا يفعل أو يتكلم ولا يفي**». وهو كلام يدل على أنه من بقايا التوراة

الحقيقية وسط هذا الركام الفظيع الذي وضعه أحبار بني إسرائيل حتى غطوا على هـذه الجواهر المضيئة.

وعندما جعـل الرب طالوت ـ شاول ـ ملكاً على بني إسرائيل، فعل شاول جميـع الموبقات، وندم الرب أنه جعل شاول ملكاً.

جاء في سفر صموئيل الأول (الإصحاح ١٥: ١٠ ـ ١١):
وكان كلام الرب إلى صموئيل قائلاً: ندمت على أني قد جعلت شاول ملكاً، لأنه رجع من ورائي ولم يقم كلامي. فـاغتاظ صمـوئيل وصـرخ إلى الرب الليـل كله». . . «ولم يعد صموئيل لرؤية شاول إلى يوم موته لأن صموئيل ناح على شاول. والرب نـدم لأنه مَلَّكَ شاول على إسرائيل».

وفي سفر صموئيـل الثاني (الإصحـاح ٢٤): أن الرب غضب على بني إسـرائيل وجعـل فيهم وباء فقتـل سبعين ألف رجل. «وبسط المـلاك يده على أورشليم ليهلكهـا فنـدم الـربُّ عن الشـر. وقـال للمـلاك المهلك الشعب: كـفى، الآن رويـدك». (رقم ١٦). . . «وتقدم داوود وقال للرب: ها أنا أخطأت وأنا أذنبت وأما هؤلاء الخراف فماذا فعلوا. فلتكن يدك عليّ وعلى بيت أبي» «وقام داوود وصنع اللحم المشوي الذي يحبه الرب جداً وحَسُنَ في عيني الرب ما فعل داوود وتنسَّم نسيم الرضا عن الشعب». (سفر صموئيل الثاني، الإصحاح ٢٤: ١٧ ـ ٢٤).

وندم الرب مرة أخرى عندما جعل سليمان ملكاً، لأن سليمان حسب زعمهم عبد آلهة كثيرة وصنع لها المعابد وقرَّب لها القرابين ولم يكن مخلصاً لله.

ويغيّـر الـرب كـلامـه كـل خمس دقـائق في سفـر الملوك الأول (الإصحـاح ٢١ و٢٢): «وقـد غضب الرب على آخـاب وأرسـل الـروح القـدس ليضله، ولكن آخـاب تـواضع للرب فنـدم الرب على إغـوائه آخـاب. ثم عاد آخـاب وغضب الرب على ابن آخاب بدلاً منه، وجعل الشر عليه بدلاً من أبيه. . .«وندم الرب على أنه فعل الشر بابن آخاب أيضاً». . .

وفي سفر عامـوس (٧: ١ ـ ٣): «نشر الله الجـراد في أرض إسرائيـل عقوبـة لها فكلمه عاموس قائلاً: أيها السيد الرب أفصح كيف يقوم يعقوب ـ إسرائيل ـ فإنه صغير،

فندم الرب على هذا، وعندما غضب الرب على الملك حزقيا وقرر أن يميته، بكى حزقيا وقام وصلى، فندم الرب ورجع عن قراره وزاده خمسَ عشرة سنة من العمر. (سفر الملوك الثاني ٢٠ : ١ ـ ٦).

الرب يجلس في التابوت ويسكن وسط بني إسرائيل :

جاء في سفر الخروج (الإصحاح ٢٠): «وكلم الرب موسى قائلاً: كلم بني إسرائيل أن يأخذوا لي تقدمة. . ذهب وفضة ونحاس واسمانجوني وأرجوان وقرمز وبوص وشعر معزى وجلود كباش محمرة وجلود بخس وخشب سنط وزيت للمنارة وأطياب لدهن المسحة وللبخور العطر وحجارة جزع وحجارة ترصيع للرداء والصدرة، فيصنعون لي مقدساً لأسكن في وسطهم. . . فيصنعون تابوتاً من خشب» ثم تفصيل طويل ممل لطول التابوت وعرضه وارتفاعه وسبكه بالذهب وكيفية صنع القوائم وكيفية فرشه حتى يكون لائقاً بمسكن الله رب الجنود. . . ويستمر وصف التابوت والمذبح والمسكن والخيمة على مدار الإصحاح ٢٥ و٢٦ و٢٧ و٢٨ و٢٩ و ٣٠ بطريقة مملة ومزعجة جداً. . ويكون الكهنة من بيت هارون أبد الدهر. . ولكن هارون عليه السلام يكذبون عليه كما سيأتي ويقولون: إنه هو الذي صنع لهم العجل ليعبدوه. . وإنه سخر من موسى، وأنه عرى موسى ليهزأ الشعب بموسى. . وغضب الرب على هارون فعزله من وظيفة الكهانة الكبرى وعيّن بدلاً منه ابنه أليعازر. . ومات هارون في البرية مغضوباً عليه من الرب. كما مات بعد ذلك موسى مغضوباً عليه من الرب كما يدّعون.

وفي سفر صموئيل الثاني (الإصحاح ٦: ١٢ ـ ١٦): جاء أن داود وجميع الشعب أخذوا تابوت الله الذي يسمى رب الجنود الجالس على الكروبيم، وجروا التابوت على عجلة والرب جالس في التابوت يتفرج عليهم، وهم يرقصون فرحاً بعودته من الأسر ـ لعنة الله على اليهود ـ من عند الفلسطينيين بعد أن ضربهم الرب بالبواسير. وكان الرب جالساً في التابوت طوال الوقت. وداوود وكل الشعب يرقص ويغني ويلعب بالرباب، وينفخ بالمزمار، ويضرب بالدفوف والجنوك، ابتهاجاً بالنصر وبعودة رب الجنود الجالس على الكروبيم داخل التابوت من الأسر.

اختلاط مفهوم ملاك الرب والرب:

كثيراً ما يختلط على كاتب الأسفار في العهد القديم موضوع ملاك الرب بالرب ذاته. فتراه تارة يتحدث عن الملاك، ثم فجأة يصبح الملاك هو الرب ذاته. فقد جاء في سفر التكوين الإصحاح ١٨ ما يلي حكاية عن إبراهيم عليه السلام:

«وظهر له الرب عند بلوطات ممرا، وهو جالس في باب الخيمة وقت حر النهار، فرفع عينيه ونظر وإذا ثلاثة رجال واقفون لديه. فلما نظر ركض لاستقبالهم من باب الخيمة وسجد إلى الأرض وطلب منهم أن يدخلوا عنده ويسندون قلوبهم بوجبة سمينة، فدخلوا وأكلوا من العجل والسمين والخبز.. «ثم قام الرجال من هناك وتطلعوا نحو سدوم. وكان إبراهيم ماشياً معهم، فقال الرب: هل أخفي عن إبراهيم ما أنا فاعله» ثم كلم إبراهيم بما نوى أن يفعله بأهل سدوم وعموره وقال الرب إن صراخ سدوم وعموره قد كثر، وخطيئتهم قد عظمت جداً. أنزل وأرى هل فعلوا بالتمام حسب صراخها الآتي إليّ وإلا فأعلم. وانصرف الرجال من هناك وذهبوا نحو سدوم. وأما إبراهيم فكان لم يزل قائماً أمام الرب».. ويتكرر ذلك الخلط بين الرب وملاك الرب في قصة هاجر فتارة تسميه ملاك الرب وتارة الرب. وفي قصة شمسون تكلم ملاك الرب مع أم شمسون، ثم ذكر أن الذي تكلم هو الرب ذاته... ويتكرر هذا الخلط في مواضع كثيرة جداً من التوراة.

الرب يطلب من بني إسرائيل أن يضعوا علامة الدم على بيوتهم حتى يعرفهم:

جاء في سفر الخروج (الإصحاح ١١):

«وقال موسى هكذا يقول الرب: إني نحو نصف الليل أخرج في وسط مصر، فيموت كل بكر في أرض مصر من بكر فرعون الجالس على كرسيه، إلى بكر الجارية التي خلف الرحا وبكر كل بهيمة. ويكون صراخ عظيم في أرض مصر لم يكن مثله ولا يكون مثله. ولكن جميع بني إسرائيل لا يسنن كلب لسانه إليهم لا إلى الناس ولا إلى البهائم».. وطلب منهم أن يضعوا علامة على بيوتهم دماً حتى عندما يمر الرب وسط بيوتهم فيعرفها بعلامة الدم فلا يهلكها.. وإلا فإنه سيقع في الخطأ حسب زعمهم ولن يعرفها. (أيضاً سفر الخروج: ١٢).

الرب يطلب من بني إسرائيل سرقة المصريين حسب زعمهم :

قال الرب لموسى : تكلم في مسامع الشعب أن يطلب كل رجل من صاحبه وكل امرأة من صاحبتها أمتعة فضة وأمتعة ذهب . وأعطى الربُّ نعمة للشعب في عيون المصريين . وأيضاً الرجل موسى كان عظيماً جداً في أرض مصر في عيون عبيد فرعون وعيون الشعب (سفر الخروج ، الإصحاح ١١) .

وتمكن بنو إسرائيل بهذا أن يسرقوا أموال المصريين . وفعل بنو إسرائيل بحسب قول موسى . «طلبوا من المصريين أمتعةً فضةً وأمتعةً ذهباً وثياباً . وأعطى الربُّ نعمةً للشعب في عيون المصريين حتى أعاروهم فسلبوا المصريين» . (سفر الخروج ، الإصحاح ١٢ : ٢٥ ـ ٢٦) .

وتزعم التوراة والتلمود أن الله أمرهم بسرقة الأجانب ، لأن روح الأجنبي ملك لليهودي ، فكيف بماله . (سفر التثنية ٢٣ : ١٩ ، ٢٠) .

كما جاء في التوراة المحرفة (سفر التثنية ٢٣ : ١٩ ، ٢٠) أن الرب أمرهم بأن يقرضوا الأجنبي بالربا . . وفي التلمود أوامر مشددة بأن يضعفوا الربا على الأجانب حتى يستلبوا أموالهم . . وعليهم أن يغشوا وأن يسرقوا الأجانب ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً . وقد أوردنا جانباً وافراً من تلك التعاليم الشوهاء في كتابنا «المسيح المنتظر وتعاليم التلمود» فليرجع إليها القارىء الكريم ، وإلى غيرها من الكتب التي تعرضت للتلمود وتعاليمه مثل : الكنز المرصود في تعاليم التلمود للدكتور يوسف نصر الله . وكتاب : التلمود تاريخه وتعاليمه لظفر الإسلام خان ، وكتاب إسرائيل والتلمود لإبراهيم خليل أحمد .

زوجة موسى تخدع الرب كما يزعم سفر الخروج :

تصور التوراة المحرفة بأن صفورة امرأة موسى استطاعت أن تخدع الرب ، وتزعم التوراة المحرفة أن الرب قد غضب على موسى غضباً شديداً ، لأن موسى مثل بقية بني إسرائيل كان جباناً ورفض أمر الرب بالذهاب إلى فرعون خوفاً وفرقاً منه . . وأعلن الرب أنه سينزل ليقتل ابن موسى البكر لأن موسى رفض أن ينقذ ابن الله البكر من يد فرعون ـ لعنة الله أبد الدهر على هؤلاء اليهود ـ . ونزل الرب حسب زعمهم إلى الطريق وأخذ

يبحث عن ابن موسى البكر ليقتله. وكان ابن موسى طفلاً صغيراً يلعب في حواري مصر وأزقتها. . وهجم الرب الإلّه على الطفل الصغير ليقتله ولكن صفورة زوجة موسى كانت أسرع منه وأخذت الولد بسرعة. وبما أنها تعرف أن الرب يريد قتل ابنها فإنها احتالت عليه، وقطعت غُرْلَةَ الصبي بسكين كانت معها، وأخذت الدم ومست رجلي الرب بهذا الدم، وصاحت صفورة: «إنك عريس دم لي. فانفك الرب عن الصبي. حينئذ قالت صفورة: «عريس دم من أجل الختان». (انظر القصة كاملة في سفر الخروج، الإصحاح ٤ :٢٢ ـ ٢٦).

موسى يخاصم الرب حسب زعمهم:

جاء في سفر الخروج أن موسى قال لربه: «يا سيد لماذا أسأت إلى هذا الشعب ـ أي بني إسرائيل ـ لماذا أرسلتني؟ فإنه منذ دخلت إلى فرعون لأتكلم باسمك أساء ـ فرعون ـ إلى هذا الشعب. وأنت لم تخلص شعبك» (سفر الخروج، الإصحاح ٥: ٢٢ ـ ٢٣).

الرب يخشى من تجمع البشر ووحدتهم حسب افترائهم:

وقد جاء في سفر التكوين إن الرب الإله خشي على مملكته من الزوال وحكمه من الانهيار، عندما رأى البشر متحدين متحابين، يبنون مدينة كبيرة وبرجها في السماء. فدعا ملائكته ونزل وحطَّم مدينتهم، وبلبل ألسنتهم وفرقهم في الأرض، حتى لا ينافسوه في ملكه وملكوته. ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ

وإليك نص ما جاء في سفر التكوين (الإصحاح ١١ : ١ ـ ٩):

«وكانت الأرض كلها لساناً واحداً ولغةً واحدةً. وحدث في ارتحالهم شرقاً أنهم وجدوا بقعة في أرض شنعار وسكنوا هناك. وقال بعضهم لبعض هلم نصنع لبناً ونشويه شيّاً فكان لهم اللبن مكان الحجر، وكان لهم الحُمَرُ مكان الطين. وقالوا هلمَّ نبني لأنفسنا مدينة وبرجاً رأسه بالسماء. ونصنع لأنفسنا اسماً لئلا نتبدد على وجه كل الأرض. فنزل الربُّ لينظر المدينة والبرج اللذين كان بنو آدم يبنونهما. وقال الربُّ: هوذا شعب واحد ولسان واحد لجميعهم. وهذا ابتداؤهم بالعمل، والآن لا يمتنع

عليهم كل ما ينـوون أن يعملوه. هلمَّ ننزل ونبلبـل هناك لسـانهم حتى لا يسمع بعضهم بعضاً. فبدّدهم الرب من هناك على وجه كل الأرض، فكفوا عن بنيان المدينة. لـذلك دُعي اسمها بابل لأن الربَّ هناك بلبل لسان كل الأرض. ومن هناك بدَّدهم الـربُّ على وجه كل الأرض».

وهكـذا تصور التـوراة المحرفـة المولى سبحـانه وتعـالى وهو يخشى من معـرفـة الإنسان فيطرد آدم من الجنة لأنه أكل من شجرة المعـرفة. . ويـطرد البشر من مـدينتهم التي اجتمعـوا فيهـا متحـابين متآخين لهم لســان واحـد. . لأن الــرب حسب زعمهم لا يستطيع أن ينتظر حتى يبنوا مدينتهم وينافسوه في ملكوته. . وكأنما هو مستعمر أوربي يسـيـر على سياسـة فرّق تسـد. ففرق البشـر حتى يحكم قبضته عليهم. . وهـو تصور مسفٌّ بـل موغـل في الإسفاف والحقـارة. . وهو يـوضح تمـاماً سيـاسة يهـود وسيـاسـة الأوربيين نحو غيرهم من الشعوب التي اقتبسوها من تعاليم العهد القديم. .

الرب يعشق المحارق واللحم المشوي حسب زعمهم:

تـرسم التوراة المحـرفة للرب الإلـه صورة كـريهـة جـداً. فهـو رب يحب اللحم المشـوي جـداً. ومستعـد أن يتنـازل عن كـل شيء في سبيـل وجبـة دسمـة من اللحم المشوي تقدم له كقربان. . والتوراة من أولها لآخرها تذكر القرابين المشوية. ولا يكـاد إصحـاح واحـد يخلو من ذكـر هـذه القـرابين، ومن اللحم المشـوي. وفي الإصحـاح الواحد عشرات المرات، في بعض الأحيان لدرجـة تسبب الغثيان وضيق النفس والـربو من كثرة دخان اللحم المشوي.

ولا نرى الأنبياء من لـدن آدم إلى آخر أنبيـاء بني إسرائيـل يعبدون الله أو يـدعون النـاس إلى عبادة الإلـه الـواحد الأحـد. . ولا نـراهم يـأمـرون بمعـروف أو ينهـون عن منكـر. . بل نجـدهم هم والكهنـة مشغـولـون جـداً بقضيـة اللحم المشـوي، والـذين يحصلون بموجبه على جميـع طلباتهم، بمجرد أن يتنسـم الـرب رائـحـة المشـوي، تنبسط أسـاريره، ويفعـل لهم ما يشـاءون: تعذيب الأمم الأُخـرى. قتلها. . حـرقهـا، يـدخل المعـارك معهم في وسطهم داخـل التابـوت، ويقـاتـل معهم، يعـطيهم أراضي الغير. . يجعل الكل عبيداً لهم. ولا يهم بعد ذلك إن عبدوا الأوثان أو سرقوا الأمـوال،

كما لا يهم أن يكون اللحم المشوي من عجول وأغنام مسروقة، كما يزعمون أن يعقوب سرق أغنام خاله وقدم اللحم المشوي للرب فتنسم الرب نسيم الرضا بعد أن امتلأت خياشيمه بدخان المشوي. . وأعطى يعقوب العهد له ولأولاده، وأعطاهم أرض فلسطين. . وأعطاهم الأرض حولها من النيل إلى الفرات. . إلخ.

ويبدأ مسلسل اللحم المشوي بأن هابيل قرب لحماً سميناً، بينما قدم أخوه قابيل شيئاً قليلاً من ثمار الأرض «فنظر الرب إلى هابيل وقربانه، ولكن إلى قابين وقربانه لم ينظر. فاغتاظ قابين جداً» (سفر التكوين الإصحاح ٤ : ٣ ـ ٦). . وأدى ذلك إلى أن يقوم قابيل بقتل أخيه وارتكاب أول جريمة على الأرض. .

والمنظر الثاني يأتي بعد أن أغرق الله الأرض بالطوفان. . وما تكاد السفينة تستقر على جبل أراراط حتى يخرج نوح ويقدم قرباناً للرب: «وبنى نوح مذبحاً للرب. وأخذ من كل البهائم الطاهرة ومن كل الطيور الطاهرة **وأصعد محرقات على المذبح. فتنسَّم الربُّ** رائحة الرضا. **وقال الرب في قلبه لا أعود ألعن الأرض أيضاً من أجل الإنسان**» (سفر التكوين، الإصحاح ٨ : ٢٠ ـ ٢٢).

ويظهر إبراهيم عليه السلام فلا نراه يدعو إلى الله، وإلى توحيده، ولا ينكر على قومه ما هم فيه من عبادة الأوثان، ولا ترد قصته مع النمرود ولا مجادلته له، ولا قصته مع أبيه. **بل كل ما يرد أن إبراهيم يقدم محرقات للرب فيتنسم الرب رائحة اللحم المشوي «فيقول الرب لإبرام:** اذهب من أرضك **وعشيرتك ومن** بيت أبيك **إلى الأرض التي أريك. فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظّم اسمك**» (سفر التكوين، الإصحاح ١٢). . وبعد رحلات طويلة يعود إبراهيم من مصر وقد ملك أموالاً ضخمة من الذهب والفضة والأغنام التي أعطاها له فرعون مصر عندما قدم إبراهيم زوجته سارة ليتزوجها فرعون حسب زعمهم.

وقدم إبراهيم اللحم المشوي مرة أخرى. «**في ذلك اليوم قطع الربُّ** مع إبرام **ميثاقاً قائلاً: لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات. القينيين والقنزيين والقدمونيين والحثيين والفرزيين والرفائيين والأموريين والجرجاشيين واليبوسيين**». (سفر التكوين، الإصحاح ١٥ : ١٨ ـ ٢٠).

دم الختان:

«وقال الله لإبراهيم وأما أنت فتحفظ عهدي. أنت ونسلك من بعدك في أجيالهم. هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك. يختن منكم كل ذكر. فتختتنون في لحم غرلتكم فيكون علامة عهد بيني وبينكم. ابن ثمانية أيام يختن منكم كل ذكر في أجيالكم» (سفر التكوين، الإصحاح ١٧: ٩ ـ ١٢) «وأما الذكر الأغلف الذي لا يُختن في لحم غرلته فتقطع تلك النفس من شعبها أنه قد نكث عهدي».

المهم رائحة المشوي ودم الغرلة.. ولا يهم بعد ذلك أن يقتل أو يسرق أو يزني أو أن يعبد الأوثان.. علامة العهد دم الغرلة.. وعلامة الرضا اللحم المشوي..

ويتكرر منظر اللحم المشوي ويقدّم إبراهيم حسب زعمهم قرباناً وراء قربان للحصول على مزيد من المنافع الدنيوية، حتى إنه قرر أن يقدم ابنه إسحاق قرباناً. وسُرَّ الرب جداً بهذا القربان، وأنزل كبشاً بدلاً منه ليذبح ويشوى.. وقطع الرب مزيداً من العهود لإبراهيم، بأنه سيعطيه أرض الكنعانيين وجميع الأراضي حولها من النيل إلى الفرات.. ستكون جميع هذه الأراضي لنسله أبد الآبدين!!

وقام إسحاق بالدور ذاته، وقدم المحرقات وحصل على مزيد من العهود والمواثيق. وأما يعقوب فقد قدم اللحم المشوي عدة مرات، من الغنم الكثيرة التي سرقها من خاله لابان. جاء في سفر التكوين الإصحاح ٢١: «وأما لابان فكان قد مضى ليجزَّ غنمه. فسرقت راحيل أصنام أبيها. وخدع يعقوبُ قلبَ لابان الأرامي. إذ لم يخبره أنه هارب، فهرب هو وكل ما كان له. وقام وعبر النهر وجعل وجهه نحو جبل جلعاد».. وما أن علم لابان بهروب يعقوب مع ابنتيه والغنم الذي سرقه يعقوب وتماثيل الذهب، فلحق به لابان ولكن الرب إله يعقوب وإسحاق وإبراهيم كلَّم لابان في الليل قائلاً: «احترز من أن تكلم يعقوب بخير أو شر.. ولكن لماذا سرقت آلهتي؟» وحلف يعقوب أنه لم يسرق هذه الآلهة لأن زوجته راحيل هي التي سرقت الآلهة المصنوعة من الذهب».. وقال يعقوب: «إله إبراهيم وآلهة ناحور آلهة أبيهما يقضون بيننا. وحلف يعقوب بهيبة أبيه إسحاق. وذبح يعقوب ذبيحة من الجبل» وهكذا يبدو يعقوب وهو يقسم بمجموعة من الآلهة مع إله أبيه.

ومن الـواضح جـداً أن الله حسب زعم التوراة يحب شيئين اثنين حباً جماً. . . وهما اللحم المشوي والـدم. . ويجعل عهـده مع إبـراهيم دم الختان. . وتنقـذ صفورة زوجـة موسى ابنهـا من يدي الـرب بأن تقـطع غرلـة الصبي وتمسـح رجلي الإلـه بـدم الختـان، وتقول لـه: عريس دم من أجـل الختان، فينفـك عن الصبي قـائـلاً: عـريس دم. . . ويطلب الرب من بني إسرائيل أن يضعوا الدم علامة على بيـوتهم حتى يعرفهـا عندما يمر في الليل ويهلك كل بكر من المصـريين ودوابهم، من بكر فـرعون إلى بكـر الجارية التي خلف الرحا. . . وتتطور عقيدة الدم هذه في تعـاليم التلمود، حتى تصبـح عقيدة راسخة يقتلون فيها في كل سنة إنساناً غير يهودي، ويستحسن أن يكون نصرانياً. ويستخدمون دمه لصناعة الفطير المقدس الذي يحبه الرب جداً والـذي يأكـل منه كبـار الأحبار والكهنة.

وتقول دائرة المعارف اليهودية: «إن كان هنـاك من أساس أقـرَّ من قبل الحكمـاء اليهود، فهو حقيقة القرابين البشرية التي تقدم للإلـه يهوه ملك اليهود، والتي بـوشر في تقديمها في أواخر عهد الملكية اليهودية» أي بعد عصر سليمان عليه السلام.

وممـا تقدم نخلص إلى أن صفـات الله سبحـانـه وتعـالى في التـوراة والتلمـود، لا يمكن أن تكون صفات لله خـالق الأكوان ومـدبرهـا. . بل لا يمكن أن تكـون إلا من صفات أراذل البشر.

هـذا قليل من كثيـر من هذه الافتـراءات والغثاء والكـذب والتجـديف في وصف المولى سبحانه وتعالى. . والتـوراة والعهد القـديم والتلمود كلهـا مليئة بهـذه الأوصاف المنكرة والسجايـا الخبيثة التي لا يمكن أن يـوصف بها إلا أحط البشـر وأراذلهم فكيف يمكن أن يوصف بها المولى سبحانه وتعالى.

● ● ●

آدم (عليه السلام)

يقصُّ سفر التكوين من التوراة (المحرفة) التي بأيدينا علينا بداية الخلق من أولها. وقد تنبّه الدكتور موريس بوكاي في كتابه القرآن والتوراة والإنجيل والعلم الحديث، إلى التناقضات الكثيرة، التي وقع فيها كاتبو التوراة (المحرَّفة)، وإلى الخرافات والأساطير التي ابتدعوها، والتي تشابه من وجوهٍ ما هو موجود في خرافات وأساطير كثير من الأمم السابقة، مثل الآشوريين والمصريين القدماء، كما إن فيها ما هو من كلمات الحق سبحانه وتعالى التي جاء بها موسى عليه السلام.

ويبدأ سفر التكوين الإصحاح الأول بقوله: «في البدء خلق الله السموات والأرض، وكانت الأرض خربة وخالية، وعلى وجه القمر ظلمة. وروح الله يرفُّ على وجه المياه. وقال الله: ليكن نور، فكان نور. ورأى الله النور أنه حسن. وفصل الله بين النور والظلمة. ودعا الله النور نهاراً والظلمة دعاها ليلاً. وكان مساء وكان صباح يوماً واحداً.

وفي اليوم التالي عمل الله جلداً فاصلاً بين مياه ومياه... ودعا الله الجلد سماء.. وفي اليوم الثالث اجتمعت المياه تحت السماء في مكان واحد وظهرت اليابسة منفصلة عن البحر. وأنبتت الأرض عشباً وبقلاً وشجراً.

وفي اليوم الرابع قال الله: لتكن أنوار في جلد السماء لتفصل بين النهار والليل، فصنع النورين العظيمين: النور الأكبر لحكم النهار، ـ المقصود الشمس ـ والنور الأصغر لحكم الليل ـ المقصود القمر ـ.

وفي اليوم الخامس خلق الله الطيور والتنانين - جميع تنّين - العظام، وكل ذوات الأنفس الحية التي فاضت بها المياه. وفي اليوم السادس صنع الله البهائم والوحوش ثم **قال الله: نعمل الإنسان على صورتنا.. كشبهنا»** (سفر التكوين ١ : ٢٥) - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - .

وأما ما يروى في الحديث أن الله خلق آدم على صورته، فمعناه أن الله خلق آدم على صورته التي خلقه عليها.. وليس معناه أن آدم على صورة الله سبحانه وتعالى.. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. وفي الحديث أن رجلاً كان يضرب عبده فقال له الرسول: «إن الله قد خلق آدم على صورته - أي على صورة ذلك العبد - فلا تضربه»(١).

وتزعم التوراة المحرفة أن الله تعب من خلق السموات والأرض والبهائم والوحوش وخلق الإنسان، فاستراح في اليوم السابع وقدسه.

جاء في الإصحاح الثاني من سفر التكوين:

«وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل، فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل. وبارك الله اليوم السابع وقدَّسه لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل الله خالقاً»- تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - . قال تعالى في القرآن الكريم نافياً ذلك الزعم الخبيث.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾. (سورة ق: آية ٣٨)

أي من تعب أو نصب.

قصة خلق آدم في التوراة (المحرَّفة):

(سفر التكوين، الإصحاح ٢).

«وجبل الربُّ الإلّه آدمَ تراباً من الأرض. ونفخ في أنفه نسمة حياة، فصار آدم

(١) ذكره الإمام علي الرضا بن موسى الكاظم عن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الإمام الحسين السبط بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رواه عن آبائه.

نفساً حيةً. وغرس الرب الإلّـه جنة عَـدْن شرقـاً، ووضع هنـاك آدم الذي جبله. وأنبت الرَّبُّ الإلّـه من الأرض كل شجرة شهية للنظر وجيدة لـلأكل. **وشجـرة الحياة في وسط الجنة، وشجرة معرفة الخير والشر».**

«وأوصى الـرب الإله آدم قـائلاً من جميـع شجر الجنـة تأكـل أكلاً. وأمـا شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها لأنك يوم تأكل منها تموت موتاً».

الصراع بين الله والإنسان من أجل العلم:

وهذه النظرة الغريبة التي تصور أن الله يخاف من أن يعـرف آدم الأمور، ويعـرف الخير والشر، هي أساس الصدام بين العلم والكنيسة. والعهد القديم يصور الصراع بين الإنسان الذي يريد أن يعرف، والله الذي يزعمون كذباً وبهتاناً أنه لا يريـد للإنسـان أن يعرف.

وهذه النظرة موجودة لدى الإغريق القدماء، حيث يزعمون أن زيوس كبير الآلهـة وضع حراسة على نار المعرفة، فجـاء إنسان يـدعى بروميثيـوس وتسلل حتى وصل إلى نـار المعرفـة، وأخذهـا وفرَّ بهـا. ولكن زيوس رب الأربـاب عندهم (ويسميـه الرومـان جوبيتير) عاقبه إلى الأبد، بأن يرفع صخرة إلى قمة جبل الأولمب، وما يكـاد يصل إلى قمة الجبل بعد جهد جهيد حتى تتدحـرج الصخرة وتصـل إلى أسفل الـوادي، فيذهب بـروميثيوس مـرة أخرى ليـزحزحهـا ويدفعهـا دفعاً مـرة أخرى حتى يصـل بهـا إلى قمـة الجبـل، وهناك تنـدفع الصخـرة منه وتنفلت لتصـل إلى الوادي السحيق، وهكـذا يظلُّ بروميثيوس في هذا العذاب لأنه تجرأ وسرق نار المعرفة.

فـالله أو رب الأرباب في الأسـطورة الإغريقيـة، وفي أسطورة التـوراة المحرفـة، يرتعب من الإنسان الذي يعرف..

وعندما أكل آدم من شجرة المعـرفة، كمـا تزعم التـوراة المحرفـة، بغوايـة حواء التي أغرتها بها الحية، **«قال الرب الإلّـه هوذا الإنسان قد صار كواحد منا عارف الخير والشر»** ـ كأن هناك آلهة كثيـرة ـ **«والآن لعله يمدُّ يـده ويأخـذ من شجرة الحيـاة أيضاً، ويأكل ويحيا إلى الأبد** ـ ويا لها من جريمة شنعاء يرتكبهـا الإنسان لأنـه يريـد أن يعرف

وأن يخلد في الأرض ـ فأخرجه الربُّ الإله من جنة عدن ليعمل الأرض التي أُخذ منها. فطرد الإنسان وأقام شرقي جنة عدن الكروبيم ـ أي الملائكة الكروبيين لحراستها، حتى لا يأتي آدم ويأكل من شجرة الحياة أيضاً ـ ولهيب سيفي متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة» (سفر التكوين، الإصحاح الثالث: ٢٣، ٢٤).

وتصور التوراة المحرفة الله سبحانه وتعالى وكأنه بشر يمشي ويتحرك، وينام ويصحو، ويبكي ويفرح، ويندم على أفعاله، كما قد مر معنا. وها هنا تزعم التوراة أن الله لم يعلم بأن آدم أكل من شجرة المعرفة إلا بالصدفة، عندما كان الله ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ يتمشى في الجنة، واختبأ آدم من وجه الرب هو وزوجته حواء. «فنادى الربُّ الإلَـه آدم وقال له: أين أنت؟ ـ يا لهذه الصورة المزرية لإلَـه لا يعرف أين يختبىء منه عبده ـ فقال ـ آدم ـ: سمعت صوتك في الجنة فخشيت، لأني عريان، فاختبأت. فقال ـ الرب ـ: من أعلمك أنك عريان؟ هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك أن لا تأكل منها؟ فقال آدم: المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني من الشجرة فأكلتُ. فقال الربُّ الإلَـه للمرأة: ما هذا الذي فعلتِ؟ فقالت المرأة: الحية غرَّتني فأكلتُ. فقال الربُّ الإلَـه للحية: لأنك فعلت هذا ملعونة أنتِ من جميع البهائم، ومن جميع وحوش البرّية، على بطنك تسعين، وتراباً تأكلين كل أيام حياتك. وأضع عداوة بينك وبين المرأة وبين نسلك ونسلها. هو يسحق رأسك وأنت تسحقين عقبه. وقال للمرأة تكثيراً أكثِّرُ أتعاب حبلك. بالوجع تلدين أولاداً. إلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسودُ عليك. وقال لآدم: لأنك سمعت لقول امرأتك وأكلتَ من الشجرة التي أوصيتك قائلاً لا تأكل منها، ملعونة الأرض بسببك»[1] (سفر التكوين، الإصحاح ٣).

وتصور التوراة المحرفة أن آدم عندما نزل إلى الأرض وكثرت ذريته كان من ذريته أبناء الله تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. جاء في سفر التكوين، الإصحاح ٦: «وحدث

---

(١) هكذا تزعم التوراة المحرفة. وإذا كانت الأرض ملعونة بسبب آدم، فهو بالأولى ملعون حسبما يزعمون، وهو صاحب الخطيئة الأولى التي يحملها بنو آدم جميعاً دون ذنب اقترفوه، ولا جريرة أقدموا عليها، سوى أنَّ أباهم آدم أكل من شجرة المعرفة. وبما أن الله، كما تصوَّره التوراة المحرَّفة، عدوّ للعلم والمعرفة، فقد غضب من ذلك غضباً شديداً. . ولعن آدم وزوجته والحية والأرض من أجل ذلك.

لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض وولـد لهم بنات، أن أبنـاء الله ـ تعالى الله عن ذلـك علواً كبيـراً ـ رأوا بنـات النـاس أنهن حسنـات، فـاتخـذوا لأنفسهم نسـاء من كـل ما اختاروا. فقـال الرب: لا يـدين روحـي في الإنسان إلى الأبـد، لزيغـانه هـو بشر» ـ وهكـذا تحول الإنسـان من إله إلى بشـر كما تـزعم التـوراة ـ . . . **«وبعـد ذلـك أيضـاً إذ دخـل بنو الله على بنـات الناس وولـدن لهم أولاداً. هؤلاء هم الجبابـرة الـذين منـذ الدهر ذوو اسم»**.

وهكذا تزعم التوراة المحرفة أن الجبابرة والفراعنـة هم من نسل الله ـ تعـالى الله عن ذلك ـ وهي نفس مقولة الفراعنة والجبابـرة ونمرود. وتـوجد هـذه النظرة لـدى الأمم القديمة ابتداء من الصين واليابـان شرقـاً، مروراً بـالهند وفـارس والعراق (الآشـوريين) وسوريا الكبرى واليونان ومصر.

وتستمر التوراة في الهراء والسخف فتقول: **«ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثـر في الأرض وأن كل تصور أفكار قلبه إنمـا هو شـرير كـل يوم. فحـزن الرب أنـه عمل الإنسان في الأرض وتأسف في قلبه. فقال الرب: أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته»** سفر التكوين. . الإصحاح السادس.

وقد تقدم ذكر قصة مدينة بابل (سفر التكوين، الإصحاح ١١)، وأن الرب بلبلهـا وحطمها خوفاً من اتحاد بني البشر.

وهي صورة وقحة وغبيـة جداً حيث تصـور الله سبحانـه وتعالى في صـورة إنسان حقود، وكأنه أحد جبابرة الأرض لا يرضى حين يرى الناس متـآلفين متحابين متّحـدين، لأنه يخشى على ملكه من اتحادهم ووحدتهم. وكأنما هو الاستعمار يحكم بمبدأ «فرق تسد». ولعل هذا المبدأ الخبيث الذي استخدمه الأوربيون على نـطاق واسع جـداً أثناء إنشاء مستعمراتهم المختلفـة، إنما يستمـد أركانـه من سفر التكوين الإصحاح١١ الذي نقلناه آنفاً. ويا لها من صورة مزرية لله سبحانه وتعالى ترسمها التـوراة المحرفـة، حيث تصور المولى ـ تعالى الله عما يقول الظالمون ـ بأنه حقود ويخشى على نفسه من معرفة الإنسان، كما يخشى على سلطانه وملكه من اتحاد بني البشر ووحدتهم وإخائهم. وهو يعمل دائماً مثل يهود ـ لعنـات الله عليهم ـ ليفرق كلمـة البشريـة، ويثير فيهـا الأحقاد،

ويزرع الضغائن، ويبلبل الألسنة، وينشر الحروب ﴿كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله . . . ويسعون في الأرض فساداً﴾.

لهذا كله فإن التوراة تعبر عن أحقاد يهود، وتصورات يهود، وآمال يهود. وليس فيها من التوراة الحقيقية التي أنزلها الله سبحانه وتعالى على موسى عليه السلام إلا النزر اليسير، والمدفون وسط ركام الأكاذيب والافتراءات على الله وعلى أنبيائه وملائكته كما سنوضحه.

الصورة المغايرة التي يعرضها القرآن الكريم:

يعرض القرآن الكريم صورة مغايرة كل المغايرة لهذه الصورة الخبيثة المنكرة والمليئة بالحقد التي تصور بها التوراة رب العالمين، وهو يخلق آدم ويرتعب منه عندما يبحث عن المعرفة . . ويكره أبناء آدم عندما يكونون متوحدين لهم لسان واحد وقلب واحد . . ولا يعيش إلا بالمكر والخداع وبسياسة فرّق تسد.

وقد جاءت قصة خلق آدم في القرآن الكريم في عدة سور، منها سورة البقرة، وسورة آل عمران، وسورة النساء، وسورة الحجرات، وسورة الأعراف، وسورة الحجر، وسورة الإسراء، وسورة الكهف، وسورة طه، وسورة صّ، وغيرها من السور.

ولم ترد قصة الخلق كاملة في سورة واحدة وإنما أتت منها مقاطع هنا وهناك، ولفتات سريعة في بعض السور، وبتفصيل في سور أخرى . . وفي كل مرة تأتي إضافة جديدة لمعنى جديد، أو لمحة هنا لإشارة لمغزى من مغازي القصص القرآني الذي هو في قمة الإعجاز من حيث الصياغة والحبكة الفنية، مع أدائه الغرض الأساسي منه، وهو الموعظة والعبرة.

وقد خلق الله سبحانه وتعالى آدم ليكون خليفة في الأرض. قال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

(البقرة: ٣٠).

واختلف أهل العلم في معنى خلافة آدم عليه السلام. فمنهم من قال: إنه كان خليفة لجنس سابق كان مسلطاً على الأرض، فأفسد فيها وسفك الدماء. وأغلب المفسرين القدامى على أن هذا الجنس كان من الجن. ونحن نعلم يقيناً أن الأرض قد امتلأت بالمخلوقات قبل آدم عليه السلام بمئات الملايين من السنين. ومنها

الديناصورات الهائلة الأحجام، المخيفة الأشكال التي كان الواحد منها في ضخامة العمارة الكبيرة أو التل. وعظام هذه الديناصورات موجودة في المتاحف العالمية - لندن، نيويورك، باريس، برلين - . . وقد حكمت الأرض لبضع مئات الملايين من السنين. ثم أبادها الله سبحانه وتعالى واختفت من مسرح الحياة على الأرض. واختلفت النظريات العلمية في كيفية إبادتها، فمن قائل إنها أرسلت عليها نيازك كبيرة من السماء فأحرقتها وأهلكتها جميعاً - وهذه هي آخر النظريات في هذا الباب - ومن قائل إن عصراً جليدياً زحف على الأرض ولم تستطع هذه المخلوقات الهائلة أن تقاوم البرد الشديد القارس، والمجاعة المخيفة المرعبة، فماتت جميعها. وأياً كان سبب هلاكها فإن المحقق أن هذه المخلوقات الضخمة الهائلة التي حكمت الأرض ملايين السنين قد اندثرت تماماً ولم يبق منها شيء سوى بعض الهياكل العظيمة المتحجرة والمبعثرة هنا وهناك.

والقول الثاني في معنى الخلافة: هو أن آدم خليفة لله تعالى في إمضاء أحكامه وأوامره، لأنه أول نبي ورسول إلى الأرض. وقد ورد أن أبا ذر سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن آدم: أنبياً كان مرسلاً. فقال المصطفى صلى الله عليه وسلم: نعم. فقيل: لمن كان رسولاً ولم يكن في الأرض أحد؟ قال كان رسولاً إلى أبنائه[1].

واستدل أصحاب القول الأول بقول الملائكة: ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك﴾، وقال: إن الملائكة علمت ذلك بما شاهدته من المخلوقات التي كانت مسلّطة على الأرض فأفسدت فيها، وسفكت الدماء، وأهلكت الحرث والنسل.

وأياً ما كان القول الفصل في هذه النقطة، فإن ذلك لا يغيّر من حقيقة خلافة آدم عليه السلام وتكريم الله له. كما أن أهل التفسير قد اتفقوا على أن آدم كان آخر المخلوقات خلقاً على الأرض. وقد رُوي ذلك عن الحسن البصري والإمام جعفر الصادق بن محمد الباقر ابن علي زين العابدين وغيرهما من أهل العلم.

وقد خلق الله سبحانه وتعالى آدم من طين ثم سواه ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وكرّمه بالعلم. قال تعالى:

---

(١) ذكره ابن كثير في كتابه «قصص الأنبياء» (ص ٥٤)، وذكره في التفسير، كما رواه ابن حبان في صحيحه عن أبي ذر، رضي الله عنه.

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ
إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ
﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟
إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾. (البقرة: ٣١ ـ ٣٤).

وقال تعالى:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ
وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ
أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ
بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ
فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ
﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ
﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن
تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾. (سورة ص: ٧١ ـ ٨٥).

وقال تعالى في سورة الأعراف:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ
لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ
وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾.
(الأعراف: ١١ ـ ١٣).

فآدم عليه السلام في القرآن الكريم مخلوق مكرم معزز. خلقه الله من طين، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وكرمه بالعلم. وهي صورة مغايرة تماماً لما ورد في التوراة المحرفة التي بين أيدي الناس اليوم.

ونحب أن ننبه هنا إلى نقطتين هامتين يغلط فيهما بعض الناس:

● **أولهما**: أن الله قد خلق آدم على صورته. وليس المقصود قطعاً أن خلق آدم على صورة الله سبحانه وتعالى، ـ تعالى الله عما يقولون الظالمون ـ بل هو على صورة آدم إذ أن الله ليس كمثله شيء، ولا يقول ذلك إلا اليهود والنصارى بناء على ما هو موجود لديهم في التوراة المحرفة(١).

● **وثانيهما**: أن الله خلق آدم ونفخ فيه من روحه. وليس المقصود قطعاً «من ذات الله»ـ تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً ـ. والروح يطلق على معانٍ عدة: منها جبريل عليه السلام، ومنها الوحي، ومنها الروح التي بها حياة البدن في الإنسان، ومنها حياة القلوب، ومنها أمر الله. فهو مخلوق بأمر الله سبحانه وتعالى. والإضافة إلى المولى سبحانه وتعالى إضافة تشريف فقط كما وصف سبحانه وتعالى البيت بأنه بيت الله، والناقة بأنها ناقة الله، والعبد بأنه عبد الله، وعيسى عليه السلام بأنه روح الله، وهكذا... والروح مخلوقة مربوبة. وهي من أمر الله ﴿ويسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربي. وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾.

النقاط التي تختلف فيها قصة خلق آدم عليه السلام في القرآن عمّا هو في التوراة المحرفة:

(١) جاء في التوراة المحرفة: «ثم قال الله نعمل الإنسان على صورتنا، كشبهنا». وهو تصريح بأن آدم يشبه الله في خلقته وصورته ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ. ولهذا نجد مايكل أنجلو يرسم الله في صورة بشر في كنيسة سانت بيتر في روما. وهي أكبر كنائس النصارى الكاثوليك. واليهود والنصارى يجسمونه ويظنون أن الإنسان يشبه في صورته صورة الله.

(٢) لا يرد ذكر عن قول الملائكة ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك﴾.

(٣) لا يرد شيء عن تعليم الله لآدم الأسماء كلها، وتفضيله على الملائكة بالعلم

---

(١) وقد ورد عن الإمام علي الرضا أن رسول الله رأى رجلاً يضرب عبداً، فقال له موبّخاً: «أتضربه والله قد خلق آدم على صورته؟»، أي على صورة ذلك العبد. والناس جميعاً لآدم.

والقـدرة على التعلم وفتح بـاب المعرفـة له، وأن هـذا الباب هـو أقرب الأبـواب للوصول إلى الله سبحانه وتعالى. بل على العكس من ذلك يرد في التوراة أن الله يرتعب خوفاً وفرقاً عندما يعلم بطريق الصدفة أن آدم قد أكل من شجرة المعرفـة. كما يرد في التوراة المحرفة أن الله ارتعب خوفاً وفرقـاً ـ تعالى الله عن ذلـك علواً كبيراً ـ عندما اتحد أبناء آدم وصار لهم لسان واحد وقلب واحـد. وبدأوا في بنـاء مدينتهم.

(٤) لا يرد شيء في التوراة المحرفة عن الملائكة وسجودهم لآدم عليه السلام.

(٥) لا يـرد شيء مطلقـاً في التوراة المحـرفة عن إبليس وتكبـره وإبائـه السجود لآدم، وعداوته، وإغوائه له عليه السلام. حتى أكل من الشجرة التي حرّمها الله على آدم والتي لم يأكل منها آدم تجبراً وعناداً لأمر الله، بل انخداعاً بالأيمـان الكاذبـة التي حلفهـا له إبليس اللعين، حيث لم يكن يتصـور أن هناك مخلوقـاً يمكن أن يحلف بالله العظيم كاذباً. وعصيانه كان من باب النسيـان، ومن باب الغـواية، ومن بـاب الرغبة في الخلود في نعيم الجنة التي كان فيهـا. قال تعـالى: ﴿ولقد عهـدنا إلى آدم من قبل فنسيَ ولم نجد له عزماً﴾ (طه: ١١٥).

(٦) تزعم التوراة المحرفة أن الحية ـ وليس إبليس ـ هي التي أغوت حواء لتأكـل من شجـرة المعرفـة. وحـواء أغـرت آدم بـالأكـل من الشجـرة. لهـذا لعن الله حسب زعمهم الحية وحواء وآدم والأرض. وتبقى الخطيئة على كـل إنسان من نسـل آدم عليـه السلام. ويـزعم النصارى أن الله أنـزل ابنه عيسى (عليـه السـلام) ليخلص البشرية من خطيئتها هذه بأن يصلب ويذبح كالنعاج. وهي صورة مزرية ومضحكة وغارقة في السخف والبلاهة والبلادة.

(٧) تتحمل حواء جريرة أكـل آدم من الشجرة، حسب مـزاعم التوراة. ولهـذا فالمـرأة ملعونة في تعـاليم التوراة، وهي مخلوق ممحض للشـر وداعٍ إليه. وهـذه الصورة مناقضة تماماً لما في القرآن الكريم من اعتبار المسؤول الأول في قصـة الأكل من الشجرة المحرمة هو آدم عليه السلام، وتتبعه بعد ذلك زوجته.

(٨) لا يرد شيء مطلقاً في التوراة المحـرفة عن تـوبة آدم وحـواء، وعن اجتباء الله لآدم

واصطفائه له. بل تصور التوراة أن الله طرد آدم من الجنة، ووضع عليها حراسة مشددة من الملائكة الكروبيم ـ الكروبيين ـ ، ومن لهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة ـ شجرة الخلد ـ حتى لا يذهب إليها آدم ويأكل منها. قال تعالى مخبراً عن آدم وحواء:

﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾. (الأعراف: ٢٣).

(٩) لا يرد شيء مطلقاً عن أن آدم رسول ونبي، وأنه عبدالله موحداً. بل يرد في التلمود ـ وهو أهم عند اليهود من التوراة ذاتها لأنه من تأليف الأحبار الذين لا يخطئون ولا يمكن أن تنقض تعاليمهم ولو بأمر الله ـ[1] أن آدم كان زانياً، وله خليلة من الشياطين تسمى ليليت، ومكث معها ١٣٠ سنة، وأنجب منها أولاداً كثيرين. كما أن حواء كانت تخالل حسب زعمهم الكاذب عدداً كبيراً من الشياطين، وأنجبت منهم عدداً من الأولاد ذكوراً وإناثاً.

(١٠) بما أن آدم مخلوق من ذات الله ـ تعالى الله عن ذلك ـ وهو على صورة الله، فإن أبناء آدم الأول هم من نسل الله. ولكن هذا النسل تزوج من بنات الناس!! ولكن من هم بنات الناس؟ لا توضح التوراة، ولعلها تقصد الشياطين الذين أنجبهم آدم من عشيقته ليليت، وحواء من عشاقها الكثيرين من الشياطين.

جاء في سفر التكوين (الإصحاح ٦):

«وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض، وولد لهم بنات، أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات، فاتخذوا لأنفسهم نساءً من كل ما اختاروا. فقال الرب: لا يدين روحي في الإنسان إلى الأبد لزيغانه، هو بشر، وتكون أيامه مائة وعشرين سنة». ولذلك تحول الإنسان الإلهي إلى بشر عادي ما عدا الجبابرة «الذين هم ذوو اسم منذ الدهر» فإنهم من نسل أبناء الله على بنات الناس!!! «وبعد ذلك أيضاً إذ دخل

---

(١) انظر كتابنا: «المسيح المنتظر وتعاليم التلمود». الدار السعودية ـ جدة، ١٩٨٧م؛ وكتاب «الكنز المرصود في تعاليم التلمود»، ليوسف نصر الله (دار القلم)، ١٩٨٧م؛ وكتاب «التلمود»، لظفر الإسلام خان، دار النفائس، بيروت، ١٩٨٠م؛ وكتاب إبراهيم خليل أحمد: «إسرائيل والتلمود». مكتبة الوعي العربي بالقاهرة، ١٩٨٣م، الطبعة الثانية.

بنو الله على بنات الناس. وولدن لهم أولاداً. هؤلاء هم الجبابرة الـذين منذ الـدهر هم ذوو اسم».

وما عدا بنـو إسرائيل الـذين تزعم التـوراة المحرفـة والتلمود أنهم مخلوقـون من روح الله مباشرة ــ أي جزء منه ــ حيث جاء في التلمود ما يلي:

(أ) «**تتميز أرواح اليهود عن باقي الأرواح، بأنهـا جزء من الله، كمـا أن الابن جزء من والده**».

(ب) «الإسرائيلي معتبر عند الله أكثر من الملائكة. وإذا ضـرب أممي إسرائيليـاً فكأنما ضرب العزة الإلهية، ويستحق الموت. ولو لم يُخلق اليهود لانعدمت البركـة من الأرض، ولمـا خلقت الأمطار والشمس. والفـرق بين درجة الإنسـان والحيوان كـالفرق بين اليهـودي وباقي الشعـوب. وقـد خلق الله الأجنبي على هيئـة إنسـان ليكـون لائقـاً لخدمة اليهود الذين ما خلقت الدنيا إلا من أجلهم.

(ج) عنـدما يسمـع الرب أبنـاءه اليهود يمجـدونه رغم مـا فعله بهم من نكبـات وتشريد، يلطم وجهه ويصرخ قائلاً: «طـوبى لمن يمجّده النـاس وهو مستحق لـذلك، وويل للأب الذي يمجّده أبناؤه ــ اليهود ــ مع عدم استحقاقه لذلك. لأنه قضى عليهم بالنفي والتشريد والشقاء».

وقـد ذكر الله تعـالى في القرآن الكـريم دعاوى اليهـود والنصارى بـأنهم أبناءُ الله وأحباؤه:

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ﴿١٨﴾ ﴾. (المائدة: ١٨)

(د) وقد جاء في التوراة المحرفـة أن اليهود شعب مقـدس، وأن لهم الحق في إبادة جميع شعوب الأرض الأخرى، وخاصة تلك التي تسكن في منطقة فلسطين، التي أعـطاها الـرب لإبراهيم ونبيـه. ومن ذلك مـا جاء في سفـر التثنية الإصحـاح ٧: «سبع شعـوب أكثر وأعـظم منك، ودفعهم الـربُّ أمامـك فإنـك تحرّمهم ــ أي تقتـل الجميع بما في ذلك النساء والأطفال والبهـائم ــ. **لا تقطع معهم عهـداً ولا تشفق عليهم لأنك شعب مقـدس للرب إلهك**. إيـاك قد اختـار الربُّ لتكـون له شعبـاً. أخص من جميـع

الشعوب الذين على وجه الأرض. مباركاً تكون فوق جميع الشعوب. وتأكل كل الشعوب الذين الرب إلهك يدفع إليك. لا تشفق عيناك عليهم».

قصة ابنَيْ آدم:

ترد قصة ابني آدم هابيل رمز الخير وقابيل رمز الشر في التوراة المحرفة، وفي القرآن الكريم. والاختلاف يكمن في أن القرآن الكريم يأتي بالقصة مجملة ويصل إلى الغرض الأساسي منها وهو حرمة الدماء، ووجوب صيانتها، والحفاظ عليها، إلا إذا ارتكبت جريمة معينة توجب القتل، والتي أوضحتها أحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم، وهي: جريمة القتل العمد، وجريمة الردة، وجريمة الزنى من الشخص المحصن، وجريمة الحرابة.

قال تعالى:

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ ﴿٣٢﴾﴾. (المائدة: ٢٧ ــ ٣٢).

وهكذا ترد القصة في القرآن العظيم بهذه الصورة الرائعة المبهمة بدون أسماء وتوضح لنا صفة الأخوين حيث امتلأت نفس أحدهما حقداً وظلماً وعدواناً على أخيه التقي النقي دون جريرة جنتها يداه، سوى أن الله تقبل منه قربانه ولم يتقبل من الآخر. فإذا النفس الشريرة تتهدد النفس الزكية بالقتل، فيكون ذلك الرد الطاهر: ﴿لئن بسطت إليَّ يدك لتقتُلني ما أنا بباسِطٍ يَديَ إليك لأقتُلك﴾ رغم أنه كما يقول أصحاب التفسير

روايةٌ عن ابن عباس كان الأقوى جسماً والأكثر شجاعةً وفتوة. ثم يحذره مغبة العدوان، وأنه سيكون من أهل النار إذا اعتـدى عليه بجـريمة القتـل المنكرة، ومـع هذا لم يـرعوِ قابيل بل أقدم على قتل أخيه هابيل.

أما في التوراة فترد القصة هكذا: «وعرف آدم حواء امرأتـه فحبلت وولدت قـايين (قابيل) وقـالت: اقتنيت رجلًا من عنـد الربِّ. ثم عـادت فولـدت أخاه هـابيل. وكـان هابيل راعياً للغنم وكان قايين عاملاً في الأرض ــ أي مزارعـاً ــ. وحدث من بعـد أيام أن قـايين قدَّمَ من أثمـار الأرض قربـاناً للربِّ. وقـدَّم هابيـل أيضاً من أبكـار غنمه ومن سمـانها. فنـظر الربُّ إلى هـابيل وقـربانـه ــ أي تقبَّل منـه ــ ولكن إلى قايين وقـربانـه لم ينظر. فاغتاظ قايين جداً وسقط وجهه.

فقال الربُّ لقايين: لماذا اغتظت ولماذا سقط وجهك؟ إن أحسنتَ أفلا أدفعْ وإن لم تُحسن فعند الباب خطيّة رابضة وإليك اشتياقها وأنت تسود عليها. وكلَّم قايين هابيل أخاه وحدث إذ كانا في الحقل أن قايين قام على أخيه هابيل فقتله فقـال الربُّ لقـايين: أين هابيل أخوك؟ قال ــ قايين ــ: لا أعلم. أحارسٌ أنا لأخي. فقال ــ الربُّ ــ: ماذا فعلت؟ صـوت دم أخيك صـارخ إليّ من الأرض. فـالآن ملعـون أنت في الأرض التي فتحت فاها لتقبل دم أخيك من الأرض» (سفر التكوين، الإصحـاح ٤). وأصدر الـربُّ أمره بعدم قتل قايين بل يبقى مطروداً ملعوناً. وكل من قتل قـايين فسبعة أضعـاف ينتقم منه. فخرج قايين من لدن الرب، وسكن في أرض نود شرقي عدن».

ولا تذكر التوراة شيئاً عن قصة الغراب الذي دفن أخاه الغراب الميت ليعلّم قابيل كيف يواري سوأة أخيـه. كما لا تـذكر شيئـاً عن الحكم الأساسي الـذي يستخلص من هذه القصة، وهو حرمة قتل النفس البشرية بـدون وجه حق، وأن من قتـل نفساً واحـدة كمن قتل الناس جميعاً، ومن أحياها كمن أحيا النـاس جميعاً. كمـا لم يرد في التـوراة بأكملها ذكر للجنة أو النار. ولا شك أن اليهود قد أزالوا في مراحل متأخرة ما هو موجود لديهم في التوراة وتعاليم الأنبياء عن الجنة والنار وصفاتهما، لأن اليهـود في عهد النبي صلى الله عليـه وسلم كانـوا يقولـون: لن يدخـلَ الجنةَ إلا من كـان هـوداً، والنصـارى يقولون: لن يدخل الجنة إلا من كان نصـرانياً. . وأمـا النار فقـد ذكر اليهـود كما يـرويه عنهم القرآن الكريم أنهم قالوا: ﴿لن تمسنا النار إلا أيـاماً معـدودة﴾. . مما يـدل دلالة

قاطعة على أن التوراة قد استمر تحريفها بعد نزول القرآن الكريم. . لأن التوراة الموجودة بأيدي الناس اليوم ليس فيها ذكر البتة للجنة ونعيمها أو للنار وجحيمها. . والذكر الوحيد هو للجنة التي كان فيها آدم، والتي طرد منها عندما أكل من شجرة المعرفة وأراد أن يأكل من شجرة الخلد أيضاً.

والغريب حقاً أن آدم بعدما أُخرج من الجنة وتناسل في الأرض، وبعد أن قام قابيل بقتل أخيه الطيب هابيل، نرى المجرم في حضرة الرب تعالى يكلمه كفاحاً، والرب يسأله أين هابيل؟ ويرد قايين ـ قابيل ـ بوقاحة أحارس أنا لأخي. وفي ترجمة أخرى: أرقيب أنا لأخي! ثم إن الرب يأمر بعدم قتل قايين المجرم، وأن من يقتله فسبعة أضعاف ينتقم منه. ولا يوجد أي مبرر لذلك. فقايين مجرم، والقاتل يُقتَل.

ثم تذكر التوراة (سفر التكوين، الإصحاح ٤): أن الرب أمر بطرد قايين من جنة عدن، ولكنه سكن قريباً منها في أرض نود التي تقع شرقي جنة عدن!! وهو أمر في منتهى الغرابة، إذ أن آدم قد طرد من الجنة إلى الأرض قبل أن يوجد له نسل وأولاده وُلدوا على الأرض، والمفروض أنهم لم يدخلوا جنة عدن. فكيف يدخل المجرم قابيل ويكلم الرب كفاحاً، ويطرد من جنة عدن التي لم يدخلها أصلاً؟!!

ثم تذكر التوراة (سفر التكوين، الإصحاح ٤) أن قابيل تزوج وأنجب ابناً سماه حنوك. وقد بنى حنوك هذا مدينة عظيمة باسمه ـ ولا ندري من سكنها ـ ثم ولد لحنوك عيراد، ولعيراد محويائيل ولهذا متوشائيل الذي أنجب لامك، الذي تزوج امرأتين إحداهما تدعى عادة ولدت له يابال وهو أبٌ لكل الرعاة وساكني الخيام، ويوبال وهو أبٌ لكل ضارب بالعود والمزمار. وتدعى المرأة الثانية صِلَّة وولدت له توبال الضارب كل آلة من نحاس وحديد. وقال لامك لامرأتيه. . اسمعا قولي فإني قتلت رجلاً لجرحي وفتى لشدخي. إنه ينتقم لقايين سبعة أضعاف وأما للامك فسبعة وسبعين!!.

وهو كلام غير منطقي ومضطرب ومليء بالخرافات والأساطير. . فحنوك يبني مدينة عظيمة يسكنها هو وزوجته وبنوه!! ولامك يلد يوبال جد جميع الرعاة وساكني الخيام في العالم، ويوبال جد جميع ضاربي العود والمزمار، وتوبال جد جميع من يضرب بآلة نحاسية وحديدية وهي فرقة موسيقية!!

ثم يندم لامك على جريمة قتل لا تحدثنا التوراة عنها شيئاً سوى أنه قتل رجلاً لجرحه وفتى لشدخه!! . وبما أن الرب قد منع قتل قايين ـ قابيل ـ ومن يقتله ينتقم منه سبعة أضعاف فإن قتل لامك جريمة أعظم وينتقم من قاتله سبعة وسبعين. لماذا؟!! ولماذا الدفاع عن المجرمين والقتلة؟!! لا ندري.

مولد شيث:

تذكر التوراة (سفر التكوين ٤: ٢٥، ٢٦) أن آدم أتى زوجته حواء فولدت ابناً ودعت اسمه شيثاً قائلة: «لأن الله قد وضع لي نسلاً آخر عوضاً عن هابيل لأن قايين كان قد قتله». ولشيث أيضاً ولد ابن فدعا اسمه أنوش. حينئذ ابتدىء أن يُدعى باسم الرب!!

ثم تأتي بعد ذلك قائمة بأسماء مواليد آدم وأبنائه، وكم عاش كل واحد منهم.

وتختلف نسخ التوراة ـ اليونانية والعبرية والسامرية ـ اختلافاً شديداً في الأعمار مما يدل على ما حدث فيها من التحريف والتبديل، ولا شك أن هذه الأعمار كلها لا تصح، لأن التوراة والعهد القديم تسجل فيها الأعمار والمدة من خلق آدم إلى نوح، ومن نوح إلى إبراهيم بتقديرات مختلفة في نسخ التوراة ذاتها، كما أنها تختلف اختلافاً بيّناً عما هو معروف في علم الآثار والتاريخ.

كما أن العهد الجديد ـ الأناجيل المختلفة ـ تسجل آباء المسيح عيسى بن مريم، على اعتبار أن يوسف النجار خطب مريم العذراء، وادعى أنه تزوجها وتضع له سلسلة نسب تنتهي إلى داوود ومن داوود إلى يعقوب ومن يعقوب إلى إبراهيم ومنه إلى نوح ومن نوح إلى آدم. وتختلف هذه السلسلة من الآباء المزعومين من إنجيل لآخر. وقد نقدها كثير من الباحثين، ومنهم الدكتور موريس بوكاي في كتابه «القرآن والتوراة والإنجيل والعلم الحديث».

ونحن لا نرى أصلاً لهذه الأنساب فعيسى ولد بدون أب. والنصارى يزعمون أنه ابن الله على قول فريق، أو هو الله ذاته على قول فريق آخر، فكيف يكون له نسب؟؟! وهذه الأنساب كلها منتحلة، ولا يصح منها شيء. ومن باب أولى تقدير تلك الأعمار لكل واحد من أولئك الآباء.

ولهـذا اختلف الذين حـرّفوا التـوراة والعهد القـديم في الأعمـار وسلسلة النسب اختـلافـاً بيِّنـاً. فكـل نسخـة تختلف عن الأخـرى. وفيمـا يلي مثـال واحـد على هـذا التناقض:

	التوراة العبرية	التوراة السامرية	التوراة اليونانية
آدم	١٣٠	١٣٠	٢٣٠
شيت	١٠٥	١٠٥	٢٠٥
آنوش	٩٠	٩٠	١٩٠
قينان	٧٠	٧٠	١٧٠
مهللئيل	٦٥	٦٥	١٦٥
يارد	١٦٢	٦٢	٢٦٢
حنوك	٦٥	٦٥	١٦٥
متوشالح	١٨٧	٦٧	١٨٧
لامك	١٨٢	٥٣	١٨٨
نوح	٦٠٠	٦٠٠	٦٠٠
	١٦٥٦	**١٣٠٧**	**٢٣٦٢**

والمقصود في هذا الجدول أن آدم حينما ولد شيت كان عمره ١٣٠ وشيث حينما ولد آنوش كان عمره ١٠٥ سنة وهكذا. والمدة من آدم إلى نوح ١٦٥٦ سنة في التوراة العبرية، و١٣٠٧ في السامرية، و٢٣٦٢ سنة في اليونانيـة. . والمدة من سـام بن نوح إلى تارح والد إبراهيم عليه السلام في التوراة العبرية ٢٩٢، وفي السامريـة ٩٤٢ سنة، وفي اليونانية ١٠٧٢. . وهو اختلاف فاحش جداً.

ولا يرد أي ذكر لشيث في التوراة كم عُمّر من السنين ومن ولد له، ما عدا مولده. وقد ورد في الأحاديث النبـوية أن شيث هـذا كان من الأنبيـاء المكرمين، وأن الله أنـزل إليـه صحفاً، وهي أول مـا نـزل من الكتب السمـاويـة. وأنـه دعى أبنـاء آدم الآخـرين وأبناءهم إلى الله بعد أن بدأ بعضهم يزيغ عن طريق الحق والتـوحيد. . وقـد ذكر ذلـك ابن كثير في قصص الأنبياء (ص ٥٨) ورواه ابن حبان في صحيحه، كما ذكره ابن كثير

في التفسير أيضاً. وقد ورد في الحديث الذي رواه ابن حبان عن أبي ذر رضي الله عنه: أنه أنزل عليه خمسون صحيفة.

أخنوخ أو إدريس:

تذكر التوراة (سفر التكوين الإصحاح ٥) اسم أخنوخ وأنه ابن يارد بن مهللئيل بن قينان بن أنوش بن شيث. وأن أخنوخ عاش ٦٥ سنة ثم ولد له متوشالح. «وسار أخنوخ مع الله ثلاثمائة سنة بعدما ولد متوشالح، وولد بنين وبنات. فكانت كل أيام أخنوخ ٣٦٥ سنة. وسار أخنوخ مع الله. ولم يوجد لأن الله أخذه!!» ولسنا ندري إن كان المقصود بذلك أنه رفع إلى السماء.

ثم تذكر التوراة (التكوين الإصحاح ٥) أن متوشالح ولد لامك، ولامك ولد نوحاً. ولعل لامك هذا غير لامك القاتل حفيد القاتل قايين. فهذا ينتسب إلى شيث بن آدم الصالح، وذاك ينتسب إلى قابيل بن آدم ــ قاتل أخيه هابيل ــ.

ويذكر أهل التفسير أن أخنوخ هو إدريس عليه السلام. وأنه كان أول نبي بعد آدم وشيث عليهما السلام. وذكر ابن إسحاق وغيره أن إدريس كان أول من خطّ بالقلم. وقال ابن كثير في كتابه قصص الأنبياء ــ وذكر مثله في تفسيره للقرآن العظيم ــ: «ويزعم كثير من أهل التفسير والأحكام أنه أول من تكلم في ذلك ــ أي الكتابة ــ ويسمونه هرمس الهرامسة. ويكذبون عليه أشياء كثيرة، كما كذبوا على غيره من الأنبياء والعلماء والحكماء». . وخلاصة القول إن ما قيل في هذا الصدد، فهو من الإسرائيليات التي لا تصح.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى إدريس عليه السلام. قال تعالى: ﴿واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صِدّيقاً نبيّاً، ورفعناه مكاناً عليّاً﴾ وقد جاء في حديث الإسراء في الصحيحين (البخاري ومسلم): أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرَّ به وهو في السماء الرابعة. وقد رُوي عن ابن عباس رضي الله عنه أن إدريس رفع إلى السماء الرابعة وهو حي ثم قبض الملك روحه هناك. وانكر ابن كثير هذه الرواية.

* * *

نوح (عليه السلام)

ترد قصة سيدنا نوح عليه السلام في القرآن الكريم في سور كثيرة: منها سورة نوح، وسورة الأعراف، وسورة هود، وسورة يونس، وسورة الأنبياء، وسورة «المؤمنون» وسورة الشعراء، وسورة الصافات، وسورة العنكبوت، وسورة القمر، وغيرها من سور القرآن الكريم.

ولا ترد القصة كاملة في سورة واحدة، وإنما يرد منها ما يناسب جو السورة وغرضها، حسبما هو موجود في القصص القرآني بصورة عامة.

ويظهر هذا النبي الكريم على مسرح الأحداث بعد أن عاشت البشرية ردحاً من الزمن على التوحيد الخالص، ثم اجتالت الشياطين البشر، فعظّموا الصالحين، من أمثال: وَدّ وسُوَاع ويَغُوق ونسر، ثم عبدوهم وصنعوا لهم التماثيل.

واختار الله نوحاً عليه السلام لدعوة قومه إلى عبادة الله وحده:

﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٥٩﴾﴾.

(الأعراف: ٥٩).

ولكن الملأ وعلية القوم استكبروا، وقالوا له بصلف وعنجهية:

﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

(الأعراف: ٦٠ ــ ٦٢).

واستمر الملأ في ضلالهم، فتارة يقولون له:

﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾. (هود: ٢٧).

وتارة يطلبون منه أن يطرد الذين آمنوا معه حتى لا يختلط عِليَةُ القوم بسفلتهم كما يزعمون. فيرد عليهم نوح ذلك الطلب بقوله:

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾. (هود: ٢٩ ــ ٣١).

واستمر نوح في مجادلة قومه ودعوتهم بالحسنى سراً وجهراً، حتى ملَّ منه قومه وقالوا له:

﴿يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

(هود: ٣٢).

وجاءت سورة نوح لتقص جانباً كبيراً من معاناة سيدنا نوح عليه السلام في دعوة قومه المكذبين، حتى جأر نوح بالشكوى إلى ربه ومولاه قائلاً:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾

لِتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا
خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ
وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٔاتِهِمْ أُغْرِقُواْ
فَأُدْخِلُواْ نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ
دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُواْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ
وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾ ﴾.

(نوح: ٥ ـ ٢٨).

وفي هذه السورة الكريمة نرى صبر نوح عليه السلام ودعوته لقومه بكافة الوسائل السرية والعلنية، وتذكيرهم بآيات الله في الكون وفي أنفسهم، وبنعم الله المدرارة التي تهطل عليهم صباح مساء وهم عنها غافلون، ويذكرهم باليوم الآخر، ويوضح لهم زيف ما يعبدون من أوثان. ولكن قومه أصمّوا آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً.

فلما أمر الله نوحاً بأن يصنع الفلك، سخر منه قومه سخرية لاذعة. فقد أصبح النبي نجاراً يصنع فُلكاً في مكان لا ماء فيه. قال تعالى في سورة هود:

﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ[(١)] فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ
﴿٣٦﴾ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ
الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا
تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰ
إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ
الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَاهَا

---

(١) قيل: إن عدد الذين آمنوا من قوم نوح كانوا ثمانين رجلاً. وقد ركبوا معه في السفينة.. ولكن يبدو أنهم لم يعقّبوا، لأنَّ البشرية كلّها من نسل نوح وحده. قال تعالى: ﴿وجعلنا ذريته هم الباقين﴾.

إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ
يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ
قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾
وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ
بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ
وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ
لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي
بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ
عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ
الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾.
(هود: ٣٦ ــ ٤٩).

وفي سورة هود نرى جانباً آخر من قصة نوح عليه السلام، وهو يصنع السفينة وقومه يسخرون منه ويستهزئون به، وهو يرد عليهم سخريتهم في ثقة بأنه عما قريب سيسخر منهم كما يسخرون منه. وقد جعل الله له علامة بأن يفور الماء من تنور بيته الذي يخبز فيه الخبز. وأسرع نوح عليه السلام بوضع زوجين اثنين من كل نوع من أنواع الحيوانات والطيور، ودعا جميع أهله ومن آمن، وأركبهم السفينة. وبدأت المياه تتفجر من الأرض وتنهمر من السماء بما لم تعرفه ولن تعرفه البشرية. وبدأ الطوفان الهائل. وكان أحد أبناء نوح عليه السلام يخفي كفره، ويتظاهر بالإيمان، بمعزل عن نوح. فناداه نوح أن اركب معنا ولا تكن مع الكافرين. فقال الفتى المغرور الكافر: سآوي إلى جبل يعصمني من الماء قال نوح: لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم. وحال بينهما الموج فكان من المغرقين. وابتلع الطوفان كل شيء على وجه الأرض، ما عدا سفينة نوح ومن فيها من الحيوان والنبات والطير والبشر. وتطهّرت الأرض من رجس قوم نوح الكفرة الذين ظل يدعوهم لمدة ألف سنة إلا خمسين عاماً. واستوت السفينة على الجودي ــ جبل بشمال العراق ــ، هنالك تذكّر نوحٌ ابنه وكان عليه حزيناً. تفجرت عاطفة الأبوة وخشي على ولده وفلذة كبده من أن يكون مع الكافرين:

﴿ونادى نوح ربه: إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين﴾.. لم يكن نوح يعلم أن ابنه كافر، وإلا كان تبرأ منه كما تبرأ إبراهيم عليه السلام من أبيه. لأن رابطة العقيدة هي فوق كل رابطة مهما كانت تلك الروابط قوية. وإذا برب العزة يقول له: ﴿يا نوح إنه ليس من أهلك، إنه عمل غير صالح. فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين﴾. ويرتعب نوح عليه السلام فرقاً وخوفاً من الجبار ﴿قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم، وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين﴾. وتدركه رحمة الله التي لم تفارقه: ﴿قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك﴾.

وهكذا تبدو قصة نوح عليه السلام في القرآن الكريم. قصة نبي من أولي العزم من الرسل صبر وجاهد وبلّغ قومه رسالة ربه بكل وسيلة من الوسائل لمدة ألف سنة إلا خمسين عاماً. والآن لننظر إلى الصورة النقيض التي تصور بها التوراة المحرفة نوحاً عليه السلام. إنها صورة قميئة حقيرة بذيئة. لا نرى فيها إنساناً يدعو إلى ربه وإلى توحيد خالقه، بل نرى شخصاً يغرق في شرب الخمور حتى يتعرى تماماً وهو لا يشعر.

قصة نوح في التوراة المحرفة:

تبدأ قصة نوح عليه السلام بذكر أن البشر قد فسدوا وحزن الرب وندم لأنه خلق الإنسان ـ تعالى الله عن ذلك ـ فقال الرب: أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته، ما عدا نوح الذي كان باراً. ولا تذكر لنا التوراة أن قوم نوح عبدوا الأوثان، ولهذا غضب عليهم الرب. بل تذكر أن «أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا» لهذا غضب الرب، وقال: «لا يدين روحي في الإنسان إلى الأبد. لزيغانه هو بشر. وتكون أيامه مائة وعشرين» (سفر التكوين الإصحاح ٥: ١ ـ ٣).

وغضب الرب عندما تزوج أبناء الله من بنات الناس ـ ألا لعنة الله على اليهود ما دامت السموات والأرض ـ.. «فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض. وتأسف في قلبه. فقال الربُّ أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته. الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء. لأني حزنتُ أني عملتهم. وأما نوح فوجد نعمة في عيني

الرب» (سفر التكوين، الإصحاح ٥: ٥ ــ ٨). ولا تذكر التوراة سبباً هاماً لرضى الرب عن نوح. ولعله لم يتزوج من بنات الناس وإنما تزوج كما تزعم التوراة من بنات الله ــ أي من نسل آدم وحواء فقط دون أولئك الذين أنجبتهم حواء من زناها مع الشياطين أو الذين أنجبهم آدم من زناه مع الشيطانة ليليت ــ .

وهكذا قرر الرب الإله كما تزعم التوراة أن يبيد الأرض ومن عليها، ما عدا نوح لأن الإنسان كان ظالماً وشريراً «وتزوج بنو الله من بنات الناس فولد الجبابرة الذين منذ الدهر هم ذوو اسم». «فقال الله لنوح نهاية كل البشر قد أتت أمامي. لأن الأرض امتلأت ظلماً منهم فها أنا مهلكهم مع الأرض». وصدر الأمر: «اصنع لنفسك فلكاً من خشب جفر. تجعل الفلك مساكن وتطلب من داخل ومن خارج بالقار» ثم تفصيل لكيفية صنع الفلك ومقدار طوله وعرضه وارتفاعه (٣٠٠ × ٥٠ × ٣٠ ذراعاً) ثم أمره بأن يدخل هو وزوجته وبنوه الثلاثة وزوجاتهم إلى الفلك مع زوجين من كل بهيمة وطير وحيوان على الأرض. وفي موضع آخر يأخذ سبعة أزواج من جميع البهائم والطيور الطاهرة وزوجين اثنين من البهائم غير الطاهرة.

«ولما كان نوح ابن ستمائة سنة صار طوفان الماء على الأرض». «في الشهر الثاني في اليوم السابع عشر من الشهر، في ذلك اليوم انفجرت كل ينابيع الغمر العظيم وانفتحت طاقات السماء» «وكان الطوفان أربعين يوماً على الأرض. . وتعاظمت المياه وتكاثرت جداً على الأرض فكان الفلك يسير على وجه المياه. وتعاظمت المياه، فتغطت جميع الجبال الشامخة التي تحت كل السماء». . وسارت الفلك. وبدأت المياه في التناقص «واستقر الفلك في الشهر السابع في اليوم السابع عشر من الشهر على جبال أراراط ــ شرق تركيا وشمال العراق ــ . وكانت المياه تنقص نقصاً متوالياً إلى الشهر العاشر. ولكن نوحاً لم يخرج من السفينة إلا بعد مرور عام كامل. أي في السنة ستمائة وواحد (ويبدأ التقويم من ميلاد نوح) «وكلم الله نوحاً قائلاً: اخرج من الفلك أنت وامرأتك وبنوك ونساء بنيك معك وكل الحيوانات التي معك. . ».

«وبنى نوح مذبحاً للرب. وأخذ من كل البهائم الطاهرة ومن كل الطيور الطاهرة، وأصعد محرقات على المذبح فتنسم الرب رائحة الرضا. وقال الربُّ في قلبه: لا أعود ألعنُ الأرض أيضاً من أجل الإنسان لأن تصور قلب الإنسان شرير منذ حداثته. ولا أعود أيضاً أميت كل حي كما فعلت» (سفر التكوين، الإصحاح ٨: ٢٠ ــ ٢٢).

والغريب حقاً أن المستشرقين من اليهود والنصارى، يزعمون أن الإسلام دين دموي، وأن رب المسلمين يتعشق الدماء، وكتابهم المقدس ــ العهد القديم ــ الذي يؤمن به اليهود والنصارى مليء بهذه الخزعبلات والافتراءات على الله وعلى رسله وأنبيائه.

وتذكر التوراة أن الله بارك نوحاً ونسله وجعل لنوح ونسله السيطرة على كل حيوانات الأرض وطيورها. وأصدر أمره بأن لا يأكل الإنسان دماً «غير أن لحماً بحياته دمه لا تأكلوه. وأطلب أنا دمكم لأنفسكم فقط. من يد كل حيوان أطلبه. ومن يد الإنسان أطلب نفس الإنسان. من يد الإنسان أخيه. سافك دم الإنسان بالإنسان يسفك دمه لأن الله على صورته عمل الإنسان» (سفر التكوين، الإصحاح ٩: ١ ــ ٦).

«وكلم الله نوحاً وبنيه معه قائلاً: وها أنا مقيم ميثاقي معكم ومع نسلكم من بعدكم... أقيم ميثاقي معكم فلا ينقرض كل ذي جسد أيضاً بمياه الطوفان.. ولا يكون أيضاً طوفان ليخرب الأرض. وقال الله هذه علامة الميثاق الذي أنا واضعه بيني وبينكم... وضعت قوساً في السحاب فتكون علامة ميثاق بيني وبين الأرض... فمتى كانت القوس في السحاب أبصرها لأذكر ميثاقاً أبدياً بين الله وبين كل نفس حية في كل جسد على الأرض» (سفر التكوين، الإصحاح ٩: ٨ ــ ١٧).

وهكذا ندم الرب عندما خلق الإنسان، وحزن وتأسف في قلبه كما تزعم التوراة المحرفة ثم ندم وحزن عندما أغرق الأرض بالطوفان، ووضع عهداً مع نوح وبنيه وكل ذي روح على الأرض، أن لا يغرقهم ولا يهلكهم بطوفان آخر. وبما أن الله كثير النسيان حسب زعمهم، فإنه وضع علامة وميثاقاً يتذكر به هذا العهد والميثاق. ووضع الله قوسه في السحاب فإذا رأى القوس، تذكر أنه يجب عليه أن يحافظ على العهد ولا ينقض الميثاق، فيجعل الأرض تغرق بطوفان جديد. والقوس يشير إلى قوس قزح الذي يظهر عند نزول المطر. فإذا ظهر القوس تذكر الرب حسب زعمهم ميثاقه فيكفّ المطر.

نوح يسكر!!:

وابتدأ نوح العمل على الأرض وغرس كرماً. وشرب من الخمر فسكر وتعرى داخل خبائه. فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه، وأخبر أخويه خارجاً ــ أي خارج

الخباء ــ . فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على أكتافهما، ومشيا إلى الوراء وسترا عورة أبيهما ووجهاهما إلى الوراء، فلم يبصرا عورة أبيهما. فلما استيقظ نوح من خمره، علم ما فعل به ابنه الصغير. فقال: ملعون كنعان، عبد العبيد يكون لإخوته. وقال: مبارك الرب إله سام، وليكن كنعان عبداً لهم. ليفتح الله ليافث فيسكن في مساكن سام. وليكن كنعان عبداً لهم». (سفر التكوين، الإصحاح ٩: ٢٠ ــ ٢٧).

وهذه صورة قميئة حقيرة لنبي الله نوح عليه السلام ترسمها له التوراة المحرفة. وإذا نبي الله الكريم يشرب الخمر حتى يسكر ويتعرى ولا يشعر بنفسه، فيدخل ابنه حام ــ وهو الابن الأصغر حسب كلام التوراة ــ ويخبر أخويه الأكبر منه سناً: سام ويافث. . فيدخل هذان على أبيهما ويغطيان عورة أبيهما دون أن ينظرا إليها. وهو عمل حسن منهما. وعندما يفيق نوح ويعلم بما فعل حام، يلعن كنعان بن حام الذي لا جريرة له، ولا دخل له في هذا الموضوع البتة. ويجعله عبد العبيد لأبناء سام. والسبب في ذلك أن مؤلفي التوراة المحرفة أرادوا أن يثبتوا دعاواهم في فلسطين أرض الكنعانيين، فاختلقوا هذه القصة وهذا الإفك المشين. ولوّثوا صورة نوح عليه السلام. والغريب حقاً أن يقوم نوح السكران الذي تعرى، بلعن حفيده كنعان الذي لا دخل له في هذه الجريمة التي اقترفتها يدا نوح نفسه. كما أعلن نوح بركاته على سام جد اليهود كما يعتقدون، وجعل كنعان عبداً لسام. وبالتالي ينبغي أن يكون جميع أهل فلسطين عبيداً لليهود، وأرض فلسطين تكون من نصيب أولاد سام. والمقصود من ذلك قطعاً اليهود.

وهكذا تلوث التوراة المحرفة صورة الأنبياء بصور مزرية قبيحة كما أنها قد لوثت صورة الله ذاته، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً. .

مقارنة بين قصة نوح في القرآن الكريم وقصته في التوراة المحرفة:

إن الفرق بين الصورتين واضح جداً. . في القرآن صورة وضيئة لنبي كريم جاهد في الله حق جهاده، وأمر قومه بأن يعبدوا الله وحده، ويذروا آلهتهم وأوثانهم، كما أنذرهم باليوم الآخر، وبعذاب الله وسخطه. وذكر لهم آلاءَهُ ونعمه. ومكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً وهو صابر على أذاهم وسخريتهم، حتى أخبره المولى بأنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن.

أما في التوراة فلا نرى نوحاً يدعو قومه إلى الله سبحانه وتعالى ولا يأمر بمعروف ولا ينهى عن منكر. والتوراة المحرفة من أولها إلى آخرها لا تذكر أن أحداً من الأنبياء دعا إلى الإيمان بالله وحده وترك عبادة الأوثان والأصنام، والإيمان باليوم الآخر. ولا نرى منهم أحداً يأمر بالصلاة والصيام والزكاة. ولا نرى أحداً منهم يأمر بفعل الخيرات وترك المنكرات، بل نرى الأنبياء كما تزعم التوراة أول الناس إقبالاً على الشر، وفعلاً للمنكرات. وليس من منكر ولا قبيح إلا فعلوه، ابتداءً من جرائم القتل وسفك الدماء، وانتهاءً بعبادة الأوثان والأصنام، مروراً بالكذب والخداع والسرقة والزنى وشرب الخمر ونكاح المحرمات.

الشيء الوحيد الذي ينالون به رضا الرب هو أن يقدموا له المحرقات واللحم المشوي الذي يحبه الربُّ جداً حسب زعمهم. فيُسرُّ الرب الإلّه بهذه المحرقات ويتنسم نسيم الرضا، ويعطيهم العهود والمواثيق بأنه سيكون معهم ويبيد كل البشر من أجلهم، ويجعل الآخرين لهم عبيداً، لا لسبب سوى أنهم أرضوه بالمحرقات واللحم المشوي الذي يغرم به الرب ــ حسب افتراءاتهم ــ غراماً شديداً.

وكما تختلف الصورة من أساسها، فإن التفاصيل أيضاً تختلف اختلافاً كبيراً. ولكن إذا اختلف الأصل والغرض، فإن اختلاف التفاصيل يصبح هامشياً وثانوياً.

ففي القرآن الكريم إن نوحاً عليه السلام لبث في قومه يدعوهم إلى الله ألف سنة إلا خمسين عاماً. وفي التوراة كما أسلفنا لم يرد أن نوحاً دعا قومه إلى الله قط. بل تخبرنا التوراة أن نوحاً عاش ستمائة عام قبل حدوث الطوفان. وأن سبب الطوفان هو أن أبناء الله تزوجوا بنات الناس!! فولد لهم الجبابرة.. وغضب الرب لذلك وتأسف وحزن وندم، لأنه خلق الإنسان. فقرر إبادة الجنس البشري وإبادة الحياة من الأرض إلا نوحاً وبنيه فقط. ولعل نوحاً لم يتزوج من بنات الناس بل تزوج من بنات أبناء الله!!!

المهم أن الطوفان أخذ سنة كاملة حتى نزل نوح من السفينة. ولا يرد أي ذكر لمدة الطوفان في القرآن الكريم. كما لا يرد في التوراة أي ذكر عن ابن نوح الذي كفر وكان من المغرقين. وقد ذكر أهل التفسير أن هذا الابن كان يدعى كنعان، ولم يرد في

ذلك نص من كتاب الله أو سنة نبيه وإنما هو من الإخباريين الذين يروون عن أهل الكتاب.

وتذكر التوراة أن نوحاً عاش ٣٥٠ سنة بعد الطوفان فكان جملة عمره ٩٥٠ عاماً. بينما لا يرد في القرآن أي ذكر للمدة التي عاشها نوح بعد الطوفان. وفي القرآن أن نوحاً عليه السلام لبث يدعو قومه ألف سنةٍ إلا خمسين عاماً.

وتذكر التوراة المحرفة أن الربَّ ندم مرة أخرى بعد حدوث الطوفان، ووضع عهداً جديداً لنوح وبنيه، أن لا يغرق الأرض بالطوفان. وذلك بعد أن أرضاه نوح باللحم المشوي والمحرقات. وكانت علامة العهد والميثاق قوس قزح!! فإذا ظهر قوس قزح في السماء تذكر الرب أنه ينبغي عليه المحافظة على عهده فيكف المطر حتى لا يغرق الأرض!! صورة تافهة وساذجة وغبية تصورها التوراة للرب سبحانه وتعالى. لأنهم حسب زعمهم وأساطيرهم وأكاذيبهم يقولون: إن الرب ــ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ــ كثير النسيان.. ولهذا لا بد له من شيء يذكّره فجعل قوس قزح علامة له حتى يذكر أن عليه أن لا يغرق الأرض مرة أخرى بالمطر.

وأما قصة نوح وشرب الخمر وسكره حتى يتعرى، فأمر مرفوض البتة في الإسلام. وكذلك قصة لعن كنعان الذي لم يكن له من ذنب سوى أن أبناءه سكنوا فلسطين التي يريدها اليهود. لهذا لا بد أن يكون كنعان ملعوناً، وعبد العبيد يكون لإخوته!! ومبارك الرب إله سام، جد اليهود!!.

ويرد في القرآن الكريم أن نوحاً عليه السلام صعد إلى السفينة هو ومن آمن معه وما آمن معه إلا قليل. ويذكر أهل التفسير أنهم بلغوا ثمانين شخصاً. ويحمل نوح معه من كل ذي روح زوجين اثنين وأهله دون تحديد لهم. فقد ورد أن أحد أبنائه لم يكن معه بل كان مع الكافرين فكان من المغرقين. كما ورد في مواضع أخرى من القرآن الكريم أن زوجة نوح كانت كافرة ﴿وضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا الصالحين﴾. ولا شك أنها لم تكن مع نوح في سفينته، لأن الله أمره بإركاب المؤمنين فحسب، إذ لا رابطة سوى رابطة الإيمان ولا وشيجة سوى وشيجة الحب في الله والبغض في الله. أما الزوجة والولد فلا قيمة لهم في ميزان

الله إذا كانوا من الكافرين. وهكذا تبرأ نوح عليه السلام من زوجته كما تبرأ من ابنه عندما علم بكفره. كما تبرأ إبراهيم عليه السلام فيما بعد من أبيه ومن قومه الكافرين.

أما في التوراة المحرفة التي لا يرد فيها ذكر للإيمان ورابطة الإيمان أصلاً فتزعم أن نوحاً عليه السلام أدخل في السفينة أبناءه الثلاثة وزوجاتهم وزوجته مع سبعة أزواج من الحيوانات والطيور الطاهرة وزوجين من الحيوانات والطيور غير الطاهرة.. (وفي موضع آخر زوجين اثنين من جميع الحيوانات والطيور الطاهرة وغير الطاهرة).

وخلاصة القول أن قصة نوح عليه السلام في القرآن الكريم قصة نبي كريم من أولي العزم من الرسل دعا إلى الله بكل وسيلة سرية وعلنية، وصبر على قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً.. ولم يعرف إلا رابطة الإيمان بينه وبين قومه وعشيرته وزوجته وبنيه. فمن آمن فهو منه ومن كفر بالله فهو عدوه.

أما في التوراة المحرفة فترد قصة نوح وسط أساطير وخزعبلات وكفر صريح بالله تعالى، وتصورات حقودة ضد البشر، وصورة قميئة حقيرة لنبي الله الكريم نوح عليه السلام. وكل إناء بما فيه ينضح. ومؤلفو التوراة المحرفة هم من أحبار اليهود الحاقدين على البشر. فصوروا الأنبي ء بهذه الصور المزرية التي توضح أحقادهم وخستهم وحقارتهم.

* * *

إبراهيم (عليه السلام)

قصة إبراهيم عليه السلام في التوراة المحرفة :

تبدأ قصة إبراهيم عليه السلام في سفر التكوين بمسلسل أولاد سام بن نوح عليه السلام وكم عُمِّرَ كل واحد من أبنائه.

فهو حسب النسب المذكور في التوراة المحرفة، إبراهيم بن تارح بن ناحور بن سروج بن رعو بن فالج بن عابر بن شالح بن أرفكشاد بن سام. وكان لأبرام (إبراهيم) أخوين هما ناحور وهاران. فأما هاران فقد توفي بعد أن ترك ابناً، هو لوط عليه السلام. وتزوج ناحور من ملكة بنت هاران ــ أي ابنة أخيه ــ، كما تزوج إبراهيم من أخته من أبيه ساراي كما تزعم التوراة.

وتزعم التوراة أن تارح أخذ أولاده وزوجاتهم وأولادهم وهاجر بهم من أور، أرض الكلدانيين (في العراق)، وانتقل بهم إلى أرض كنعان، فأقاموا جميعاً في حاران.

ولن ندخل في التناقضات الكثيرة من حيث نسب إبراهيم وأعمار آبائه وأجداده، فهي كلها تدخل ضمن التخمينات التي تتناقض فيما بينها، كما تتناقض مع ما عرف من الآثار والتاريخ. فقد ورد في التوراة نفسها أن إبراهيم خرج من أرض أبيه وذهب إلى أرض الكنعانيين مع أن التوراة تذكر أن الذي بدأ الهجرة هو تارح أبو إبراهيم.

ولا تذكر التوراة شيئاً عن دعوة إبراهيم عليه السلام قومه للإيمان بالله وحده، كما لا تذكر قصة تحطيمه للأصنام، ورميه في النار وخروجه منها سالماً معافى. ولا تذكر

التوراة قصة جدال إبراهيم مع قومه الذين كانوا يعبدون الكواكب والشمس والقمر، وكيف أوضح لهم أن هذه الكواكب والنيرات إنما هي آفلة والله سبحانه وتعالى دائم البقاء. كما لا تذكر التوراة شيئاً عن قصة إبراهيم مع النمرود الذي اعتبر نفسه إلـهاً مثل بقية الفراعين والطواغيت، لأن الله آتاه الملك. ولذا فهو يحيي ويميت. ولكن إبراهيم عليه السلام أخرسه وجعله يبهت عندما طلب منه أن يأتي بالشمس من المغرب بدلاً من المشرق.

ولا ترد مطلقاً قصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه الذي كان يصنع الأصنام، ودعوة إبراهيم لأبيه ـ أو عمه ـ لكي يترك عبادة الأوثان ويتجه إلى عبادة الواحد الأحد الفرد الصمد.

وقصة إبراهيم عليه السلام مع ابنه إسماعيل المعروضة في القرآن الكريم غير موجودة في التوراة، وخاصة تركه لابنه إسماعيل وهاجر في وادٍ غير ذي زرع وما تبع ذلك من رحمة الله ونبع ماء زمزم، ونمو إسماعيل، ثم قصة الذبح، وقصة بناء البيت.

وتبدأ القصة في التوراة **بسفر التكوين، الإصحاح ١٢** (بعد ذكر لمواليد سام إلى إبراهيم في الإصحاح ١١). . . «وقال الرب لأبرام اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك. فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظِّم اسمك، وتكون بركة. وأبارك مباركيك، ولاعنك ألعنه، وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض. فذهب أبرام كما قال له الرب، وذهب معه لوط. وكان أبرام ابن خمس وسبعين سنة لما خرج من حاران» ماذا حدث لإبراهيم خلال الخمسة والسبعين عاماً الماضية؟! أمر تسكت عنه التوراة سكوتاً تاماً. تبدأ القصة كلها من هذا المشهد. مشهد إبراهيم وزوجته ساراي (سارة) وابن أخيه لوط بن هاران، وهم يتحركون خارجين من حاران إلى أرض كنعان مع جميع ما لديهم من مقتنيات وعبيد.

وحاران كما نعلم هي في سورية. وهي ليست بلاد إبراهيم، إذ إن بلاده وبلاد أبيه أور الكلدانيين (في العراق). ولكن التوراة قررت أن تارح ارتحل إليها هو وبنوه وزوجاتهم. ثم كان الأمر الثاني بالارتحال من حاران إلى أرض كنعان (فلسطين) «**واجتاز أبرام في الأرض إلى مكان شكيم** ـ هي مدينة نابلس الحالية في الضفة الغربية

لنهر الأردن في فلسطين ـ . **وكان الكنعانيون حينئذ في الأرض. وظهر الربُّ لأبـرام، وقال: لنسلك أعطي هذه الأرض. فبني هناك مذبحاً للرب** ـ لأن الـرب حسب زعمهم لا يحب شيئاً مثل المـذابح واللحم المشـوي ـ **الذي ظهـر له.** ثم نقـل من هناك إلى الجبل شرقي بيت إيل ونصب خيمته. وله بيت إيل من المغرب وعاي ـ اسم مـدينة ـ من المشرق. فبنى هناك مـذبحاً للرب ـ مـا أكثر المـذابح والمحـارق واللحم المشوي في هذه التوراة المحرفة ـ . ثم ارتحل أبرام ارتحالاً متوالياً نحو الجنوب».

«وحدث جوع في الأرض فانحدر أبرام إلى مصر ليتغـرَّب لأن الجوع في الأرض كان شديداً، وحدث لما قرب أن يدخل مصر أن قال لسـاراي امرأتـه: إني علمت أنك امرأة حسنة المنظر ـ عمرهـا فوق السبعين ـ فيكـون إذا رآك المصريـون أنهم يقولـون هـذه امرأتـه فيقتلونني ويستبقونـك. قـولي إنـك أختي ليكـون لي خيـر بسببـك وتحيـا نفسي».

«فحـدث لما دخـل أبرام إلى مصـر أن المصريين رأوا المـرأة أنها حسنـة جـداً. ورآها رؤساء فرعون ومدحوها لدى فرعون. فأُخذت المرأة إلى بيت فرعون، فصُنع إلى أبـرام خير بسببهـا، وصار لـه غنم وبقر وحميـر وعبيـد وإمـاء وأتن وجمـال». (سفـر التكوين، الإصحاح ١٢: ١٠ ـ ١٦).

وهكذا تزعـم التوراة المحرفة أن إبراهيم عليـه السلام قـدَّم زوجته لفـرعون مصـر حتى يصير له خير بسببها. وصـار له غنم وبقـر وحمير وعبيـد. . إلخ «وكـان أبرام غنيـاً جـداً في المواشي والفضـة والـذهب» بعـد أن عـرض زوجتـه لفـرعـون حسب زعمهم واشتغل ديوثاً. ألا لعنة الله على يهود.

وتكرر التوراة القصة مرة أخرى بعد مضي سنين طويلة أخرى.

ويذهب إبراهيم كما يزعمون إلى جرار بين قادش وشور. وقال إبراهيم عن سارة امرأته: إنهـا أخته وقـدمها لأبيمـالك ملك الفلسـطينيين في منطقـة جرار. ولمـا علم أبيمـالـك (أبو مالـك) في الحلم أن سارة ليست أخت إبـراهيم بل زوجتـه، قال لـه معاتبـاً: ماذا رأيت حتى عملت هـذا الشيء؟ فقال إبـراهيم: «وبالحقيقـة أيضاً هي أختي ابنـة أبي، غيـر أنها ليست ابنـة أمي فصارت لي زوجـة. وحدث لمـا أتاهني الله من بيت أبي أني

قلت لها: هذا معروفك الذي تصنعين إليّ، في كل مكان نأتي إليه قولي عني هو أخي. فأخذ أبيمالك غنماً وبقراً وعبيداً وإماءً وأعطاها لإبراهيم ورد إليه سارة امرأته. وقال أبيمالك هوذا أرضي قدامك. اسكن في ما حَسُنَ في عينيك. وقال لسارة إني قد أعطيت أخاك ألفاً من الفضة» (سفر التكوين، الإصحاح ٢٠: ١ ــ ١٦).

ونستخلص من هذه القصة وسابقتها ما يلي:

(١) أن إبراهيم عليه السلام حسب زعمهم تزوج أخته من أبيه سارة.

(٢) أن إبراهيم اتفق مع سارة أن تقول عنه أنه أخاها في كل مكان يذهبان إليه، خوفاً من أن يحصل له مكروه، وطمعاً في أن يحصل على الأموال الوفيرة، من عرض زوجته للملك كي يتزوجها حسب زعمهم.

(٣) رغم أن سارة كانت عجوزاً عقيماً عندما ذهبت مع إبراهيم لمصر إلا أن المصريين أغرموا بجمالها الفائق وعرضوها على فرعون فأخذها زوجة له!!.

(٤) رغم أن سارة كانت قد بلغت تسعين عاماً عندما بشرها الملائكة بإسحاق «وقال ــ إبراهيم ــ في قلبه: **هل يولد لابن مئة سنة؟ وهل تلد سارة وهي بنت تسعين؟!»** إلا أن هذه العجوز حسب زعمهم تسحر عقل أبيمالك ملك جرار ورجاله. هذا مع العلم أنها لم تذهب إلى جرار مع إبراهيم إلا بعد ولادة إسحاق. وبحيث نقدر أن عمرها في ذلك الوقت حسب زعمهم قد اقترب من المائة سنة على الأقل.

أبرام ولوط يفترقان بعد العودة من مصر:

تزعم التوراة أن لوطاً سار مع إبراهيم إلى مصر. وعندما خرجوا من مصر كانت أملاك إبراهيم وفيرة جداً، بسبب ما حصل عليه من فرعون، لقاء إعطائه زوجته سارة. وكذلك كان لوط. «ولوط السائر مع أبرام كان له أيضاً غنم وبقر وخيام. ولم تحتملهما الأرض أن يسكنا معاً. إذ كانت أملاكهما كثيرة جداً. فلم يقدرا أن يسكنا معاً. فحدثت مخاصمة بين رعاة مواشي أبرام ورعاة مواشي لوط. وكان الكنعانيون والفرزيون حينئذ ساكنين في الأرض. فقال أبرام للوط: لا تكن مخاصمة بيني وبينك وبين رعاتي ورعاتك، لأننا نحن أخوان. أليست كل الأرض أمامك؟ اعتزل عني». (سفر التكوين، الإصحاح ١٣: ١ ــ ٩).

«فرفع لوط عينيه ورأى كل دائرة الأردن أن جميعها سقي. فاختار لنفسه كل دائرة الأردن. وارتحل لوط شرقاً فاعتزل الواحد عن الآخر. أبرام سكن في أرض كنعان ولوط سكن في مدن الدائرة ونقل خيامه إلى سدوم». (سفر التكوين، الإصحاح ١٢ : ١٠ ــ ١٣).

الرب يعطي أرض كنعان لأبرام ونسله إلى الأبد، حسب زعم التوراة:

«وقال الرب لأبرام بعد اعتزال لوط عنه: **ارفع عينيك وانظر من الموضع الذي أنت فيه شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً، لأن جميع الأرض التي ترى لك أعطيها ولنسلك إلى الأبد. وأجعل نسلك كتراب الأرض. حتى إذا استطاع أحد أن يعد تراب الأرض فنسلك أيضاً يُعدّ.** قم امشِ في الأرض طولها وعرضها. لأني لك **أعطيها**. فنقل أبرام خيامه وأتى وأقام عند بلوطات ممرأ التي في حبرون ــ مدينة الخليل الآن ــ. **بنى هناك مذبحاً للرب**». (سفر التكوين ١٣ : ١٤ - ١٧).

وواضح جداً من هذه المزاعم أن اليهود يدّعون أن الله أعطى أرض فلسطين لإبراهيم ولنسله، والمقصود من نسله أولاد اسحاق «لأنه بإسحاق فقط يدعى لك نسل» حسب زعمهم كما أن المذابح والحرائق لا تنتهي من التوراة المحرفة.

ويذكر الإصحاح الرابع عشر من سفر التكوين من التوراة المحرفة، أن ملوك فلسطين وما حولها جميعهم أكرموا إبراهيم عليه السلام، وأحسنوا وفادته، حتى إذا حدثت حروب بين هؤلاء الملوك، كما هو معتاد في ذلك الزمان، أخذوا من وجدوه من المنهزمين وأبنائهم وبناتهم عبيداً لهم. وتذكر التوراة (المحرّفة) أنّ حرباً وقعت بين مجموعة من الملوك المتحالفين: خمسة ضد أربعة ملوك، وسقطت سدوم، وهرب ملكها، ووقع لوط في الأسر. فذهب إبراهيم مع حلفائه واستنقذ لوطاً وأملاكه.

وهكذا وقف هؤلاء الفلسطينيون بشهامة مع إبراهيم عليه السلام.. كما وقف معه كثير من ملوكهم وملوك منطقة الأردن. حتى إن ملك سدوم خرج هو وملك شاليم الذي يدعى ملكي صادق، خرجا لاستقبال إبراهيم. «وكان ملكي صادق كاهناً لله العلي، وباركه وقال مبارك أبرام من الله العلي مالك السموات والأرض». وتوثق العهد بين

إبراهيم وملوك هذه المنطقة بعد هذه الوقعة (سفر التكوين ١٤).

وتحدث الرب بعد ذلك لأبرام في الرؤيا وعاتب أبرامُ الربَّ حسب زعمهم «وقال له أبرام إنك لم تعطني نسلاً. وهوذا ابن بيتي وارث لي. فإذا كلام الرب إليه قائلاً: **لا يرثك هذا بل الذي يخرج من أحشائك هو يرثك** ــ إنما يخرج الطفل من أحشاء المرأة ــ ثم أخرجه إلى خارج وقال انظر إلى السماء وعد النجوم إن استطعت أن تعدها. وقال له هكذا يكون نسلك».

وهكذا تزعم التوراة أن نسل إبراهيم من إسحاق «لأنه بإسحاق فقط يدعى له نسل» سيكونون مثل تراب الأرض ومثل نجوم السماء، ورغم مضي حوالي أربعة آلاف سنة من هذا الوعد، فإن نسل إبراهيم من إسحاق لا يزيدون عن ١٥ مليون. هذا مع العلم أن معظم هؤلاء ليسوا من نسل إبراهيم عليه السلام مطلقاً بل من الأمم التي تهودت مثل عرب اليمن، وبعض الأحباش، ويهود الخزر، (بحر قزوين وهم يهود روسيا وبولندا والدول الاشتراكية) ومعظم يهود أوربا.. إلخ.. وهكذا يبدو كذب هذا الوعد الذي اخترعه أحبار يهود الذين كتبوا التوراة المحرفة.. والذين زعموا أن الرب قال لأبرام «**لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير، نهر الفرات**» بعد أن قطع معه العهود والمواثيق المدعمة باللحم المشوي والمذابح والمحارق.

قصة سارة وإذلالها هاجر:

ولما رأت سارة أنها لا تلد وأنها قد بلغت من العمر عِتِيّاً، قالت لأبرام «هوذا الرب قد أمسكني عن الولادة. ادخل على جاريتي. لَعلّي أُرزق منها بنين. فسمع أبرام لقول ساراي... ودخل على هاجر فحبلت» وغارت ساراي جداً بعد حمل هاجر وخاصمت إبراهيم وقالت له: «ظلمي عليك» فقال لها إبراهيم: «هوذا جاريتك في يدك افعلي بها ما يحسن في عينيك» فأذلتها ساراي، فهربت هاجر من وجهها. فوجدها ملاك الرب على عين الماء في البرّيّة، على العين التي في طريق شور، وقال: يا هاجر جارية ساراي من أين أتيت؟ وإلى أين تذهبين؟ فقالت: أنا هاربة من وجه مولاتي ساراي. فقال لها ملاك الرب: ارجعي إلى مولاتك واخضعي لها». (سفر التكوين،

الإصحاح ١٥). «وقال لها ملاك الرب ها أنت حبلى فتلدين ابناً. وتدعين اسمه إسماعيل لأن الرب قد سمع لمذلتك. وإنه يكون إنساناً وحشياً. يده على كل واحد ويد كل واحد عليه».

وهكذا تزعم التوراة أن ساراي أذلت هاجر وعاملتها معاملة حقيرة سيئة بمباركة إبراهيم وبمباركة ملاك الرب!! لماذا لأن ساراي ستكون أم إسحاق، وإسحاق والد يعقوب، ويعقوب هو إسرائيل، ولذا يحق لبني إسرائيل أن يذلوا جميع الأمم. فإذا كان لساراي الحق أن تذل هاجر، وتذل إسماعيل ابنها عندما رأته فيما بعد يضحة ويلعب مع ابنها. فقالت لإبراهيم: إن إسماعيل وأمه ينبغي أن يرميا في الصحراء، لأن إسماعيل ابن الجارية ضحك ولعب مع ابني إسحاق. وأطاعها إبراهيم فوراً. لأن الرب وملاك الرب قالا له: لكل ما تأمرك ساراي افعل ولها تطيع، والحذر من مخالفة أي أمر لساراي، ولو كان هذا الأمر هو الظلم المحض. فإن ساراي هي أم إسحاق.. وبإسحاق فقط يدعى لك نسل.

«ورأت سارة ابن هاجر المصرية الذي ولدته لإبراهيم يمزح فقالت لإبراهيم: اطرد هذه الجارية وابنها لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابني إسحاق. فقُبح الكلام جداً في عيني إبراهيم لسبب ابنه. فقال الله لإبراهيم: لا يقبح في عينيك من أجل الغلام ومن أجل جاريتك. في كل ما تقول لك سارة اسمع لقولها لأنه بإسحاق يُدعى لك نسل» (سفر التكوين، الإصحاح ٢١: ٩ ــ ١٢).

العهد مع إبراهيم بالختان:

قد سبق أن ذكرنا أهمية الختان في العقائد التوراتية، على اعتبار أن الدم هو العلامة التي تربط بني إسرائيل بالرب. ولهذا يعتبر الختان في العقائد التوراتية علامة على الرابطة الدموية القوية بين الله وأبنائه اليهود ــ لعنة الله عليهم ــ. وقد ورد في التوراة أن صفورة زوجة موسى استطاعت أن تنقذ ابنها وبكرها من يدي الرب عندما همَّ بقتله، وذلك عندما أسرعت صفورة وأخذت الغلام من يدي الرب ــ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ــ وقطعت غرلة الغلام ومسحت ساقي الرب بدم الغرلة. وقالت: «عريس دم من أجل الختان» فترك الرب ــ لعنة الله وملائكته والناس أجمعين على اليهود أبد الآبدين ــ الغلام. وقال: «عريس دم من أجل الختان.».

ويبدأ العهد مع إبراهيم بتقديم المحارق واللحم المشوي وينتهي بدم الختان. جاء في (سفر التكوين الإصحاح١٧): «ولما كان أبرام ابن تسع وتسعين سنة ظهر الربُّ لأبرام، وقال له: أنا الله القدير. سر أمامي وكن كاملاً فأجعل عهدي بيني وبينك، وأكثّرك كثيراً جداً. فسقط أبرام على وجهه. وتكلم الله معه قائلاً: أما أنا فهو ذا عهدي معك، وتكون أباً لجمهور من الأمم فلا يدعى اسمك بعدُ أبرام، بل يكون اسمك إبراهيم. **وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك ــ من إسحاق فقط حسب زعمهم ــ من بعدك في أجيالهم عهداً أبدياً، لأكون إلـهاً لك ولنسلك من بعدك. وأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك، كل أرض كنعان ملكاً أبدياً وأكون إلـههم»**.

وهي صورة مختلفة جد الاختلاف مع ما ورد في القرآن الكريم قال تعالى:

﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾. (البقرة: ١٢٤).

فالعهد في التوراة أبدي لإبراهيم ونسله من إسحاق فقط. مهما فعلوا أو بدلوا أو غيّروا أو عبدوا الأوثان. والعهد لا يتضمن أنهم يفعلون الخير ويدعون الناس إلى عبادة الله وحده، بل لهم رب خاص من دون الناس جميعاً. ونسبتهم إليه كنسبة الابن إلى أبيه، لأنهم جزء منه. وفي مقابل ذلك يعطيهم أرض كنعان (فلسطين) إلى أبد الأبدين. وهذه هي عقيدة يهود. وقد صرح زعماؤهم مئات المرات بأن أرض فلسطين كلها بما في ذلك الضفة الغربية، هي أرض التوراة التي وعدها الرب لإبراهيم وبنيه. ولهذا ما دامت هناك أرض كنعان فلا بد أن يطرد منها ساكنوها ليحل محلهم أبناءُ الله وأحباؤه، شعب الله المختار. لأنهم قد حفظوا عهد الله معهم كما أوصت التوراة: **«وقال الله لإبراهيم وأما أنت فتحفظ عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك. يُختَنُ منكم كل ذكر. فتُختنون في لحم غرلتكم. فيكون علامةَ عهدٍ بيني وبينكم. ابن ثمانية أيام يُختَنُ منكم كل ذكر في أجيالكم. يُختَن ختاناً وليدُ بيتك والمبتاع بفضتك. فيكون عهدي في لحمكم عهداً أبدياً. وأما الذكر الأغلف الذي لا يختنُ في لحم غرلته فتقطع تلك النفس من شعبها أنه قد نكث عهدي»**. (سفر التكوين، الإصحاح ١٧: ٩ ــ ١٤).

كل الجرائم تهون عند هذا الرب الذي تصفه التوراة المحرفة، ما عدا دم الختان ولحم الغرلة فهو مغرم جداً به وباللحم المشوي. ومستعد أن يضحي بكل شيء ما دام اللحم المشوي يقدم في المواعيد المحددة، وما دام الختان جارياً، وعلامة الدم مستمرة في لحم الغرلة. ولا يهم بعد ذلك أن يعبد اليهود ــ أبناءُ الله وأحباؤه ــ الأوثان، كما لا يهم أن يقتلوا أو يسرقوا أو يزنوا. كل الجرائم تهون ما دام لحم الغرلة يقطع علامة على العهد الوثيق مع الله. أما النفس التي ترفض الختان أو لا تختن لأي سبب، فتقطع تلك النفس من شعبها لأنها نكثت العهد.

وعندما أتم إبراهيم تنفيذ الختان، أعلن الله له أن ساراي ستلد له ولداً «**وسقط إبراهيم على وجهه وضحك. وقال في قلبه: هل يولد لابن مئة سنة؟ وهل تلد سارة وهي بنت تسعين؟! وقال إبراهيم لله: ليت إسماعيل يعيش أمامك. فقال الله بل سارة تلدُ لكَ ابناً وتدعو اسمه إسحاق. وأقيم عهدي معه عهداً أبدياً لنسله من بعده. . . عهدي أقيمه مع إسحاق الذي تلده لك سارة في هذا الوقت من السنة الآتية. فلما فرغ من الكلام معه صعد الله عن إبراهيم**» (سفر التكوين ١٧ : ١٨ ــ ٢٢).

وهكذا تصور التوراة المحرفة المولى سبحانه وتعالى بأنه شخص يتجسد في صورة بشرية، ويتكلم مع الأنبياء ويتصارع معهم أحياناً، ــ كما تصارع مع يعقوب طوال الليل حتى طلوع الفجر ــ. ويحب اللحم المشوي جداً، وهو مغرم بدم الختان لدرجة مزعجة جداً. وليس له من عمل إلا إقامة العهد مع ابنه البكر إسرائيل!!! وكثيراً ما يظهر الرب بصورة بشرية للأنبياء، كما يختلط تعبير الرب بالملاك اختلاطاً شديداً في جميع أسفار العهد القديم. . فقد جاء في قصة إبراهيم (سفر التكوين، الإصحاح ١٨).

«**وظهر له ــ أي إبراهيم ــ الرب عند بلوطات ممرا، وهو جالس في باب الخيمة وقت حَرِّ النهار، فرفع عينيه ونظر وإذا ثلاثة رجال واقفين لديه. فلما نظر، ركض لاستقبالهم من باب الخيمة، وسجد إلى الأرض. وقال يا سيد إن كنتُ قد وجدت نعمة في عينيك فلا تتجاوز عبدك. ليؤخذ قليل ماء واغسلوا أرجلكم، واتكئوا تحت الشجرة، فآخذ كسرة خبز فتسندون قلوبكم ثم تجتازون، لأنكم قد مررتم على**

عبدكم. **فقالوا: هكذا نفعل كما تكلَّمت.** فأسرع إبراهيم إلى الخيمة، إلى ساراي. وقال: أسرعي بثلاث كيلات دقيقاً سميداً. اعجني واصنعي خبز مَلَّة. ثم ركض إبراهيم إلى البقر، وأخذ عجلاً رخصاً وجيداً، وأعطاه للغلام، فأسرع ليعمل. ثم أخذ زبداً ولبناً والعجل الذي عمله ووضعها قدامهم. **وإذ كان هو واقفاً لديهم تحت الشجرة أكلوا**».

وهكذا يختلط الحابل بالنابل، ويتخيل كاتب التوراة المحرفة ــ عليه لعنات الله ــ أن الله يقف في صورة بشر، ثم تختلط الرؤية فإذا هم ملائكة في صورة بشر. لكنهم أيضاً يحبون السمن والخبز والعجل، فيأكلون منه، ويرتاحون تحت الشجرة، ويسندون قلوبهم بأكلة ترد الروح!!.

وبعد الوجبة الدسمة، قال الرجال: أين سارة؟ فجاءت سارة، وبشروها بغلام. فضحكت سارة في سرها من هذا الكلام. «وقال الرب لإبراهيم: لماذا ضحكت سارة قائلة: أفبالحقيقة ألد وأنا قد شخت؟! هل يستحيل على الرب شيء؟ فأنكرت سارة قائلة: لم أضحك لأنها خافت. فقال: لا بل ضحكت». (التكوين ١٨ : ٩ ــ ١٥).

«ثم قام الرجال وتطلعوا نحو سدوم، وكان إبراهيم ماشياً معهم ليشيّعهم. فقال الرب: هل أخفي عن إبراهيم ما أنا فاعله؟» وقرر الرب أن لا يخفي حسب زعمهم أي شيء عن إبراهيم. لأن إبراهيم قد ارتبط بعهد الختان مع الرب. ختان في غرلة اللحم... مع جميع نسله.. دم.. دم.. لهذا لا يستطيع الرب ــ حسب زعمهم ــ أن يخفي أي شيء عن إبراهيم.. وتكلم إبراهيمُ مع الرب قائلاً: أفتهلك البار مع الأثيم؟ عسى أن يكون خمسون باراً في المدينة. أفتهلك المكان ولا تصفح عنه من أجل الخمسين؟ فقال الرب: إن وجدت في سدوم خمسين باراً فإني أصفح عن المكان من أجلهم. وبدأ إبراهيم ينقص العدد خمسة خمسة، حتى وصلوا لعشرة. فقال الرب: لا أهلك من أجل العشرة. **وذهب الربُّ عندما فرغ من الكلام مع إبراهيم، ورجع إبراهيم إلى مكانه**». (سفر التكوين ١٨ : ١٦ ــ ٣٢).

وسنذكر قصة لوط في مكانها فيما بعد، إن شاء الله تعالى.

سارة تحمل وتلد إسحاق حسب الوعد والعهد:

«وافتقد الرب سارة كما قال. ــ ما معنى هذه الجملة؟ ــ وفعل الرب لسارة كما تكلم. وولدت لإبراهيم ابناً في شيخوخته. في الوقت الذي تكلم الله عنه. وختن إبراهيم إسحاق ابنه وهو ابن ثمانية أيام كما أمره الله. وقالت سارة: قد صنع الله إليّ ضحكاً. كل من يسمع يضحك لي». وغضبت سارة على هاجر وابنها عندما رأت إسماعيل يمزح مع إسحاق. وقالت لإبراهيم: اطرد هذه الجارية وابنها كما تقدم معنا. وسمع إبراهيم لقولها لأن الرب قال له: في كل ما تقول لك سارة اسمع لقولها، لأنه بإسحاق يدعى لك نسل.

وأخذ إبراهيم هاجر وابنها، وأعطاها خبزاً وقربة ماء وصوفها. فمضت هاجر وتاهت في برية بئر سبع. ولما فرغ الماء من القربة، طرحت الولد تحت الأشجار، ومضت وبكت. فسمع الله صوت الغلام. وأبصرت هاجر بئر ماء، فذهبت وملأت القربة وسقت الغلام. وكان الله مع الغلام، فكبر وسكن في البرية. وكان ينمو رامي قوس. وسكن في برية فاران. وأخذت له أمه زوجة من مصر (وهذه القصة مخالفة لما في القرآن والسنة من قصة إسماعيل في كثير من التفاصيل).

وتذكر التوراة أن الملك أبيمالك وقائد جيشه فيكول، كلّما إبراهيم قائلين: «احلف لنا بالله أنك لا تغدر بنا ولا بنسلنا» وهو أمر غريب جداً أن يحدث هذا من الملك لهذه الأرض وقائد جيشه، إذ إن إبراهيم غريب في أرضهم وهم المحسنون إليه. وحفر إبراهيم بئراً، وأعطى أبيمالك سبع نعاج، وقال له: «إنك سبع نعاج تأخذ من يدي لكي تكون لي شهادة بأني حفرت هذه البئر. لذلك دعا ذلك الموضع بئر سبع. لأنهما حلفا هناك كلاهما وقطعاً ميثاقاً» (سفر التكوين، الإصحاح ٢١).

وهو أمر يتناقض مع ما ذكر قبل عدة أسطر فقط، من أن بئر سبع نبعت عندما صرخ إسماعيل من العطش، وأمه معه في البرية، بعد أن تركهما إبراهيم هناك حسب زعمهم.

ذبح إسحاق:

وظهر الرب كما تذكر التوراة، وقال لإبراهيم: «خذ ابنك وحيدك الذي تحبه

إسحاق واذهب إلى أرض المُريّا، وأصعده هناك محرقة على أحد الجبال». . وأخذ إبراهيم حطباً للمحرقة، وصعد الجبل، وقال إسحاق لأبيه: «يا أبي هوذا النار والحطب، ولكن أين الخروف للمحرقة؟ فقال إبراهيم: الله يرى له الخروف للمحرقة يا بني». واستعد إبراهيم لذبح ابنه إسحاق فناداه ملاك الرب: «لا تمد يدك إلى الغلام. وأخذ إبراهيم الكبش وأصعده محرقة، عوضاً عن ابنه. فدعا إبراهيم اسم ذلك الموضع يهوه يراه.

وقال الرب: إني من أجل أنك فعلت هذا الأمر ولم تمسك ابنك وحيدك. أباركك مباركة وأكثّرُ نسلك تكثيراً كنجوم السماء، وكالرمل الذي على شاطىء البحر، ويرث نسلك باب أعدائه» (التكوين ٢٢).

موت سارة:

ماتت سارة عندما بلغ عمرها ١٢٧ سنة كما تقول التوراة، في قرية أربع، التي هي حبرون ــ أي مدينة الخليل ــ «فأتى إبراهيم ليندب سارة ويبكي عليها. وقام إبراهيم من أمام ميته وكلم بني حثّ قائلاً: أنا غريب ونزيل عندكم، فأعطوني مُلك قبرٍ لأدفن ميتي من أمامي، فأجاب بنو حث: اسمعنا يا سيد! أنت رئيس من الله بيننا. في أفضل قبورنا ادفن ميتك. لا يمنع أحدٌ منا قبره عنك حتى لا تدفن ميتك. فقام إبراهيم وسجد لشعب الأرض لبني حث». (سفر التكوين ٢٣). وهكذا كان بنو حث في منتهى النبل والأخلاق والكرم مع إبراهيم عليه السلام. وكذلك كان معه ملك الفلسطينيين أبيمالك. ولكن التوراة لا تظهر لهم إلا الغل والحقد والذبح والقتل، رغم كل ما فعلوه من إكرام لإبراهيم وإسحاق ويعقوب. وهكذا تزعم التوراة المحرفة أن أخلاق الأنبياء حقيرة مثلهم. وتقابل المعروف بالشر. . فكم خادع إسحاق وكم خادع يعقوب ــ حسب زعمهم ــ وكم قتل من أهل تلك الأرض الطيبة المعطاءة!! وكم وكم قتل موسى وتلميذه يشوع (يوشع بن نون). . . وكم من الجرائم المروعة ارتكباها حسب زعم التوراة المحرفة، حتى أنهم لم يتركوا طفلاً ولا شيخاً ولا امرأة. قتلوا الكل، حتى الحيوانات أبادوها.

وتزعم التوراة أن داود أيضاً قام بنفس المهمة، وأقام الحرائق ونشر المناشير،

وقتل النساء والأطفال والشيوخ والرضع مع جميع البهائم. حرَّمها جميعاً أي إبادة أبادها كما أمر الرب!!!

وتنتهي قصة حياة سارة بدفنها في مغارة المكفيلة من حبرون ـ مدينة الخليل ـ تلك المغارة التي تزعم التوراة أن إبراهيم عليه السلام أصرَّ على أن يشتريها من بني حث ليدفن زوجته، ولتكون له ولأولاده من بعده مدفناً..

زواج إبراهيم من قطورة:

وما يكاد إبراهيم ينتهي من دفن سارة حتى يتخذ له زوجة اسمها قطورة. وولدت له حسب زعم التوراة ستة من الأبناء هم زمران ويتشان ومدان ومديان ويشباق وشوحا.. كما كان له عدد آخر من الأبناء والبنات من السراري. وهؤلاء جميعاً لا يدخلون في نسل إبراهيم!! لأنه بإسحاق وحده يدعى له نسل!!!

وقام إبراهيم وأعطى أبناءه هؤلاء أعطيات وصرفهم عن إسحاق ابنه إلى أرض المشرق، وهو بعد حي. وعاش إبراهيم ١٧٥ سنة. «وأسلم إبراهيم روحه ومات بشيبة صالحة وشبعان أياماً». كما تقول التوراة. ودفنه ابناه إسحاق وإسماعيل في مغارة المكفيلة في أرض بني حث بجانب سارة امرأته.

وهكذا تنتهي قصة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام في التوراة المحرفة. فلا نجد فيها إلا لمحات قليلة تضيء هنا وهناك. وما عدا ذلك فركام وغثاء ومزبلة تثير التقزز من رجل يكذب، ويتزوج أخته، ثم يقدمها للملوك لأجل العثور على الأموال. وعلاقته بربه وطيدة، بسبب اللحم المشوي والقرابين التي يقدمها، ولهذا يأخذ بالمقابل عهوداً له ولأولاده بأخذ أراضي الغير من النيل إلى الفرات، عهداً أبدياً موثقاً بالدم.. دم الختان.. دم الغرلة التي تقطع عند اليوم الثامن من الولادة. عهد رهيب.. من لم يختتن يموت موتاً. وتنقطع هذه النفس من شعب إسرائيل. لأن الرب قد وضع علامة يعرف بها أبناءه. فإذا ذهبت تلك العلامة لم يعرفهم!! الدم.. الختان.. الغرلة.. المحارق.. اللحم المشوي.. إلخ... هذه هي قصة الأنبياء. وتتكثف بصورة خاصة في أيام إبراهيم وأبنائه.. ولا يدعى له نسل إلا من إسحاق. ولا يدعى لإسحاق نسل إلا من يعقوب المخادع الكذاب حسب وصفهم وهكذا دواليك.

وهي كلها توضح أحقاد أحبار يهود الذين كتبوا هذه التوراة المحرفة ﴿فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾.

إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم:

نرى الصورة مغايرة كل المغايرة لتلك التي ترسمها لنا التوراة عن شخصية إبراهيم. القرآن الكريم يصور إبراهيم عليه السلام رجلاً كامل النقاء، كامل الصفاء، كامل الحب لله ولعباد الله. ﴿إن إبراهيم لحليم أواه منيب﴾. إبراهيم الذي عاش عمره المدين كله في حب الله والدعوة إليه. إبراهيم عليه السلام الذي يواجه الابتلاء إثر الابتلاء بصبر عجيب ورضا كامل. صورة فذة لا تكاد تتملاها العين حتى تمتلىء بها حباً وإعجاباً. صورة الحلم الكامل، والأناة الكاملة، والحب الكامل لله، الذي يصغر أمامه كل حب، حتى حب الشيخ الفاني لولده وأي ولد!!! ولد كله أناة ومحبة ووداعة وشجاعة وثبات. تأتيه رؤيا ــ يمكن أن يعتذر عنها بأنها مجرد رؤيا ــ بأن يقتل ابنه فلذة كبده، فيبادر لتنفيذ الأمر، ولكنه لا يحب أن يفجأ هذا الغلام البار، فيخبره بالرؤيا ويقول: ﴿إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى؟﴾ فيرد الغلام على الفور ﴿يا أبت افعل ما تؤمر. ستجدني إن شاء الله مع الصابرين﴾. ها هنا تتجلى المحنة والبلاء في أقسى ما يمكن أن يتصوره إنسان. يأخذ إبراهيم السكين. ويكبُّ الغلام على وجهه، وتتحرك يداه للذبح، ولكن السكين تفقد قدرتها على القطع تماماً كما فقدت النار قدرتها معه على الإحراق. انتهى الابتلاء لأن إبراهيم ذبح كل شيء في قلبه لا يخفق بالحب لله، حتى حب الولد الذي يأتي بعد طول انتظار، يذبحه إبراهيم من قلبه، ويبقى ذلك القلب متجرداً للحب الإلَهي بصورته الكاملة النقية التي لا يشبهها أي حب. لذا كان إبراهيم خليل الله. ومن نسل إبراهيم ومن نسل الذبيح إسماعيل يبرز محمد صلى الله عليه وآله وسلم ليكون حبيب الله وخليله أيضاً. هذه هي القمة التي لم يصل إليها أحد قط من البشر سوى محمد وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام.

وترد قصة إبراهيم عليه السلام متفرقة في سور كثيرة من القرآن الكريم كما هو معهود في المنهج القرآني. حيث ترد فقرات من القصة تليق بالمقام وتؤدي الغرض المطلوب، فتأتي بالعبرة والموعظة والتثبيت للنبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وترد ملامح من حياة إبـراهيم عليه السـلام المديـدة في سور عـديدة: في سـورة البقـرة، وآل عمران، والأنعـام، والتوبـة، وهود، ومـريم، وطـه، والأنبيـاء، والحـج، والشعراء، والعنكبوت، والفرقان، والصافات.

ولد إبراهيم عليه السلام لأب (أو عم) يصنع الأوثان ويعبدها ويتكسب من ورائها الأموال والمكانة في المجتمع. ولا تقبل نفس إبراهيم عليه السلام أن يرى هذه الآلهـة التي تصنع في البيت من الطين ومن الخـزف ومن النحاس ومن غيـرها من المـواد، ثم ينحني الناس لها بالعبادة ويتقدمون إليها بالقرابين.

دعوة أبيه:

ويوماً بعد يوم اتضحت الحقيقة كاملة في نفس إبراهيم عليه السـلام. إن أباه آزر وقومه في ضلال مبين. وتقدم الفتى اليـافع إلى أبيـه بكل الحب والأدب والإخـلاص، ينبهه إلى ما هو فيه من الضلال وعبادة الأوثان، وأن على والده أن يتجـه لعبادة الـواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد.

قال تعالى:

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ
وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ
صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ
أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي
يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ
كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴿٤٧﴾ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ
بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ﴿٤٨﴾﴾. (مريم: ٤١ ــ ٤٨).

دعوة قومه لترك عبادة الأوثان:

وانتقل إبراهيم عليه السلام من دعوة أبيه إلى دعوة قومه. قال تعالى:

﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ

﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا
يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾
وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ
يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ
فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾
يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا
فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ
وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ
قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾. (العنكبوت: ١٦ ـ ٢٤).

وترد قصة إبراهيم عليه السلام وتحطيمه للأصنام إلا كبيراً لهم في سورة الأنبياء، وفي سورة الشعراء، ، وفي سورة الصافّات. وفي كل سورة ترد مقاطع وإشارات لا ترد في السور الأخرى، تحقيقاً للغرض الأسمى من عرض القصة. وهو الموعظة والعبرة والتثبيت، حسبما يقتضيه جو السورة وسياقها.

قال تعالى في سورة الأنبياء:

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا
هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ
أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ
رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ
أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ
﴿٥٨﴾ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ
إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا

بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ﴿٦٦﴾ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

(الأنبياء: ٥١ ــ ٧٠).

وهكذا نجد الفتى إبراهيم عليه السلام يحاجّ قومه بالحكمة، فلما رأى أن ذلك لم يُجْدِ معهم فتيلاً، عمد إلى أصنامهم في يوم عيد من أعيادهم، حيث يضعون القرابين والطعام أمام تلك الآلهة، فضربها جميعاً بالفأس إلّا كبيرهم وهو يسخر من هذه الآلهة الصماء العمياء قائلاً لها ﴿ألا تأكلون﴾. وجعلها إبراهيم عليه السلام جُذاذاً وحطاماً، وعلّق افأس على عنق كبير الآلهة. وصدم القوم عند عودتهم. هذه الآلهة التي يعبدونها محطمة مجندلة ﴿قالوا من فعل هذا بآلهتنا، إنه لمن الظالمين. قالوا سمعنا فتىً يذكرهم يقال له إبراهيم﴾ على سبيل التصغير والتحقير لشأن هذا الذي حطَّم آلهتهم. وجاءوا بإبراهيم عليه السلام على مشهدٍ من الملأ، وبدأوا التحقيق معه: ﴿أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم؟ قال: بل فعله كبيرهم هذا﴾ ــ ولا يزال الفأس معلقاً في عنقه ــ ﴿فاسألوهم إن كانوا ينطقون﴾. إنهم يعلمون تمام العلم أنَّ هذه الآلهة لا تنطق، بل هي بكماء صماء عمياء خرساء، لا تدفع عن نفسها أذى. وسُقِط في أيديهم. واعترفوا بأنهم هم الظالمون، لأنهم يعبدون هذه الآلهة التي لا تدفع عن نفسها الضُرَّ، فكيف تدفعه عن غيرها!!؟ ثم عادوا وانتكسوا على رؤوسهم، وامتلأت قلوبهم ظلماً وظلاماً وتعصباً لهذه الآلهة التي يرتزق من ورائها الكهان والسدنة. وقالوا لإبراهيم عليه السلام في عناد غبي وقح ﴿لقد علمتَ ما هؤلاء ينطقون. قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضرّكم. أفٍ لكم ولما تعبدون من دون الله﴾ ها هنا انتهى الجدل. لم يعد لديهم ما يقولونه. انتهى المنطق والعقل، ولا بد إذن من اللجوء إلى القوة، كما يفعل

الطواغيت دائماً في كل مكان وزمان. ﴿قالوا حَرِّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين. قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾.

وضعوه في المنجنيق وأججوا النار العظيمة. واجتمع الملأ والشعب ليشهدوا منظر إحراق إبراهيم عليه السلام. وكانت المفاجأة. وكانت المعجزة. جاء جبريل عليه السلام ـ وإبراهيم في الهواء معلق في المنجنيق قبيل قذفه إلى النار مباشرة ـ وقال له: ألك حاجة؟ فقال إبراهيم أمَّا لكَ فلا. لأنه لا حاجة به إلى مخلوق مهما كان هذا المخلوق. فتوكله التام الكامل، على الله وحده. فجعل الله النار برداً وسلاماً على إبراهيم. أفقدها قدرتها على الإحراق، وجعلها نعيماً، وهواء منعشاً، وسلاماً لإبراهيم عليه السلام. وكان القوم يرون النار تتلظَّى وتقذف بالحمم، وتشوي وجوههم من على البعد، وتَرهَقُهم منها قترة، ومن دخانها ظلمة تسودُّ منها الوجوه. وإبراهيم عليه السلام يتنعم فيها. ويروى أن إبراهيم عليه السلام قال بعد خروجه من النار: «ما كنت أياماً وليالي أطيب عيشاً إذ كنت فيها. ووددت أن عيشي وحياتي كلها مثل إذ كنت فيها»(1).

وما أن خمدت النار، وخرج إبراهيم منها سالماً، إلا وانعقدت الألسن وتجمدت الكلمات على الشفاه، ودارت الأعين في محاجرها من فرط الدهشة وهول المفاجأة. ها هو إبراهيم يخرج من النار المتلظية سليماً معافى، لم تحرق منه سوى الوثاق الذي أوثقوه به عند رميه في النار.

محاجَّةُ إبراهيم عليه السلام لعبدة الكواكب والنجوم والشمس والقمر:

وانتقل إبراهيم عليه السلام من هذه الفرقة التي كانت تعبد الأوثان إلى فرقة أخرى تعبد الكواكب والنجوم والشمس والقمر. وكعادته في التلطف إلى دعوة قومه، وتنبيههم إلى الباطل الذي يعيشون فيه، بالحكمة والأدب الجم، بدأ إبراهيم عليه السلام دعوته، بأن خرج إلى قومه معلناً لهم ـ من باب المنهج العقلي في الاحتجاج على الخصم ـ أن هذا الكوكب المضيء الشديد اللمعان هو ربه. وكان فريق من قومه يعبدون الزُّهرة ويسمونها عشتروت ـ ويسميها اليونان والرومان فينوس ـ، وبقي معهم حتى أفلت الزهرة، فلما أفلت، قال

(1) ابن كثير: «قصص الأنبياء»، ص ١٤٠.

لهم: إني لا أحب الآفلين. ولا يمكن أن يكون إلهي يظهر ويغيب، فربي باقٍ دائم الحضور. وبدأ الإيمان بالزهرة لدى قومه يهتز. وفي الليلة التالية خرج مع فريق من قومه يعبدون القمر ﴿فلما رأى القمر بازغاً. قال: هذا ربي. فلما أفل، قال: لئن لم يهدني ربي لأكونَنَّ من القوم الضالين﴾. واهتز الإيمان بالقمر لدى هذه الفرقة أيضاً. فلما طلع الصبح وبزغت الشمس، قال إبراهيم عليه السلام ﴿هذا ربي هذا أكبر. فلما أفلت، قال: يا قوم إني بريء مما تشركون. إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرضَ حنيفاً وما أنا من المشركين﴾. وهكذا تساقطت الآلهة الكونية واحدةً وراء الأخرى: الزُهرة والقمر والشمس. واجتمع الملأ من القوم، وعرفوا أن إبراهيم يهدد عقيدتهم ومصالحهم في الصميم.

وبدأوا في محاجته وتخويفه وإرعابه من هذه الآلهة:

﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾..

وخرست الألسن أمام هذه الحجج الناصعة، وجاء التعقيب من المولى سبحانه وتعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿٨٣﴾ ﴾. (الأنعام: ٨٠ ــ ٨٣).

محاجة إبراهيم للنمروذ:

كان مجتمع إبراهيم عليه السلام يعبد آلهة متعددة متنوعة. أنواعٌ مختلفة من التماثيل، وأنواع من الكواكب والنجوم. عبّاد للشمس والقمر، وعبَّاد للنمروذ الملك الطاغية الجبار. وليس هذا الأمر غريباً، فهذه المجتمعات الوثنية تحتمل تعدد الآلهة

المختلفة. ورغم ما يكون بين هذه الآلهة نفسها من صراع ومعارك إلا أن عبّادها رغم اختلافهم تتسع صدورهم لعبادة آلهة كثيرة مخالفة لآلهتهم. بل لا يجدون غضاضة في مشاركة الآخرين عبادة هذه الآلهة الجديدة. لهذا فإن المجتمعات الوثنية تعج بمئات الآلهة. هذا إلّه للخصب، وهذه الإلّهة للمطر، وهذا إلّه للحرب، وهذا إلّه للحب، وهذا إلّه للخمر، وهذه الآلهة للصيد، وهذه للشفاء من أمراض معينة، وتلك تُعبد حتى يفيض النهر، وأخرى يقربون إليها القرابين لاتقاء شرها وأذاها، وهكذا... وللنجوم دور في العبادة وللقمر والشمس مكان في قلوبهم. وللبشر الآلهة مكان وأي مكان. فكما تزعم التوراة أن الجبابرة هم من نسل أبناء الله، فكذلك يزعم أولئك الطغاة منذ أقدم الأزمنة إلى يومنا هذا... وهكذا كان يزعم الفراعنة في مصر، وهكذا كان يزعم أباطرة الروم، وهكذا كان يزعم ملوك بابل، وأكاسرة الفرس، وأباطرة الصين، وملوك الهند، وآخرهم أباطرة اليابان.

الغريب حقاً أن ماوتسي تونج مفجر الثورة الشيوعية الإلحادية في الصين وقائدها، قال لمراسل الأوبزرفر «Observer» البريطانية، في عام ١٩٧٠ م بعد إجراء تحقيق طويل معه: «إذا لم يكن هناك إلّه، ولا بد للشعب من إلّه يعبده، فلماذا تعيبون عليّ أن أكون هذا الإلّه؟! لقد قدَّمت لشعب الصين من الخدمات ما لم يقدمه إنسان، وغيّرتُ معالم الصين بصورة لا مثيل لها، فمن حقي إذن أن يعبدني هذا الشعب. لماذا إذن تنكرون عليّ أنني جعلت نفسي إلّهاً لشعب الصين؟!».

الموقف ذاته كان موجوداً منذ أربعة آلاف عام تقريباً في زمن إبراهيم عليه السلام. جعل النمروذ نفسه إلّهاً، واستغرب جداً أن يقف واحد من شعبه، من عبيده، يقول له: إنك لست بإلّه. يا للهول!! كيف يجرؤ هذا الرجل على نكران ألوهيته مع أن جميع الشعب يراها واضحة جلية؟! ولو كان رجلاً عادياً لأمر بقتله على الفور، ولكنه إبراهيم الذي رُمي في النار وخرج منها سالماً. لهذا تحلّى الملك بالصبر، وتذرّع بالحكمة، وبدأ بالمحاجّة والمماحكة. قال تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ

﴿فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾.

(البقر: ٢٥٨)

وقف إبراهيم عليه السلام أمام هذا الطاغية وقال له: أنت بشر. أنت لست بإله. واحمرَّت حدقتا النمروذ، ولكنه تماسك، وقال له: ما هذا الذي تقول يا إبراهيم؟ فقال إبراهيم: ﴿ربيَ الذي يحيي ويميت﴾ وعلم النمروذ أنه لا يحيي ولا يميت، ولكنها المكابرة والعناد وإظهار قدرته أمام رعيته وعبيده. قال: ﴿أنا أحيي وأميت﴾ آمر بقتل إنسان ثم آمر بالعفو عنه، فأنا قد أَمتُّهُ في الأولى وأحييته في الثانية. وعلم إبراهيم عليه السلام أن لا فائدة من الجدل بهذه الصورة مع هذا المتعالي المعاند، فعمد إلى دليل لا يتمكن معه النمروذ من الإجابة. قال إبراهيم عليه السلام: ﴿فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأتِ بها من المغرب﴾. فوجىء النمروذ بهذا الجواب المفحم. ﴿فبهت الذين كفر، والله لا يهدي القوم الظالمين﴾. ولم يحر نمروذ جواباً وظل فاغراً فاه طوال اليوم من هول الصدمة. وتنبهت عقول العبيد الذين أعماهم سلطان النمروذ وجبروته، وبدأت النفوس تتململ من عبادة هذا الذي لا يكاد يبين.

قامت الحجة على قوم إبراهيم بكل فرقهم وأوثانهم وعباداتهم المختلفة، الكواكب والنجوم والشمس والقمر، والأوثان المختلفة، وعبادة النمروذ، كلها انهارت تحت نصاعة حجة إبراهيم عليه السلام. . .

واستخدم الملأ وسائل الإرهاب والبطش، ومدوا يد الإغراء والمال لمنع التحول عن هذه الآلهة. واستمرأ قوم إبراهيم الذل وعبادة الأصنام المختلفة. أصنام البشر، وأصنام الكواكب، وأصنام الأحجار.

هجرة إبراهيم عليه السلام:

وجاء الأمر الإلٓهي لإبراهيم عليه السلام بالهجرة إلى ربه. خرج مهاجراً من وطنه وقومه. ولم يكن معه في هجرته إلا زوجته سارة وابن أخيه لوط بن هاران. قال تعالى:

﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ

وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾.

(الأنبياء: ٧١ ـ ٧٣)

لم يؤمن له سوى لوط عليه السلام وسوى زوجته سارة.

قال تعالى:

﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾. (العنكبوت: ٢٦ ـ ٢٧).

هاجر إبراهيم عليه السلام إلى أرض الشام، إلى بيت المقدس. فوجد هناك الأمن والأمان. وعامله أهل تلك البلاد بكل تجلّة واحترام. وحتى التوراة المحرفة تقول لنا: إن الكنعانيين وملكهم أبيمالك عاملوا إبراهيم بكل الحب والود وأعطوه أرضاً يعيش فيها. وعندما ماتت زوجته سارة طلب منهم إبراهيم عليه السلام مكاناً ليدفنها فيه، فخرجت المدينة (حبرون = مدينة الخليل) كلها تقول له: «اسمعنا يا سيد. أنت رئيس من الله بيننا. في أفضل قبورنا ادفن ميتك. لا يمنع أحدٌ منا قبره عنك» (سفر التكوين ٢٣).

مولد إسماعيل والأمر بذبحه:

في هذه الأرض المباركة رزقه الله بإسماعيل من هاجر جارية سارة التي أعطتها له. وجاء أمر الله أن يذهب بهاجر وابنها إلى وادٍ غير ذي زرع من مكان البيت العتيق في مكة المكرمة، التي لم يكن فيها إنسان في ذلك الوقت. وحدثت المعجزة، تفجرت الأرض ماءً زُلالاً مباركاً، بعد أن كاد الرضيع إسماعيل يموت من العطش في تلك البرية. واجتمع الناس حول الماء، ونشأ الغلام رامياً بالقوس، قوي الجسم، صارم العزم، مع حلمٍ وعلمٍ ورثهما من أبيه. فلما بلغ معه الغلام السعي جاء البلاء الأكبر الذي لم يتعرض إبراهيم عليه السلام لبلاء مثله من قبل.

رأى في المنام أنه يذبح ابنه فلذة كبده. لم يتشكك إبراهيم عليه السلام لحظة

واحدة. لم يقل هذا حلم. لو أراد الله ذلك لأمرني به صراحة بواسطة جبريل مثلما تأتي بقية أوامر الوحي.

انتهى إبراهيم من قراره الأليم بذبح أحب المخلوقات إليه. وانطلق إلى ابنه الحليم العليم وقال له:

﴿ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ ﴾.

وعرف إسماعيل مقصد أبيه. أدرك مقدار الألم الذي يعانيه الشيخ الجليل الذي قارب المئة أو كاد. وأسرع بالرد:

﴿ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ ﴾. (الصافات: ١٠٢ ـ ١٠٦).

وأنزل الله كبشاً من السماء ليذبح بدلاً من إسماعيل.. وجعل الله سبحانه وتعالىٰ ذلك اليوم عيداً. عيد التضحية والفداء، وهو أكبر الأعياد لدى المسلمين، حيث ذبح إبراهيم في ذلك اليوم من قلبه حب ابنه إسماعيل الذي رُزقه على كبر ولم يبق في قلبه شيء سوى الحب الخالص لله. وصار حب إسماعيل بعد ذلك تابعاً لحبه لله تعالىٰ.

وجعل الله سبحانه وتعالى من قصة إسماعيل ومشي هاجر بين الصفا والمروة، ثم الأمر بالذبح، وتعرض إبليس لإبراهيم وإسماعيل ليغريهما بالتوقف عن ما سماه جريمة القتل والذبح بدون مبرر، ورمي إبراهيم له بالحجارة في ثلاثة مواضع ـ هي الجمرات الموجودة في منى ـ، جعل الله سبحانه وتعالى هذه القصة وما دار فيها من شعائر الحج ومناسكه.

الأمر ببناء البيت العتيق:

وأمر الله إبراهيم ببناء البيت ورفع القواعد. يساعده في ذلك إسماعيل:

﴿ وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ

﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٢٨ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٢٩ ﴾. (البقرة: ١٢٧ ـ ١٢٩).

ويأمر الله إبراهيم عليه السلام بأن ينادي بالحج، فيسمعه كل من في الأرض، ومن في الأرحام، إلى يوم الدين. ويلبي النداء من كتب الله له الحج. قال تعالى:

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ۝٢٦ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝٢٧ ﴾. (الحج: ٢٦ ـ ٢٧).

مولد إسحاق:

في أرض الشام ـ بمعناها الواسع ـ المباركة رزقه الله أيضاً بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب. وحملت سارة العجوز العقيم، وأنجبت ذلك الغلام العليم. وعاش إسحاق وتزوج وأنجب يعقوبَ في حياة أبويه. وستأتي قصة إسحاق ومولده العجيب من أبوين بلغا من العمر عِتِيّاً. وتأتي البشارة من الملائكة بمولد إسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب. وعاش إسحاق رجلاً كاملاً داعياً القوم الذين عاش بين ظهرانيهم إلى عبادة الله وحده:

﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١١٢ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ۝١١٣ ﴾. (الصافات: ١١٢ ـ ١١٣).

العهد.. لمن؟

وفي أرض الشام زاد حب إبراهيم لربه، حبٌ ملك عليه كل شغاف قلبه. وابتلاه ربه بكلماتٍ. وكلما جاء الابتلاء كلما ازداد إبراهيم نوراً، تماماً كما تصقل الماسة وتزيل عنها بعض الأتربة التي علقت بها. قال تعالى:

﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٢٤ ﴾. (البقرة: ١٢٤).

وجعل الله في ذريته النبوة والكتاب. قال تعالى:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾. (العنكبوت: ٢٧).

وقال تعالى:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾. (الأنعام: ٨٤ ــ ٨٧).

والضمير في قوله: ﴿ومن ذريته﴾ كما يقول ابن كثير، عائد على إبراهيم على المشهور، ولوط وإن كان ابن أخيه، إلا أنه دخل في الذرية تغليباً. وهكذا جعل الله تعالى في ذرية إبراهيم النبوة والكتاب. وكل الأنبياء بعده عليه الصلاة والسلام من ذريته. وظهر من فرع إسحاق الأنبياء العديدون. وظهر من إسماعيل عليه السلام محمد صلى الله عليه وآله وسلم، خاتم الأنبياء والمرسلين، وحبيب رب العالمين، وأفضل الخلق أجمعين.

قصة الطيور الأربعة:

وفي أرض الشام سأل إبراهيمُ ربَّهُ أن يريه كيف يحيي الموتى، قال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾. (البقرة: ٢٦٠).

اشتد الشوق بإبراهيم ليرى القدرة وهي تتحرك رأي العين. سأل ربه كيف يحيي الموتى؟ وجاء الجواب: ﴿أَولم تؤمن؟ قال: بلى﴾.

وفي السؤال والجواب تعليم للبشرية على مدى أجيالها ليتضح لها مدى الحركة النفسية والشوق الذي كان يكابده إبراهيم عليه السلام، لينتقل من الإيمان واليقين إلى عين اليقين وحق اليقين. وجاء الأمر بأن يعمد إلى أربعة من الطير، فمزقهنّ وخلطهن وقسمهنّ أقساماً، وجعل على كل جبل جزءاً ودعاهنّ بأمر الله، فإذا عضو يطير إلى صاحبه، وإذا كل ريشة تأتي إلى أختها وتلتصق بها، حتى اجتمع بدن كل طائر على ما كان عليه، وهو ينظر. تجتمع الأبدان إلى الرؤوس دون أن تختلط عضلة أو ريشة بعضلة الآخر وريشته. هنالك بلغ الإيمان إلى عين اليقين وحق اليقين.

بعض الفروق بين قصة التوراة المحرفة وقصة القرآن الكريم:

إن الفرق الأساسي بين ما يرد في التوراة المحرفة وبين ما ورد في القرآن الكريم من قصة إبراهيم عليه السلام، لا يكمن في الاختلاف في التفاصيل وفي بعض الوقائع التي ذكرها القرآن ولم تذكرها التوراة، أو ذكرتها التوراة المحرفة ولم يذكرها القرآن الكريم، وإنما يكمن الفرق الأساسي في المنهج والتصور والمغزى من إيراد القصة في الكتابين الكريمين، الذي حُرفّ أحدهما وهو التوراة من قبل أحبار يهود، وبقي الآخر محفوظاً.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾. (الحجر: ٩).

فإبراهيم عليه السلام في التوراة (المحرفة) رجل كل همّه الحصول على المال والثروة والولد والعهد من الرب، بأن يعطيه ونسله أرض كنعان. ومن أجل ذلك يقدم القرابين والمحارق. وتصوره التوراة (المحرفة) بأنه جبان وديوث وناكح أخته ــ **لعائن الله المتتابعة على اليهود أبد الدهر** ــ ، كما تصوره في صورة شخص يبحث عن الثروة بكافة الوسائل، ولو كانت تلك الوسيلة تقديم زوجته سارة لفرعون ملك مصر أو أبيمالك ملك الفلسطينيين.

ولا يرد في التوراة المحرفة شيء عن دعوة إبراهيم عليه السلام لأبيه وقومه للإيمان بالله. لا ترد في هذه التوراة قصة تحطيمه للأصنام، ورميه في النار، ومحاجّته لعبدة الكواكب والشمس والقمر ومحاجّته للنمروذ.

وترد قصة سارة وهاجر في صورة منفّرة. حيث تجعل التوراة المحرفة سارة

شديدة العدوان والظلم لهاجر وابنها. وعندما يهمُّ إبراهيم بالاحتجاج على هذا الظلم البيّن يأتيه أمر الرب «لزوجتك سارة تسمع لكل ما تقوله لك»، ولو كان ما تقوله هو الظلم والبغي والعدوان. «لأنه من سارة يدعى لك نسل». أما إسماعيل فليس من نسلك.

ثم تزعم التوراة أن إسحاق هو الذبيح وشتّان بين قصة الذبيح في القرآن وقصته في التوراة. لا شيء يرد عن الرؤيا التي رأى فيها إبراهيم عليه السلام أنه يذبح ابنه، ولا شيء يرد عن هذا الحوار الحاني بين الأب الممتلىء إيماناً وبين الفتى اليافع الذي يقول لأبيه: ﴿يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾.

ولا يرد شيء عن أمر الله تعالى بإخراج إسماعيل وأمه هاجر إلى وادٍ غير ذي زرع، ولا عن رحمة الله وظهور ماء زمزم في التوراة الموجودة بين أيدينا، ولكن التوراة تشير إلى أن إسماعيل وأمه كانا في برية بئر سبع كما تشير أيضاً إلى ظهور الماء من البئر هناك. ولا يرد شيء مطلقاً عن بناء الكعبة، ودعوة إبراهيم الناس للحج إلى بيت الله في التوراة المحرفة.

وترد قصة الملائكة الذين نزلوا ضيوفاً بإبراهيم في التوراة بصورة مغايرة لما في القرآن. ففي التوراة يختلط الأمر على كاتب التوراة المحرفة، فتارة يتحدث عن الملائكة بأنهم الرب نزل في صورة بشر، وتارة يتحدث عنهم بصفتهم ملائكة، ولكنهم يأكلون ويشربون.

وترد في التوراة قصص لم ترد في القرآن الكريم. ومن ذلك زواج إبراهيم بعد وفاة سارة من قطّورة، وأن قطّورة ولدت له ستة من الأبناء. وإذا علمنا أن التوراة تذكر أن سارة توفيت وعمرها ١٢٧ سنة وعمر إبراهيم آنذاك ١٣٧ سنة وأن إبراهيم بقي فترة دون زواج جديد.. ثم تزوج قطّورة وهو قد شارف على ١٥٠ عاماً ثم أنجب بعد ذلك ستة من البنين.. وجدنا أنه أمر مستبعد.. ولم يرد في القرآن ولا في السنة شيء عن ذلك، ومع هذا لا نستطيع الجزم بنفيه.

وتصرّ التوراة على أن أهم ما فعله إبراهيم هو إقامة العهد مع الرب لإعطاء إبراهيم ونسله جميع الأرض من النيل إلى الفرات.. وتكون علامة العهد دم الختان.

«وقال الله لإبراهيم وأما أنت فتحفظ عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعـدك. يختن منكم كـل ذكـر. فتختتنـون في لحم غـرلتكم فيكـون عـلامـة عهـد بيني وبينكم». (سفر التكوين ١٧).

لهـذا كله نجد البـون شاسعـاً والفرق هـائلاً بين قصـة إبراهيم عليـه السـلام في القرآن الكريم وفيما ورد في التوراة المحرفة.

* * *

إسماعيل (عليه السلام)

قصة إسماعيل في التوراة:

سبق أن أشرنا إلى مقاطع من حياة إسماعيل كما وردت في التوراة المحرفة عند استعراض قصة إبراهيم عليه السلام. وكانت تلك الإشارات سريعة جداً. وسنحاول ها هنا أن نذكر بعض التفاصيل.

رغم أن التوراة تعترف بأن إسماعيل هو ابن إبراهيم البكر، ورغم أن التوراة تجعل العهد دائماً للابن البكر، إلا أنها في هذا الموضع تنكر أهمية البكورية التي تتمسك بها. وتجعل العهد من الله لإسحاق دائماً أبدياً، لأنه بإسحاق فقط يدعى لإبراهيم نسل!!

تبدأ قصة إسماعيل في سفر التكوين الإصحاح ١٦ بأن تقوم سارة العاقر بتقديم هاجر جاريتها لإبراهيم حتى تلد له. «وأما ساراي امرأة أبرام فلم تلد له. وكانت لها جارية مصرية اسمها هاجر. فقالت ساراي لأبرام: هوذا الربُّ قد أمسكني عن الولادة. ادخل على جاريتي. لعلي أرزق منها بنين. فسمع أبرام لقول ساراي... فدخل على هاجر فحبلت. ولما رأت أنها حبلت صغرت مولاتها في عينيها. فقالت ساراي لأبرام ظُلمي عليك. أنا دفعتُ جاريتي إلى حضنك. فلما رأت أنها حبلت صَغُرتُ في عينيها. يقضي الرب بيني وبينك. فقال أبرام لساراي: هوذا جاريتك في يدك افعلي بها ما يحسن في عينيك، فأذلتها ساراي، فهربت هاجر من وجهها. فوجدها ملاك الرب على عين الماء في البريّة، على العين التي في طريق شور. وقال: يا هاجر جارية ساراي من أين أتيت؟ وإلى أين تذهبين؟ فقالت أنا هاربة من وجه مولاتي ساراي.

فقال لها ملاك الرب: ارجعي إلى مولاتك، واخضعي تحت يديها. وقال لها ملاك الرب: تكثيراً أُكثّر نسلك فلا يُعدُّ من الكثرة. وقال لها ملاك الربّ: ها أنت حبلى فتلدين ابناً وتدعين اسمه إسماعيل لأن الربَّ قد سمع لمذلتك. وإنه يكون إنساناً وحشياً. يده على كل واحد، ويدُ كل واحد عليه. وأمام جميع إخوته يسكن. فدعت اسم الرب الذي تكلم معها أنت إيل رُئي. لأنها قالت: أههنا أيضاً رأيت بعد رؤية؟! لذلك دُعيت البئر بئر لحي رئي... فولدت هاجر لأبرام ابناً ودعاه أبرام إسماعيل.. وكان أبرام ابن ست وثمانين سنة لما ولدت هاجر إسماعيل» (سفر التكوين، الإصحاح ١٦: ١ ــ ١٦).

وهكذا تزعم التوراة أن ساراي قدمت جاريتها هاجر لإسماعيل ولكنها غارت منها جداً بعد أن حملت هاجر بإسماعيل، وأذلتها ساراي إذلالاً شديداً. ووافقها إبراهيم على هذا الظلم حسب زعم التوراة، كما وافقها الملاك أيضاً على هذا الظلم، الذي قال لهاجر: ارجعي إلى مولاتك واخضعي لها.

وتلد هاجر إسماعيل، وتصبر على أذى سارة وتعنتها، حسب مزاعم التوراة. «وقال إبراهيم لله ليت إسماعيل يعيش أمامك. فقال الله: بل سارة امرأتك تلد لك ابناً وتدعو اسمه إسحاق. وأقيم عهدي معه عهداً أبدياً لنسله من بعده. وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه. ها أنا أباركه وأثمّره وأكثّرُهُ كثيراً جداً. اثنيْ عشر رئيساً يلد وأجعله أمة كبيرة. ولكن عهدي أقيمه مع إسحاق الذي تلده لك سارة في هذا الوقت في السنة الآتية. فلما فرغ من الكلام معه صعد الله عن إبراهيم». (سفر التكوين ١٧: ١٨ ــ ٢١).

ورغم أن التوراة تجعل لإسماعيل شيئاً من البركة، إلا أن العهد كله يذهب لإسحاق عهداً أبدياً له ولنسله. ولا يدعى لإبراهيم نسل إلا بإسحاق فقط.

وأما إسماعيل فتصفه التوراة بأنه كان وحشياً يده على كل واحد ويد كل واحد عليه. ليس فيه من صفات إسماعيل الحقيقية التي وردت في القرآن شيء، ذلك الغلام العليم الذي يقول لأبيه ﴿يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾ في ذلك الموقف الرهيب الذي تضطرب لهوله الجبال.

طرد إسماعيل وهاجر كما تزعم التوراة :

تذكر التوراة (المحرفة) أن إسماعيل كان يمزح مع أخيه إسحاق. وها هنا تثور ثائرة سارة بدون أي مبرر، وتقرر طرد هاجر وابنها إسماعيل.

جاء في سفر التكوين (الإصحاح ٢١ : ٩ ــ ١٢) ما يلي :

«ورأت سارة ابن هاجر المصرية الذي ولدته لإبراهيم يمزح، فقالت لإبراهيم : اطرد هذه الجارية وابنها، لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابني إسحاق. فقبح الكلام جداً في عيني إبراهيم بسبب ابنه. فقال الله لإبراهيم: لا يقبح في عينيك من أجل الغلام ومن أجل جاريتك. **في كل ما تقول لك سارة اسمع لقولها لأنه بإسحاق يدعى لك نسل**» وهي صورة قبيحة جداً حيث تصور أن الله ــ تعالى الله عن ذلك ــ يحابي سارة ويقرها على ظلمها لهاجر وابنها اسماعيل، ويأمر إبراهيم بأن يطيع سارة في كل ما تقول له سارة. وهي هي مزاعم اليهود التي افتروها على الله وملأوا بها التوراة. حيث نجد في كل سفر عشرات المقولات بأن الله جعلهم شعبه المختار، وأنهم بمنزلة الابن من أبيه، وأن العهد كان لإبراهيم وإسحاق ويعقوب إلى أبد الآبدين، ليجعل بني إسرائيل يستعبدون جميع الأمم ويذلونها، لأن الله لم يكن ليخلق الكون كله إلا من أجل ابنه البكر وحبيبه إسرائيل!!

وتذكر التوراة هذا العهد الأبدي الموثق بالختان.. تزعم التوراة أن الله قال لإبراهيم «وأقيم عهدي بيني وبين نسلك من بعدك في أجيالهم عهداً أبدياً. لأكون إلهاً لك ولنسلك من بعدك. وأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك، كل أرض كنعان، ملكاً أبدياً، وأكون إلههم». «وقال الله لإبراهيم: وأما أنت فتحفظ عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك، يختن منكم كل ذكر، فتختنون في لحم غرلتكم، فيكون علامة عهد بيني وبينكم. يُختن ختاناً وليد بيتك والمبتاع بفضتك. فيكون عهدي في لحمكم عهداً أبدياً. وأما الذكر الأغلف الذي لا يختن في لحم غرلته فتقطع تلك النفس من شعبها. إنه قد نكث عهدي». (سفر التكوين ١٧ : ٩ ــ ١٤).

ورغم أن إبراهيم ختن إسماعيل وعمر إسماعيل آنذاك ١٣ عاماً إلا أن هذا

الختان لم يعط إسماعيل الحق في العهد. كان مثل العبد المبتاع بفضة يختن حتى يمكن أن يعيش في بيت إبراهيم ومع نسله، ولكن لا حق له في الميراث. ومع هذا قام إبراهيم بطرد هاجر وابنها إسماعيل حسب أوامر سارة. وتزعم القصة المتناقضة أن إبراهيم صرف هاجر وابنها بعد أن أعطاها قربة ماء وخبزاً، فتاهت هاجر في برية بئر سبع. وتصور القصة أن إسماعيل كان طفلاً صغيراً، وأن الماء نفذَ من هاجر، ووضعت هاجر إسماعيل تحت شجرة وجلست مقابلة وبكت. «وسمع الله صوت الغلام ونادى ملاك الله هاجر من السماء وقال لها: مالك يا هاجر؟ لا تخافي لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو. قومي احملي الغلام وشدي يدك به لأني سأجعله أمة عظيمة. وفتح الله عينيها فأبصرت بئر ماء فذهبت وملأت القربة ماءً وسقت الغلام».

وتتناقض قصة التوراة، فتارة تذكر أن إسماعيل كان طفلاً رضيعاً عندما طرد إبراهيم هاجر بناء على أوامر سارة، وتارة تزعم أن إبراهيم ختن إسماعيل أولاً وقد تم الختان ولإسماعيل ١٣ عاماً.

وتزعم التوراة أن هاجر تاهت في برية بئر سبع (صحراء النقب)، وتارة تزعم أن إسماعيل كبر ونما في برية فاران (مكة). وتزعم التوراة أن هاجر أخذت لإسماعيل زوجة من أرض مصر.

وتذكر التوراة أن إسماعيل شب رامياً بالقوس ـ وهذا أمر تذكره الأحاديث النبوية الصحيحة، حيث كان النبي يحث أصحابه على الرمي ويقول لهم: «ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً».

ولكن التوراة تزعم أنه كان وحشياً، يده على كل أحد ويد كل أحد عليه. وهي صفات مناقضة لصفات الصبر والحلم والأدب التي تحلّى بها إسماعيل عليه السلام.

وينتهي ذكر إسماعيل من التوراة بذكر أبنائه. وتتفرغ التوراة لمولد إسحاق وأخذ العهد له. وتزعم أنه هو الذبيح وإن كانت تعرض قصة الذبح بصورة مشوشة ومسيئة لإسحاق عليه السلام. وتفصّل بعد ذلك في قصة زواج إسحاق من رفقة، وما فعله إسحاق في حياته إلى أن مات.

قصة إسماعيل عليه السلام في القرآن الكريم :

يذكر القرآن الكريم ثلاثة مشاهد من حياة إسماعيل عليه السلام:

● **الأول**: إسكان إبراهيم عليه السلام لزوجه هاجر وابنها الرضيع إسماعيل في وادٍ غير ذي زرع، في موقع البيت العتيق حسب أمر الله تعالى.

● **الثاني**: عندما شبَّ إسماعيل وبلغ مع أبيه السعي. وقال له إبراهيم ﴿إني أرى في المنام أني أذبحك﴾.

● **الثالث**: بناء الكعبة ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل﴾.

وقد ورد في غير هذه المشاهد الثلاثة ذكر لإسماعيل مع جملة الأنبياء. ووصفه الله بالعلم، كما وصفه بالصبر والحلم، وأنه كان يأمر أهله بالصلاة.

● **المشهد الأول**:

جاء إبراهيم عليه السلام إلى هاجر، فأخذها هي وابنها الرضيع، وسافر بهما من أرض الشام حتى وصل إلى وادٍ غير ذي ذرعٍ عند موقع البيت العتيق. ومكة آنذاك صحراء جرداء، لا حياة فيها ولا أنيس بها. ووضع إبراهيم مع هاجر قربة من الماء وبعض الطعام، ثم قفّى منطلقاً فتبعته هاجر قائلةً: يا إبراهيم. أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي لا حياة به ولا أنيس؟ وإبراهيم لا يرد عليها، وهي تكرر مقولتها، وإبراهيم لا يريها وجهه حتى لا ترى دمعة تريد أن تطفر من عينه. ثم قالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذن لا يضيّعنا، ثم رجعت. فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه، استقبل بوجهه مكان البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوة ورفع يديه وقال:

﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

(إبراهيم: ٣٧).

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفدَ ما في السقاء عطشت وعطش ابنها. وجعلت تنظر إليه يتلوى. فانطلقت كراهية أن تنظر إليه.

فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها. فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً؟ فلم تر أحداً. فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت بطن الوادي، رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها، ونظرت هل ترى أحداً؟ فلم ترَ أحداً. فعلت ذلك سبع مرات(١). قال ابن عباس: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «فلذلك سعى الناس بينهما».

فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً، فقالت: صه. تريد نفسها، ثم تسمّعت، فسمعت أيضاً. فقالت: قد أسمعت إن عندك غواث. فإذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه، أو قال: بجناحه، حتى ظهر الماء. فجعلت تحوضه، وتقول بيدها هكذا. وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعدما تغرف.

قال ابن عباس: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «يرحم الله أم إسماعيل! لو تركت زمزم، أو قال: لو لم تغرف من الماء، لكانت زمزم عيناً معيناً». قال: فشربت وأرضعت ولدها. فقال لها الملك: «لا تخافي الضيعة فإن ها هنا بيتاً لله يبنيه هذا الغلام وأبوه» وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله. فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم، أو أهل بيت من جرهم، مقبلين من طريق كُداء، فنزلوا في أسفل مكة. فرأوا طائراً عائفاً(٢)، فقالوا: «إن هذا الطائر ليدور على ماء. لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء. فأرسلوا رسولاً فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا».

واستأذن القوم من أم إسماعيل أن ينزلوا عندها، فأذنت لهم بعد أن أوضحت

---

(١) ذكر القصة بطولها ابن كثير في كتاب «قصص الأنبياء» نقلاً عن البخاري، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) معنى عائفاً: أي أنَّ الطير كانت تحوم على الماء وتتردَّد ولا تمضي تريد الوقوع. جاء ذلك في «الصحاح»، لإسماعيل بن حمّاد الجوهري ـ تحقيق أحمد عبد الغفور العطار (ج ٤/ ١٤٠٨)، قال: عافت الطير تعيف عيفاً: تحوم على الماء أو على الجيف وتتردد ولا تمضي تريد الوقوع، فهي عائفة. منه قول أبي زبيد:

كأن أوب مساحي القوم فوقهم ... طير تعيف على جون مزاحيف

شرطها قائلة: «لا حقّ لكم في الماء عندنا». واجتمع لدى أم إسماعيل جماعة من أهل جرهم.

وشب إسماعيل بينهم وتعلّم منهم العربية كما تعلم الرماية. وكان ماهراً بالرمي وتزوج فيما بعد منهم.

● **المشهد الثاني:**

الذي يعرضه القرآن الكريم من حياة إسماعيل، هو مشهد الابتلاء الثاني المبكر في حياة هذا النبي الكريم. يبدأ المشهد بهجرة إبراهيم عليه السلام وهو يخرج من وطنه مهاجراً إلى الله فيبشره الله بغلام حليم. فلما بلغ الغلام مبلغ السعي، رأى إبراهيم في المنام أنه يذبح هذا الغلام العليم الحليم. ويقرر إبراهيم أن يذبح ابنه لأن رؤيا الأنبياء حق، ولكنه يتلطف إلى ابنه ويقول له: ﴿يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فأنظر ماذا ترى﴾؟ ويكون الجواب من الغلام العليم الحليم ﴿يا أبتِ افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾.

قال تعالى:

﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾. (الصافات: ٩٩ ــ ١٠٧).

وهو مشهد تمتلأ النفوس فيه انبهاراً حين ترى هذا الشيخ الجليل الذي قارب المئة أو كاد، وهو يهم بذبح فلذة كبده الذي لم يكن له غيره. غلام وأي غلام، كله علم وحلم وأدب وذكاء وفطنة، غلام ترين عليه مخايل النبوة في هذه السن الغضة. ويعلم الشيخ الجليل أن هذا ابتلاء من الله، وأن عليه أن يذبح ابنه. ويظهر له الشيطان في صورة بشر يريد أن يثنيه ويثني الغلام عن هذا العزم. يقول الشيطان لإبراهيم: أتذبح ابنك من أجل رؤيا؟! والله قد حرم قتل النفس البريئة! أتقتل إسماعيل دون ذنب

جناه؟! أتقتل هذا الغلام الزكي دون جريرة؟! فيدفعه إبراهيم ويرميه بسبع حصيات في موقع جمرة العقبة. ويختفي الرجل ليظهر مرة أخرى عند الجمرة الوسطى في منى. ويلتفت مرة أخرى إلى إبراهيم وإلى الغلام: أي جريمة تريدان اقترافها؟! أيُذبح إسماعيل الحليم العليم من أجل رؤيا من الشيطان؟! ويغضب إبراهيم عليه السلام فيدفع هذا الرجل الغريب ويرميه بسبع حصيات أخريات. ويختفي الرجل ليظهر عند الجمرة الصغرى لينال سبع حصيات تنهال عليه مرة ثالثة.

حياة إسماعيل وأبيه تصبح مشاعر الحج ومناسكه. حركة هاجر وهي تسعى بين الصفا والمروة بحثاً عن الماء، تتحول بأمر الله إلى السعي بين الصفا والمروة الذي يقوم به الحجاج والمعتمرون على مدى الأزمنة وتطاول القرون.

انطلاقة إبراهيم في وادي منى لذبح ابنه إسماعيل، تتجسد على مدى التاريخ في حركة الملايين من البشر، وهم يتحركون في منى يرمون الجمرات، ثم يقومون بذبح الهدي والأضاحي.

ذبح إبراهيم عليه السلام لابنه هو ذبح لكل حب سوى حب الله، فإذا تحقق ذلك أنزل الله كبشاً من السماء ليفتدي إسماعيل. ويقوم الملايين من البشر منذ أربعة آلاف عام تقريباً بإعادة القصة ليتملّوا ما فيها من عبر وعجائب. حيث يرون ذلك الإيمان الشامخ، والبلاء الذي تنهدّ له الجبال ولا ينهدُّ له إبراهيم عليه السلام وابنه إسماعيل. حقاً ﴿إن هذا لهو البلاء المبين﴾ بلاء لا يستطيع أحدٌ أن يصمد له إلا إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، ليبقيا للبشرية نبراساً ونوراً تهتدي به في ظلمات الحياة، ولترى كيف يكون الحب الإلهي الكامل الخالص، الذي يذبح من أجله حب الولد، ومن شيخ فانٍ أتاه هذا الولد وقد بلغ من العمر أرذله. وأي ولد!! غلام عليم حليم تتراءى مخايل النبوة والنبل في جميع تصرفاته وسكناته وحركاته. حقاً إن هذا لهو البلاء المبين الذي ينبغي أن تحني له البشرية رأسها إجلالاً وإكباراً ومحبة وتوقيراً.

● **أما المشهد الثالث الذي يعرضه القرآن الكريم من حياة إسماعيل فهو مشهد بناء البيت:**

قال تعالى:

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾. (البقرة: ١٢٥ ــ ١٢٩).

أمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام أن يرفع القواعد من البيت الذي قال الله عنه:

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾. (آل عمران: ٩٦، ٩٧).

وقد ورد في الأخبار أن آدم عليه السلام بناه، وأن الملائكة قالوا له: قد طفنا قبلك بهذا البيت. والكعبة بحيال البيت المعمور، كما رُوي عن علي كرم الله وجهه وغيره من الصحابة. واندثر البيت ولم تبق منه إلا القواعد. قال تعالى: ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل﴾.

ووقف إبراهيم على حجر عندما ارتفع البناء وابنه إسماعيل يناوله حتى أتما البناء كما أمرهما الله سبحانه وتعالى. وكان هذا المقام الذي قام عليه إبراهيم ملتصقاً بحائط الكعبة، حتى جاء عمر رضي الله عنه فأخرّه قليلاً لئلا يشغل المصلين. ولا تزال آثار إبراهيم الخليل باقية على هذه الصخرة التي وقف عليها إلى يومنا هذا. فقد كانت الصخرة رطبة فغرزت فيه قدم إبراهيم وبقيت آثارها إلى اليوم. وقد ذكرها في شعره أبو طالب في لاميته المشهورة التي نافح فيها عن النبي صلى الله عليه وسلم وأعلن إيمانه فيها بصدق النبي وأنه صادق لم يكذب قط. وقد نعى فيها على قريش تكذيبها

لابن أخيه محمد صلى الله عليه وسلم، وأنها فقدت رشدها بذلك. قال يذكر البيت والمقام:

وبالبيت حق البيت من بطن مكة — وبالله إن الله ليس بغافل
وبالحجر المسود إذ يمسحونه — إذ اكتنفوه بالضحى والأصائل
وموطىء إبراهيم في الصخر رطبة — على قدميه حافياً غير ناعل

وما أن أتم إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بناء البيت حتى توجها إلى الله العلي القدير بالدعاء ﴿ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم. ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم. ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، إنك أنت العزيز الحكيم﴾ ويستجيب الله لدعائهما ويظهر محمد صلى الله عليه وآله وسلم بعد مرور أكثر من أربعة آلاف على هذا الدعاء الخاشع المتبتل..

ويقوم إبراهيم عليه السلام ومعه إسماعيل ابنه بتطهير البيت وإعداده للطائفين والقائمين والركع السجود. قال تعالى:

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ ﴾. (الحج: ٢٦، ٢٧).

وطهر إبراهيم البيت ومعه ابنه إسماعيل، وأعده للحجيج الذين سيأتون على مدى الأزمنة وتطاول الأيام. ورفع صوته بالنداء كما أمره الله تعالى، فجاوبته الجبال والوديان، ومَنْ كتب الله له الحج ممن كان في عالم الظهور أو لم يزل في عالم الكمون.

ويذكر الله إسماعيل فيبقى ذكره إلى أبد الآبدين. قال تعالى:

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ ﴾. (مريم: ٥٤، ٥٥).

تبـرز صفات هـذا الغلام العليم الحليم عنـد شبابـه، فإذا بنـا أمـام رجـل قـوي الإيمان، قوي الشكيمة، قوي الصبر، صادق الوعد، أرسله الله تعالى إلى القوم الذين عاش بين أظهرهم، وهم جرهم وما حولهم من العرب. وكان يأمرهم بعبادة الله وحده، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة. واستجاب له القوم فعـاشوا في سعـادة وهناء. ثم اجتـالتهم الشياطين وبدأوا الانحراف رويداً رويـداً حتى عبدوا الأوثـان والأصنام، وأشـركوا بـالله ما لم ينزل به سلطاناً. فأدركتهم دعوة إبراهيم وإسماعيل ﴿ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلوا عليهم آيـاتك ويعلمهم الكتـاب والحكمة ويـزكيهم إنك أنت العـزيـز الحكيم﴾. واستجاب الله لهذه الدعوة الصادقة من نبيين كريمين ورسولين مطهرين. فـظهر محمـد صلى الله عليـه وآله وسلم، استجـابة لهـذه الدعـوة. وسعد بـه العرب. . وسعـدت به البشرية.

لم يظهر من نسل إسماعيل أنبياء عديدون كما ظهر من نسل أخيه إسحـاق ولكن الله جعل من نسله من يرجح الكفة كلها. جعل فيها محمداً صلى الله عليه وآله وسلم. وكان ذلك من نصيب إسماعيل صلى الله عليه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين.

ولن نقارن بين ما ذكرته التوراة عن إسماعيـل وبين ما ذكـره القرآن فشتـان ما بين الصورتين. ونكتفي بما ذكرناه فيهما لأن الصورة واضحة جلية.

ففي إحداهما غبش وترهات بسبب إضافات الأحبار وتحريفاتهم، وفي الثانية نقاء وصفاء ومثل أعلى للبشرية تقتدي به وتهتدي بنوره. والله يهـدي لنوره من يشـاء. ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

* * *

إسحاق (عليه السلام)

قصة إسحاق عليه السلام في التوراة:

مولد إسحاق:

تقدم ذكر بشارة الملائكة لإبراهيم وسارة بمولد إسحاق في قصة إبراهيم عليهم السلام جميعاً. كما تقدم ذكر الرؤيا التي رآها إبراهيم قبل ذلك، وأن الله كلمه وأخبره بأن ساراي «ستلد له ولداً. فقال إبراهيم في قلبه: هل يولد لابن مئة سنة وهل تلد سارة وهي بنت تسعين؟! وقال إبراهيم لله: ليت إسماعيل يعيش أمامك. فقال الله بل سارة تلدُ لك ابناً وتدعو اسمه إسحاق، وأقيم عهدي معه، عهداً أبدياً لنسله من بعده. عهدي أقيمه مع إسحاق الذي تلده لك سارة في هذا الوقت في السنة الآتية». (التكوين، الإصحاح ١٧).

وبالفعل ولدت سارة وهي في التسعين وإبراهيم في المائة.. وختن إبراهيم إسحاقَ وهو ابن ثمانية أيام. وقامت سارة بطرد هاجر وابنها إسماعيل لأن إسماعيل كان يمزح ويضحك مع أخيه إسحاق. وقال الرب حسب زعمهم لإبراهيم: في كل ما تقول لك سارة اسمع لقولها لأنه بإسحاق يدعى لك نسل.

وتقص علينا التوراة قصة ذبح إسحاق. وأن إبراهيم أخذ ابنه إلى أرض المُريّا ليذبحه ويجعله محرقة على أحد الجبال. ولا يرد في هذه القصة أن الذبيح علم بما يراد منه، بل كان يسأل أباه: يا أبي هوذا النار والحطب ولكن أين الخروف للمحرقة؟! وأين ذلك من القصة العظيمة التي يرويها لنا القرآن الكريم، حيث يقول إبراهيم عليه السلام:

﴿ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴿١٠٧﴾ ﴾. (الصافات: ١٠٢ ــ ١٠٧).

ولا شك أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام. وقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أنا ابن الذبيحين» ــ أي إسماعيل وعبدالله ــ[(١)].

تزويج إسحاق من رفقة:

تذكر التوراة أن إبراهيم استحلف كبير عبيده أن يذهب إلى أور الكلدانيين ويأخذ لابنه إسحاق زوجته من هناك، من بلده وعشيرته، وأن لا يأخذ لإسحاق زوجة من الكنعانيين الذين كان يعيش بين أظهرهم، والذين أحسنوا إليه إحساناً متواصلاً. جاء في سفر التكوين الإصحاح ٢٤ مايلي: «وشاخ إبراهيم وتقدم في الأيام. وبارك الرب إبراهيم في كل شيء. وقال إبراهيم لعبده كبير بيته المستولي على كل ما كان له، ضع يدك تحت فخذي. فأستحلفك بالربّ إلّه السماء وإلّه الأرض أن لا تأخذ زوجةً لابني من بنات الكنعانيين الذين أنا ساكن بينهم، بل إلى أرضي وعشيرتي تذهب وتأخذ زوجةً لابني إسحاق. فقال له العبد: ربما لا تشاء المرأة أن تتبعني إلى هذه الأرض. هل أرجع بابنك إلى الأرض التي خرجت منها؟ فقال له إبراهيم: احترز من أن ترجع بابني إلى هناك. الربُّ الذي أخذني من بيت أبي ومن أرض ميلادي والذي كلمني والذي أقسم لي قائلاً لنسلك أعطي هذه الأرض. هو يرسل ملاكهُ أمامك فتأخذ زوجة لابني من هناك».

وبالفعل أخذ العبد جمالاً وأموالاً وذهب إلى مدينة ناحور. وخرجت الفتيات يستقين ويملأن الجرار. فقال العبد لإحداهنَّ اسقني قليل ماء من جرتك، فقالت: اشرب يا سيدي. وسقته، وسقت جماله أيضاً. وسألها بنت من أنت؟ فقالت: أنا بنت بتوئيل ابن ملكه الذي ولدته لناحور ــ أخي إبراهيم ــ. وأعطاها العبد خزامه من

(١) انظر تفصيل ذلك في فصل (إسماعيل عليه السلام).

الـذهب وسوارين من الـذهب وطلب المبيت عندهم، فـركضت رفقة وأخبـرت أخـاهـا لابان. فانطلق لابان وأتى بالرجـل الغريب. فلمـا دخل الـدار أخبرهـم أنه عبـد إبراهيم وأنه قد قدم ليأخذ زوجة لإسحاق بن إبراهيم من بيته. ووافقت رفقة وأخـوها على هـذا الزواج وأعطاهـم العبد مزيداً من الذهب والهدايا. وأخذ رفقة معه زوجة لإسحاق وسافر بها حتى وصلا إلى أرض كنعان وأخذ إسحاق رفقة زوجة له.

«وكـان إسحاق ابن أربعين سنـة لما اتَّخـذ لنفسه زوجـة رفقة بنت بتـوئيـل ـ بن ناحور أخو إبراهيم عليـه السلام ـ الآرامي، أخت لابـان الآرامي. وصـلى إسحاق إلى الرب لأجل امرأته لأنها كانت عاقراً. فاستجاب له الرب فحبلت رفقـة امرأتـه، وتزاحم الولدان في بطنها. فقالت: إن كان هكذا فلماذا أنا؟! فمضت لتسأل الـرب، فقال لها الربُّ: في بطنك أمتان. ومن أحشـائك يفتـرق شعبان. شعب يقـوى على شعب وكبير يُستذَل لصغير» (سفر التكوين ٢٥ : ٢٠ ـ ٢٣). يا للصورة الـزرية تـذهب رفقة وتكلم الرب مباشرة وكأنه بشر، ويخبرها أنهـا حامـل بتوأمين وأن الكبـير منهمـا سيكون عبـداً للصغيـر. والكبير هـو عيسو الـذي خرج أولاً من بـطنها وهـو أحمـر وكله فـروة شعـر. والصغير هو يعقوب لأنه خرج قابضاً بعقب عيسو فدُعي يعقوب. ويعقوب هو إسرائيل. ولهذا ينبغي أن يستعبد لـه الجميع بمـا في ذلك أخـاه عيسو ويكـون نسل عيسـو عبيداً لنسل إسرائيل.

«وكان إسحاق ابن ستين سنة لما ولدتهما». (سفر التكوين، الإصحاح ٢٥).

«وحدث جوع آخر غير الجوع الأول الذي كان في أيام إبراهيم. فذهب إسحـاق إلى أبيمـالك ملك الفلسـطينيين إلى جرار. وظهـر له الـربُّ وقال: لا تنـزل إلى مصر. اسكن في الأرض التي أقول لك. **تغرّب في هذه الأرض فأكون معك وأباركـك. لأني لك ولنسلك أعطي جميع هذه البلاد وأفي بالقسم الذي أقسمت لإبراهيم أبيـك. وأكثّرُ نسلك كنجوم السماء وأعطي نسلك جميع هذه البلاد**». نفس الكلام المكرر الممجوج الذي لا يمل مؤلفـو التوراة المحـرفة من تكـراره في كل سفـر عشرات المـرات. حتى يثبتوا لأنفسهم الحق المطلق في أرض فلسطين. رغم أن الفلسطينيين عـاملوهم حسب اعتراف هؤلاء المؤلفين بكل كـرم وأريحية نفس.

إسحاق يقول إن رفقة أخته :

ولما نزل إسحاق إلى جرار وسكن بين أهلها، سأله أهل المدينة عن رفقة التي كانت معه، فقال: «هي أختي. لأنه خاف أن يقول: امرأتي. لعلَّ أهل المكان يقتلونني من أجل رفقة لأنها كانت حسنة المنظر» نفس الحجة التي زعموا أن إبراهيم قالها عندما قدّم امرأته لفرعون، ثم عندما قدمها مرة أخرى لأبيمالك. . «وحدث إذ طالت له الأيام هناك أن أبيمالك ملك الفلسطينيين أشرف من الكوة ونظر، وإذا إسحاق يلاعب رفقة امرأته. فدعا أبيمالك إسحاق وقال: إنما هي امرأتك، فكيف قلت: هي أختي؟ فقال له إسحاق: لأني قلت لعلي أموت بسببها. فقال أبيمالك: ما هذا الذي صنعت بنا؟! لولا قليل لاضطجع أحد الشعب مع امرأتك فجلبت علينا ذنباً. فأوصى أبيمالك جميع الشعب قائلاً: الذي يمسُّ هذا الرجل أو امرأته موتاً يموت». (سفر التكوين، الإصحاح ٢٦).

فأنظر إلى نبل أبيمالك وكرم خلقه وخوفه من الله، وأنظر إلى الصورة الحقيرة التي تصور بها التوراة أنبياء الله إبراهيم وإسحاق ويعقوب وجميع الأنبياء، وتجعلهم جبناء كذبة، يقدمون زوجاتهم للملوك خوفاً وطمعاً في الأموال والهدايا.

وبقي إسحاق في جرار وتعاظم ملكه حتى صار عظيماً جداً كما تقول التوراة. فكان له مواشي من الغنم ومواشي من البقر وعبيداً كثيرين. فحسده الفلسطينيون، وقال له أبيمالك: «اذهب من عندنا لأنك صرت أقوى منا جداً». (سفر التكوين ٢٦ : ١٣ ــ ١٧).

ولسنا ندري كيف استطاع إسحاق الغريب في أرض الفلسطينيين أن يكوّن له قوة أضخم وأقوى من قوة الملك نفسه!!

وتزعم التوراة إن إسحاق حفر آباراً كثيرة، ثم ذهب إلى بئر سبع، وهناك ظهر له الرب، وكرر له الوعد بتكثير نسله، حتى يصبحوا مثل عدد الرمال ومثل عدد النجوم، ووعده بالأرض التي أقسم أنه يعطيها له ولنسله. فبنى إسحاق هناك مذبحاً للرب، وقدم له مجموعة كبيرة من الخرفان والأبقار المشوية، والتي يغرم بها الرب حسب زعمهم.

وتزعم التوراة أن أبيمالك وقواده ذهبوا إلى إسحاق وترضّوه. لأن الرب كان معه. وعقدوا معه عهداً وحلفاً، أن لا يصنع بهم شراً. ــ غريب جداً أن يخاف الملك ومعه جيش قوي من إسحاق الذي لم يكن معه إلا حفنة من العبيد ورفقة زوجته ــ.

بئر سبع:

تذكر التوراة أن بئر سبع سميت كذلك لأن إبراهيم حفر بئراً وأعطى أبيمالك سبع نعاج. وقال له: «إنك سبع نعاج تأخذ من يدي لكي تكون لي شهادة بأني حفرت هذه البئر. لذلك دعا ذلك الموضع بئر سبع لأنهما حلفا هناك كلاهما. (سفر التكوين، الإصحاح ٢١).

وتزعم التوراة أيضاً أن إبراهيم صرف ابنه إسماعيل وزوجته هاجر بناءً على أوامر زوجته سارة، التي أمره الرب بأن يسمع لها ويطيع. فمضت هاجر وتاهت في برية بئر سبع. ولما فرغ الماء من القربة طرحت الولد تحت إحدى الأشجار، لأنها قالت: لا أنظر موت الولد. فجلست مقابله ورفعت صوتها وبكت، فسمع الله صوت الغلام، ونادى ملاك الله هاجر من السماء وقال لها: مالك يا هاجر؟ لا تخافي. لأن الله قد سمع لصوت الغلام. وفتح الله عينها فأبصرت بئر ماء فذهبت وملأت القربة ماءً وسقت الغلام» (سفر التكوين ٢١) وسمت المكان بئر سبع.

ويرد في التوراة مرة أُخرى (سفر التكوين ٢٦: ٢٢ ــ ٢٣) أن عبيد إسحاق حفروا بئراً فسمى إسحاق المكان بئر سبع. لذلك اسم المدينة بئر سبع إلى اليوم!!

وتنتهي حياة إسحاق بأن يخدعه يعقوب ويأخذ منه البركة بدلاً من أخيه عيسو، كما سنستعرضه بعد قليل في ترجمة حياة يعقوب كما تذكرها التوراة المحرفة. ومات إسحاق شبعان أياماً كما تقول التوراة، ودفنه ابنه يعقوب في مغارة المكفيلة في حقل عفرون في حبرون ـ مدينة الخليل في الضفة الغربية لنهر الأردن ـ وكان عمره عند وفاته ١٨٠ سنة.

قصة إسحاق عليه السلام في القرآن الكريم:

لا يرد في القرآن الكريم عن حياة إسحاق عليه السلام إلا نبذ مختصرة في آيات قليلة متفرقة، ما عدا ما ورد عن مولده عليه السلام وما صاحبه من بشارات جاءت بها

الملائكة. حيث إن مولده كان معجزة من المعجزات. فقد بلغ أبواه الجليلان عمراً مديداً قبل ولادته، وكانت أمه سارة قد بلغت التسعين كما تذكر التوراة، وهي عجوز عقيم كما جاء في القرآن الكريم. وكان إبراهيم عليه السلام شيخاً كبيراً قد بلغ المئة عام عندما حملت به سارة، ولكنها قدرة الله تعالى التي تقول للشيء كن فيكون.

وتأتي قصة مرور الملائكة عليهم السلام بإبراهيم صلوات الله وسلامه عليه في سور عديدة من القرآن الكريم: منها سورة هود، وسورة الحجر، وسورة الصافات، وسورة الذاريات، وسورية مريم.

قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾.

(هود: ٦٩ ـ ٧٣).

في أرض الشام المباركة استقر إبراهيم عليه السلام وزوجته سارة. ومضت الأيام والسنين وسارة عاقر، انقطع عنها الدم، وانقطع الأمل. مات البصيص الذي بقي في قلبها، وتقدمت لزوجها تطلب منه أن يتزوج جاريتها هاجر، لعل الله يرزقها بولد منها. وأحبت سارة إسماعيل ـ على عكس ما تصفها التوراة ـ ورأت أن الله قد عوضها بذلك عن فقدان الولد. وإن بقيت في النفس حشاشة تتطلع إلى الولد.. ومع مضي الأيام مات الحزن على فقدان الولد والشوق للعثور عليه.

وجاء ذات يوم رجال ثلاثة، ظهروا فجأة، لا يرى عليهم أثر السفر، فرآهم إبراهيم عليه السلام في حقله. لم ينتظر النبي الكريم ليسألهم من أين جاءوا؟! بل انطلق مسرعاً ليكرم ضيفه. رحَّب بهم أجمل ترحيب، وأدخلهم داره، ومع هذا كان مستغرباً لهيئتهم الجميلة التي لا يرى عليها أثر السفر. قال تعالى:

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ﴾.

(الذاريات: ٢٤ ــ ٣٠).

استنكرهم إبراهيم عليه السلام في نفسه، ولكنه التزم آداب الضيافة، وهو قمة في الكرم. فراغ من مجلسه معهم وأحضر عجلاً سميناً وقرّبهُ إليهم. رأى الأيدي ممتنعة عن الوصول إليه. ومن عادة الضيوف أن يأكلوا عندم يُقدَّم لهم الأكل، فإن امتنعوا فتلك علامة شر. وازداد توجس إبراهيم من هؤلاء القوم ذوي الهيئة الجميلة والطلعة البهية الذين لا يرى عليهم أثر السفر ولا يعرف كيف وصلوا إليه وإلى مكانه فجأة كأنما هبطوا من السماء، هنا قال لهم إبراهيم عليه السلام: ألا تأكلون؟! الملائكة لا تأكل يا إبراهيم. ازداد التوجس والخوف في نفس إبراهيم عليه السلام. انفرجت أسارير الملائكة وأخبروه بأنهم ليسوا بشراً حتى يأكلوا. وضحكت سارة من انزعاج زوجها وخوفه. وقيل ضحكت أي حاضت، لأن من أسماء الحيض الضحك. وأعلن الملائكة البشارة. ستلد سارة غلاماً. ليس غلاماً عادياً، إنه نبي من الأنبياء، وستشهد سارة وإبراهيم مولده وزواجه وولادة يعقوب ابنه.

وعقدت الدهشة لسان سارة برهة، ثم انطلق لسانها يصيح يا ويلتى أألد وأنا عجوز عقيم؟! وأقبلت في صرة وضجيج.. وصكت وجهها وهي تقول: عجوز عقيم!! وتحدث الملائكة قائلين: ﴿أتعجبين من أمر الله، رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد﴾. وفي سورة الذاريات: ﴿قالوا: كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم﴾.

وفي سورة الحجر تعجب إبراهيم أيضاً من هذه البشارة كما تعجبت سارة:

﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

يـا لها من بشـارة عظيمـة بمولـد نبي عظيم بعـد هذا العمـر المديـد. ليس ذلك فحسب ولكن الشيخين يبشران بأنهما سيعيشان حتى يتزوج إسحاق ويولد له يعقوب.

وهذا يختلف مع مـا ورد في التوراة من أن سـارة ماتت قبـل أن يتزوج إسحـاق. وتزعم التوراة أن إسحاق هو الذبيح. ورغم اختـلاف قصة الـذبيح في القـرآن عما هي عليه في التوراة، إذ يرين الغبش على قصة التـوراة، ولا يرد فيهـا استسلام الغـلام لأمر ربه، وحثه أباه على أن يمتثل لأمر الله ﴿يا أبت افعل ما تؤمـر ستجدني إن شـاء الله من الصـابرين﴾، بـل يرد في التـوراة أن إسحاق سـأل والـده «هـذا الحـطب والنـار فـأين الخروف؟» وأن إبراهيم فاجأة بتقييـده ومحاولـة ذبحه، والفتى يحـاول التخلص. ولكن نزول خروف من السمـاء ينهي القصة حيث يـأخذ إبـراهيم الخروف ويـذبحه بـدلاً من ابنه.

وهناك أدلة من القرآن والسنة تدل على أن الذبيح هو إسمـاعيل. والـرسول صلى الله عليـه وسلم يقول: «أنـا ابن الذبيحين» أي عبـد الله وإسماعيـل. وقد استـدل أهل التفسير من بشارة الملائكة لإبراهيم وسارة بولادة إسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب بـأن إسحـاق لا يمكن أن يكون هـذا الذبيـح. إذ إن إبـراهيم قـد علم مسبقـاً بـأن إسحـاق سيعيش ويولد له ولد يدعى يعقوب.

قال تعالى:

﴿ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ ﴾.

وقال تعالى:

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ ﴿٨٤﴾ ﴾. (الأنعام: ٨٤).

وقال تعالى:

﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ ﴿٤٩﴾ ﴾.

(مـريـم: ٤٩).

وبانتهاء قصة مولد إسحاق عليه السلام يسدل الستار على قصته، حيث لا يرد في القرآن الكريم شيء عن حياته سوى أنه نبي كريم. ولا عن تزوجه من رفقة ابنة ابن أخ

أبيه، ولا يذكر مزاعم التوراة في أنه قال عن زوجته أنها أخته، كما لا يذكر القرآن الكريم الثروة الكبيرة التي حصل عليها إسحاق أثناء مقامه في أرض الفلسطينيين. لأن هذا كله ليس له قيمة إن صح في القصص القرآني. وأما التوراة المحرفة فكل همها هو إيراد كيف استطاع إبراهيم وإسحاق ثم يعقوب من بعد ذلك أن يجمعوا ثروات هائلة!! وكيف استطاعوا أن يأخذوا العهد من الرب بامتلاك أرض الغير الذين أكرموهم أيما إكرام. ولكي يأخذوا العهد من الرب ويجددوا ذلك الميثاق فإن عليهم أن يقوموا بشيئين اثنين لا ثالث لهما وهما: تقديم المحارق واللحم المشوي للرب الذي يحب اللحم المشوي جداً، وعملية الختان لأن رؤية الدم وإزالة الغرلة هي التي ترضي الرب. ولا يهم بعد ذلك أن يكون اللحم المشوي المقدم للرب مسروقاً كما فعل يعقوب عندما سرق أغنام خاله لابان ـ في زعمهم ـ أو مأخوذاً عنوة وقسراً من الآخرين، كما فعل يعقوب في مرحلة متأخرة من حياته.

* * *

لوط (عليه السلام)

قصة لوط في التوراة المحرفة:

إن قصة لوط عليه السلام في التوراة المحرفة تمثل منتهى الإسفاف والحقارة التي وصل إليها الأحبار الذين حرّفوا التوراة ولوثوا صور الأنبياء عليهم السلام. وتبلغ هذه الحقارة والدناءة أقصى دركاتها حطة، في قصة لوط الذي تزعم التوراة المحرفة أنه زنى بابنتيه، وأنجب من كل واحدة منهما ولداً، أحدهما يدعى بن عمون والآخر موآب، وتزعم التوراة المحرفة أن ذلك حدث بعد أن أهلك الله قرى سدوم وعمورة نتيجة لفسادها، ونجّا الله لوطاً عليه السلام مع ابنتيه. فلما أنجاهم الله من القوم الفاسقين، التجأ لوط وابنتاه إلى مغارة في الجبل، وهناك تقدمت الفتاتان وسقتا أباهما خمراً، واضطجعت معه الكبرى في الليلة الأولى، فلم يشعر باضطجاعها ولا بقيامها، لأنه كان مخموراً لدرجة لا يميز فيها الأشياء. وفي الليلة التالية سكر أيضاً واضطجعت معه الصغرى، ولم يشعر باضطجاعها ولا بقيامها. وحبلت الفتاتان وأنجبت الكبرى موآب وهو أبو الموآبيين ــ الذين عاشوا في منطقة الأردن ــ وأنجبت الصغرى بن عمون، وهو أبو بني عمون الذين عاشوا أيضاً في الأردن.

صورة حقيرة موغلة في البذاءة والشر.

وتبدأ القصة بمواليد تارح والد إبراهيم عليه السلام وناحور وهاران. وولد هاران لوطاً. ومات هاران قبل تارح أبيه في أرض ميلاده في أور الكلدانيين ــ في العراق ــ. واتخذ أبرام ــ أي إبراهيم ــ وناحور لأنفسهما امرأتين... وأخذ تارح أبرام ابنه،

ولوطاً بن هاران ابن ابنه، وساراي كنته امرأة أبرام ابنه، فخرجوا من أور الكلدانيين ليذهبوا إلى أرض كنعان. فأتوا إلى حاران ــ في الشام ــ وأقاموا هناك». (سفر التكوين ١١: ٢٧ ــ ٣٢).

وهذه القصة تختلف عما هو في القرآن الكريم، حيث إن إبراهيم خرج من وطنه في العراق بعد أن قذفوا به في النار، وبعد أن أصرّوا على الكفر. وكان آزر والد إبراهيم كما يسميه القرآن كافراً. ولم يخرج مع إبراهيم سوى زوجته سارة، ولوط ابن أخيه. وهاجروا إلى الأرض المباركة أرض الشام. كما قد مر معنا في قصة إبراهيم عليه السلام.

وتذكر التوراة أن لوطاً صعد مع إبراهيم إلى أرض مصر. وعندما عادا منها محملين بالثروات الهائلة من فرعون، حصل شقاق ونزاع بين رعاة إبراهيم ورعاة لوط. وقال إبراهيم للوط لا تكن مخاصمة بيني وبينك وبين رعاتي ورعاتك. لأننا أخوان. أليست كل الأرض أمامك؟ اعتزل عني. إن ذهبت شمالاً فأنا يميناً وإن يميناً فأنا شمالاً». (سفر التكوين ١٣: ٥ ــ ٩).

«فرفع لوط عينيه ورأى كل دائرة الأردن أن جميعها سقي. فاختار لوط لنفسه كل دائرة الأردن، وارتحل لوط شرقاً. فاعتزل الواحد عن الآخر. أبرام سكن في أرض كنعان ولوط سكن في مدن الدائرة، ونقل خيامه إلى سدوم. وكان أهل سدوم أشراراً وخطاة لدى الرب جداً» (سفر التكوين ١٣: ١٠ ــ ١٣).

ذهاب الملائكة إلى لوط عبر إبراهيم:

ظهر ثلاثة رجال لإبراهيم فجأة عند بلوطات ممرا . فأكرمهم إبراهيم وجاء لهم بعجل سمين. وتزعم التوراة أنهم أكلوا وسندوا قلوبهم بتلك الوجبة الدسمة!! أكلة ترد الروح!! ثم قام الملائكة وبشروا إبراهيم بمولد إسحاق كما أخبروه أنهم ذاهبون إلى سدوم لإهلاكها. فجادلهم إبراهيم حتى لا يهلكوها. وطبعاً تخلط التوراة المحرفة خلطاً شديداً بين الملائكة وبين الرب كما قد أشرنا إليه من قبل[١].

---

(١) انظر: قصة إبراهيم عليه السلام، في التوراة ص ٧٩ ومابعدها.

وذهب الملائكة إلى سدوم، ووصلوا في المساء. «فجاء الملاكان ــ كانوا ثلاثة قبل سطرين فقط ــ إلى سدوم مساء، وكان لوط جالساً في بابِ سدوم. فلما رآهما لوط، قام وسجد بوجهه إلى الأرض. ــ دائماً تصور التوراة الأنبياء وهم يسجدون للملوك وللأضياف ولكل من توسموا فيه مصلحة ــ. وقال يا سيديّ ميلا إلى بيت عبدكما، واغسلا أرجلكما، ثم تبكران وتذهبان في طريقكما. فقالا: لا بل في الساحة نبيت، فألحَّ عليهما جداً. فمالا إليه ودخلا بيته، وصنع لهما ضيافة خبزاً وفطيراً فأكلا». (سفر التكوين ١٩ : ١ ــ ٣).

وهذه الرواية تناقض ما جاء في القرآن الكريم من أن لوطاً عليه السلام ضاق بهم ذرعاً، وقال هذا يوم عصيب. لما يعرفه من قومه المجرمين الذين يعتدون على الأضياف، وخاصة أن هؤلاء كانوا في منتهى الجمال. وقومه مغرمون بالرجال. فكان لوط في منتهى الحرج والضيق، ووَدَّ لو أن هؤلاء الأضياف لم يأتوا إليه.

والشيء الذي تكرره التوراة هو أن الملائكة يأكلون ويحبون الفطير وخاصة مع الزبد واللحم!!

وتستمر التوراة المحرفة في القصة فتقول: إن رجال سدوم أحاطوا بمنزل لوط بمجرد أن سمعوا الخبر ــ لعل زوجة لوط هي التي دلتهم عليهم ــ ونادوا لوطاً: أخرج لنا الرجلين. وأسرع لوط يغلق باب بيته ويحكم رتاجه، وقال لهم: «لا تفعلوا شراً يا أخوتي، هوذا لي ابنتان لم تعرفا رجلاً. أخرجهما إليكم فافعلوا بهما كما يحسن في عيونكم ــ حاشا للوط عليه السلام أن يقدم بناته ليزني بهما أهل سدوم ــ وأما هذان الرجلان فلا تفعلوا بهما شيئاً، لأنهما قد دخلا تحت ظل سقفي، فقالوا: ابعد إلى هناك. ثم قالوا: جاء هذا الإنسان ليتغرب وهو يحكم حكماً، والآن نفعل بك شراً أكثر منهما. وتقدموا ليكسروا الباب، فمد الرجلان ــ الملكان ــ أيديهما وأدخلا لوطاً إليهما إلى البيت وأغلقا الباب. وأما الرجال الذين على باب البيت، فضرباهم بالعمى، من الصغير إلى الكبير. فعجزوا أن يجدوا الباب». (سفر التكوين ١٩ : ٤ ــ ١١).

«وقال الرجلان ــ أي الملكان ــ للوط من لك أيضاً ههنا؟ أصهارك وبنوك وبناتك وكل من لك في المدينة أَخرج من المكان، لأننا مهلكان هذا المكان... وكلم لوط أصهاره الآخذين بناته».

والغريب حقاً أن التوراة نفسها قبل سطرين فقط قالت على لسان لوط: إن ابنتاه لم تعرفا رجلاً، ثم ها هي تقول: إن ابنتيه متزوجتان، وإن لديه أصهاراً. وأن أصهاره رفضوا أن يخرجوا معه، وكانوا يسخرون منه. كذلك تزعم التوراة أن للوط ابناً. وفي نفس الإصحاح تنفي أن له أبناءً، وتذكر أنه لم يكن معه سوى ابنتيه فقط.

وأُخرج لوط مع ابنتيه وزوجته، واستأذن من الملائكة أن يذهب إلى مدين صوغر، لأنه لا يستطيع أن يهرب إلى الجبل، لعل الشرُّ يدركه فيموت!! ودخل لوط إلى صوغر فأمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتاً وناراً من عند الرب من السماء، **وقلب تلك المدن وكل الدائرة، وجميع سكان المدن وبنات الأرض**. ــ كلام فارغ لأن العذاب إنما نزل بقرى قوم لوط فقط ــ ونظرت امرأته من ورائه فصارت عمود ملح. ــ لا تذكر التوراة أنها كانت كافرة وكانت تؤازر قومها ــ.

الطامّة الكبرى:

انتهت قرى قوم لوط من الأرض، وغارت في الأرض، وأصبحت في موضع البحر الميت مدفونة فيه. وتأتي التوراة المحرفة بطامَّة كبرى حيث تزعم أن لوطاً سكر وزنى بابنتيه.

«وصعد لوط من صوغر، وسكن في الجبل، وابنتاه معه، لأنه خاف أن يسكن في صوغر ــ لا يوجد أي مبرر لهذا الخوف ــ فسكن في المغارة وابنتاه. وقالت البكر للصغيرة: أبونا قد شاخ، وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض. هلم نسقي أبانا خمراً ونضطجع معه فنحيي من أبينا نسلاً. فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة، ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها ــ من شدة سكره حسب زعمهم ــ. وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة: إني قد اضطجعت مع أبي. فأسقِهِ خمراً الليلة أيضاً فادخلي اضطجعي معه فنحيي من أبينا نسلاً. فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة أيضاً، وقامت الصغيرة واضطجعت معه، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها. فحبلت ابنتا لوط من أبيهما فولدت البكر ابناً ودعت اسمه موآب. وهو أبو الموآبيين إلى اليوم، والصغيرة أيضاً ولدت ابناً ودعت اسمه ــ بَنْ عَمّي ــ وهو أبو بني عمون إلى اليوم». (سفر التكوين، الإصحاح ١٩: ٣٠ ــ ٣٨).

وهكذا تنتهي قصة لوط عليه السلام في التوراة المحرفة بهذه الصورة المخـزية، حيث يصورون نبياً من أنبياء الله بأنه يسكر حتى لا يعلم ما يفعل، ويصورون بناتـه بهذا الشبق المخجل والمخيف لدرجة أنهن يسعين لأن يزنين مع أبيهن الشيخ!!.

وبصـرف النظر عن التنـاقضات الكثيـرة في قصة لـوط من أولها لآخـرهـا، حيث تزعم التوراة المحرفة تارة أن بناته لم يعرفن رجـلاً، وبعد سـطرين أو ثلاثـة تزعم أنهن متزوجات. ثم تزعم التوراة أن لوطاً طلب من الملكين أن يذهبا به إلى مدينـة صوغـر، وفجأة يترك المدينة بدون أي سبب ليذهب إلى مغـارة في الجبل مـع ابنتيه، وكـان في إمكان البنتين النزول من المغارة والاتصال بالرعاة المنتشرين في المنطقة، ولكن مؤلفي التـوراة المحرفة من الأحبار أصروا على تلويث الأنبياء بصورة مقززة مقرفة.

فقـد أصرَّ هؤلاء الأحبـار الذين حـرّفوا التـوراة على تلويث جميع الأنبيـاء عليهم السـلام. فإبـراهيم وإسحاق يعـرضان زوجتيهمـا على الملوك من أجل الحصـول على المال، ويعقوب كمـا سيأتي يخـدع أباه، ويسـرق خالـه، ويأخـذ العهد بحيلة ومكـر. وإبراهيم يتزوج من أخته سارة، ونوح يسكر حتى يتعـرى، ولوط يسكـر ويزني بـابنتيه، وأبناء يعقوب زناة فجرة، فراؤبـين يزني بـامرأة أبيـه بلهة، ويهـوذا يزني بكنتـه ــ زوجة ابنـه ــ ثمارا، وداود عليـه السلام يـزني بحليلة جاره، ثم يـدبر مكيـدة لاغتيال زوجهـا والتخلص منه. وهارون يصنع العجل ويعبـده، وأمنون بن داود يـزني بأختـه، وسليمان يتزوج ألف امرأة ويعبد معهن آلهتهن الكثيرة، ويصنع لها المعـابد والتمـاثيل، ويـوشع ــ يشـوع ــ بن نون يتـزوج راحاب الـزانية، وينجب من نسلهـا ثمانيـة أنبياء. والأنبيـاء جميعاً عندهم لصوص وكذبة وفسقة وزناة، وجبناء وقتلة، وشـاربو خمـر، وفي كثير من الأحيان عبدة أوثان. فإذا كان الأنبياء بهذه الحقارة والدناءة، وكانت كل الـرذائل جـائزة لهم، فـلا شك أنهـا من باب أولى تكـون جائـزة لليهود. لهـذا فـإن اليهـود على مـدار التاريخ يمثلون أحقر ما في تاريخ البشر. كل صفات الخسة والجبن والكـذب والخداع فيهم. لا يتـورعون عن أي جـريمة إذا تمكنـوا منها: الـزنى، شـرب الخمـر، اللواط، السرقة، الربا، الغش، القتل، كلها موجودة بصورة مكثفة فيهم. عليهم فقط أن يرتكبوا جـرائمهم مع الشعـوب الأخرى، التي لم يخلقهـا الله على هيئـة بشـر إلا من أجـل أن يخدموا اليهود. فإن الله كما يقول التلمود: قد خلق نوعين من البهائم لخدمة الإنسان:

الخيل والبغال والحمير، والبهائم التي على صورة إنسان، وهي جميع البشر من غير اليهود. وذلك ليكونوا لائقين لخدمة ابنه البكر إسرائيل. لذا يجب على اليهودي أن لا يقرض غير اليهودي إلا بالربا، ويجب عليه دِيناً أن يغشّ غير اليهودي، وأن يسرقه، لأن غير اليهودي ملك لليهودي، فكيف بماله!! وأن عليه أن يصل إلى غرضه بكل وسيلة ممكنة، وأن يتذلل إذا اقتضى الأمر ذلك. وعليه أن يقدم بنته الجميلة للحصول على مآربه. ولهذا يقدس اليهود أستير ويجعلون لها سفراً كاملاً في التوراة المحرفة. وأستير هذه فتاة جميلة لعوب، استطاعت أن تستولي على قلب كسرى ملك فارس، وبهذه الطريقة استطاعت أن تنقذ اليهود من الأسر والهوان والتعذيب، وأن تفتح لهم جميع مناصب الدولة الفارسية، وأن تجعل كسرى يأمر بإعادتهم إلى فلسطين، وبناء الهيكل مرة أخرى من أجلهم.

لهذا فإن كل الوسائل التي تؤدي إلى تمكن اليهود وسيطرتهم على العالم تعتبر مباحة، بل مفروضة عليهم فرضاً. ولذا فإن اليهود مجموعة من البشر الملوثين الحاقدين على الإنسانية، ويسعون سعياً حثيثاً لامتطاء صهوة البشر جميعاً، وجعلهم لهم عبيداً. إذ إن بني إسرائيل مخلوقون من روح الله، أما بقية البشر فهم من أرواح الشياطين!! والإسرائيلي جزء من الله، كما أن الابن جزء من أبيه، كما تزعم تعاليم التلمود!! لذا فلا يحق لأحد أن يعترض على أن يكون عبداً للإسرائيلي، بل إن ذلك هو الفخر الحقيقي، حيث يرتفع الإنسان طواعية لخدمة ابن الله البكر إسرائيل.

ويحق لليهود حسب تعاليم التوراة، بل يجب عليهم أن يبيدوا جميع الشعوب الموجودة في فلسطين، وأن يحرّموهم تحريماً، أي أن يقتلوا الشيخ والرضيع، المرأة والرجل، الإنسان والحيوان... وعلى أقل تقدير عليهم أن يطردوهم طرداً من الأرض التي جعلها الله لهم، والتي حلف الرب فيها لإبراهيم وإسحاق ويعقوب أن يجعلها لهم ولنسلهم أبد الآبدين، من النيل إلى الفرات.

قصة لوط عليه السلام في القرآن الكريم:

شتان ما بين ما يعرضه القرآن الكريم من صور الأنبياء الناصعة وبين ما تعرضه التوراة المحرفة، من صور مخزية تزعم أنها تحكي حياة الأنبياء.

ويأتي ذكر لوط عليه السلام لأول مرة عند خروج إبراهيم عليه السلام من وطنه وهجرته إلى الأرض التي بارك الله فيها، أرض الشام.. حيث لم يؤمن به من قومه إلا لوط عليه السلام ــ ابن أخيه ــ وزوجته سارة. قال تعالى:

﴿ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾. (العنكبوت: ٢٦ ــ ٢٧).

وقال تعالى:

﴿ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾.

(الأنبياء: ٧١).

واستقر إبراهيم عليه السلام في أرض كنعان، واستقر لوط في دائرة الأردن. وكان القوم الذين سكن بينهم لوط وأصهر إليهم قوم سوء فاسقين. كانوا يقطعون السبيل ويفعلون في ناديهم المنكر، ويأتون الرجال شهوة من دون النساء. وهي جريمة ابتكرها قوم لوط، جريمة لم يسبقهم بها أحد من العالمين.

قال تعالى:

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾. (الأعراف: ٨٠ ــ ٨٤).

دعاهم لوط عليه السلام إلى الله سبحانه وتعالى: وأنكر عليهم فعلتهم الشنعاء وجريمتهم النكراء وانتكاس فطرتهم وجبلّتهم، وكان القوم قد ولغوا في الرذيلة، وأصبح المنكر لديهم معروفاً والمعروف منكراً. إن التطهر جريمة عندهم، ينبغي التبرؤ منها، وطرد المتطهرين من أرضهم النجسة، قالوا عن لوط وأهله: ﴿أخرجوهم من

قريتكم إنهم أناس يتطهرون﴾. إنها جريمة في عرفهم أن يكون لوطاً ومن معه من المتطهرين. وصبر لوط عليه السلام على هؤلاء القوم المجرمين الذين جمعوا رذائل الأمم الأخرى وأضافوا إليها جريمة لم تعرفها البشرية من قبل قط، وهي إتيان الذكور.

ويئس لوط من هدايتهم. وجاءه الخبر من الله الجبار المنتقم بأن هؤلاء القوم مُهلكون. وأرسل الله ملائكة في صورة بشر، جميلي الطلعة. فمروا بإبراهيم عليه السلام أولاً كما قد ذكرنا في قصة إبراهيم، وبشروه بولادة إسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب. وأخبروه أن الله قد أرسلهم لمعاقبة قوم لوط. فاستمهلهم إبراهيم الأواه المنيب الحليم. وبدأ في محاولة إقناع الملائكة بإرجاء العذاب وإعطائهم فرصة أخرى. فلما أخبروه أن القوم قد استمرأوا الرذيلة والفساد، وأن لا بد من تطهير الأرض من رجسهم، قال: إن في تلك القرى لوط عليه السلام. قال الملائكة: نحن أعلم بمن فيها، لننجينّه وأهله إلا إمرأته كانت من الغابرين.

قال تعالى في سورة العنكبوت (٢٨ ــ ٣٥):

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ
مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ
ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ
إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾
قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ
ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا
تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ
عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ
ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

وفي سورة هود نرى إبراهيم عليه السلام، وهو يجادل الملائكة. قال تعالى:

﴿فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط. إن إبراهيم لحليم أواه منيب يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود﴾.

وخرج الملائكة من عند إبراهيم عليه السلام، وإذا هم عند لوط عليه السلام في سدوم. انزعج سيدنا لوط انزعاجاً شديداً لرؤية هذه الوجوه الجميلة الصباح. إنه يعرف أن قومه لا يتركون رجلاً يمر دون أن يعتدوا عليه، فكيف بهؤلاء الفتيان الذين لم يَرَ أصبحَ منهم ولا أنضر في حياته.

قال تعالى:

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾
وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ
لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى
بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟
يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ
إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ
أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً
عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾. (هود: ٧٧ ــ ٨٣).

عندما ظهر الملائكة فجأة أمام لوط عليه السلام ﴿سيء بهم وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يوم عصيب﴾ لأنه يعرف قومه وفسقهم وحقارة أخلاقهم. وحاول لوط أن يوضح لهؤلاء الفتيان المرد أن هذه القرية فاسدة، وأنها حقيرة، وأن عليهم أن يبتعدوا عنها، لكن ضيوفه لم يبدوا أي اهتمام لما يقول. فلما قال لهم: ﴿إنكم قوم منكرون﴾ صرحوا له بحقيقة مهمتهم، وأنهم ملائكة لن يصلوا إليهم قط. وقالوا له:

﴿بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ
بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ
إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾. (الحجر: ٦٣ ــ ٦٦).

وما أن دخل الضيوف بيت لوط حتى تسللت امرأة لوط، التي كانت كافرة على دين قومها، تخبرهم أن فتياناً ما خلق الله أجمل منهم قد دخلوا بيت لوط. وسرعان ما تجمع أهل سدوم يدكّون باب بيت لوط ويصرخون: أَخْرِجْ الضيوف إلينا يا لوط. ولوط عليه السلام في منتهى الحرج والضيق، لأنه لم يكن يعلم حتى تلك الساعة أن ضيوفه ليسوا من البشر بل ملائكة مكرمون. وتقدم لوط يخاطب فطرهم التي قلبوها ﴿يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم﴾. الفطرة السليمة تناديكم أن تتزوجوا النساء اللاتي خلقهن الله لكم. وتواقح القوم في ردهم على لوط ﴿قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد﴾. إنهم يعلمون أن لوطاً عليه السلام لم يعرض بناته إلا على سبيل الزواج، ولتذكيرهم بما تدعو إليه الفطر السليمة من التفكير في الزواج من الجنس الآخر. ولكنهم لووا الكلام كعادتهم وقالوا له: ﴿لقد علمت ما لنا في بناتك من حق﴾ ثم أوجزوا طلبهم ﴿وإنك لتعلم ما نريد﴾ والدنيا كلها تعلم ما نريد. إننا نريد هؤلاء الفتيان الذين دخلوا بيتك.

إننا قوم نفتخر بأننا أول من مارس هذا الشذوذ، وأول من اخترع هذه الجريمة وباشرها على الأرض. وهنا تفجّر حزن لوط وغضبه المكتوم ﴿قال لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد﴾. تحدث لوط عليه السلام بأسىً. إنه غريب في هذه الأرض، وليس له عشيرة تنصره، ولا ولدٌ يناصره، ولا صديق يلجأ إليه. بلغ به الأسى والحزن مداه. ها هنا التفت إليه الملائكة وأخبروه بحقيقتهم ﴿قالوا يا لوط إنّا رسلُ ربك لن يصلوا إليك﴾.

ازداد هياج قوم لوط. كأن استعطافه لهم يزيد من سعارهم. أخذوا يزأرون، أخرج إلينا ضيوفك يا لوط! ولوط يرتعد خوفاً وفرقاً على ضيوفه. هجموا على الباب وكسروه عنوة، دخلوا بالعشرات وها هنا تحركت يد جبريل تطمس على أعينهم، فإذا هم جميعاً قد فقدوا أبصارهم، كما فقدوا بصيرتهم من قبل.

قال تعالى: ﴿ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر﴾. وخرجوا يتصايحون، وهم لا يدرون إلى أين يتجهون. واطمأنت نفس لوط عليه السلام

في تلك اللحظة، وأعلن الملائكة أن الله قد أرسلهم لإهلاك هؤلاء القوم الفسقة. فقال لوط: متى؟ قالوا: ﴿إن موعدهم الصبح﴾، قال لوط عليه السلام، وقد نفذ صبره على هؤلاء القوم المجرمين: أريد أعجل من ذلك. قال الملائكة: أليس الصبح بقريب؟!

وخرج لوط عليه السلام وابنتاه وزوجته معهم. سرى بأهله ليلاً وأمرهم أن لا يلتفت منهم أحد. فلما بعدوا عن القرية، بدأت تباشير الفجر تظهر، وجاء عذاب الله. رفع جبريل أرضهم إلى السماء ثم قلبها عليهم، وأمطرتهم السماء بحجارة مسومة ــ معلمة ــ كل واحدة منها تقتل شخصاً بعينه. فلما سمعت زوجة لوط الجلبة، التفتت وصاحت: واقوماه، فأصابها حجر من تلك الحجارة فأهلكها على الفور.

وانطلق لوط عليه السلام من تلك الأرض التي لوثها هؤلاء القوم الفسقة، ذوي الطبائع الغريبة الشاذة، والتي تصر على فسادها وشذوذها، وتتفاخر بذلك الشذوذ والفساد، وترى أنها قد اخترعت ما لم تعرفه البشرية من قبل، فهو محل اعتزازها وفخرها.

وتنتهي قصة لوط عليه السلام بهذه الخاتمة:

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾.

وفي سورة الحجر، قال تعالى:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾. (الحجر: ٧٣ ــ ٧٧).

ذهب قوم لوط، وبقيت العبرة والعظة. إن في ذلك لآية للمتوسمين الذين ينظرون في العواقب، ويفكرون في نتيجة تصرفاتهم وأعمالهم. وقد جعل الله قرى قوم لوط في مكان تمر به قوافل قريش والعرب في رحلتهم إلى الشام. إنها لبسبيل مقيم، بطريق واضح معروف مطروق. وهم يعرفون ما حل بهؤلاء القوم المجرمين، فلماذا

لا يتعظون ويعتبرون؟! إن في ذلك لآية وعبرة للمؤمنين.

وشتان ما بين نهاية قصة لوط وقومه في القرآن الكريم، ونهاية قصة لوط وبناته في التوراة المحرفة. تنتهي القصة في القرآن الكريم بالموعظة والعبرة، وتنتهي القصة في التوراة المحرفة بدعوة إلى الفجور، وإلى شرب الخمور، وإلى اعتداء الإنسان على محارمه. تنتهي بصورة حقيرة بالغة الخسة تفوق خسة قوم لوط وشذوذهم. تنتهي بأن تزعم هذه التوراة المحرفة أن نبياً كريماً من أنبياء الله قد قارف الفاحشة مع ابنتيه بعد أن شرب الخمر. ويا لها من صورة تثير التقزز والاشمئزاز. ولكنها عقلية أحبار يهود الذين لوثوا الأنبياء جميعهم، ليسهل لهم اقتراف جرائمهم التي لا يدانيها جرائم أي قوم آخرين، ولو كانوا قوم لوط.

* * *

يعقوب (عليه السلام) وبنوه

قصة يعقوب عليه السلام في التوراة المحرفة:

يعقوب عليه السلام هو إسرائيل. وإسرا تعني عبد وئيل تعني الله، أي عبد الله. وقيل: إن إسرا معناها القوي ــ أي الشديد الأسر ــ وئيل الله، أي القوي بالله. وترد قصة يعقوب في التوراة المحرفة بشيء من التفصيل. ذلك لأن يعقوب هو الذي تنتسب إليه أسباط بني إسرائيل جميعاً. وقد عمدت التوراة المحرفة إلى تشويه صورة يعقوب كما شوهت صور كثير من الأنبياء من قبل ومن بعد، ولكنها جعلت ليعقوب صفات المكر والخداع والكذب والغش التي يتميز بها اليهود، عليهم لعائن الله أبد الدهر. كما إنه لا يخلو من البطش وسفك الدماء عندما تحين له الفرصة. وهي هي صفات يهود في كل زمان ومكان ألصقوها ظلماً وكذباً وزوراً وبهتاناً بأنبياء الله. أما أبناء يعقوب، فقد ألصقوا بهم تهماً شنيعة أخرى مثل: أن يزني راؤبين الابن البكر ليعقوب بزوجة أبيه بلهة، في حياة أبيه، ثم يباركه يعقوب أبوه بعد ذلك!!! كما يزني يهوذا أسد إسرائيل بكنته ثمارا زوجة ابنه!! هذا بالإضافة إلى جرائم القتل والغش والخداع والسرقة.

مولد يعقوب:

تزوج إسحاق عليه السلام من رفقة أخت لابان ــ من نسل ناحور والد إبراهيم ــ. وبقيت رفقة عشرين سنة عاقراً ثم حملت، وكان حملها توأمين. جاء في سفر التكوين (الإصحاح ٢٥: ١٠ ــ ٢٣): «وكان إسحاق ابن أربعين سنة لما اتخذ

لنفسه زوجة رفقة بنت بتوئيل الآرامي، أخت لابان من فدّان آرام. وصلى إسحاق إلى الرب لأجل امرأته لأنها كانت عاقراً، فاستجاب له الربُّ، فحبلت رفقة امرأته. وتزاحم الولدان في بطنها فقالت: إن كان هكذا فلماذا أنا؟ ـ تقصد إن كان الأمر بهذه الشدة، وأموت في هذا الحبل، فلماذا أنا حبلت إذن ـ فمضت لتسأل الرب، فقال لها الرب: في بطنك أمتان، ومن أحشائك يفترق شعبان. شعب يقوى على شعبٍ وكبير يُستعبَدُ لصغيرٍ. أي إن يعقوب الصغير سيستعبد أخاه الكبير عيسو. وإن أبناء يعقوب سيحكمون ويستعبدون أبناء عيسو. هكذا قضى الرب حسب زعمهم.

«فلما كملت أيامها لتلد، إذا في بطنها توأمان. فخرج الأول أحمر كله كفروة شعر، فدعوا اسمه عيسو، وبعد ذلك خرج أخوه ويده قابضة بعقب عيسو، فدعي اسمه يعقوب. وكان إسحاق ابن ستين سنة لما ولدتهما».

وهكذا تعقب يعقوب بكورية أخيه عيسو، ثم اشتراها منه بعد ذلك كما تزعم التوراة، التي تجعل للبكورية مقاماً عظيماً، وأنه لا يرث من الأب إلا الابن البكر. وكبر الغلامان وكان عيسو إنساناً يعرف الصيد فأحب إسحاق عيسو لأن في فمه صيداً. ـ سبب غريب للحب ـ وأما رفقة فكانت تحب يعقوب الذي لم يكن يعرف أن يصطاد والذي سكن الخيام، «وطبخ يعقوب ذات يوم طبيخاً فأتى عيسو من الحقل وهو قد أعيا، فقال ليعقوب أطعمني من هذا الأحمر لأني قد أعييت. . . لذلك دعى اسمه أدوم ـ أي إدام ـ فقال يعقوب: بعني اليوم بكوريتك. فقال عيسو: ها أنا ماضي إلى الموت، فلماذا لي بكورية!! فقال يعقوب: احلف لي اليوم، فحلف له، فباع بكوريته ليعقوب، فأعطى يعقوب عيسو خبزاً وطبيخ عدس، فأكل وشرب وقام ومضى فاحتقر عيسو البكورية». (سفر التكوين ٢٥ : ٢٧ ـ ٣٤).

وهكذا تزعم التوراة أن عيسو كان هو الذي يصطاد، وهو الذي يذهب للحقل، بينما كان يعقوب خاملاً يقوم بأعمال المنزل في بعض الأحيان. وكأنه فتاة. ثم تزعم أن يعقوب رفض أن يعطي أخاه قليلاً من إدام العدس والخبز إلا بعد أن باع له عيسو بكوريته. كان عيسو مجهداً جداً، وجائعاً جداً، لدرجة أنه أحس بأنه سيموت، لهذا تنازل عن بكوريته، وأعطاها ليعقوب في مقابل وجبة من الخبز والعدس.

زواج عيسو من الفلسطينيين:

«ولما كان عيسو ابن أربعين سنة اتخذ زوجةً: يهوديت ابنة بيري الحِثي، وبسمة ابنة إيلون الحثّي. فكانتا مرارة نفسٍ لإسحاق ورفقة» (سفر التكوين ٢٦).

قصة إعطاء العهد ليعقوب بالمكر والخداع:

تزعم التوراة «أن إسحاق لما شاخ وكلّت عيناه عن النظر، دعا ابنه عيسو ــ ابنه الأكبر ــ وقال له: إنني قد شخت، ولست أعرف يوم وفاتي، فالآن خذ جعبتك وقوسك واخرج إلى البرية وتصيّد لي صيداً، واصنع لي أطعمة كما أحب، وائتني بها لآكل حتى تباركك نفسي قبل أن أموت». (سفر التكوين، الإصحاح ٢٧ : ١ ـ ٤). وهكذا ذهب عيسو لإحضار الصيد.

ولسنا ندري لماذا لا تحدث البركة إلا بعد أن يأكل من الصيد ويشرب من الخمر؟!! على أي حال كانت رفقة تسمع كلام إسحاق مع عيسو. وبما أن رفقة لا تحب ابنها عيسو، وخاصة بعد زواجه من بني حثّ الفلسطينيين، وبما أنها تحب يعقوب حباً جماً فقد ساءها أن تذهب البركة لعيسو. لهذا دعت ابنها يعقوب وأخبرته بما قال أبوه إسحاق، وقالت له: «اسمع لقولي. اذهب إلى الغنم وخذ لي من هناك جديين جيدين من المعزى فأصنعهما أطعمة كما يحب، فتحضرها إلى أبيك ليأكل حتى يباركك قبل وفاته. فقال يعقوب لرفقة أمه: هوذا عيسو أخي رجل أشعر وأنا أملس، ربما يجُسُّني أبي فأكون في عينيه كمتهاون، وأجلب على نفسي لعنة لا بركة. فقالت له أمه: لعنتك عليَّ يا ابني». ذهب يعقوب وأحضر الجديين، وصنعت أمه الأطعمة التي يحبها إسحاق، ولبس يعقوب في يديه وعنقه جلد الجدي، ولبس أفخر ألبسة عيسو التي أعطتها له أمه، ودخل يعقوب على أبيه «وقال يا أبي! فقال ــ إسحاق ــ ها أنذا. من أنت يا بني؟ فقال يعقوب: أنا عيسو بكرك، قد فعلت كما كلمتني. قم اجلس وكل من صيدي لكي تباركني نفسك» ــ لا تأتي البركة إلا بعد الأكل ــ واستغرب إسحاق سرعة عودة عيسو، وشكَّ في الصوت، فالصوت صوت يعقوب، لهذا قال له: تقدم لأجسّك يا ابني. فتقدم يعقوب فجسه فقال: «الصوت صوت يعقوب ولكن اليدين يدا عيسو. لأن يدي يعقوب كانتا مشعرتين كيدي عيسو». .

وأراد إسحاق أن يتأكد من أن الذي يخاطبه هو عيسو لا يعقوب، فأخذه وقبّله، فوجد ريح ثياب عيسو، فاطمأنت نفسه. وقام ليأكل جديين كاملين!! يا للهول رجل قد تجاوز المائة يأكل جديين كاملين في وجبة واحدة، **ثم لا يكتفي بذلك بل يأكل معهما خبزاً ويشرب كمية كبيرة من الخمر**، حتى تحل البركة وتنزل على يعقوب. لأن البركة لا تنزل إلا بعد الأكل والوجبات الدسمة، وبعد شرب الخمر. وإذا كان الرب كما يزعمون لا يعطي بركته إلا بعد أن يقدم له عدة خرفان مشوية، فمن باب أولى كذلك أن أنبياءه لا يعطون بركتهم إلا بعد تناول جديين من الماعز مع قنينة من الخمر المعتق!! لعنات الله على اليهود أبد الآبدين. أكل إسحاق وشرب وارتوى من الخمر المعتق. حينئذ بارك ابنه يعقوب وقال له: «**فليعطك الله من ندى السماء، ومن دسم الأرض، وكثرة حنطة وخمر، ليستعبد لك شعوب، وتسجد لك قبائل، كن سيداً لإخوتك. وليسجد لك بنو أمك. ليكن لاعنوك ملعونين. ومباركوك مباركين**» (سفر التكوين، الإصحاح ٢٧).

هذه هي البركة.. أموال وحقول، وحنطة وخمر، ولتستعبد لك شعوب وتسجد لك قبائل، لتكن إلـهاً من دون الله ـ والعياذ بالله ـ. هذه هي مزاعم يهود وفلسفاتهم التي تنضح بالحقد على كل البشر، وأن الله قد جعل لهم كل البشر عبيداً إلى أبد الآبدين، لأنهم أبناؤه وأحباؤه، لا على المعنى المجازي بل على المعنى الحقيقي. فكما أن الابن جزء من أبيه، كذلك فإن الاسرائيلي جزء من الله ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ.

فضيحة يعقوب كما ترويها التوراة المحرفة:

وتزعم التوراة المحرفة أن إسحاق ما كاد ينتهي من إعطاء البركة ليعقوب الكاذب المخادع، الذي زعم أنه عيسو، حتى جاء عيسو بصيده وقدمه إلى أبيه قائلاً: «ليقم أبي ويأكل من صيده، حتى تباركني نفسك. فقال له إسحاق أبوه: من أنت؟ قال: أنا ابنك بكرك عيسو. فارتعد إسحاق ارتعاداً عظيماً جداً، وقال: فمن هو الذي اصطاد صيداً وأتى به إليّ فأكلت من الكل قبل أن تجيء وباركته؟ نعم ويكون مباركاً». فعندما سمع عيسو كلام أبيه صرخ صرخة عظيمة جداً ومُرَّةً جداً، وقال لأبيه: «باركني أنا أيضاً

يـا أبي». فقـال إسحـاق: «**قـد جـاء أخـوك بمكـر وأخـذ بـركتـك**». (سفـر التكوين ٢٧ : ٣٠ ـــ ٣٥).

عيسو يسأل أباه: أما بقيت لك بركة؟

طلب عيسو من أبيه أن يباركه أيضاً. وبما أن البركة لا تأتي إلا بعد أكـل الطعـام وشـرب الخمر، وبمـا أن إسحاق قـد أكل جـديين كاملين مـع قنينـة كـاملة من الخمـر المعتقة وكمية من الخبز الجيد، فإن عملية إنزال البركـة مرة أخـرى أمر متعـذر تمامـاً. لأن بطن إسحاق قد امتلأت لحماً وخبزاً وخمراً، حتى وصل الأكل إلى أعلى المريء. وبما أن عيسو لا يفهم في شؤون الأكل هذه ولا في شؤون البـركة، فقـد بقي المسكين يلحّ على أبيه أن يعطيه ولو قليـلاً من البركـة، ووالده يحـاول عبثاً أن يفهمـه أن البركـة لا يمكن أن تنزل إلا بعد وجبة رهيبة. وبمـا أنه شبعـان فإنـه لا يستطيـع أن يعطيـه أي بركة!!

«**صاح عيسو: أما أبقيت لي بركـة؟ فأجـاب إسحاق: إني قـد جعلته سيـداً لك، ودفعت إليه جميع إخـوته عبيـداً وعضّدتـه بحنطة وخمـر** ـــ ما دام قـد عضده بـالحنطة والخمر فإن الأمر قد انتهى تماماً ـــ فماذا أصنع لك يا بني؟» القضية منتهية، ولا مجـال فيها للنقاش. البركة نزلت بعد أكل جديين كاملين وبعد شرب قنينة من الخمر المعتقة، وقـد عضّد يعقـوب بخمر وحنـطة. مسألـة مهمة جـداً حكايـة الخمـر والحنـطة هـذه. فلا يمكن فك البركة أو إلغاؤها بأي وسيلة من الوسائل.

وبما أن عيسو رجل متواضع جداً، وليس لديه حقد حتى مع من سرق بكوريتـه، وسرق بركته، فإنه لم يطلب سوى أن يأخذ ولو شيئاً يسيراً من هـذه البركـة. ولهذا ظـل يردد على مسامع أبيه: «باركني أنا أيضاً. . . ألك بـركة واحـدة فقط يا أبي». . . ولكن أبـاه إسحاق أجـابه أخيـراً ببركـة أشبه بـاللعنـة، قـال: «هـوذا بـلا دسم الأرض يكـون مسكنك. وبلا ندى السماء من فوق. وبسيفك تعيش ولأخيك تُستعبَد».

هذه هي البركة!! اللعنة التي حصل عليها عيسو من أبيه إسحـاق بعد إلحـاح منه ومماطلة من أبيه.

صرخ عيسو صرخة عظيمة وبكى بكـاءً مرّاً، وحقـد على أخيه يعقـوب، وحُقَّ له

أن يحقـد، ولكن رفقة أدركت ذلـك كله، ولهذا نصحت ابنهـا يعقوب بـأن يسـافـر من أرض كنعان، ويذهب إلى خالـه لابان في أرض الآراميين في أور كلدان، حتى ينسى عيسو ويذهب حقده على أخيه، لأنها تعرف أن قلب عيسو نقي، مهما أسيء إليـه يعفو ويصفح، وهو ليس حقوداً ولا ماكراً كيعقوب أخيه، حسب زعمهم.

سفر يعقوب وأخذه البركة مرة أخرى:

خرج يعقوب من أرض كنعان وتوجه إلى أرض خاله لابان، بعد أن أوصته أمه أن يخرج خوفاً من بطش عيسـو، كما طلبت منه أن يتزوج من بنات خـاله. وفعـل إسحاق الشيء ذاته قبل سفر يعقوب، وأوصاه بأن لا يأخذ له زوجة من بنات كنعان، وأن يـأخذ زوجة من بنات خاله لابان الآرامي. ودعا لـه مرة أخـرى بالبـركة «**والله القـدير يبـاركك ويجعلك مثمـراً ويكثرك فتكـون جمهوراً من الشعـوب. ويعطيـك بركـة إبراهيم لـك ولنسلك معــك. لتـرث أرض غـربتــك التي أعــطاهــا الله لإبــراهـيم**» (سفــر التكوين ٢٨ : ١ ـ ٥).

والبركة كما لاحظنـا في التوراة هي عبـارة عن أرض ومال وكثـرة أبناء، وسيـطرة على الشعوب الأخرى، وجعلهم عبيداً لهم. إبراهيم كما تزعم التوراة حصل على هذه البركة بواسطة الأغنـام التي قدمهـا محرقـة قربـاناً للرب. وإسحـاق فعل الشيء ذاتـه. ويعقوب حصل على البركة بخدعة، بعد أن قدم اللحم المشوي لأبيه إسحاق.

لا يوجد ذكـر في التوراة من أولهـا لآخرهـا لليوم الآخـر والقيامـة والجنة والنـار. لا شــك أن التـوراة الحقيقيــة كـانت مليئــة بـذكــر اليــوم الآخــر والجنــة والنــار. ودليـل ذلك أن اليهـود في عهد النبي صلى الله عليـه وسلم كانـوا يزعمـون أن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة.

قال تعالى:

﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً ۝٨٠﴾. (البقرة: ٨٠).

ومعنى هذا ببساطـة أن التوراة المحـرفة المـوجودة في أيـام النبي صلى الله عليه وسلم كان فيها ذكر الجنة والنار. أما التوراة التي بين أيدينـا فقد مُحي منهـا ذكر الجنـة والنار واليوم الآخر. كل ما يذكر في التوراة من نعيم فهو في الدنيا، وكل مـا يذكـر فيها

من عـذاب وشقاء فهـو في الدنيـا أيضاً. ألغى أحبـار اليهود عقيـدة اليوم الآخـر والجنة والنار من التوراة مطلقاً.

جعلوا البـركـة تتحقق في الحصـول على الأمـوال والأنعـام، والحـرث والأولاد، والخيـل المسومـة، والقناطيـر المقنطرة من الـذهب والفضة. ولا يهم بعـد ذلـك كيف حصلوا عليهـا، ولا من أي طـريق وصلوا إليهـا!! المهم أن يصلوا إليهـا ويكنـزوهـا ويتحكموا بواسطتها في شعوب الأرض. «لتستعبد لك شعوب وتسجد لك قبائل».

ومهمـا فعل اليهـود من ذنوب وجـرائم فـإن الله لا يغضب عليهم إلا كمـا يغضب الأب على ابنه البكر الأثير لديه. يغضب عليه ساعة ثم يعود إليه بالهبات والعطايا. أما الآخرون فليسوا أبناءه، ولا يمكن أن ينالوا رضاه مهمـا فعلوا من خير، فهـو لم يخلقهم أساساً إلا لخدمة ابنه البكر إسرائيل!!

وفي الـطريق إلى أرض الآراميين رأى يعقوب الـرب واقفاً، فقـال له الـرب: «أنا الـرب إلـه إبراهيم وإسحـاق. الأرض التي أنت مضطجع عليهـا أعـطيهـا لـك ولنسلك ويكون نسلك كتراب الأرض، وتمتد شرقاً وغرباً وشمالاً وجنـوباً، وأنـا معك أحفظك حيثما تذهب وأردك إلى هذه الأرض». (سفر التكوين ٢٨ : ١٠ ــ ١٥).

زواج يعقوب:

ذهب يعقوب إلى أرض الآراميين كما أوصاه أبوه إسحاق وأمه رفقة. وهناك وجد بعض الـرعاة مجتمعين حـول بئر مغـطاة بحجر ثقيـل، فقال لهم: مـا لكم لا تسقـون؟ قالوا: الحجر ثقيل، ولا نقدر أن نحركهـا حتى يجتمع الـرعاة. فلمـا رأى يعقوب فتـاة جميلة مقبلة هي وأغنـامها، دحـرج الحجر عن فم البئـر وسقى لها. وعـرف يعقوب أن الفتاة الجميلة هي راحيل ابنة خالـه لابان فـاحتضنها وقبّلهـا ــ موقف غـرامي من أفلام هوليود ــ وجاء لابان وسُرَّ جداً بمقدم ابن أخته. وبقي يعقوب عند خـاله لابـان يخدمـه ويرعى له في مقابل أن يزوجه راحيل الجميلة جداً.

ولما أتم يعقوب مدة خدمته أدخل له لابان البنت الكبـرى ليتة في الـظلام، فبنى بها يعقوب. ولمـا أصبح الصبـاح عاتب خـاله لابـان قائـلاً: «ما هـذا الذي صنعت بي

أليس براحيل خدمت عندك؟ فقال لابان: لا يفعل هكذا في مكاننا أن تعطى الصغيرة قبل الكبيرة. أكمل أسبوع فنعطيك تلك أيضاً بالخدمة التي تخدمني أيضاً سبع سنين أُخر. ففعل يعقوب هكذا، فأكمل أسبوع هذه، فأعطاه لابان راحيل زوجة له». (سفر التكوين، الإصحاح ٢٩).

تنافس ليتة وراحيل:

«ورأى الربُّ أن ليتة مكروهة ففتح رحمها، وأما راحيل فكانت عاقراً، فحبلت ليتة وولدت ابناً ودعت اسمه راؤبين، ثم ولدت آخر وسمّته شمعون «لأن الرب سمع لي»، وولدت ثالثاً وسمته لاوي، وتأكدت أن زوجها يعقوب سيحبها الآن بعد أن أنجبت له ثلاثة من البنين. ثم ولدت رابعاً وسمته يهوذا، وقالت هذه المرة أحمدُ الرب.

وغارت راحيل غيرة شديدة، وقالت ليعقوب: «هب لي بنين وإلا فأنا أموت». فقال يعقوب: ألعلّي مكان الله الذي منع عنك ثمرة بطنك؟ فقالت: هوذا جاريتي بلهة ادخل عليها فتلد لك. فدخل عليها يعقوب وأنجبت ابناً سمته راحيل دانا، لأن الله قضى لها ودان، وولدت بلهة ابناً ثانياً سمته راحيل نفتالي، وقالت: مصارعات الله قد صارعتُ أختي.

وحمي الوطيس بين الأختين، وقامت ليتة بتقديم جاريتها زلفة وأعطتها ليعقوب وولدت له جاد وأشير. وولدت ليتة ابناً خامساً دعت اسمه يساكر وسادساً أسمته زبولون وبنتاً أسمتها دينة..

وأخيراً حملت راحيل وولدت يوسف.

انصراف يعقوب وعودته إلى أرض كنعان:

قرر يعقوب أن ينصرف ويعود بزوجتيه وأولاده العديدين إلى بيت أبيه في أرض كنعان. واحتال يعقوب حيلة ساذجة ليسرق أغنام خاله ـ حسب زعمهم ـ اتفق مع خاله على أن يأخذ يعقوب كل شاة رقطاء وبلقاء، وكل شاة بلقاء ورقطاء بين المعز، وكل شاة سوداء بين الخرفان. وأخذ يعقوب الأغنام وجعل قضباناً من أشجار اللوز والدلب وقشّر فيها خطوطاً، وأوقف القضبان في مساقي الماء، حيث كانت الغنم تجيء لتشرب، لتتوحم

عند مجيئها للشرب، فتوحمت الغنم عند القضبان، وولدت الغنم مخططات ورقطاء وبلقاء. وأفرز يعقوب الخرفان، وكلما توحمت الخرفان، وضع القضبان أمام عيون الغنم في الأجران. «فاتسع الرجل أي يعقوب كثيراً جداً. وكان له غنم كثير وجوار وعبيد وجمال وحمير». (سفر التكوين ٣٠: ٢٢ ــ ٤٢).

وغضب أبناء لابان وقرر يعقوب أن يرحل سراً «فقام يعقوب وحمل أولاده ونساءه على الجمال وساق كل مواشيه وجميع مقتناه الذي اقتنى. وأما لابان فكان قد مضى ليجزَّ غنمه، **فسرقت راحيل أصنام أبيها، وخدع يعقوب قلب لابان الآرامي إذ لم يخبره** بأنه هارب. فهرب هو وكل ما كان له، وقام وعبر النهر وجعل وجهه نحو جبل جلعاد».

ولما عرف لابان بالخبر أسرع يغذُّ السير وراء يعقوب، فلما أدركه أو كاد، جاءه الرب وقال له: «احترز من أن تكلم يعقوب بخير أو شر» فخاف لابان جداً. وكلم يعقوب عندما أدركه قائلاً: «ماذا فعلت وخدعت قلبي وسُقت بناتي كسبايا السيف؟ لماذا هربت خفية وخدعتني ولم تخبرني حتى أشيّعك بالفرح والأغاني والدف والعود، ولم تدعني أقبّل بناتي وبنيّ؟! في قدرة يدي أن أصنع بكم شراً، ولكن إله أبيكم كلمني البارحة قائلاً: احترز من أن تكلم يعقوب بخير أو شر. . . **ولكن لماذا سرقت آلهتي؟؟!!**». (سفر التكوين ٣١: ٣٠).

وأقسم يعقوب أنه لم يسرق آلهة لابان، لأن الذي سرقها هو راحيل. وأظهر يعقوب الغضب لهذه التهمة وقال: «**إله إبراهيم وآلهة ناحور وآلهة أبيهما يقضون بيننا**». (سفر التكوين ٣١: ٥٢). **وهكذا تتهم التوراة يعقوب بأنه كان مشركاً يحلف بالآلهة الكثيرة التي كان يعبدها ناحور وتارح ــ آزر ــ كما تتهمه بأنه كان مخادعاً وكاذباً ومحتالاً وسارقاً وغشاشاً، كذب على أبيه واحتال على أخيه عيسو، وأخذ العهد والبركة بمكر، ثم احتال على خاله، وكذب عليه وسرق أمواله وأغنامه، وسرقت زوجته راحيل آلهة الذهب الكثيرة.**

ويا لها من صورة مقززة ترسمها التوراة لنبي كريم من أنبياء الله فتتهمه بكل نقيصة وكل جريمة، ابتداء من الشرك، وانتهاء بالكذب، والخداع، والمكر، والسرقة، **وتزعم التوراة أن الرب بارك يعقوب، وأقسم له بالأيمان المغلظة بأن يعطيه الأرض**

التي وعدها لأبيه إسحاق وجده إبراهيم، كما وعده أن يكثر نسله حتى يكون أكثر من نجوم السماء، ومن تراب الأرض ورمل البحر، وذلك في مقابل محرقة ولحم مشوي قدَّمه يعقوب للرب إلـهه من جملة الأغنام التي سرقها من خاله لابان.

وذهب يعقوب إلى أرض كنعان، وقدم لأخيه عيسو المخدوع هدية مئتي عنز، ومئتي نعجة، وثلاثين ناقة مرضعة، وأربعين بقرة، وعشرة ثيران، وعشرين أتانا، وعشرة حمير، وعشرين كبشاً، وعشرين تيساً. وأمر يعقوب غلامه بأن يجتاز بها إلى أرض أخيه عيسو، حتى إذا صادف عيسو الغلام وسأله: لمن أنت ولمن هذا الذي قدامك؟ تقول: لعبدك يعقوب. هو هدية مرسلة لسيدي عيسو من عبده يعقوب. وأمر جميع الغلمان بأن يقولوا نفس الكلام..». (سفر التكوين، الإصحاح ٣٢: ١٣ ــ ٢١).

وهكذا انخدع عيسو بالكلام المعسول من يعقوب المخادع الماكر حسب مزاعم التوراة المحرفة، وازداد انخداعاً عندما رأى أخاه يعقوب يسجد له إلى الأرض سبع مرات عندما لاقاه، وزعم له أنه عندما رآه فكأنما رأى الله وأصرَّ على أن يأخذ منه الهدية لأنه عبده.

يعقوب يصارع الله ويأخذ منه العهد مرة أخرى عنوة حسب زعم التوراة:

لم يكتف الأحبار الذين كتبوا التوراة ــ عليهم لعائن الله ــ بما اجترحته أيديهم واقترفوه من الكذب على يعقوب عليه السلام وعلى جميع الأنبياء حتى أتوا بفرية أعظم وبهتان أكبر. زعموا أن يعقوب بقيَ وحده في الوادي، فرأى الرب على هيئة إنسان، فصارعه يعقوب طوال الليل حتى طلع الفجر. فقال الرب ــ حسب زعمهم ــ ليعقوب: ها قد طلع الفجر. أطلقني. فرفض يعقوب أن يطلقه حتى يأخذ العهد مرة أخرى، وهذه المرة بالعنوة والقوة. فقال له الرب: لا يدعى اسمك بعد الآن يعقوب، بل إسرائيل، لأنك جاهدت مع الرب وقدرت، فباركه الرب هناك!!!

وإليك نص ما جاء في سفر التكوين (الإصحاح ٣٢: ٢٤ ــ ٣٢):

«فبقي يعقوب وحده وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر. ولما رأى أنه لا يقدر عليه ــ أي على يعقوب ــ **ضرب حُقَّ فخذه. فانخلع حُقَّ فخذ يعقوب في مصارعته معه. وقال ــ** الرب ــ **أطلقني لأنه قد طلع الفجر.** ــ وهو يخشى الفضيحة، وأن يراه

الناس يصارع يعقوباً ــ فقال يعقوب: لا أطلقك إن لم تباركني. فقال له ــ الرب ــ: ما اسمك؟ فقال: يعقوب. فقال ــ الرب ــ لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل إسرائيل ــ أي القوي بالله ــ لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت. وسأل يعقوب ــ الرب ــ وقال أخبرني باسمك، فقال: لماذا تسأل عن اسمي؟ وباركه هناك. فدعى يعقوب اسم المكان فنيئيل قائلاً: لأني نظرت الله وجهاً لوجه ونجيت نفسي. وأشرقت الشمس وهو يخمع على فخذه. لذلك لا يأكل بنو إسرائيل عرق النَّسا الذي على حُقِّ الفخذ إلى هذا اليوم، لأنه ــ أي الله ــ ضرب حُقَّ فخذ يعقوب على عرق النسا».

يعقوب يخدع أخاه عيسو مرة أخرى حسب زعمهم:

وذهب يعقوب بعد ذلك لمقابلة أخيه عيسو، وقدَّم له الهدايا الكثيرة من الإبل والغنم والأبقار والحمير، وسجد له سبع مرات إلى الأرض، وأمر زوجتيه وأبناءه بأن يسجدوا جميعاً لعيسو. واعتذر عيسو عن قبول الهدايا الكثيرة، حتى لا يرزأ أخاه. فقال يعقوب: خذ هذه الهدايا من عبدك، لأجد نعمة في عيني سيدي. إن وجدت نعمة في عينيك تأخذ هديتي من يدي، **لأني رأيت وجهك كما يُرى وجه الله فرضيت عليّ. خذ بركتي التي آتي بها إليك.** وألحَّ على عيسو حتى أخذ الهدايا. (سفر التكوين ٣٣: ١ ــ ١٢).

وهكذا تقع التوراة في تناقضات كثيرة، فتارة تزعم أن إسحاق جعل يعقوب سيداً لعيسو، وتارة تزعم أن يعقوب قال لعيسو: أنا عبدك وأولادي عبيدك، وكل ما عندي هو لك. وسجد له سبع مرات، وقال له: إنه عندما يراه فكأنما رأى الله ذاته ــ تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً ــ. وتبرر ذلك أن كل ما فعله يعقوب هو من باب الخداع والمكر، حتى يستطيع أن يمتلك أرض أخيه وأمواله. وما أخبث ما يزعمون.

سكنى يعقوب في أرض شكيم واقترافه جريمة القتل حسب زعم التوراة:

تزعم التوراة أن يعقوب ذهب إلى أرض شكيم ــ هي الآن مدينة نابلس في الضفة الغربية ــ وأقام هناك مذبحاً للرب ودعاه إيل إلـه إسرائيل!!

«وخرجت دينة ابنة ليئة التي ولدتها ليعقوب لتنظر بنات الأرض، فرآها شكيم بن

حمور الحوي رئيس الأرض، وأخذها واضطجع معها وأذلها. وتعلقت نفسه بدينة ابنة يعقوب، وأحب الفتاة ولاطف الفتاة. فكلم شكيم حمور أباه قائلاً: خذ لي هذه الصبية زوجة».

وذهب حمور إلى يعقوب وخطب ابنته دينة لابنه شكيم قائلاً: شكيم ابني قد تعلقت نفسه بابنتكم، أعطوه إياها زوجة، وصاهرونا، تعطوننا بناتكم وتأخذون لكم بناتاً. وتسكنون معنا وتكون الأرض قدامكم. اسكنوا واتجروا فيها وتملكوا بها». وعرض عليهم أن يدفع لهم أي مهر يطلبونه مهما غلا هذا المهر.

«فأجاب بنو يعقوب شكيم وحموراً أباه بمكر وتكلموا، لأنه كان قد نجَّس دينة أختهم. فقالوا لهما: لا نستطيع أن نفعل هذا الأمر، أن نعطي أختنا لرجل أغلف، لأنه عار لنا، غير أننا بهذا نواتيكم إن صرتم مثلنا بختنكم كل ذكر، نعطيكم بناتنا ونأخذ لنا بناتكم، ونسكن معكم ونصير شعباً واحداً.

«فحسن الكلام في عيني حمور وفي عيني شكيم بن حمور. ولم يتأخر الغلام أن يفعل الأمر لأنه كان مسروراً بابنة يعقوب. وكان أكرم جميع بيت أبيه». اختتن شكيم وحمور وجميع أهل القرية.

«فحدث في اليوم الثالث إذ كانوا متوجعين، أن ابني يعقوب: شمعون ولاوي أخوي دينة، أخذ كل واحد سيفه وأتوا على المدينة بأمن وقتلا كل ذكر، وقتلا حمور وشكيم ابنه بحد السيف. وأخذا دينة من بيت شكيم. ثم أتى بنو يعقوب على القتلى ونهبوا المدينة، لأنهم نجَّسوا أختهم. غنمهم وبقرهم وحميرهم وكل ما في المدينة وما في الحقل أخذوه، وسبوا ونهبوا كل ثروتهم، وكل أطفالهم ونسائهم وكل ما في البيت» (سفر التكوين ٣٤).

وهكذا تزعم التوراة أن دينة زنت مع شكيم بن حمور برضاها، ثم جاء الشاب يريد الزواج منها، وتظاهر الأب يعقوب وأبناؤه بالرضى والقبول، بشرط واحد هو أن يختتن شكيم وحمور وجميع الذكور، وعندما قبل شكيم وأهل القرية بهذا الشرط وكانوا متوجعين في الختان، هجم عليهم أبناء يعقوب وقتلوهم، ثم نهبوا القرية وأخذوا كل ما فيها من أموال وأخذوا النساء سبايا.

وهي صـورة توضـح إلى أي مـدى بلغ اليهـود الـذين كتبـوا التـوراة من الحقـارة والخسة، حيث زعموا أن يعقوب وبنيه كـانوا مثلهم في منتهى الجبن والخسَّـة والنذالـة والحقارة.

يعقوب يسترضي الرب بمحرقة حسب زعمهم:

عندما قام يعقوب وبنـوه بهذه الجـريمة الخسيسـة، خشي يعقوب على نفسـه من انتقام سكان أرض فلسطين. وقال لأبنائه: إننا نفر قليل، والآن يجتمع علينـا أهل هـذه الأرض فيبيـدونني. لهذا اتجـه يعقوب إلى الله وأقـام مـذبحـاً في بيت إيـل وقـرب لـه مجموعة من الأغنام المشوية شيّاً جيداً فتنسم الرب رائحة الرضـا، وطلب يعقوب لبيتـه ولكل من كان معه: اعزلوا الآلهة الغريبة التي بينكم وتطهروا. فأعطوا يعقوب كل الآلهة التي في أيديهم. فطمـرها يعقـوب تحت البطمـة التي عند شكيم ــ نـابلس ــ. وتقدم للرب في بيت إيـل، فباركـه الرب وزرع الخـوف في قلب أهل فلسـطين وما حـولهـا، فلم يسعوا للانتقام من يعقوب وبنيه. (سفر التكوين، الإصحاح ٣٤ و ٣٥).

وهكذا تزعم التوراة أن بيت يعقوب، وأبناءه وزوجاته، كانوا يعبدون الأوثـان وهو راضٍ وساكت. فلما بدت له حاجة من الـرب كي يحميه من سخط الفلسـطينيين على فعلته الشنعاء وجريمته النكراء، تقرب للرب وترك الأرباب الأخرى التي كانت معه ومع أهله وبنيـه، وطمرهـا تحت البطمـة في قريـة شكيم. وسرَّ الـرب جداً بـرائحـة اللحم المشوي، ونزل وخاطب يعقوب وجهاً لوجه، ووعده بتكثير نسله وجعلهم مثل رمل البحر وتراب الأرض ونجوم السماء، وأن أبناءه سيكونون ملوك الأرض وسادتها. وأعطاه العهد والمـواثيق بذلـك. «ثم صعد الـرب فنصب يعقوب في المكـان الذي تكلم فيـه الـرب عموداً من حجر وسكب عليه سكيباً وصبَّ عليه زيتاً، ودعـا يعقوب اسم المكـان الذي فيه تكلم الله معه بيت إيل». (سفر التكوين ٣٥).

صورة مزرية أخرى من صور الوثنية. يضع يعقـوب نصباً ويصب عليـه الزيت ثم يعبد بعد ذلك هذا النصب والوثن.

مصائب أبناء يعقوب:

تـزعم التوراة المحـرفة أن يعقـوب رحل من بيت إيـل، وأن راحيل ولـدت ابنهـا

الأخير بنيامين ثم ماتت أثناء النفاس وذلك في موقع مدينة بيت لحم ونصب لهـا يعقوب عموداً على قبرها. ثم رحل إلى مجدل يمدر.

رأوبين يزني بإمرأة أبيه:

«وحدث إذ كان إسرائيل ساكناً في تلك الأرض أن رأوبين ــ بكر يعقوب ــ ذهب واضطجع مع بلهة سرية أبيه وسمع إسرائيل». (سفر التكوين ٣٥: ٢١ ــ ٢٢).

لم يعلن إسرائيل ــ يعقوب ــ غضبه على هـذه الفعلة الشنعاء، بـل سكت عليها وبارك ابنه البكر رأوبين، الذي قال له: «رأوبين أنت بكـري قوتي وأول قـدرتي. فضل الرفعة وفضل العز، فـائراً كـالماء لا تتفضّـل لأنك صعـدت على مضجع أبيـك. حينئذ دنسته. على فراشي صعد». ثم تكلم يعقوب عن كـل واحد من بنيـه. . «جميع هؤلاء هم أسباط إسرائيل الإثني عشر. وهذا ما كلمهم به أبوهم وباركهم. كل واحـد بحسب بركته باركهم وأوصاهم. وقال لهم: أنا الغنم إلى قومي. ادفنوني عند آبائي في المغارة التي في حقل عفرون الحثي» ــ في حبرون = مدينـة الخليل ــ. وهنـاك دفنوا يعقـوب مع أبويه إسحاق وإبراهيم.

يهوذا يزني بكنته ثمارا زوجة ابنه عير:

(سفر التكوين، الإصحاح ٣٨: ٦ ــ ٢٧):

يهـوذا هـو أحـد الأسبـاط وأشجـع أبنـاء يعقـوب. وقـد جـاء في سفـر التكـوين الإصحاح ٣٨ قصة زنى يهوذا بكنته ثامارا. وإليك نص ما ورد في التوراة المحرفة:

«وأخذ يهوذا زوجة لعير بكـره. وكان عيـر شريـراً في عيني الرب فـأماتـه الرب. فقال يهوذا لأونان ــ إبنه الثاني ــ ادخل على امرأة أخيك وتزوج بها وأقم نسلاً لأخيك. فعلم أونان أن النسل لا يكون له. فكان إذا دخـل على امرأة أخيـه أنه أفسـد على الأرض لكيلا يعطي نسلاً لأخيه. ــ ومعنى ذلك أن أونان كـان يعزل، لأنـه لو أنجب من ثـامارا لدعي النسل لعير. وهو منطق غريب كـل الغرابـة وسخيف كل السخف ــ. فقبـح في عيني الرب ما فعله أونان (لمـاذا ؟) فأماته أيضاً (غـريب جداً هذا التصـرف). فقـال يهـوذا لثامـارا كنته اقعـدي أرملة في بيت أبيك حتى يكبـر شيلة ابني. . فمضت ثامـارا وقعـدت في بيت أبيها ــ وهكـذا كانت المـرأة تحبس على الصبي حتى يكبر فـإن شاء

تزوجها، وإن شاء زوجها من أراد وأخذ مهرها ـ وهي نفس عادات العرب في الجاهلية التي أبطلها الإسلام ـ . ولما طال الزمان ماتت امرأة يهوذا، فصعد يهوذا إلى جُزاز غنمه إلى تمنة. . فأُخبرت ثامارا وقيل لها هوذا حموك صاعد إلى تمنة ليجز غنمه، فخلعت عنها ثياب ترملها، وتغطت ببرقع وتلففت وجلست في مدخل عينايم التي على طريق تمنة. لأنها رأت أن شيلة قد كبر وهي لم تعط له زوجة. فنظرها يهوذا وحسبها زانية، لأنها كانت قد غطت وجهها ـ عجيب!! الزواني فقط هُنَّ اللائي يغطين وجوههن ـ فمال إليها على الطريق، وقال هاتي أدخل عليك. لأنه لم يعلم أنها كنّته ـ يا للوقاحة المتناهية ـ فقالت: ماذا تعطيني لكي تدخل علي؟ فقال: إني أرسل جدي معزى من الغنم. فقالت: هل تعطيني رهناً حتى ترسله؟ فقال: ما الرهن الذي أعطيك؟ فقالت خاتمك وعصابتك وعصاك التي في يدك. فأعطاها ودخل عليها فحبلت منه. ثم قامت ومضت وخلعت عنها برقعها ولبست ثياب ترملها.

ولما كان نحو ثلاثة أشهر أُخبر يهوذا، وقيل له قد زنت ثامارا كنتك، وها هي حبلى من الزنى. فقال يهوذا: أخرجوها فتحرق ـ يا للهول ـ . أما هي فلما أخرجت أرسلت إلى حميها قائلة: من الرجل الذي هذه له أنا حبلى. وقالت: حقق لمن الخاتم والعصابة والعصا هذه. فتحققها يهوذا وقال: هي أبرُّ مني لأني لم أعطها لشيلة ابني».

صورة بشعة ووقحة وقذرة، تجمع أخلاق يهود من التظاهر بالدين، حيث يطلب يهوذا المجرم الزاني أن تخرج ثامارا وتحرق لأنها زانية، فلما تحقق أنها حبلى نتيجة زناه هو بها، قال: هي أبرُّ مني. والأصح أن يقول: أنا أفجر منها وأفسق. فهو فاجر فاسق متظاهر بالدين حسب نصوص التوراة المحرفة.

وولدت ثامارا من زناها بيهوذا المجرم توأمين: أحدهما فارص، والآخر زارح. وتحدّر من فارص ولد الزنى داوود كما يزعمون. أما سليمان بن داوود فكان أيضاً حسب قولهم ابن زنى، عندما قام داوود ـ حسب زعمهم ـ بالاعتداء على حليلة جاره أوريا الحثي وقائد جيشه. وأنجبت من زناها بداوود حسب افترائهم سليمان.

* * *

يوسف (عليه السلام)

تذكر المصادر التاريخية أن دخول يوسف إلى مصر كان في القرن السابع عشر قبل الميلاد، في عهد الرعاة الهكسوس الذين احتلوا مصر سنة ١٧١٠ قبل الميلاد. والهكسوس من العرب القدماء. وقدم بنو إسرائيل إلى مصر حيث أكرمهم الهكسوس. وكان عددهم سبعين شخصاً عند دخولهم مصر، وعندما طُرد الهكسوس من مصر عام ١٥٨٠ ق. م اشتد الأذى على بني إسرائيل.

تعرض التوراة المحرفة قصة يوسف عليه السلام بصورة مغايرة في الهدف والغاية لما هو موجود في القرآن الكريم. وليس يوسف الذي تصوره التوراة المحرفة مشابهاً ليوسف الصديق، النبي الكريم، الذي يتحدث عنه القرآن المجيد. لا نجد تلك النصاعة والأمانة والبراءة والقوة في دين الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى عبادة الله الواحد الأحد، بل على العكس من ذلك نجد صورة مغايرة، فيها لمحات من قصة يوسف الحقيقية.

تبدأ القصة بأن يعقوب أحب يوسف حباً جماً أحفظ إخوة يوسف عليه. وجاء يوسف وقص على إخوته أنه رأى في المنام أنه حزم حزمة في الحقل فانتصبت حزمته، وجاءت حزم إخوته وسجدت له. ثم حلم مرة أخرى وقص ذلك على إخوته، وقال لهم: إن الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً رأيتهم لي ساجدين. فنهره أبوه وازداد إخوته غيظاً. (سفر التكوين ٣٧).

وذهب إخوة يوسف يرعون أغنامهم. فقال يعقوب: اذهب وارعى الغنم مع

إخوتك وأخبرني بسلامة إخوتـك وسلامـة الغنم ورد لي خبراً. فلمـا وصل يـوسف إلى إخوته قالوا: «هوذا صاحب الأحلام قادم. فالآن هلم نقتله». . فسمع رأوبين وأنقذه من أيـديهم وقال: لا تسفكـوا دماً، اطـرحوه في هـذه البئر. وإذا بقـافلة من الإسمـاعيليين قادمة، فقرر يهوذا الاستفادة من ذلك، واتفق مع إخوته على بيع يـوسف لهم. وعندمـا ذهب إلى البئر لم يجد يوسف لأن جماعة من أهل مـديان سبقـوهم إليه وبـاعوه لقـافلة الإسماعيليين.

أخـذ الإخوة قميص يـوسف وغمسوه في دم تيس من المعـزى، وقـالـوا لأبيهم: وحشٌ رديء أكل يوسف. **فمزَّق يعقوب ثيابه، ووضع مسحاً على حقـويه، ونـاح على ابنه أياماً كثيرةً. فقام جميع بنيه وبناتـه ليعزوه، فـأبى أن يتعزى، وقـال: إني أنزل إلى الهاوية نائحاً على ابني»**[1]. وأما يوسف فـاشتراه فـوطيفار رئيس شـرط فرعـون. وأحبه سيـده وجعل ثقتـه الكاملة فيـه. وكان فوطيفار مخصيّـاً، ورغم ذلك كـانت لـه زوجـة. وأعجبت السيدة بجمال يوسف، وقال له اضطجع معي! فرفض. فأمسكت بثوبه، فترك ثوبه في يدها وهرب خارجـاً. فغضبت وصرخت وكلمت أهـل بيتها قـائلة: إن يوسف جاء ليضطجع معها، فلما صرخت هرب منها وترك ثوبـه إلى جانبهـا. وأخبرت زوجهـا بذلك. فغضب زوجها، ووضع يوسف في السجن.

وحدث أن ساقي ملك مصر وخبازه أذنبا إلى سيدهما ملك مصر، فغضب عليهما وأدخلهما السجن مع يوسف. وحلم كل واحد منهما حلمـاً. قال رئيس السقـاة: رأيت كرمة، وفي الكرمة ثلاثة قضبان أفرخت وأنضجت عناقيدها عنباً. وكـانت كأس فـرعون في يدي، فأخذت العنب وعصرته في الكأس وقـدمته لفـرعون. فقـال يوسف: الثـلاثة قضبان هي ثلاثة أيام، في ثلاثة أيـام يرفـع فرعـون رأسك ويـردك إلى مقامـك، وتعود ساقياً لفرعون كما كنت. اذكرني عند سيدك فرعون، لأني لم أفعل شيئاً حتى وضعوني في السجن.

وقال رئيس الخبّازين: إني رأيت ثلاث سلالٍ حوارى على رأسي، والطيور تأكل

(١) هـذه صورة زريـة لشخص لا إيمان لـه. ومستحيل أن يكـون ذلـك قـد صـدر من يعقـوب عليـه السلام.

من السلة التي على رأسي. فقال يوسف: في ثلاثة أيام أيضاً يرفع فرعون رأسك عنك، ويعلقك على خشبة وتأكل الطيور لحمك عنك.

وبالفعل حدث الأمر تماماً كما أخبر به يوسف. لكن رئيس السقاة لم يذكر يوسف لفرعون. وبعد مرور سنتين حلم فرعون حلماً، وإذا هو واقف عند النهر، وإذا سبع بقرات سمان يأكلهن سبعٌ عجاف. وحلم ثانية فإذا سبعُ سنابل سمينة وحسنة يأكلهن سبع سنبلات يابسات. ولم يجد فرعون من يعبّر له الرؤيا. وها هنا تذكر رئيس السقاة يوسف. وأخبر فرعون بقصته. فدعا فرعون بيوسف وقص عليه حلمه. فقال يوسف: قد أخبر الله فرعون ما هو صانع. البقرات السبع الحسنة هي سبع سنين، والسنابل السبع الحسنة هي سبع سنين، هو حلم واحد. والبقرات السبع الرقيقة القبيحة والسنابل السبع الفارغة، تكون سبع سنين جوعاً. قد أظهر الله لفرعون ما هو صانع. هوذا سبع سنين قادمة شبعاً عظيماً في كل أرض مصر، ثم تقوم بعدها سبع سنين جوعاً. فينسى كل الشبع في أرض مصر ويتلف الجوع الأرض. واقترح يوسف على فرعون أن يأخذ خمس غلة الأرض في سبع سني الشبع، ويخزنها لأعوام الجوع. فأعجب فرعون بذلك، وجعل يوسف على خزائن مصر، وجعل له حكم أرض مصر نيابة عنه. وخزن يوسف قمحاً كرمل البحر! وجاءت أيام الجوع.

«ولم يكن خبز في كل الأرض. لأن الجوع كان شديداً جداً. فخورت أرض مصر وأرض كنعان من أجل الجوع. فجمع يوسف كل الفضة الموجودة في أرض مصر وفي أرض كنعان، بالقمح الذي اشتروا. فلما فرغت الفضة من أرض مصر ومن أرض كنعان، أتى جميع المصريين إلى يوسف قائلين: أعطنا خبزاً، فلماذا نموت قدامك؟ فقال يوسف: هاتوا مواشيكم فأعطيكم بمواشيكم. فجاءوا بمواشيهم إلى يوسف. فأعطاهم يوسف خبزاً بالخيل والغنم والبقر والحمير. فقاتهم في تلك السنة بدل جميع مواشيهم.

ولما تمت السنة الثانية جاؤوا ليوسف ليأخذوا منه قمحاً فرفض أن يعطيهم قمحاً حتى باعوا أراضيهم وأنفسهم، قالوا له: اشترنا وأرضنا بالخبز، فنصير نحن وأرضنا عبيداً لفرعون. وأعط بذراً لنحيا ولا نموت، ولا تصير أرضنا قفراً. فاشترى يوسف كل

أرض مصر لفرعون. فصارت الأرض لفرعون. وأما الشعب فنقلهم إلى المدن وجعلهم عبيداً لفرعون. وقال يوسف: إني قد اشتريتكم اليوم لفرعون. هوذا لكم بذار فتزرعون الأرض». (سفر التكوين، الإصحاح ٤٧).

وهكذا تحول يوسف إلى مصاص دماء لشعب مصر.. أعطاهم من القمح الذي أخذه من أرضهم أيام الرخاء، وأخذ منهم كل الفضة، ثم أخذ منهم جميع المواشي والخيول والأبقار والحمير، ثم أخذ منهم أرضهم وجعلهم عبيداً لفرعون.

إنها صورة للاستغلال البشع الذي يمارسه اليهود ضد شعوب الأرض. زعموا كذباً وبهتاناً أن يوسف عليه السلام مارسه ضد شعب مصر وضد الشعوب الأخرى.

وتعرض التوراة المحرفة يوسف وهو يسجد لفرعون. ويوسف وهو يقسم بحياة فرعون فهو يقول لإخوته: «وحياة فرعون لا تخرجون من هنا إلا بمجيء أخيكم الصغير.. وإلا فحياة فرعون إنكم لجواسيس». (سفر التكوين ٤٢: ١٥ ــ ١٧).

ورغم هذا نجد بعض التشابه فيما ورد في قصة يوسف في التوراة وفي القرآن الكريم. ولكن يبقى بعد ذلك الاختلاف كاملاً في التصور والمنهج والتفاصيل. فيوسف في التوراة يبدو في نهاية المطاف في صورة يهودي يمتص دماء البشر ويأخذ منهم كل ما يملكون من مال وماشية ودواب وأثاث، ثم يأخذ أرضهم ويجعلهم عبيداً، في مقابل حفنة من القمح. إنها صورة منفرة، حاشا لله أن تكون ليوسف بن يعقوب النبي الكريم ابن النبي الكريم.

موقف بعض الكتاب من الأنبياء عليهم السلام:

يوجد بعض الكتاب من العرب الذين يزعمون أنهم يفضحون اليهود فيقومون في أثناء ذلك بشتم أنبياء الله ومنهم يوسف عليه السلام، على اعتبار أنه باع الأرض والشعب لفرعون، بعد أن أخذ أموالهم ومواشيهم وكل ممتلكاتهم. كما نجدهم يقفون في صف فرعون عليه لعائن الله ضد موسى وقومه، ومع العماليق ضد يوشع بن نون، ومن معه، ثم يقفون مع هؤلاء العماليق ضد طالوت ــ شاول ــ وداود عليه السلام.

وهو موقف أعمى أملته العصبية القومية ضد اليهود، بحيث لم يميزوا بين هؤلاء

اليهود الخبثاء الذين لعنهم الله ولعنهم الأنبياء، وبين الأنبياء المطهرين ومن تبعهم من المؤمنين، وهم نفر قليل من خلاصة بني إسرائيل. فالقوم الذين ذهبوا مع طالوت ولم يشربوا من النهر كانوا فئة قليلة، ولكنها فئة مؤمنة مدحها الله سبحانه وتعالى ونصرها على جالوت الطاغية وقومه.

وأي موقف ضد هذه الفئة المؤمنة يقفه أي إنسان مهما كان اسمه، وفي صف جالوت، يجعله يخرج مباشرة من صف المؤمنين إلى صف الكافرين. كذلك فإن أي مساس بأي نبي من أنبياء بني إسرائيل الذين ذكرهم الله جل وعلا في كتابه العزيز ومدحهم يعتبر قدحاً في العقيدة وخروجاً من الملة.

شتم الأنبياء كفر صريح:

ونحن لا نقبل بأي حال من الأحوال وتحت أي مسمى من المسميات من أي شخص كان أن يكفر بآيات الله ويستهزىء بها، ولا نقبل بأي حال من الأحوال أن يذكر أي نبي من أنبياء الله عليهم صلاة الله وسلامه جميعاً بسوء. ونعتبر من ذكرهم بسوء قريناً لهؤلاء اليهود الكفرة الذين افتروا على الله الكذب، ووسموا أنبياء الله بكل نقيصة وألصقوا بهم كل رزية، واتهموهم بمقارفة الفاحشة والكذب والسرقة والغش والخداع والظلم والقتل وسفك الدماء وقتل الأبرياء. بل وصلت الوقاحة (القمة) بأحبار اليهود محرفي التوراة أن زعموا أن هؤلاء الأنبياء كانوا ممن يفعلون الفاحشة بمحارمهم. ويدّعون أن إبراهيم عليه السلام تزوج أخته سارة، وأن لوطاً نكح ابنتيه، وأن رأوبين بن يعقوب اعتدى على امرأة أبيه بلهة، وأن يهوذا زنى بزوجة ابنه ثامار، وأن أمنون بن داود زنى بأخته بنصيحة الحكيم يوناداب. وأن يوشلام بن داوود زنى بعشر من نساء أبيه، وأن يوشع بن نون تزوج راحاب الزانية التي ولدت بنات كنَّ أمهات لثمانية من أنبياء بني إسرائيل، وأن داوود هو من نسل فارص الذي نتج من زنى يهوذا بن يعقوب بثامار كنته. وأن داوود نفسه زنى بحليلة جاره وقائد جنده أوريا الحثي، ثم دبر مكيدة لاغتياله، وأنه أنجب من هذا الزنى سليمان. وأن سليمان تزوج ألف امرأة وسرية في وقت واحد، وأنه عبد الأصنام والأوثان واستخدم السحر.

إنكار وجود إبراهيم وبنيه :

ربما كان لبعض الباحثين من غير المسلمين العذر في اتهام العهد القديم بأنه كتاب يأتي بقصص أشخاص لا وجود لهم. وينكر بعض الباحثين وجود إبراهيم عليه السلام نفسه . وقد تأثر بهذا الرأي للأسف الشديد طه حسين في كتابه « في الأدب الجاهلي » . وقد أدى ذلك إلى تكفير طه حسين وإلى حرق كتابه ذاك . وأعلن طه حسين رجوعه ، وأزال الفقرة التي نفى فيها وجود إبراهيم عليه السلام من طبعات الكتاب اللاحقة. وقد وجدنا رجاء جارودي يميل إلى هذا الرأي أيضاً في كتابه «إسرائيل الصهيونية السياسية» وناقشته في هذه النقطة عندما قابلته في مؤتمر في المغرب، فقال: إنه لا يوجد دليل تاريخي على أن إبراهيم وإسحاق ويعقوب كانوا موجودين فعلاً، وأنهم عبروا إلى فلسطين ومنها إلى مصر، بل إن العبرانيين مجموعة من القبائل المختلفة الذين عبروا النهر، ولهذا سموا العبرانيين.

ولما قلت له نحن المسلمين لا نحتاج إلى أي دليل آخر إذا ورد ذلك في القرآن الكريم. فقال أنا أؤمن بالقرآن، ولكني كنت أتحدث فقط عن الدليل التاريخي .

وسنذكر مزاعم فرويد حول موسى عليه السلام في حينها (ص ١٨٤ وما بعدها) .

يعقوب يصف أبناءه الاثني عشر :

تزعم التوراة (سفر التكوين الإصحاح ٤٩) أن إسرائيل (يعقوب) دعا بنيه وقال لهم : «أجتمعوا لأنبئكم بما يصيبكم في آخر الأيام. اجتمعوا واصغوا إلى إسرائيل أبيكم. رأوبين أنت بكري قوتي وأول قدرتي، فضل الرفعة، فضل العزّ. فائراً كالماء، لا تتفضّل لأنك صعدت على مضجع أبيك، حينئذ دنّسته، على فراشي صعد. شمعون ولاوي أخوان. آلات ظلم سيوفهما. في مجلسهما لا تدخل نفسي، بمجمعهما لا تتحد كرامتي، لأنهما في غضبهما قتلا إنساناً وفي رضاهما عرقبا ثوراً. ملعون غضبهما فإنه شديد وسخطهما فإنه قاس. أقسّمُهما في يعقوب وأفرقهما في إسرائيل. يهوذا إياك يحمد إخوتك ــ زنى بزوجة ابنه ــ يدك على قنا أعدائك، يسجد لك بنو أبيك. يهوذا جرو أسد. من فريسة صعدت يا ابني. جثا وربض كأسدٍ وكلبوة،

من ينهضه؟! لا يزول قضيب من يهوذا ومشترع من بين رجليه حتى يأتي شيلون وله يكون خضوع شعوب، ـ المقصود المسيح الدجال ـ رابطاً بالكرمة جحشه، وبالجفنة ابن أتانه، غسل بالخمر لباسه وبدم العنب ثوبه. مسود العينين من الخمر ومبيضُّ الأسنان من اللبن ـ دائماً يأتي ذكر الخمر وشربها في معرض المدح ـ. **زبولون** عند ساحل البحر يسكن وهو عند ساحل السفن وجانبه عند صيدون. **يساكر** حمار جسيم رابض بين الحظائر، فرأى المحل أنه حسن والأرض أنها نزهة. فأحنى كتفه للحمل وصار للجزية عبداً. **دان** يدين شعبه كأحد أسباط إسرائيل. يكون دان حية على الطريق، أفعواناً على السبيل يلسع عقبي فرس فيسقط راكبه إلى الوراء، لخلاصك انتظرت يا رب.

«**جاد** يزحمه جيش ولكنه يزحم مؤخرَه. **أشير** خبزه سمين وهو يعطي لذَّات ملوك. **نفتالي** أيّلةٌ مسيَّبة يُعطي أقوالاً حسنة. **يوسف** غصن شجرة مثمرة على عين. أغصان قد ارتفعت فوق حائط، فمرّرته ورمته واضطهدته أرباب السهام. ولكن ثبتت بمتانة قوسه، وتشددت سواعد يديه من يدي عزيز يعقوب من هناك، من الراعي صخر إسرائيل. من إله أبيك الذي يعينك ومن القادر على كل شيء الذي يباركك... بركات أبيك فاقت على بركات أبوي.. **بنيامين** ذئب يفترس في الصباح يأكل غَنيمة وعند المساء يُقسّم نهباً.

«جميع هؤلاء هم أسباط إسرائيل الاثني عشر. وهذا ما كلمهم به أبوهم وباركهم. كل واحد بحسب بركته باركهم». «ثم مات يعقوب وأسلم الروح وانضم إلى قومه».

ما عدا يوسف عليه السلام نرى البركات التي حلت بالأحد عشر الآخرين عدوان وظلم وجرائم وجبن وخسة، وحية على الطريق وأُفعوان على السبيل.. ويا لها من بركات يعاني العالم من ويلاتها إلى اليوم!!!

يعقوب وبنوه في القرآن الكريم:

ترد قصة يعقوب عليه السلام ومعاناته ضمن قصة يوسف التي ترد كاملة في سورة واحدة هي سورة يوسف. وهي القصة الوحيدة التي ترد كاملة في سورة واحدة في

القرآن الكريم. أما بقية القصص فترد مفرقة في عدة سور.

ويرد ذكر يعقوب عليه السلام في لحظة الاحتضار في سورة البقـرة، وهو يـوصي بنيه بأن لا يعبدوا إلا الله، فيوجه إليهم يعقوب عليه السلام السؤال:

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾. (البقرة: ١٣٣).

فهذا الشيء الذي يشغل بال يعقوب في لحظة الاحتضار، والذي يريد أن يطمئن عليه ليموت قرير العين، هو أن لا يعبد أحد من أبنائـه شيئاً سـوى الله وحده لا شـريك له، وأن يعيشوا ويموتوا على ملة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلـهاً واحداً، وأن يكـونوا مسلمين مستسلمين لله منقادين لأوامره.

وتُفتتح سورة يوسف بقوله تعالى:

﴿الر ۚ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾﴾. (يوسف ٢ ـ ٣).

لن نخوض ها هنا في معاني الحروف المقطعـة فموضعهـا كتب التفسير ومـا ورد فيهـا... وهي على الجملة من الأمور التي لم يـرد في تفسيـرهـا نص، لا في القـرآن ولا في السنة. ولهذا كثرت الأقاويل فيها. والقول المأمون فيها: الله أعلم بمراده.

ويذكر المولى تعالى أنه أنزل القرآن العظيم بلسان عربي مبين رحمة منه وفضـلاً لهذه الأمة التي اختارها لتحمل الرسالة الخاتمة.

وتبدأ الإشارة إلى قصة يوسف عليه السلام بقوله تعالى:

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾﴾. (يوسف: ٣).

ولا شك أن أحسن القصص وأصدقه وأروعه هو ما ورد في القـرآن الكريم. ومن

أحسن هذا القصص قصة يوسف عليه السلام لما اشتملت عليه من العبر وما ظهر فيها من الابتلاء وما يعقب ذلك الصبر من الفرج.

والقصة عبارة عن مشاهد فنية رائعة، بها فجوات تترك ليملأها الخيال متماشياً مع السياق. وهي ذات حبكة درامية وفنية لا ترقى إليها أي قصة من القصص البشري. يبدأ المشهد الأول بمشهد الصبي يوسف وهو يقص على أبيه حلماً رآه:

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَـٰجِدِينَ ۝٤﴾. (يوسف: ٤).

إنه حلم عجيب لا يستطيع الخيال أن يتابعه أو يتملاه: الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً من الكواكب السيارة تسجد للصبي يوسف... يا ترى كيف تسجد هذه الشموس والأقمار والكواكب؟! نترك ذلك للخيال يحاول أن ينطلق ليرى كيف تسجد هذه الكواكب والشموس.

ويأتي رد يعقوب عليه السلام ﴿قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً إن الشيطان للإنسان عدو مبين﴾. ملفتاً للنظر ومشيراً إلى أن هناك مشكلة بين يوسف وإخوته. يوسف الصغير المحبب لدى أبيه، وإخوته الكبار العشرة الذين يغارون غيرة شديدة من حب أبيهم ليوسف، رغم أن يعقوب عليه السلام لم يحاب يوسف في شيء، ولم يعطه أكثر مما أعطى إخوته الآخرين، وحاشاه أن يفعل ذلك. فقد عدل فيما يملك. أما قلبه الذي لا يملكه فهو بيد الله يصرّفه حيث يشاء، ويوجه حبه لمن يريد. وكانت صفات يوسف جديرة بهذا الحب الغامر فهو على دماثة خلق ونجابة وجمال... ومخايل نبوة تبدو على ملامحه الصديقية يراها أبوه بفراسته ونبوءته. تحدث يعقوب إلى ابنه الصغير يوسف مشفقاً عليه مما يمكن أن يفعله إخوته الكبار به إذا علموا بهذا الحلم الذي يشي برفعة يوسف حتى تسجد له الشمس والقمر والكواكب، أو حسبما أدرك يعقوب من تأويلها أنه وزوجته وأولاده الأحد عشر سيسجدون ليوسف إعظاماً له وإكراماً. قال يعقوب متمماً كلامه:

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ

﴿ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾

(يوسف: ٦).

قال بعض المفسرين[1]: إن هذا القول الأخير لم يكن من كلام يعقوب بل هو من كلام المولى عز وجل في معرض الامتنان على يوسف عليه السلام.

ولا شك أن يوسف لم يخبر إخوته بما رأى، على عكس ما ورد في التوراة من أنه أخبر إخوته بهذا الحلم وحلم قبله. ولعل أحداً في الدار كان يسمع يوسف وهو يقصُّ على أبيه ما رآه فبلَّغ إخوة يوسف بذلك. وحكى لهم ما سمع، فازدادوا غيظاً على غيظٍ، وحنقاً على حنق، فدبروا مكيدة للتخلص من يوسف.

قال تعالى:

﴿ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾. (يوسف: ٧-١٠).

اجتمع الإخوة وبدا الشر في أعينهم ونطق الشيطان على ألسنتهم: ﴿اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً ـ ارموه في أرض بعيدة ـ يخل لكم وجه أبيكم، ويتمحَّض لكم حبه، ثم تكونوا بعد ذلك قوماً صالحين!! استيقظ ضمير أحدهم ورأى بشاعة جريمة القتل ـ يقال: إنه رأوبين ـ، قال: لا تقتلوا يوسف... إنها جريمة نكراء شنعاء. يكفيكم أن تضعوه في أحد الآبار على الطريق التي تتردد عليها القوافل، فإذا مروا بها يستقون وجدوا يوسف وأخذوه معهم عبداً. هذا هو أقصى ما يمكن أن تفعلوه بيوسف إن كنتم لا زلتم مصرِّين على إبعاده عن وجه أبيكم.

كلام يبدو منه كره وبغض للجريمة الشنعاء، جريمة القتل التي فكروا فيها.

---

(١) هذا ما ذهب إليه الإمام القرطبي في تفسيره «الجامع لأحكام القرآن».

وعـدم رغبة حقيقـة في إبعاد يـوسف بأي طـريقة من الـطرق. إلا أن وضعـه في الجب أخف وطأة من جريمة القتل النكراء التي فكروا فيها.

وأمـام إصرار رأوبين قـرروا تنفيذ الجـريمة الأخف. ذهبـوا إلى أبيهم متظاهـرين بحب يوسف ﴿قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون. أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنا له لحافظون. قال: إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون. قالوا: لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذاً لخاسرون﴾.

ذهبوا إلى يعقوب قـائلين: لماذا يبقى يـوسف حبيس الجدران في البيت؟! فـإن ذلك يؤذيه ويجعل جسمه نحيلاً ووجهه مصفراً. لماذا لا تـرسله معنا يرتـع ويلعب كمـا يلعب الصبيان، فينطلق في مرحه ولعبه، وتتحسن صحته ونفسيته؟!! أعلن لهم يعقوب أن ذهـاب يوسف من مجلسـه يحـزنـه. ازدادوا غيـظاً بهـذا الجـواب وكتمـوا الـردَّ في أنفسهم... عما قريب لن يكون في مجلسك أبـداً وستنساه تمـاماً... وأعلن يعقـوب أنه يخاف أن يأكله الذئب وهم عنه غافلون بالرعي أو اللعب. مشيـراً إلى ما يعتمـل في نفوسهم من حقد على يوسف وعدم رعاية له. أنكروا ذلك إنكاراً شديداً وقـالوا: ﴿لئن أكله الذئب ونحن عصبة ـ عشـرة رجال أقـوياء أشـداء ـ إنا إذاً لخاسرون﴾. وافقهم يعقوب على مضض.. وانطلق يوسف مع إخوته.

﴿فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب، وأوحينا إليه لتنبئنَّهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون﴾. أخذوا يوسف وأسرعوا ينفـذون خطتهم الـدنيئة. أخـذوه ورموه في الجب، بعد أن ضربوه وخلعوا قميصـه عنه، وهـو يسترحمهم، وهم يضحكـون.. أدركته عناية الله وامتلأ قلب الصبي ثباتاً وأمناً تماماً كما فعل إبراهيم عليه السلام حينما ألقي في النار. وقيل: إن القميص الـذي كان على إبـراهيم في لحظة الإلقـاء في النار جاء به جبريل وألبسه يوسف وإخوته يطرحونه في غيابة الجب. بشره أيضاً جبريـل بأنـه سينبئهم بأمرهم هذا يوماً ما وهم لا يشعرون به ولا يعرفونه.

انتهت مهمة الإخوة بنجاح.. نظر بعضهم إلى بعض.. أحسَّ رأوبين الأخ الأكبر الذي اعترض على قتل يوسف بشيء من وخز الضمير.. مـاذا نقول لأبينـا عند عـودتنا إليه؟؟ استخدموا نفس الحجة التي لقنّكم إياها أبـوكم.. قولـوا له: أكله الـذئب. لقد

ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فجاء الذئب وأكله. ذبحوا سخلة[1] ولطخوا قميصه بدمها. نسوا مع الارتباك أن يمزقوا القميص. ذهبوا إلى أبيهم عشاءً يبكون ويصرخون. فزع يعقوب وأحسَّ أن قلبه يكاد ينخلع. يوسف ليس معهم، فراسته صدقت، ما بالكم يا بَنِيَّ؟ ﴿قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب، وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين﴾ عرفوا الشك في عين يعقوب. تحول الشك إلى يقين عندما قدموا له الدليل. قميص يوسف ملطخ بالدم، ولكن القميص سليم!!. قال يعقوب في نفسه: واعجباً لذئب يأكل يوسف دون أن يمزق قميصه!! تماسك يعقوب بالصبر الجميل واستعان بالله على مصيبته في يوسف ومصيبته في أبنائه.

قال تعالى:

﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

وها هنا عدة اختلافات عما هو موجود في التوراة.. ففي التوراة أن يوسف قص على إخوته أحلامه، وفيها أن يعقوب هو الذي أرسل يوسف في إثرهم ليعرف أخبارهم ويأتيه بها، وأنهم لم يطلبوا من يعقوب أن يذهبوا بيوسف. وفيها أن يعقوب عندما سمع ما أخبروه به من أن وحشاً رديئاً افترس يوسف بكى عليه وناح ورفض أن يقبل العزاء، ومزق ثيابه وقال: «إلى الهاوية سأذهب حزناً على يوسف». وهذا أمر منافٍ لمقام النبوة، وحاشا ليعقوب أن يفعله بل كان من أمره ما قصه علينا القرآن الكريم. قال: ﴿بل سولت لكم أنفسكم أمراً. فصبرٌ جميل والله المستعان على ما تصفون﴾. كان يعقوب متأكداً في أعماقه أن يوسف لم يمت. قلبه يحدثه أنه لا يزال حياً، وقلبه قلب نبي لا يكذب أبداً. صحيح أن حزنه على فراق يوسف شديد، ولكنه كان يتصبر

---

(١) السخلة: الذكر والأنثى من ولد الضأن والمعز حين يولد وما دام رضيعاً.

ولا يبدي جزعه أبداً، في شموخ وعزة وقف يعقوب يكفكف عبراته ويطوي حزنه في أعماق نفسه. فلما اشتد عليه الحزن بثه إلى مولاه وخالقه. . . إنه ابتلاء من الله. عندما رُزق إبراهيم عليه السلام بإسماعيل في سن الشيخوخة أمره الله بذبحه. وانصاع إبراهيم للأمر العسير وهمّ بذبح ابنه. ذبح حبه من قلبه حتى أصبح القلب مجرداً لحب الله وخلته. الشيء ذاته يتكرر بالنسبة ليعقوب بصورة أخف. يعقوب لا يستطيع أن يذبح يوسف بيده. إيمانه عظيم لكنه لم يبلغ تلك الذروة التي بلغها إيمان إبراهيم. يأتيه الابتلاء في صورة أخرى. أبناؤه يذهبون بيوسف ويخفونه بطريقة ما. يشتعل الحزن في قلب يعقوب، يزداد التجاؤه إلى الله، يزداد حباً لله وتعلقاً به، يرتفع مقامه بهذا الابتلاء.

يوسف عليه السلام أيضاً يواجه الابتلاء صابراً محتسباً. صبي صغير يُرمى في غيابة الجب وظلماته دون ذنب أو جريرة. بقي يوسف منتظراً الفرج من الله وهو جالس فوق صخرة من الجب. جاءت قافلة وإخوة يوسف يلمحونهم من بعيد. أدلوا دلوهم ليستقوا. تعلق يوسف بالدلو. قال الذي أخرج يوسف: يا بشري هذا غلام. . أي يا بشراي ـ وهي قراءة صحيحة ـ. لأن من وجد شيئاً اعتُبر له. لما رأى إخوة يوسف ذلك أسرعوا إلى القافلة وقالوا لهم: هذا عبدنا وغلامنا هرب منا واختبأ في البئر. وقد سئمنا من هروبه فاشتروه منا. أحسَّ أصحاب القافلة أن هؤلاء الرجال زاهدين في الغلام فاشتروه بثمن بخس دراهم معدودة.

قال تعالى:

﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَـٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

أخذت القافلة الغلام معها وتوجهوا إلى مصر ببضاعتهم. وهناك باعوا بضاعتهم وباعوا الغلام لعزيز مصر الذي ألقى الله في قلبه حب الغلام. اشتراه بثمن كبير.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ﴾.

كان الرجل عقيماً، وقيل إنه كـان عنيناً أيضـاً. وورد في التوراة أنـه كان مخصيـاً وهو أمر مستبعد إذ إن المخصي لا يتزوج.

يقرر المولى سبحانه وتعالى أن هذه المهـانة الـظاهرة ليـوسف تخفي في طياتهـا الخير والبركة ليوسف عليه السلام ولأهل مصر ولأهل فلسطين ولجميع البلاد من حـول مصر. سيمكن الله ليوسف في أرض مصـر وسينقذ الله بـه شعوبـاً كثيرة من المجـاعة. وتظهر في ذلك أعاجيب القدرة حيث يختفي وراء الابتلاء والمهانة الظاهرة عـزو رفعة، وتحقيق خير ليوسف وأبويه وأهله وذويـه ولشعوب الأرض في مصـر والمناطق المحيـطة بها.

قال تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

ولكن قبل أن يصل يوسف إلى التمكين في الأرض لا بد من الابتلاء مرة أخرى. ها هو يوسف الغلام يشب في قصر العزيز.. وها هي امرأة العزيز تهيم حباً بهـذا الفتى الجميل، الممشوق القد، البهي الطلعة، الجميل الوجه، الصادق في كلامه، المهذب في أخلاقه، الحلو الحديث، اللطيف المعشر، ها هو الفتى العبراني يكتسب ثقة سيـده بحكمته وصدقه وحسن تصرفه، فيطلق سيده يده في قصره وفي شؤونه الخاصة..

وتتعرض المرأة ليوسف يوماً بعد يوم بالإغـراء، وبالتلميـح، وبالإشـارة، ويوسف يتجاهل تلميحـاتها، ويعـرض عن إغرائهـا، إعراضـاً كريمـاً دون أن يجرحهـا.. وازداد الهيام بالمرأة ووجدت أن التلميح لا يغني عن التصريـح. راودته مبـاشرة إيـه يا يـوسف لو تعلم لواعج قلبي وهيام كبدي!! أمسكت بيديه، وغلقت الأبواب كلهـا، وقالت هيت لك وهُيئت لك، تهيب به أن يقرب إليها. احمرت وجنتا يوسف خجـلاً وغضباً. قـال: معـاذ الله، إنه ربي أحسن مثـواي.. الله أحسن مثواي.. وربي سيـدي زوجـك أيتهـا المـرأة الشقية أحسن مثـواي وأكرمني وائتمنني على دخـائله وخصائصـه وقصـره ولست بالذي أخونه.

﴿ وَرَاوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴾.

جاءت المرأة صاحبة السلطان وصاحبة الجمال وصاحبة المال وعرضت نفسها على يوسف مرة بعد مرة بصور من التلويح والإغراء، ولكن ذلك كله لم يفلح مع يوسف. جعلت كرامتها تحت قدميها، ووضعت ذلك كله على قدمي يوسف. الحب ليس له حدود عند هذه المرأة. هذا الفتى العبراني ملك شغاف قلبها. وكأمرأة ذات تجارب، وذات سلطان، وذات جمال ومال، أقفلت الأبواب، وأحكمت الرتاج، بعد أن استدعت يوسف إلى مخدعها، وقالت له هيت لك، وفي قراءة هيأت لك. . دعوة صريحة قوية.

ارتفع يوسف عن ذلك كله وقال:

﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

همت به بالمعصية، واختلف المفسرون في همه عليه السلام بها. قال بعضهم: همَّ بها ليضربها. وقال بعضهم: بل هناك تقديم وتأخير في الآية: أي همت به ولولا

أن رأى برهان ربه لهمَّ بها. وهو أقربها إلى الصحة. لذا فهولم يهمّ بها أصلاً.

﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

فرَّ يوسف يجري نحو الباب وجرت المرأة وراءه ممسكة بثوبه حتى تمزق ثوبه في يدها. . فتح يوسف الباب وإذا بالعزيز نفسه أمامه، وامرأة العزيز تلهث وراء يوسف وعطرها وثيابها تومىء بالتهمة لها. ولكنها امرأة متمرسة تمالكت أعصابها وقالت لزوجها:

﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾.

حددت التهمة وحددت نوعية العذاب الذي ينبغي أن يقع على يوسف. لقد جرحت كرامتها ومع هذا لا تزال تحب هذا الفتى العبراني لا تريد أن يقتل مثلاً.

اضطر يوسف للدفاع عن نفسه ﴿قال: هي راودتني عن نفسي﴾. ﴿وشهد شاهد من أهلها﴾ قيل كان طفلاً صغيراً في المهد أنطقه الله لتبرئة يوسف عليه السلام. وقيل بل كان من المقربين إلى العزيز من ذوي الحكمة وأصالة الرأي. قال الشاهد: ﴿إن كان قميصه قُدَّ من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وإن كان قميصه قُدَّ من دبر فكذبت وهو من الصادقين﴾. . يا له من حكيم ذو فراسة ودراية. إن كان القميص قد مزّق وقطّع من الخلف فلا شك أنه كان هارباً وكانت المرأة تريد اللحاق به. وإن كان القميص قد مُزِّق من الأمام فلا شك أن المرأة كانت تدافع عن نفسها والرجل مقبل عليها. وقدم تهمته على تهمتها لمكانتها. . ﴿فلما رأى قميصه قُدَّ من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم﴾.

وقد يستغرب المرء هذا الموقف الفاتر من عزيز مصر وهو يرى زوجته تريد أن تخونه وتتهم هذا الفتى الغريب بعد أن فشلت خطتها في إيقاعه في حبائلها. كان المرء يتوقع أن يصفعها على وجهها مثلاً. . ولكنه موقف رجال القصر وعلية القوم والطبقة الأرستقراطية التي لا تنفعل لهذه الأمور مثلما ينفعل لها عامة الناس. إنه رجل هادىء جداً. من رجال الطبقة الممتازة في المجتمع، الطبقة التي تكثر فيها الخيانات الجنسية، دون أن تثور نخوتهم وتغلي دماؤهم. . قال لها: ﴿إنه من كيدكن إن كيدكن

عـظيم﴾. كلمة أشبـه بالمـدح في هذا المقـام منها بـالذم. ومـا نظن أن امـرأة العزيـز استاءت من تلك الكلمة، بـل لعلها سُـرَّت بها. رأى العـزيز ذلـك فالتفت إلى يـوسف قائلاً: ﴿يوسف أعرض هذا﴾ أهمل هـذا الموضـوع ولا تعره اهتمـاماً ولا تتحـدث به. المهم عنده أنه لا تزكم الأنوف رائحة الفضيحة. فالطبقات الأرستقراطيـة في كل مكـان وفي كل زمان مولعة بالفضائح تلوكها ألسنتها، وتبدي فيها وتعيد. ثم التفت مـرة أخرى إلى زوجته ﴿واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين﴾.

وهذه الكلمة تـوضح أن حكـام مصر في تلك الآونـة مع تـرفهم كانـوا على صلة بالله. ربما مع الشرك.. ولكنهم مـع ذلك مقـرون بالله، وأنـه لا بد من الاستغفـار من الذنب الذي يلمُّ به الإنسان. ولعل كون العـزيز عنينـاً كما تـزعم بعض الروايـات أحد الأسباب التي جعلت العزيز فاتراً في تقريعه لزوجته على فعلتها الشنيعة تلك.

أراد العزيز أن يسدل الستار على هذه الحادثـة. ولكن الجدران لهـا آذان وربات القصـور فارغـات لاهيات، انتقلت الـرواية من فم إلى آخـر. أصبحت حديث الـطبقـة المرهفة. نساء المدينة ذوات العز والجاه أبدين اهتماماً غـريزيـاً بهذه القصـة.. أصبح هذا الحدث موضوع المنتديات وخاصة منتديات النسـاء ﴿وقال نسـوة في المدينـة امرأة العزيز تراود فتاهـا عن نفسه، قـد شغفها حبـاً، إنّا لنراها في ضـلال مبين﴾. أصبحت امرأة العزيز حديث المجالس. وسمعت امرأة العزيز بمـا تقولـه هؤلاء النسوة، وقـررت في نفسها أمراً. أقامت وليمة لكل نساء الصفـوة في المجتمع، النسـاء اللاتي لا يمللن من الثرثرة والكلام بسبب الفراغ والثروة والجاه والمال. دعتهن جميعاً لهذه الوليمة، ثم أعطت كل واحدة منهن سكيناً ليقشرن التفاح، فلما تم لها ذلك أمرت يوسف بالـدخول عليهن. وها هنا تحدث المفاجأة.. ذهلت النسوة عن التفـاح وقطعن أيـديهن وصرخن ما هذا بشراً إن هذا إلا مَلَك كريم.

قال تعالى يصف هذا المشهد:

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا

﴿مَلَكٌ كَرِيمٌ ۝٣١ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ۝٣٢﴾.

صورة عجيبة فريدة لمجتمع مترف أرستقراطي تبلغ فيه سيطرة المرأة هذه الوقاحة المتناهية. استطاعت امرأة العزيز أن تفاجىء مجتمع النسوة بيوسف. اشتعلت في قلوبهن الغيرة. عرفن أن امرأة العزيز لم تكن تراود فتى عادياً. إنه فتى أوتي شطر الحسن كله... مع عزة وإباء، وشموخ نفس وطهارة ذيل، تزيده جمالاً على جمال، وجاذبية على جاذبية. بدأ مجتمع النسوة من الطبقة الأرستقراطية بكامله يغازلن يوسف. كل واحدة منهن ترمي شباكها حوله، وتقول له: أطع مولاتك!! يا للهول!! وتتواقح امرأة العزيز فتعترف صراحة بفعلتها الشنعاء وتؤكد ﴿ولقد راودته عن نفسه فاستعصم، ولئن لم يفعل ما آمره ليسجننّ وليكوناً من الصاغرين﴾. إنها تؤكد تهديدها بأن السجن سيكون مصيره إذا لم يفعل معها الفاحشة... وقاحة لا نظير لها وجرأة يستغربها الإنسان. ولكن المرء إذا عرف جو الطبقات المترفة في أي مكان في العالم، وفي أي زمان من الأزمنة، وجد أن الصورة هي الصورة، وإن اختلفت السمات والشيات.

زاد البلاء على يوسف. لم يعد يواجه إغراء امرأة العزيز وحدها، ولكنه يواجه إغراء علية القوم كلهن. وفيهن فاتنات بارعات الحسن والجمال، عليمات بأسرار الإغراء والإغواء. التجأ يوسف عليه السلام إلى ربه:

﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٣٣ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٣٤﴾.

صرف الله عنه كيد النساء.. عرفوا طهارة يوسف وعزة نفسها. اشتعلت نفوسهن رغبة فيه، ولكنهن عرفن أن هذه الرغبات لا مجال لها للتنفيذ مع يوسف.

عرف رجال البلاط وعلية القوم بالحادثة. بدأت الألسن تتحدث عن امرأة العزيز وعلية القوم. ما بال هؤلاء الرجال الذين يحكمون مصر ويتحكمون في شعبها لا يستطيعون أن يتحكموا في نزوات نسائهم؟! بدأ الحديث يصل إلى الشعب. إذاً الأمر جد خطير. : لقد تحولت قصة يوسف مع امرأة العزيز ومع نساء علية القوم إلى

مادة تمسُّ هيبة الحكم وسلطانه. قررت السلطة الحاكمة كما هو معتاد في مثل هذه الظروف أن تزج بيوسف في السجن، حتى تسكت الألسنة عن قضية يوسف وقصته مع نسائهم، وليوهموا الشعب أن يوسف هو الذي كان يراود امرأة العزيز عن نفسها.

دخل يوسف السجن راغباً فيه.. ﴿السجن أحب إليّ مما يدعونني إليه﴾ استجاب الله دعوته وأدخله السجن. السجن أخف من ارتكاب الفاحشة في مجتمع استمرأ الرذيلة واعتادها حتى أنه ليفاخر بها، ويتحدث عنها علانية ﴿ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين﴾ سجنوه بعد اقتناعهم ببراءة يوسف. لفقوا له التهمة ووضعوه في السجن كما هو معتاد دون محاكمة.

دخل يوسف السجن ثابت القلب والجنان. خلا فيه إلى نفسه وإلى ربه. عاد إليه الهدوء، وجد الوقت للعبادة وللتفكر. بدأ يدعو المسجونين إلى عبادة الله. أسلوبه جذاب، صورته مغناطيس، كلامه يصل إلى القلب مباشرة. آمن به السجان. ومجموعة من المساجين. وذات يوم دفع السجان إلى غرفة يوسف بسجينين مهمين من أفراد الحاشية. رئيس السقاة ورئيس الخبازين. ربما حدثت مؤامرة في القصر ضد الملك، واتهم الاثنان بالاشتراك فيها. أحدهما بريء والثاني متلبس بتلك الجريمة. آنسا من يوسف هذا النور، فاطمأنت قلوبهما له. ظهر لهما من يوسف هذه القدرة على تفسير الأحلام وتعبير الرؤيا. قصَّ عليه كل واحد منهما حلمه وفسره له يوسف.

قال تعالى:

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا (كان يخبرهما بنوع الطعام قبل مجيئه). ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن

دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

هكذا تحول تفسير الحلم إلى دعوة كاملة إلى التوحيد.. دعوة شفافة تصل إلى القلوب مباشرة دون أي عائق.. دعوة إبراهيم وإسحاق ويعقوب.. دعوة التوحيد التي جاء بها الأنبياء جميعاً. لا يترك يوسف تلك الفرصة تفلت من يده. الآذان مصغية والقلوب متلهفة لمعرفة الحلم وتفسيره. ويوسف عليه السلام يستفيد من تلك الحالة النفسية المذعنة للحق الطالبة له، فيعرض عليها الإيمان بالله وحده، لينجيها مما هي فيه من ظلمات الكفر، وليأتي بعد ذلك تفسير الحلم.. ويكون التفسير المرعب لأحدهما دافعاً للإيمان بالله وحده، فإذا خسر الدنيا كسب الآخرة، ويكون بالنسبة للآخر مذكراً بالآخرة ونعيمها بحيث لا يغتر برضا الملك عنه. جاء جواب السؤال بعد أن انتهى من القضية الأساسية وهي قضية الإيمان. قال يوسف عليه السلام مفسراً الحلمين: ﴿يا صاحبي السجن. أما أحدكما فيسقي ربه خمراً، وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه، قضي الأمر الذي فيه تستفتيان﴾ أيها الساقي ستعود كما كنت تسقي الملك خمراً.. وأنت أيها الأخ الآخر تجاوز عن ذكره حتى لا يؤلمه، فإنك ستصلب وتأكل الطير من رأسك. قيل إنهما قالا ليوسف: ما رأينا شيئاً. قال قضي الأمر الذي فيه تستفتيان. وبالفعل خلال ثلاثة أيام أخرجا من السجن، وعاد أحدهما وهو الساقي إلى القصر، وحمل الآخر فصلب حتى أكلت الطير من رأسه. ﴿وقال للذي ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه. فلبث في السجن بضع سنين﴾ قال يوسف للساقي إذا تحققت مما قلت لك وأصبحت ساقي الملك مرة أخرى، اذكرني عنده وخبره بشأني وإني قد أدخلت السجن ظلماً. ولكن الساقي أخذته النشوة وحياة القصر فنسي تماماً وعده ليوسف، حتى جاء يوم رأى فيه الملك حلماً غريباً قال عنه الكهان والحكماء: أضغاث أحلام. وما نحن بأضغاث الأحلام بعالمين. ساعتها فقط تذكر الساقي يوسف وكيف فسر له ولصاحبه أحلامهما الغريبة، وطلب من الملك أن يرسله إلى السجن ليأتيه بيوسف وهو الوحيد الذي يستطيع أن يفسر رؤيا الملك الغريبة.

قال تعالى:

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ـ أي بعد زمن ـ. أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

جاء الساقي ومعه ثلة من القوم.. أخبر يوسف بالحلم، أجابه يوسف على الفور بتعبير الرؤيا:

ستأتيكم سبع سنين رخاء، احتفظوا بالقمح في سنابله إلا قليلاً مما تأكلون.. فإن وراء هذه السبع السمان سبع عجاف يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلاً مما تدخرون وتحصنون. ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون الزيت والعنب من وفرة ما ينتجون. هكذا أخبرهم يوسف عليه السلام في بساطة بتعبير الرؤيا، ولم يكتف بذلك بل أخبرهم كيف ينقذون مصر وما حولها من هول المجاعة القادمة.. وبشرهم بأن المجاعة تنتهي بعام من الخصب والرخاء يكثر فيه الزرع، ويعصرون فيه العنب والزيتون لكثرتهما. وهو أمر لم يرد أي شيء عنه في رؤيا الملك.

انتقل الساقي ومن معه إلى الملك وأخبروه بما قال يوسف وتعجب الملك من هذا الفتى الفذّ الذي أدرك الحلم وفسره وأضاف إليه التدابير الوقائية لحماية شعب مصر والشعوب المجاورة من خطر المجاعة، ولم يكتف بذلك كله وإنما بشرهم بعام الخصب بعد أعوام المجاعة. صاح الملك في ملئه: ائتوني به. ذهب الرسل سراعاً وأخبروا يوسف بأمر الملك. قال يوسف للرسول: ﴿ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة

اللاتي قطعن أيديهن. إن ربي بكيدهن عليم﴾. أراد يوسف محاكمة عادلة لتظهر براءته أمام الملك وأمام الشعب. فوجىء الملك بيوسف يرفض الخروج من السجن حتى ينال محاكمة عادلة. دعا الملك نساء علية القوم وعلى رأسهم امرأة العزيز. قال الملك:

﴿ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

اعترفت النساء من علية القوم ببراءته مما اتهم. وجاء اعتراف امرأة العزيز صريحاً قوياً.

﴿ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ﴾.

وأضافت وهي تعترف أنها لا تبالي بما سينالها من مكروه نتيجة هذا الاعتراف العلني طالما علم يوسف أنها لم تخنه بالغيب. إنها تهتم فقط بأن يعرف يوسف عنها أنها أحبته بصدق. تحول الحب الجسدي إلى نوع آخر شفاف من الحب، وحب عميق علمها الصدق والأمانة والخشية، علمها أن تتصل بالله وتقول:

﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾.

هكذا بكل تبتل وخشوع تعود المرأة العاشقة المفتونة بجمال يوسف إلى امرأة شفافة. حب يوسف لا يزال كامناً في القلب، بل هو أقوى مما كان عليه من قبل، ولكنه حب سامٍ له شفافية ورقة وحياء، حب يدفع إلى الأخلاق العالية حتى تقترب من المستوى السابق الذي كان عليه يوسف، لتكون في يوم من الأيام قريبة من مستواه وأهلاً لمبادلته الحب.

عرف الملك صدق يوسف وحكمته وحنكته. انطلقت الألسن بالثناء عليه.

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ ﴾.

عرف الملك من يكلم. بهرته ثقافة يوسف وحكمته وعلمه ونبوغه وتواضعه. كان

الملك ذو ثقافة واسعة وعلم باللغات وبمجريات الأمور. اختبر يوسف بنفسه، بقي معه أياماً وهو يتحدث معه. كلما تشعب الحديث كلما ازداد إعجاباً بيوسف وشغفاً بـه. قال له:

﴿إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ٥٤﴾.

قال يوسف عليه السلام:

﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ٥٥﴾.

تلك مهمة صعبة لا يستطيع أحد من رجال القصر أن يقوم بها. متابعة المزروعات والمالية، وكيفية المحافظة على فائض الزرع في تلك الأيام الخصبة لمواجهة الأيام العسيرة المقبلة، أمر يعرف يوسف عليه السلام أنه لا يستطيع أن يقوم به أحد غيره. طلب الوظيفة الصعبة ليقوم بواجبها، وكان في إمكانه أن يطلب أي وظيفة أخرى لا تكلفه عنتاً ولا مشقة. ولكنها النبوة والأمانة تفرض على يوسف أن يؤدي واجبه في الموقع الذي ينبغي عليه أن يشغله، وأن ينقذ شعوب الأرض في ذلك الزمان عندما تجدب أرض مصر وما حولها وتصاب بالجفاف الشديد لمدة سبع سنوات عجاف.

وهكذا مكّن الله ليوسف في الأرض لينقذ به شعوب الأرض، ولينقذ به يعقوب وبنيه، وليرفع مكانته ومكانتهم ببركته.

قال تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٥٧﴾.

ومضت أيام الرخاء سراعاً، وأعقبتها المجاعة. جاء شعب مصر يطلب الميرة فوجدها جاهزة. وجاءت الشعوب الأخرى من حول مصر بعد أن أنشبت المجاعة أظفارها فيهم. وأقبل إخوة يوسف بأحمالهم وبضاعتهم الرديئة، عملة مزيفة يقدمونها ليوسف ليبتاعوا من القمح الذي امتلأت به مخازن مصر.

﴿وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ٥٨ وَلَمَّا جَهَّزَهُم

بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾.

دخل إخوة يوسف عشرة رجال، سألهم يوسف عن أرضهم وعن بلادهم. وجاء السؤال عرضاً، هل لكم من إخوة آخرين؟ قالوا: نعم، هناك أخ من أبينا يتسلى به عن شقيقه الذي فقده منذ زمن. قال يوسف: لماذا لا تأتون بهذا الأخ حتى تزدادوا كيل بعير؟ ألا ترون أني أوفي الكيل، وقد أنزلتكم خير منزل؟! لقد شوقتموني إلى أخيكم هذا وقصته. إني أريد أن أراه، فإن لم تأتوا به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون مرة أخرى. وعدوه بأنهم سيحاولون ذلك مع أبيهم الشيخ. رجعوا إلى بلادهم، وجدوا الميرة ووجدوا بضاعتهم ــ أي نقودهم ــ ردت إليهم، وهم لا يستحلون أخذها مرة أخرى، فلا بد من إرجاع الميرة أو النقود.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ــ يا له من توبيخ وتقريع ــ. فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِي ۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ ﴾.

لما يرونه من إكرام العزيز ــ وهو يوسف ــ لهم. قال يعقوب عليه السلام:

﴿لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن

شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

أمرهم أبوهم أن يدخلوا من أبواب مختلفة حتى لا يتهموا بريبة، أو يصابوا بالعين، وحتى يتحسسوا من يوسف ويتسمعوا شيئاً من أخباره لعل الله يعلمهم بشيء منها، خاصة وأن القافلة التي أخذت يوسف كانت قد اتجهت إلى مصر حينما وضعوه في غيابة الجب.

عاد الإخوة مرة أخرى إلى مصر. ومعهم هذه المرة بنيامين شقيق يوسف الأصغر ـ ولد بعده مباشرة لأنهما كانا توأمين ـ وفرح يوسف بشقيقه. احتال حتى كلمه وقال له: إنه أخوة، وإنه سيأخذه منهم، وإنه سيتهمه بطريقة غير مباشرة بالسرقة. قال تعالى يصف ما حدث:

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ ـ وهي صواع الملك المصنوع من الذهب والمرصع بالجواهر ـ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ ـ أي كفيل ـ . قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

يقصدون أن من سرق يسترقّ ويصير عبداً لمن سرقه. ولم يكن القانون كذلك في مصر، بل كان من سرق يعزر ويسجن، ولكن الله ألهم يوسف هذا السؤال حتى يأخذ أخاه ـ ولو طبق قانون الملك في مصر لما استطاع أن يأخذ أخاه، بل عليه أن يضعه في السجن ـ قال تعالى يصف ما فعله يوسف:

﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا

﴿ لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ ـ أي في قانون الملك ـ . إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

سرعان ما اتهم إخوة يوسف الكبار أخاهم بنيامين بالسرقة. ولم يكتفوا بذلك بل قالوا:

﴿ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ ﴾.

متهمين يوسف نفسه بالسرقة. قيل إن يوسف رأى صنماً لأحد أخواله، أو جده لأمه ـ لابان ـ فغضب وأخذه ورماه دون أن يخبرهم بذلك، لأنه لا يريد أحداً من أهله أن يعبد الأصنام. وقد فعل ذلك يوسف حمية لدين الله وهو طفل صغير. فاتهموا لذلك يوسف بالسرقة. كتم يوسف غيظه وقال في نفسه: أنتم شر مكاناً. أنتم الذين أخذتم أخاكم وأردتم قتله ثم أجمعتم على رميه في غيابة الجب، ولم ترعوا قرابته فيكم. وهو لم يذنب إليكم ولم يرتكب جريرة ضدكم.

انطلق إخوة يوسف يستعطفونه وهم لا يعرفونه:

﴿ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

ولم يتهم أخاه بالسرقة بل قال: معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده حتى لا يتهمه ظلماً.

﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾.

يئس القوم من استعطاف يوسف وخرجوا من عنده وهم يتناجون ماذا يفعلون؟ قال كبيرهم رأوبين يذكرهم بالعهد والميثاق الذي قطعوه على أنفسهم أمام أبيهم: ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله؟! ثم ذكرهم بتفريطهم بيوسف وهو الوحيد الذي رفض فكرة قتل يوسف، واقترح عليهم بدلاً منها إلقاؤه في الجب، ومع ذلك حاول أن يثنيهم عن تلك الفكرة وأن يرقق قلوبهم من أجل يوسف.

بدأت رحلة العودة بالنسبة لرأوبين سريعاً. وبدأ الندم يدبُّ إلى بقية إخوته رويداً رويداً. أمرهم رأوبين أن يرجعوا إلى أبيهم وأن يقولوا له:

﴿إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

وإذ المشهد كله قد انتقل من مصر إلى فلسطين وهم قد قالوا لأبيهم ما أوصاهم به أخوهم الأكبر رأوبين. ونفاجأ بجواب يعقوب عليه السلام الذي رفض تصديق هذه القصة المختلقة، فهو أعرف بابنه، وابنه لا يمكن أن يسرق مهما كانت الظروف.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

الألم يعتصر يعقوب عليه السلام ومع ذلك فهو صابر يكظم غيظه. إن الذين أخذوا يوسف هم أبناؤه، ثم ها هم يأخذون بنيامين ويدبرون أمراً لإبعاده عنه. إن الألم الممض يعتصر نفسه اعتصاراً. لو كان الذين اعتدوا على ولديه من الأجانب والأباعد لربما كانت الحسرة أخف وأقل، ولربما جاهدهم وقاتلهم، ولكن الجناة هم أيضاً فلذات كبده. ازداد الألم والحزن وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم.. يا للصبر!! إنه

لا يتحدث عن مكابدته وحزنه وألمه حتى لهؤلاء الأبناء، إنما يشكو بثه وحزنه إلى الله. والبث هو الحزن والألم العظيم الذي لا بد أن يبث من شدته وهوله، ولكنه لا يبث شكواه إلا لخالقه، وهو يعلم من الله أنه لا بد سيلتقي بيوسف يوماً ما وستحقق الرؤيا التي رآها يوسف في طفولته. سيسجد له أبواه وإخوته أجمعون، لهذا أمرهم يعقوب بأن يذهبوا مرة أخرى إلى مصر، وأن يتحسسوا من يوسف وأخيه، وأن لا ييأسوا من روح الله وفرجه، إنه لا ييأس من روح الله ورحمته إلا القوم الكافرون.

رجع الإخوة حسب أمر أبيهم للمرة الثالثة إلى مصر، وتنقلنا المشاهد القرآنية من مصر إلى فلسطين ومن فلسطين إلى مصر في نقلات سريعة بها فجوات تترك للمشاهد أن يملأها بخياله..

ها هم الإخوة يتنقلون من بلد لآخر في رحلات مرهقة متعبة.. مرهقة جسدياً ونفسياً، ومعها المعاناة والصقل، المعاناة النفسية تزداد حتى تبلغ ذروتها عند رؤيتهم ليوسف للمرة الثالثة. الألم والندم والتعب قد أخذ منهم كل مأخذ.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

أحس يوسف نبرة الصدق مع الألم الممض في حديثهم. إن الضرّ قد أخذ منهم كل مأخذ، والندم لما فرطوا في يوسف من قبل قد اشتعل في نفوسهم، وزاد معه التقريع من أبيهم ومن أخيهم الأكبر رأوبين. تعب الطريق، ومشقة السفر وعناء الرحلة، بالإضافة إلى الألم النفسي الممض، كل ذلك جعل يوسف عليه السلام يرفع الستار عن المأساة ويخبرهم الخبر. ﴿قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون﴾ عقدت الدهشة ألسنتهم!! يا للمفاجأة العظيمة!! إنهم يذوبون خجلاً من يوسف، ومع ذلك كان هناك شعور داخلي يهتف بالفرحة، ها هو يوسف أخيراً، وفي أي مكانة ورفعة!!

﴿قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ

ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

تصافت النفوس، واعترف الإخوة بذنبهم وأقروا بجريرتهم، وبادر يوسف بالعفو عنهم ـ قال: ﴿لا تثريب عليكم اليوم﴾، ثم دعا لهم بالمغفرة وذكرهم برحمة الله الواسعة ﴿يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين﴾ وأعطاهم قميصه لينطلقوا به ويلقوه على وجه يعقوب فيرتدَّ بصيراً. قيل إن هذا القميص هو قميص إبراهيم عندما أُلقي في النار، وإن جبريل جاء به إلى يوسف عندما ألقي في الجب، واحتفظ به يوسف، ولبسه للمرة الأخيرة ثم أعطاه لإخوته ليلقوه على وجه أبيهم الذي ابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾﴾.

معجزة لنبي كريم من أنبياء الله، شم رائحة يوسف منذ أن خرجت العير من مصر وهي لا تزال في البيداء تبعد عن فلسطين مسافات طويلة شاسعة.

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾.

سكت يعقوب ولم يرد عليهم إتهامهم.

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

هنالك بكى الإخوة عند قدمي أبيهم واعترفوا بذنبهم وطلبوا منه أن يستغفر لهم.

﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾.

أجَّل الاستغفار لوقت السحر فهو أحرى بالإجابة. وقد قال تعالى:

﴿ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ۝١٧ ﴾. (آل عمران: ١٧).

وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الصحيحين أنه قال: «ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا فيقول: هل من تائب فأتوب عليه؟ هل من سائل فأعطيه؟ هل من مستغفر فأغفر له» لهذا أجَّل يعقوب عليه السلام استغفاره لهم إلى وقت قمينٌ بالإجابة وهو وقت السحر.

جاء القوم كلهم، يعقوب وبنوه وأولادهم، سبعون نفراً. انطلقوا من منطقة بيت المقدس إلى مصر.

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ۝٩٩ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ — سجود تحية وانحناء لا عبادة — . وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٠٠ ﴾.

هكذا تلطف ربي سبحانه وتعالى حتى جعلني حاكماً على مصر، فكل ما أصابني من مصائب في الظاهر كانت رحمة في الباطن. فالحمد لله الذي جمع شملنا وجاء بكم من البدو — وفي هذه دلالة على أن مصر كانت في حضارة باذخة في ذلك الوقت حتى أن من كان في فلسطين يعتبر في بادية، على ما في فلسطين من حضارة — ، وقد ذهب كيد الشيطان بعد أن نزغ بيني وبين إخوتي، وها نحن على وئام وصفاء ومحبة، إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم.

استقرت الأسرة الكبيرة في مصر، وشاخ يعقوب وحضرته الوفاة، جمع أبناءه حوله وقال لهم:

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ۝١٣٣ ﴾. (البقرة: ١٣٣).

اطمأنت نفس يعقوب ومات قرير العين. وتذكر التوراة أنه أوصى بنقل جثمانه لكي يدفن مع آبائه إبراهيم وإسحاق في مغارة المكفيلة في حقل عفرون في مدينة الخليل، وذهب يوسف وحاشيته وجميع أبناء يعقوب لدفنه. وأما المناحات التي تذكرها التوراة، والأشهر العديدة التي قضاها يوسف في تلك المناحة، فأمر لا نصدقه، وهو أمر لا يليق بالفضلاء من الرجال فكيف بالأنبياء!!؟.

ومضى الزمان، واشتاقت نفس يوسف للقاء ربه. قال:

﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾.

أعلن يوسف عليه السلام تمسكه بالإسلام في لحظة الوفاة كما أعلنها من قبل أبوه يعقوب، لينبه بنيه وذويه إلى التمسك بها، فهي العروة الوثقى لا انفصام لها. وبكت مصر كلها على يوسف، واختصموا في دفنه، وقيل: إنهم جعلوه في تابوت وجعلوا التابوت في أعلى النيل لتعم بركته أرض مصر، وأن موسى أخذه عند الخروج من مصر ودفنه في مدفن آبائه في مغارة المكفيلة في حقل عفرون في مدينة الخليل التي يسمونها حبرون، وقيل غير ذلك.

من هم الأسباط؟ وهل هم أنبياء؟

ذكر الله تعالى الأسباط في كتابه في آيات عدة من القرآن الكريم. قال تعالى:

﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾. (البقرة: ١٣٦).

وقال تعالى:

﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ ﴾. (البقرة: ١٤٠).

وورد ذكر الأسباط أيضاً في سورة آل عمران آية ٨٤، وسورة النساء آية ١٦٣، وسورة الأعراف آية ١٦٠. وقد اختلف أهل التفسير في معنى الأسباط، ومن هم هؤلاء الأسباط، وهل هم أنبياء؟ على أقوال سنوجزها فيما يلي:

● **الأول**: أن الأسباط هم بنو يعقوب عليه السلام. قاله قتادة. وهم اثنا عشر رجلاً وولد كل رجل منهم أمة من الناس فسموا أسباطاً.

● **الثاني**: الأسباط حفدة يعقوب وذراري أبنائه الاثني عشر، ذكره الزمخشري في الكشاف ووافقه فيه الرازي في التفسير الكبير.

● **الثالث**: الأسباط قبائل بني إسرائيل، قاله البخاري وذكر أن المراد بالأسباط شعوب بني إسرائيل وما أنزل من الوحي على الأنبياء منهم.

وقال القرطبي: وسموا الأسباط من السبط وهو التتابع فهم جماعة. وقيل أصله السَبَطُ بالتحريك وهو الشجر أي في الكثرة، بمنزلة الشجرة الواحدة سبطة. ثم قال والسبط الجماعة والقبيلة الراجعون إلى أصل واحد. والمقصود من ذلك أنهم ذراري يعقوب من أبنائه الاثني عشر. والأسباط هم الأنبياء من بني إسرائيل.

وقد اتفق أهل الإسلام على أن يوسف عليه السلام نبي ورسول. قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾. (غافر: ٣٤).

وهو كلام مؤمن آل فرعون يقصه المولى عز وجل في معرض المدح لهذا الرجل المؤمن.

أما إخوة يوسف فقد اختلف أهل العلم فيهم إلى قولين: القول الأكثر ظهوراً هو أنهم ليسوا بأنبياء، وأن الأسباط المذكورين في القرآن الكريم هم أنبياء بني إسرائيل.. وقد رجح هذا القول القرطبي وابن كثير والبخاري.

وما فعله إخوة يوسف قادح في عصمة الأنبياء عندهم.

والقول الثاني: أنهم أنبياء وأن خطأهم كان قبل النبوة. وقد عصى آدم ربه فغوى

ثم اجتباه ربه فهدى. ولا شك أن آدم نبي والمعصية عند أصحاب هذا الرأي جائزة على الأنبياء قبل نبوتهم. وذلك لا ينافي العصمة.

ويردون على من قال إن الأسباط هم أنبياء بني إسرائيل: وهؤلاء الأنبياء إنما جاءوا من بعد موسى. ولا شك أنهم كانوا يدينون باليهودية. ولكن القرآن نفى عنهم ذلك حيث قال المولى: ﴿أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى قل أأنتم أعلم أم الله؟﴾ وذلك دليل على أن الأسباط كانوا قبل موسى. وسياق الآية مرتبط، إبراهيم وبنوه، ثم يعقوب وبنوه، وهم الأسباط.

ونحن نكل العلم في هذه المسألة إلى الله.. والله أعلم بالصواب.

* * *

موسى وهارون (عليهما السلام)

تـرد قصة مـوسى وهارون عليهمـا السلام في التـوراة كما تـرد أيضـاً في القـرآن الكريم. وتأخذ قصة موسى في التوراة عدة أسفار، أهمها سفر الخروج وسفر الـلاويين وسفر العدد وسفـر التثنية، حيث تنتهي قصـة موسى بـذكر وفـاته في التيـه وحرمـانه من دخـول الأرض المقدسـة لأنه عصى الـرب. تقول التـوراة المحرفـة على لسـان الـرب لموسى وهارون: «لأنكما ختنتماني في وسط بني إسرائيل عند ماء مـريبة قـادش ــ اسم مـوضـع ــ في بـريـة صين ــ اسم مـوضـع وربمـا كـان الصحيـح في بـريــة سينـاء ــ إذ لم تقدراني في وسط بني إسرائيل. فإنك تنـظر الأرض في قبالتهـا ولكنك لا تـدخل إلى هنــاك، إلى الأرض التـي أنــا أعــطيهــا لـبني إســرائيــل» (سـفــر التـثـنيــة، الإصحاح ٣٢: ٥١).

«ومات موسى في الجواء في أرض موآب مقابل بيت فغور ولـم يعرف إنسـان قبره إلى هذا اليوم» كما تقول التوراة (سفر التثنية، الإصحاح ٣٤: ٦).

ولا تحدد التوراة زمن ميلاد موسى، ولكنها تذكـر أن ملكاً جـديداً قـد حكم مصر وكان يكنُّ الحقد لبني إسرائيل، حيث رأى عددهم يكثر، وضيـاعهم وأملاكهم تتسـع، ونفـوذهم يقوى، فقـال فرعـون لشعبه: «هلم نحتـال لهم لئلا ينمـوا فيكون إذا حـدثت حـرب أنهم ينضمون إلى أعـدائنا ويحـاربـوننـا ويصعـدون من الأرض. فجعلوا عليهم رؤساء تسخير لكي يـذلوهم بـأثقالهم. فبنـوا لفرعـون مدينتي مخـازن فيثوم ورعمسيس ــ تكتب أيضاً رمسيس ــ». (سفر الخروج، الإصحاح ١: ٨ ــ ١٢).

واستعبد المصريون بني إسرائيل وأذلوهم، ثم أمر فرعون بقتل كل ولد ذكر يولد من أبناء العبرانيين واستحياء كل بنت، وذلك عندما قام الكاهن الأكبر في مصر بإبلاغ فرعون بأن ولداً يولد للعبرانيين يقوم بإهلاك فرعون وقومه. واشتاط بذلك غضب فرعون على قوم موسى وزاد عليهم العذاب.

ولادة موسى:

ولد موسى عليه السلام في هذا الوقت العصيب. **وتزعم التوراة أن عمرام** ــ يسميه القرآن الكريم عمران ــ **تزوج عمته يوكابد** التي ولدت له هارون ــ وهو يكبر موسى بثلاث سنوات ــ وموسى عليهما السلام (سفر الخروج، الإصحاح ٦ : ٢٠).

وينتسب عمران وزوجته إلى بيت لاوي بن يعقوب عليه السلام. وتصف التوراة قصة مولد موسى وهي تشبه إلى حدٍ ما ما ذكر في القرآن الكريم، ولكن لا يوجد في كلا الكتابين المقدسين أي تحديد للزمن الذي ولد فيه موسى.

وتذكر دائرة المعارف البريطانية (ج ٢/ ٤٥) من الميكروبيديا و ج ١٢/ ٤٨٧ من الماكروبيديا طبعة ١٥) أن أقرب التواريخ إلى الدقة هو أن موسى ولد في أواخر القرن الرابع عشر قبل الميلاد وعاش في القرن الثالث عشر قبل الميلاد.

وترجح دائرة المعارف البريطانية أن موسى ولد في عهد الفرعون ــ لقب لملك مصر ــ سيتي الأول الذي حكم مصر في الفترة الواقعة بين سنتي ١٣١٨ هـ و ١٣٠٤ قبل الميلاد. وتسميه فرعون الاضطهاد. حيث اشتد في عهده اضطهاد بني إسرائيل وهو الذي أمر بقتل كل مولود ذكر من بني إسرائيل.

ومات هذا الفرعون أثناء شباب موسى، وفر موسى من وجهه إلى مدين بعد أن وكز المصري فقضى عليه. وهي القصة التي ترد في القرآن والتوراة باختلافات بسيطة، حيث وجد موسى رجلاً من قومه يتعارك مع أحد المصريين، فاستغاثه الذي من شيعته على عدوه فوكزه موسى فقضى عليه. وفي اليوم التالي إذا بالرجل الذي استغاثه من قومه يتعارك مع شخص آخر ــ تذكر التوراة أنه من بني إسرائيل ــ فطلب من موسى أن ينجده، فلما همّ أن يبطش بالذي هو عدو لهما خاف العبراني وظن أن موسى سيبطش

به، فقال له: أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس؟! إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين. آنذاك اكتشف المصريون القضية وتجمعوا ليقتلوا موسى، فهرب موسى من أرض مصر إلى مدين حيث تزوج هناك.

ولما عاد موسى من أرض مدين كان فرعون الاضطهاد سيتي قد مات وتولى مكانه فرعون آخر أشد ظلماً، هو رمسيس الثاني ـ ١٣٠٤ / ١٢٣٧ قبل الميلاد ـ ، الذي استمر في اضطهاد بني إسرائيل. وفي عهده ظهرت معجزات موسى التسع، وانتهت بإغراق فرعون وقومه.

ولا يعتبر تحديد دائرة المعارف البريطانية مقبولاً لدى الباحثين جميعاً. حيث نجد عدداً من الباحثين كما يقول الدكتور موريس بوكاي في كتابه (القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم): يعتبرون أن فرعون الاضطهاد هو رمسيس الثاني، وأن فرعون الخروج هو خليفته منبتاح، ويختلف الباحثون بعد ذلك في المدة التي عاشها كلا الفرعونين، ويُعتقد أن رمسيس الثاني حكم مصر عدة تزيد على ستين عاماً، بينما لم يحكم منبتاح مصر سوى عشر سنوات في أحد الأقوال وعشرين عاماً في قول آخر.

لذلك كله لا يمكن تحديد زمن ولادة موسى، ولا العصر الذي عاش فيه بدقة، ولكن جمع الأقوال هذه يؤكد على أنه عاش في القرن الثالث عشر قبل الميلاد.

مزاعم فرويد حول موسى عليه السلام:

زعم فرويد العالم النفسي المشهور بأن موسى عليه السلام لم يكن من بني إسرائيل. واستدل على ذلك بأن اسم موسى غير معروف لدى العبرانيين والساميين، وأن ما يقال من كلمة «مش» العبرانية والتي تعني انتشل من الماء، وأن اسم موشى المنتَشِل من الماء ـ على صيغة اسم الفاعل ـ لا تنطبق على موسى لأنه قد انتُشِل من الماء وهو صغير، والمفروض أن يكون الاسم على هيئة اسم المفعول ـ المُنتَشَل ـ . ويزعم أن كلمة مُس ـ بمعنى الابن في رعمسيس وتحوتمس أي ابن الإلّه رع، وابن الإلّه تحوت ـ المصرية، هي مصدر كلمة موسى، وبالتالي فإن موسى هو رجل مصري، نشأ في قصر فرعون وحاشيته، وقام بدور عسكري في الحبشة ثم عاد وقام بانقلاب عسكري فاشل ضد فرعون. كان موسى حسب زعمه يدعو إلى عقيدة

أخناتون، وهـو فرعـون مصر الـذي جاء بعبـادة الشمس ورفض جميع الآلهـة الأخرى. ولهذا يزعم كثير من الكتاب وخاصة من إخوتنا المصـريين أن أخناتـون هو أول من دعـا للتوحيد. وقد استدل فرويد على مزاعمه تلك بمـا جاء في سفـر الخروج (١٨٥) «ولما كبر الصبـي جاءت به إلى ابنة فـرعون، فـاتخذتـه ابناً لهـا وسمته مـوسى قائلة: لأنني انتشلته من الماء» (الخروج ٢: ١٠).

وهـذا القول خـطأ من وجوه عـدة: أولها: أن آدم عليـه السلام كـان موحـداً وأن أبناءه كانوا موحـدين. وأن آدم كان نبيـاً رسولاً وكـذلك ابنـه شيث، ثم ظهر بعـد ذلك إدريس، ويقال له أيضاً: أخنوخ، ثم ظهر نوح عليه السلام. وكـل هؤلاء قبل أخنـاتون بقرون طوال.

ثم إن أخنـاتون حسبمـا تذكـره البرديـات كان عـابداً للشمس، وتـزوج من أختـه الجميلة نفرتيتي.

ويزعم فرويد أن موسى كان تابعاً لديانة أخناتون، وأنه نتيجة لـذلك اصـطدم مع فرعون، ثم خرج بمجموعة كبيرة من بقايا الهكسوس الذين كانوا في مصر مع مجموعة من القبائل السامية والتي عبرت إلى مصر وسموا العبرانيين.

وكان مع موسى سبعين رجلاً من قوم فرعون الذين كانوا يؤمنون بدعوة أخناتـون، وأنهم ساروا معه في ثورته ضد فرعون.. وأن موسى جعلهم قواداً لجيشه المشكل من مجموعات مختلفة من البشر.

ولما عبروا إلى شـرق مصر غـرق فرعـون في البحر هـو وجيشه، واستعـد موسى للعـودة إلى وطنه مصـر، ولكن حدثت أحـداث حالت دون ذلـك. ويـزعم فـرويـد أن شخصيـة مـوسى الأسـطوريـة تجمـع صـورة البـطل عنـد الســاميين وصـورتهــا عنـد المصريين.. وشخصية البطل عند الساميين حسب زعمه تنبني على عناصر، أهمها:

(١) أن يكون من أب غير معروف أو أن يكون يتيماً. ومثال ذلك موسى ومحمد اليتيمان.. وعيسى بن مريم بدون أب.

(٢) أن تكون ولادته محفوفة بالمشاكل والمخاطر، كأن يولد في وقت مذبحة أو من أم عـاقـر أو من أبـوين طـاعنين في السن، مثـل مـولـد إسحـاق ويحيـى.. وولادة موسى في وقت مذبحة.

(٣) أن يكـون البطل محبـاً للعزلـة في الصحاري والجبـال. . وهذا واضـح في شخصيات إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد.

أما شخصية البطل عند المصريين فأهم عناصرهـا أن يكون من بيئـة أرستقراطيـة وأن يكون قوي البنية شديد البأس وأن يعيش في الحضر بين قوم متمـدنين. . . وتجمع شخصية موسى الأسطورية حسب زعم فرويد هذه العناصـر جميعاً. . ومـوسى شخصية مصرية حسب زعمه إلا أن أكثر أنصاره من الساميين!!

هذا هو ملخص لهلوسات فرويـد الذي كـان مدمنـاً للمخدرات وبصـورة خاصـة الكـوكايين والتي يمتـدحها في العـديد من مقـالاته وكتبـه. وهـو هـو فـرويـد صـاحب النـظريات النفسيـة المنحرفـة التي تزعم أن الـطفل عنـدمـا يلتقم الثـدي يقـوم بعمليـة جنسية، لأن الغريزة الجنسية تكـون مركـزة في هذه المـرحلة في الشفتين، وأن الصبي يحب أمـه جنسياً ويكـره أباه، ولكن المجتمـع يمنـع ظهـور هـذه العـواطف، فيكبتهـا الإنسان ولذا يصاب بعقدة أوديب. والبنت تحب أباها جنسياً وتكره أمها وتصاب بعقـدة إليكتـــرا، ثم يستمـر في الهـــراء والسخف الـــذي يسمى علم نفس حيث يـــدرّس في جامعات العالم أجمع بسبب نشاط اليهود الذين رتبوا لذلك من أجل إفساد العالم.

الوجود التاريخي لموسى عليه السلام:

وبما أن زمن مولد موسى غيـر معروف على وجـه الدقـة، وبما أنـه لا يوجـد ذكر لموسى في الآثار التاريخية وما عثر عليـه من مخطوطـات، فقد أدى ذلـك إلى أن يزعم كثير من الباحثين وخـاصة في نهـاية القـرن التاسـع عشر وبـداية العشـرين أن شخصية موسى لا وجود لها على الإطلاق.

وتذكر دائرة المعارف البريطانية (ج ١٢/ ٤٨٧ الطبعـة ١٥ لعام ١٩٨٢) أن كثيـراً من الباحثين المشهورين ومنهم مـارتن نوث يـزعمون أن شخصيـة موسى المـذكورة في التوراة هي من صنع مؤلفي التوراة الذين كتبوها بعد مضي مئات السنين من وفاة موسى المزعوم. ويقول: ربما كـان موسى شخصـاً حقيقياً، ولكنـه شخصية بسيـطة من موآب ـــ مـدين ـــ وليس من بني إسـرائيـــل، وكـل الأحـــداث التي تلصق بـه هي من صنـــع الأساطير التي تجمعت في الحُقب التي تكوّن فيها شعب يدعى إسرائيل.

وقد سبق أن ذكرنا ما قاله جارودي في كتابه إسرائيل الصهيونية السياسية: من أنه لا يوجد أي سند تاريخي لوجود شخصية موسى، كما لا يوجد أي سند تاريخي لوجود إبراهيم وإسحاق ويعقوب والأسباط. ويعتبر جارودي أن ما ورد عن هؤلاء الأنبياء هو من القصص الخلّاق والحاسم في بناء الإنسان والحياة.

وتذكر دائرة المعارف البريطانية أن اليهود والنصارى ظلوا حتى العصور الوسطى يعتقدون أن موسى هو مؤلف الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم، وهي التكوين والخروج واللاويين والعدد والتثنية، والتي يطلق عليها اسم التوراة. ولكن اليهود والنصارى منذ عصر النهضة اعترفوا بأن التوراة كتبت في عصور متأخرة جداً وبعد وفاة موسى بعدة قرون. وأن أول ما كتب هو بعض الأناشيد، والوصايا العشر، ونبوءات يعقوب وموسى، وذلك في عهد سليمان في القرن العاشر قبل الميلاد ـ أي ٤٨٠ سنة تقريباً بعد خروج موسى وقومه من أرض مصر ـ .

ومهما كان النقاش حول شخصية موسى عليه السلام، فإن المسلم لا يكون مسلماً حتى يؤمن إيماناً كاملاً بأن موسى عليه السلام ليس شخصية تاريخية فحسب بل هو من أولي العزم من الرسل.

وبالنسبة للمسلم ليست التوراة من تأليف موسى بل هي من عند الله مباشرة، ولكن التوراة الحقيقية زُيفّت وضاعت ولم يبق منها إلا ومضات يمكن أن نلحظها في التوراة الموجودة بين أيدينا وفي بعض أسفار العهد القديم.

موسى عليه السلام في القرآن والتوراة:

إن استعراض قصة موسى في القرآن الكريم يشكل صورة وضيئة مشرقة لرجل اختاره الله منذ لحظة ولادته ليكون من أولي العزم من الرسل. حيث تتسم شخصيته بالقوة والصراحة والغضب لله والحب له وفيه، والبغض لمن عاداه وناوأه في أنقى صورها وأجلى مظاهرها، مع الثقة التامة الكاملة بنصرة الله له ورعايته للمستضعفين.

وقد كانت حياة الذل والمهانة والخضوع التي عاشها بنو إسرائيل منذ أن طرد أحمس فرعون مصر الهكسوس عام ١٥٨٠ قبل الميلاد، وحتى ظهور موسى عليه السلام في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، قد أدت إلى تولّد أخلاق مهينة وحقيرة لدى أجيال اليهود المتلاحقة.

ولم يكن يناسب تلك الشخصيات المهينة الضعيفة التي استمرأت الذل والمهانة إلا أن يظهر اللّه شخصية قوية مستقيمة صريحة فذة لينقذ بها الله هذا الشعب الذي اعوّجت دروبه والتوت أساليبه، وتعود الخنوع والخضوع مع ما يصحبهما من نفاق وذل وخزي.

ولن نحاول ها هنا استعراض قصة موسى كما وردت في القرآن الكريم، لأن ذلك يحتاج إلى كتاب كامل وربما أكثر من كتاب، ولكننا سنكتفي ها هنا بإبراز بعض المعالم الرئيسية في هذه القصة المؤثرة ذات الدلالات الموحية والمتناثرة في عدة سور من القرآن الكريم.

وتتميز سورة القصص ــ رقم ٢٨ ــ بأنها منذ بدايتها تستعرض قصة مولد موسى ونشأته بعد أن توضح في آيتين البيئة التي ولد فيها موسى، حيث كان فرعون الجبار يستضعف طائفة بني إسرائيل، يذبح أبناءها ويستحيي نساءها. وتعلن أنه من المفسدين. وأن الله القدير قد أذن لهذه الطائفة المستضعفة المهانة أن ترتفع من وهدة الذل والمسكنة والمهانة إلى مقام العزة والكرامة، وأن يلحق الذل والصغار بفرعون وهامان وقومهما المتجبرين المفسدين، وذلك بمولد رجل تجتمع فيه خصائص القيادة الفذة مع قوة النفس وصرامتها وقوة الجسم وعرامته. وتوضح تلك الرعاية الربانية التي ترعى موسى عليه السلام وتسخر من فرعون الجبار، حيث تجعل نشأة موسى كلها في بيت فرعون الذي كان يذبّح أطفال بني إسرائيل خوفاً من مقدم موسى، وإذا بفرعون وامرأة فرعون وحاشية فرعون هي التي تدفع عن هذا الطفل الأذى، وهي التي تبحث له عن المراضع، حتى ترجعه يد القدرة إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن، وتعلم أن وعد الله حق.

وهكذا تتدخل القدرة الإلٓهية مباشرة لترعى موسى وتحفظه على عين الله حين تلقيه أمه في أمواج اليم، وتحفظه وترعاه حين يتلقفه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً، وتتلقفه وترعاه اليد الحانية الرحيمة لتعيده إلى أمه التي كادت لتبدي به بعد أن أصبح فؤادها فارغاً من شدة الهلع والجزع على صغيرها ذاك.

قال تعالى:

﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا

فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ
إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ
أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا
مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى
وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ
لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ
ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا
يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا
لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا
يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ
لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ
أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾. (القصص: ٣ ـ ١٣).

يا لها من مشاهد تتدخل فيها يد القدرة الإلـهية حيث تصور تلك الأم الملتاعة المروعة التي تتلفت يمنة ويسرة والخوف يملأ جوانحها على وليدها الصغير، حيث انتشر جواسيس فرعون يبحثون عن كل مولود من بني إسرائيل ليذبحوه. .

وها هو الله سبحانه وتعالى يتدخل في الأمر ويوحي إلى تلك المرأة المؤمنة ويهدىء من روعها ويبث في نفسها الأمن والطمأنينة. ولكن الأمر غريب غريب ﴿وأوصينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم﴾، وإذا خفت عليه من بطش فرعون فإن أمواج اليم سترعاه وتحفظه. فتضعه أم موسى في صندوق وتلقيه في اليم كما أُمرت، ولكن قلبها الملتاع يصرخ بها أتقذفين بفلذة كبدك في اليم؟ أتتركيه للهلاك؟ أتدرين ما هو مصيره؟!! أصبح فؤاد أم موسى فارغاً إلا من الخوف

الذي ملأ جوانحه، حتى كادت أن تصرخ وتقول: يا قوم! لقد ألقيت فلذة كبدي في النهر!!. ولكن الله ربط على قلبها، وهدأ من روعها، لا تخافي ولا تحزني، ومعها بشارة وأي بشارة، ﴿إنا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾.

وأمرت الأم الملتاعةُ أختَ موسى أن تقصّ أثره وتأتيها بأخباره، فإذا بالفتاة الصغيرة تلحظ آل فرعون وهم يلتقطون الصبي من النهر، وتراهم وقد ألقى الله عليه المحبة حتى إن امرأة فرعون تلتزمه وتدافع عنه. تلك المرأة التي أراد الله لها الخير برعايتها لموسى عليه السلام فجعلها سيدة نساء زمانها، وقرنها بمريم ابنة عمران حين ضرب الله مثلاً للذين آمنوا. قال تعالى:

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾. (التحريم: ١١ ــ ١٢).

ويحرّم الله المراضع على موسى، وآل فرعون مشغولون بالصبي الذي ملأ أفئدتهم حباً له وعطفاً وحدباً عليه، وهو يرفض كل ثدي يقدم له حتى جاءت أخته وقالت: هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون؟ وهكذا أرجعه الله إلى أمه كيّ تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق. وفازت بابنها، وبالأمن والرعاية والأجر من آل فرعون.

وها هنا نقاط خلاف بين ما ذكر في التوراة من قصة موسى عليه السلام وبين ما جاء به القرآن الكريم. ففي التوراة لا يأتي أي ذكر لامرأة فرعون، بل التي تهتم بموسى وتطلب رعايته هي ابنة فرعون. ولا يرد في التوراة وصف لما كانت تعانيه أم موسى من قلق وخوف، ولا ما أوحى الله إليها من إلقاء موسى في اليم، ولا وعده لها بعودته ثم برسالته.

ويزعم الدكتور موريس بوكاي في كتابه «القرآن والتوراة والإنجيل والعلم» (ص ٢٥٢): أن القرآن لا يذكر أن زوجة فرعون هي التي التقطته وإنما آل فرعون. مع وجود النص بأنها هي التي رعته ومنعتهم من قتله. (القصص: ٨ ــ ٩).

وتستمر سورة القصص في مشاهد متتالية من حياة موسى عليه السلام، وإذا الستار يرفع ونرى موسى شاباً قوياً فتياً قد ضاقت نفسه بالظلم الذي يقع على قومه من بني إسرائيل، وقد خرج موسى على القصر ورجال القصر وانضم خلسة إلى قومه الذين تعرّف عليهم. وبينما هو يسير في المدينة في هدأة الظهيرة يجد رجلين يقتتلان ﴿هذا من شيعته وهذا من عدوه﴾، وإذا الإسرائيلي يستنجد بموسى، فما كان من موسى إلا أن وكز المصري وكزة واحدة فإذا هو منطرح على الأرض قد فارق الحياة. مما يشي بقوة موسى البدنية الخارقة وبانفعالية موسى عليه السلام وقيامه ضد الظلم.

وسرعان ما يثوب موسى عليه السلام إلى رشده حيث لم يقصد أن يقتل المصري، ويعلن أن هذا العمل المتسرع من إيحاء الشيطان، ويتجه إلى الله في استغفار خاشع متذلل لبارئه. وتأتيه الرحمة الإلٓهية القريبة فوراً، لأنه لم يقتل المصري عدواناً بل رداً على عدوان. وإذا بمشهد الصراع يتكرر في اليوم التالي حيث نرى الإسرائيلي وهو يصطرع مع أحد رجال فرعون، وإذا هو يستصرخ موسى ويطلب منه النجدة. ويستشعر موسى الغضب لهذا الذي لا يصبر عن العراك في وقت لا يستطيع فيه بنو إسرائيل القيام في وجه فرعون وقومه. ويخاف الإسرائيلي من غضب موسى ويظن أن موسى سيبطش به فيعلن السرّ المكتوم ﴿أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس﴾؟!

وتنتهي المعركة، ويذهب رجل الحاشية ويبلّغُ الملأ من قوم فرعون، أن موسى هو الذي قتل رجل الحاشية في اليوم السابق، وهو يحرّض الإسرائيليين للثورة ضد فرعون. وتتجمع قوات الأمن والداخلية والمخابرات للبحث عن موسى. لا بدَّ من القبض عليه حياً أو ميتاً.

ولكن رجلاً من آل فرعون يأتي إلى موسى مسرعاً يقول له: ﴿يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين﴾.

ويخرج موسى عليه السلام من مصر خائفاً يترقب لا أنيس له ولا نصير إلا خالقه وبارئه. ويسير في صحراء موحشة لا يعرفها ﴿فلما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل﴾.

ولا يرد في التوراة مطلقاً أي ذكر لمؤمن آل فرعون بينما يتكرر ذكره في القرآن

الكـريم، ويجعل الله لـه سورة كـاملة هي سورة غـافر التي تـدعى أيضاً سـورة المؤمن (رقم ٤٠).

ويصـل موسى عليـه السلام مكـدوداً متعباً إلى مـدين. ولكنه يـرى منـظراً يجعله يتحرك لنجدة امرأتين ضعيفتين تـذودان أغنامهما ولا تسقيـان حتى يصدر الـرعاء. وهي صفـاقة ووقـاحـة من أولئـك الـرجـال الـذين يمنعـون الفتيـات من السقي حتى يكملوا سقيهم. وكـان الـواجب والمـروءة والشهـامـة أن يقـدمـوهن للسقي. فيسقي مـوسى للفتاتين.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ
ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾
فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا
تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ
عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

وهكـذا استجاب الله لمـوسى وبدّلـه أمناً بعـد خوف، وأطعمـه وسقاه بعـد جوع وعطش.

وينزل الستار فإذا نحن أمام مشهد آخر: ﴿قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين﴾. ودلائل قوة موسى وأمانته قد شاهدتها الفتـاة في تصرف موسى منذ اللحظة الأولى. ويتفرس الشيخ العجوز فيرى في موسى القـوة والأمانـة في أنصع صورها وأجلى مظاهـرها. فيسـرع ليخطب مـوسى لابنته. لا يتلجلج ولا يـواري ولا يداري. كلمة صريحة مباشرة ﴿قال إني أريد أن أنكحـك إحدى ابنتي هـاتين على أن تـأجرني ثمـاني حجـج فـإن أتممت عشـراً فمن عنـدك. ومـا أريـد أن أشق عليـك ستجدني إن شاء الله من الصالحين﴾.

ويقبل موسى عليه السلام العـرض ﴿قال ذلـك بيني وبينك أيمـا الأجلين قضيت فلا عدوان عليَّ والله على ما نقول وكيل﴾.

وها هنا اختلاف طفيف في تفاصيل القصة بين التوراة والقرآن الكريم. . فالقرآن

الكريم يذكر أن موسى وجد فتاتين تـذوذان أغنامهمـا، والتوراة تـذكر أنهن سبـع فتيات ليثـرون كاهن مـدين، وأن موسى تـزوج صفُّورة ابنـة يثرون التي ولـدت لـه ابنـاً سمـاه جرشوم. بينما لا نجد أي ذكر لهذه التفاصيل في القرآن الكريم.

ولمـا انتهى الأجل سـار موسى بـأهله إلى مصـر. وفي الـطريق آنس من جـانب الـطور في سينـاء نـاراً فقـال لأهله: ﴿ امكثـوا إني آنست نـاراً لعلي آتيكم منهـا بخبـر أو جـذوة من النار لعلكم تصـطلون. فلمَّا أتـاها نـودي من شـاطىء الـوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين﴾.

ويا له من نداء علوي يحار المرء كيف استطاع موسى رغم بشريته أن يسمعه!!

في هذا الجو العبق الكريم من الاصطفاء والاختيار أعلن الله لموسى أنه سيرسله إلى فرعون وقـومه لإنقـاذ بني إسرائيـل. وتضطرب نفس مـوسى عليه السـلام من شدة المفاجأة وهو يرى العصا تتحول إلى أفعى ضخمة سريعة الحركة كأنها جان فولى مدبراً ولم يعقب، ويـأتيه النـداء العلوي ﴿يا مـوسى أقبـل ولا تخف إنـك من الآمنين﴾. من الآمنين من بـطش فرعـون وكيده، ومن الآمنين من هـذا الثعبان المخيف، ومن الآمنين يوم الفزع الأكبر.

ويعـطيه الله آيـة أخرى ﴿اسلك يـدك في جيبـك تخـرج بيضـاء من غيـر سـوء﴾ ويطلب موسى من ربه أن يشد عضده بأخيه فيستجيب الله دعاءه وتضـرعه، لأن هـارون الذي يكبر موسى ببضع سنوات ـ ثلاث كما تذكـر التوراة ـ هـو أفصح لسـاناً وأقـوى حجة وبياناً.

ويأتي موسى إلى فرعون وقومه، ويتكبر فرعون ويتجبر، ويقول:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي ﴾.

ويقول لهامان وزيره:

﴿ فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ

أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

وهكذا تنتهي قصة فرعون بغرقه في مشاهد سريعة تشرحها آيات أخرى في سور أخرى من القرآن الكريم، حيث ترد قصة موسى ومجادلته لفرعون واجتماع السحرة، والآيات متتالية في سورة الأعراف وسورة يونس وسورة هود وسورة طه وسورة الشعراء وسورة غافر.

موسى يجادل الرب والرب يغضب على موسى حسب زعمهم:

وترد قصة موسى في التوراة في سفر الخروج منذ ولادته (الإصحاح الثاني) إلى قتله المصري وهربه من مصر إلى مدين وزواجه من صفُّورة ابنة يثرون كاهن مديان ــ مدين ــ. وفي الإصحاح الثالث من سفر الخروج «يظهر ملاك الرب بلهيب نار من وسط عليقة» وناداه الله من وسط العليقة وأعلن لموسى أنه سينقذ بني إسرائيل، وأمره أن يذهب إلى فرعون ليطلقهم، ولكن موسى يجادل الله في ذلك (الإصحاح الرابع) «فقال موسى للرب استمع أيها السيد لست أنا صاحب كلام منذ أمس ولا أول أمس من حين كلمت عبدك. بل أنا ثقيل الفم واللسان. فقال له الرب من صنع للإنسان فماً أو من يصنع أخرس أو أصمَّ أو بصيراً أو أعمى. أما هو أنا الرب. فالآن اذهب وأنا أكون معك وأعلمك ما تتكلم به. فقال ــ موسى ــ: استمع أيها السيد. أرسل بيد من ترسل. **فحمي غضب الرب على موسى**». (١٠ ــ ١٧).

إسرائيل الابن البكر للرب:

(سفر الخروج، الإصحاح ٤: ٢٢ ــ ٢٣):

«فتقول لفرعون هكذا يقول الرب: إسرائيل ابني البكر. فقلتُ لك أطلق ابني ليعبدني، فأبيت أن تطلقه ها أنا أقتل ابنك البكر».

زوجة موسى تخدع الرب وتحمي ابنها من غضبه:

(سفر الخروج، الإصحاح ٤: ٢٤ ــ ٢٦):

«وحدث في الطريق في المنزل أن الرب التقاه ــ أي التقى ابن موسى البكر ــ

وطلب أن يقتله فأخذت صفُّورة ـ امرأة موسى ـ صوّانة وقطعت غُرْلة ابنها ومست رجليه. فقالت ـ للرب ـ: إنك عريس دم لي. فانفك ـ الرب ـ عنه. حينئذ قالت: عريس دم من أجل الختان».

وهي صورة خرافية وضيعة وحقيرة حيث تصور الرب سبحانه وتعالى بصورة بشر شديد الغضب، ينزل من السماء على هيئة بشر، ويجري خلف ابن موسى ليمسك به، لأن موسى أبى أن يذهب إلى فرعون خوفاً وفرقاً، ولأنه لم يذهب لإنقاذ الابن البكر للرب، فإن الرب يعزمُ على قتل ابن موسى البكر!!..

ومع هذا فإن الرب عاجز حتى عن قتل هذا الغلام الذي تستنقذه منه صفورة امرأة موسى وذلك بأن تختن الصبي وتمسح رجل الرب بدم الغلام فينفك عنه.

وهي صورة تجمع البلادة والوقاحة معاً. وتوضح إلى أي مدى انزلق بنو إسرائيل في تصوراتهم الشوهاء عن رب العالمين، كما أنها توضح إلى أي مدى حُرِّفت التوراة بحيث لم يبق منها سوى بصيص من نور لا يكاد يرى من هذه الظلمات التي رانت عليها.

وتلصق التوراة المحرفة كل نقيصة بأنبياء الله وتصفهم بالكذب والجبن والخداع. وإذا تمكن أحدهم من أعدائه ظهر بصورة مجرم يقتل النساء والأطفال والشيوخ والعجزة، بل حتى البهائم يقتلها. كما تصور الأنبياء بأنهم فسقة شاربو خمر، زناة، حيث يتزوج إبراهيم من أخته سارة، ويزني داود بحليلة جاره، ويزني ابن داود بأخته كما يزني يهوذا سبط يعقوب بزوجة ابنه، ويزني رأوبين أكبر أبناء يعقوب بسرية أبيه، وتصور لوطاً وهو يزني بابنتيه!!.

وتصور الأنبياء بأنهم عباد للأوثان، وتدّعي أن هارون هو الذي صنع العجل لبني إسرائيل ودعاهم إلى عبادته، وأن هارون وأخته مريم عرّوا موسى وفضحوه أمام بني إسرائيل، وأن سليمان عبد الأوثان وأقام لها المعابد مع زوجاته.

وسنستعرض كل ذلك بتفصيل في حينه. وما يهمنا ها هنا هو استعراض قصة موسى كما وردت في القرآن والتوراة والاختلافات بينهما.

موسى يعاتب الرب ويقرعه، حسب زعمهم:

توضح التوراة أن موسى وهارون ذهبا لفرعون ليطلق بني إسرائيل ولكن فرعون أبى وزاد من عقوبة بني إسرائيل، فضجّ بنو إسرائيل مخاصمين لموسى وهارون. وذهب موسى إلى الرب ليعاتبه ويقرّعه قائلاً:

«يا سيد لماذا أسأتَ إلى هذا الشعب؟ لماذا أرسلتني؟ فإنه منذ دخلت إلى فرعون لأتكلم باسمك أساء إلى هذا الشعب. وأنت لم تخلص شعبك». (سفر الخروج الإصحاح ٥: ٢٢ ــ ٢٣.

الرب ينسى حسب زعم التوراة:

ويقول الرب لموسى: أنه قد أعطى العهد لإبراهيم وإسحاق ويعقوب، وأنه أعطاهم ووعدهم أرض كنعان ــ فلسطين ــ، وأنه سمع أنين بني إسرائيل وتذكر عهده الذي كان قد نسيه!!! لذلك سيقوم هو بإنقاذهم من يد فرعون. (سفر الخروج، الإصحاح ٦: ٣ ــ ٨).

موسى إلـه لهارون وهارون فم لموسى:

«وهو ــ أي هارون ــ يكون لك فماً وأنت تكون له إلـهاً. وتأخذ العصا التي تصنع بها الآيات». (سفر الخروج، الإصحاح ٤: ١٦ ــ ١٧).

موسى إلـه فرعون وهارون نبي لموسى:

«فقال الرب لموسى: انظر. أنا جعلتك إلـهاً لفرعون. وهارون أخوك يكون نبيّك. أنت تتكلم بكل ما آمرك. وهارون أخوك يكلم فرعون ليطلق بني إسرائيل» (سفر الخروج ٧: ١ ــ ٢).

العصا لهارون وليست لموسى!!

تتحول عصا موسى إلى حية تسعى في القرآن الكريم، وأما في التوراة فتتحول عصا هارون إلى ثعبان «وكلم الرب موسى وهارون قائلاً: «إذا كلمكما فرعون قائلاً هاتيا عجيبة، تقول لهارون: خذ عصاك واطرحها أمام فرعون فتصير ثعباناً». (سفر الخروج، الإصحاح ٧: ٩ ــ ١٠).

لا ذكر لإيمان السحرة في التوراة:

لا يرد أي ذكر لإيمان السحرة في التوراة بل إن ذكر السحرة في التوراة لا يجاوز سطراً واحداً. «فدعا فرعون أيضاً الحكماء والسحرة. ففعل عرّافو مصر أيضاً بسحرهم كذلك طرحوا كل واحد عصاه فصارت العصي ثعابين. ولكن عصا هارون ابتلعت عصيهم». (سفر الخروج، الإصحاح ٧: ١١ ــ ١٢).

فرعون يقول لموسى وهارون صليا من أجلي:

وتظهر الآيات تباعاً، يتحول النهر إلى دم، ويموت السمك في النهر وينتن، ثم الضفادع، ثم البعوض، وها هنا يوافق فرعون أن يذهب بنو إسرائيل ليذبحوا قرابينهم ويقول موسى: لا بد أن نذهب في سفر ثلاثة أيام ونذبح في البرية لإلٓهنا. «فقال فرعون: أنا أطلقكم لتذبحوا للرب إلٓهكم في البرية ولكن لا تذهبوا بعيداً. صليا لأجلي فقال موسى: ها أنا أخرج من لدنك وأصلّي إلى الرب». (الخروج ٨: ٢٥ ــ ٣٠).

فرعون يعترف بخطئه ويكرر طلبه بأن يصلي موسى وهارون من أجله:

ثم يميت الرب كل بهائم المصريين ويترك بهائم بني إسرائيل سليمة. ثم تظهر الدمامل على الناس والبهائم. «فأرسل فرعون ودعا موسى وهارون وقال لهما: أخطأت هذه المرة. الرب هو البار وأنا وشعبي الأشرار. صليا إلى الرب». (سفر الخروج ٩: ٢٧ ــ ٢٨).

وتتابع الآيات البرد، الرعود، ونار متواصلة في وسط البرد. وضرب البرد جميع ما في الحقل من الناس والبهائم، إلا أرض جاسان ــ منطقة في مصر ــ حيث كان بنو إسرائيل فلك يكن فيها برد. (سفر الخروج، الإصحاح ٩: ٢٢ ــ ٢٦). ثم يأتي الجراد فيغطي وجه الأرض ويأكل جميع الشجر النابت من الحقل. (سفر الخروج، الإصحاح ١٠: ٣ ــ ٧).

وقال عبيد فرعون: أطلق الرجال ليعبدوا الربَّ إلٓههم. ولكن موسى أصر على أن يذهب جميع الشعب بما في ذلك النساء والأطفال. وقال فرعون لموسى وهارون: «يكون الرب معكم».

وعـاد فرعـون ونكث عهده، ثم جـاءت ظلمة شـديدة على أرض مصـر، ورفض فرعون أن يطلق بني إسرائيل كما وعد.

الرب يأمر بني إسرائيل بأن يحتالوا على المصريين ويأخذوا حليهم:

وجاء في الإصحاح الحادي عشر من سفر الخروج (١ ــ ٣) أن الرب أمر مـوسى أن يتكلم في مسامع الشعب ــ أي بني إسرائيل ــ ويـطلب كل رجـل من صاحبـه وكل امرأة من صاحبتها أمتعة فضـة وأمتعة ذهب ــ عـارية ليلبسـوها في عيـدهم ــ. وأعطى الـرب نعمة للشعب في عيـون المصريين. وأيضـاً الرجـل موسى كـان عظيمـاً جداً في أرض مصر في عيون عبيـد فرعـون وعيون الشعب». «وأعـطى الرب نعمـة للشعب في عيون المصريين حتى أعاروهم فسلبوهم».

ويخبر الربُ موسى بأنـه سينزل في منتصف الليـل إلى أرض مصر، ويميت كـل بكر في أرض مصر من بكر فرعـون الجالس على كـرسيه إلى بكـر الجاريـة التي خلف الرحى، وكل بكر بهيمة، ويكون صراخ عظيم في كل أرض مصر. ولكن الرب يحمي بني إسرائيل شعبه المختار. (الإصحاح ١١ من سفر الخروج: ٤ ــ ٨).

الاختلاف في عدد الآيات لفرعون وقومه:

يذكر القرآن الكريم أن الآيات التي أتى بها موسى عليه السلام كانت تسعـاً. قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۢ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ ﴾. (الإسـراء: ١٠١ ــ ١٠٢).

وجاء تفصيل ذكـر هذه الآيـات في سورة الأعـراف حيث ذكر المـولى آية العصـا واليد والسنين ونقص الثمرات.

﴿ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا

مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن
كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا
عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَـٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾. (الأعراف: ١٣٢ ــ ١٣٥).

ولا نجد في القرآن الكريم ذكراً للبعوض والأورام الجلدية والبرد والظلمات وموت كل بكر من البشر والأنعام التي تصفها التوراة.

وليست هذه على أي حال من الفروق الجوهرية التي أوضحنا بعضاً منها ــ وسيأتي ذكر الأخرى فيما بعد ــ والغريب حقاً قول موريس بوكاي ــ بعد إسلامه ــ في كتابه القرآن والتوراة والإنجيل والعلم ص ٢٥٠ إن آيات موسى هي من السحر. حيث يقول ما نصه: (ويثبت موسى لفرعون بالسحر أن له قوى خارقة فوق الطبيعة).. وهو أمر يناقض الإيمان بالنسبة للمسلم.

* * *

حوادث وشخصيات في حياة موسى
وردت في القرآن ولم ترد في التوراة

(١) امرأة فرعون:

إن الموقف النبيل والشجاع الذي وقفته امرأة فرعون في حماية موسى الرضيع من بطش فرعون وهي تقول:

﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾. (القصص: ٩).

يوضح إلى أي مدى كان قلب تلك المرأة النقية الزكية عامراً بالخير والحب. ودافعت تلك المرأة عن موسى عندما كان طفلاً كما جاء في الأثر، وقالت: إنه طفل لا يفهم ما يقول ولا يميز. فاقترح فرعون أن يعطي الطفل موسى جمرة وتمرة فإن ميز بينهما قتله، وحمى الله الطفل فوضع الجمرة في لسانه فصار ألثغاً منذ ذلك اليوم.. ولذا طلب موسى من ربه أن يرسل معه هارون لأنه أفصح منه لساناً.

وآمنت تلك المرأة الطاهرة ــ التي كانت لموسى أماً ثانية ــ بموسى وبرسالته وبالله الواحد الأحد. ويذكر لنا القرآن الكريم هذه المرأة ويقرنها بمريم بنت عمران عليها السلام، ويجعلهما مثلاً للذين آمنوا. قال تعالى:

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾. (التحريم: ١١ ــ ١٢).

ولا يذكر القرآن الكريم اسمها ولكن الرسول صلوات الله وسلامه عليه يذكر أن سيدات نساء العالمين أربع، كل واحدة منهن سيدة نساء زمانها: آسيا امرأة فرعون ومريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة البتول بنت محمد صلى الله عليه وسلم. .

وفي الأثر أن آسيا قاومت بطش فرعون بقوم موسى واعترضت عليه، فغضب عليها فرعون وعرف أنها قد آمنت بموسى فعذبها وقتلها.

مؤمن آل فرعون:

لا يرد أي ذكر في التوراة المحرفة لمؤمن آل فرعون الذي لا يخبرنا القرآن الكريم عن اسمه ولكنه يخبرنا عن أفعاله وأقواله ومجادلته ومحاجته لفرعون. .

وأول ما يظهر من ملامح هذا الرجل الفذ العجيب المؤمن الصادق هو سعيه من أقصا المدينة ليخبر موسى عليه السلام بأن الملأ يأتمرون به ليقتلوه وينصحه بالخروج من أرض مصر. وذلك بعد أن وكز موسى أحد رجال فرعون وهو يختصم مع إسرائيلي فقضى عليه.

قال تعالى:

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾. (القصص: ٢٠).

ثم يقص الله علينا موقف هذا الرجل الشجاع الحكيم المؤمن وهو يجادل فرعون وكبار رجال حاشيته في سورة كاملة هي سورة غافر التي تسمى أيضاً سورة المؤمن. .

وتبدأ صورة الرجل الوضيئة عندما يقول فرعون لحاشيته:

﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾.

فيرد عليه الرجل المؤمن الحصيف:

﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾.

ـــ كعادة المتجبرين الطغاة حيث لا يقبلون أي مناقشة ـــ . ولكن الرجل المؤمن يواصل حديثه:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾.

ويواصل الرجل المؤمن حواره الهادىء ودعوته الرصينة ويذكرهم بما فعل الله بالأقوام السابقة التي طغت وتجبرت وكيف أهلكها الله تعالى... ويستمز في ذلك حتى يصرح في نهاية المحاجة بإيمانه:

﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾﴾. (غافر: ٤١ ــ ٤٦).

(٣) قصة قارون:

لا يرد ذكر في التوراة التي بين أيدينا عن قارون. وإن كانت هناك قصة قريبة إلى

حـد ما من قصتـه في النهايـة المفجعة، وهي ابتـلاع الأرض له ولمن معـه. وهي قصة قارح بن يصهار الذي يثور على موسى عليه السلام ويرفض علانية نبوته ويتهمه بالكذب على الله. فيدعو مـوسى ربه فيخسف الله الأرض بقـورح بن يصهار ومن معـه أمام بني إسرائيل. (سفر العدد، الإصحاح ١٦).

وتختلف قصة قارون في كـل تفاصيلهـا عن قصة قـارح ما عـدا النهايـة المرعبـة المخيفة. لقد كان قارون من قوم موسى فبغى عليهم بسبب الأموال الكثيرة الوفيرة التي جمعها والتحق بقوم فرعون وأنكر صلته بقومه بني إسرائيل.

وتأتي قصة قارون في القرآن الكريم في سورة القصص بعد المشاهد المتتالية من قصة مولد موسى عيه السلام، ثم نشأته في القصر، ثم نصرته لأحد بني إسـرائيل وهـو يختصم مع مصري من قـوم فرعـون، وقتله للمصري بضـربة واحـدة، وافتضاح أمـره، وفـراره إلى مدين وتـزوجه من ابنـة يثرون كـاهن مدين، وعـودته بـأهله وكلام الله لـه، وإرساله إلى فرعون، والآيات التي معه، واستكبار فرعون ونهايته وقومه غرقاً في اليم.

ويبدأ السياق القرآني هكذا:

﴿ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ
بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ - المختالين المتكبرين - .
(٧٦) وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن
كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَآ
أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً
وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ (٧٨) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ
ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩)
وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ

إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾. (القصص: ٧٦ ـ ٨٣).

(٤) هامان:

هامان هو وزير فرعون الجبار، ويده التي يبطش بها، وعقله الذي يفكر به ويمكر. وهو أحد الجبابرة المفسدين في الأرض المستعلين بقوتهم ونفوذهم وذكائهم وجبروتهم. ومع هذا لا يرد لهامان أي ذكر في التوراة التي بين أيدينا. بينما جرائمه المنكرة وبطشه ببني إسرائيل كانت من التواتر بحيث يصعب تجاهلها في كتاب وضعه مؤلفوه ليسجل سيرة بني إسرائيل وأنبيائهم بتفصيل وتكرار ممل في أغلب الأبواب ـ . الإصحاحات ـ من الأسفار المزورة والمحرفة والتي ادعى بنو إسرائيل أنها من عند الله، وما هي من عند الله. ففيها تحقير المولى سبحانه وتعالى ووصفه بصفات مرذولة من سرعة الغضب وكثرة الندم والتردد والحيرة والجبن وعدم القدرة حتى على مصارعة رجل واحد. كما أن فيها تحقير الأنبياء والرسل ووصفهم بالكذب والغش والخداع والمكر وعبادة الأوثان والزنى ونكاح المحرمات من الأخوات وزوجات الآباء وحلائل الأبناء.

وقد ورد ذكر هامان في القرآن الكريم في ثلاث سور: القصص والعنكبوت وغافر.

هامان في سورة القصص[1]:

ورد ذكر هامان ثلاث مرات في سورة القصص. وهي السورة التي قص الله فيها علينا استكبار فرعون وهامان وجنودهما، واستبدادهم وبطشهم ببني إسرائيل

(١) لا يرد ذكر هامان في أسفار التوراة الخمسة، ويرد ذكر هامان آخر في سفر استير عاش في فارس بعد النفي إلى بابل.. وتستطيع استير بدهائها أن تدبر مكيدة وتقتل هامان وزير الملك.. ويحتفل اليهود بقتله ويجعلونه عيداً.

واستعبادهم لهم. . وأن الله قد أذن لهذا الظلم أن ينتهي، ولهذا الليل أن ينجلي وذلك بولادة رجل ترعاه عين الله منذ لحظة ولادته حيث تلقيه أمه الملتاعة في اليم بأمر الله فيلتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً.

قال تعالى مبشراً لبني إسرائيل بولادة موسى ونهاية الظلم والاستعباد وجعلهم أئمة:

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾. (القصص: ٥ ــ ٦).

وتبدأ القصة بولادة موسى في بيت متواضع من بيوت بني إسرائيل. وتلد امرأة عمران ولداً جميلاً يأخذ بالألباب. ومع هذه الولادة يبدأ الرعب والخوف والهلع، لأن فرعون الجبار قد أمر بقتل كل مولود ذكر من بني إسرائيل في ذلك العام، والجواسيس منبثون في أرجاء المدينة، والقابلات كلهن قد انتظمن في سلك المخابرات وأجهزة الأمن التي يشرف عليها هامان. ويأتي الوحي من السماء للأم الملتاعة المروعة: ﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾.

يا لها من آية عجيبة!! إذا خفت عليه من بطش فرعون وهامان ألقيه في اليم!! فاليم قد أُمر برعايته وحفظه، وفوق ذلك تطمين ﴿لا تخافي ولا تحزني﴾، وبشارتان: ﴿إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾.

﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ۝٨﴾. (القصص: ٣٨ ــ ٤٠).

هكذا تهزأ إرادة الله بالجبابرة الطغاة. . .

ويلتقط موسى الطفلَ الرضيعَ ــ الذي يتهدده قرار فرعون بقتل كل مولود ذكر من بني إسرائيل ــ آلُ فرعون. . . لماذا؟ ليكون لهم عدواً وحزناً. . ويا لها من سخرية بفرعون وهامان الجبابرة الطغاة. .

ويأتي المشهد الثالث الذي يذكر فيه هامان . .

لقد بلغ موسى مبلغ الرجال وأتى من رحلته تلك المباركة في الطور حيث تجلى له رب العزة، وسمع موسى النداء العلوي ﴿أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين﴾ وصدع بالأمر وذهب إلى فرعون وهامان وطغمته. . . وطلب من فرعون أن يطلق بني إسرائيل. . وسخر منه فرعون واستكبر، وأظهر له موسى الآيات، وانقلبت العصا ثعباناً مرعباً مخيفاً كاد أن يلتهم فرعون، لولا أن موسى وضع يده في فمه فعاد عصا كما كان .

وتظاهر فرعون بالتجلد. وطلب السحرة، وانهزم السحرة وآمنوا برب موسى وهارون، واشتط غضب فرعون، وأمر بصلبهم، وقال للملأ من قومه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

(القصص: ٣٨ ـ ٤٠).

هامان في سورة العنكبوت:

يأتي ذكر فرعون وقارون وهامان بآيات سريعة متلاحقة تصور مصارع الظالمين من مختلف الأمم. . فبعد أن ذكر الله عاداً وثمودَ، قال تعالى:

﴿ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

(العنكبوت: ٣٩ ـ ٤٠).

هامان في سورة غافر (المؤمن):

يرد ذكر هامان مرتين في سورة غافر:

الأولى في قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ ﴾. (غافر: ٢٣ ــ ٢٤).

والثانية: في قوله تعالى:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾. (غافر: ٣٦ ــ ٣٧).

(٥) إيمان السحرة:

يتكرر ذكر إيمان السحرة الذين جمعهم فرعون من جميع مدن مصر ليتحدوا موسى، في القرآن الكريم في أكثر من سورة. .

والغريب حقاً أن التوراة الموجودة بين أيدينا لا تذكر أي شيء عن هذا الموقف الرهيب. . حيث يجتمع السحرة لتحدي موسى في يوم الزينة، ثم يخيب كيدهم ويعترفون بالهزيمة، وفي لحظات يتحولون من فجار كفار إلى بررة أطهار. . . وكان قَمَنٌ بالتوراة أن تذكر هذه القصة لأنها محل فخار واعتزاز بانتصار موسى عليه السلام على فرعون في أول مجابهة، ولكن التوراة الحقة قد ضاعت منذ أزمنة متطاولة. ولم يبق بين أيدينا إلا هذه التوراة المحرفة.

ويأتي أول ذكر لقصة السحرة وإيمانهم في سورة الأعراف ثم يتكرر ذكر ذلك الموقف المشهود بصور ومشاهد مختلفة في سورة طه والشعراء.

إيمان السحرة في سورة الأعراف:

يذكر الله تعالى قصة موسى مع فرعون حيث يبدأ المشهد بهذا الحوار بين موسى رسول الله وفرعون الطاغية الجبار:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى
ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ (١٠٥) قَالَ إِن كُنتَ
جِئۡتَ بِـَٔايَةٖ فَأۡتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (١٠٦) فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ (١٠٧)
وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ (١٠٨) قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ (١٠٩)
يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُمۡۖ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ (١١٠)﴾.

ويتفق الملأ بأن يؤجل فرعون موضوع موسى حتى يجتمع السحرة ويحشرون من كل مدينة في أرض مصر..

﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ (١١٣) قَالَ نَعَمۡ
وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ (١١٤) قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ (١١٥)
قَالَ أَلۡقُواْۖ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ (١١٦)﴾

ويا له من سحر وصفه المولى بأنه عظيم.. حتى إن موسى عليه السلام أوجس في نفسه خيفة منه..

وتأتي الضربة القاضية:

﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ
مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ (١١٩) وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ (١٢٠) قَالُوٓاْ
ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ (١٢٢)﴾.

ويا له من موقف رائع.. حيث يتحول السحرة الفجرة إلى أبرار أطهار، في لحظة واحدة يرون الحقيقة كلها. إنهم يعلمون ما يأفكون، وأن سحرهم ليس إلا تخييلاً للأعين. وأما عصا موسى فهي حية حقيقية تبتلع حبالهم وعصيهم. وهم أعرف الناس بحقيقة سحرهم وإفكهم. وأمامهم الحقيقة ناصعة. ها هي العصا تلقف ما يأفكون وتكاد تلتهمهم لولا أن موسى يمسك بها ويعيدها سيرتها الأولى.

وهـا هنا يشتط غضب فـرعون حيث الفضيحـة الكبرى. الشعب كله مجتمـع في يوم الزينة والوقت ضحى، والرؤية أوضح ما تكـون، وها هي عصـا موسى تلتهم حبـال السحـرة وعصيهم، وها هم السحـرة يخـرون سـاجـدين معلنين إيمـانهم بـرب مـوسى وهـارون!!. موقف عصيب بـالنسبة لفـرعون. يتحـدى كـل منـطق ويهـزأ بكـل وسيلة للإقناع، ولا بد من سلاح واحـد يجدي في إسكـات الناس أجمعين، سـلاح الإرهاب والقتل وتلفيق التهم الباطلة، وهو السلاح الـذي يلجأ إليـه الجبابـرة في كل زمـان حين يعوزهم المنطق ويفقدون الحجة.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

هي هي نفس الحجة التي يتمسك بها الجبابرة في كل عصر حين تنهار حججهم ويبدو زيفها وعوارها، مؤامـرة، مؤامرة، أنتم تدبرون مؤامرة، لقلب نظام الحكم، ونشر الفسـاد في الأرض، ولا بد من قطع دابـر الفساد وردع المجـرمين، ومحاكمـة عسكريـة تصدر أحكامها الفورية بالإعدام.

وهكذا أعلن فرعون حكمه كما يعلن كل فرعون في كل زمان ومكان:

﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾﴾.

ويأت الرد المؤمن الواثق بربه:

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾. (الأعراف: ١٠٤ ــ ١٢٦).

وهكـذا يسدل الستـار على هؤلاء الأبرار وهم يصلّبـون على جذوع النخـل حتى يرتعب الشعب ويصمت كل من تسول له نفسه أن يشير إلى الموقف الحق الصلب الذي وقفه أولئك السحرة.

إيمان السحرة في سورة طه:

تعرض سورة طه لقطات من زوايـا مختلفة لقصـة إيمان السحـرة وتأتي بتفـاصيل

أخرى لم تذكر في سورة الأعراف . .

يبدأ المشهد بطلب من فرعون المتجبر المتكبر لموسى أن يجعل بينهم وبينه موعداً حتى يجمعوا السحرة .

﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ ـ وهو وقت أروق ما يكون ، وتكون الرؤية فيه واضحة لا غبش فيها ـ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ ﴾ .

﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ ﴾ .

وهنا يشتط غضب فرعون ويصرخ مؤامرة .

﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ ﴾ . (طه : ٥٦ ـ ٧٥) .

سورة الشعراء وقصة السَّحَرة:

تعرض سورة الشعـراء لقصة السَّحَـرة وإيمانهم من زوايـا مختلفة فتضيف أبعـاداً أخرى للصورة التي رسمتها سورتا الأعراف وطه.

بعد أن يعرض المولى صوراً جديدة من الحوار بين فرعون وموسى يعلن فـرعون الطاغية لموسى قولته الفاجرة:

﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ (٣٠)
قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا
هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣) قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم
بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ
سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧) فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ (٣٩)
لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (٤٠) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا
نَحْنُ الْغَالِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٢) قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (٤٣)
فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٤٤) فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا
هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ
وَهَارُونَ (٤٨) قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ
لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ
(٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٥١)﴾. (الشعراء: ٢٩ ــ ٥١).

(٦) قصة موسى والعبد الصالح (الخضر):

تـرد قصـة مـوسى وفتـاه يـوشـع بن نـون والعبـد الصـالـح (الخضـر) في سـورة الكهف.. وهي قصة ذات دلالات وأبعاد كثيـرة.. أخرج ابن كثير في تفسيره عن ابن عباس عن أبي بن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال:

«قـام موسى عليـه السلام خـطيباً في بني إسـرائيل ذات يـوم. فسئـل أي النـاس

أعلم؟ فقال أنا. فعتب الله عليه ذلك إذ لم يقل الله أعلم. فأوصى الله إليه إن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك قال موسى: يا رب وكيف لي به. قال تأخذ معك حوتاً فتجعله في مكتل فحيثما فقدت الحوت فهو ثمَّ. فأخذ حوتاً فجعله في مكتل ثم انطلق معه فتاه يوشع بن نون عليه السلام حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما. واضطرب الحوت في المكتل فخرج منه فسقط في البحر فاتخذ سبيله في البحر سرباً.. ورأى ذلك يوشع بن نون وتعجب منه ونوى في نفسه أن يحدّث موسى بهذا الحدث العجيب الفريد عندما يستيقظ موسى من نومه.. فلما استيقظ موسى نسي يوشع أن يخبر صاحبه موسى بذلك. فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه: ﴿آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً﴾، فقال له يوشع بن نون: ﴿أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت. وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره. واتخذ ــ أي الحوت ــ سبيله في البحر عجباً﴾.. فقال موسى: ﴿ذلك ما كنا نبغي فارتدا على آثارهما قصصاً﴾. فرجعا يقصّان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة التي فقدا عندها الحوت. فوجدا رجلاً مسجى بثوب. فسلم عليه موسى فقال الرجل المسجى (الخضر): وأنّى بأرضك السلام. فقال موسى: أنا موسى فقال الخضر: موسى بني إسرائيل؟ قال نعم: أتيتك لتعلمني مما علمت رشداً، ﴿قال: إنك لن تستطيع معي صبراً﴾. يا موسى إني على علم من الله علمنيه لا تعلمه أنت. وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه. فقال موسى: ﴿ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً﴾، قال الخضر: ﴿فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً﴾ فانطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرت سفينة فكلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول (أي بغير أجر). فلما ركبا السفينة قام الخضر وقلع لوحاً من ألواح السفينة بالقدوم فغضب موسى وقال له: قد حملونا بغير نول فعمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها؟ لقد جئت شيئاً إمراً. ﴿قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً. قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً﴾...

قال: وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «فكانت الأولى من موسى نسياناً. قال: «وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر من البحر نقرة أو نقرتين فقال له الخضر: ما علمي وعلمك في علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر.

ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب بين الغلمان فأخذ الخضر رأسه فاقتلعه بيده فقتله فقال له موسى: ﴿أقتلت نفساً زكية بغير نفس. لقد جئت شيئاً نكراً. قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً﴾. قال وهذه أشد من الأولى. ﴿قال إن سألتك عن شي بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً. فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقضَّ فأقامه﴾، فقال موسى قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا ﴿لو شئت لاتخذت عليه أجراً. قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً﴾، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما».

وسورة الكهف مليئة بالأعاجيب والقصص الفذة الغريبة ذات الدلالات الموحية ابتدأ المولى بقصة أهل الكهف.. ثم الرجل الذي أعطاه جنتين فكفر وتولى.. ثم قصة موسى مع الخضر ثم قصة ذي القرنين..

وتبدأ قصة موسى عليه السلام بقوله تعالى:

«وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقباً» وفتاه هو يوشع بن نون كما حدثتنا الأحاديث النبوية الصحيحة.. ولكن أي بحرين وأين هو المجمع بينهما.. تسكت عن ذلك الآية الكريمة كما يسكت عن ذلك حديث المصطفى صلوات الله وسلامه عليه. (وما أورده المفسرون من أن ذلك حيث يجتمع بحر فارس (الخليج العربي) وبحر الروم (البحر الأبيض المتوسط) ليس صحيحاً لأنهما لا يجتمعان أبداً).

وموسى مصمم على لقاء هذا الرجل الصالح الذي آتاه الله من لدنه علماً خاصاً لا يعلمه موسى، ولو سار للقائه زمناً طويلاً (حقباً) وقيل الحقب ثمانين عاماً وقيل أكثر وقيل لا حد لمداه.. ﴿فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سرباً﴾.. فلما بلغا مجمع البحرين كأن التعب والكلال قد أخذا منهما كل مأخذ فما أن وضعا رأسيهما على الصخرة حتى استغرقا في نوم طويل لذيذ. وانتبه الفتى يوشع بن نون أولاً فإذا هو يرى عجباً.. الحوت (وقيل إنه مشوي) الذي وضعاه في المكتل

وسارا به كل هذه المسافة الطويلة يعود فجأة إلى الحياة ويتخذ له سرباً واضحاً في الأرض حتى يصل إلى ماء البحر فينطلق ويختفي فيه.

وتعجبّ الفتى من هذا المنظر الغريب الذي لم يشهد مثله من قبل.. وعزم على أن يحدّث موسى بذلك.. فلما أفاق موسى انزعج لهذا النوم الطويل وهو بعد لم يدرك مهمته فقال لغلامه أسرع.. أمامنا مشوار طويل.. فانطلقا يمشيان وجاوزا مجمع البحرين حتى إذا أخذ التعب منهما كل مأخذ قال موسى لفتاه: (آتنا غداءَنا. لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً)..

ويا له من سفر طويل متعب مرهق.. إذ أن موسى القوي الجلد الذي يكز المصري وكزة واحدة فيقضي عليه.. والذي يزيح غطاء البئر الذي ينوء بحمله أربعين.. موسى القوي الجلد.. يعلن صراحة أنه تعب من هذا السفر وأن الأمر قد طال عليه.. هات يا فتى الغداء الذي حملناه معنا طوال هذه المسافة..

وها هنا يتذكر الفتى قصة الحوت العجيبة.. وقبل أن يوبخه موسى على نسيانه ذلك يعتذر الفتى قائلاً: ﴿وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجباً﴾..

ويفاجأ يوشع بن نون بأن موسى غير غاضب بل هو مسرور بذلك. ﴿قال ذلك ما كنا نبغ. فارتدا على آثارهما قصصاً﴾..

قال موسى هذا هو ما نبغيه لأن الله قد جعل لي علامة.. «حيثُ فقدتَّ الحوت ستجدُ الرجلَ الصالح».. فارتدا يقصّان آثارهما حتى بلغا موقع الصخرة التي انسرب منها الحوت إلى البحر.. وهناك يجدان الرجل الصالح الذي يبحثان عنه ﴿فوجدا عبداً من عبادنا. آتيناه رحمة من عندنا وعلمنّاه من لدنا علماً﴾. فسلّم عليه موسى وعرض عليه في أدب أن يتبعّه كتلميذ يتعلم من أستاذه.. موسى النبي.. صاحب المعجزات العديدة وكليم الله.. يتواضع هذا التواضع لذلك العبد الذي علّمه الله علماً لا يعلمه موسى.. ﴿قال له موسى: هل أتبِّعُك على أن تعلمني مما علمت رشداً﴾. يا له من أدب سامق.. كيف ينبغي أن يكون المتعلم متواضعاً للمعلم.

ويأتي الرد من المعلم يشترط شروطه ويتأكد من صبر تلميذه على التكاليف. .

والمعلم يعلم من يحدّثُ ومع من يتكلم. . إنه موسى نبي الله وكليمه وأحد الخمسة من أولي العزم من الرسل. . إنه موسى صاحب المعجزات الفذة المتتالية. . إنه موسى زعيم بني إسرائيل وقائدهم ونبيهم. . إنه موسى الذي لا يصبر على ضيم ولا يقبل باطلاً ولا يتّبعُ إلا الحق الصراح الظاهر الجلي. . موسى ذو النفس الأبية المندفعة السريعة الغضب في الله ولله. . موسى صاحب المواقف الفوارة الجياشة بالعاطفة والقوة والصدق والإخلاص. . موسى الذي وكز المصري بيده فأرداه قتيلاً. . موسى الذي أسرع لنجدة الفتاتين من مدين تذودان أغنامهما ولا تسقيان حتى يصدر الرعاء. . موسى الذي أمسك برأس أخيه هارون يجره إليه عندما رأى بني إسرائيل يعبدون العجل في فترة غيابه. . وهارون لم يستطع أن يكبح جماح بني إسرائيل وطغيانهم وكفرهم. .

لهذا كله يقول الخضر لموسى وقد علم طبيعته الجياشة المنفعلة التي لا تصبر على ما تعتبره باطلاً مهما كانت الظروف. يقول له: ﴿إنك لن تستطيع معي صبراً﴾. وقد صدق فكيف يستطيع موسى أن يرى سفينة لمساكين تغرق بسبب عمل عدواني في ظاهره يقوم به الخضر ولا ينكر ذلك، وكيف يستطيع موسى أن يرى الخضر يقتل غلاماً بريئاً يلعب مع الغلمان. . ويقرّه على فعله. . وكيف يرى موسى الخضر يقوم ببناء حائط يريد أن ينقضّ لجماعة بخيلة ظالمة ولا يأخذ منهم أجراً ثم لا ينكر فعل الخضر ذاك.

إن الخضر يعلم من طبيعة موسى ما لا يعلمه موسى من نفسه. لهذا قال الخضر ﴿إنك لن تستطيع معي صبراً. وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً﴾ ولكن موسى أجاب بكل أدب وخضوع ووعد بمشيئة الله أن يكون صابراً. ﴿قال ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً﴾.

ظن موسى أنها ستكون أوامر وتكاليف شاقة. . وهو يعلم من نفسه الصبر على المشاق وتحمّل المصاعب فكم تحمَّل من مشاق من فرعون وملئه. . وكم تحمل من مشاق من قومه المناكيد ذوي القلوب القاسية التي هي كالحجارة أو أشد قسوة. لهذا كله قال موسى: ﴿ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً﴾.

إن الخضـر لا يريـد من مـوسى أن ينفـذ أي شيء. . كـلا لا أوامـر. . لا شـاقـة ولا هينة. . الأمر أشد من ذلك على موسى يريده أن يسكت على ما يعتبره موسى ظلمـاً رغم أن موسى يعلم بوحي من الله أن ما يفعلـه الخضر ليس من ذاته. . بل عن أمر ربه ووحيه.

قال الخضر: ﴿فإن اتبعتّني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً﴾ كلّ ما يـطلبه الخضـر من موسى هـو الصمت. . هل يستـطيع مـوسى أن يصمت. . إن حمل الجبال أهون على موسى عليه السلام من السكوت على الظلم. . أو ما يعتبره ظلماً في ظاهره.

﴿فانطلقا﴾ ووجدا أهل سفينة فـطلب الخضر من أصحـاب السفينة أن يحملوهم معهم فلبى أهـل السفينة الـطلب بكل تـرحاب وحملوهم مجـانـاً. . أنهم أنـاس طيبـو القلب دمثو الخلق يترزقون من سفينتهم تلك البسيطة.

وإذا بمـوسى يفاجـأ بمنظر غـريب. . الخضر يمسـك بالقـدوم وينزع منهـا لوحـاً فيخرق السفينة. . يا له من كنود. . هؤلاء المساكين حملونا مجاناً دون نول وأكرمونا. . وإذا بالخضر يخرق السفينة ويجازيهم جزاء سنمّـار. . من يسكت على هذا الـظلم؟. . أيستطيع موسى أن يرى هذا الباطل والظلم ويصمت؟ إنه أستاذه الذي أمره الله بـاتباعـه ليتعلم منه!! ولو!! إن الله لا يرضى بالظلم ولا الفساد في الأرض. . موسى لا يستطيـع أن يكتم غيظه من هذه الفعلة الحمقاء الظالمة في ظاهرها ﴿قال أخرقتها لتغرق أهلها. لقد جئت شيئاً إمراً﴾. . إنه أمر لا يمكن السكوت عليه. . وخاصة بالنسبة لموسى عليه السلام ذو الطبيعة الجياشة والعواطف الفياضة التي لا تستطيع أن ترى منكراً وتسكت عنه.

وأجاب الأستاذ الهادىء العليم بطبيعة تلميذه ﴿قال ألم أقل لـك إنك لن تستـطيع معي صبراً﴾.

وسرعان ما يثوب التلميذ إلى رشده. . ألم يقل لأستاذه أنه سيصبر. . آه مـا أهون الصبـر على المشاق وعلى تحمـل الأذى. . لكن ما أصعب الصبـر على رؤيـة البـاطـل والأذى يقع على المساكين. .

إن نقل الجبال من مكانها أهون على موسى عليه السلام من الصمت على موقف يرى أنه مخالف للحق. . ومع هذا أليس هذا هو أستاذه الذي ارتضاه فليصبر على العلقم. . ويعتذر موسى ﴿قال لا تؤاخذني بما نسيتُ ولا ترهقني من أمري عسراً﴾.

﴿فانطلقا﴾. . انطلقا من السفينة بعد أن خرقها الخضر يمشيان على ساحل البحر ﴿حتى إذا لقيا غلاماً فقتله﴾ يا للطامة الكبرى!! ما ذنب هذا الغلام الزكي الذي يلعب مع الغلمان. . أتُقتلُ نفسٌ زكية بغير نفس. . إلا ما أشدَّ هذا الظلم. . وما أفدح هذا العدوان. . إنه شيء لا تستطيع نفس موسى الأبية أن تسكت عليه. . يصرخ موسى في وجه أستاذه ﴿أقتلت نفساً زكية بغير نفس. لقد جئت شيئاً نكراً﴾.

وجاء الجواب من الأستاذ هادئاً ومقرعاً في نفس الوقت ﴿قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً﴾. ومع تشابه الجملة الأولى مع الثانية نرى نوعاً من التقريع الخفي يزداد حدة. . ﴿ ألم أقل لك ﴾، فزادت كلمة لك في موقعها العجيب لتعطي إيحاءاً خفياً بأن الخضر بدأ ينذر تلميذه من هذا التدخل المتكرر وينبهه إلى أن طبيعته الفياضة الجياشة لا تسمح له بأن يرى منكراً أو ما يعتقد أنه منكر ويصمت. . ويصبر على مرارة الصمت على الباطل!

ويتنبه التلميذ ويرى أن أستاذه قد أنصف. . ألم يَعِدْ أستاذه بالصبر ــ وها هو للمرة الثانية لا يستطيع أن يكتم غيظه ويصرخ محنقاً في وجه أستاذه: ما هذا المنكر الفظيع الذي فعلت؟. . وعلم موسى أن لا مجال لهذه الصحبة أن تستمر ولكن ليجرب نفسه مرة أخيرة. . ﴿قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني. قد بلغت من لدُني عذراً. فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما﴾. . يا لهم من قوم لئام. . إن إكرام الضيف الغريب واجب. . وقد أوجبتهٔ جميع الشرائع السماوية. . وحدده الإسلام بثلاثة أيام قِرى فما زاد عن ذلك فهو صدقة. . حيث لم يكن في تلك الأيام فنادق ولا مطاعم عامة فإذا نزل المسافر بقوم ولم يجد من يطعمه ويؤويه فكيف يعيش ويقتات. . وصبر موسى على هؤلاء القوم اللئام ولم ينبس ببنت شفة. . ولكن ها هو أستاذه يقوم ليصلح لهم حائطاً مائلاً دون أجر. . وهنا تنفلت نفس موسى محتجة على هذا التصرف ﴿قال لو شئت لاتخذت عليه أجراً﴾.

وأعلن الخضر نهاية هذا الصحبة التي لا يمكن أن تستمر حيث يمثِّل أحدهما عالم الشريعة. . عالم الظاهر. . ويمثِّل الآخر عالم الحقيقة. . عالم الباطن. . ﴿قال هذا فراق بيني وبينك﴾ لأنك لا تستطيع أن تصحبني كما أخبرتك منذ اللحظة الأولى فأنا عليم بطبعك الذي لا يكظم غيظاً على باطل يراه ولا يسكت عن ظلم وقع على إنسان. . فنفس موسى عليه السلام تمثل نفس الإنسان المتمرد على الباطل والطغيان في أنقى صورها وأجلى مظاهرها. . وقد صاغها الله هكذا لتواجه نفس الطاغية المتكبر الجبار فرعون وملئه. . ولتواجه نفوس بني إسرائيل المستخزية الجبانة الرعديدة التي استمرأت المذلة والمهانة واستعذبت الضيم والظلم والعبودية.

ولكن الخضر لا يذهب قبل أن يعلن لموسى عليه السلام أسرار تلك التصرفات التي تبدو مخالفة للعقل ومخالفة للدين. . ﴿سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً. أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً﴾.

نعم، كان وراءهم ملك ظالم يأخذ كل سفينة صالحة غصباً لهذا قمت بإعطابها حتى لا يتمكن الملك الظالم من أخذها قسراً على هؤلاء المساكين. . فظاهر عملي هذا قسوة وعدوان وظلم وباطنه رحمة وشفقة بهؤلاء المساكين.

﴿وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً. فأردنا أن يبدلهما ربُّهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً﴾.

إن هذا الغلام الجميل الوسيم الذي قتلته والذي ثارت نفسك من أجله هو غلام مطبوع على الكفر وقد أعلمني الله ذلك وأمرني بقتله لأن أبويه من المؤمنين الصالحين المتقين. . ومحبتهما لهذا الغلام الشقي سترهقهما إلى حد أنهما سيتابعانه على الكفر. قال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: أي يحملهما حبه على متابعته على الكفر. قال: قال قتادة: فرح به أبواه حين ولد وحزنا عليه حين قتل ولو بقي لكان فيه هلاكهما فليرضى امرؤ بقضاء الله فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب وصح في الحديث: «لا يقضي الله لمؤمن قضاء إلا كان خيراً له» وقال تعالى: ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم﴾.

وهكذا يوضح الخضر لموسى عليه السلام أنه لم يقتل الغلام عدواناً وظلماً بل قتله بأمر الله ووحيه حتى لا يُخرج أبويه عن دين الله ولا يرهقهما طغياناً وكفراً ﴿فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً﴾. . ولم يكد الخضر يقتل الغلام حتى حملت أم الغلام بولد زكي بار بوالديه رحيم بهما ليّن الطبع حسن الخلق قوي الإيمان محباً للخير.

﴿وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمري. ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبراً﴾.

وأما الجدار الذي كاد أن ينقض وأقامه الخضر فلم يكن من أجل أصحاب القرية ﴿المدينة﴾ اللؤماء البخلاء الأشحاء. . بل من أجل غلامين يتيمين في المدينة. . وتحت الجدار كنز لهذين اليتمين. . ولو سقط الجدار لظهر الكنز وأخذه هؤلاء اللؤماء ولم يعطوا اليتيمين صاحبي الجدار من مالهما شيئاً. .

وأصحاب القرية هؤلاء كما رأيت بنفسك أهل شح وبخل ولؤم. . وقد أبوا أن يضيّفونا. . وهم أحرى بأن يأخذوا كنز هذين اليتيمين. . ورعاية لليتيمين. . ولأبٍ صالحٍ لهما أمرني ربي بإعادة بناء هذا الجدار حتى يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما. . رحمة من ربك. .

ثم يؤكد له الخضر أنه لم يفعل ما فعل في كل هذه الحوادث الغريبة شيئاً من تلقاء نفسه ﴿وما فعلته عن أمري. ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبراً﴾.

ويسدل الستار على الخضر ويختفي فجأة كما ظهر. . وكما اختفى من قبل فتى موسى الذي صحبه في الرحلة الشاقة حتى إذا لقيا الخضر انتهى دوره واختفى من المسرح.

وكم في قصة الخضر وموسى من أسرار وعبر. . وكم فيها من دروس وآيات وعجائب. . وها هنا ملاحظات سريعة محدودة:

- **أولاً**: لا ينبغي لأحد مهما كان علمه أن يقول أنه أعلم أهل زمانه. . فعندما

بسئل موسى عن أعلم أهل الأرض يومذاك قال أنا؟ . . وكان صادقاً فيما يقول . . ولم يقلها موسى عليه السلام عُجباً ولا اختيالاً . . حاشاه من ذلك بل كان يظن أنه كذلك. فعاتبه الله على ذلك وجعله يسير تلك الرحلة الشاقة الطويلة المليئة بالأسرار الحافلة بالغموض المختصة بعلم الباطن ليعلم أن هناك من هو أعلم منه ببواطن الأمور.

● **ثانياً**: أدب طلب العلم . . وموقف المتعلم من المعلم . . وموقف المعلم من طالب العلم. تعرضها تلك الآيات القليلة . . لتكون نبراساً للأجيال في هذا الأدب العالي الرفيع .

● **ثالثاً**: هناك عالم حافل بالأسرار والحقائق . . لا يعلمه إلا الله ومن شاء أن يُظهره عليه من خلقه . . وهو عالم مثير غامض . . نسلّمهُ لأهله لكن بشرط . . شرط واحد هو أن لا يصطدم هذا العالم المثير الغامض . . بقوانين الشريعة . .

فإذا كان موسى عليه السلام رغم علمه أن الخضر لم يفعل شيئاً من ذات نفسه وأنه مأمور، لم يطق السكوت على الظلم وعلى سفك الدماء البريئة (في الظاهر)، فنحن أحق وأجدر بأن لا نسمح لأحدٍ كائناً من كان بأن يخالف الشريعة . . لأننا لا نعلم إن كان المخالف لها قد فعل ذلك بأمرٍ من ربه أم أنه كاذب كفّار.

فلا يجوز إذن لأحد مهما ادعى من ولاية وكرامات . . . أن يخالف في أي أمر من أمور الشريعة . . فإن خالف ذلك فيجب أن يُنكرَ ذلك عليه ولا يُسلّمَ له مطلقاً . . وإن أتى أمراً يوجب عليه حداً من حدود الله فينبغي أن يقام عليه الحد . . لا نقبل في ذلك تأويلاً . .

وموسى عليه السلام يوحى إليه . . وقد علم يقيناً أن الخضر لا يفعل ما فعل من منكرات (في ظاهر الأمر) بأمره . . ومع هذا اعترض عليه ولم يطق صبراً على أفعاله . .

فكيف يمكن لنا أن نرى شخصاً يخالف الشرع ثم يزعم أنه مثل الخضر . . من أين لنا أن نعلم صدق مقولته؟ .

إن هذا الدين قد أقيم على الشريعة الواضحة المستقيمة.. ومن خالفها يعاقب حسب ما رسمته الشريعة ذاتها. إن اقترف حداً وجب عليه الحد. وإن فعل ما يوجب التعزير وقع عليه التعزير.. وإن فعل شيئاً يوجب الإنكار أنكرنا عليه.. وما أحسن ما ذهب إليه المحققون من علماء هذه الأمة.. من أن الشريعة والحقيقة يجتمعان في أجلى وأعظم وأنقى صورها في المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ثم في آل بيته وصحابته من بعده.. ثم في التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.. وما ظهر من أحد من هؤلاء جميعاً مخالفةٌ للشريعة في أي أمر من أمورها ولا شأن من شؤونها. وحاشا أن يظهر فهم دعاتها وحماتها والقائمون عليها.

* * *

بعض حوادث بني إسرائيل
في عهد موسى (عليه السلام)

عدد بني إسرائيل عند الخروج الخرافي في التوراة:

تذكر التوراة أن عدد أولاد يعقوب وجميع من معه كانوا سبعين نفساً عند دخولهم مصر أيام يوسف، ثم تذكر أن الفراعنة تغيروا على بني إسرائيل ــ وذلك بعد طرد الهكسوس من مصر على يد أحمس ١٥٨٠ قبل الميلاد ــ وبدأوا في اضطهاد الإسرائيليين، وأن عدداً كبيراً منهم مات في أعمال السخرة، وأعداداً أخرى ماتت تحت التعذيب، ثم جاء فرعون الاضطهاد رعمسيس الثاني، وفرعون الخروج منبتاح ــ حسب زعمهم ــ ، واشتد العذاب حيث أمر فرعون بقتل كل ذكر يولد لبني إسرائيل. وقد أكد القرآن الكريم ذلك حين ذكر في أكثر من آية تقتيل الأبناء واستحياء البنات ﴿يُقتِّل أبناءهم ويَستحيي نساءهم﴾.

وتذكر التوراة في سفر الخروج (١٢: ٤٠) أن مدة إقامة بني إسرائيل في مصر كانت ٤٣٠ سنة. وفي سفر التكوين ٤٠٠ عام. وأن عدد الذكور فقط عند خروجهم كان ستمائة ألف. «فارتحل بنو إسرائيل إلى سكُّوت نحو ستمائة ألف ماشي من الرجال عدا الأولاد. وصعد معهم لفيف كثير أيضاً مع غنم وبقر ومواشي وافرة جداً». (سفر الخروج ١٢: ٣٧ ــ ٣٩).

وعندما علم فرعون بهرب بني إسرائيل غضب «وخرج وراءهم في ستمائة مركبة منتخبة. وسائر مركبات مصر وجنودٍ مركبية على جميعها» (سفر الخروج ١٤: ٧).

والغريب حقاً أن ستمائة ألف رجل من بني إسرائيل كادوا يموتون من الفزع لرؤيتهم ستمائة مركبة من مركبات فرعون وقالوا لموسى هل لأنه ليست قبور في مصر

أخذتنا لنموت في البرية. ماذا صنعتَ بنا حتى أخرجتنا من مصر. أليس هذا هو الكلام الذي كلمناك به في مصر قائلين كُفَّ عنا فنخدم المصريين لأنه خير لنا أن نخدم المصريين من أن نموت في البرية». (سفر الخروج ١٤: ١٠ ــ ١٣).

وبعد أن نجّى الله موسى ومن معه من بني إسرائيل وأهلك فرعون وقومه غرقاً في اليم سار موسى وقومه في البرية في سيناء متجهين إلى فلسطين..

وجاء في (سفر العدد ١: ١ ــ ٤):

«وكلَّم الربُّ موسى في برية سيناء في خيمة الاجتماع في أول الشهر الثاني من السنة الثانية لخروجهم من أرض مصر قائلاً: احصوا كل جماعة بني إسرائيل بعشائرهم وبيوت آبائهم بعدد الأسماء. كل ذكر برأسه من ابن عشرين فصاعداً خارج للحرب في إسرائيل».

فأحصاهم موسى وهارون ورؤساء إسرائيل فوجدوهم ستمائة ألف وثلاثة آلاف وخمس مائة وخمسين من الرجال فوق سن العشرين، ولم يعدوا فيهم النساء والأطفال دون العشرين، كما لم يعدوا فيهم أيضاً بيت اللاوي ــ أحد أسباط إسرائيل ومنهم موسى وهارون لأنهم أعدوا للكهانة وليس للحرب ــ .

ومعنى ذلك بكل بساطة أن عدد بني إسرائيل الذين خرجوا من مصر مع النساء والأطفال كان يقترب من ثلاثة ملايين.

ثم كلم الرب موسى قائلاً عُدَّ بني لاوي حسب آبائهم وعشائرهم كل ذكر منهم من ابن شهر فصاعداً فعدهم موسى». (سفر العدد ٣: ١٤ ــ ١٦).

فكان جميع المعدودين من اللاويين الذين عدهم موسى وهارون حسب قول الرب بعشائرهم، كل ذكر من ابن شهر فصاعداً: اثنان وعشرون ألفاً.. (سفر العدد ٣: ٣٩).

ثم عدَّ موسى جميع الأبكار الذكور من ابن شهر فصاعداً فوجدهم ٢٢٢٧٣

نفساً. (العدد ٣: ٤٣). . وأخذ موسى عن كل بكر خمسة شواقل فضة وأعطى الفضة لهارون وبنيه. . وأخذ كل بكر من البهائم وأعطاها لهارون وبنيه. . وصار بذلك هارون من أغنى أغنياء العالم!!

وقد أنكر هذا العدد جميع الباحثين من اليهود والنصارى وقالوا: إنه غير معقول وفيه مبالغة وتهويل. وذكرت دائرة المعارف البريطانية (ج ٢/ ٨٧٩ ـ ٩٠١ الطبعة الخامسة عشرة ١٩٨٢) أن هذه الأعداد مبالغ فيها جداً. وكذلك ذكر الدكتور موريس بوكاي في كتابه القرآن والتوراة والإنجيل والعلم أن العدد مبالغ فيه. وأفرد رحمة الله العثماني الكيرانوي في كتابه إظهار الحق (ج ١ ص ١١٢ ـ ١١٤) ثلاث صفحات لمناقشة هذا الادعاء الباطل، واستدل على ذلك بعدة وجوه:

● **الأول**: أن مكث بني إسرائيل في مصر كما تذكره أغلب المصادر هو ٢١٥ سنة (تذكر دائرة المعارف البريطانية ج ١٢/ ص ٤٨٧ مادة موسى الطبعة ١٥ لعام ١٩٨٢ أن الخروج كان سنة ١٢٩٠ قبل الميلاد على أرجح الأقوال، وتنكر أن المدة بين سليمان والخروج ٤٨٠ عاماً التي تدعيها التوراة).

ولا يعقل في هذه المدة أن يتضاعف بنو إسرائيل من سبعين شخصاً دخلوا زمن يوسف إلى مصر ويصبحوا بعد قرنين من الزمن قرابة ثلاثة ملايين شخص.

● **الثاني**: أن الفراعين قد تسلطوا على اليهود يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم وذلك منذ أن طرد أحمس الهكسوس (١٥٨٠ قبل الميلاد). وبالتالي لا يعقل أن يزداد الشعب زيادة كبيرة في فترات يكثر فيها القتل.

● **الثالث**: لا يعقل أن يزداد اليهود بهذه الدرجة ولا يزداد المصريون السكان الأصليون لمصر.

● **الرابع**: تذكر التوراة أن هذا العدد كله مع مواشيهم الكثيرة جداً عبروا البحر في ليلة واحدة أو جزء من ليلة، وهو أمر لا يعقل لكثرتهم.

● **الخامس**: لا بد أن يكون موقع نزولهم واسعاً جداً حتى يسع هذه الملايين مع مواشيهم، والأماكن المذكورة في التوراة أثناء خروجهم ليس فيها هذا الاتساع.

● **السادس**: وقع في سفر التثنية الإصحاح السابع أن الرب وعدهم بإهلاك أعدائهم سكان فلسطين قليلاً قليلاً، لأنه لو أبادهم دفعة واحدة لكانت أرض فلسطين متسعة جداً عليهم فتكثر عليهم دواب البر. ولو كان عددهم كما جاء في سفر الخروج لما وسعتهم فلسطين إلا بالكاد.

وقد جاء في القرآن الكريم استنفار فرعون لقومه للحاق ببني إسرائيل الذين فروا من وجهه:

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾.
(الشعراء: ٥٤ ـ ٥٦).

وقد جاء في سفر الخروج أن عدد مركبات فرعون كان ستمائة والمركبة في ذلك الوقت لم يكن يركبها سوى فارس أو اثنين فقط.. ومعنى ذلك أن جيش فرعون لم يكن يزيد عن بضعة آلاف. وقد مرّ معنا ذلك الهلع والرعب الذي دبّ في أوصال بني إسرائيل عندما رأوا جند فرعون وتقريعهم لموسى، ولو كان عددهم بالملايين وفيهم ما يزيد على ستمائة ألف مقاتل لما ارتعبوا من فرعون هذا الرعب العظيم.

وقد أنكر ابن خلدون في المقدمة أيضاً هذا العدد الرهيب الذي ذكرته التوراة (سفر الخروج، وسفر العدد).

وأما سنة الخروج فقد اختلف فيها اختلافاً شديداً بين الباحثين. وذكرت دائرة المعارف البريطانية ج ١٢/ ٤٨٧ مادة موسى الطبعة الخامسة عشرة الأقوال الكثيرة المختلفة ورجحت أن سنة الخروج كانت ١٢٩٠ قبل الميلاد.

وذكر الدكتور موريس بوكاي في كتابه القرآن والتوراة والإنجيل كذلك الأقوال المختلفة في زمن الخروج واعتبر أشدها نكارة فرض (دي ميسلي ـ J. de Miceli) (١٩٦٠ م) الذي زعم أن خروج بني إسرائيل حدث في ٩ أبريل ١٤٩٥ قبل الميلاد.. وكذلك اعتبر فرض دانييل ـ روبس في كتابه شعب التوراة: فرضاً بعيداً عن الواقع. أما الأب ديغو فقد قرب من الحقيقة في كتابه «تاريخ إسرائيل القديم» بأن ذلك حدث في وقت رمسيس الثاني وهو في الفترة ما بين عام ١٣٠١ و ١٢٩٠ قبل الميلاد.

وينتهي الدكتور موريس بوكاي إلى تأييد فرضه بأن فرعون الخروج هو منبتاح بن رمسيس الثاني. وبما أن منبتاح تسنم عرش مصر سنة ١٢٢٤ قبل الميلاد، وحكم مصر لمدة عشر سنوات في أحد الأقوال، وعشرين عاماً في قول ثان، فإن سنة الخروج إما أن تكون سنة ١٢١٤ قبل الميلاد أو ١٢٠٤ قبل الميلاد.

وهكذا يبدو أن الزمن الذي تم فيه خروج موسى وقومه من مصر غير معروف على وجه الدقة، وأن أقرب الأقوال إلى الصحة أن ذلك تم في القرن الثالث عشر قبل الميلاد.

الأعداد الخرافية لبني إسرائيل في التيه:

وقد جاء في التوراة أن بني إسرائيل عبدوا العجل الذي صنعه لهم هارون عليه السلام وهو افتراء على هارون عليه السلام. والذي صنع العجل هو السامري كما ورد في القرآن الكريم. وقد جاء أن الله غضب عليهم وقال لهم: ﴿اقتلوا أنفسكم﴾، فجاءت سحابة فقتل منهم آلاف مؤلفة.

ثم قالوا: أرنا الله جهرة، ومات منهم أيضاً عدد آخر. وجاء في سفر العدد (الإصحاح ١٦ : ٤١ ــ ٥٠): «فتذمر كل جماعة بني إسرائيل في الغد على موسى وهارون قائلين أنتما قتلتما شعب الرب. ولما اجتمعت الجماعة على موسى وهارون انصرفا إلى خيمة الاجتماع وإذا هي قد غطتها السحابة وتراءا مجد الرب. فجاء موسى وهارون إلى قدام خيمة الاجتماع فكلم الرب موسى قائلاً: اطلعا من وسط هذه الجماعة ــ أي بني إسرائيل ــ فإني أفنيهم بلحظة. ثم قال موسى لهارون خذ المجمرة واجعل فيها ناراً من على المذبح وضع بخوراً واذهب بها مسرعاً إلى الجماعة وكفّر عنهم لأن السخط قد خرج من قبل الرب. فأخذ هارون كما قال موسى وركض إلى وسط الجماعة وإذا الوباء قد ابتدأ في الشعب فوضع البخور وكفّر عن الشعب. ووقف بين الموتى والأحياء فامتنع الوباء. فكان الذين ماتوا بالوباء أربعة عشر ألفاً وسبعمائة عدا الذين ماتوا بسبب قورح».

ومرة أخرى شتم بنو إسرائيل موسى وغضبوا على الطعام الذي أتاهم من

السماء. «فأرسل على الشعب الحيات المحرقة فلدغت الشعب فمات قوم كثيرون من إسرائيل» (سفر العدد، الإصحاح ٢١ : ٦).

وأرسل موسى الجواسيس إلى أرض العماليق ليعرف خبرهم، فلما جاء الجواسيس قالوا له: رأينا قوماً ضخاماً أقوياء أشداء لا طاقة للشعب بقتالهم. فبكى الشعب وقالوا لا نريد قتالاً لهؤلاء القوم. اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون. وتكلم يوشع بن نون ــ تلميذ موسى ــ وكالب بن يفنه وكان من ضمن الجواسيس وهونا الأمر على الشعب، وقالا للشعب: قاتلوا هؤلاء القوم والنصر لكم من عند الله. . لكن بني إسرائيل رفضوا القتال. فأمات الرب جميع الشعب «لأن الرب قال لهم يموتون في البرية فلم يبق إنسان منهم إلا كالب بن يفنه ويشوع بن نون». (سفر العدد، الإصحاح ٢٦ : ٦٥).

والغريب حقاً أن يصل عدد المقاتلين من بني إسرائيل بعد كل هذا الإهلاك والموت إلى ستمائة ألف وبضع مئات عدا بني لاوي لأنهم من الكهنة. . وعدا النساء والأطفال لأنهم لا يعدون إلا من كان قد بلغ عشرين سنة فما فوقها.

«هؤلاء هم الذين عدهم موسى وألعازار الكاهن حين عدّا بني إسرائيل من عربات موآب على أردن أريحا. وفي هؤلاء لم يكن إنسان من الذين عدهم موسى وهارون الكاهن حين عدّا بني إسرائيل في برية سيناء لأن الرب قال لهم إنهم يموتون في البرية فلم يبق منهم إنسان إلا كالب بن يفنة ويشوع بن نون». (سفر العدد، الإصحاح ٢٦ : ٦٣ ــ ٦٥).

فإذا كان ستمائة ألف مقاتل قد ماتوا في التيه ومات غيرهم بالحياة والصعق والوباء فكيف يصل عددهم إلى ستمائة ألف مقاتل بعد أن أفني آباؤهم في خلال أربعين سنة؟ وكيف يقودهم يوشع بن نون مرة أخرى للقتال والاستيلاء على أريحا الأردن؟!!

وهي أعداد خرافية لا يمكن أن تعقل، وتصطدم مع بديهيات الأمور. ففي خلال فترة التيه مات من بني إسرائيل حسب ما تذكر التوراة أكثر من مليون. ومع هذا نرى

جيشاً يقوده يوشع بن نون بحضور موسى يبلغ تعداد جنوده أكثر من ستمائة ألف مقاتل!!.

وقسم موسى الأرض سلفاً لأسباط بني إسرائيل ما عدا سبط اللاوي لأنهم الكهنة وليس لهم من قسم الأرض شيء.

بنو إسرائيل يتمردون على موسى ويعبدون العجل:

رغم أن موسى عليه السلام هو أعظم أنبياء بني إسرائيل على الإطلاق، وهو زعيمهم الذي أخرجهم من العبودية والذل إلى العزة والكرامة والحرية، إلا أنه لم يسلم من أذى بني إسرائيل ومن شتائمهم له. حتى إن التوراة الموجودة اليوم بين أيدينا مليئة بقذف موسى عليه السلام وافتراء الكذب عليه وعلى أخيه هارون..

ومنذ اللحظة الأولى التي جاءهم فيها موسى ودعاهم فيها لإخلاص العبادة لله والخروج من أرض مصر، وبنو إسرائيل يتلكأون في طاعته ويتمردون عليه ويلجّون في محاجته، لشدة فَرَقِهم وفزعهم من فرعون وقومه، وعدم صبرهم على احتمال الأذى واستعلائهم وتجبرهم وطغيانهم عند أول بادرة يزول فيها عنهم الخطر.

وبدأت لجاجتهم مع موسى عليه السلام وهم لا يزالون تحت فرعون يستعبدهم ويذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم. فقالوا لموسى:

﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾.

(الأعراف: ١٢٩).

وما يكاد فرعون يغرق ويجاوز بنو إسرائيل البحر حتى يجدوا قوماً عاكفين على أصنام لهم فتبلغ بهم الوقاحة أن يطلبوا من موسى عليه السلام أن يجعل لهم إلـهاً مثل أولئك القوم الفاسقين..

﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ

وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾.

قصة العجل:

وسكت بنو إسرائيل على مضض فلما ذهب موسى لميقات ربه، أخرجوا الحلي التي سرقوها من المصريين، وتناولها السامري فصنع لهم عجلاً له خوار، وقال: هذا إلٰهكم وإلٰه موسى. فعبده القوم، وذبحوا له، وسجدوا أمامه، وغنوا ورقصوا.

ويقص الله سبحانه وتعالى قصة العجل في سورة الأعراف وفي سورة طه. ويذكرهم المولى بعبادة العجل في أكثر من سورة من سور القرآن الكريم، وكيف أشربوا العجل وحبه في قلوبهم ـ سورة البقرة: ٩٣:

﴿وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾.

ووصف المولى تعالى عبادتهم للعجل في سورة الأعراف كالتالي:

قال تعالى:

﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنۢ بَعْدِيٓ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾.

(الأعراف: ١٤٨ ـ ١٥٢).

وقال تعالى في سورة طه يصف كفر بني إسرائيل بعد أن أنجاهم الله من فرعون، وبعد أن أنزل عليهم المن والسلوى، وكيف عبدوا العجل:

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي ﴿٩٤﴾ ﴾.

﴿ قَالَ فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ — أي من أثر حافر دابة جبريل عليه السلام حيث أخذ السامري من ذلك التراب الذي مسه جبريل أو حافر دابته ونبذه في العجل الذهبي فخار العجل — . فَنَبَذۡتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ — أي لا يمسني أحد لأنه لو مسه إنسان حُمَّ كلاهما معاً — . وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدٗا

لَن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ ﴾.

(طه: ٨٠ ـ ٩٨).

وهكذا يصف القرآن الكريم كيف عبد بنو إسرائيل العجل بعد أن نجاهم الله من فرعون وبطشه بهم، وبعدما رأوا الآيات العجيبة المتتالية أمام أعينهم. ولكن ما أن ذهب موسى لميقات ربه حتى جمع بنو إسرائيل الحليّ التي استعاروها من المصريين قبيل خروجهم من مصر، وجمعها السامري الذي برع وتفنن في صناعة العجل من الذهب الخالص، ولم يكتف بذلك بل قذف في فم العجل شيئاً من التراب الذي مسه حافر دابة جبريل، حيث قبض قبضة من أثر الرسول فنبذها، فإذا العجل يخور. وجُنَّ بنو إسرائيل بهذا العجل فهو يفوق العجول التي كان المصريون يعبدونها ويسمونها إيبيس، فتلك عجول صامتة، وهذا عجل له خوار.

وأما الصورة التي ترسمها التوراة المحرفة لعبادة العجل فهي صورة قميئة، حيث تتهم هارون عليه السلام بأنه هو الذي صنع العجل، وأنه هو الذي دعا بني إسرائيل لعبادته، ولا يرد أي ذكر للسامري في التوراة المحرفة.

وهذا يوضح إلى أي مدى بلغت الوقاحة بيهود حيث يحرفون كلام الله ويزيغونه لدرجة لا يكاد يتصورها عقل، والتي اتهموا فيها الأنبياء جميعاً بالغش والخداع والكذب والنفاق والزنى والربا ونكاح المحارم، والتي سنستعرضها بإذن الله في كتاب خاص.

ولم يكتفوا بذلك بل وصفوا المولى سبحانه وتعالى بقولهم:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾. (آل عمران: ١٨١).

وبقولهم:

﴿ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ﴾. (المائدة: ٦٤).

وصوَّرت التوراة المولى سبحانه وتعالى بصورة مهينة وحقيرة، حيث يظهر في

صورة رجل يصارعه يعقوب فلا يستطيع أن يتغلب عليه، ولا يطلقه يعقوب حتى يعطيه العهد الأبدي له ولنسله. كما يظهر في صورة بشر حقود سريع الغضب لأن آدم أكل من شجرة المعرفة، ولأن بني آدم اجتمعوا وصار لهم لسان واحد، فنزل خوفاً على عرشه وبلبلهم وفرقهم في الأرض. وتظهره التوراة المحرفة بصورة شخص سريع الغضب، كثير الندم. وسنستعرض ذلك أيضاً في رسالة خاصة بإذن الله تعالى.

هارون يصنع العجل ويعبده:

لقد بلغت الوقاحة والافتراء باليهود حدوداً لا يكاد يتخيلها عقل إنسان. ففي التوراة المحرفة (**سفر الخروج، الإصحاح ٣٢: ١ ـ ٣٠**) ما يلي:

«ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل اجتمع الشعب على هارون وقالوا له: قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا لأن هذا موسى الرجل الذي أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه. فقال لهم: انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وائتوني بها ـ وهي التي سرقوها من المصريين عند خروجهم من مصر، وقد زعمت التوراة أنهم أمروا بسرقة المصريين من الرب ـ. فنزع كل الشعب أقراط الذهب التي في آذانهم وأتوا بها إلى هارون. فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالإزميل وصنعه عجلاً مسبوكاً فقالوا: هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر. فلما نظر هارون، بنى مذبحاً أمامه ـ أي أمام العجل ـ ونادى هارون وقال: غداً عيد الرب. فبكروا في الغد وأصعدوا محرقات وقدموا ذبائح ـ للعجل ـ. وجلس الشعب للأكل والشرب ثم قاموا للعب».

«فقال الرب لموسى: اذهب انزل لأنه فسد شعبك الذي أصعدته من أرض مصر. زاغوا سريعاً عن الطريق الذي أوصيتهم به. صنعوا عجلاً مسبوكاً وسجدوا له وذبحوا له. وقالوا هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر. وقال الرب لموسى: رأيتُ هذا الشعب. وإذا هو شعب صلبُ الرقبة. فالآن اتركني ليحمى غضبي عليهم وأفنيهم، فأصيّرك شعباً عظيماً. فتضرّع موسى أمام الرب إلهه. وقال: لماذا يا رب يحمى غضبك على شعبك الذي أخرجته من مصر بقوة عظيمة ويد شديدة؟ لماذا يتكلم المصريون قائلين أخرجهم بخبث ليقتلهم في الجبال ويفنيهم عن وجه

الأرض؟ **ارجع عن حمو غضبك واندم على الشرِّ بشعبك** ــ لعنة الله على اليهود كيف بلغت بهم الوقاحة أن يصوروا موسى يتحدث مع رب العالمين بهذه الصفاقة كأنما يكلم بشراً سريع الغضب ــ اذكر إبراهيم وإسرائيل عبيدك الذين حلفت لهم بنفسك وقلتَ لهم: أكثِّر نسلكم كنجوم السماء وأعطي نسلكم كل هذه الأرض التي تكلمت فيملكونها إلى الأبد. **فندم الرب على الشرِّ الذي قال إنه يفعله بشعبه** ــ ألا لعنة الله على اليهود حيث تقول التوراة المحرفة: إن الرب يندم!! وما أكثر ندم هذا الرب عندهم!!! ــ.

«فانصرف موسى ونزل من الجبل ولوحا الشهادة في يده. لوحان مكتوبان على جانبيهما من هنا ومن هنا كانا مكتوبين. واللوحان هما صنعة الله والكتابة كتابة الله منقوشة على اللوحين. وسمع يشوع صوت الشعب في هتافه، فقال لموسى صوت قتال في المحلّة. فقال: ليس صوت صياح النصرة ولا صوت صياح الكسرة بل صوت غناء أنا سامع. وكان عندما اقترب إلى المحلة أنه أبصر العجل والرقص. فحمى غضبُ موسى وطرح اللوحين من يديه وكسرهما في أسفل الجبل ثم أخذ العجل الذي صنعوا وأحرقه بالنار وطحنه حتى صار ناعماً وذراه على وجه الماء وسقى بني إسرائيل». (سفر الخروج ٣٢: ١٥ ــ ٢٠).

موسى يقرّع هارون، وهارون يعرّي موسى ليهزأ به الشعب:

«وقال موسى لهارون ماذا صنع بك هذا الشعب حتى جلبت عليه خطية عظيمة؟ فقال هارون: لا يحمَ غضب سيدي. أنت تعرف الشعب أنه في شر. فقالوا لي اصنع لنا آلهة تسير أمامنا لأن هذا موسى الرجل الذي أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه. فقلت لهم من له ذهب فلينزعه ويعطني. فطرحته في النار فخرج هذا العجل. ولما رأى موسى الشعب أنه مُعرّى لأن هارون كان قد عراه للهزء بين مقاديمه». (سفر الخروج ٣٢: ٢١ ــ ٢٦).

الأمر بقتل عبدة العجل:

«وقف موسى في باب المحلة وقال من للرب فإليّ. فاجتمع إليه جميع بني لاوي فقال لهم. هكذا قال الرب إلّه إسرائيل. ضعوا كل واحد سيفه على فخذه ومرّوا

وارجعوا من باب إلى باب في المحلة. واقتلوا: كلٌّ واحد أخاه. وكلٌّ واحد صاحبه. وكلٌّ واحد قريبه. ففعل بنو لاوي بحسب قول موسى. ووقع من الشعب في ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف رجل. وقال موسى املأوا أيديكم اليوم للرب حتى كلٌّ واحد بابنه وبأخيه. فيعطيكم اليوم بركة» (سفر الخروج ٣٢: ٢٦ ــ ٢٩).

وهكذا تصف التوراة المحرّفة الأنبياء.. وتجعل هارون صانعاً للعجل وداعياً لعبادته.. ثم تصور موسى عليه السلام وهو يكلم ربه وكأنما يكلم بشراً ويقول له: ارجع عن حمو غضبك **واندم على الشر بشعبك**.. اذكر إبراهيم وإسرائيل عبيدك الذين حلفت لهم بنفسك وقلت لهم: أكثِّر نسلكم كنجوم السماء وأعطي نسلكم كل هذه الأرض التي تكلمت فيملكونها إلى الأبد **فندم الرب على الشر الذي قال إنه يفعله بشعبه**».

ويقرع موسى هارون لفعلته المزعومة فما يكون من هارون إلا أن يقوم ويعري موسى من ملابسه حتى يهزأ الشعب بموسى ويضحك عليه ويسخر منه!!

تحريف الأحبار للتوراة:

هكذا يحرف الأحبار التوراة التي أنزلها الله على موسى وقال عنها في محكم كتابه: ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء﴾ (المائدة: ٤٤).

وقد وصف المولى عز وجل فعلتهم الشنيعة وتحريفهم لكتاب الله في أكثر من آية. قال تعالى:

﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾. (النساء: ٤٦).

وقال عز من قائل:

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾. (البقرة: ٧٥).

وقال سبحانه وتعالى:

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾. (البقرة: ٧٨ ـ ٧٩).

وهكذا يفتري الكذب على الله الذين لا يعقلون.

﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾. (المائدة: ٤١).

وتحريفهم للتوراة: تحريف للمعاني، وتحريف وحذف وإضافة للكلام، وتزايد التحريف على مدى الأزمنة بضياع التوراة الأصلية حتى لم يبق من كلام الله إلا بصيص من نور يشع من حين لآخر بين هذه الظلمات المتراكمة بعضها فوق بعض.

وقد أخبرنا المولى سبحانه وتعالى بعبادتهم للعجل في القرآن الكريم ولكن الفرق بين ما ورد في القرآن الكريم وفي التوراة المحرفة الموجودة بين أيدينا اليوم فرق شاسع. ويوضح تماماً كيف يحرف بنو إسرائيل الحقائق ويفترون على الله الكذب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله. فيتهمون الأنبياء بجرائمهم الشنيعة. ويصورون الله في صورة رجل أحمق سريع الغضب كثير الندم مجابٍ لشعبه وابنه البكر إسرائيل رغم كل الجرائم التي ارتكبها ضده.

﴿اقتلوا أنفسكم﴾:

يذكر القرآن الكريم في سورة البقرة العقوبة الشديدة التي جعلها على بني إسرائيل حين عبدوا العجل. ويتفق هذا المقطع مع ما ذكرته التوراة المحرفة، إلا أن التوراة تحدد أن موسى دعا القوم فلم يجبه إلا عشيرته من بني لاوي بن يعقوب. فأمرهم بأخذ سيوفهم وبأن يقتل كل واحد أباه وأخاه وابنه وقريبه وصاحبه فقتل في ذلك اليوم ثلاثة آلاف من بني إسرائيل.

قال تعالى بعد أن عدّد النعم العظيمة التي منحها لبني إسرائيل:

﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾. (البقرة: ٥١ ــ ٥٤).

وتذكر التوراة المحرفة أن موسى ألقى الألواح التي في يده فكسرها ــ تذكر أنهما لوحان فقط ــ ثم عاد وصنع لوحين من حجر فكتب الله عليهما الوصايا العشر.

ذنب الآباء في الأبناء:

تكرر التوراة وما يسمى العهد القديم أن الله يفتقد ذنوب الآباء في الأبناء وأبناء الأبناء إلى الجيل الرابع. «نفتقد إثم الآباء في الأبناء وفي أبناء الأبناء في الجيل الثالث والرابع». (سفر الخروج ٣٤:٧). مع أنه لا ذنب للأبناء في ذلك. وهذا يشبه ما لدى النصارى من أن البشر كلهم يحملون وزراً من خطيئة آدم، وأن الرب ــ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ــ أنزل ابنه عيسى ليفتدي البشر من هذه الخطيئة الكبرى فذبحه على الصليب من أجل الكفارة. فمن آمن بعيسى على هذا المنوال فقد محيت خطيئته التي حملها من آدم ومن لم يؤمن ولم يُعمّد بقيت عليه خطيئته. .

وهي أمور تناقض العدالة والحق كما قال تعالى في القرآن الكريم: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾، ﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تُسألون عما كانوا يفعلون﴾.

وفي موقع واحد فقط في التوراة المحرفة تظهر الحقيقة التي جاء بها القرآن الكريم وذلك في سفر حزقيال الإصحاح ١٨ حيث يبتدىء حزقيال يتكلم وينقل كلام الرب له ويوبخ بني إسرائيل على المثل الشائع بينهم «الآباء أكلوا الحصرم وأسنان الأبناء ضرست» أي إن نتائج الذنب وقعت على الأبناء. ويقول لهم: إن النفوس كلها لله. والإنسان الذي كان باراً ولم يعبد الأصنام وفعل حقاً وعدلاً ولم ينجس امرأة قريبة ولم يقرب طامثاً ولم يظلم إنساناً ولم يغتصب اغتصاباً،

بل بذل خبزه للجوعان وكسا العريان ثوباً، ولم يعط بـالربـا، ولم يأخـذ مرابحـة، وكف يده عن الجور، وأجرى العدل الحق بين الإنسان والإنسان وسلك في فرائضي، وحفظ أحكامي ليعمل بالحق فهو بارٌّ. حياة يحيى يقول السيد الرب مهما كانت ذنوب آبائه.

فإن ولد ابناً مجرماً سافكاً للدم وعبد الأصنام ونجسّ امرأة قـريبة وظلم الفقيـر والمسكين، وأعطى بالربا ولم يرد الرهن، قد عمل كل الرجاسات فموتاً يموت. دمه يكون على نفسه. وإن ولد هذا ابناً باراً فإنه لا يموت بإثم أبيه.

«وأنتم تقولون لماذا لا يحمل الابن من إثم أبيه. أما الابن فقد فعل حقاً وعدلاً. حفظ جميع فرائضي وعمل بها فحياة يحيى. النفس التي تخطىء هي تموت. الابن لا يحمل من إثم أبيه والأب لا يحمل من إثم الابن. بِرُّ البار عليه يكون، وشرُّ الشرير عليه يكون. فإذا رجع الشرير عن جميع خطاياه التي فعلها وحفظ كل فرائضي وفعل حقاً وعدلاً فحياة يحيى لا يموت، كل معاصيه التي فعلها لا تذكر عليه، في برِّه الذي عمل يحيى. . . وإذا رجع البارُّ عن بره وعمل إثماً وفعل مثل كل الرجاسات التي يفعلها الشرير، أفيحيا؟ كل بره الذي عمله لا يذكر. في خيانته التي خانها وفي خطيئته التي أخطأ بها يموت».

ورغم أن هذا الكلام جيد ويوافق القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ إلا أن هناك ملاحظتين:

● **الأولى**: أن العقاب هو الموت وأن الثواب هو الحياة. وليس هناك ذكر لليوم الآخر، ولا الجنة والنار فيما يسمى العهد القديم ــ التوراة المحرفة ــ بأكمله.

● **الثانية**: أن الشخص الذي يعمل شراً بعد خير ينسى كل عمله الخيّر، كل بره الذي عمله لا يذكر، وهذا عين الظلم. فالقرآن الكريم يقول: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره. ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾.

* * *

ماذا حدث بعد عبادة العجل؟

أمثلة من جرائم بني إسرائيل بعد العجل:

يذكر الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم جرائم بني إسرائيل منذ خروجهم من مصر بعد نجاتهم من فرعون، وإغراق فرعون وجنوده أمام أعينهم. وتبدأ سلسلة الجرائم بطلبهم من موسى أن يصنع لهم إلـهاً ليعبدوه، فيوبخهم موسى ويقرّعهم، ثم يذهب للقاء ربه فيعبدون العجل. وتأتي العقوبة صارمة ﴿اقتلوا أنفسكم﴾ فيقتلون أنفسهم. وتذكر التوراة كما مرّ معنا أنهم قتلوا في ذلك اليوم ثلاثة آلاف شخص.

اختيار السبعين وطلبهم رؤية الله:

قال تعالى:

﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَـٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ﴿١٥٦﴾ ﴾. (الأعراف: ١٥٥ ــ ١٥٦).

وهؤلاء هم خيرة بني إسرائيل اختارهم موسى عليه السلام ليعتذروا لله عن عبادة قومهم العجل، فلما ساروا مع موسى قالوا: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة. فأخذتهم الصاعقة، فماتوا جميعاً، فقام موسى يبكي ويتضرع لله. وقال: ﴿رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا﴾ فأحياهم الله بدعاء موسى عليه السلام ﴿إنا هدنا إليك﴾، أي تبنا ورجعنا إليك، ومنها جاءت كلمة

اليهـود. ولم تكن كلمة يهـود تطلق على بني إسـرائيل قبـل ذلك، بـل كـانـوا يـدعـون «العبرانيين» و«بني إسرائيل». وقد جاء ذكر هذه التفاصيـل من قصة بني إسـرائيل بعـد خروجهم من مصر في سورة البقرة، حيث بدأها المولى سبحانه وتعالى بتـذكيرهم بنعم الله عليهم:

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

وهو تفضيل مبني على العمل الصالح لا على النسب لإبراهيم وإسحـاق ويعقوب والأسبـاط. على عكس ما تـذكره التـوراة المحرفـة من أن العهد أبـدي لنسـل إبـراهيم وإسحاق ويعقوب من دون الناس مهما ارتكبوا من الجرائم.

ثم يقول المولى عز وجل مذكراً لهم بنجاتهم من فرعون:

﴿ وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿٤٩﴾ وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوۡنَا عَنكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡفُرۡقَانَ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾.
(البقرة: ٤٧ ــ ٥٦).

وقد بلغت الوقاحة بهؤلاء السبعين أن يقولوا لمـوسى: ﴿لن نؤمن لك حتى نـرى الله جهرة﴾، رغم أنهم قد سمعـوا كلام الله لمـوسى على جبل سينـاء. قال محمـد بن

إسحاق (تفسير ابن كثير ج ٢/ ٢٤٩): اختار موسى من بني إسرائيل سبعين رجلاً الخيّر فالخير. وقال انطلقوا فتوبوا إليه مما صنعتم ــ من عبادة قومكم العجل ــ وسلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم، صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم. فخرج بهم إلى طور سيناء لميقات وقّته له ربه. وكان لا يأتيه إلا بإذن منه. فقال له السبعون: اطلب لنا نسمع كلام ربنا. فقال موسى: أفعل. فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى تغشى الجبل كله، ودنا موسى فدخل فيه وقال للقوم: ادنوا. وكان موسى إذا كلمه الله وقع على جبهة موسى نور ساطع لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه فضرب دونه الحجاب، ودنا القوم حتى إذا دخلوا في الغمام سمعوا الرب وهو يكلم موسى يأمره وينهاه. فلما فرغ موسى أقبل إليهم. فقالوا له: ﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾.

تحريف التوراة لقصة السبعين:

أما التوراة الموجودة بين أيدينا فتذكر الغمام وكلام الله لموسى والنور الذي يقع على جبهته بعد كلامه مع الله. وأما قصة السبعين فتختلف اختلافاً بيّناً عما ذكره المفسرون. فقد جاء في سفر الخروج ٢٤: ٩ ــ ١١.

«ثم صعد موسى وهارون وناداب وأبيهو وسبعون من شيوخ إسرائيل. **ورأوا إله إسرائيل وتحت رجليه شبه صنعةٍ من العقيق الأزرق الشفاف وكذات السماء في النقاوة. ولكنه لم يمد يده إلى أشراف بني إسرائيل فرأوا الله وأكلوا وشربوا**».

تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. حيث لم يستطع موسى رؤية الله، فكيف بهؤلاء القوم؟! وما قالها موسى إلا من شدة الشوق والحب ﴿فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقاً﴾.

آلاء الله على بني إسرائيل:

تتوالى المشاهد في سورة البقرة بعد منظر السبعين وهم يصعقون، ثم يبعثهم الله مرة أخرى بدعوة موسى عليه السلام. وإذا الشمس حارقة والجو مكفهر خانق، والصحراء مجدبة، فتأتي آلاء الله تباعاً، **الغمامُ والمن والسلوى ونبع الماء من الصخر الجلمد**:

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾. (البقرة: ٥٧).

﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾. (البقرة: ٦٠).

وهكذا أنعم الله في الصحراء المحرقة الموحشة التي لا كلأ فيها ولا ماء، فجعل لهم الغمام يظلُّهم إذا طلعت الشمس وارتفعت إلى كبد السماء، وأخرج لهم الماء من الصخر، ووجدوا أكلهم جاهزاً يأتيهم من السماء في سورة منّ ــ عسل ــ يبقى على الصخور، ينزل أثناء الليل فيجد كل واحد ما يكفيه، ثم جاءت أسراب طائر السماني فيتناول الواحد منهم بيده فيشويه ويأكله.

ونجد هذه الآيات العجيبة مذكورة في التوراة المحرفة بين أيدينا بصورة قريبة جداً مما هو في القرآن الكريم:

الماء من الحجر:

«ثم ارتحل بنو إسرائيل من برية سين. . . ولم يكن ماء ليشرب الشعب. فخاصم الشعب موسى وقالوا: أعطونا ماء لنشرب. فقال لهم موسى لماذا تخاصمونني؟!! وتذمر الشعب على موسى. وقالوا لماذا أصعدتنا من مصر لتميتنا وأولادنا ومواشينا من العطش؟! فصرخ موسى إلى الرب قائلاً: ماذا أفعل بهذا الشعب؟ بعد قليل يرجمونني. فقال الرب لموسى مرّ قدام الشعب وخذ معك من شيوخ إسرائيل، وعصاك التي ضربت بها النهر خذها في يدك واذهب. ها أنا أقف أمامك هناك على الصخرة في حوريب فتضرب الصخرة فيخرج منها ماء ليشرب الشعب. ففعل موسى هكذا أمام عيون شيوخ إسرائيل ودعا الموضع مسّه ومريبه». (سفر الخروج ١٧ : ١ ــ ٨).

المنّ والسلوى في التوراة:

(سفر الخروج ١٦ : ١ ــ ٣٦).

«فتذمر كل جماعة بني إسرائيل على موسى وهارون في البرية. وقال لهما بنو إسرائيل: ليتنا متنا بيد الرب في أرض مصر، إذ كنا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزاً للشبع. فإنكما أخرجتمانا إلى هذا القفر لكي تميتا كل هذا الجمهور بالجوع. فقال الرب لموسى: ها أنا أمطر لكم خبزاً من السماء فيخرج الشعب فيلتقطون حاجة اليوم بيومها لكي امتحنهم أيسلكون في ناموسي أم لا؟ وأعطاهم يوم الجمعة ما يكفي ليومين». وأعطاهم الرب المنّ يجدونه في الصباح حيث ينزل في آخر الليل، وهو بمثابة الخبز لهم. وفي المساء تأتيهم طيور السماني ــ السلوى ــ ليأكلوا منها، ومنعهم من الاكتناز وقال لهم: التقطوا منه كل واحد على حسب أكله.. ففعل بنو إسرائيل هكذا بين مكثر ومقل. وقال لهم موسى لا يُبقِ أحد منه إلى الصباح. لكنهم لم يسمعوا لموسى، **بل أبقى منه أناس إلى الصباح فتولد فيه دود وأنتن. فسخط عليهم موسى»**. وقد ذكر المصطفى صلوات الله عليه ذلك حيث قال: **«لولا بنو إسرائيل لم يخبث الطعام ولم يخنز اللحم»** أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما والإمام أحمد في مسنده.

وقال ابن حجر العسقلاني في فتح الباري وهو يشرح الحديث: (يخنز اللحم أي ينتن. والخنز التغيّر والنتن. قيل أصله: إن بني إسرائيل أدخروا لحم السلوى وكانوا نهوا عن ذلك فعوقبوا بذلك. حكاه القرطبي. وذكره غيره عن قتادة. وقال بعضهم: معناه لولا أن بني إسرائيل سنوا ادخار اللحم حتى أنتن لمّا ادخر لم ينتن. وروى أبو نعيم في الحلية عن وهب بن منبه قال: في بعض الكتب: (لولا أني كتبت الفساد على الطعام لخزنه الأغنياء من الفقراء).

وهكذا تتضح طبيعة يهود الفاسدة النتنة. فقد أعطاهم الله المن والسلوى كل يوم بيومه، ولكن الجشع والطمع الذي يلازم طبيعة يهود، وحبهم للادخار واكتناز الثروة مهما كانت، وبكل طريق وسبيل. فهي معبودهم وعجلهم الذي أشربوا حبه في قلوبهم. لا ينفك عنهم أبداً مهما طال الزمن وتغيّرت الأيام.

بنو إسرائيل يطلبون الذي هو أدنى ويتركون الذي هو خير:

ورغم هذه النعم المتتالية على بني إسرائيل، إلا أن طبيعة الخسة والدناءة

والحقارة فيهم جعلتهم يطلبون من موسى الذي هو أدنى ويتركون الذي هو خير. طلبوا الثوم والقثاء والبصل والعدس بدلاً عن المنّ والسلوى.

قال تعالى يصف موقفهم ذاك المخزي:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾. (البقرة: ٦١).

وقال لهم المولى: اهبطوا إلى أي مصر من الأمصار فستجدون هذا الطلب المتواضع. لقد أراد الله لهم العزة، وأعطاهم المنّ والسلوى، ولكن نفوسهم لم تنفطم عن شهواتها. لأي بادرة يقلقون، ولأي خوف يجزعون ويفرقون. وإذا كانوا مع أنبيائهم يتواقحون. آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا، واتهموا الأنبياء في توراتهم المحرفة بكل نقصية، بل بلغت بهم الوقاحة أن شتموا رب العالمين:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾. (المائدة: ٦٤).

والمولى الحليم يصبر على ذلك كله ويمهلهم ولا يهملهم. ومع هذا ازدادوا عتواً وصلفاً وتجبراً مع أنبيائهم ﴿ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون﴾. وازدادوا خسّة وجبناً وحقارة وذلة مع من تجبر عليهم من أمثال نبوخذ نصر والفرس والرومان الذين حكموهم.

وقد اختلف المفسرون حول مصر الذي قيل لهم ادخلوه. وأقرب الأقوال أنه أريحا في الأردن؛ لأنها كانت أقرب أرض زراعية لهم، وفيها العماليق وما أمروا به من قتالهم.

الميثاق ورفع الطور فوقهم:

قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ (المائدة: ١٢).

قال تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾. (البقرة: ٦٣ ــ ٦٤).

وقال تعالى:

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾. (الأعراف: ١٧١).

ويذكر المولى عز وجل نص هذا الميثاق:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾. (البقرة: ٨٣ ــ ٨٥).

وقد جاء في تفسير ابن كثير في قوله تعالى ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون﴾:

أنَّ الله أمرهم فامتنعوا عن الطاعة فرفع عليهم الجبل فوق رؤوسهم كأنه ظلة،

كما جاء في سورة الأعراف ﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم﴾، فالطور هو الجبل. فلما رفع الجبل فوقهم سجدوا على شق ونظروا بالشق الآخر، وأخذوا المواثيق التي ذكرتها الآية الأخرى ﴿وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسناً﴾. . . الآية.

وجاء في تفسير ابن كثير في قوله: ﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة﴾ الآية:

الجبل هو الطور. . عن ابن عباس أنه قال: «سار بهم موسى عليه السلام إلى الأرض المقدسة وأخذ الألواح بعدما سكت عنه الغضب وأمرهم بالذي أمر الله أن يبلّغهم من الوظائف فثقلت عليهم وأبوا أن يقروا بها، حتى نتق الله الجبل فوقهم كأنه ظلة. قال: رفعته الملائكة فوق رؤوسهم. (رواه النسائي).

وفي رواية أخرى: أن موسى قال لهم: هذا كتاب من الله أتقبلونه بما فيه؟ فإن فيه بيان ما أحل الله لكم وما حرم عليكم وما أمركم وما نهاكم. قالوا: انشر علينا ما فيها فإن كانت فرائضها وحدودها يسيرة قبلناها، وإن كانت غير ذلك نراجعك. فأوحى الله إلى الجبل فانقلع وارتفع في السماء حتى إذا كان بين رؤوسهم والسماء كأنه ظلة. فخر كل رجل ساجداً على حاجبه الأيسر ونظر بعينه اليمنى إلى الجبل فرقاً أن يسقط عليه. وكذلك يسجد اليهود إلى اليوم.

الميثاق والعهد في التوراة:

يأتي ذكر الجبل وصعود موسى إليه، ولكن لا تذكر التوراة الموجودة بين أيدينا أن الله نتق الجبل فوق بني إسرائيل حتى يأخذوا ما آتاهم الله من المواثيق.

ففي سفر الخروج، الإصحاح ١٩: ٢٠ ــ ٢٥، جاء ما يلي: «ونزل الرب على جبل سيناء إلى رأس الجبل، ودعا الله موسى إلى رأس الجبل، فصعد موسى، فقال الرب لموسى: انحدر حذّر الشعب لئلا يقتحموا إلى الرب لينظروا فيسقط منهم كثيرون. ثم انحدر موسى إلى الشعب وقال لهم».

وكلمهم الله بواسطة موسى وأمرهم بهذه الأوامر:

أنا الرب إلهك الذي أخرجك من بيت العبودية أرض مصر. لا يكن لك آلهة

أخرى. لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورة ما مما في السماء من فوق وما في الأرض من تحت وما في الماء من تحت الأرض. لا تسجد لهن ولا تعبدهن.

اذكر يوم السبت لتقدسه.

أكرم أباك وأمك.

لا تقتل، لا تزنِ، لا تسرق، لا تشهد على قريبك شهادة زور، لا تشتهِ بيت قريبك، لا تشته امرأة قريبك، ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئاً مما لقريبك.

وكان جميع الشعب يرون الرعود والبروق وصوت البوق والجبل يدخّنُ. ولما رأى الشعب ارتعدوا ووقفوا من بعيد. وقالوا لموسى: تكلم أنت معنا، ولا يتكلم معنا الله لئلا نموت». (سفر الخروج ٢٠: ١ ــ ٢٠).

ثم وضع موسى أمامهم الأحكام التفصيلية التي أشرنا إلى بعضها، حيث تسمح باسترقاق جميع الأمم ما عدا بني إسرائيل، وأحكام الزواج، والزنى، والقتل، والسرقة، ودية السقط، إلخ... إلخ... بعض هذه الأحكام قد أقرها الإسلام. وهي من التوراة الصحيحة التي بقيت منها بقايا مدفونة بين ركام الكلام الموضوع الذي وضعه الأحبار..

وقد أشرنا إلى ما جاء القرآن بتصديقه من قبل. ومن ذلك ما جاء في التوراة «لا تقبل خبراً كاذباً. ولا تضع يدك مع المنافق لتكون شاهد ظلم. ابتعد عن كلام الكذب ولا تقتل البريء والبار. ولا تأخذ رشوة. ولا تضايق الغريب فإنكم عارفون نفس الغريب لأنكم كنتم غرباء... إلخ.

وتأتي بعد ذلك أوامر سخيفة لصنع الرداء والثوب للكاهن، والمحرقات والتابوت الذي سيسكن فيه الله بينهم!! تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وهكذا تجد في التوراة الموجودة بين أيدينا الغث والسمين، والحق والباطل. حتى بلغ الأمر بعلماء اللاهوت أن يقرروا أن جميع أسفار كتب العهد القديم لا علاقة لها بموسى، ولم يكتبها موسى، ولم يأمر بكتابة شيء منها. وإنها اختلقت اختلاقاً

وكتبت بأيدي الكهنة والأحبار بعد وفاة موسى بمئات السنين، واستمرت كتابتها وتعديلها لأكثر من ألف عام. حيث بدىء بكتابتها في عهد سليمان عليه السلام. وكانت آخر الصياغات والأسفار قد أضيفت بعد ظهور المسيح عليه السلام.

وقد بلغ الأمر ببعض الباحثين أنهم لم ينكروا التوراة والعهد القديم ونسبتهما إلى موسى عليه السلام فحسب بل أنكروا وجود موسى نفسه، كما أنكروا وجود إبراهيم وإسحاق ويعقوب. وقالوا: إن هذه الشخصيات خرافية لا وجود لها خارج نطاق مؤلفات العهد القديم. وهو شطط وأي شطط. ونرفضه رفضاً تاماً؛ لأن الله سبحانه وتعالى يحدثنا في القرآن الكريم عن وجودهم وأفعالهم وأعمالهم.

ولكن لما ران الركام والأساطير والأكاذيب والتحريفات على أسفار العهد القديم، وناقص بعضها بعضاً، وامتلأت بالترهات والسخافات وشتم الأنبياء وقذفهم واتهامهم بكل الصفات الخسيسة، من دناءة، وحقارة، وكذب، وغش وخداع، وشرب الخمور، والزنى، ونكاح المحارم من الأخوات، وحلائل الأبناء، وزوجات الآباء. لما ران على العهد القديم كل هذه السخافات والأكاذيب، وتصوير المولى عز وجل في صورة بشر أحمق، كثير الندم، سريع الغضب، لا تفكير ولا هم له إلا ابنه البكر إسرائيل...

لما ران على العهد القديم كل هذا البهتان والأساطير، أدى ذلك ببعض الباحثين إلى إنكار العهد القديم جملة وتفصيلاً، بل وإنكار جميع الشخصيات التي ذكرت فيه واعتبارها شخصيات أسطورية لا وجود لها.

وهو أمر مرفوض دينياً وعلمياً بالنسبة للمسلم. فهذه الشخصيات لا شك في وجودها. ولكنها شخصيات مطهرة من هذه الرذائل التي ألصقها بها بنو إسرائيل في أسفارهم الشوهاء المحرّفة.

والتوراة ذاتها رغم ما اكتنفها من ركام الأكاذيب والتحريفات والإضافات، لا تزال تنبض في بعض آياتها أنوار الحق وتتلألأ في جنباتها بوارق تدل على أنها من جناب الحق.

وذلك مثل ما ورد في سفر الخروج (الإصحاح ٢٤): «ولا تضطهد الغريب ولا تضايقه لأنكم كنتم غرباء في أرض مصر. لا تسيء إلى أرملة ولا يتيم. إن أسأت إليه فإني إن صرخَ أسمع صراخه فيحمى غضبي، وأقتلكم بالسيف فتصير نساؤكم أرامل وأولادكم يتامى، إن أقرضت فضة لشعبي الفقير ـ هنا تحديد وإضافة كلمة شعبي وإلا فالربا محرم على الإطلاق وليس فقط لبني إسرائيل ـ الذي عندك فلا تكن له كالمرابي لا تضعوا عليه ربا.

ويعدهم الله أنهم إن استجابوا لوصاياه أدخلهم أرضاً تفيض لبناً وعسلاً ويبيد من أمامهم الأموريين والحثيين والفرزيين والكنعانيين والحويين واليبوسيين ويورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم. «أرسل هيبتي أمامك وأزعج جميع الشعوب الذي تأتي عليهم وأعطيك جميع أعدائك مدبرين. وأرسل أمامك الزنابير فتطرد الحويين والكنعانيين والحثيين من أمامك. لا أطردهم من أمامك في سنة واحدة لئلا تصير الأرض خربة فتكثر عليك وحوش البرية ـ وهو يدل على أن عدد بني إسرائيل كان قليلاً، لا ستمائة ألف مقاتل كما تزعم التوراة ذاتها في سفر الخروج وسفر العدد ـ . . قليلاً قليلاً أطردهم من أمامك إلى أن تُثمر وتملك الأرض. وأجعل تخومك من بحر سوف إلى بحر فلسطين ومن البرية إلى النهر فإني أدفع إليكم سكان الأرض فتطردهم من أمامك. لا تقطع معهم ولا مع آلهتهم عهداً. لا يسكنوا في أرضك ـ أي أرض فلسطين ـ لئلا يجعلوك تخطىء إليّ» (سفر التكوين ٢٧ ـ ٣٢).

لا يرد في هذه الوعود تكفير الذنوب، ومغفرة الرب ودخول الجنة. كما ورد في سورة المائدة: ١٢:

﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ ﴾. (المائدة: ١٢).

ولا يرد في العهد القديم بأسفاره التسعة والثلاثين (١٣٥٨ صفحة) أي ذكر لليوم الآخر ولا البعث والنشور ولا الجنة والنار، مما يؤكد التحريف المستمر للتوراة، إذ إن القرآن الكريم يذكر أن اليهود قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: ﴿لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة﴾، وقالوا: ﴿لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى﴾.

وهذا مما يقطع بأن التوراة قد حرفت بعد عهد النبي محمد صلى الله عليه وسلم كما حرفت من قبل.

الأمر بدخول الأرض المقدسة ونكوص بني إسرائيل:

قال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

(المائدة: ٢٠ ــ ٢٦).

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

(البقرة: ٩٦).

مختصر تفسير آيات سورة المائدة (٢٠ ــ ٢٦):

قام موسى عليه السلام وذكّرهم بنعم الله عليهم قبل أن يخبرهم بوجوب قتال

العماليق الذين كانوا في الأرض المقدسة ــ قيل إنها أريحا كما سيأتي في التوراة ــ . ومن أجلّ تلك النعم عليهم: تتالي الأنبياء فيهم منذ إبراهيم عليه السلام إلى عيسى عليه السلام كلما مات نبي أو قتل بعث الله إليهم نبياً آخر. وجعل فيهم ملوكاً كما سيأتي حيث جعل طالوت ــ شاول ــ ملكاً، وجاء بعده داوود وسليمان، واستمرت المملكة بعد سليمان في يهوذا ــ دولة يهوذا ــ وإسرائيل ــ دولة إسرائيل ــ لعدة قرون قبل خرابهما على يد نبوخذ نصر كما سيأتي في حينه.

وحرضهم موسى عليه السلام لدخول الأرض المقدسة ــ لا يرد تحديد لها في القرآن الكريم ويذكر المفسرون أنها بيت المقدس. وقد جاء في التوراة أنها أريحا الأردن ــ وقتال من فيها، ولكن القوم جبنوا ونكلوا وارتعبوا من مواجهة العماليق.

وكرر موسى عليه السلام محاورتهم محاولاً تشجيعهم ﴿ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون﴾. ويأتي الرد القاسي الوقح الجبان ﴿قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها. فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون﴾.

والتجأ موسى آنذاك إلى الله تعالى يعلن براءته من القوم الفاسقين. فجاء النداء العلوي بحرمانهم من دخولها أربعين سنة يتيهون في الأرض حتى يأتِ جيل آخر لم يستمرىء الذل والهوان والخسة والجبن، فيقوم آنذاك بواجبات الجهاد.

ولا يظهر أحدٌ من جموع بني إسرائيل التي تدّعي التوراة أنهم كانوا أكثر من ستمائة ألف مقاتل إلا رجلين هما يوشع بن نون وكالب بن يُفنَّه. . فيقولان: ﴿ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون. وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾.

ويصرُّ الجبناء على موقفهم رغم تشجيع موسى وهارون لهما، ورغم الموقف الشجاع النبيل الذي وقفه الرجلان اللذان أنعم الله عليهما بمخافته وحده، وعدم الفرق والخوف والجزع من غيره ﴿لن ندخلها أبداً ما داموا فيها﴾ وزيادة في الوقاحة والصلف مع الجبن والخسة ﴿فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون﴾.

مقارنة مع موقف الصحابة يوم بدر:

ما أعظم المفارقة بين بني إسرائيل الجبناء الرعاديد الممتلئين وقاحة وصلفاً مع

أعـظم أنبيائهم مـوسى عليه السـلام، وبين موقف الصحـابـة يـوم بـدر حين استشارهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بقـوله: «أشيـروا عليّ أيها المسلمـون» في قتال العـدو أو مطاردة العير لقريش. وما كانوا قد خرجـوا لقتال، ولم يكن العهـد بينه وبين الأنصـار إلا أن يحموه مما يحمون منه أنفسهم وأهليهم. فقام سعد بن معاذ رضي الله عنه وقال:

«كأنك تعرّض بنا يـا رسول الله. فـوالذي بعثـك بالحق لـو استعرضت بنـا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكـره أن تلقى بنا عـدونا غـداً. إنا لصبُر في الحرب صُدق في اللقاء ولعـل الله يُريـك منا مـا تقر بـه عينك. فسـر بنا على بركة الله، فسُرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقام المقـداد وقال: «يـا رسول الله إنـا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا إنـا ههنا قـاعدون﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون». فبشرهم رسول الله بالنصر.

قتال العماليق في التوراة:

تـروي التوراة المحـرفة قصـة قتال العمـاليق بعدة صـور متنـاقضـة مختلفـة وهي كالتالي:

(١) قتال العماليق في رفيديم:

«وأتى عماليق وحارب إسرائيل في رفيديم. فقال موسى ليشوع ــ يـوشع بن نـون تلميـذه ــ: انتخب لنا رجـالاً واخرج حـارب عماليق. وغـداً أقف أنـا على رأس التلة وعصـا الله في يدي. ففعـل يشوع كمـا قال لـه موسى ليحـارب عماليق. وأمـا مـوسى وهـارون وحور فصعـدوا على رأس التلة. وكان إذا رفـع موسى يـده أن إسرائيـل تغلب وإذا خفض يـده أن عمـاليق يغلب. فلمـا صـارت يـدا مـوسى ثقيلتين؛ أخـذا حجـراً ووضعاه تحته فجلس عليه. ودعم هارون وحور يديه، الواحد من هنا والآخر من هناك. فكانت يداه ثابتتين إلى غروب الشمس. فهزم يشوع عماليق وقومه بحد السيف. (سفر الخروج ١٧ : ٨ ــ ١٣).

(٢) نكوص بني إسرائيل عن قتال العماليق في عهد موسى:

جاء في سفر العدد الإصحاح الثاني عشر أن موسى دعا اثني عشـر نقيباً من نقبـاء بني إسرائيل وطلب منهم أن يأتوه بخبـر العدو في أرض كنعـان. وكان بينهم يـوشع بن

نون وكالب بن يفنّه. فلما رجع النقباء؛ ملأوا قلوب بني إسرائيل فرقاً من العماليق، وقالوا لهم: «قد ذهبنا إلى الأرض التي أرسلتنا إليها، وحقاً إنها تفيض لبناً وعسلاً. وهذا ثمرها. غير أن الشعب الساكن في الأرض معتز، والمدينة حصينة جداً. وأيضاً قد رأينا بني عناق هناك. العمالقة ساكنون في أرض الجنوب، والحثّيون واليبوسيون والأموريون ساكنون في الجبل، والكنعانيون ساكنون عند البحر وعلى جانب ــ نهر ــ الأردن. فأشاعوا مذمة الأرض التي تجسسوها في بني إسرائيل قائلين: الأرض التي مررنا فيها لنتجسسها هي أرض تأكل سكانها. وجميع الشعب الذي رأينا فيها أناس طوال القامة. وقد رأينا هناك الجبابرة بني عناق من الجبابرة، فكنا في أعيننا كالجراد، وهكذا كنا في أعينهم» (سفر العدد ١٣ : ٢٧ ــ ٣٣).

«فرفعت كل الجماعة صوتها وصرخت وبكى الشعب تلك الليلة. وتذمَّر على موسى وعلى هارون جميع بني إسرائيل. وقال لهما كل الجماعة: ليتنا مُتنا في أرض مصر أو ليتنا متنا في هذا القفر. ولماذا أتى بنا الرب إلى هذه الأرض لنسقط بالسيف. تصير نساؤنا وأطفالنا غنيمة. أليس خيراً أن نرجع إلى مصر؟ فقال بعضهم لبعض: نقيم رئيساً ونرجع إلى مصر». (سفر العدد ١٤ : ١ ــ ٤).

وتكلم يشوع بن نون وكالب بن يفنّه وقالا لقومهما: «لا تتمردوا على الرب ولا تخافوا من شعب الأرض لأنهم خبزنا. قد زال عنهم ظلهم. والرب معنا. لا تخافوهم». (سفر العدد ١٤ : ٩ ــ ١٠).

فما كان من بني إسرائيل إلا أن قاموا لرجمهما بالحجارة ثم ظهر مجد الرب. «وقال الرب لموسى: حتى متى يهينني هذا الشعب؟ وحتى متى لا يصدقونني بجميع الآيات التي عملت في وسطهم؟ إني أضربهم بالوباء وأبيدهم وأصيّرك شعباً أكبر وأعظم منهم». (سفر العدد ١٤ : ١١ ــ ١٣).

فقام موسى وبكى وتضرع للرب أن يصفح عن ذنب هذا الشعب الصلب الرقبة الكثير الذنوب. «فقال الرب قد صفحت حسب قولك». وحلف أن لا يدخل أحد من هؤلاء القوم الأرض المقدسة التي كتب الله لهم سوى يوشع بن نون وكالب بن يفنّه. (سفر العدد ١٤ : ١٣ ــ ٢٥).

وقال الرب: «حتى متى أغفر لهذه الجماعة الشريرة المتذمرة عليّ. قد سمعت تذمر بني إسرائيل الذي يتذمرونه عليّ. . . في هذا القفر تسقط جثثكم، جميع المعدودين منكم حسب عددكم من ابن عشرين سنة فصاعداً ــ أي أكثر من ستمائة ألف كما ذكر في سفر العدد ــ لن تدخلوا الأرض التي رفعت يدي لأسكننكم فيها ما عدا كالب بن يَفُنّه ويشوع بن نون. وأما أطفالكم الذين قلتم: يكونون غنيمة فإني سأدخلهم فيعرفون الأرض التي احتقرتموها. . فجثثكم أنتم تسقط في هذا القفر وبنوكم يكونون رعاة في هذا القفر أربعين سنة. . . أنا الرب قد تكلمت لأفعلّن هذا بكل هذه الجماعة الشريرة المتفقة علي. في هذا القفر يفنون وفيه يموتون». (سفر العدد ١٤: ٢٦ ــ ٣٥).

ويتكرر ذكر ذلك في سفر العدد، ثم في سفر التثنية (الإصحاح ١: ٣٥ ــ ٤٠): «لن يرى إنسان من هؤلاء الناس من هذا الجيل الشرير الأرض الجيدة التي أقسمت أن أعطيها لآبائكم. ما عدا كالب بن يفُنه ويشوع بن نون».

غضب الرب على موسى وهارون كما يزعمون:

والغريب حقاً أن الرب يغضب أيضاً على موسى وهارون ويميتهما في البرية ويمنعهما من الدخول إلى الأرض المقدسة حسبما تقول التوراة المحرفة.

يقول موسى: «وغضبَ الربُّ عليّ بسببكم وأقسم أني لا أعبر الأردن. ولا أدخل الأرض الجيدة التي الرب إلٓهك يعطيك نصيباً فأموت أنا في هذه الأرض. لا أعبر الأردن وأما أنتم فتعبرون وتمتلكون تلك الأرض الجيدة». (سفر التثنية ٤: ٣٠ ــ ٣٣).

«اسمع يا إسرائيل. أنت اليوم عابر الأردن لكي تدخل وتمتلك شعوباً أكبر وأعظم منك، ومدناً عظيمة ومحصنة إلى السماء. قوماً عظاماً وطوالاً بني عناق الذين عرفتهم. وسمعت من يقف في وجه بني عناق!! فاعلم اليوم أن الرب إلٓهك هو العابر أمامك ناراً آكلة. هو يبيدهم ويذلهم أمامك فتطردهم وتهلكهم سريعاً كما كلمك الرب» (سفر العدد ٩: ١ ــ ٤).

ويقول موسى: «وعلى هارون غضب الرب جداً ليبيده. فصليت أيضاً من أجل هارون في ذلك الوقت» (سفر التثنية ٩: ٣٠).

«وكلم الرب موسى في نفس ذلك اليوم قائلاً: اصعد إلى جبل عباريم... قبالة أريحا ــ الأردن ــ وانظر إلى أرض كنعان التي أنا أعطيتها لبني إسرائيل ملكاً. ومت في الجبل الذي تصعد إليه. وانضم إلى قومك كما مات أخوك هارون في جبل هور.. لأنكما ختنتماني في وسط بني إسرائيل عند ماء مريبة قادش في برية صين إذ لم تقدساني في وسط بني إسرائيل. فإنك تنظر الأرض من قبالتها ولكنك لا تدخل إلى هناك إلى الأرض التي أنا أعطيها لبني إسرائيل» (سفر التثنية ٣٢: ٤٨ ــ ٥٢).

«وقال له ــ أي لموسى ــ الرب: هذه هي الأرض التي أقسمت لإبراهيم وإسحاق ويعقوب قائلاً: لنسلك أعطيها. قد أريتك إياها بعينيك. ولكنك إلى هناك لا تعبر. فمات هناك موسى عبدالرب في أرض موآب حسب قول الرب. ودفنه في الجواء في أرض موآب مقابل بيت فغور ولم يعرف إنسان قبره إلى اليوم». (سفر التثنية ٣٤: ٤ ــ ٦).

* * *

مرحلة التيه ـ الدياسبورا ـ الأولى

عندما رفض بنو إسرائيل قتال العماليق ودخول الأرض المقدسة وبلغوا في وقاحتهم وخستهم وجبنهم مبلغاً لا يمكن تصوره؛ عاقبهم الله تعالى بالتيه في الصحراء أربعين سنة.

وقد قص المولى سبحانه وتعالى موقفهم المخزي هذا في سورة المائدة. قال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ
وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَـٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ
ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ
فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ
﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا
دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَـٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن
نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ
إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ
عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾.
(المائدة: ٢٠ ـ ٢٦).

وقد سبق أن أوضحنا في الفصل السابق نكوص بني إسرائيل عن قتال العماليق وخوفهم وفرقهم منهم. وبكى بنو إسرائيل وصرخوا وتذمروا على موسى وهارون وقالوا

لهما: «لماذا أتى بنا الرب إلى هذه الأرض؟ لنسقط بالسيف وتصير نساؤنا وأطفالنا غنيمة؟!» (سفر العدد ١٤: ١ ــ ٤).

وقد حاول يوشع بن نون وكالب بن يفنه أن يثنياهم عن هذا الموقف الجبان قائلين: «لا تتمردوا على الرب ولا تخافوا من شعب الأرض لأنهم خبزنا. قد زال عنهم ظلُّهم والرب معنا. لا تخافوهم». (سفر العدد ١٤: ٩ ــ ١٠).

ولكن الشعب لم يسمع لهما بل قاموا برجمهما بالحجارة.. وغضب الرب وأراد أن يبيدهم ولكن موسى توسل إليه أن لا يبيدهم فقال الرب: «في هذا القفر تسقط جثثكم. جميع المعدودين منكم حسب عددكم من ابن عشرين سنة فصاعداً، وكان موسى وهارون قد عدّا الشعب بأمر الرب فوجدا المقاتلين منهم أكثر من ستمائة ألف. وهو عدد مبالغ فيه جداً وقد ذكرنا ذلك من قبل ــ «لن تدخلوا الأرض التي رفعت يدي لأسكننكم فيها ما عدا كالب بن يفُنّه ويشوع بن نون... **فجثثكم أنتم تسقط في هذا القفر وبنوكم يكونون رعاة في هذا القفر أربعين سنة**» (سفر العدد ١٤: ٢٦ ــ ٣٥).

وتوضح التوراة مرة أخرى هذا القرار وأسبابه فقد جاء في (سفر التثنية ١: ٣٥ ــ ٤٠) ما يلي:

«لن يرى إنسان من هذا الجيل الشرير الأرض الجيدة التي أقسمت أن أعطيها لآبائكم ما عدا كالب بن يفنه ويشوع بن نون».

والسبب في ذلك أن جيل بني إسرائيل الذي خرج من مصر، وتربى على الذل والمهانة، وشرب من حياض العبودية؛ لم يعد قادراً على المواجهة والقتال. ومع هذا فهو متواقح وشديد الصلف مع موسى وهارون، بل مع الله سبحانه وتعالى.

ولذلك كان لا بد من نشوء جيل جديد، لم يعرف مصر، ولم يعرف عهد الذل والمهانة، ولم يتشرب عبادة العجل. جيل جديد نشأ في أحضان الصحراء، لا يعرف الاستكانة والمهانة، يرفض الذل والعبودية، ولديه استعداد للنضال والقتال، جيل لا يفرق من أول مواجهة ولا يتقهقر من أول مصادمة ولا يفر من أول معركة.

وقام يشوع قبل المعركة الفاصلة بختان كل الموجودين من الذكور؛ لأن بني إسرائيل المختونين الذين خرجوا من مصر ماتوا في القفر، وأبناؤهم الذين ولدوا في القفر لم يختتنوا. (سفر يشوع، الإصحاح الخامس: ٣ ــ ٩).

تفسير ابن كثير يشرح مرحلة التيه:

قال ابن كثير في تفسيره (ج ٢/ ٣٩) في قوله تعالى ﴿فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض﴾: «لما دعا عليهم موسى عليه السلام حين نكلوا عن الجهاد؛ حكم الله بتحريم دخولها عليهم قدر مدة أربعين سنة. فوقعوا في التيه يسيرون دائماً لا يهتدون للخروج منه..».

وذكر عن ابن عباس أنه قال: «فتاهوا في الأرض أربعين سنة يصبحون كل يوم يسيرون ليس لهم قرار. ثم ظلل الله عليهم الغمام في التيه وأنزل عليهم المن والسلوى.. ثم كانت وفاة هارون عليه السلام، ثم بعده بثلاث سنين وفاة موسى الكليم عليه السلام. وأقام الله فيهم يوشع بن نون نبياً خليفة عن موسى بن عمران».

ومات في هذه المدة كل الجيل الذي خرج من مصر وكان ابن عشرين فصاعداً. ولم يبق منهم سوى يوشع بن نون وكالب بن يفنه.. ــ وهما الرجلان اللذان أنعم الله عليهما ــ.. فلما انقضت المدة خرج بهم يوشع بن نون فقصد بهم بيت المقدس فحاصرها، فلما تضيّفت الشمس للغروب وكان ذلك يوم الجمعة وخشي دخول السبت عليهم ــ لأنهم مأمورن بعدم العمل والقتال فيه ــ قال: إنك مأمورة وأنا مأمور. اللهم احبسها عليّ؛ فحبسها الله تعالى حتى فتح بيت المقدس. ولم تحبس الشمس على أحد سوى يوشع بن نون.

التوراة والتيه:

«وكان لما أطلق فرعون الشعب أن الله لم يهدهم في طريق أرض فلسطين مع أنها قريبة». (سفر الخروج ١٣: ١٧).

رغم أن التوراة تؤكد مرحلة التيه في أكثر من موضع ــ سفر العدد الإصحاح ١٤؛ وسفر التثنية الإصحاح الأول ــ كما سبق أن ذكرنا، إلا أن التوراة

الموجودة بين أيدينا تذكر حوادث كثيرة وانتصارات وهمية حدثت لبني إسرائيل ضد كثير من الأمم في أثناء مرحلة التيه. وهو أمر مناقض لما ذكر من التيه في الأرض، وعدم الغلبة لهم حتى يموت كل الجيل الذي نكص عن القتال ـ ما عدا كالب بن يُفنّه ويوشع بن نون ـ. والتوراة الموجودة بين أيدينا مليئة بالمتناقضات الصارخة التي لا يمكن التوفيق بينها مهما بذل المرء من تكلف؛ وذلك لأنها كتبت بأيدي أشخاص مختلفين في أزمنة وأعصار مختلفة، ثم جمعت بعد ذلك. فقد كتبت بعض أجزاء من التوراة المحرفة في عهد سليمان عليه السلام ـ بعد وفاة موسى بـ ٤٨٠ عاماً كما تذكر التوراة المحرفة نفسها ـ ثم كتبت إضافات أخرى، وهي ما يسمى بكتابات الأنبياء، بعد العودة من السبي في بابل أثناء العهد الفارسي، وذلك في القرن السادس والخامس قبل الميلاد ـ أي بعد وفاة موسى عليه السلام بأكثر من ستة قرون ـ. وتمت كتابة الأسفار الأخرى المشكوك فيها عندهم وهي أخبار الأيام وعزرا ونحميا وأستير ودانيال والجامعة والأمثال والمزامير في فترة متأخرة جداً، حيث ترجعها دائرة المعارف البريطانية ـ ج ٢/ ٨٧٩ الطبعة الخامسة عشر ١٩٨٢ ـ إلى العهد اليوناني الإسكندري عندما ظهر فيلون الإسكندري اليهودي في القرن الثاني قبل الميلاد. أي بعد وفاة موسى بأكثر من ألف سنة.

ولم تجمع هذه الكتب في كتاب واحد ويتفق عليها إلا عام ٣٥٠ بعد الميلاد وهو النص اليوناني المعتمد (Vulgate)(١).

الأمور التي حدثت في التيه:

يحدثنا القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى قد أعطى بني إسرائيل في التيه كثيراً من المعجزات التي حدثت على يد موسى عليه السلام. ورغم أنهم كفروا بالنعم الكثيرة وتواقحوا جداً على المولى سبحانه وتعالى حيث قالوا لموسى: ﴿اذهب وأنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون﴾ إلا أن المولى سبحانه وتعالى رأف بهم في التيه من أجل موسى وهارون والرجلين اللذين أنعم الله عليهما بخوفه وعدم خوف غيره، وهما كالب بن يفنه ويشوع بن نون، ومن أجل الذراري والنساء والأطفال والبهائم.

---

(١) انظر الفصل الأول: (تعريف عام بالتوراة والعهد القديم).

وفي تلك الصحراء الحارقة التي لا ماء فيها ولا كلأ ولا طعام جعل الله لهم الغمام تظلهم من حر الشمس، وأنبع الماء من الصخر، وأرسل لهم المن من السماء يهبط على الأرض آخر الليل؛ فيلتقطونه في الصباح، ثم تأتي أسراب طيور السماني في المساء؛ فيتناولونها بأيديهم.

قال تعالى:

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾. (البقرة: ٥٧).

وقال تعالى:

﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾. (البقرة: ٦٠).

وقد ذكرت التوراة الموجودة بين أيدينا المن والسلوى (سفر الخروج ١٦: ١ ــ ٣٦). كما سبق أن ذكرنا في فصل جرائم بني إسرائيل بعد العجل. وكذلك ذكرت التوراة نبع الماء من الحجر. (سفر الخروج ١٧: ١ ــ ٨).

وقد أمرهم الله تعالى بأن لا يكتنزوا ولا يخبئوا طعاماً إلى الغد ما عدا يوم الجمعة حيث يعطيهم الله طعاماً للسبت أيضاً. فاكتنز بنو إسرائيل وخبث الطعام وأنتن وتولد فيه الدود (سفر الخروج ١٦: ١ ــ ٣٦). والمصطفى صلوات الله وسلامه عليه أخبرنا بذلك(١) قال: «لولا بنو إسرائيل لم يخبث الطعام ولم يخنز اللحم». أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما وأحمد في مسنده.

ولم يكتف بنو إسرائيل بذلك بل ضجوا من المن والسلوى، وطلبوا الذي هو أدنى. قال تعالى:

---

(١) انظر: (أمثلة من جرائم بني إسرائيل بعد العجل)، ص ٢٣٨.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ﴿٦١﴾﴾. (البقرة: ٦١).

نزول التكاليف والتوراة والميثاق:

سبق أن ذكرنا نزول التوراة والتكاليف ونكوص بني إسرائيل عن قبولها؛ فرفع الله فوقهم الجبل كأنه ظلة؛ فخروا ساجدين على شق ونظروا بالشق الآخر، وقبلوا ما فيها من مواثيق. ولكنهم سرعان ما نقضوها وخانوها.

قال تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾. (البقرة: ٦٣ ــ ٦٤).

وقال تعالى:

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾. (الأعراف: ١٧١).

ورغم هذه المواثيق والعهود، نكص بنو إسرائيل على أعقابهم ولم يلتزموا بما أنزل الله، بل عبدوا العجول والأوثان، وأكلوا الربا، وغشوا وخدعوا وسرقوا ونكصوا عن الجهاد... إلخ ولم يكتفوا بذلك كله، بل كذبوا الأنبياء وافتروا عليهم الكذب واتهموهم بكل نقيصة ورذيلة، وقتلوا من قتلوا من الأنبياء، وزعموا أنهم قتلوا المسيح بن مريم واتهموا أمه بالزنى، وحرفوا التوراة، وحاربوا محمداً صلى الله عليه وسلم. واستمروا في مواقفهم المخزية منذ ذلك اليوم إلى يومنا هذا. ﴿ولا تزال تطلع على خائنة منهم﴾.

الأحداث التي وقعت في التيه ولم يذكرها القرآن:

(١) صنع خيمة الاجتماع وكان المترجمون القدامى للتوراة يسمونها قبة الزمان[١].

(٢) صنع التابوت ليسكن فيه الله معهم ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ والتابوت يرتحل معهم[٢].

(٣) تفاصيل المحاريق والقرابين والتقدمات.. وتفاصيل لباس الكاهن.. إلخ[٣].

(٤) تفاصيل الأحكام. وقد ذكر القرآن شيئاً يسيراً جداً منها.. وأغلبها سخيف تافه ومحرف. (سفر اللاويين).

(٥) إحراق الله لابني هارون لأنهما قدما قرباناً فيه نار غريبة.

(٦) غضب الله على موسى وهارون. ـ لعنة الله على اليهود ـ.

(٧) إحصاء بني إسرائيل في التيه والأعداد الخرافية والمرفوضة من كل من له عقل[٢].

(٨) شتم هارون وأخته مريم لموسى، «وتكلمت مريم وهارون على موسى بسبب المرأة الكوشية التي اتخذها. لأنه كان قد اتخذ امرأة كوشية... فحمي غضب الرب عليهما ومضى ـ أي الرب لأنه كان يكلمهم من وسط السحابة في داخل خيمة الاجتماع ـ فلما ارتفعت السحابة عن الخيمة، إذا مريم برصاء كالثلج، فالتفت هارون إلى مريم فإذا هي برصاء» (سفر العدد ١٢ : ١ ـ ١٠).

(٩) هارون يعرّي موسى ليهزأ به شعب إسرائيل «ولما رأى موسى الشعبُ أنه مُعرّى لأن هارون كان قد عراه للهزىء به بين مقاوميه. (سفر الخروج ٣٢: ٢٥).

(١٠) موسى يرجم رجلاً يحتطب يوم السبت. (سفر العدد ١٥ : ٣٢ ـ ٣٦).

(١١) قورح بن يصهار وجماعته يثورون على موسى، والله يعاقبهم بأن يخسف بهم الأرض. (العدد ١٦).

---

(١) انظر سفر الخروج (الإصحاح: ٢٦، ٢٧، ٤٠).
(٢) انظر سفر الخروج (الإصحاح: ٢٥، ٢٧).
(٣) سفر الخروج (الإصحاح: ٢٨ ـ ٣٠، ٣٨ ـ ٤٠)، وسفر اللاويين (الإصحاح: ١ ـ ٩، ٢٣ ـ ٢٥).

(١٢) ظهور الوباء من بني إسرائيل بسبب ممالأتهم لقورح وصحبه.

(١٣) موت مريم أخت موسى وهارون في برية صين. وموت هارون في جبل هور مغضوباً عليه من الرب؛ لأنه عصى أمر الله مع موسى. (العدد ٢٠ : ٣٢ ــ ٣٤)، ومات هارون في السنة الأربعين من الخروج من مصر.

(١٤) عزل هارون من منصب الكاهن الأعظم قبل موته، وتولية ابنه العازار. (العدد ٢٠ : ٣٥ ــ ٣٨).

(١٥) قام ملك كنعان عراد بمحاربة إسرائيل في طريق أتاريم فهزمهم وسبى منهم سبياً. فنذر إسرائيل نذراً للرب أن يحرّم مدنهم إذا وقعت في يده. فسمع الرب لقول إسرائيل ودفع الكنعانيين فحرّموهم ــ والتحريم هو الإبادة الكاملة التامة لكل نفس من طفل وشيخ ورجل وامرأة وإنسان وحيوان ــ ومدنهم فدعي اسم المكان حرمة. (سفر العدد ٢١ : ١ ــ ٣).

(١٦) ارتحل شعب بني إسرائيل من جبل هور في طريق بحرسوف ليدوروا بأرض أدوم. . فضاق بنو إسرائيل ذرعاً. . «وتكلم الشعب على الله وعلى موسى قائلين: لماذا أصعدتمانا من مصر لنموت في البرية؟! فقد كرهت أنفسنا الطعام السخيف ــ أي المنّ والسلوى ــ . فأرسل الرب على الشعب الحيات المحرقات فلدغت الشعب فمات قوم كثيرون من إسرائيل. (العدد ٢١ : ٤ ــ ٧).

(١٧) أراد بنو إسرائيل المرور بأرض الأموريين فلم يسمح لهم ملك الأموريين ــ سيحون ــ بذلك؛ فحاربه بنو إسرائيل وضربوه بحد السيف وملكوا أرضه من أرنون إلى يبوق إلى بني عمّون. فأخذ إسرائيل كل هذه المدن وأقام إسرائيل في جميع مدن الأموريين، في حشبون وفي كل قراها. (العدد ٢١ : ٢١ ــ ٢٦).

واستولى موسى بعد ذلك على باشان، فقتل ملكها وشعبها ولم يبق منهم شارد، وملكوا أرضه. (العدد ٢١ : ٣٣ ــ ٣٥).

ولا شك أن هذه الحروب من أساطير قصاص بني إسرائيل إذ كيف يعاقبهم الله في التيه ويبقون فيها أربعين سنة، وفي نفس الوقت يقومون بفتح المدن وإهلاك الشعوب حولهم!!؟

(١٨) بلعام بن باعور:

تقول التوراة (سفر العدد ٢٢):

ارتحل بنو إسرائيل حسب زعم التوراة بعد ذلك ونزلوا في عربات موآب القريبة من مدينة أريحا في الأردن.

وارتعب بالاق بن صفور ملك موآب من بني إسرائيل الذين أبادوا الأموريين إبادة كاملة. وأرسل بالاق بن صفور إلى بلعام بن بعور القاطن في مدينة فتور وطلب منه أن يأتي ويلعن شعب إسرائيل؛ لأن دعوة بلعام كانت مجابة. ومن باركه بلعام يكون مباركاً، ومن لعنه يكون ملعوناً. ورفض بلعام عرض الملك بالاق؛ لأن الله ظهر له وقال له: لا تذهب ولا تلعن الشعب؛ لأن شعب إسرائيل مبارك. وكرر الملك الدعوة لبلعام وعرض عليه الذهب والفضة. وظهر الرب لبلعام، وأمره بالذهاب معهم. وظهر له ملاك الرب وقال له: لا تتكلم إلا بالذي أقوله لك فانطلق بلعام مع رجال بالاق.

وطلب بلعام من الملك أن يبني له سبعة مذابح. وقال بلعام: كيف ألعن من لم يلعنه الله وكيف أشتم من لم يشتمه الرب؟!!. لتمت نفسي موت الأبرار ولتكن آخرتي كآخرتهم. وغضب الملك لأن بلعام أبى أن يلعن بني إسرائيل. فقال بلعام: إن الرب وضع في فمي هذا الكلام وأنا أتكلم بما يضعه الرب في فمي.

وتكرر الموقف في اليوم التالي، ومدح إسرائيل. وكذلك فعل في اليوم الثالث قائلاً: ما أحسن خيامك يا يعقوب! مساكنك يا إسرائيل كجنات على نهر، كشجرات عود غرسها الرب... الله أخرجه من مصر يأكل أمم مضايقيه ويقضم عظامهم ويحطم سهامهم. جثم كأسد، ربض كلبوةٍ. مبارك إسرائيل ولاعنوه ملعونون.

وغضب الملك آباق وقال دعوتك لتشتم أعدائي وها أنت ذا قد باركتهم الآن ثلاث مرات.

وتنبأ بلعام قائلاً: يبرز كوكب من يعقوب ويقوم قضيب من إسرائيل فيحطم طرفي موآب ويهلك كل بني الوغى. ويكون أدوم ميراثاً. ويكون سعير أعدائه ميراثاً. ويصنع إسرائيل ببأس. ويتسلط ابن يعقوب ويهلك الشارد من المدينة.

وتنبأ بهلاك العماليق على يد شعب إسرائيل، ثم رجع بلعام إلى مكانه.

مصير بلعام الذي تزعم التوراة أنه دعا لإسرائيل وباركها:

لقد لقي بلعام بن باعور الذي تزعم التوراة أنه دعا لإسرائيل وباركها ولعن لاعنيها وبشرها بالنصر والفوز، جزاء سنمّار. فما كادت إسرائيل تنتصر على أهل مديان ــ مدين ــ وأبادوا جميع من فيها من السكان، حتى بحثوا عن بلعام فقتلوه بحد السيف (سفر العدد ٣١: ٩).

قصة بلعام بن باعور في القرآن تخالف ما ذكرته التوراة مخالفة تامة:

قال تعالى:

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾. (الأعراف: ١٧٥ ــ ١٧٧).

ذكر أهل التفسير (ابن كثير وابن جرير وغيرهما) أن هذه الآية نزلت في رجل من بني إسرائيل يقال له بلعام بن باعوراء، وكان يعلم الاسم الأكبر، وكان مقيماً في بيت المقدس مع الجبارين. ــ وفي ذلك نظر لأن أحداً من بني إسرائيل لم يدخل إلى بيت المقدس إلا بعد أن استولى عليها يوشع بن نون بعد وفاة موسى ــ. وقال مالك بن دينار: كان من علماء بني إسرائيل وكان مجاب الدعوة. يقدمونه في الشدائد. بعثه نبي الله موسى عليه السلام إلى ملك مدين يدعوه إلى الله، فأغراه ملك مدين بالأموال والذهب والفضة والقطائع؛ فترك موسى واتبع دين ملك مدين. وهناك رواية عن ابن

عباس أنه من اليمن وأخرى أنه من قوم الجبارين ــ العماليق ــ وكان يعلم اسم الله الأعظم، فدعاه قومه أن يدعو لهم على موسى وبني إسرائيل، فرفض أول الأمر، وما زالوا به حتى قام ودعا على موسى وقومه؛ فسلخه الله.

وورد عن السدي أن بلعام هذا كان في زمن يوشع بن نون لما خرج وأراد قتال الجبارين ــ العماليق ــ وكان بلعام من بني إسرائيل مجاب الدعوة، فأغراه العماليق بالمال فذهب إليهم ودعا على بني إسرائيل فانسلخ من الدين، وكان من الغاوين.

وقد ورد في روايات أخرى أنه كان في زمن موسى وأن أعداء بني إسرائيل رشوه لكي يدعو على موسى، فلما أقبل يدعو اندلع لسانه ودعا لموسى وبني إسرائيل، ودعا على العماليق ــ وفي رواية ملك مدين ــ فقال له القوم: إنك تدعو علينا لا لنا. فقال: هذا أمر جرى على لساني بغير اختيار مني، ولكني أدلكم على أمر عسى أن يكون فيه هلاك بني إسرائيل، إن الله يبغض الزنى وإنهم إن وقعوا في الزنى هلكوا. فأخرجوا النساء وزنى بهن بنو إسرائيل. وكانت ابنة الملك جميلة وعظيمة الجسم. وقال لها بلعام: لا تمكني نفسك إلا من موسى.. فأتاها رأس سبط من أسباط بني إسرائيل وحاولها فامتنعت عليه، ثم مكنته في خيمة قريبة من موسى، فعلم بذلك رجل من بني هارون ــ فنحاس بن إلعازار بن هارون ــ فغضب لله وطعنهما بالرمح، ورفعهما على الرمح لكي يراهما الناس فخافوا. وسلط الله الطاعون على بني إسرائيل فأهلك سبعين ألفاً منهم.

وأورد المفسرون رواية وردت في التوراة بصورة مختلفة قليلاً.. وهي أن الأتان التي كان يركبها بلعام توقفت في الطريق، وجعل يضربها وهي لا تتقدم، فقالت له: علام تضربني؟ أما ترى هذا الذي بين يديك؟ فظهر له الشيطان فسجد له. والرواية في التوراة أن الذي ظهر له هو ملاك الرب فسجد له.

ووردت روايات بتحديد اسم الرئيس من بني إسرائيل الذي زنى بابنة الملك، وأنه يدعى زمرى بن شلوم رأس سبط شمعون بن يعقوب. وأن موسى حذره من ذلك، فأبى، فأتى فنحاس بن إلعازر بن هارون فانتظمها برمحه ثم خرج بهما إلى الملأ

وقال: اللهم هكذا نفعل بمن يعصيك؛ فرفع الله عنهم الوباء، وهو الطاعون الذي مات فيه من بني إسرائيل سبعون ألفاً وفي رواية عشرين ألفاً.

وقد اتفق أغلب المفسرين أن لسان بلعام اندلع عندما قام يدعو على موسى فهو كالكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث.

وقد ورد أن هذه الآية نزلت أيضاً في أمية بن أبي الصلت الذي آمن لسانه وشعره، وكفر قلبه. وكان أمية قد علم كثيراً من الشرائع السابقة ونادى بالتوحيد في شعره. وكان يطمح إلى النبوة، فلما ظهر رسول الله شرقت نفسه، ووالى المشركين من قريش. وقد جاء في الحديث أنه ممن آمن لسانه ولم يؤمن قلبه.

(١٩) زنى بني إسرائيل مع بنات موآب:

وردت في التوراة قصة زنى بني إسرائيل مع بنات موآب (**سفر العدد، الإصحاح ٢٥**)، ولكن لم يكن ذلك بإيحاء وإيعاز من بلعام بن باعوراء كما ذكر بعض المفسرين. .

ولم يكتف شعب إسرائيل بالزنى مع الموآبيات، بل ذبحوا لآلهتهن وسجدوا لها. فحمى غضب الربّ على إسرائيل. فقال الرب لموسى: خذ جميع رؤوس الشعب وعلّقهم للرب. فأمر موسى بقتل رؤساء الشعب.

وبلغت الوقاحة بأحد هؤلاء الرؤساء أن أتى بالمرأة ليزني بها أمام موسى وأعين كل جماعة بني إسرائيل. فلما رأى ذلك فينحاس بن إلعازر بن هارون الكاهن؛ قام من وسط الجماعة وأخذ رمحاً بيده ودخل وراء الرجل الإسرائيلي إلى القبة، وطعن كليهما، الرجل الإسرائيلي والمرأة في بطنها. فامتنع الوباء ــ الطاعون ــ عن بني إسرائيل. وكان الذين ماتوا بالوباء أربعة وعشرين ألفاً.

«فكلم الرب موسى قائلاً: فينحاس بن إلعازار بن هارون الكاهن قد رد سخطي عن بني إسرائيل، بكونه غار غيرتي في وسطهم، حتى لم أفنِ بني إسرائيل بغيرتي. لذلك ها أنذا أعطيه ميثاقي ميثاق السلام. فيكون له ولنسله من بعده ميثاق كهنوت أبدي لأجل أنه غار لله وكفَّر عن بني إسرائيل. وكان اسم الرجل الإسرائيلي المقتول

زمري بن سالور رئيس بيت أب من الشمعونيين. واسم المـرأة المديـانية المقتـولة كـزبي بنت صور الذي هو رئيس قبائل بيت أب في مديان. (سفر العدد ٢٥ : ١ ــ ١٥).

(٢٠) الحرب مع مديان وموسى يأمر بقتل النساء والأطفال حسب زعمهم:

يتحدث سفر العدد (الإصحاح ٣١) عن حرب شنها موسى عليه السـلام في سني التيه على مديان. «فتجندوا على مديان كما أمر الـرب. وقتلوا كل ذكـر. وملوك مديـان قتلوهم فوق قتلاهم أوي وراقم وصـور وحور ورابـع. خمسة ملوك مـديان. وبلعـام بن باعور قتلوه بالسيف. ــ رغم أنه حسب رواية التوراة المحـرفة بـارك بني إسرائيـل ودعا لهم ــ. وسبى بنـو إسرائيـل نساء مـديان وأطفـالهم ونهبـوا جميـع بهـائمهم، وجميـع مـواشيهم وكل أمـلاكهم. وأحرقـوا جميع مـدنهم بمساكنهم وجميـع حصونهم بـالنار. وأخذوا كل الغنيمة وكل النهب من النـاس والبهائم. وأتـوا إلى موسى وإلعـازار الكاهن وإلى جماعة بني إسرائيل بالسبي والنهب والغنيمة إلى المحلة، إلى عربات موآب التي على أردن أريحا.

«فخرج موسى وإلـعـازر الكاهن وكـل رؤساء الجمـاعة لاستقبـالهم إلى خارج المحلة. فسخط موسى على وكلاء الجيش رؤساء الألوف ورؤساء المئات القـادمين من جند الحرب. وقـال لهم موسى: هـل أبقيتم كل أنثى حيـة؟. فالآن اقتلوا كـل ذكر من الأطفال وكل امرأة عرفت رجلاً بمضاجعة ذكر اقتلوهـا. لكن جميع الأطفـال من النساء اللواتي لم يعرفن مضاجعـة ذكر أبقـوهن لكم حيات. وأمـا أنتم فانـزلوا خـارج المحلة سبعة أيام» حتى يتطهروا.

وأحـصى مـوسـى النـهب فـكـان من الـغـنـم ٦٧٥,٠٠٠ رأس ومـن الـبـقــر ٧٢,٠٠٠ رأس ومن الحمير ٦١,٠٠٠ ومن الأطفال الإناث ــ بعد إبادة جميع الأطفـال الذكور والنساء ــ ٣٢,٠٠٠، وجمع موسى الذهب والفضة والمواشي، وأخـرج نصيب المقـاتلين وهـو النصف، ثم أخـرج نصيب الـزكـاة وهي تـدفـع للكـاهن ولبيت لاوي ــ مـوسى وهـارون من بيت لاوي ــ. وكـان كـل ذهب الـرفيعـة التي رفعـوهـا للرب ١٦٧٥٠ شاقلاً من الذهب، ومن الغنم ٦٧٥. ومن البقر ٧٢ والحميـر ٦١ ومن الأناث الأطفال ٣٢ نفساً، وجميعها أخذها إلعازر الكاهن. (سفر العدد ٣١ بأكمله).

(٢١) **الوعد بدخول أرض كنعان بعد وفاة موسى:**

«كلّم الرب موسى في عربات موآب على أردن أريحا قائلاً: كلم بني إسرائيل وقل لهم: إنكم عابرون الأردن إلى أرض كنعان؛ فتطردون كل سكان الأرض من أمامكم، وتمحون جميع تصاويرهم، وتبيدون كل أصنامهم. تملكون الأرض وتسكنون فيها لأني قد أعطيتكم الأرض ـ أي أرض فلسطين ـ لكي تملكوها. وتقتسمون الأرض بالقرعة حسب عشائركم. وإن لم تطردوا سكان الأرض من أمامكم؛ يكون الذين تستبقون منهم أشواكاً في أعينكم، ومناخس في جوانبكم، ويضايقونكم على الأرض التي أنتم ساكنون فيها».

لهذا تقوم سياسة إسرائيل الحالية على قتل وطرد جميع الفلسطينيين من أرض فلسطين وما يسمى الضفة الغربية وقطاع غزة وجنوب لبنان. لأن الله أعطى هذه الأرض في عهد أبدي دائم لإبراهيم وإسحاق ويعقوب وبني إسرائيل إلى أبد الآبدين... وكرر الرب توصياته لبني إسرائيل، وحدد لهم تخوم أرضهم، بحيث إنها تشمل جميع أرض فلسطين والضفة الغربية وقطاع غزة والأردن وجنوب لبنان. وفي بعض النصوص لبنان وسوريا إلى حماة حتى نهر الفرات، من النيل إلى الفرات أرضك يا إسرائيل. وأكد لهم الرب أنه ساكن في وسط إسرائيل. وبالذات في التابوت الذي صنعوه له من الخشب الفاخر المطعم بالذهب والفضة والعاج.

النهاية المحزنة لموسى حسب ما تزعم التوراة:

وتنتهي صورة هذا الوعد بنهاية أليمة بالنسبة لموسى حسب زعم التوراة المحرفة، حيث يموت مغضوباً عليه من الرب ودون أن يدخل إلى الأرض المقدسة التي وعدهم الرب منذ زمن إبراهيم... جاء في سفر التثنية موت موسى مغضوباً عليه كما مات هارون من قبل:

«وكلم الرب موسى في نفس ذلك اليوم قائلاً: اصعد إلى جبل عباريم.. قبالة أريحا ـ الأردن ـ، وانظر إلى أرض كنعان التي أنا أعطيتها لبني إسرائيل ملكاً. ومت في الجبل الذي تصعد إليه، وانضم إلى قومك، كما مات أخوك هارون في جبل هور؛ لأنكما خنتماني في وسط بني إسرائيل عند ماء مريبة قادش في برية صين؛

إذ لم تقدساني في وسط بني إسرائيل. فإنك تنظر الأرض من قبالتها ولكنك لا تدخل إلى هناك، إلى الأرض التي أنا أعطيها لبني إسرائيل. (سفر التثنية ٣٢: ٤٨ ــ ٥٥).

وتأتي النهاية المحزنة وينزل الستار على هذا المشهد الأخير:

«وقال له الرب: هذه هي الأرض التي أقسمت لإبراهيم وإسحاق ويعقوب قائلاً لنسلك أعطيها. قد أريتك إياها بعينيك، ولكنك إلى هناك لا تعبر ــ لكي تموت كمداً وحسرة ــ فمات هناك موسى عبد الرب في أرض موآب حسب قول الرب، ودفنه في الجواء في أرض موآب مقابل بيت فغّور. ولم يعرف إنسان قبره إلى اليوم». (سفر التثنية ٣٤: ٤ ــ ٦).

وهكذا يسدل الستار على موسى ليموت في البرية مجهول القبر مغضوباً عليه من الرب.. يموت والحسرة والكمد يملآن قلبه، إذ يرى أرض كنعان، أرض الميعاد، يراها بعينيه ولا يستطيع أن يعبر إليها؛ لأن الرب غضب عليه وعلى هارون عند ماء مريبة!! هكذا تزعم التوراة المحرفة.. وهكذا تلوث صورة نبي من أولي العزم من الرسل.. موسى زعيمهم ونبيهم الذي أنقذهم من فرعون، لقي الأذى منهم في حياته، ولقى الأذى منهم بعد مماته بما سودته صحائف أقلامهم في توراتهم المحرفة التي نسبوها إليه.

ولكن موسى في كنف الله وفي نعمة الله منذ أن خلقه. وهو الآن في الرفيق الأعلى لا يضره كيد يهود ولا مكر يهود ولا شتائم يهود ولا ما تقوله توراتهم المحرفة. فسلام الله عليك يا نبي الله يا كليم الله.. وسلام الله عليك يا رسول الله محمد، يا من أعلنت على الملأ براءة موسى مما ألصقه به بنو إسرائيل من التهم.. فصلى الله عليكما وعلى جميع الأنبياء والمرسلين صلاة دائمة إلى أبد الآبدين.

* * *

بعض أحكام التوراة الحقة والمحرَّفة

الوصايا والألواح :

(سفر الخروج، الإصحاح ٣٤ ـ ٤٠) و(سفر اللاويين: ٢١٨):

أمر الرب موسى أن يصنع لوحين من حجر بدلاً عن اللوحين اللذين كسرهما في غضبه. وصعد موسى الجبل، فنزل الرب في السحاب ونادى: الرب إلّه رحيم ورؤوف بطيء الغضب ـ عكس ما تصوره التوراة حيث نراه سريع الغضب كثير الندم ـ وكثير الإحسان والوفاء، حافظ الإحسان إلى ألوف، غافر الإثم والخطيئة، لكنه لن يُبرىء إبراءً ـ لا يزال الذنب موجوداً ـ مفتقداً إثم الآباء في الأبناء وفي أبناء الأبناء في الجيل الثالث والرابع.

أمر من الرب بإبادة الأمم :

«احفظ ما أنا موصيك اليوم. ها أنا طارد من قدامك **الأموريين** والكنعانيين والحثيين والفرزيين والحويين واليبوسيّين. **احترز من أن تقطع عهداً مع سكان الأرض التي أنت آت إليها؛ لئلا يصيروا فخاً في وسطك** ـ ومن هذا النص يأخذ اليهود في اسرائيل اليوم خطتهم في عدم إجراء أي معاهدة سلام تسمح بموجبها بقيام كيان لسكان فلسطين ـ . . . **احترز من أن تقطع عهداً مع سكان الأرض**. ـ أي أرض فلسطين ـ .

«لا تصنع لنفسك آلهة مسبوكة. تحفظ عيد الفطير. . ثم يذكر تفاصيل عيد الفطير ـ وقد أفردنا لها فصلاً خاصاً وكيف تطور عيد الفطير عند اليهود، بحيث يجعلون فيه دم نصراني أو مسلم ـ «ستة أيام عمل وأما اليوم السابع ففيه يكون لكم

سبت عطلة مقدس للرب. **كل من يعمل فيه عملاً يقتل** ــ عقوبة شديدة على جريمة تافهة. . . بينما هارون الذي صنع العجل بزعمهم لم يقتل بل كان مكرماً ــ وأمرهم موسى بأن يتبرعوا لهارون وبيت اللاوي بالأموال والبخور والعطور والذهب والماشية، وأن يقيموا خيمة الرب، خيمة الاجتماع. . . إلخ، **وأن يصنعوا التابوت مسكناً مقدساً يسكن الله فيه في وسطهم**!!! «**وصنع مذبح المحرقة**». . والمحرقة لها أهمية قصوى في التوراة إذ إن الشواء عمل مقدس، والرب لا يرضى إلا حين يشمَّ رائحة المشوي. . وبقية اللحم يأخذه آل هارون. (الإصحاح ٣٨).

وتذكر التوراة تفاصيل الرداء الذي يلبسه الكاهن من آل هارون في الإصحاح ٣٩ من سفر الخروج. وتجعل التوراة الإصحاح الأربعين من سفر الخروج لتفاصيل التابوت والسرج والبخور في خيمة الاجتماع.

ويخصص سفر اللاويين لتفاصيل المحرقة والقرابين، وكيفية وضع الشحم فوق الحطب. . إلخ. وأنواع القرابين: قرابين الإثم، وقرابين السلامة، وقرابين الخطأ السهو. . إلخ. وتفاصيلها من البقر والغنم وأنواع الخبز. . . بالإضافة إلى قربان الدم والكفارة عن كل بكر من الأبناء. ويستغرق ذلك من الإصحاح الأول إلى الإصحاح التاسع من سفر اللاويين.

الرب يحرق ابني هارون لأنهما قدما ناراً غريبة على المذبح:

ويذكر الإصحاح العاشر من سفر اللاويين أن ابنا هارون وهما ناداب وأبيهو قربا أمام الرب ناراً غريبة لم يأمرهما بهما. فخرجت نار من عند الرب وأكلتهما؛ فماتا أمام الرب. وهو عقوبة فظيعة من أجل عمل تافه. . بينما يعفو عن جرائم فظيعة مثل عبادة هارون للعجل وصنعه لبني إسرائيل، ومثل الغش والكذب والخداع الذي قام به يعقوب، ومثل زنى رأوبين بسرية أبيه بلهة، ومثل زنى يهوذا بزوجة ابنه وهي ثمارا. . . إلخ.

«وقال موسى لهارون وإلعازار وإيثامار ابنيه الباقيين ــ أي ابني هارون ــ خذوا التقدمة الباقية من وقائد الرب، وكلوها فطيراً بجانب المذبح؛ لأنها قدس أقداس. . كلوها في مكان مقدس. . إلخ ومن يأكل منها من بني إسرائيل يموت موتاً؛ لأنها خاصة بهارون وبنيه.

ويخصص الإصحاح ١١ من سفر اللاويين لأنواع الحيوانات المحرمة عليهم. ويخصص الإصحاح ١٢ للنفاس وأن المرأة تكون نجسة. . . إلخ. والإصحاح ١٣ للأورام الجلدية والبرص، واعتبار المصاب بها نجساً. ويستمر الحديث عن الأبرص ونجاسته إلى الإصحاح ١٤ من سفر اللاويين. ويخصص الإصحاح ١٥ لمن يكون مصاباً بالسيلان ونجاسته. . ووجوب الغسل بعد الجماع أو الإنزال. واعتبار الحائض نجسة، وكل من مسها يكون نجساً، بل كل من مس فراشها يكون نجساً.

ويعود الإصحاح ١٦ إلى ذكر الذبائح والقرابين للتكفير عن خطايا بني إسرائيل. ويذكر الإصحاح ١٧ من يجوز له أن يقرب إلى خيمة الاجتماع ومن لا يجوز.

والإصحاح ١٨ للمحرمات وعدم كشف العورة، ومنع الزنى، ومنع اللواط «ولا تضاجع ذكراً مضاجعة امرأة. إنه رجس». «ولا تجعل مع بهيمة مضجعك».

وهي أمور صحيحة ولكن تنقضها أحكام التلمود التي تبيح الزنى واللواط واتخاذ البهائم كما سنفّصله في حينه. بل إن التوراة نفسها تذكر عن الأنبياء أنهم مارسوا الزنى. ومنهم داوود الذي زنى بحليلة جاره، ورأوبين ــ من الأسباط ــ الذي زنى بسرية أبيه، ويهوذا بن يعقوب الذي زنى بحليلة ابنه، وأن أمنون بن داوود زنى بأخته ثامار، وأن إبراهيم عليه السلام تزوج أخته سارة، وأن لوطاً عليه السلام زنى بابنتيه وهو مخمور. . . إلخ.

وفي الإصحاح ١٩ وصايا بعدم عبادة الأوثان واحترام الآباء والأمهات، وحفظ السبت وإقامة العدل، وعدم البغض وعدم الزنى، وعدم طلب الجن والاستعانة بهم، ومحبة الغريب والإحسان إليه.

بعض أحكام التوراة الحقة:

ويذكر الإصحاح العشرون من سفر اللاويين العقوبات الصارمة وهي القتل للجرائم التالية:

(١) كل إنسان من بني إسرائيل ومن الغرباء النازلين في إسرائيل أعطى من زرعه لمولك ــ وثن كان يعبد في تلك الجهة ــ فإنه يقتل. . ويرجم رجماً.

(٢) والنفس التي تلتفت إلى الجان وإلى التوابع كذلك تقتل قتلاً.

(٣) وكل إنسان سب أباه أو أمه فإنه يقتل.

(٤) وإذا زنى رجل مع امرأة، فإذا زنى مع امرأة قريبة فإنه يقتل الزاني والزانية. وإذا اضطجع رجل مع امرأة أبيه فقد كشف عورة أبيه. إنهما يقتلان كلاهما دمهما عليهما.

قصة اليهوديّين الزانيَيْن في المدينة:

وهذه قصة حدثت في المدينة المنورة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم توضح اعوجاج يهود وخبثهم وإنحرافهم. فقد زنت يهودية مع يهودي من أشرافهم في المدينة واعترفا بذلك. وأراد اليهود مخرجاً من حكم الرجم الموجود في التوراة؛ فقالوا: نأتي إلى محمد فإنه نبي، فإن حكم لكم بغير الرجم فإنكم ستحاجّون ربكم بأن ذلك حكم رسوله، وإن لم يحكم إلا بالرجم فلا تقبلوا منه الحكم. فجاءوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأمرهم أن يأتوا بالتوراة، وقال لهم أتلوها... فتلا قارئهم وغطى على موضع آية الرجم، فقال له المصطفى: ارفع يدك، فرفعها، فإذا هي آية الرجم. فأخذهما الرسول ورجمهما بحكم التوراة.. وغضب اليهود وشتموا الرسول صلوات الله وسلامه عليه وحزن لذلك المصطفى.

ونزل في ذلك قرآن من السماء. قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا ـ أي حكماً آخر غير حكم الرجم ـ فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ

عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ — فقد أعرضوا بعدما حكم فيهم رسول الله بحكم التوراة وهو الرجم — . وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾﴾. (المائدة: ٤١ — ٤٣).

ويخبرنا المولى سبحانه وتعالى في القرآن الكريم ببعض الأحكام الواردة في التوراة الصحيحة والتي لا يزال بعض آثارها موجوداً إلى اليوم في التوراة المحرفة (سفر اللاويين، الإصحاح ٢٠).

قال تعالى:

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾.
(المائدة: ٤٥).

وجوب تطبيق أحكام الشريعة:

وهذا الحكم باقٍ في الأديان السماوية الثلاثة اليهودية والنصرانية والإسلام.. ولكن اليهود والنصارى حرّفوا أحكام الله وكتبه وألغوا شريعته.. وللأسف فإن بعض بلاد المسلمين — عرباً وعجماً — تقلد اليهود والنصارى وترفض تطبيق الشريعة الإسلامية..

ولا شك أن هذا الرفض لتطبيق شريعة الله يلحقهم باليهود والنصارى.

قال تعالى:

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾.

(المائدة: ٤٤).

وقال تعالى:

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾. (المائدة: ٤٥).

وقال تعالى:

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

(المائدة: ٤٧).

وقال عز من قائل:

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ ﴿٤٨﴾﴾.

(المائدة: ٤٨).

وقال تعالى:

﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾. (المائدة: ٤٩ ـ ٥١).

وواضح من هذه الآيات الكريمة أن حكام المسلمين الذين يرفضون تطبيق شريعة الله قد تولوا اليهود والنصارى الذين سولوا لهم أن يمنعوا تطبيق الشريعة الإسلامية، واستخدموا معهم كل وسيلة من تهديد وترغيب لكي يحاربوا شريعة الله ويمنعوا تطبيقها. وعندما حاول أحدهم تطبيق أجزاء من الشريعة الإسلامية كادوا له المكايد وأسقطوه من كرسي حكمه وطردوه شر طردة. ولكن الله غالب على أمره، وناصر دينه، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون. وقد وصف الله صفاتهم ومسارعتهم في مودة اليهود والنصارى. قال المولى عز وجل:

﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ﴾ .

تماماً كما يقول كثير من حكام المسلمين لخاصتهم: إنهم يخشون بطش أمريكا إذا هم طبقوا الشريعة الإسلامية!!

﴿ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ . (المائدة: ٥٢).

ويصور المولى عز وجل تهديده المرعب الرهيب للذين يتقاعسون عن تطبيق شريعته ويرفضون تنفيذها خوفاً من اليهود والنصارى، وهم الغالبية من حكام المسلمين اليوم:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ . (المائدة: ٥٤).

وتتوالى آيات سورة المائدة تحذر هؤلاء الذين يتولون اليهود والنصارى والكفار، ويسيرون خلفهم كالنعاج، ويرفضون تحكيم شريعة الله خوفاً وفرقاً منهم.

ويقول المولى عز وجل:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ . (المائدة: ٥٧).

مواصلة لذكر بعض أحكام التوراة:

حكمت التوراة بقتل المرتد ومن يعبد وثناً ومن يتبع الجانّ والتوابع، ومن يسب أباه أو أمه، ومن يزني. وإذا اضطجع رجل مع ذكر اضطجاع امرأة فقد فعل كلاهما رجساً، إنهما يقتلان، دمهما عليهما. (الإصحاح ٢٠ من سفر اللاويين: ١٣).

وإذا اتخذ رجل امـرأة وأمها فـذلك رذيلة بـالنار يحـرقونـه وإياهمـا لكي لا يكون رذيلة بينكم. (٢٠ : ١٤ من سفر اللاويين).

وإذا جعل رجل مضجعه مع بهيمة فإنه يقتل والبهيمة تميتونها. وكذلك المرأة إذا زنت مع حيوان كلاهما يقتلان. (سفر اللاويين ٢٠ : ١٥ ـ ١٧).

وإذا أخذ رجل أخته بنت أبيه أو بنت أمه ورأى عورتهـا ورأت هي عورتـه فذلـك عـار. يقـطعـان أمـام أعين بني شعبهمـا قـد كشف عـورة أختـه يحمـل ذنبـه. (سفـر اللاويين ٢٠ : ١٨).

والغريب حقاً أن التوراة ذاتها تزعم أن إبراهيم عليـه السلام تـزوج أخته من أبيـه سـارة، وأن راؤبين زنى بامـرأة أبيه أثنـاء حياة أبيـه يعقوب، وأن يهـوذا بن يعقوب زنى بثمارا زوجة ابنه، وأن داوود زنى بحليلة جاره أوريا الحثي وهي التي ولدت له سليمان عليه السلام. وأن أمنون بن داوود زنى بأخته ثمار، وأن لـوطاً عليـه السلام زنى بـابنتيه وهو مخمور. . . إلخ.

وهو تناقض غريب وفظيـع فكيف يكون الأنبيـاء المثل العليـا للبشريـة زناة وعتـاة ومجرمين وكذبة ومخادعين، بينما تأمـر التوراة في مقـاطع أخـرى بعدم الـزنى والكذب والغش والخداع، وتحكم على من فعل ذلك بأحكام بالغة الشدة؟!!

ويستمر الإصحاح العشرون من سفر اللاويين يوجه الأحكام بعدم الاضطجاع مع امرأة طامث. فإذا فعل ذلـك حكم على الرجـل والمرأة بـالإعدام ـ وهـو حكم شديـد القسوة ـ.

ويحكم السفر بعدم كشف عورة الخالة والعمة وامـرأة العم والخال وزوجـة الأخ ومن فعل ذلك يقتل أو يموت عقيماً.

وإذا فعل بنو إسرائيل ذلك وحفظوا هذه الفرائض والأحكـام؛ فإنهم يـرثون أرض تلك الأمم التي فعلت هذه الموبقات، أرضاً تفيض لبنـاً وعسلاً. . . «أنـا الرب إلـهكم الذي ميّزكم بين الشعوب فلا تـدنسوا أنفسكم بكـل ما هـو نجس من البهائم والـطيور، وتكونون لي قديسين لأني قدوس أنا الرب». (سفر اللاويين ٢٠ : ٢٢ ـ ٢٦).

ويستمر سفر اللاويين في ذكر القرابين بعد ذلك وخصوصيات بيت اللاوي وبني هارون لأنهم الكهنة. . وإذا أكل أحدهم من القربان وهو نجس ــ أي عليه جنابة ــ يموت موتاً!!

وتعود التوراة تفصّل تفصيلاً مملاً ثقيلاً في موضوع القرابين وما يأخذه الكاهن من مواشيهم وزروعهم وأنواع اللحم المشوي والمقدد للرب!!

ثم تأتي أحكام النفس بالنفس «وإذا أمات أحد إنساناً فإنه يقتل».

«ومن أمات بهيمة يعوض عنها نفساً بنفس. وإذا أحدث إنسان في قريبه عيباً فكما فعل كذلك يفعل به، كسر بكسر وعين بعين وسن بسن. كما أحدث عيباً في الإنسان كذلك يحدث فيه. من قتل بهيمة يعوض عنها. ومن قتل إنساناً يقتل. حكم واحد يكون لكم. الغريب كالوطني. إني أنا الرب إلهكم». (سفر اللاويين ٢٤ : ١٧ ــ ٢٢).

وهي نفس الأحكام التي ذكرها الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم في سورة المائدة آية ٤٥ : ﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص﴾ وزاد المولى المسلمين ﴿فمن تصدق به فهو كفارة له﴾ لأن ذلك لم يكن في حكم التوراة.

وهذه نصوص التوراة بين أيدينا تؤكد ذلك. إذ التصدق والعفو لم يذكرا في التوراة.

ويكاد يكون سفر اللاويين خاصاً بالأحكام. وفيه أحكام عظيمة لا شك في صدقها مثل قوله: «لا تصنعوا لكم أوثاناً ولا تقيموا لكم تمثالاً منحوتاً أو نصباً، ولا تجعلوا في أرضكم حجراً مصوراً لتسجدوا له» (الإصحاح ٢٦ : ١).

ومثل قوله: «إذا افتقر أخوك وقصرت يده عندك فأعضده غريباً أو مستوطناً فيعيش معك. لا تأخذ منه ربا ولا مرابحة بل اخشَ إلهك فيعيش أخوك معك. فضتك لا تعطيه بالربا، وطعامك لا تعط بالمرابحة».

ولكن هذه الأقوال والأحكام العظيمة الصحيحة تنقضها أقوال وأحكام أخرى في التوراة، بحيث تستثني غير اليهودي من أحكام عدم الربا، وعدم استرقاق الإنسان.

ففي سفر اللاويين (٢٥ : ٢٩ ــ ٤٦): وإذا افتقر أخوك ــ اليهودي ــ عندك وبيع لك فلا تستعبده استعباد عبد. . . بل اخشَ إلـهك. **وأما عبيدك وإماؤك الذين يكونـون لك فمن الشعوب الذين حولكم. فهم تقتنون عبيداً وإماء. وأيضاً من أبناء المستوطنين النازلين عندكم منهم تقتنـون ومن عشائـرهم الذين عنـدكم الذين يلدونهم في أرضكم فيكونون ملكـاً لكم وتستملكونهم لأبنـائكم من بعدكم ميـراث ملك. تستعبدونهم إلى الدهر. وأما إخوتكم بنو إسرائيل فلا يتسلط إنسان على أخيه بعنف»**.

وفي سفر التثنية (١٥ : ٣): «لا تقرض أخاك بربا. . ربا فضة أو ربا طعام أو ربا شيء مما يقرض بربا. للأجنبي تقرض بربا ولكن لأخيك لا تقرض بربا».

وهكذا يحرف الأحبار كتاب الله وأحكام الله. . لا تقرض بربا يحولونهـا لا تقرض أخاك اليهودي بربا. . لا تستعبد أحداً تتحول لا تستعبد أخـاك اليهودي واستعبـد جميع الشعوب الأخرى. . لا تزن تتحول ألى لاتزن بيهودية لا تسرق. . لا تكذب. . لا تخدع لا تغش. . كلها تتحول على أيدي الأحبار إلى لا تسرق يهودياً، لا تكذب على يهودي، لا تخدع يهودياً. . بل تتحول إلى وجوب الغش والسرقة والخداع للأجنبي، كمـا تنص على ذلك نصوص التلمود التي تعتبر عندهم مقدسة أكثر من التوراة ذاتها.

ولا نقـول كما قـالت دائـرة المعـارف البـريـطانيـة (ج ٢ / ٨٧٩ ــ ٩٠٥ الـطبعـة الخامسة عشر) إن سفر اللاويين قد كتبـه الكهنة بعـد وفاة مـوسى بمئات السنين، وإنـه آخـر سفر كتب من أسفـار التوراة الخمسـة، ولكننا نقـول: إن هذا السفـر يحوي على أحكام ووصايا حقيقية نزلت من السماء على لسـان موسى عليـه السلام. . وإن الكهنـة فيما بعد حرفوا بعضاً منها، وحذفوا وأضافوا كما أملى لهم الشيطان والهوى.

وقد سبق أن استعرضنا كيف حرفت التوراة، ومتى كتبت الأسفار المختلفة للعهد القديم، وما هو مقبول منها عند اليهود والنصارى وما هو مشكوك فيه عندهم؟!!

وتتكرر في التوراة وعود الرب لشعبـه البكر إسـرائيل بـإعطائهم أرض فلسـطين. وتتسع الرقعة أحياناً لتمتد من النيـل إلى الفرات «وأجعـل تخومـك من بحر سـوف إلى بحر فلسطين ومن البرية إلى النهر. فإني أدفع إلى أيديكم سكـان الأرض فتطردهم من

أمـامـك. لا تقـطع معهم ولا مـع آلهتهم عهـداً. لا يسكنـوا في أرضـك لئـلا يجعلوك تخطىء إليّ». (الخروج ٢٣ : ٣١ ــ ٣٣).

وتتكرر هذه الـوعود في كـل سفر من أسفـار العهد القـديم التسعة والثـلاثين كما تتكرر في كل إصحاح منها تقريباً.

وأقـام موسى محـرقـات سـلامـه للرب، وأخـذ مـوسى نصف الـدم ووضعـه في الطسوت، ونصف الدم رشه على المذبح، وأخذ كتاب العهد وقرأ في مسامع الشعب، فقالوا: كل ما تكلم بـه الرب نفعـل ونسمع لـه. وأخذ مـوسى الدم ورش على الشعب وقـال: هـوذا دمُ العهـد الـذي قـطعـه الـرب معكم على جميـع هـذه الأقـوال. (سفـر الخروج ٢٤ : ٥ ــ ٨).

ومثل هذه الصور القبيحة لا شك أنها من صنـع الكهان وإضـافاتهم الكثيـرة التي لوثوا بها كتاب الله.

* * *

يوشع بن نون، المفترى عليه

يوشع بن نون هو فتى موسى وتلميذه وحواريه، ونبيّ بني إسرائيل من بعد موسى. وقد ذكره الله في القرآن الكريم في سورة الكهف في قصة موسى والخضر:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾﴾.

وهو أحد الرجلين الذين أنعم الله عليهما عندما فرق بنو إسرائيل من قتال العماليق ودخول الأرض المقدسة. قال تعالى:

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ﴿٢٣﴾﴾. (المائدة: ٢٣).

والرجل الثاني هو كالب بن يفنة. والموقف عجيب والمفارقة واضحة. فالذين يخافون من ربهم كانوا هم المستعدين لمواجهة العماليق ومجالدتهم، والذين لا يخافون من ربهم هم الذين يرتجفون ويرتعبون ويبكون وينوحون خوفاً وفرقاً من مقاتلة العماليق، فحرم الله عليهم دخول الأرض المقدسة أربعين سنة حتى مات كل ذلك الجيل العفن الجبان الذي مرد على الذل والعبودية في أرض مصر. وأتى الله بجيل جديد لم يعرف الاستكانة والمهانة والخضوع، وأبقى الله يوشع بن نون ومعه كالب بن يفنة ليدخلا الأرض المقدسة تحت قيادة النبي يوشع بن نون.

ولكن يهود لم يلبثوا أن لوثوا سيرة هذا النبي، وجعلوها صورة بشعة فظيعة للمجازر والمذابح والهولوكوست وحرب الإبادة للشعوب المقيمة في الأردن وفلسطين ولبنان. وهي صورة أبعد ما تكون عن الحقيقة، ولكنها أصبحت معتمد سياسة إسرائيل اليوم وتدرس في المدارس لجميع أطفال اليهود.

تحقيق الوعد على يد يوشع بن نون واستيلاء بني إسرائيل على الأرض:

جاء في سفر يشوع ـ يوشع بن نون ـ الإصحاح الأول (١ ـ ٥):

«وكان بعد موت موسى عبد الرب أن الربَّ كلم يشوع بن نون خادم موسى قائلًا: موسى عبدي مات. فالآن قم اعبر هذا الأردن ـ أي نهر الأردن ـ أنت وكل الشعب إلى الأرض التي أنا معطيها لبني إسرائيل. كل موضع تدوسه بطون أقدامكم لكم أعطيته كما كلمت موسى. من البرية ولبنان إلى هذا النهر الكبير نهر الفرات، جميع أرض الحثيين وإلى البحر الكبير نحو مغرب الشمس يكون تخمكم. لا يقف إنسان في وجهك كل أيام حياتك. كما كنت مع موسى أكون معك. . .

«فأرسل يشوع بن نون رجلين جاسوسين سراً قائلًا اذهبا انظرا الأرض وأريحا. فذهبا ودخلا بيت امرأة زانية اسمها راحاب واضطجعا هناك». وعلم ملك أريحا بوجودهما فأرسل جنوده للبحث عنهما. وأنكرت راحاب وجودهما بعد أن خبأتهما. ثم أخرجتهما بعد أن ذهب الطلب، وقالت لهما: قد علمت أن الرب قد أعطاكم الأرض وأن رعبكم قد وقع علينا. لأني قد عملت معكما معروفاً فتعملا أنتما أيضاً مع بيت أبي معروفاً وتستحييا أبي وأمي وإخوتي وأخواتي وكل مالهم، وتخلصا أنفسنا من الموت. .» فوافق الجاسوسان على ذلك وأعطياها العهد والعلامة. (يشوع ٢: ١ ـ ١٤).

وسار يشوع والتابوت أمامهم يدلهم. . . وفي التابوت جلس الله!! تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. وعبروا نهر الأردن بعد أن انفلق النهر فلقتين. وعبر الشعب النهر مشياً. (يشوع ٣: ٩ ـ ١٧).

يشوع يقوم بحرب إبادة حتى النساء والأطفال والرضع والبهائم أبادهم بحد السيف:

«وسمع ملوك الأموريين الذين في عبر الأردن وجميع ملوك الكنعانيين الذين على البحر أن الرب قد يبّس مياه الأردن من أمام بني إسرائيل ذابت قلوبهم» (يشوع ٥: ١ ـ ٢).

وقام يشوع بإعادة ختان بني إسرائيل لأن بني إسرائيل المختونين الذين خرجوا من مصر ماتوا في القفر، وأبناؤهم الذين ولدوا في القفر لم يختنوا. (يشوع ٥ : ٣ ـ ٩).

«وكانت مدينة أريحا مقفلة بسبب بني إسرائيل. لا أحد يخرج ولا أحد يدخل» أي أنها محاصرة، وبعد سبعة أيام من الدوران حول أريحا ضرب الكهنة الأبواق وهتف الشعب هتافاً عظيماً، فسقط السور في مكانه، وصعد الشعب إلى المدينة. «**وحرّموا ـ أي أبادوا ـ كل ما في المدينة من رجل وامرأة، من طفل وشيخ، حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف**». ما عدا راحاب الزانية وأهلها. «**وأحرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها. إنما الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد جعلوها في خزانة الرب**».

وحلف يشوع في ذلك الوقت قائلاً: «ملعون قدّام الربِّ الرجلُ الذي يقوم ويبني هذه المدينة أريحا». (يشوع ٦ : ١ ـ ٢٧).

وهكذا قام يشوع حسب أقوال التوراة المحرفة بهولوكوست وإبادة تامة أفظع من تلك التي قام بها هتلر في بولندا!!!!.

لقد أباد يشوع عدة مرات كل ما وجده أمامه من طفل ورضيع، ورجل وامرأة، حتى الحيوانات والدواب أبادها. ويسمى هذا المبدأ التحريم. أي حرمة أخذ الغنائم. وقد ورد في الحديث الصحيح: أن الغنائم كانت محرمة على من كان قبل النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وأنها أحلت له. وهي من الخصوصيات للنبي محمد ولأمته. ولكن هذا لا يعني أن التحريم هو إبادة وحرق للصغير والكبير، للطفل والشيخ، للمرأة والرجل، للغنم والبقر!! وأبت طبيعة يهود أن تدخل الذهب والفضة في التحريم، وإنما جعلتها في خزانة الكهنة والأحبار التي يسمونها خزانة الرب.

وذكرت التوراة أن بني إسرائيل غلّوا غلولاً ولم يحرّموا الغنائم كما أمروا به. (سفر يشوع الإصحاح السابع). وأمر يشوع بأن يحرق كل الغلول، وأن يحرق معه أيضاً الشخص الذي غلّ. وأخذ يشوع عجان بن زارح والفضة والرداء ولسان الذهب وبنيه وبناته وبقره وحميره وغنمه وخيمته وكل ماله. ورجمه جميع بني إسرائيل

بالحجارة وأحرقوهم بالنار ورموهم بالحجارة. وأقاموا فوقه رجمة حجارة عظيمة إلى هذا اليوم. فرجع الربُّ عن حمو غضبه» (سفر يشوع، الإصحاح السابع).

ويا لها من صورة فظة همجية!! لم يكتف يشوع بقتل الذي غلّ بل قتل أهله وأبناءه وبناته وبقره وغنمه وحميره، وأحرقهم جميعاً بالنار بعد أن رجمهم الشعب حتى الموت!!!

سفر المجازر (سفر يشوع):

ويسمى سفر يشوع من العهد القديم سفر المجازر. فبعد أن قام يشوع بمجزرته الكبرى في أريحا، قام بعدها بمجزرة مثلها لملك عاي وشعبه ومدينته وأرضه. وقال له الرب: «ويكون عند أخذكم المدينة أنكم تضرمون المدينة بالنار»..

وقام يشوع بقتل جميع سكان عاي في الحقل في البرية، حيث لحقوهم وسقطوا جميعاً بحد السيف. ثم دخل المدينة وضربوها بحد السيف ولم يبقوا طفلاً ولا رضيعاً ولا شيخاً ولا رجلاً ولا امرأة. وكان جميع الذين سقطوا في ذلك اليوم من رجال ونساء عاي اثني عشر ألفاً، جميع أهل عاي.. وحرّم يشوع جميع سكان عاي ولكن البهائم والأموال والذهب نهبها إسرائيل لأنفسهم حسب قول الرب!! وأحرق يشوع عاي وجعلها تلاً أبدياً خراباً إلى هذا اليوم. (سفر يشوع ٩: ١ ــ ٣٠).

«ولما سمع جميع الملوك الذين في عبر الأردن، في الجبل وفي السهل وفي كل ساحل البحر الكبير إلى جهة لبنان، الحثيون والأموريون والكنعانيون والفرزيون والحويون واليبوسيون؛ اجتمعوا معاً لمحاربة يشوع وإسرائيل» (سفر يشوع ٩: ١ ــ ٢)، وذلك لكي ينقذوا أنفسهم من المجازر وحرب الإبادة الكاملة التي كان يقوم بها يشوع.

«وأما سكان جعبون لما سمعوا بما عمله يشوع بأريحا وعاي» فقد ارتعبوا؛ وجاءوا ليشوع وقالوا عبيدك نحن، من أرض بعيدة جئنا. والآن اقطعوا لنا عهداً.

وحلفوا ليشوع بأنهم جاءوا من أرض بعيدة، لأن الرب أخبره أن لا يقطع عهداً مع سكان أرض فلسطين وما حولها؛ ولكن سكان جعبون تضرعوا ليشوع وحلفوا له

بـأنهم جاءوا من أرض بعيـدة، وليتخذهم يشـوع عبيداً. (ويـا له من شـرف!!) وأخيراً وافق يشوع على ذلك.

ولما علم يشوع بأن هؤلاء الذين اتخذهم عبيداً واستبقـاهـم هم من أهل جعبـون غضب، وأراد بنو إسرائيل إبادتهم، ولكن رؤساء الجماعة منعوهم من ذلك لأنهم حلفوا بالرب إلّـه إسرائيل لأهل جعبون بالأمان.

حجز الشمس عن المغيب من أجل يشوع:

ويـذكر سفـر يشوع أن الحيثيين والأمـوريين والكنعـانيين والفـرزيين وغيـرهـم من الشعوب اجتمعوا لمحاربة يشوع بعد أن سمعوا بالمذابـح والمجازر التي أقـامها يشـوع لأريحا وعاي وغيرهما من المدن.

والغريب حقاً أن يذكر سفر يشوع أن المعـركة كـانت في جعبون وهي التي سبق أن أخبرنا السفر أن أهلها فروا منها ولبسوا ثياب السفر المهلهلة وأخبروا يشوع بأنهم قد جاءوا من بلاد بعيدة ليعفو عنهم ويتخذهم عبيداً له ولبني إسرائيل.

ويـذكر السفـر أن المعركـة كانت يـوم الجمعـة وكـادت الشمس أن تغيب. ومن المعلوم أن القتـالَ محرمٌ لـدى اليهود من غيـاب شمس الجمعة حتى غيـاب شمس يوم السبت. وكذلك كل عمل من أعمال الدنيا.

واستمرت المعركة طوال النهار والحرب سجال بين الفريقين، فلما رأى يشوع أن الشمس تكاد تغيب دعا الله سبحانه وتعالى أن يمنعها من المغيب فـوقفت الشمس حتى أتم يـوشـع فتـح جعبون.

وجاء في سفر يشوع الإصحاح العاشر (١٢ ــ ١٤): «حينئذ كلم يشوعُ الربَّ يوم أسلم الربُّ الآموريين أمـام بني إسرائيـل، وقال أمـام عيون إسـرائيل: يـا شمس دومي على جعبون ويا قمر على وادي أيّلون. فدامت الشمس ووقف القمر حتى انتقم الشعب من أعدائه. أليس هذا مكتوباً في سفر يـاشر[1]. فـوقفت الشمس في كبد السمـاء ولم

---

(١) سفر ياشـر هذا من جملة الأسفـار المذكـورة في العهد القـديم، ولكن ليس له وجـود. وهو من ضمن الأسفار المفقودة، والتي يعتقد أنّ التوراة والعهد القديم الحالي قد كُتبا منها.

تعجل للغروب نحو يوم كامل. ولم يكن مثل ذلك اليوم قبله ولا بعده سمع فيه الربُّ صوت إنسان. لأن الرب حارب عن إسرائيل!!».

وقوف الشمس ليوشع في الأحاديث النبوية:

وقد وردت قصة وقوف الشمس ليوشع بن نون عليه السلام في أحاديث عدة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم. أخرج الإمام مسلم في صحيحه في كتاب الجهاد[1] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: غزا نبي من الأنبياء فقال لقومه: لا يتبعني رجل قد ملك بضع امرأة وهو يريد أن يبني بها ولمّا يبنِ، ولا آخر قد بنى بنياناً ولمّا يرفع سقفها، ولا آخر قد اشترى غنماً أو خلفات وهو منتظر ولادها، قال: **فغزا فأدنى للقرية حين صلاة العصر أو قريباً من ذلك فقال للشمس أنت مأمورة وأنا مأمور. اللهم احبسها علي شيئاً فحبست عليه حتى فتح الله عليه**. قال فجمعوا ما غنموا فأقبلت النار لتأكله فأبت أن تطعمه فقال فيكم غلول، فليبايعني من كل قبيلة رجل فبايعوه فلصقت يد رجل بيده، فقال: فيكم الغلول، فلتبايعني قبيلتك فبايعته. قال: فلصقت بيد رجلين أو ثلاثة فقال: فيكم الغلول، أنتم غللتم، قال: فأخرجوا له مثل رأس بقرة من ذهب، قال: فوضعوه في المال، وهو بالصعيد فأقبلت النار فأكلته[2]. فلم تحل الغنائم لأحد من قبلنا. ذلك بأن الله تبارك وتعالى رأى ضعفنا وعجزنا فطيبها لنا».

قال الإمام النووي في شرح صحيح مسلم: قال القاضي: «اختلف في حبس الشمس المذكورة هنا فقيل ردت على أدراجها، وقيل وقفت ولم ترد، وقيل أبطيء

---

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي»، كتاب الجهاد: باب تحليل الغنائم لهذه الأمة خاصة، ١٢/٥١ ـ ٥٣، دار الفكر، بيروت.

(٢) كانت علامة القبول من الله سبحانه وتعالى أن تأتي نار من السماء فتأكل القربان، وذلك ما حدث في قصة ابني آدم، إذ قرّبا قرباناً فتقبّل من أحدهما ولم يتقبّل من الآخر. فقد قدَّم قابيل عن ثمار الأرض وقدم هابيل خروفاً سميناً فتقبّل الله من هابيل إذ جاءت نار من السماء فأكلته. ولم يتقبّل الله من قابيل لخبث نفسه.. واستمر الأمر على ذلك حتى أن اليهود ـ عليهم لعائن الله ـ طلبوا من الرسول أن يأتيهم بقربان تأكله النار ليتثبّتوا من صدقه حسب زعمهم.

بحركتها. وكل ذلك من معجزات النبوة. قال: ويقال أن الذي حبست عليه الشمس يوشع بن نون.

والحديث أخرجه الإمام البخاري في كتاب فرض الخمس باب أحلت لكم الغنائم(١). وقال ابن حجر العسقلاني في فتح الباري: «قوله (غزا نبي من الأنبياء) أي أراد أن يغزو، وهذا النبي هو يوشع بن نون كما رواه الحاكم من طريق كعب الأحبار، وبيّن تسمية القرية كما سيأتي. وقد ورد أصله من طريق مرفوعة صحيحة أخرجها أحمد من طريق هشام عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الشمس لم تحبس لبشر إلّا ليوشع بن نون ليالي سار إلى بيت المقدس...

قال ابن حجر في الفتح: «وقد اشتهر حبس الشمس ليوشع حتى قال أبو تمام في قصيدة:

فوالله لا أدري أأحلام نائم ألمت بنا أم كان في الركب يوشع

وقد أخرج حديث حبس الشمس الإمام البخاري في كتاب المناقب أيضاً، وأخرجه أبو داوود في سننه، وأحمد في مسنده (ج ٢/٢١٨).

حبس الشمس للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم:

ولم تحبس الشمس ليوشع بن نون فحسب وإنما حبست أيضاً للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وحبسها النبي صلى الله عليه وسلم لعلي كما سيأتي.

وقد شرح الأئمة العلماء أن ما ذكر من أن الشمس لم تحبس إلّا ليوشع بن نون، يعني ذلك أنها لم تحبس لأحد في الأمم السابقة. قال ابن حجر العسقلاني في فتح الباري: «ولا يعارضه (أي حبس الشمس ليوشع بن نون فقط) ما ذكره يونس بن بكير في زياداته في مغازي ابن إسحاق «أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أخبر قريشاً صبيحة الإسراء أنه رأى العير التي لهم وأنها تقدم مع شروق الشمس، فدعا الله

---

(١) «فتح الباري شرح صحيح البخاري» ٦/٢١٩، المطبعة السلفية، القاهرة.

فحبست الشمس حتى دخلت العير، وهـذا منقـطـع، لكن وقـع في الأوسط للطبـراني من حديث جابـر أن النبـي صلى الله عليه وآلـه وسلم أمـر الشمس فتأخـرت ساعـة من نهار وإسناده حسن. ووجه الجمـع أن الحصر محمول على ما مضى لـلأنبياء قبـل نبينا صلى الله عليـه وسلم فلم تحبس الشمس إلاَّ ليوشـع. وليس فيـه نفي أنها تحبس بعـد ذلك لنبينا صلى الله عليه وسلم».

وذكر الإمام النووي في شرح صحيـح مسلم أن الشمس قد حبست لنبينا محمـد صلى الله عليـه وسلم مرتين الأولى في حـديث الإسراء والمعـراج عندمـا طفق يحـدث قـريشاً عن بيت المقـدس وعن العير التي يقـدمها الجمـل الأورق وتأخر مجيء القـافلة فحبست الشمس ولم تشـرق حتى أتت، والثـانيـة يـوم الخنـدق حين شغلوا عن صـلاة العصر حتى غربت فردها الله عليه حتى صلّى العصر، ذكر ذلك الـطحاوي وقـال رواته ثقات.

حبس الشمس للإمام علي كرم الله وجهه:

قـال الإمام ابن حجـر العسقلاني في فتـح البـاري شـرح صحيـح البخـاري[1]: وروى الطحاوي والطبراني في الكبير والحاكم والبيهقي في «الـدلائل» عن أسمـاء بنت عميس أنه صلى الله عليه وسلم دعا لما نام على ركبـة عليّ ففاتته (أي فـاتت علي كرم الله وجهـه) صلاة العصـر فـرُدَّت الشمس حتى صلى عليّ ثم غـربت. وهـذا أبلـغ في المعجزة. وقد أخطأ ابن الجوزي بإيراده له في «الموضوعات» وكذا ابن تيمية في «الـرد على الروافض»[2] في زعم وضعه والله أعلم.

«وأما ما حكى عياض أن الشمس ردت للنبـي صلى الله عليه وسلم يـوم الخندق لمـا شغلوا عن صلاة العصـر حتى غربت الشمس فـردها الله عليـه حتى صلى العصر. كذا قال وعزاه للطحاوي. والذي رأيته في «مشكـل الآثار»، للطحـاوي، ما قـدمت من ذكر حديث أسماء، فإن ثبت ما قال فهذه قصة ثالثة والله أعلم».

---

(١) كتاب فرض الخمس ـ باب أُحلَّت لكم الغنائم، ٦/٢٢١ ـ ٢٢٢، المطبعة السلفية القاهرة.

(٢) أمـا ابن تيمية فقـد كان لـه موقف آخـر، كما جـاء في كتابـه «الكرامـة ومعجزات الأوليـاء» وهو مستخرج من فتاويه. وسيأتي ذكر ما قاله ابن تيمية في هذا الباب.

وذكر الإمام ابن تيمية في كتابه المعجزة وكرامات الأولياء أن الشمس قد حبست ورُدَّت للإمام علي كرم الله وجهه. قال: وردُّ الشمس ليوشع بن نون وكذلك ردها لما فاتت علياً الصلاة. والنبي صلى الله عليه وسلم نائم في حجره، إن صح الحديث. فمن الناس من صححه كالطحاوي والقاضي عياض، ومنهم من جعله موقوفاً كأبي الفرج بن الجوزي».

وذكر الإمام ابن كثير في كتابه قصص الأنبياء (ص ٤٤٤)، قال: «صححه (أي حديث رد الشمس لعلي) أحمد بن أبي صالح. ولكنه (أي الحديث) ليس في شيء من الصحاح والحسان». وذكر أن الإمام أحمد أخرجه في مسنده وقال ورواته على شرط البخاري.

وقد ذكر الإمام محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني صاحب سبل السلام قصة حبس الشمس للإمام علي في كتابه الروضة الندية في شرح التحفة العلوية:

قال: وعليه الشمس رُدَّتْ فغدا أفقها من بعد الظلام مضيّا

«عن علي كرم الله وجهه قال: لما كنا بخيبر سهر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في قتال المشركين (اليهود) فلما كان من الغد، وكان مع صلاة العصر جئته ولم أصل صلاة العصر، فوضع رأسه في حجري فنام فاستثقل فلم يستيقظ حتى غربت الشمس، فلما استيقظ مع غروب الشمس قلتُ: يا رسول الله ما صليتُ صلاة العصر كراهية أن أوقظك من نومك، فرفع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يده وقال: اللهم إن عبدك تصدَّق بنفسه على نبيك فاردد عليه شروقها فرأيتها على الجبال في وقت العصر بيضاء نقية حتى قمتُ وتوضأتُ وصليت ثم غابت...».

«وعن علي كرم الله وجهه قال: أنشدكم بالله هل منكم من ردت له الشمس غيري حين نام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وجعل رأسه في حجري حتى غربت الشمس فانتبه فقال: يا علي صليت العصر؟ فقلت: اللهم لا. فقال اللهم ارددها عليه فإنه كان في طاعتك وطاعة رسولك».

«وذكرها الحافظ السيوطي في الجامع في مسند أمير المؤمنين رضي الله عنه.

وذكر القاضي العلّامة المالكي عياض اليحصبي في كتابه «الشفا بتعريف حقوق المصطفى» في قسم المعجزات ما لفظه: وخرَّجَ الطحاوي في مشكل الحديث عن أسماء بنت عميس من طريقين أنَّ النبي صلَّى الله عليه وسلَّم كان يوحى إليه ورأسه في حجر علي رضي الله عنه، فلم يصلِّ العصر حتى غابت الشمس، فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: «صلَّيتَ يا علي؟ قال: لا. فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: اللهم إنه كان في طاعتك وطاعة رسولك فاردد عليه الشمس. قالت أسماء: فرأيتها غربت ثم رأيتها طلعت بعدما غربت ووقعت على الجبال والأرض وذلك بالصهباء في خيبر». قال: وهذان الحديثان ثابتان ورواتهما ثقات. وحكى الطحاوي أن أحمد بن صالح كان يقول: لا ينبغي لمن يكون سبيله العلم التخلف عن حفظ حديث أسماء لأنه من علامات النبوة». انتهى. وقد ذكر حديث أسماء بنت عميس كتاب «فرائد السمطين» لإبراهيم بن محمد الجويني، بشيء من التفصيل في الجزء الثاني، ص ١٨٣، وهو قريب مما تقدم فلا حاجة لإعادته.

حروب يشوع:

يذكر سفر يشوع من أسفار العهد القديم حروباً كثيرة متصلة قام بها يشوع وأنه حرَّمَ (أي أباد جميع سكان بل وحيوانات) مدينة مقيدة بحد السيف وقتل الرُضَّع والأطفال والشيوخ والعجزة وجميع البهائم، وفعل بها مثل ما فعل بأريحا وعاي وجعبون.

«ثم نزل إلى مدينة لبنة فدفعها الرب هي أيضاً بيد إسرائيل مع ملكها فضربها بحد السيف وكل نفس بها!! لم يبقِ شارداً، وفعل بملكها كما فعل بملك أريحا». ودفع الرب مدينة لخيش وضربها يشوع بحد السيف وكل نفس حية بها حسب كل ما عمله بلبنة. وقضى يشوع على جازر وملكها، وحرَّم فيها كل نفس بحد السيف. وانتقل إلى عجلون وحاربها وأخذها في ذلك اليوم وضربها بحد السيف. وحرَّم يشوع كل نفس بها حسب كل ما فعل بلخيش.

ثم صعد يشوع وجميع إسرائيل معه من عجلون إلى حبرون (هي مدينة

الخليل)، وحاربوها. وضربوها بحد السيف مع ملكها وكل مدنها وكل نفس بها. لم يبقِ شارداً حسب كل ما فعل بعجلون فحرَّمها بحد السيف.

ثم رجع يشوع وكل إسرائيل معه إلى دبير وحاربها. وأخذها مع ملكها وكل مدنها وضربوها بحد السيف. وحرَّموا كل نفس بها. لم يبقِ شارداً كما فعل بحبرون، كذلك فعل بدبير وملكها.

فضرب يشوع كل أرض الجبل والجنوب والسهل والسفوح وكل ملوكها، لم يبقِ شارداً بل حرَّم كل نسمة كما أمر الرب إلَه إسرائيل. فضربهم يشوع من قادش برنيع إلى غزة، وجميع أرض جوشن إلى جعبون. وأخذ يشوع جميع أولئك الملوك وأرضهم دفعة واحدة، لأن الرب إلَه إسرائيل حارب عن إسرائيل». (سفر يشوع، الإصحاح ٩ و ١٠).

فلما سمع يابين ملك حاصور بما فعله يوشع وبنو إسرائيل بالشعوب، من حرب إبادة كاملة، وإفساد في الأرض، جمع بقية الملوك في المنطقة وعزم على محاربة يوشع بن نون وجيشه. «فقال الرب (كما تقول التوراة ليشوع): لا تخفهم لأني غداً في مثل هذا الوقت أدفعهم جميعاً قتلى أمام إسرائيل، فتعرقب خيلهم وتحرق مركباتهم بالنار. فجاء يشوع وجميع رجال الحرب معه عليهم عند مياه ميروم بغتة وسقطوا عليهم، فدفعهم الرب بيد إسرائيل فضربوهم... حتى لم يبقَ لهم شارد. ففعل يشوع بهم كما قال له الرب: عرقب خيلهم وأحرق مركباتهم بالنار، ثم رجع يشوع في ذلك الوقت وأخذ حاصور وضرب ملكها بالسيف، **وضربوا كل نفس بها بحد السيف. حرَّموهم، ولم تبقَ نسمة، وأحرق حاصور بالنار. فأخذ يشوع كل مدن أولئك الملوك وجميع ملوكها، وضربهم بحد السيف. حرَّمهم كما أمر موسى عبد الرب. وكل غنيمة تلك المدن والبهائم نهبها بنو إسرائيل لأنفسهم. وأما الرجال فضربوهم جميعاً بحد السيف حتى أبادوهم. لم يبقوا نسمة.** ـ أي قتلوا النساء والأطفال والرجال والشيوخ ـ كما أمر الربُّ موسى عبده. هكذا أمر موسى وهكذا فعل يشوع. لم يهمل شيئاً من كل ما أمر به الربُّ موسى. فأخذ يشوع كل تلك الأرض الجبل وكل الجنوب وكل أرض جوشن والسهل والعربة وجبل إسرائيل وسهله من

الجبل الأقرع الصاعد إلى سعير إلى بعل جاد في بقعة لبنان تحت جبل حرمون. وأخذ جميع ملوكها وضربهم بالسيف. وعمل يشوع حرباً مع أولئك الملوك أياماً كثيرة». (سفر يشوع ١١: ٦ ــ ١٩).

وجاء يشوع وقرض ــ أي أهلك ــ العناقيين من الجبل من حبرون ــ مدينة الخليل ــ ومن دبير ومن عناب ومن جميع جبل يهوذا، ومن كل جبل إسرائيل. حرَّمهم ــ أي أبادوهم جميعاً، نساءً ورجالاً، شيوخاً وأطفالاً مع جميع البهائم ــ يشوع مع مدنهم. فلم يتبقَّ عناقيون في أرض بني إسرائيل ــ حرب إبادة هولوكُست ــ . فأخذ يشوع كل الأرض حسب كل ما كلَّم به الرب موسى، وأعطاها يشوع ملكاً لإسرائيل حسب فرقهم وأسباطهم. واستراحت الأرض من الحرب ــ وحق لها أن تستريح من هذه الحرب الوحشية الضارية التي تعلن التوراة الكاذبة أنَّ يشوع شنها على جميع سكان أرض فلسطين والأردن ولبنان ــ . (سفر يشوع، الإصحاح ١١: ٢١ ــ ٢٣).

متى عاش يشوع؟

تذكر المصادر التاريخية أن الخروج حدث حوالي ١٢٣٧ قبل الميلاد، وأنَّ يوشع كان شاباً مصاحباً لموسى آنذاك. وتتفق المصادر الدينية والتاريخية على أن مرحلة التيه استغرقت أربعين عاماً. ظهر بعدها يوشع كقائد ونبي لبني إسرائيل، واستمر في ذلك كما تذكر التوراة ٤٠ عاماً، ثم مات عن عمر يناهز مائة وعشرة أعوام. فتكون وفاته بذلك حوالي سنة ١١٥٧ قبل الميلاد، ويكون بالتالي مولده حوالي سنة ١٢٦٧ قبل الميلاد.

ومع ذلك لا يرد أي ذكر محدَّد لحياة يوشع بن نون في التوراة، ومن المؤكد أنه عاش في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وامتد به العمر إلى القرن الثاني عشر. وقد عاش يوشع بن نون تلميذاً مخلصاً وفيّاً لموسى عليه السلام، وصاحَبه في جميع رحلاته، بما في ذلك رحلته ليلتقي بالرجل الصالح ــ الخضر ــ الذي قصَّ الله علينا قصته في سورة الكهف. قال تعالى: ﴿وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع

البحرين أو أمضي حقباً﴾، حتى إذا التقى موسى عليه السلام بالرجل الصالح اختفى فتى موسى من المسرح ولم يعد له ذكر.

ويظهر يوشع وهو يوبِّخ قومه عندما نكصوا عن قتال العماليق كما تقدم. ثم يوصي موسى قومه باتباع يوشع لأنه خليفته بعد وفاته. ويقوم يوشع بفتح أرض العماليق. لا بالصورة البشعة التي تصوره بها التوراة، بل كما ينبغي لنبي يجاهد في سبيل الله.

وعندما فتح الله عليه بيت المقدس؛ دخل يوشع مطأطىء الرأس تواضعاً لله، بعد أن سجد على الباب شكراً لله. لا كما تصوِّره التوراة جباراً سفاكاً متعطشاً للدماء مبيداً لكل نفس من الطفل الرضيع إلى الشيخ الفاني، ومن الفتاة اليافعة إلى العجوز العقيم.

قال تعالى موبخاً بني إسرائيل على جرائمهم، وكيف أمرهم بدخول باب بيت المقدس سُجَّداً متواضعين، وأن يقولوا حطة ـ أي حُطَّ عنا ذنوبنا ـ فدخلوا على أستاههم يزحفون وهم يسخرون ويضحكون، ويقتلون ويسفكون دماء الأبرياء من النساء والأطفال. قال تعالى:

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾. (الأعراف: ١٦١ ـ ١٦٢).

ووصف المولى عزَّ وجل موقفهم من المصطفى، وسؤالهم له أن ينزل عليهم كتاباً من السماء، فذكّرهم المولى بمواقفهم المخزية وسؤالهم موسى أن يروا الله جهرة، ثم اتخاذهم العجل، ثم نكوصهم عن قتال العماليق، ثم رفضهم أخذ الميثاق إلا بعد أن رفع الله الطور فوقهم، ثم نقضهم لجميع العهود والمواثيق، ثم دخولهم الأرض المقدسة على يد يوشع بن نون، وأمرهم بالدخول سجداً، وكيف عكسوا ذلك الأمر، ودخلوا على أستاههم يزحفون سخرية من أوامر الرب، وكيف قتلوا وسفكوا الدماء، وقتلوا الأنبياء، واتهموا مريم العذراء بالفاحشة، وادعوا أنهم قتلوا عيسى بن مريم رسول الله.

قال تعالى :

﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ
مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا
جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ
بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا
﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا
غُلْفٌ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ
بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ
وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ ﴿١٥٧﴾﴾. (النساء: ١٥٣ ــ ١٥٧).

«وعندما شاخ يشوع، قال له الرب: أنت قد شخت. وقد بقيت أرض كثيرة جداً للامتلاك هذه هي الأرض الباقية. كل دائرة الفلسطينيين وكل الجشوريين من الشيحور الذي هو أمام مصر إلى تخم عقرون شمالاً، من التيمن كل أرض الكنعانيين ومغارة التي للصيدونيين إلى أفيق إلى تخم الأموريين، وأرض الجبليين وكل لبنان نحو شروق الشمس من بعل جاد تحت جبل حرمون إلى مدخل حماة، جميع سكان الجبل من لبنان إلى مسرفوت مايم جميع الصيدونيين. أنا أطردهم من أمام بني إسرائيل». (سفر يشوع ١٣ : ١ ــ ٧).

وقام يشوع بكل ذلك وبتنفيذ الوصايا، وبتذكير بني إسرائيل بوصايا موسى وتعليمات الرب، وذكّرهم بأن لا يتخذوا أوثاناً ولا آلهة من دون الله كما سبق أن فعلوا مراراً. ثم مات يشوع وهو ابن مئة وعشر سنين فدفنوه في تخم ملكه في تمنة التي في جبل أفرايم شمالي جبل جاعش. (سفر يشوع ٢٤ : ٢٩ ــ ٣٠).

وهكذا انتهت حياة نبي من أنبياء بني إسرائيل. وقامت التوراة بتلويث صورته كما فعلت من قبل بموسى وهارون عليهما السلام، وكما ألصقت التهم الحقيرة بنوح

---

(١) وقبر يشوع عليه السلام معروف وهو موجود في غور الأردن في المملكة الأردنية الهاشمية، وعلى مسافة غير بعيدة منه يوجد قبر نبي الله شعيب، في غور الأردن أيضاً.

وإبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب والأسباط.

ولا شك أن ما ورد في التوراة المحرَّفة من صفات الأنبياء هو من الكذب والبهتان الذي لم ينفكّ عنه بنو إسرائيل منذ خَلَقَهم الله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها إلّا من آمن منهم وقليل ما هم.

يشوع ـ يوشع ـ بن نون وموقف الكتّاب العرب منه:

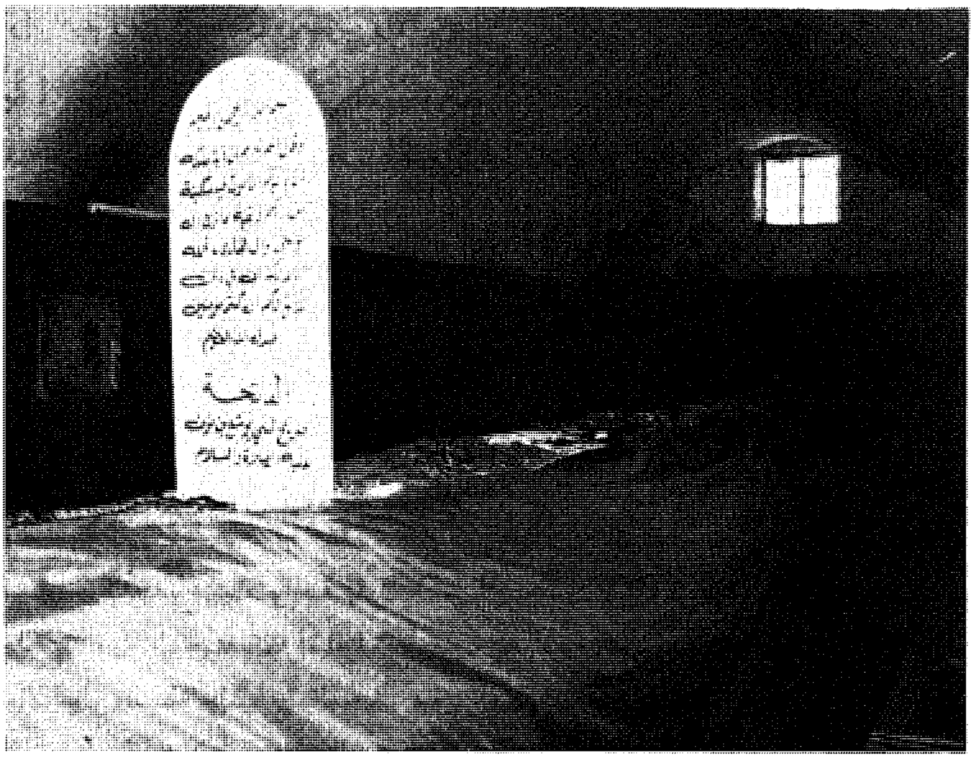
مات النبي يشوع ـ يوشع ـ بن نون بعد أن بلغ مائة وعشر سنوات، وقد قضى حياته كلّها مع موسى وهارون عليهم السلام جميعاً. وكان من أخص تلاميذ موسى عليه السلام، وخليفته من بعده. ولم يكن رسولاً لبني سرائيل لأنَّ الرسالة كانت لموسى عليه السلام. وكان هو من أبرز الذين دعوا بني إسرائيل لتطبيق الشريعة الحقة.

وتميَّز يشوع بالصراحة وقول الحق، والجهاد في سبيل الله باللسان والسنان. ولكن التوراة المحرَّفة كما أسلفنا تصوِّره متعطشاً للدماء، سفّاكاً، مجرماً يقتل الأبرياء والأطفال والنساء والشيوخ والعَجَزة، وحتى البهائم يقضي عليها.

وللأسف، فإن كثيراً من الكتّاب العرب والمسلمين يخطئون خطأً فاحشاً عندما يتخذون ما ورد في التوراة المحرَّفة عن موسى وهارون ويوشع وداوود وسليمان دليلاً على انحراف هؤلاء الأنبياء، ومن ثمَّ يهاجمونهم.

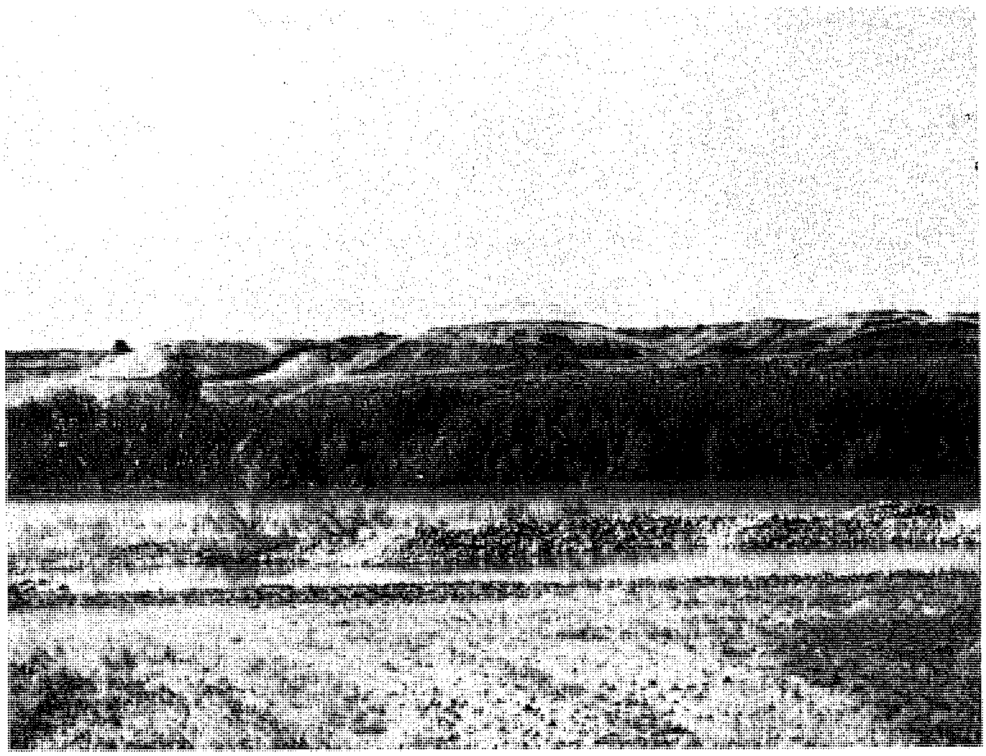
وهو موقف غريب أشدّ الغرابة، ومرفوض رفضاً تامّاً من شخص يدَّعي أنه مسلم!! فكيف يستطيع كاتب مسلم ويدرِّس في الأزهر وفي غيره من الجامعات، وغيره كثير، أن يتَّهم يوسف والأسباط، بل ويتَّهم يعقوب وإسحاق وإبراهيم وموسى وهارون ويوشع بالانحراف؟!! وكيف يمكن لشخص يدَّعي الإسلام أن يدافع عن فرعون وملئه، ويحاول أن يبرِّر طغيان فرعون وهامان وجنودهما، وأن اضطهاد فرعون لقوم موسى إنما كان بسبب استغلال بني إسرائيل للكرم المصري، وأنَّ فرعون محقّ في موقفه ذاك من يهود!!

والمؤسف حقاً أنَّ تيار القومية العربية في الخمسينات والستينات دفع بكثير من الكتّاب الذين كتبوا عن تاريخ اليهود، من العرب خاصة وبعض المسلمين



ضريح نبيّ الله يوشع بن نون فتى موسى عليهما السلام وعلى سيدنا محمد أفضل الصلاة والتسليم. يوجد هذا الضريح في غور الأردن، كما يوجد في نفس المنطقة أيضاً قبر نبي الله شعيب عليه السلام. وفي تلك المنطقة أيضاً قبور كثير من الصحابة الذين توفّوا أثناء الفتح وأثناء الإصابة بطاعون عمواس، نذكر منهم أمين هذه الأمة أبو عبيدة عامر بن الجراح وشرحبيل بن حسنة ومعاذ بن جبل وضرار بن الأزور رضي الله عنهم أجمعين.

واليهود ــ عليهم لعائن الله ــ يتطلّعون للاستيلاء على هذه المنطقة التي عاش فيها نبيّ الله يوشع بن نون وعلى ترابها سُجّي جسده. وعلى مدنها وقراها وأغوارها وجبالها دارت معارك شرسة بين أهل الحق آنذاك والكفّار، وسيأتي يوم قريب بإذن الله تدور فيه رحى المعركة الفاصلة بين يهود والمؤمنين على ضفاف نهر الأردن حتى يقول الحجر والشجر: يا مسلم، يا عبد الله هذا يهودي ورائي، تعال فاقتله.



نهر الأردن، ويسمى أيضاً نهر الشريعة، وهو النهر المبارك الذي عَبَرَه الأنبياء والصحابة رضوان الله عليهم. وهو يفصل حالياً بين دولة الأردن وبين دولة البغي والعدوان، إسرائيل. التلال الواضحة في الصورة تحتلها إسرائيل منذ عام ١٩٦٧م والمنطقة المزروعة هي منطقة حرام والنهر يفصل بين الأردن (الضفة الشرقية) وبين الضفة الغربية التي تحتلها إسرائيل، وهو نهر غير عميق في كثير من مناطقه ويمكن عبوره مشياً، ويصل في تلك المناطق إلى حقو الإنسان فقط.

وعلى ضفاف هذا النهر دارت معارك كثيرة وتحرَّك يوشع بن نون عليه السلام، وعلى ضفافه أيضاً سنقتل اليهود تلك المقتلة العظيمة التي لا تُبقي منهم أحداً والتي بشَّرنا بها الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى.

المتحمِّسين لقضية فلسطين، أن يندفعوا اندفاعاً غير محمود أدَّى بهم إلى الكفر الصريح والخروج من ربقة الإسلام، وذلك عند مهاجمتهم للأنبياء عليهم السلام، بحجّة أنَّ التوراة ذكرت عنهم هذه المخازي﴿وماكفرسليمان ولكن الشياطين كفروا﴾. شياطين الإنس وهم اليهود، هم الذين كفروا وحرَّفوا الكلم. وبلغت بهم الوقاحة أن شتموا الأنبياء جميعاًوألصقوا بهم التُّهم الحقيرة والأوصاف الرذيلة، والأنبياء منهم براء.

ويتخذ بعض المؤلفين من العرب المحدثين موقفاً يدلّ على الجهل حيث إنهم لم يعرفوا أن يشوع بن نون من الأنبياء، فصدَّقوا ما قالته فيه التوراة المحرَّفة المزيفة، وأخذوا يقذعون السب والشتم في يشوع ويشوع منهم جميعاً براء. ورغم أنَّ هؤلاء حاولوا أن يبرّئوا موسى عليه السلام من التُّهم التي ألصقتها به التوراة، إلَّا أنهم أقذعوا في سب الأسباط وهم أبناء يعقوب عليه السلام.

وحاول بعضهم أن يردّ على ادّعاء يهود بأنهم أوَّل من قال بالتوحيد، ودعا إلى الإلّه الواحد. وكان الردّ في ذلك سخيفاً كل السخف، تافهاً كل التفاهة. فقد جاءت الردود منصبّة على أنَّ أخناتون ـــ الفرعون المصري الذي دعا إلى عبادة الشمس وحدها ـــ هو أوَّل بشر دعا إلى التوحيد، وأنَّ موسى عليه السلام أخذ عقيدة التوحيد من أخناتون. ونقل بعضهم ما يقوله الكتّاب الغربيون من يهود ونصارى ـــ وأغلبهم لا ديني ـــ من أنَّ اليهود كانوا يعبدون إلّه قبيلة. مثلما تفعل كثير من القبائل المحيطة بهم. ثم تطوَّرَت تلك الفكرة باحتكاكهم بالمصريين بعد دخولهم مصر، وتأثَّروا بفكر أخناتون. وتحوَّل إلّه القبيلة الذي لم يكن يمانع من وجود آلهة أخرى، إلى إلّه للكون بأكمله، ولكنه لم ينسَ شعبه وقبيلته، وابنه البكر إسرائيل.

وكل هذه التخرُّصات مبنيّة على كثير مما ورد في التوراة المحرَّفة، من وصف للإلّه وتصويره بصورة بشر أحمق شديد الغضب كثير الندم، متفانٍ في حبّ ابنه البكر إسرائيل مهما فعل به هذا الابن من الأفاعيل، ومهما أساء إليه هذا الولد العاق. وحتى في لحظات الغضب التي كثيراً ما تنتابه ويعزم فيها على إفناء ابنه البكر من الوجود، يتقدَّم أحد أنبياء هذا الشعب الصلب الرقبة ويسترضيه بمحرقات ولحم مشوي؛ فيرضى ويعود إلى سالف عهده.

* * *

عصر القضاة
(١١٥٧ ــ ١٠٢٠ قبل الميلاد)

قام يشوع بن نون قبل وفاته حسبما تزعم التوراة المحرَّفة بتوزيع كل الأرض التي استولى عليها قبل وفاته، وتوزيع الأرض التي لم يستولِ عليها بعدُ على عشائر بني إسرائيل ماعَدا سبط اللاوي، لأنهم الكهنة كما حدد ذلك موسى حسب زعمهم. ولهم مقابل ذلك الأموال الخاصة بالمعبد والنذور. . .إلخ، ومدناً للسكن في أرض كنعان مع مسارحها لبهائمهم (سفر يشوع ٢١ : ١ ــ ٣).

تقول التوراة المحرَّفة (سفر يشوع، الإصحاح ١٣ : ١٢ ــ ١٤):

«وعندما شاخ يشوع قال له الرب أنت قد شخت. وقد بقيت أرض كثيرة جداً للامتلاك هذه هي الأرض الباقية. كل دائرة الفلسطينيين وكل الجشوريين من الشيحور الذي هو أمام مصر إلى تخم عقرون شمالاً، تحسب للكنعانيين أقطاب الفلسطينيين الخمسة: الغزّيّ والأشدوديّ والأشقلوني والجتّى والعترونيّ والعوييّن. من التيمن كل أرض الكنعانيين ومغارة التي للصيدونيين إلى أفيق إلى تخم الأموريّين، وأرض الجبلين، وكل لبنان نحو شروق الشمس من بعل جاد تحت جبل حرمون إلى مدخل حماة. . . أنا أطردهم من أمام بني إسرائيل. إنما أقسمها بالقرعة لإسرائيل مُلكاً كما أمرتك. والآن اقسم هذه الأرض ملكاً للتسعة الأسباط ونصف سبط منسيّ. معهم أخذ الراوبينيون (أبناء راؤبين بن يعقوب) والجاديون (جاد بن يعقوب) مُلكهم الذي أعطاهم موسى عبر الأردن نحو الشروق، كما أعطاهم موسى عبد الرب» وأخذ يعدد الأماكن والمواضع لكل سبط من أسباط يعقوب (إسرائيل).

وقام يشوع في شيخوخته بإلقاء خطبة الوداع الأخيرة، ووصيته لبني إسرائيل (سفر

يشوع، الإصحاح ٢٣)، قائلاً لهم: «أنا قد شخت. تقدمتُ في الأيام. وأنتم قد رأيتم كل ما عمل الربُّ إلٓهكم بجميع أولئك الشعوب من أجلكم. لأن الربَّ إلٓهكم هو المحارب عنكم. انظروا قد قسمت لكم بالقرعة هؤلاء الشعوب الباقين مُلكاً حسب أسباطكم من الأردن وجميع الشعوب التي قرضتُها والبحر العظيم نحو غروب الشمس. والربُّ إلٓهكم هو ينفيهم من أمامكم ويطردهم من قدامكم فتملكون أرضهم كما كلمكم الربُّ إلٓهكم، فتشددوا جداً لتحفظوا وتعملوا كل المكتوب في سفر شريعة موسى حتى لا تحيدوا عنها يميناً أو شمالاً، حتى لا تدخلوا إلى هؤلاء الشعوب أولئك الباقين معكم، ولا تذكروا اسم آلهتهم ولا تحلفوا بها، ولا تعبدوها ولا تسجدوا لها. ولكن الصقوا بالرب إلٓهكم كما فعلتم إلى هذا اليوم. قد طرد الرب من أمامكم شعوباً عظيمة وقوية. وأما أنتم فلم يقف أحد قدامكم إلى هذا اليوم. رجل واحد منكم يطرد ألفاً لأن الرب إلٓهكم هو المحارب عنكم كما كلمكم فاحتفظوا لأنفسكم أن تحبّوا الرب إلٓهكم».

ويكرر الوصية بأن لا يلتصقوا بهذه الشعوب الباقية ولا يصهروا إليها لئلا يعبدوا آلهتها الباطلة. **وعليهم أن يطردوا هذه الشعوب طرداً من أرضهم حتى «لا يكونوا لكم فخاً وشركاً وسوطاً على جوانبكم وشوكاً في أعينكم، حتى تبيدوا عن تلك الأرض الصالحة. . .»**.

وحذّرهم يشوع من أن يعبدوا آلهة أخرى ويسجدوا لها فيحمى غضب الربِّ عليهم، ويطردون من الأرض الصالحة التي أعطاهم إياها.

وأخذ يذكرهم بعهد الرب مع إبراهيم وإسحاق ويعقوب (سفر يشوع، الإصحاح ٢٤). وأخذ يشوع العهد والمواثيق مرة أخرى بأن لا يعبدوا إلاَّ الله ولا يشركوا به شيئاً، «فقال الشعب ليشوع: الربُّ إلٓهنا نعبد ولصوته نسمع. . . وقطع يشوع عهداً للشعب في ذلك اليوم، وجعل لهم فريضة وحكماً في شكيم ــ يقال إنها مدينة نابلس اليوم ــ وكتب يشوع هذا الكلام في سفر شريعة الله. وأخذ حجراً كبيراً ونصبه هناك تحت البلوطة التي عند مقدس الربّ ــ هذا هو أصل النصب التذكاري المنتشر في العالم اليوم ــ ثم قال يشوع لجميع الشعب: إن هذا الحجر يكون شاهداً علينا، لأنه قد

سمع كلام الربُّ الذي كلمنا به، فيكون شاهداً عليكم لئلا تجحدوا إلّهكم». ثم مات يشوع.

يبتدأ سفر القضاة الإصحاح الأول، بذكر المعارك التي تمت بعد عهد يشوع:

«وكان بعد موت يشوع أن بني إسرائيل سألوا الرب قائلين من منا يصعد إلى الكنعانيين أولاً لمحاربتهم؟ فقال الرب: يهوذا يصعد ــ أي سبط يهوذا بن يعقوب ــ هو ذا قد دفعت الأرض ليده. فقال يهوذا لشمعون ــ سبط آخر من أسباط بني إسرائيل ــ أخيه: اصعد معي في قرعتي لكي نحارب الكنعانيين؛ فأصعد أنا معك في قرعتك. فصعد يهوذا. ودفع الربُّ الكنعانيين والفرزّيين بيدهم فضربوا منهم في بازق ــ يقال إن بازق أحد أسماء مدينة القدس، نسبة إلى أدوني بازق ملك اليبوسيين ــ عشرة آلاف رجل. ووجدوا أدوني بازق في بازق، فحاربوه وضربوا الكنعانيين والفرزيين، فهرب أدوني بازق، فتبعوه وأمسكوه وقطعوا يديه ورجليه، فقال أدوني بازق: سبعون ملكاً مقطوعة أيديهم وأرجلهم كانوا يلتقطون تحت مائدتي. كما فعلت كذلك جازاني الله. وأتوا به إلى أورشليم فمات هناك ــ وهذا يدل على أن بازق ليست هي أورشليم القدس كما زعم صابر حطيمة في كتابه التاريخ اليهودي العام ــ.

«**وحارب بنو يهوذا أورشليم، وأخذوها وضربوها بحد السيف، وأشعلوا المدينة بالنار**. وبعد ذلك نزل بنو يهوذا لمحاربة الكنعانيين سكان الجبل والسهل. وسار يهوذا على الكنعانيين في حبرون ــ وهي مدينة الخليل الحالية ــ وكان اسم حبرون قبلاً قرية أربع. وضربوا شيشاء وأخيمان وتلماي. وسار من هناك على سكان دبير. واسم دبير قبلاً قرية سفر. فقال كالب ــ وهو زميل يشوع وأحد الرجلين الذين أنعم الله عليهما بالخوف منه وعدم الخوف من عماليق ــ: الذي يضرب قرية سفر ويأخذها أعطيه عكسة ابنتي امرأة. فأخذها عثنئيل بن قناز أخو كالب الأصغر منه فأعطاه عكسة ابنته امرأة». (سفر القضاة ١:٨ ــ ١٢).

والتناقضات في أخبار غزوات اليهود رهيبة. فقد مرّ معنا في سفر يشوع أن هذه البلاد جميعاً قد سقطت بيد يشوع، وأنه دمّرها تدميراً، وحرّم كل نفس بها ولم يبق بها

طفلاً ولا رضيعاً ولا شيخاً ولا رجلاً ولا امرأة. فكيف قامت بعد وفاته وصارت دولاً أو دويلات يحاربها سبط يهوذا ويقضي عليها مرة أخرى؟!.

وفي سفر القضاة الإصحاح الأول ذاته ـ أي في خلال صفحتين فقط ـ تناقض فظيع، حيث يدّعي هذا الإصحاح: أن أورشليم سقطت بيد يهوذا «وأخذوها وضربوها بحد السيف ـ أي أبادوا جميع سكانها ـ وأشعلوا المدينة بالنار». وفي نفس الإصحاح الأول سفر القضاة: ٢١: وبنو بنيامين لم يطردوا اليبوسيّين سكان أورشليم، فسكن اليبوسيون مع بني بنيامين في أورشليم إلى هذا اليوم».

وكذلك لم يطرد منسي أهل بيت شان ولا قراها. وأفرايم ـ أحد أسباط إسرائيل ـ لم يطرد الكنعانيين الساكنين في جازر. وزبولون ـ أحد أسباط إسرائيل ـ لم يطرد سكان قطرون ولا سكان نهلول فسكن الكنعانيون في وسطه. ولم يطرد أشير ـ أحد الأسباط ـ سكان عكّو ـ عكا ـ ولا سكان صيدون ـ صيدا ـ وأحلب واكزيب وحلبة وأفيق ورحوب. فسكن الأشيريون ـ سبط أشير ـ في وسط الكنعانيين سكان الأرض. ونفتالي لم يطرد سكان بيت شمس ولا سكان بيت عناة بل سكن في وسط الكنعانيين. وكذلك الأموريون سكنوا مع سبط يوسف ـ سفر القضاة الإصحاح الأول ـ.

وخلاصة القول: إن التناقض واضح وبيّن: فبينما يدعي سفر يشوع أن هذه المناطق سقطت على يد يشوع وأنه أبادها، يأتي سفر القضاة ليقول: إن هذه المناطق لم تسقط إلاَّ بعد يشوع وأنهم لم يحرّموها، بل سكن الكنعانيون مع الإسرائيليين على عكس وصية الرب لهم، وصعد ملاك الرب ووبّخهم قائلاً: قد أصعدتكم من أرض مصر، وأتيت بكم إلى الأرض التي أقسمتُ لآبائكم. وقلتُ لا أنكث عهدي معكم إلى الأبد. **وأنتم فلا تقطعوا عهداً مع سكان هذه الأرض.** اهدموا مذابحهم، فلم تسمعوا لصوتي. فماذا عملتم؟ فقلتُ أيضاً: لا أطردهم من أمامكم بل يكونون لكم مضايقين وتكون آلهتهم لكم شَركاً. وكان لما تكلم ملاك الرب بهذا الكلام إلى جميع بني إسرائيل أن الشعب رفعوا صوتهم وبكوا. فدعوا اسم ذلك المكان بوكيم. وذبحوا هناك للرب» (سفر القضاة ٢: ١ ـ ٥).

تأثُّر بني إسرائيل بالكنعانيين وعبادتهم الأوثان:

ونتيجة اختلاط بني إسرائيل بالكنعانيين وتزاوجهم منهم، أخذوا عن الكنعانيين لغتهم وآدابهم وعاداتهم وتقاليدهم، وتعلموا منهم الكتابة. ولم يكتفوا بذلك كله بل عبدوا آلهتهم.

«وفعل بنو إسرائيل الشرَّ في عيني الرب. وعبدوا البعليم ــ البعليم جمع بعل وهو أحد آلهة الكنعانيين. وقد جاء ذكر البعل في القرآن الكريم في سورة الصافات آية ١٣٥. قال تعالى: ﴿وإن إلياس لمن المرسلين. إذ قال لقومه ألا تتقون. **أتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين**﴾ ــ. وتركوا الربَّ إلّه آبائهم الذي أخرجهم من أرض مصر. وساروا وراء آلهة أخرى من آلهة الشعوب الذين حولهم وسجدوا لها. وأغاظوا الربَّ. وعبدوا البعل وعشتاروت ــ عشتاروت هي الزهرة التي عبدها البابليون ثم انتقلت عبادتها إلى اليونان والرومان وهي فينوس آلهة الجمال عندهم ــ. فحمي غضب الربِّ على إسرائيل فدفعهم بأيدي ناهبين نهبوهم، وباعهم بيد أعدائهم حولهم. ولم يقدروا بعدُ على الوقوف أمام أعدائهم. حيثما خرجوا كانت يد الربِّ عليهم للشرِّ. كما تكلم الربُّ وكما أقسم الربُّ. فضاق بهم الأمر جداً.». (سفر القضاة ٢: ١١ ــ ١٥).

وظهر قضاة في بني إسرائيل.. كل قاض يحكم منطقة من المناطق. وكان القضاة من الكهنة ومن العلماء. فدعوا بني إسرائيل إلى عبادة الله وحده وترك الأوثان والأصنام واستجاب لهم بنو إسرائيل حيناً، وانفضوا عنهم وعبدوا الأوثان في أغلب الأحيان.

جاء في (سفر القضاة ٢: ١٦) يذكر هذه الحقائق:

«وأقام الرب قُضاة فخلصوهم من يد ناهبيهم. **ولقضاتهم أيضاً لم يسمعوا بل زنوا وراء آلهة أخرى وسجدوا لها. حادوا سريعاً عن الطريق التي سار بها آباؤهم بسمع وصايا الرب لم يفعلوا**».

والواقع أن آباءهم عبدوا العجل. وطلبوا من موسى أن يجعل لهم آلهة كما لأولئك الوثنيين الذين مروا عليهم. وقالوا لموسى: «أرنا الله جهرة»؛ فأخذتهم الصاعقة

وهم ينظرون. ولم يكن موسى عليه السلام يخرجهم من ضلالة إلّا وقعوا في أخرى أشدَّ وأنكى. والتوراة المحرَّفة تصور الرب ــ تعالى الله عن ذلك ــ أنه يندم: «وحينما أقام الربُّ لهم قضاة كان الرب مع القاضي وخلصهم من أعدائهم كل أيام القاضي. **لأن الرب ندم من أجل أنينهم بسبب مضايقيهم ومزاحميهم. وعند موت القاضي كانوا يرجعون ويفسدون أكثر من آبائهم بالذهاب وراء آلهة أخرى ليعبدوها ويسجدوا لها. لم يكفّوا عن أفعالهم وطريقهم القاسية؛ فحميَ غضب الربِّ على إسرائيل.** وقال من أجل أن هذا الشعب قد تعدوا عهدي الذي أوصيت به آباءهم ولم يسمعوا لصوتي؛ فأنا أيضاً لا أعود أطرد إنساناً من أمامهم من الأمم الذين تركهم يشوع عند موته». (سفر القضاة ٢: ١٨ ــ ٢١).

وظهرت في هذه الفترة قوة الفلستينيين ــ الفلسطينيين ــ الذين قدموا من بحر إيجة وسكنوا في سواحل فلسطين منذ سنة ١٢٠٠ق.م. وازدادت قوتهم مع مرور الأيام، واستطاعوا أن يستولوا على المنطقة الغربية من فلسطين، حتى بلغ من قوتهم وتأثيرهم أن أرض كنعان أصبحت تسمى أرض فلسطين. وبقي ذلك الاسم إلى اليوم ــ ثلاثة آلاف سنة أو تزيد ــ وشكّل هؤلاء الفلسطينيون تهديداً قوياً للدويلات اليهودية الصغيرة والتي لم يكن يجمعها سوى حلف دفاعي للحرب ضد الأعداء.

ولم يكن الفلسطينيون فقط هم الذين يشكلون خطراً على الدويلات اليهودية الصغيرة، بل كان كذلك الآراميون والأموريون والمؤابيون والكنعانيون واليبوسيون والحثيون. «فهؤلاء هم الأمم الذين تركهم الرب ليمتحن بهم إسرائيل كل الذين لم يعرفوا جميع حروب كنعان ــ أي التي قامت في عهد موسى ويوشع بن نون ــ: أقطاب الفلسطينيين الخمسة، وجميع الكنعانيين والصيدونيين والحويين سكان جبل لبنان من جبل بعل حرمون إلى مدخل حماة. كانوا لامتحان إسرائيل بهم. لكي يعلم هل يسمعون وصايا الرب التي أوصى بها آباءهم عن يد موسى؟ **فسكن بنو إسرائيل في وسط الكنعانيين والحثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين. واتخذوا بناتهم لأنفسهم نساء وأعطوا بناتهم لبنيهم[1] وعبدوا آلهتهم. فعمل بنو إسرائيل الشرَّ**

---

(١) وهذا يؤكِّد أنَّ بني إسرائيل اختلطوا بالشعوب الأخرى وتزاوجوا منها، ولم يعد هناك شعب نقي =

في عيني الرب ونسوا الرب إلههم وعبدوا البعليم والسواري. فحمى غضب الرب على إسرائيل فباعهم بيد كوشان رشعتايم ملك أرام النهرين. فعبد بنو إسرائيل كوشان رشعتايم ثماني سنين. وصرخ بنو إسرائيل إلى الرب فأقام الربُّ مخلصاً لبني إسرائيل، فخلصهم عثنيئيل بن قناز أخو كالب الأصغر. فكان عليه روح الرب وقضى لإسرائيل. وخرج للحرب فدفع الربُّ ليدة كوشان ملك آرام. واستراحت الأرض أربعين سنة ومات عثنيئيل بن قناز». (سفر القضاة ٣: ١ ــ ١٢).

وتكرر نفس الموقف، وعاد بنو إسرائيل لعبادة الأوثان؛ فسلط الله عليهم عجلون ملك موآب الذي انتصر عليهم واستعبدهم ثماني عشرة سنة.

وصرخ بنو إسرائيل إلى الرب وأعلنوا توبتهم من عبادة الأوثان؛ فأقام الله لهم مخلصاً هو إهود بن جيرا البنياميني ــ من سبط بنيامين ــ وقتل إهود ملك موآب بحيلة، حيث ادعى أنه سيعطيه هدية، وبعد أن قدّم له الهدية طلب أن يتحدث إلى الملك سراً؛ فأخرج من حوله من الحاشية، وأخرج إهود السيف الذي خبأه، وقتل الملك عجلون. ثم غطى الملك وهرب. ولم ينتبه أحد من الحرس إلاّ بعد فرار إهود. وظنوا أن الملك نائم. فلما اكتشفوا موت الملك كان بنو إسرائيل بقيادة إهود قد أحاطوا بهم، فضربوا موآب وقتلوا من بني موآب عشرة آلاف رجل. (سفر القضاة ٣: ١٣ ــ ٣١). واستراحت الأرض من القتال ثمانين سنة.

وعاد بنو إسرائيل يعملون الشر في عيني الرب بعد موت إهود كما يقول سفر القضاة، وعبدوا الأوثان للمرة الألف، فغضب الرب عليهم؛ وباعهم الربُّ بيد يابين ملك الكنعانيين في حاصور. وكان يابين ملكاً قوياً له تسعمائة مركبة من حديد. واستعبد بني إسرائيل عشرين سنة. وكان له قائد فذ يدعي سيسرا.

ولأول مرة تظهر امرأة في مسرح القيادة والزعامة، وهي دبورا ــ كثير

ينتسب إلى يعقوب عليه السلام. وكذلك دخلت شعوب أخرى كثيرة في اليهودية مثلما حدث في اليمن أيام ذي نواس، وملوك الخزر في بحر الخزر ــ بحر قزوين ــ حيث تهوّدت القبائل الوثنية الموجودة هناك، ثم اختلطوا بالروس وهم يهود أوروبا الشرقية وروسيا. ومنهم حكّام إسرائيل منذ وجودها إلى اليوم.

من الغربيات يسمّين بهذا الاسم حالياً ــ. ودبورة كما تزعم التوراة امرأة نبية زوجة لفيدوت، وهي قاضية بني إسرائيل في ذلك الوقت.

وقامت دبورا بالإرسال إلى باراق بن أبينوعم ــ من سبط نفتالي بن يوسف ــ وأمرته بالذهاب لقتال سيسرا لتخليص بني إسرائيل من حكم ملك الكنعانيين يابين. وجمع باراق عشرة آلاف مقاتل من سبط نفتالي وسبط زبولون، وصعدت دبورا معه إلى قادش لأنه أبى أن يصعد بدونها.

واستطاع باراق أن ينتصر على سيسرا القائد الكنعاني رغم وفرة مركباته ــ تسعمائة مركبة من حديد ــ وضرب باراق سيسرا وجيشه بحد السيف. وأذل الله في ذلك اليوم يابين ملك كنعان. وأما سيسرا فقد هرب واختبأ في خيمة امرأة تدعى ياعيل، امرأة جابر القيني، لأنه كان صلح بين جابر القيني وملك الكنعانيين. ولكن المرأة خانت الرجل وقتلته بعد أن أوهمته بأنها ستخبئه. فلما شرب وأكل ونام، أخذت وتد الخيمة وقتلته به.

وترنمت دبورا بترنيمة النصر، والتي لا تزال يترنم بها اليهود والنصارى في كنائسهم وبيعهم إلى اليوم.

واستراحت الأرض أربعين سنة بعد هذه المعركة.

ومرة أخرى عاد بنو إسرائيل كما يقول سفر القضاة لعبادة الأوثان: «وعمل بنو إسرائيل الشرَّ في عيني الرب؛ فدفعهم الرب ليد مديان سبع سنين» (القضاة ٦: ١).

ولما صرخ بنو إسرائيل إلى الرب بسبب المديانيين؛ أرسل لهم الرب رجلاً نبياً لإنقاذهم. وأتى الرب إلى جدعون حسبما تزعم التوراة وقال له: الربُّ معك يا جبار البأس. فقال له جدعون: يا سيدي إذا كان الربُّ معنا فلماذا أصابتنا هذه المصائب؟! وأين عجائبه التي أخبرنا بها آباؤنا الأولون؟ والآن قد رفضنا الربُّ وجعلنا من كفِّ مديان. فالتفت إليه الرب وقال له: اذهب بقوتك وخلّص بقوتك من كف مديان. أما أرسلتك إلى مديان؟. وعاد جدعون ليسأل الرب بماذا يخلص إسرائيل وعشيرته هي الأشد ذلاً في بيت منسي؟ وهو ــ أي جدعون الأصغر ــ في بيت أبيه. فقال له الرب:

إني أكـون معك. فـطلب جدعـون من الـربّ عـلامة. وذهب جـدعـون وأتى بفـطيـر ولحم، فأتت النار فأكلت القربان ــ وهي علامة قديمـة لقبول القـربان. حيث تـأتي نار من السماء فتأكل القرابين المقبولة ــ.

وأمره الرب ــ وتارة يقال عنه ملاك الرب ــ بهدم مذبـح البعل، وأن يبني مـذبحاً للرب إلّـه إسـرائيل. وصعـد بمحرقـات قربـاناً لله، فقـرب ثوراً وبقـرة. وقام جـدعون بن يواش بهدم مذبـح البعل ليلاً. فلما جاء الصباح وجد بنو إسرائيل مـذبـح البعل قـد هدم. فطلبوا من يواش أن يقدّم لهم جدعون ابنه ليقتلوه. فقـال يواش: إن كـان البعل إلّهاً فليدفـع عن نفسه وينتقم من ابن جدعون.

ثم قـام جدعـون مرة بـامتحان الله قـائلاً: إن كنت تخلص بيـدي إسرائيـل كمـا تكلمت فها أنا واضـع جزة صوف في البيدر، فإن كان طلٌّ على الجزّة وحدهـا وجفاف على الأرض كلها، علمتُ أنك تخلصُ بيدي إسرائيل كما تكلمت. وكـان كذلـك. ثم قام جدعون وقال لله: لا يحمَ غضبُك عليّ. فأتكلم هذه المرة فقط. أمتحن هذه المرة فقط بالجزة. فليكن جفاف في الجزة وحـدها وعلى كـل الأرض ليكن طلٌ. ففعـل الله كذلك في تلك الليلة، فكان جفاف في الجزة وحدها وعلى الأرض كلها كان طل (سفر القضاة ٦).

وهي صورة تافهـة وحقيرة حيث يقـوم عبد يـزعم أنه نبـي ويمتحن الله جـل علاه وكأنه رفيقه. ويتكرر الامتحان ثلاث مرات، والصورة قميئة وبذيئة وتافهة، وهي ملازمة لعقلية يهود في تصورهم لله رب العالمين حسبما تصوره التوراة المزيفـة المحرَّفـة التي كتبها الأحبار على مدى القرون المتطاولة بعد موسى عليه السلام وموسى منها براء.

وقام جدعون الذي تسمى أيضاً باسم يربعل ونادى الشعب وقال: من كان خائفـاً ومرتعداً فليرجـع ولينصرف من جبل جلعاد. فـرجـع من الشعب الجبان اثنـان وعشرون ألفـاً وبقي عشرة آلاف. ومـروا بنهر، فقـال جدعـون: لا يشرب أحـد من الماء إلاَّ من اغتـرف غرفـة بيده. فشـربوا كلهم وولغـوا من الماء كمـا يلـغ الكلب ــ هكـذا وصف التوراة ــ إلاَّ ثلاثمائة رجل اغترفوا غرفة بأيديهم. وقال جدعون: كـل الذين شـربوا من الماء أو ولغوا فيه فليفترزوا عنا. وأخذ معه فقط الثلاثمائة الذين اغترفـوا غرفـة بأيـديهم فقط.

ونـزل جدعـون سراً في الليـل، ووجد أهـل مدين والعمـاليق وهم مـرتعبـون من بني إسرائيل، ويحلم كـل واحد كنهم حلمـاً يحدث بـه أصحابـه أن الواقعـة قد وقعت بهم. ولما سمـع جدعون ذلك سجـد شكراً لله. وقـال للثلاثمـائة الـذين هم معه: قـد دفـع الله لأيديكم جيش المديانيين. فانتصرت القلة القليلة على الكثرة الكـاثرة، وقتلوا رؤساء أهل مدين (سفر القضاة ٧).

وتـوالت انتصارات جـدعون على مـديـان، واستـراحت الأرض أربعين سنـة من القتـال، قصة جـدعون ــ يـربعل ــ تـرد في القرآن الكـريم بصورة مشـابهـة في بعض التفاصيل ومختلفة في الأخرى.

وترد قصة اختيار بني إسرائيل واختبارهم بـاجتياز النهـر ــ الذي لا تحـدده التوراة ولا القرآن الكريـم ــ في القرآن الكريم عند ذكر قصة طالوت ــ وهو شـاول ــ أول ملك على بني إسرائيل، الذي سترد قصته عند الحـديث عن شاول حيث نـرى طالـوت يخبر قومه بأن الله مبتليهم بنهر، فمن شرب منه فليس من طالوت ولا يذهب معه للقتال، ومن لم يشرب أو من اغترف غرفة بيده فهو مـع طالوت وسيذهب معه لقتال الأعداء.

ولمـا بـرزت الفئـة القليلة نكص أيضـاً عـدد آخـر منهم عنـد رؤيتهم لـلأعــداء الكثيرين. وثبتت قلة القلة. . ومـع هذا آتاها الله النصر.

والقصة في سورة البقرة (٢٤٦ ــ ٢٥١). وسنوردها عند الحديث عن طالوت.

بنو إسرائيل يعودون لعبادة الأوثان بعد موت جدعون:

«وكان بعد موت جدعون أن بني إسرائيل رجعوا وزنوا وراء البعليم، وجعلوا لهم بعـل بريث إلّهـاً. ولم يذكـر بنو إسـرائيـل الـربَّ إلّههم الـذي أنقـذهم من يـد جميـع أعدائهم من حولهم. ولم يعملوا معروفاً مـع بيت يـربعل ــ وهـو جدعـون ــ نظيـر كل الخير الذي عمل مـع إسرائيل». (سفر القضاة ٨: ٣٣ ــ ٣٥).

وقـام بعد ذلـك أبيمالـك بن جـدعـون وقتـل إخـوتـه السبعين في مـدينـة شكيم ــ نابلس ــ وترأّس أبيمالك على إسرائيل ثلاث سنين، ثم غدر أهـل شكيم بأبيمـالك كما غدر هـو بإخـوته. ولكن أبيمـالك انتصـر عليهم. ثم قامت امـرأة فرمت رحى على رأس أبيمالك فمات. (سفر القضاة ٩).

وقام بعد أبيمالك تولع بن فواه فقضى لإسرائيل ثلاثاً وعشرين عاماً. ومات ودفن في شامير. وقام بعده يائير الجلعادي فقضى لإسرائيل اثنتين وعشرين سنة. (سفر القضاة ١٠ : ١ ــ ٣).

«وعاد بنو إسرائيل يعملون الشر في عيني الرب وعبدوا: البعليم والعشتاروت وآلهة آرام وآلهة صيدون وآلهة موآب وآلهة بني عمّون وآلهة الفلسطينيين، وتركوا الرب ولم يعبدوه، فحمى غضب الربُّ على إسرائيل وباعهم بيد الفلسطينيين وبيد بني عمون. فحكموهم واستعبدوهم ثماني عشرة سنة (سفر القضاة ١٠ : ٦ ــ ١٢).

وكالمعتاد عاد بنو إسرائيل وطلبوا من الرب أن يخلصهم من الفلسطينيين وبني عمّون، وأزالوا الآلهة الغريبة. وكالمعتاد ندم الربُّ على الشر الذي فعل بابنه البكر إسرائيل ــ الا لعنة الله على اليهود ــ، وضاقت نفس الرب بسبب مشقة ابنه البكر الحبيب الأثير لديه إسرائيل. (سفر القضاة ١٠ : ١٤ ــ ١٦).

الرب يختار يفتاح الجلعادي ابن الزانية لينقذ بني إسرائيل:

يزعم سفر القضاة الإصحاح ١١ أن الرب اختار يفتاح ابن الزانية لينقذ بني إسرائيل من بني عمّون. ونذر يفتاح للرب إن دفع بني عمّون ليده فالخارج الذي يخرج من باب بيته للقائه يكون للرب ويصعده محرقة. أي يحرقه بالنار تقرباً إلى الله ــ ويا لها من عبادة وثنية ــ فتكون ابنته الوحيدة هي التي تقابله؛ فقام هذا المجرم يحرق ابنته العذراء تقرباً لله!!

وقامت حرب أهلية بين بني إسرائيل ــ يفتاح جلعاد وسبط أفرايم ــ فسقط من سبط أفرايم اثنان وأربعون ألفاً. وقضى يفتاح الجلعادي لإسرائيل ست سنوات.

وقضى بعده ثلاثة قضاة، ثم عاد بنو إسرائيل لعبادة الأوثان فدفعهم الرب ليد الفلسطينيين أربعيم سنة (سفر القضاة، الإصحاح ١٣).

وتأتي بعد ذلك القصة الخرافية عن شمسون الجبار. وقد ولد شمسون بن مَنُوحُ من أم عاقر بعد رؤية الملك الذي بشرها بمولده. وقال لها الملك: والآن لا تشربي خمراً ولا مسكراً ولا تأكلي شيئاً نجساً؛ لأن الصبي يكون نذيراً لله. ثم أمر الملاك

أيضاً منوح بعدم شرب الخمر وأن يجتنب أكل أي شيء نجس. فولدت المرأة ابناً ودعت اسمه شمسون فكبر الصبي وباركه الرب.

شمسون الرجل المبارك يزني ويفجر ويظلم:

ونزل شمسون إلى تمنة ورأى امرأة من بنات الفلسطينيين وطلب الزواج منها، رغم تعاليم التوراة المشددة في عدم الزواج من الغلف، وعدم الزواج من خارج نطاق بني إسرائيل.

ونزل أبوه وأمه وخطبا المرأة من الفلسطينيين أبويها؛ فزوجوها لشمسون. رغم أن الفلسطينيين في ذلك الوقت كانوا متسلطين على إسرائيل كما يقول سفر القضاة (الإصحاح ١٤). وعمل شمسون وليمة الزواج ودعا ثلاثين من شباب أهل فلسطين، وأعطاهم شمسون أحجية ولغزاً، وطلب منهم أن يفسروا الأحجية. فإن لم يستطيعوا عليهم أن يعطوه ثلاثين قميصاً وثلاثين حلة ثياب، وإن استطاعوا أعطاهم هو ثلاثين حلة وثلاثين قميصاً. ولم يعرف الشباب الأحجية؛ فتوسلوا إلى زوجة شمسون الشابة، فعرفت السر من شمسون وأخبرتهم به. ولما كان شمسون لا يملك الثياب والقمصان، فقام شمسون بقتل ثلاثين رجلاً من مدينة أشقلون عدواناً وظلماً، وأخذ سلبهم وأعطى الحلل لمظهري الأحجية. وحمى غضبه وصعد إلى بيت أبيه، وطرد زوجته. فقام أبوها وزوجها إلى رجل آخر.

وبعد مدة الحصاد افتقد شمسون زوجته السابقة، وأراد أن يأخذها من أبيها قسراً، فأخبره أبوها أنه قد زوجها لرجل آخر، وأنه سيزوجه ابنته الأخرى إذا أراد عوضاً عن الأولى. وهنا وبدون أي مبرر أعلن شمسون أنه سينتقم من الفلسطينيين. وقام بإحراق زروعهم ليلاً. ولما علم الفلسطينيون بذلك خافوا من شمسون، وقاموا بإحراق صهر شمسون وابنته حتى يرضى شمسون. ومع ذلك لم يرض شمسون حتى بإحراق صهره وزوجته السابقة. ويا له من شرير جبار كما تصوّره التوراة وأظهر شمسون من فنون الشجاعة وضروب القوة الخارقة ما يلحق بالأساطير. وقتل جيشاً من الفلسطينيين بلحي حمار.

ثم ذهب شمسون إلى غزة ورأى هناك امرأة زانية فدخل إليها. وهكذا تصور

التوراة المحرَّفة أنبياء الله والصالحين بأنهم زناة. وتزعم التوراة أن شمسون كان رجل الله، وإذا به قاتل مجرم سفاك أثيم، زانٍ معتد باغٍ، وقام شمسون وقتل آلافاً من أهل غزة.

ثم أحب شمسون دليلة وزنى بها، وحاولت دليلة معرفة سر قوة شمسون. وبعد محاولات عديدة فاشلة عرفت أن سر قوته في شعره، فسقته خمراً، ثم حلقت شعره فذهبت قوته، وأخذه الفلسطينيون أسيراً يلعب به الصبيان، ووضعوه في الحبس وسملوا عينيه.

ثم جاءوا به يوم العيد ليرقص أمامهم، وكان شعر شمشون قد استطال وعادت إليه قوته. واجتمع آلاف منهم في المعبد، فأمسك شمسون بساريتي المعبد، وقال قولته المشهورة: «عليّ وعلى أعدائي يا رب» فانهار المعبد وقتل في ذلك اليوم من الفلسطينيين عدة آلاف. وكان عدد الذين قتلهم شمسون في موته أكثر من الذين قتلهم أثناء حياته.

وقد قام اليهود بإخراج فيلم عالمي عن شمسون الجبار، وصوروه بصورة زاهية غير ما هو موجود في التوراة. وأبقوا على أسطورة القوة والشجاعة، وزادوا عليها من عندهم الكرم وحسن الخلق... إلخ.

ومات شمسون بعد أن قضى لإسرائيل عشرين سنة. (القضاة ١٦ : ٣١).

واضطربت أمور بني إسرائيل ولم يكن لهم ملك يحكمهم ويجمع شملهم، وكان كل واحد يعمل مايحسن في عينيه (القضاة ١٧ : ٦).

وقام ميخا بصنع آلهة من الفضة غير الآلهة العديدة التي عبدها بنو إسرائيل، وأخذ له رجلاً من بيت لاوي وجعله كاهناً لمعبده الجديد وإلهه الجديد.

وارتحل عشيرة الدانيين من منطقة صرعة واشتاؤل وجاءوا إلى لايش الصيدونية الآمنة، وقتلوا من فيها واستولوا على الأرض. ثم ذهبوا وسرقوا تمثال ميخا وأخذوا كاهنه معهم، فعبدوا التمثال المسبوك، وكان اللاوي يكهن لهم. وقام بنو دان ــ سبط إسرائيل ــ بقتل من في المدينة الصيدونية وحرقوها، ثم بنوا مدينة جديدة موضعها وأسموها دان نسبة إلى أبيهم.

انتشار عبادة الأوثان والزنى في إسرائيل حسبما تذكره التوراة المحرَّفة:

تذكر التوراة المحرَّفة قصص الزنى والخنا، وتفتري الكذب على أنبياء الله من لدن نوح عليه السلام، الذي شرب الخمر وتعرى، إلى إبراهيم الذي تزوج أخته سارة، إلى إسحاق الذي عرض زوجته للملك ليأخذ مالاً، إلى يعقوب الذي سرق بكورية أخيه عيسو وبركته، والذي قام أيضاً بسرقة خاله لابان وسرقة أمواله، إلى راؤبين الذي زنى بزوجة أبيه، إلى يهوذا بن يعقوب الذي زنى بثامار كنته وزوجة ابنه... إلخ. وفي عصر القضاة انتشرت عبادة الأوثان كما أسلفنا وانتشر الزنا انتشاراً مريعاً. وتزوج رجل من بيت لاوي كما يقول سفر القضاة (الإصحاح ١٩) امرأة من بيت يهوذا، فزنت المرأة، ثم غضبت وذهبت لبيت أبيها لأنه أنكر عليها الزنى. فما كان منه إلَّا أن ذهب إليها لبيت أبيها يسترضيها.

وعند عودته من بيت أبيها استضافه رجل من قرية بني بليعال من سبط بنيامين ليبيت عنده، فما كان من أهل القرية إلَّا أن اجتمعوا وطلبوا من الشيخ أن يخرج لهم الضيف ليفعلوا به الفاحشة. وما كان من الرجل من بيت لاوي إلَّا أن أخرج زوجته من بيت يهوذا ليزني بها الرجال. فزنى بها جميع رجال أهل القرية، وسقطت المرأة ميتة من كثرة الزنى. فقام زوجها وقطعها إلى اثنتي عشرة قطعة وأرسلها إلى جميع تخوم إسرائيل.

واجتمع لذلك الأمر أربعمائة ألف مقاتل من إسرائيل!! وطلبوا من سبط بنيامين تسليم المجرمين ليقتلوهم. ولكن البنياميين رفضوا ذلك، وقاتلوا عن إخوتهم بني بليعال ـ من سبط بنيامين ـ فوقعت معركة قتل فيها من بني بنيامين خمسة وعشرين ألف رجل ومائة رجل. كل هؤلاء مخترطو السيف (سفر القضاة، الإصحاح ٢٠).

وحلف بنو إسرائيل ألا يزوجوا بني بنيامين. ثم ندم بنو إسرائيل على ذلك لأن أحد أسباط إسرائيل سيندثر؛ فاحتالوا على ذلك كعادتهم، وقاموا لقتال يابيش جلعاد، فقتلوا كل من كان فيها من النساء والأطفال ما عدا البنات الصغيرات اللائي لم يعرفن رجلاً، جعلوهن زوجات لبني بنيامين. ثم تآمروا مرة أخرى. واختاروا يوم عيد

حيث تخرج الفتيات للرقص، وطلبوا من بيت بنيامين أن يهجموا على الفتيات ويتخذ كل واحد منهم من أعجبته من الفتيات زوجة له من بيت شيلو.

وتعلق التوراة على ذلك قائلة: «في تلك الأيام لم يكن ملك في إسرائيل. كل واحد عمل ما حَسُنَ في عينيه».

وينتهي عصر القضاة بظهور النبي صمويل الذي يمسح شاول ليجعله ملكاً على إسرائيل. وذلك ما سنتحدث عنه في الفصل التالي ــ عصر الملوك ــ.

ولنا هنا ملاحظة سريعة وهي: إن زمن عصر القضاة تجعله التوراة المحرَّفة ــ سفر القضاة ــ يبلغ ٣٤٨ سنة كالتالي:

ملك آرام واستعباده لهم	٨	سنوات
حرية ــ استراحوا منه ــ	٤٠	سنة
ملك عجلون واستعبادة لإسرائيل	١٨	سنة
حرية	٨٠	سنة
ملك حاصور واستعباده لإسرائيل	١٨	سنة
ملك مديان واستعباده لإسرائيل	٧	سنوات
حكم جدعون الإسرائيلي	٤٠	سنة
أبيمالك بن جدعون	٣	سنوات
تولع القاضي	٢٣	سنة
يائين القاضي	٢٢	سنة
العمونيون واستعباد إسرائيل	١٨	سنة
يفتاح القاضي	٦	سنوات
ابصان القاضي	٧	سنوات
أيلوك القاضي	١٠	سنوات
حبرون القاضي	٨	سنوات
استعباد الفلسطينيين لبني إسرائيل	٤٠	سنة
المجموع	**٣٤٨**	**سنة**

بينمـا تذكـر المصادر التـاريخية أن فتـرة حكـم القضاة بعـد موت يـوشـع حـوالي أربعين ومـائة سنـة. حيث كان الخـروج في حوالي ١٢٣٧ قبـل الميـلاد وبقي مـوسى أربعين سنة، ثم يوشـع أربعين سنة أخرى بعد الخروج. وانتهى عصـر القضاة حـوالي ١٠٢٠ قبل الميلاد.

* * *

النبي صموئيل (عليه السلام)
شموئيل ـ السموءل

ينتهي عصر القضاة وبنو إسرائيل في حالة من الفوضى كما يقول العهد القديم (سفر القضاة): «في تلك الأيام لم يكن ملك في إسرائيل. كل واحد عمل ما حَسُنَ في عينيه» . . وعبد بنو إسرائيل في ذلك العهد كما في كل العهود السابقة واللاحقة الأوثان، وزنوا وراءها، وذبحوا لبعليم وعشتاروت، وصنعوا لأنفسهم آلهة مسبوكة من الذهب ومن الفضة. ويذكر سفر القضاة أن ميخا قام بصناعة إلّه من الفضة وعبده معه عدد من بني إسرائيل وكهن لهم رجل من بيت اللاوي. ثم جاء رجال من عشيرة الدانيين ـ سبط دان بن يعقوب ـ فأخذوا تمثال ميخا إلى المدينة التي استولوا عليها ـ لاييش الصيدونية ـ وأخذوا معهم الكاهن من بيت اللاوي. فعبدوا إلّه الفضة الجديد بالإضافة إلى الآلهة الأخرى. . وقد ارتد بنو إسرائيل عن عبادة الله إلى عبادة الأوثان سبع مرات في زمن القضاة.

وينتهي عصر القضاة بالحرب المدمرة بين بيت بنيامين وبقية أسباط بني إسرائيل، وتنتهي الحرب بهزيمة البنياميين وقتل خمسة وعشرين ألف رجل منهم، وبمقاطعة بني بنيامين وعدم تزويجهم من الأسباط الأخرى. ثم يقوم بنو إسرائيل كما هو معتاد بالاحتيال للتخلص من هذا العهد.

وينتهي عهد القضاة بظهور نبي تدعوه أسفار العهد القديم صموئيل. ويطلب الشعب من النبي أن يجعل لهم ملكاً يلتفون حوله ويقاتلون معه. ويقوم صموئيل بترشيح شاؤل ـ طالوت ـ وينصّبه ملكاً على بني إسرائيل بعد أن يمسح رأسه بالزيت ويسميه مسيح الرب. والغريب أن لفظة مسيح الرب تطلق على كل من ملك من

بني إسرائيل. بل إن أسفار العهد القديم قد أطلقتها على قورش الفارسي أيضاً.

ويبدأ عهد الملوك الأول الذين أسسوا مملكة موحدة حوالي سنة ١٠٢٠ قبل الميلاد بعهد شاؤل أول ملك لبني إسرائيل، ويحكم بعده ابنه اشبوشت فترة قصيرة جداً، يظهر بعدها داود كأقوى ملكٍ في تاريخ اليهود إلى اليوم. ويستمر حكم داوود كما تقرر دائرة المعارف البريطانية من حوالي عام ١٠١٠ق.م. إلى عام ٩٦١ قبل الميلاد (ج ٢/ الطبعة الخامسة عشر ١٩٨٢). ويحكم إبشالوم بن داوود فترة قصيرة أثناء حكم والده، حيث يثور على أبيه داوود، ويُقتل في المعركة ضد والده. ثم يظهر سليمان عليه السلام ويحكم من سنة ٩٦١ق.م. حتى عام ٩٢٢ق.م. كما تقرره دائرة المعارف البريطانية، وبموت سليمان تنقسم المملكة الموحدة إلى مملكتين هما: يهوذا في الجنوب وإسرائيل في الشمال.

صموئيل النبي ـ شموئيل: أي سمع الله لي. وقد عُرِّبَ إلى سموءل ــ:

يخصص العهد القديم سفرين كاملين باسم صموئيل ـ الأول والثاني[1] ـ ويحكي سفر صموئيل الأول ـ الملوك الأول عند الكاثوليك ـ قصة ظهور صموئيل منذ ولادته. وكيف أن أم صموئيل نذرت أن تجعله لخدمة الرب، وأرسلته لذلك إلى الكاهن المشهور آنذاك الذي يدعى عالي، وأرسلت معه للكاهن ثلاثة ثيران وإيفة دقيق وزق خمر، فقبلها الكاهن، وأخذ الصبي ليخدم معه في المعبد.

وكان بنو عالي الكاهن سفلة أوغاداً. «لم يعرفوا الرب ولا حق الكهنة من الشعب». (صموئيل الأول ١: ١٣) واستهانوا بتقدمة الرب ـ أي الذبائح التي تقدم في المذبح ــ.

(١) يختلف العهد القديم في عدد أسفاره وأسمائها عند النصارى، كما يختلف كذلك عند اليهود. فأسفار العهد القديم عند البروتستانت (٣٩) سفراً، بينما يبلغ عدد الأسفار عند الكاثوليك (٤٦) سفراً، بزيادة سبعة أسفار، هي: سفر طوبيا، ويهوديت، والحكمة، ويسوع بن سيراخ، وباروك ـ باروخ ـ، وسفرا المكابيين الأول والثاني. وتسمي النسخة الكاثوليكية سفر اللاويين، سفر الأحبار. وتسمي سفري صموئيل الأول والثاني: سفر الملوك الأول والثاني. وتجعل سفر الملوك الأول والثاني في النسخة البروتستانتية، الثالث والرابع في النسخة الكاثوليكية. انظر الجزء الأول من هذا الكتاب بعنوان «المدخل لدراسة التوراة والعهد القديم» لمعرفة التفاصيل.

«وشاخ عالي وسمع بكل ما عمله بنوه بجميع إسرائيل، وبأنهم كانوا يضاجعون النساء المجتمعات في باب خيمة الاجتماع ــ أي خيمة اجتماع الرب!! ــ فقال لهم: لماذا تعملون مثل هذه الأمور؟! لأني أسمع بأموركم الخبيثة من جميع هذا الشعب؟! ألا يا بَنِيَّ لأنه ليس حسناً الخبر الذي أسمع. . . ولم يسمعوا لصوت أبيهم لأن الربَّ شاءَ أن يميتهم. وأما الصبي صموئيل فتزايد نمواً وصلاحاً لدى الرب والناس أيضاً» (سفر صموئيل الأول ٢ : ٢٣ ــ ٢٦).

ومات حفني وفنحاس في يوم واحد عقوبة من الرب لهما وذلك في حياة عالي!! والواقع أن ابني عالي ماتا في معركة ضد الفلسطينيين، وانهزم فيها بنو إسرائيل وقتل منهم ثلاثون ألفاً. وأخذ الفلسطينيون معهم تابوت الرب وبقي معهم سبعة أشهر ثم أعادوه هم بسبب الأمراض والبواسير التي سببها لهم. وتذكر القصة بعد ذلك أن الرب دعا صموئيل ثلاث مرات، وصموئيل يظن أن الذي يناديه هو أستاذه الكاهن عالي، وعالي ينفي ذلك. ومات الكاهن وتولى صموئيل بدلاً عنه. «وعرف جميع إسرائيل من دان إلى بئر سبع أنه قد اؤتمن صموئيل نبياً للرب. وعاد الرب يتراءى في شيلوه لأن الرب استعلن لصموئيل في شيلوه». (سفر صموئيل الأول ٣ : ٢٠ ــ ٢١).

وحث صموئيل بني إسرائيل للقاء الفلسطينيين وقتالهم، فخرجوا ونزلوا عند حجر المعونة. والفلسطينيون نزلوا في أفيق. واشتبكت الحرب فانكسر إسرائيل أمام الفلسطينيين وقتل منهم أربعة آلاف مقاتل. «وقال شيوخ إسرائيل: لماذا كسرنا اليوم الربُّ أمام الفلسطينيين؟ لنأخذ لأنفسنا من شيلوه تابوت عهد الرب فيدخل في وسطنا ويخلصنا من يد أعدائنا. فأرسل الشعب إلى شيلوه وحملوا من هناك تابوت عهد رب الجنود الجالس على الكروبيم» (صموئيل الأول ٤ : ٢ ــ ٤)، وهتف الإسرائيليون هتافاً عظيماً عند وصول التابوت. وعلم الفلسطينيون أن تابوت الرب جاء «وقالوا: قد جاء اللّهُ إلى المحلة ليقاتل مع بني إسرائيل. ويل لنا من ينقذنا من يد هؤلاء الآلهة القادرين. وتشدد الفلسطينيون، وانكسر إسرائيل وهرب كل واحد إلى خيمته. وكانت الضربة عظيمة جداً. وقتل من بني إسرائيل في ذلك اليوم ثلاثين ألف رجل. وأخذ

الفلسطينيون تابوت الله معهم. . .» (سفر صموئيل الأول ٤ : ٥ ــ ١٠). وفي هذه المعركة قتل ابنا عالي الكاهن.

ورغم أن العهد القديم من أوله لآخره يذكر أن الله يجلس في التابوت ويقاتل أعداء اليهود إلاَّ أنه هذه المرة هُزم كما يزعمون، رغم جلوسه على التابوت وقتاله مع بني إسرائيل!!!

وأخذ الفلسطينيون تابوت الله معهم إلى أشدود، ولكن تابوت الله ضربهم بالأمراض، وأهمها البواسير. كما أن إلٰههم داجون سقط على وجهه عندما دخل عليه تابوت الرب الجالس على الكروبيم. (سفر صموئيل الأول ٥ : ١ ــ ١٣). وبقي تابوت الله في بلاد الفلسطينيين سبعة أشهر، ظهرت فيها الأوبئة والأمراض والبواسير والفئران؛ فخاف الفلسطينيون وأرجعوا تابوت الله إلى بني إسرائيل مع قربان الإثم، وهو خمسة بواسير من ذهب، وخمسة فئران من ذهب!! (سفر صموئيل الأول ٦ : ١ ــ ٥).

وأصعدوا التابوت على عجلة، وجعلوا بقرتين تشده. وأرسلوه إلى أهل بيت شمس ــ قرية إسرائيلية ــ وفرح أهل القرية ونظروا الله وجهاً لوجه حسب زعم العهد القديم؛ فمات منهم في ذلك اليوم خمسين ألف رجل وسبعين رجلاً، لأنهم نظروا الله وجهاً لوجه ــ خرافات وأساطير ــ.

واجتمع بنو إسرائيل وناحوا وراء الرب!! وكلمهم صموئيل قائلاً: «انزعوا الآلهة الغريبة والعشتاروت من وسطكم، وأعدّوا قلوبكم للرب واعبدوه وحده فينقذكم من الفلسطينيين».

فنزع بنو إسرائيل البعليم والعشتاروت وعبدوا الرب وحده. (سفر صموئيل الأول ٧ : ٣ ــ ٤). وقدّم صموئيل اللحم المشوي للمحرقة ــ حملاً مشوياً بتمامه ــ للرب، فتنسّم الرب رائحة المشوي فرضي على بني إسرائيل، لأن الرب كما تقرر أسفار العهد القديم يحب اللحم المشوي جداً ــ ألا لعنة الله على اليهود ــ ولذلك قام الرب بضرب الفلسطينيين وانتصر بنو إسرائيل على الفلسطينيين. والمدن التي أخذها الفلسطينيون من إسرائيل عادت إلى إسرائيل من عقرون إلى جت. وقضى صموئيل لإسرائيل طوال أيام حياته.

تعيين شاول بن قيس البنياميني ــ طالوت ــ ملكاً على بني إسرائيل :

وتتكرر قصة عالي وبنيه الفسقة مع صموئيل وبنيه :

«وكان لما شاخ صموئيل أنه جعل بنيه قضاة لإسرائيل . . . ولم يسلك ابناه في طريقه ، بل مالا وراء المكسب وأخذا رشوة وعوجا القضاء ، فاجتمع كل شيوخ إسرائيل وجاءوا إلى صموئيل إلى الرامة ، وقالوا له : هو ذا أنت قد شخت وابناك لم يسيرا في طريقك ؛ فالآن اجعل لنا ملكاً يقضي لنا كسائر الشعوب» . (سفر صموئيل الأول ٨ : ١ ــ ٦) .

وناح صموئيل حسب زعمهم كالنساء وكلَّم الرب فقال له الرب : إنهم لم يرفضوك بل إياي رفضوا حتى لا أملك عليهم ولكن الرب سيجعل لهم ملكاً يستبد بهم ، وسمع لهم صموئيل بعد تردد لأن الرب أمره بذلك . وقال لهم صموئيل : «إن الملك الذي يملك عليكم يأخذ بنيكم ويجعلهم لنفسه ولمراكبه وفرسانه . ويجعل لنفسه رؤساء ألوف ، ورؤساء خماسين ، فيحرثون أرضه ويحصدون حصاده ويعملون له عدة الحرب وأدوات مراكبه ، ويأخذ بناتكم عطارات وطباخات وخبازات ، ويأخذ حقولكم وكرومكم وزيتونكم أجودها ويعطيها لعبيده ، ويعشر زروعكم وكرومكم ويعطي لخصيانه وعبيده ، ويأخذ عبيدكم وجواريكم وشبانكم الحسان وحميركم ويستعملهم لشغله ، ويعشّر غنمكم وأنتم تكونون له عبيداً ؛ فتصرخون في ذلك اليوم من وجه ملككم الذي اخترتموه لأنفسكم فلا يستجيب الرب لكم» . (سفر صموئيل الأول ٨ : ١٠ ــ ١٩) .

ورغم كل هذه التهديدات المرعبة أبى الشعب إلاَّ أن يكون لهم ملك مثل سائر الشعوب المحيطة ببني إسرائيل . فقام صموئيل بتنصيب شاول بن قيس من بني بنيامين ملكاً عليهم . وكان شاول يتميز بطول فارع ووسامة ولم يكن في بني إسرائيل أطول منه ، وذهب شاول يبحث عن أتن أبيه الضائعة فذهب إلى النبي صموئيل ليتكهن له ويخبره أين يجد الأتن الضالة ، فلما رآه صموئيل أكرمه وأخبره أن أباه قد وجد الأتن الضالة . وأخذ صموئيل قنينة الدهن وصب على رأس شاول وقبله وأعلنه مسيحاً على الملأ ، وأخبره بعلامات وأحداث تحدث له عند خروجه من عند صموئيل :

- **أولاها** : أنه يصادف رجلين يخبراه بأن أتن أبيه قد وجدت .

● **وثانيها**: أنه يصادف ثلاثة رجال ومعهم قرابين وخبز وخمر فيعطونه رغيف خبز.

● **وثالثها**: أنه يجد مجموعة من المتنبئين ــ يسمونهم الأنبياء في العهد القديم ــ ومعهم الرباب والدف والعود يرقصون ويغنون ويتنبأون، فيدخل شاول معهم ويتنبأ مثلما يتنبأون.

وأخبره صموئيل قائلاً: «إذا أتت هذه الآيات عليك فأفعل ما وجدته يدك لأن الله معك. وتنزل إلى الجلجال وهوذا أنا أصعد محرقات وأذبح ذبائح سلامة. سبعة أيام تلبث حتى آتي وأعلمك ماذا تفعل» (سفر صموئيل الأول ١٠ : ٧ ــ ٨).

وتنبأ شاول بين الأنبياء حتى قال الشعب: «أشاول أيضاً بين الأنبياء؟» وذهبت مثلاً. وأعلن صموئيل للشعب أن يجتمعوا. فكان شاول أطول من جميع الشعب. فقال صموئيل: أرأيتم الذي اختاره الرب. إنه ليس مثله في جميع الشعب. فهتف كل الشعب وقالوا: ليحيا الملك. وفرح الشعب بتعيين شاول ملكاً، ما عدا بني بليعال، حيث احتقروا شاول وقالوا: كيف يخلّصنا هذا؟! (سفر صموئيل الأول ١٠ : ١٧ ــ ٢٦).

وتم تعيين شاول ملكاً في الجلجال . وقام صموئيل بتذكير بني إسرائيل بنعم الله عليهم المتعددة منذ أن أخرجهم من مصر وأنقذهم من فرعون، وكيف عبدوا العجل ثم عشتاروت وملكوم والبعليم، وكيف أن الله عاقبهم فأذلهم بيد الفلسطينيين والموآبيين، ثم كيف أنقذهم من يد سيسرا قائد الفلسطينيين، ثم كيف عادوا لعبادة الأوثان، وها هو الآن قد جعل لهم شاول ملكاً.

ثم قام شاول بجمع أسباط بني إسرائيل وعشائرهم، وتوجه بهم لحرب الفلسطينيين؛ فخرج الفلسطينيون كما تزعم التوراة (سفر صموئيل الأول ١٣ : ٥ ــ ٨) بثلاثين ألف مركبة وستة آلاف فارس وشعب كالرمل الذي على شاطىء البحر من الكثرة، فاختبأ بنو إسرائيل كعادتهم في المغاير والغياض والصخور والصروح والآبار. وبعض العبرانيين عبروا الأردن فراراً من الفلسطينيين إلى أرض جاد وجلعاد. وارتعد شاول وكل الشعب وراءه خوفاً وفرقاً من الفلسطينيين!!.

وكان صموئيل قد واعد شاول بأن يأتيه بعد سبعة أيام. فلما لم يأت قام شاول بتقديم المحرقات في الموعد، وأصعدها إلى الرب. لأن ميعاد تقديم اللحم المشوي قد جاء والرب مشتاق جداً لرائحة المشوي!!! وعندما جاء صموئيل وعلم أن شاول قدم المحرقات؛ غضب وقال له: «وأما الآن فمملكتك لا تدوم. قد انتخب الرب لنفسه رجلاً حسب قلبه وأمره أن يترأس على شعبه». وذلك لأن الرب لا يحب أن يأكل اللحم المشوي إلاَّ على يد صموئيل النبي. ومن عادته أن لا يأكل اللحم المشوي إلاَّ مع الأنبياء والكهنة!! ــ لعنة الله على اليهود ــ.

وخرج الفلسطينيون وضربوا بني إسرائيل. ولم يوجد في ذلك الزمان «صانع في كل أرض إسرائيل.. وكان في يوم الحرب أنه لم يوجد سيف ولا رمح بيد جميع الشعب، ما عدا شاول وابنه يوناثان» (سفر صموئيل الأول ١٣: ١٦ ــ ٢٣) وهو تناقض صارخ مع ما ذكر من قبل من استعداد بني إسرائيل وخروجهم لحرب الفلسطينيين وهو نوع من الاعتذار لجبن بني إسرائيل وفرقهم وخوفهم وهلعهم ودخولهم الجحور..

ثم قام يوناثان بالهجوم على الفلسطينيين وانتصر عليهم، فخرج بنو إسرائيل من المخابىء والمغارات للهجوم على الفلسطينيين المنهزمين.

وبدأت انتصارات شاول تتوالى، وانتصر على بني موآب، وبني عمّون وأدوم والفلسطينيين. وقال صموئيل لشاول: «إياي أرسل الرب لمسحك ــ أي جعلك مسيحاً ــ ملكاً على شعبه إسرائيل. والآن فاسمع صوت كلام الرب. هكذا يقول ربّ الجنود. إني افتقدت ما عمل عماليق بإسرائيل حين وقف له في الطريق عند صعوده من مصر. **فالآن اذهب واضرب عماليق وحرّموا كل مالهُ ولا تعفُ عنهم بل اقتل رجلاً وامرأة، طفلاً ورضيعاً. بقراً وغنماً حملاً وحماراً.** فاستحضر شاول الشعب وعدَّهُ في طلايم مئتي ألف راجل وعشرة آلاف رجل من يهوذا». (سفر صموئيل الأول ١٥: ١ ــ ٤).

وهو تناقض من صموئيل النبي حيث أعلن قبل فترة غضب الرب على شاول ثم عاد فأعلن تأييده له. وطلب منه كما هو معتاد من التوراة المحرَّفة أن يقوم بحرب إبادة ــ جينو سايد ــ لكل الأعداء بما في ذلك الأطفال الرضع والحيوانات من البقر والغنم والحمير.

وقام شاول بقتل العماليق كما أمر الرب إلّه إسرائيل وحرم جميع الشعب بحد السيف ولكنه عفا عن ملك العماليق أجاج. وأخذ خيار الغنم والبقر والخراف، ولم يحرّمها بحد السيف، بل أخذها غنيمة. وغضب الرب من شاول لأنه لم يقم بحرب إبادة تامة كما طلب!! وقال الرب كما تزعم التوراة المحرَّفة (سفر صموئيل الأول ١٥ : ١٠). لصموئيل: «**نَدِمتُ على أني قد جعلت شاول ملكاً لأنه رجع من ورائي ولم يقم كلامي**» . .

والغريب حقاً أن يهوه ــ إلّه إسرائيل ــ سريع الغضب شديد الحقد على البشرية، ومع هذا فهو كثير الندم. وترى العهد القديم من أوله لآخره مشحوناً بهذه الصفات المرذولة. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وأعلن صموئيل لشاول أن الربَّ سيمزق مملكته، وأنه سيعطي المملكة لشخص آخر. وقام الرب وقال لصموئيل: اذهب إلى يسيّ البيتلحمي ــ من بيت لحم ــ لأني قد رأيتُ في بنيه ملكاً. وجاء الشاب الصغير داود بن يسي الذي كان يرعى الغنم، فلما رآه صموئيل قام بمسحه ملكاً حسب أمر الرب!!

وأصيب شاول بروح رديء من قبل الربّ. وقام داود بضرب العود ليسرّي عنه، فسرَّ بذلك شاول.

ظهور داوود وقتال جليات ــ جالوت ــ:

وجمع الفلسطينيون جيوشهم لمحاربة بني إسرائيل الذين كانوا يقومون بغارات متعددة على أراضيهم فيهلكون الحرث والنسل، وخرج رجل مبارز من جيوش الفلسطينيين اسمه جليات ــ جالوت ــ وكان عظيم الجسم شجاعاً، وتحدى بني إسرائيل طالباً المبارزة، وهزأ ببني إسرائيل وعيّرهم. ولكن كما تقول التوراة (سفر صموئيل الأول ١٧ : ١١): «لما سمع شاول وجميع إسرائيل كلام الفلسطيني هذا ارتاعوا وخافوا جداً».

«وكان الفلسطيني يتقدم ويقف صباحاً ومساءً أربعين يوماً متحدياً طالباً المبارزة.. وجميع رجال إسرائيل لما رأوا الرجل هربوا منه وخافوا جداً» (صموئيل الأول ١٧ : ١٦ ــ ٢٤).

وقام داوود الشاب الصغير عندما رأى ما فعله جليات بالإسرائيليين بالتقدم للملك شاول طالباً منه أن يسمح له بمبارزة جليات. ومانع شاول في ذلك لأن داوود غلام حدث، وجليات متمرس بالحرب منذ صباه. ولكن داوود أصرّ على ذلك وقال لشاول إنه قتل أسداً ودباً عندما كان يرعى الغنم. . ووافق شاول على مضض. وقام بإلباس داوود عدة الحرب. ولكن داوود الراعي لم يستطع أن يمشي بهذه العدة الثقيلة، فتركها وأخذ مقلاعه وخرج للقاء جليات. فلما رآه جليات استصغره ولكن داوود تحداه، ورمى داوود الحجر من مقلاعه فأصابت جبهة جليات؛ فخر على أثرها صريعاً، وذهب داوود وأخذ السيف من جليات واحتز رأسه. وانهزم الفلسطينيون عندما رأوا جليات يسقط صريعاً بالحجر. . وهكذا حقق داوود المعجزة بقتله جليات.

والغريب حقاً أن شاول سأل بعد المعركة قائد الجيش من يكون هذا الغلام؟ ثم سأل داوود عن اسمه واسم أبيه، مع أن داوود قد تعرف على شاول من قبل كما تذكر التوراة، وضرب له بالعود وسرَّ به شاول، وكذلك تقدم إليه قبل المعركة ودار بينهما حوار طويل!!!.

وهذه التناقضات في التوراة المحرَّفة متكررة بشكل يسبب الضجر والضيق لشارحيها مما جعلهم يؤكدون أن مؤلفي الأسفار عدد جم غفير من الأحبار، وأن هذه الأسفار كتبت في أزمنة مختلفة، ولم تنسق تنسيقاً إلى اليوم.

وأحب يوناثان بن شاول داوود حباً شديداً منذ اللحظة التي تقدم فيها شاول لقتال جليات.

وأصبح داوود بطلاً قومياً لدى بني إسرائيل، وخرجت النساء يضربن بالدفوف ويغنين الأهازيج عندما قدم شاول برأس جليات إلى أورشليم. وحيثما ذهب داوود وجد الترحاب والأهازيج.

شاول يحقد على داوود:

وغضب شاول غضباً شديداً عندما رأى أن الشعب قد أحب داوود حباً شديداً. «وكان في الغد أن الروح الرديء من قبل الله اقتحم شاول وجُنَّ في وسط البيت. وكان داوود يضرب بيده. وكان الرمح بيد شاول فأشرع شاول الرمح وقال: أضرب داوود

حتى إلى الحائط. فتحول داوود من أمامه مرتين». وهكذا باءت محاولة شاول باغتيال داوود بالفشل. «ولما رأى شاول أن داوود مفلحٌ جداً فزع منه. وكان جميع إسرائيل ويهوذا يحبون داوود لأنه كان يدخل ويخرج أمامهم» (سفر صموئيل الأول ١٨: ١ ــ ١٦).

ولم يجد شاول طريقاً أخرى لضمان ولاء داوود سوى الحيلة. فعرض عليه أن يزوجه ابنته ميراب، مع أنها قد أعطيت من قبل لعدرئييل المحولي. وعرف شاول أن ابنته الصغرى ميكال أحبت داوود، فعرضها على داوود واتفقا على أن يكون المهر مائة غلفة من الفلسطينيين ــ أي إن على داوود أن يقتل مائة من الفلسطينيين، ويَجُبَّ مذاكيرهم ويأتي بها مهراً لنكاح ميكال بنت شاول ــ وقام داوود وأتى بمائتي غلفة بدلاً من المئة. ويا لها من صورة قبيحة مزرية حيث يكون مهر الفتاة مائتي قضيب!!.

وعاد شاول يخاف داوود بعد أن توالت انتصاراته. وحاول شاول مرة أخرى أن يقتل داوود بالرمح، ففر داوود منه ونجا تلك الليلة. وأرسل شاول رسلاً إلى بيت داوود ليراقبوه ويقتلوه في الصباح عند خروجه من الدار. فأخبرت ميكال داوود وساعدته على الهرب ليلاً من كوة في الدار.

وذهب داوود إلى صموئيل في الرامة وأخبره بما فعل به شاول. وعلم شاول بذلك فأرسل جنوده إلى الرامة، فلما وصل الجنود وجدوا مجموعة يتنبأون فتنبأوا معهم. وتحولوا إلى أنبياء!! فأرسل شاول جنوداً غيرهم فتحولوا كذلك إلى أنبياء، ثم أرسل ثالثة فتحولوا أيضاً إلى أنبياء. وجاء شاول بنفسه فحلت عليه روح الله وتعرى من ثيابه تماماً!! وتنبأ كما فعل جنوده من قبل. ولا بد في عرف التوراة أن يكون الأنبياء مجانين أو مجاذيب يتعرون من ثيابهم تماماً.

«لذلك يقولون إن شاول أيضاً بين الأنبياء» وذهبت مثلاً (سفر صموئيل الأول ١٩: ١ ــ ٢٣). واستمر شاول في محاولاته اليائسة لقتل داوود، ووقف يوناثان ابن شاول ضد أبيه في صف داوود، وتوسط يوناثان لداوود، ولكن وساطته لم تفلح. وفرَّ داوود إلى الملك أخيش ملك جت. ولكن عبيد الملك أخبروه بما فعل داوود بالفلسطينيين؛ فتوجس الملك منه شراً. وأحس داوود بذلك فتظاهر بالجنون وأخذ

يخربش على مصاريع الباب. ويسيّل ريقه على لحيته، فلما رآه الملك كذلك قال: أطلقوه فلا حاجة بي إلى المجانين. (سفر صموئيل الأول الإصحاح ٢١) ــ الغاية تبرر الوسيلة. . والخداع والكذب هي أهم صفات بني إسرائيل. ولذلك وصموا بها أنبياءهم ــ وكوّن داوود عصابة لقطع الطريق. واجتمع معه أربعمائة رجل، وسمع شاول بذلك وزاد حنقه وغيظه على داوود.

وتوسط أخيمالك الكاهن لدى شاول لكي يرضى عن داوود. وغضب شاول جداً؛ فأمر جنوده بقتل جميع الكهنة الذين جاءوا مع أخيمالك. فرفض الجنود ذلك. فقال الملك لقائده الأدومي ــ دواغ ــ قم واقتل جميع الكهنة فقام دواغ وقتل ٨٥ كاهناً مع أولادهم وماشيتهم بحد السيف». (سفر صموئيل الأول، الإصحاح ٢٢).

وسار شاول إلى قعيلة عندما سمع أن داوود دخلها. ولكن داوود علم بمقدم شاول ففر منه إلى برية زيف.

داوود يعفو عن شاول بعد أن وقع تحت يده:

وسار شاول وراءه ودخل إلى أحد الكهوف ليرتاح، فما كاد شاول ينام إلّا وكان داوود ورجاله محيطين به. واقترح الرجال على داوود أن يقتل شاول، فأبى داوود قائلاً: «حاشا لي من قبل الرب أن أعمل هذا الأمر بسيدي مسيح الرب، فأمد يدي إليه لأنه مسيح الرب هو». (سفر صموئيل الأول ٢٤). ولما أفاق شاول سجد له داوود وعاتبه فبكى شاول وعانق داوود ثم افترقا.

وقام داوود بطلب مواشي من أحد الأثرياء ويدعى نابالم، ورفض الثري ذلك. فقرر داوود أن يغير عليه بجنوده ويقتله وجميع أسرته وأن يأخذ جميع ماله غنيمة. ولكن زوجة الرجل علمت بذلك فأخذت خبزاً وخرفاناً وعنباً وتقدمت إلى داوود وسجدت له، وطلبت منه أن يعفو عن زوجها الأحمق.

وعفا داوود عن زوجها الأحمق الذي رفض أن يعطيه من غنمه. لأن داوود كان يعمل قاطعاً للطريق. . ــ هكذا تزعم التوراة المحرَّفة ــ.

ومع هذا فقد قام الرب بالانتقام من نابالم الذي لم يصنع شراً لداوود فقتله الله جزاء رفضه إعطاء داوود الغنم.

ولما مات الرجل أخذ داوود زوجة أبيجايل زوجة له. وأخذ زوجة أخرى. وغضبت ميكال وذهبت إلى أبيها، فزوجها لرجل آخر يدعى فلطي بن لايش. فغضب لذلك داوود، ولكنه عفا مرة أخرى عن شاول عندما وقع شاول في يده. لأن شاول مسيح الرب!!

داوود يعبر إلى أرض الفلسطينيين فراراً من شاول والفلسطينيون يكرمون داوود رغم جرائمه ضدهم:

تزعم التوراة المحرَّفة أن داوود ذهب إلى الفلسطينيين فراراً من شاول (سفر صموئيل الأول، الإصحاح ٢٧) وأقام داوود عند أخيش بن معوك ملك جت الذي أكرم داوود رغم جرائمه السابقة ضد الفلسطينيين، وتقديمه مهر زوجته السابقة ميكال مائتي غلفة من الفلسطينيين ــ أي إن داوود قتل مائتي فلسطيني وجَبَّ مذاكيرهم وأخذ الغلف لأن الفلسطينيين غير مختونين ــ وأكرمه أخيش وأعطاه أرض صقلغ. فما كان من داوود حسب زعم التوراة المحرَّفة إلَّا أن قام بغارات وحرب إبادة ضد الفلسطينيين.. «وضرب داوود الأرض ولم يُبْقِ رجلاً ولا امرأة وأخذ غنماً وبقراً وحميراً وجمالاً وثياباً» ثم ذهب داوود إلى أخيش وكذب عليه وقال له: إنه غزا اليهود وهو إنما غزا بعض قرى الفلسطينيين والعمالقة. ولم يبق داوود رجلاً ولا امرأة حتى لا يخبروا ملك جتّ بما أجرمت يداه. «وهكذا عادته كل أيام إقامته في فلسطين. فصدّق أخيش داوود قائلاً: قد صار مكروهاً لدى شعبه إسرائيل فيكون لي عبداً إلى الأبد». (سفر صموئيل الأول، الإصحاح ٢٧).. ــ الغريب أن داوود قد تظاهر قبل فترة بالجنون أمام أخيش ملك جتّ وصدّقه أخيش.. ثم عاد داوود ولجأ إليه فأكرمه أخيش وجعله من خاصة فرسانه.. وصدقه في كل ما يقول وداوود يخادعه ويكذب عليه ــ.

وهكذا تصف التوراة المحرَّفة داوود بأنه كذاب أشر وأنه مخادع لئيم جبان، وأنه إذا قدر يكون جباراً يهلك الحرث والنسل ويقتل الطفل الرضيع مع الشيخ الفاني. ويبيد من في القرى من رجل وامرأة..

ولا ترى داوود في التوراة المحرَّفة ومثله موسى ويوشع بن نون من قبل

إلاّ مجرمي حرب سفاكين رؤساء عصابات قتلة وخونة وكذبة وفجرة. وهي هي صفات يهود ألصقوها بالأنبياء كذباً وبهتاناً حتى يسوغوا لأنفسهم ارتكاب جميع الجرائم والموبقات.

شاول يواجه موقفاً عصيباً ويستعين بالجان وروح صموئيل توبخه وتقرعه:

وتجمع الفلسطينيون في جيش لجب لمحاربة شاول، وخرج داوود مع الملك أخيش مظهراً الولاء مبطناً الغدر كعادته وحسب وصف التوراة المحرَّفة الكاذبة.

«ولما رأى شاول جيش الفلسطينيين خاف واضطرب قلبه جداً كعادة اليهود في كل معركة. فسأل شاول الرب فلم يجبه الرب لا بالأحلام ولا بالأنبياء. وذهب شاول متنكراً إلى امرأة صاحبة جان وطلب منها أن تحضر روح صموئيل «فلما رأت المرأة صموئيل صرخت بصوت عظيم وقالت لشاول: لماذا خدعتني وأنت شاول؟ فقال لها: لا تخافي ماذا رأيت؟ فقالت المرأة: **رأيت آلهة يصعدون** من الأرض. فقال لها: ما هي صورته؟ فقالت: رجل شيخ صاعد وهو مغطى بجبة. فعلم شاول أنه صموئيل. فخر على وجهه إلى الأرض وسجد» وهذه هي عادة يهود يجمعون الأساطير والأكاذيب ويعبدون الجان والأرواح والتماثيل والآلهة العديدة. ومع هذا يزعمون أنهم موحدون، وأنهم شعب الله المختار، وابنه البكر الذي لم يخلق العالم بأكمله إلاّ من أجل خدمتهم.

وتكلم صموئيل وعنّفَ شاول على إصعاده من قبره، وأخبره أن الرب قد فارقه وأنه أخذ المملكة من يده وأعطاها لداوود، وأخبره بأنه يهزم أمام الفلسطينيين. فخاف شاول جداً من كلام صموئيل، ولم يأكل طعاماً من شدة خوفه وروعه (سفر صموئيل الأول: الإصحاح ٢٨).

نهاية شاول منتحراً:

وحارب الفلسطينيون إسرائيل فهزموا اليهود شر هزيمة. واشتدت الحرب على شاول فأصابه الرماة بجرح، فارتاع شاول وقال لحامل سلاحه: استل سيفك واطعنّي به لئلا يأتي هؤلاء الغلف ويطعنوني ويقبّحوني، فلم يشأ حامل سلاحه أن يقتله. فأخذ

شاول السيف وسقط عليه. ومات منتحراً. وقام حامل سلاحه أيضاً بقتل نفسه. وقتل في الحرب بنو شاول الثلاثة. وانتهت الهزيمة بفرار بني إسرائيل من مدنهم وجاء الفلسطينيون فسكنوها. (سفر صموئيل، الإصحاح ٣١).

وهكذا تنتهي قصة شاول مسيح الرب نهاية بائسة بعد أن عاش حياة كلها حقد وغيرة من داوود بن يسيّ.

وسنرى الفرق الشاسع والبون الهائل في قصة طالوت ــ شاول ــ التي ترد في بضع آيات في سورة البقرة حيث نرى صورة وضيئة لرجل آتاه الله بسطة في العلم والجسم.. وهو على نقيض صفاته الحقيرة الموصوف بها في التوراة المحرَّفة. وأما قصة داوود في القرآن فهي قصة نبي كريم تسبح معه الجبال والطير. وتختلف تمام الاختلاف عن الصورة القذرة الوقحة التي ترسمها التوراة المحرَّفة لنبي من أنبياء الله صلواته وسلامه عليهم أجمعين.

قصة ــ شاول ــ طالوت في القرآن الكريم:

قال تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا
مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ
قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ
عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ
إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ
بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً
فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ
لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ
وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً
لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ
بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ

ولكن القوم قالوا بصوت واحد: ﴿وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله. وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا؟﴾ كل مسوغات القتال موجودة. أعداؤنا كفرة، معتدون ظالمون، قد أخرجونا من ديارنا وأخذوا أبناءنا عبيداً لهم فكيف لا نقاتلهم؟!

وتعقب الآية الكريمة سريعاً: ﴿فلما كُتبَ عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم. والله عليم بالظالمين﴾.

هي هي طبيعة يهود الخوارة الجبانة الناقضة للعهد الناكثة للمواثيق منذ أن جاءهم موسى وأنجاهم من ظلم فرعون واستعباده لهم. ثم عادوا القهقرى وطلبوا من موسى أن يجعل لهم آلهة يعبدونها من دون الله، ثم عبدوا العجل عند ذهاب موسى للقاء ربه، ثم رفضوا أن يلتزموا بما في التوراة الصحيحة الحقة التي أنزلها الله على موسى؛ فرفع الله الجبل فوقهم كأنه ظلة، فعاهدوا الله على الالتزام بها ولكن سرعان ما نقضوا عهدهم. وقالوا لموسى أرنا الله جهرة، وآذوا كوسى فبرأه الله مما قالوا، وقتلوا الأنبياء وافتروا عليهم الأكاذيب. وما يسمى العهد القديم من أوله لآخره مفتريات وأكاذيب وأباطيل صوروا الله فيها بصور حقيرة قبيحة، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. وجعلوا الأنبياء عليهم خونة سرقة كذبة قتلة زناة مدمني خمر لصوصاً وقطاع طرق.

فمن أظلم في الدنيا من يهودا!! ومن أفجر منهم!! ومن هو ناقض للعهد مثلهم؟!. والغريب حقاً أن يأتي من ذراري المسلمين قوم يدعون إلى موالاة يهود وعقد معاهدة سلام وصداقة معهم!!

* * *

من هو النبي الذي تحدثت عنه هذه الآيات؟

لم يرد في القرآن الكريم ولا في السنة المطهرة اسم هذا النبي الذي أصلح عقيدة بني إسرائيل، والذي طلبوا منه أن يختار لهم ملكاً. ولكن المفسرين لم يسكتوا عن اسمه كما سكت القرآن الكريم بل حاولوا معرفته مما ورد عند أهل الكتاب.

قال ابن كثير في تفسيره: «قال وهب بن منبه ــ وهو أحد أحبار اليهود الذين أسلموا في عصر الصحابة ــ وغيره: كان بنو إسرائيل بعد موسى عليه السلام على

طريق الاستقامة مدة من الزمان ثم أحدثوا الأحداث وعبد بعضهم الأصنام. ولم يزل بين أظهرهم من الأنبياء من يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويقيمهم على منهج التوراة إلى أن فعلوا ما فعلوا؛ فسلط الله عليهم أعداءهم فقتلوا منهم مقتلة عظيمة وأسروا خلقاً كثيراً وأخذوا منهم بلاداً كثيرة، ولم يكن أحد يقاتلهم إلاّ غلبوه. وذلك أنه كانت عندهم التوراة والتابوت الذي كان في قديم الزمان. وكان ذلك موروثاً لخلفهم عن سلفهم إلى موسى الكليم عليه الصلاة والسلام. فلم يزل بهم تماديهم على الضلال حتى استلبه منهم بعض الملوك في بعض الحروب. وأخذ التوراة من أيديهم ولم يبقَ من يحفظها فيهم إلاّ القليل وانقطعت النبوة من أسباطهم. ولم يبقَ من سبط لاوي الذي يكون فيه الأنبياء إلاّ امرأة حاملاً من بعلها وقد قتل، فأخذوها وحبسوها في بيت واحتفظوا بها لعل الله يرزقها غلاماً يكون نبياً لهم. ولم تزل المرأة تدعو الله عز وجل أن يرزقها غلاماً فسمع الله لها ووهبها غلاماً فسمته شمويل ـ صموئيل ـ أي سمع الله دعائي. فشب ذلك الغلام ونشأ فيهم وأنبته الله نباتاً حسناً. فلما بلغ سنّ الأنبياء أوحى الله إليه وأمره بالدعوة إليه وتوحيده فدعا بني إسرائيل فطلبوا منه أن يقيم لهم ملكاً يقاتلون معه أعداءهم. وكان المُلكُ أيضاً قد باد فيهم. فقال لهم النبي: فهل عسيتم إن أقام الله لكم ملكاً ألا تقاتلوا ولا تفوا بما التزمتم من القتال معه ﴿قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا﴾ أي وقد أخذت منا البلاد وسبيت الأولاد. قال الله تعالى: ﴿فلما كتب عليهم القتال تولوا إلاّ قليلاً منهم والله عليم بالظالمين﴾ أي ما وفوا بما وعدوا بل نكل عن الجهاد أكثرهم والله أعلم». (تفسير ابن كثير ١ / ٣٠٠).

وهذه الصورة التي رسمها وهب بن منبه وغيره من أحبار يهودا الذين أسلموا والتي ينقلها عنهم المفسرون قريبة جداً في أصولها لما هو موجود في التوراة (سفر صموئيل الأول) مع اختلاف في التفاصيل.

وذكر أهل التفسير أقوالاً أخرى نجملها فيما يلي:

(١) **قال قتادة**[١]: هو يوشع بن نون. وقد رد هذا القول ابن كثير قائلاً: وهذا

---

(١) هذا القول وما بعده من الأقوال، نقلها عن «تفسير ابن كثير» ١ / ٣٠٠، طبعة البابي الحلبي، القاهرة.

طريق الاستقامة مدة من الزمان ثم أحدثوا الأحداث وعبد بعضهم الأصنام. ولم يزل بين أظهرهم من الأنبياء من يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويقيمهم على منهج التوراة إلى أن فعلوا ما فعلوا؛ فسلط الله عليهم أعداءهم فقتلوا منهم مقتلة عظيمة وأسروا خلقاً كثيراً وأخذوا منهم بلاداً كثيرة، ولم يكن أحد يقاتلهم إلَّا غلبوه. وذلك أنه كانت عندهم التوراة والتابوت الذي كان في قديم الزمان. وكان ذلك موروثاً لخلفهم عن سلفهم إلى موسى الكليم عليه الصلاة والسلام. فلم يزل بهم تماديهم على الضلال حتى استلبه منهم بعض الملوك في بعض الحروب. وأخذ التوراة من أيديهم ولم يبقَ من يحفظها فيهم إلَّا القليل وانقطعت النبوة من أسباطهم. ولم يبقَ من سبط لاوي الذي يكون فيه الأنبياء إلَّا امرأة حاملاً من بعلها وقد قتل، فأخذوها وحبسوها في بيت واحتفظوا بها لعل الله يرزقها غلاماً يكون نبياً لهم. ولم تزل المرأة تدعو الله عز وجل أن يرزقها غلاماً فسمع الله لها ووهبها غلاماً فسمته شمويل ـ صموئيل ـ أي سمع الله دعائي. فشب ذلك الغلام ونشأ فيهم وأنبته الله نباتاً حسناً. فلما بلغ سنّ الأنبياء أوحى الله إليه وأمره بالدعوة إليه وتوحيده فدعا بني إسرائيل فطلبوا منه أن يقيم لهم ملكاً يقاتلون معه أعداءهم. وكان المُلكُ أيضاً قد باد فيهم. فقال لهم النبي: فهل عسيتم إن أقام الله لكم ملكاً ألا تقاتلوا ولا تفوا بما التزمتم من القتال معه ﴿قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا﴾ أي وقد أخذت منا البلاد وسبيت الأولاد. قال الله تعالى: ﴿فلما كتب عليهم القتال تولوا إلَّا قليلاً منهم والله عليم بالظالمين﴾ أي ما وفوا بما وعدوا بل نكل عن الجهاد أكثرهم والله أعلم». (تفسير ابن كثير ١/٣٠٠).

وهذه الصورة التي رسمها وهب بن منبه وغيره من أحبار يهودا الذين أسلموا والتي ينقلها عنهم المفسرون قريبة جداً في أصولها لما هو موجود في التوراة (سفر صموئيل الأول) مع اختلاف في التفاصيل.

وذكر أهل التفسير أقوالاً أخرى نجملها فيما يلي:

(١) **قال قتادة**[1]: هو يوشع بن نون. وقد رد هذا القول ابن كثير قائلاً: وهذا

---

(١) هذا القول وما بعده من الأقوال، نقلها عن «تفسير ابن كثير» ١/٣٠٠، طبعة البابي الحلبي، القاهرة.

القول بعيد لأن هذا كان بعد موسى بدهر طويل وكان ذلك في زمن داوود عليه السلام كما هو مصرح به في القصة ــ أي التي أوردها القرآن الكريم ــ وقد كان بين داوود وموسى ما ينيف عن ألف عام. ــ يذكر أهل التاريخ من المحدثين أن بينهما مائتي عام فقط. فالخروج من مصر حدث في حدود سنة ١٢٣٠ قبل الميلاد واعتلاء داوود العرش كان في سنة ١٠١٠ قبل الميلاد ــ.

(٢) **قال السدي**: هو شمعون. ولم يعقب ابن كثير على هذا القول.

(٣) **قال مجاهد**: هو شمويل ــ أي صموئيل ــ عليه السلام، وكذا قال محمد بن إسحاق عن وهب بن منبه ــ وهو من أحبار اليهود الذين أسلموا في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ــ.

ولمَّا طلب بنو إسرائيل من نبيهم أن يبعث لهم ملكاً يقاتلون تحت رايته أخبرهم صموئيل النبي: أن الله قد بعث لهم طالوت ملكاً. وهنا تعالت صيحات علية القوم. من هو طالوت هذا الذي يكون ملكاً علينا؟! إنه ليس من سبط يهوذا بل هو من سبط بنيامين. ولا أحد من آبائه تولى الملك. وهو مع هذا فقير. وبنو إسرائيل لا يعبدون شيئاً كعبادتهم المال والذهب. فكان الرد من النبي الكريم: ﴿إن الله اصطفاه﴾ لم أختره أنا بحسب هواي ورغبتي ولكن الله هو الذي استجاب دعوتكم بأن يكون لكم ملك، فاصطفاه واختاره ليكون لكم ملكاً. والله يصطفي من خلقه من يشاء لما يشاء فلا حجر على ملكه ولا اعتراض على تصرفه وكان الأولى بكم أن تقولوا سمعنا وأطعنا لا أن تعترضوا. فقد كثرت اعتراضاتكم وسوء أدبكم يا بني إسرائيل مع الله الذي أكرمكم واستجاب دعاءكم. ومع هذا كله فطالوت ــ شاول ــ أحق بالملك منكم لأن الله زاده بسطة في العلم والجسم. وهما من أهم المتطلبات للقيادة السياسية الحكيمة التي تمر في ظروف قاهرة وأليمة. وخاصة مع قوم مثل بني إسرائيل يحتاجون إلى قيادة قوية وعزيمة لا تلين، مع علم موفور بطبائع النفوس ومجريات الأحداث ومعرفة بخبايا نفوس بني إسرائيل الخوارة الجبانة، التي ترتعب من أول مواجهة وتنكص عند أول معركة. ومع هذا فهي سليطة اللسان كثيرة الاعتراض.

وأضاف النبي ــ صموئيل ــ علامة أخرى يستحق بها المُلْكَ عليهم: أن يأتيهم

التابوت فيه سكينة من الله لبني إسـرائيل وبقيـة مما تـرك آل موسى وآل هـارون، تحمله المـلائكة. وتحققت الآيـة العجيبة وجـاءت الملائكـة بالتـابـوت ووضعتـه أمـام شـاول ــ طالوت ــ وهم ينظرون حيث رأوا التابوت يطير في الهواء حتى وقـع أمام طالوت.

وفي التابوت بقية الألواح التي كانت مـع موسى عليـه السلام وعصـاه أو جزء من عصاه وبعض ثيابه وبعض ثياب هارون عليهما السلام.

مقارنة لصفات شاول في القرآن والتوراة:

والآية الكريمة تختلف اختلافاً تاماً عما ورد في سفر صموئيـل من العهد القـديم ــ التـوراة المحرَّفـة ــ من قصة صمـوئيل وأخـذ الفلسطينيين للتـابوت معهم إلى أشدود وإصابتهم بالأمراض والأوجاع، وتحطم صنمهم الأكبر عندما أدخلوا التابوت عليـه. ثم خـوفهم من التابـوت وإطلاقهم لـه على عجل تجـرها بقـرتين مـع قـرابين من الـذهب ــ بواسير وفئران من الذهب لأن بني إسرائيل وإلههم يحبـون الذهب كمـا تزعم التـوراة المحـرَّفة ــ. ووصـل التابـوت إلى قريـة بيت شمس الإسرائيليـة وفرح أهـل القـريـة بالتابوت. ولكن الله عاقبهم على ذلـك فأمـات منهم خمسين ألف رجل وسبعين رجـلاً لأنهم نظروا الله وجهاً لوجه ــ تزعم التوراة المحرَّفة أن الله جالس في التابوت مقيم فيه لا يخرج منه إلَّا لضرورة ملجئة».

كما تختلف الآية الكـريمة في معـرض تنصيب طالـوت ــ شاول ــ ملكـاً. حيث تـزعم التوراة المحـرَّفة ــ سفـر صموئيـل الأول ــ أن جميـع بني إسرائيـل سـروا جـداً بتنصيب طـالـوت ــ شـاول ــ ملكـاً مـا عـدا بني بليعـال (سفـر صمـوئيـل الأول ١٠: ١٧ ــ ٢٦)، كما تزعم التوراة المحرَّفة أيضاً أن شاول تنبأ مـع الأنبياء قبل مسحـه ملكاً ومسيحاً للرب. كما يزعم سفر صموئيـل أن هناك العـديد من الأنبيـاء في زمنه وأن هؤلاء الأنبيـاء يخلعون ثيـابهم ويتعرون أمـام الشعب ويرقصـون ويشربـون الخمـر وأن شاول نفسه تنبأ معهم مرتين وخلـع ثيـابه وتعـرى تمامـاً مثلهم ــ مجموعـة من الأفاكين أو المجاذيب ــ.

وبينمـا نرى شـاول ــ طالـوت ــ جبانـاً رعـديـداً أحمق سفيهـاً تـافهـاً في سفـر

صموئيل، نرى صورته تختلف في القرآن الكريم حيث نرى صورة قائد محنك آتاه الله بسطة في العلم والجسم وشجاعة فائقة نادرة.

ويبدأ شاول ــ طالوت ــ بامتحان جنده من بني إسرائيل لأنه يعلم أن المعركة مع العَدو ينبغي أولاً أن تسبقها معركة مع النفوس الضعيفة والضمائر الملتوية والطبائع الجبانة الرعديدة، وأن تسبقها شحنات قوية من الإيمان والصبر والتقوى وخشية الله بحيث تسيطر على النفوس فلا تبقي من خشية البشر شيئاً.

وما يكاد طالوت ــ شاول ــ يخرج بالجيش اللجب من بني إسرائيل إلاّ ويقوم باختبارهم ليعرف مدى تحملهم وصبرهم على المشاق ﴿فلما فصل طالوت بالجنود قال: إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني. ومن لم يطعمه فإنه مني إلاّ من اغترف غرفة بيده﴾. يخرج شاول ليعبر نهر الأردن الذي كان يعرف باسم نهر الشريعة ــ قال ابن عباس وغيره: وهو نهر بين الأردن وفلسطين ــ ويعقب على ذلك ابن كثير في تفسيره: «يعني نهر الشريعة المشهور» ويمتحن صبر القوم الذين عرف طبائعهم الخوارة، «لا تشربوا من هذا النهر» ووصل الجنود وبهم من العطش ما بهم فما كادوا يرون النهر حتى أقعوا كما تقعي الكلاب وشربوا منه كما تشرب الهيم ــ الإبل ــ العطاش.

ولم يبق مع طالوت صامداً أمام النهر رافضاً أن يشرب منه رغم العطش الشديد، إلاّ فئة قليلة. ذكر البراء بن عازب ــ أحد البدريين من الصحابة ــ أن عدة أصحاب طالوت كانوا كعدة أهل بدر ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً (رواه البخاري). وما جاوز النهر مع طالوت إلاّ مؤمن قوي الإيمان ثابت العزيمة.

وهكذا سار طالوت بالنخبة القليلة المؤمنة وترك الكثرة الكاثرة الخوارة الجبانة وراءه. فلما برزوا لجالوت ورأوا العدد الهائل والعدة العظيمة؛ ارتعب كثير من هؤلاء المؤمنين معه. وبقيت قلة القلة صامدة ثابتة ترد قول الذين قالوا: لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده. حيث قالت الفئة الصابرة الصامدة الثابتة ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾.

وتشجع القوم القليل لملاقاة العدد والعدة، وتوجهوا إلى الله بذلك الدعاء

الخاشـع: ﴿ربنا أفـرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين فهزموهم بإذن الله﴾.

إنهـا صورة وضيئـة كريمـة لطالـوت ــ شاول ــ والصفـوة من بني إسرائيـل الذين صمدوا معه وقاتلوا الكثرة الكافرة الباغية ولم يرتعبوا من جالوت وجنوده.

وما أشد التناقض بين هذه الصورة الكريمة الوضيئة التي يعرضهـا القرآن الكـريم لـطالوت ــ شـاول ــ والصفوة من جنـده وبين الصورة الحقيـرة الجبانـة الرعـديدة التي تعرضها التـوراة المحرَّفـة (سفر صمـوئيل الأول)، حيث تقـول التوراة المحـرَّفة (سفـر صمـوئيل الأول، الإصحـاح ١٣: ٦ ــ ٨): «ولما رأى رجـال إسرائيـل أنهم في ضنـك اختبأ الشعب في المغاور والغيـاض والصخـور والصـروح والآبـار. وبعض العبـرانيين عبروا الأردن إلى أرض جاد وجلعاد. **وكان شاول بعد في الجلجال وكل الشعب ارتعد وراءه**».

وتصف التوراة المحرَّفة (سفر صموئيل الأول ١٧: ٣ ــ ١٠) قصـة المعركـة بين شـاول (طالـوت) وجليات (جـالـوت) بصـورة يتقـزز منهـا المـرء من جبن شـاول وجنوده:

«وكـان الفلسطينيـون وقوفـاً على جبل من هنـا، وإسرائيـل وقوفـاً على جبـل من هنـاك، والوادي بينهم، فخـرج رجل مبـارز من جيوش الفلسـطينيين اسمه جليـات من جت طوله ستُّ أذرع وشبـر. وعلى رأسه خـوذة من نحاس وكـان لابساً درعـاً حرشفيـاً ووزن الدرع خمسة آلاف شـاقل نحـاس. وجرمـوقاً من نحـاس على رجليه، ومـزراق نحاس بين كتفيه، وقنـاة رمحه كنـول النساجين. فـوقف ونادى صفـوف إسرائيـل وقال لهم: اختـاروا لأنفسكم رجـلاً ولينـزل إليَّ فـإن قـدر أن يحـاربني ويقتلني نصيـر لكم عبيداً، وإن قدرت أنا عليه وقتلته تصيرون أنتم لنا عبيداً وتخدموننا. وقال الفلسـطيني: أنا عيّرتُ صفوف إسرائيل هذا اليوم. أعطوني رجلاً فنتحارب معـاً. ولمَّا سمـع شـاول وجميـع إسرائيل كلام الفلسطيني هذا ارتاعوا وخافوا جداً».

واستمر جليات في تحديه يـطلب المبارزة أربعين يـوماً «وكـان الفلسطيني يتقـدم ويقف صبـاحاً ومسـاءً أربعين يومـاً» (سفر صمـوئيل الأول ١٧: ١٦)، ولا أحـد يجيبه.

الكل قد ارتعب منه رعباً أقعده عن الحركة، حتى شاول ـ طالوت ـ الذي آتاه الله بسطة في العلم والجسم ارتعب منه كما تزعم التوراة المحرَّفة رعباً شديداً. حتى تقدم شاب حدث كان يرعى الغنم يدعى داوود بن يسيّ البيتلحمي ـ من بيت لحم ـ «فقال داوود لشاول لا يسقط قلب أحد بسببه عبدك يذهب ويحارب هذا الفلسطيني. فقال شاول لداوود: لا تستطيع أن تذهب إلى هذا الفلسطيني لتحاربه لأنك غلام وهو رجل حرب منذ صباه». (سفر صموئيل الأول ١٧ : ٢٢ ـ ٢٣).

واغتاظ قادة الجيش من داوود وغضب منه أخوه إلياب وقال له: «لماذا نزلت؟ وعلى من تركت تلك الغنيمات القليلة في البرية؟ أنا علمت كبرياءك وشرَّ قلبك لأنك إنما نزلت لترى الحرب. وتحول داوود من عند أخيه نحو الآخرين فردَّ له الشعب جواباً كالجواب الأول. (سفر صموئيل الأول ١٧ : ٢٨ ـ ٣٠). وبعد أخذٍ وردٍ وافق شاول على إعطاء الفرصة لداوود لكي يقاتل الفلسطيني جليات، وألبسه شاول ثياب الحرب بنفسه. وبما أن داوود لم يعرف الحرب ولا لباس الحرب من قبل فإنه لم يستطع المشي بهذه العدة الثقيلة، فخلعها داوود وأخذ عصاه وأحجاراً ملساء وبرز لجليات. فاحتقره جليات ولم يرد أن يقاتله فسبَّهُ داوود سباً مقذعاً؛ فحمى غضب الفلسطيني وتحرك ليقضي على داوود، فضربه داوود بمقلاعه فوقعت الحجرة في جبهتِه فخر على أثرها صريعاً، وأسرع داوود واخترط سيف جليات واحتزَّ رأسه. فهتف بنو إسرائيل وارتعب الفلسطينيون رعباً شديداً. وآنذاك فقط تحرك شاول وجنوده للقضاء على الفلسطينيين المرعوبين. (سفر صموئيل الأول ١٧ : ٣٨ ـ ٥٤).

وهكذا ترى الفرق شاسعاً والبون هائلاً بين صورة طالوت ـ شاول ـ والصفوة الخيِّرة من بني إسرائيل معه والتي يرسمها القرآن الكريم حيث نرى قوماً مخبتين متواضعين صابرين، أشداء على الكفار رحماء بينهم، شجعاناً أبطالاً فرساناً كماةً. وبين الصورة الحقيرة القميئة التي تعرضها التوراة المحرَّفة لطالوت ـ شاول ـ وجنوده.

وينتهي ذكر طالوت في القرآن الكريم عند هذا الحد فلا نسمع عنه شيئاً.

ولكن تبقى في أذهاننا تلك الصورة الوضيئة للرجل المؤمن القوي الشجاع الذي آتاه الله بسطة في العلم والجسم.

ثم تبدأ صورة داوود عليه السلام تبرز في بضع كلمات قليلات ﴿وقتل داوود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء﴾.

ولا تشرح الآيات الكريمة ولا الأحاديث النبوية الشريفة كيف قتل داوود جالوت. وإنما تكتفي بإبراز شجاعة داوود أنه قتل جالوت الطاغية الجبار، وأن الله قد آتى داوود المُلك بعد طالوت ــ شاول ــ والحكمة وهي النبوة. وعلمه مما يشاء، ومن ذلك ﴿صنعة لبوس لكم﴾ كما سيأتي في آية أخرى حيث برع داوود عليه السلام في صناعة الدروع والزرود التي تتحرك ولا تكون قطعة واحدة. وهو مخترع هذه الدروع السابغة المكونة من العديد من الحلقات.

وتذكر التفاسير أن طالوت ــ شاول ــ سُرَّ بداوود وقرّبهُ إليه وزوجه ابنته. فلما مات طالوت خلفه داوود في الملك وزاده الله النبوة فجمع بينهما ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾.

وبينما تنتهي قصة طالوت بهذه الآيات القليلات تستمر قصة شاول ــ طالوت ــ في سفر صموئيل الأول ونراه شخصاً حقوداً تتلبس به الروح الشريرة. ونرى جهده كله ينصب في محاربة داوود وملاحقته ليقتله ويتخلص منه. رغم ما فعله داوود من أجله من انتصار على جليات وجيشه، ورغم أن شاول وقع بيد داوود مرتين كان فيهما قادراً على قتله، ومع هذا فقد عفا عنه داوود وسجد له وتقرب إليه. ورغم كل ذلك تستمر حياة شاول البائسة في مطاردة داوود وتدبير المؤامرات للخلاص منه وقتله. وشتان بين صورة طالوت الوضيئة في القرآن الكريم وبين صورته الحقيرة الجبانة الرعديدة الحاقدة التي تمثل نفسية يهود أصدق تمثيل في أسفار العهد القديم (سفر صموئيل الأول).

* * *

داوود (عليه السلام)
(١٠١٠ ــ ٩٦١ قبل الميلاد)

النبـي داوود عليه السلام في التوراة:

تعرض التوراة المحرَّفة ــ سفر صموئيل الأول والثاني والملوك وأخبار الأيام ــ قصة داوود عليه السلام منذ صباه الباكر ورعيه الغنم، وقيام صموئيل النبي بمسح داوود ملكاً رغم حداثته ورغم وجود شاول مسيحاً للرب في ذلك الوقت، إلى أن تولى الملك، وما صاحب ذلك من أحداث، حتى ينتهي في شيخوخته الفانية حيث لم تعد تدفيه اللحف والأغطية، بل ولم تعد تدفيه فتاة صغيرة تحتضنه.

ورغم أن مملكة اليهود لم تقم إلَّا على يد داوود ورغم أنها بلغت أوجها في عهده وعهد ابنه سليمان، ورغم أن اليهود يفخرون بما بلغته هذه المملكة من رقي يجعلونها المثل الأعلى للدولة التي ينبغي أن تقوم في الأرض، والتي سيقيمها ي آخر الزمان واحد من نسل داوود، يطلق عليه لقب المسيح ــ وهو مسيح الدجال في الأحاديث النبوية[1] ــ رغم ذلك كله تقوم التوراة صوير داوود عليه السلام بصورة حقيرة مزرية. فهو كاذب مخادع أفاك كذاب، وهو قاطع ـريق، وهو ملك جبار يهلك الحرث والنسل، ويضع أطفال أعدائه ونساءهم مواشيهم في الأتون ويحرقهم بالنار أحياء، وهو جبان في كثير من المواقف. رغم أن توراة تزعم أنه أشجع بني إسرائيل على مدار التاريخ. وهو بعد ذلك كله حقود ناكر جميل، يخطف امرأة قائده وحليلة جاره فيزني بها، ولا يشعر بالخجل والندم من هذه فعلة النكراء الشنيعة، بل يبعث بذلك القائد الشجاع إلى ميدان المعركة، ويوصي القائد الأعلى بأن يدفعه للقتال ثم يتخلى عنه فجأة ليسقط بسيوف الأعداء،

(١) سبق أن تحدثنا عن المسيح الدجال وصفاته في كتابنا «المسيح الدجال وتعاليم التلمود» إصدار الدار السعودية ــ جدة.

حتى يتمكن داوود من أخذ زوجة الرجل وضمها إلى العديد العديد من نسائه ومحظياته.

تبدأ أول إشارة في التوراة المحرَّفة (**سفر صموئيل الأول، ١٣: ٨ ــ ١٥**) لذكر داوود عليه السلام حيث نرى صموئيل غاضباً من شاول الملك الذي قدم القرابين واللحم المشوي للرب دون أن ينتظره ــ والواقع أنه انتظر صموئيل سبعة أيام حسب وعده، فلما تأخر صموئيل قام شاول بتقديم القرابين للرب إلّه إسرائيل ــ «فقال صموئيل لشاول قد انحمقت لم تحفظ وصية الرب إلّهك التي أمرك بها. لأن الآن كان الرب قد ثبّت مملكتك على إسرائيل إلى الأبد. **وأما الآن فمملكتك لا تقوم. قد انتخب الرب لنفسه رجلاً حسب قلبه. وأمره الرب أن يترأس على شعبه. لأنك لم تحفظ ما أمرك الرب به**». وأعلن الرب لصموئيل أنه ندم جداً على تولية شاول وجعله ملكاً على بني إسرائيل. وكرر الرب إعلانه ذلك عدة مرات. . (سفر صموئيل الأول ١٥: ١٠ و ٣٥).

وغضب صموئيل على شاول ولم يعد لرؤيته إلى يوم موته. . «لأن صموئيل ناح على شاول والربُّ ندم لأنه ملك شاول على إسرائيل. فقال الرب لصموئيل حتى متى تنوح على شاول وأنا قد رفضته أن يملك على إسرائيل. املأ قرنك دهناً وتعالَ أرسلك إلى يسيّ البيتلحمي ــ من بيت لحم ــ لأني قد رأيت في بنيه ملكاً. (سفر صموئيل الأول ١٦: ١).

وقام صموئيل بتقديم ذبيحة ودعا يسيّ وبنيه. واستعرض صموئيل أبناء يسيّ حتى وقعت عينه على الغلام راعي الغنم داوود. وكان داوود أشقر مع حلاوة العينين وحُسنِ المنظر. فقال الرب لصموئيل: قم امسحه لأن هذا هو ــ أي الملك ــ فأخذ صموئيل قرن الدهن ومسحه في وسط إخوته وحل روح الرب على داوود من ذلك اليوم فصاعداً». (سفر صموئيل الأول ١٦: ٥ ــ ١٣).

داوود يغني لشاول ليذهب عنه الروح الرديء:

وحلَّ على شاول ــ مسيح الرب ــ غضبُ الرب كما تزعم التوراة المحرَّفة، وأصابه روح رديء من قبل الرب، وضاق الحال بشاول وبحث عبيده عن شخص يحسن الضرب بالعود والغناء فوجدوا داوود، فأتوا به إلى شاول، فضرب له بالعود، فذهب الروح الرديء عن شاول، وعيّن داوود في حرسه الخاص وقرّبه إليه. (سفر صموئيل الأول ١٦: ١٤ ــ٢٣).

داوود يقتل جالوت ــ جليات ــ ملك الفلسطينيين وفارسهم :

سبق أن ذكرنا قصة قتل داوود لجليات ــ جالوت ــ وكيف تقدم لمبارزته بعد أن ارتاع منه شاول وجميع بني إسرائيل، وأنه مكث أربعين يوماً يتحدى بني إسرائيل ويطلبهم للمبارزة صباح مساء دون أن يجرؤ أحد منهم للتقدم لمبارزته، حتى جاء داوود من رعي الغنم، وجاء بالطعام لإخوته الموجودين في الجيش. فتقدم وطلب أن يسمح له بقتال جليات. وسخر منه إخوته ورؤساء الجيش، ولكن شاول سمح له بالقتال بعد تردد. فقام داوود بقتل جليات بالمقلاع حيث رماه بحجرة أصابت جبهته فخر جليات على إثرها صريعاً فاخترط داوود سيف جليات وحزَّ رأسه.

والتناقض في العهد القديم مرعبٌ ورهيب حتى أن الشراح اضطروا للاعتراف بأن أسفار العهد القديم كتبت من قبل مئات الأحبار على مدى مئات السنين دون تنسيق بينها. إذ أن سفر صموئيل الأول الإصحاح ١٦ يقول: إن داوود أصبح حامل سلاح بين يدي شاول ثم يأتي نفس سفر صموئيل الأول (الإصحاح ١٧)، ليقول: إن داوود عاد لرعي الغنم وأنه أقبل بالطعام لإخوته في الجيش وأن شاول لم يعرفه.

وبعد أن يقوم شاول بنفسه بإلباس داوود لباس الحرب وعدته، يترك داوود عدة الحرب لأنه لم يتعود عليها ولا يستطيع المشي بها، فيذهب لمبارزة جليات بعصاته ومقلاعه فقط. ثم يعود نفس السفر والإصحاح إلى الزعم بأن شاول استفسر عن هذا الغلام الذي قتل جليات. وسأل من أنت؟ ومن أبوك؟ . . . إلخ!!

وتنتهي القصة بأن داوود أصبح بطلاً قومياً لليهود وأن الفتيات أصبحن يغنين لداوود ويتمدحن بشجاعته وبطولته وجماله مما أثار حفيظة شاول وجعله يحقد عليه.

شاول يحاول اغتيال داوود عدة مرات ولكنه يفشل :

حاول شاول مراراً وتكراراً أن يقتل داوود ولكنه فشل في جميع تلك المحاولات. ووقع شاول في يد داوود مرتين ولكن داوود عفا عنه كما قد مرّ معنا.

شاول يستخدم الحيلة ويزوج داوود ابنته ميكال :

قام شاول بتزويج ابنته ميكال بعد أن رفض داوود أن يتزوج البنت الكبرى ميراب، لأن قلبه مال إلى الصغرى وهي مالت إليه، وكان المهر مائة غلفة من الفلسطينيين ــ والغلفة هي الجلدة التي تكون على القضيب وتزال أثناء الختان ــ.

ويا له من مهر!! ذهب داوود وقتل مائتي فلسطيني حسبما يزعم سفر صموئيل الأول الإصحاح ١٨. ومثّل بهم وأخذ مذاكيرهم وقدّمها مهراً لميكال!!! وكان غرض شاول أن يقع داوود في الفخ ويقتله الفلسطينيون، ولكن داوود ذهب برجاله وأغار على مجموعة من الفلسطينيين فجأة، وقتلهم وأتى بمذاكيرهم إلى شاول فزوجه ابنته ميكال. واستمرت بعد ذلك محاولات شاول في التخلص من داوود.

داوود يذهب إلى الملك أخيش ملك جت ويتظاهر أمامه بالجنون:

ضاق الأمر بداوود أمام مؤامرات مسيح الرب شاول!! وفرَّ من وجهه إلى وجه أعدائه الفلسطينيين الذين فعل بهم داوود الأفاعيل ـ كما تزعم التوراة ـ وذهب داوود إلى أخيش ملك جت. فقال عبيد الملك: أليس هذا داوود الذي فعل بنا الأفاعيل؟ **فوضع داوود هذا الكلام في قلبه وخاف جداً من أخيش ملك جت. فغيَّر عقله في أعينهم وتظاهر بالجنون بين أيديهم، وأخذ يخربش على مصاريع الباب ويسيّل ريقه على لحيته. فقال أخيش لعبيده: هو ذا ترون الرجل مجنوناً، فلماذا تأتون به إليَّ؟ ألعلّي محتاج إلى مجانين حتى أتيتم بهذا ليتجنن عليّ؟ أهذا يدخل بيتي!»**. (سفر صموئيل الأول ٢١ : ١٠ ـ ١٤).

داوود يكون عصابة لقطع الطريق والفساد في الأرض:

فذهب داوود من هناك ونجا إلى مغارة عرلام. فلما سمع إخوته وجميع بيت أبيه نزلوا إليه إلى هناك. واجتمع إليه كل رجل متضايق وكل من كان عليه دَيْن، وكل رجل مُرّ النفس، فكان عليهم رئيساً. وكان معه نحو أربعمائة رجل. وأخذ داوود أباه وأمه وتركهما عند ملك موآب الذي أكرم داوود وعصابته.

وخرج داوود يقطع الطريق، وقام معه الكاهن أخيمالك وأعطاه خبزاً وسيف جليات. فلما علم شاول بذلك أخذ الكاهن وجميع من معه من الكهنة وقتلهم كما تقدم ـ ٨٥ كاهناً قتلهم في ذلك اليوم ـ وضرب نوب مدينة الكهنة بحد السيف، الرجال والنساء والأطفال والرضعان والثيران والحمير والغنم بحد السيف. ونجا واحد لأخيمالك الكاهن وهرب إلى داوود». (سفر صموئيل الأول ٢٢ : ١٠ ـ ٢٣).

وهكذا كان كلاً من مسيحي الرب شاول وداوود، يقتل ويسفك الدماء ويقتل

النساء والأطفال والرضع والبهائم. وكان شاول أشد جرماً في ذلك كله حتى أنه قتل كهنة بني إسرائيل وحرّم مدينتهم بحد السيف، ولم يترك فيها طفلاً ولا رضيعاً ولا شيخاً ولا امرأة ولا بقراً ولا حميراً ولا غنماً. . . إلخ!!.

داوود يذهب لتخليص سكان مدينة قعيلة من الفلسطينيين وأهل قعيلة يغدرون به:

سمع داوود أن أهل قعيلة يتعرضون لهجوم من الفلسطينيين، وأن الفلسطينيين ينهبون البيادر. فاستشار داوود الرب هل أذهب لقتال الفلسطينيين وأخلص أهل قعيلة؟ فأجابه الرب اذهب وخلص قعيلة (سفر صموئيل الأول ٢٣ : ١ ــ ٣). فذهب داوود وحارب الفلسطينيين وساق مواشيهم وضربهم ضربة عظيمة، وخلص داوود سكان قعيلة.

فلما علم شاول بأن داوود دخل قعيلة؛ أسرع بالذهاب إلى قعيلة كي يقتل داوود. وسمع داوود بذلك، استشار داوود الرب قائلاً: يا رب إسرائيل إن عبدك قد سمع بأن شاول يحاول أن يأتي إلى قعيلة لكي يخرب المدينة بسببي، فهل يسلمني أهل قعيلة ليده؟ هل ينزل شاول كما سمع عبدك؟ يا رب إلّه إسرائيل أخبر عبدك؟ فقال الرب: ينزل، فقال داوود: هل يسلمني أهل قعيلة مع رجالي ليد شاول؟ فقال الرب: يسلمون. فقام داوود ورجاله نحو ستمائة رجل وخرجوا من قعيلة وذهبوا حيثما ذهبوا». (سفر صموئيل الأول ٢٣ : ٩ ــ ١٤).

وهكذا نجد الغدر صفة يهود في كل مكان وزمان. فكما غدر داوود بمن أكرمه من الفلسطينيين غدر أهل قعيلة بداوود. ولكن الرب الذي تصوره التوراة بصورة رجل أشار على داوود بنوايا شاول وأهل قعيلة.

داوود يطلب من نابالم أن يعطيه خرافاً لجنوده ونابالم يرفض فيغضب داوود:

وطلب داوود في البرية من نابالم أن يعطيه خرفاناً لجنوده، فأبى نابالم وقرر داوود أن يغير على نابال ويستولي على جميع ممتلكاته ويقتله عقاباً له على فعلته تلك.

وعلمت امرأة نابالم بما حدث وكانت امرأة ذكية؛ فأخذت خبزاً وخمراً وعنباً وخرفاناً وتقدمت لداوود، وسجدت له وطلبت منه أن يعفو عن زوجها. فعفا مسيح الرب داوود عن الرجل وغضب الرب على نابالم المسكين وقتله. وقام داوود فوراً بالتزوج من امرأته أبيجابل. (سفر صموئيل الأول: الإصحاح ٢٥).

داوود يلتجأ إلى الفلسطينيين مرة أخرى:

عندما تكررت محاولات شاول في القضاء على داوود «قال داوود في قلبه: إني سأهلك يوماً بيد شاول، فلا خير لي من أن أفلت إلى أرض الفلسطينيين، فييأس شاول مني فلا يفتش عليّ. فقام داوود وعبر هو والستمائة رجل الذين معه إلى أخيش بن معوك ملك جت. وأقام داوود عند أخيش في جت هو ورجاله». (سفر صموئيل الأول، الإصحاح ٢٧).

وقام ملك الفلسطينيين أخيش بإكرام داوود رغم كل جرائم داوود السابقة ضد الفلسطينيين ورغم أنه قتل مائتي فلسطيني وجبَّ مذاكيرهم وقدمها مهراً لميكال بنت شاول مسيح الرب!!

وقام ملك جت بإعطاء داوود أرض صقلغ حسب طلبه.

داوود يقوم بغارات ضد الفلسطينيين ويكذب على ملك جت ويخدعه ويفجر ويسفك الدماء:

وتبلغ التفاهة بمؤلفي سفر صموئيل من التوراة المحرَّفة أن يزعموا أن داوود قام بحرب إبادة للقرى الفلسطينية القريبة منه، ثم ذهب إلى ملك جت وكذب عليه وأخبره أنه إنما غزا أراضي بني إسرائيل وقتلهم انتقاماً من ملكهم شاول. وصدّق أخيش ملك جت أكاذيب داوود حسب زعمهم، وقال: ها هو ذا داوود قد صار مكروهاً لدى شعبه فيكون لي عبداً إلى الأبد.

والصورة التي تعرضها التوراة عن داوود قذرة حقيرة حقاً. وها هو ملك الفلسطينيين يكرم داوود رغم كل أفعاله السابقة بهم، ويعطيه أرضاً ليسكن فيها هو وجنوده. فيجازيه داوود بالإغارة على القرى وقتل جميع سكانها من الفلسطينيين. **«وضرب داوود الأرض ولم يستبق رجلاً ولا امرأة، وأخذ غنماً وبقراً وحميراً وجمالاً**

وثياباً». (**سفر صموئيل الأول: ٢٧**). وذهب إلى أخيش وكذب عليه. وانطلت الكـذبة والخدعة الساذجة على ملك الفلسطينيين. وزعم داوود أنه أغار على أرض يهوذا وقتـل من بني إسرائيل مقتلة عظيمة، فسرَّ بذلك ملك جت.

ويكرر سفر صموئيل الأول أن داوود استمر في خداعه لملك جت «**وهكذا عادته كل أيام إقامته في فلسطين**.

ولا شك أن كل ذلك أساطير من أساطير اليهود وأن داوود عليه السلام بـريء من هذه التهم الباطلة الحقيرة.

ولكن اليهود لم يكتفوا بأن يكونوا مثالاً للدس والوقيعـة والجبن والخداع والخسـة والحقارة وبشاعة الانتقام عنـد القدرة، وقتـل الأطفال والـرضـع والنساء، ولكنهـم لـوثوا صور الأنبياء عليهم السلام وجعلوهم جميعاً مثـالاً للخسة والحقـارة والنذالـة والخداع، وحب المال والتكالب عليه وعبادة الأوثان والسرقـة والكذب والغش والاحتيـال والنصب والقتل والزنى بجميع المحرمات وشرب الخمور والمتاجرة بالأعراض.

وهي هي صفـات يهود عليهم لعـائن الله أبد الآبـدين ألصقوهـا بـالأنبيـاء كـذبـاً وبهتاناً. وها هي توراتهم المحرَّفة التي يتعبد بها اليهود والنصارى مليئة بهذه القاذورات والأكاذيب والافتراءات على خير خلق الله وصفوته وهم الأنبياء عليهم السلام.

داوود يتظاهر بأنه سيقاتل اليهود مـع الملك أخيش:

وأعد الملك أخيش حملة ضخمة لقتال بني إسرائيل وعلى رأسهم شاول، وجـاء داوود ودخل في ساقة الجيش معهـم، فقام رؤسـاء الفلسطينيين واعتـرضوا على وجـود داوود في الجيش لأنهم عرفوا مما سلف من الأوصاف أنه سينقلب ضدهم عندما تشتـد المعركة ويحمى وطيسها. أما الملك فقـال: إنى أرى داوود مخلصاً وفيـاً. ولكن رجال الملك جت حذروه وقالوا له: ليرجـع داوود إلى مكانه ولا ينزل معنا إلى الحرب، لأننا لا نأمنه. ودعا أخيش داوود وقال له: «حي هو الرب إنك مستقيم، وخروجك ودخـولك معي في الجيش صالـح في عيني لأني لم أجد فيك شراً من يـوم جئت إليَّ إلى اليوم،

وأما في أعين الأقطاب فلست بصالح. فالآن ارجع واذهب بسلام ولا تفعل سوءاً في أعين أقطاب الفلسطينيين. فقال داوود لأخيش: فماذا عملتُ؟ وماذا وجدتَ في عبدك من يوم صرت أمامك إلى اليوم، حتى لا آتي وأحارب أعداء سيدي الملك؟! فأجاب أخيش وقال لداوود: علمت أنك صالحٌ في عيني كملاك الله إلَّا أن رؤساء الفلسطينيين قالوا: لا يصعد معنا إلى الحرب». (سفر صموئيل الأول ٢٩: ٦ ـ ٩).

وهكذا كان داوود يخادع ملك الفلسطينيين، وكان ينوي أن يذهب معه إلى المعركة ويضربه من خلفه إنقاذاً لقومه بني إسرائيل. ولولا أن أقطاب الفلسطينيين أصروا على إبعاد داوود لتمت حيلته وخداعه، ولمكر بهم مكراً خبيثاً ـ حسب زعم التوراة المحرَّفة ـ ورجع داوود ورجاله إلى صقلغ، فوجد العمالقة قد غزوا صقلغ وأحرقوها بالنار وسبوا النساء اللواتي فيها. **لم يقتلوا صغيراً ولا كبيراً بل ساقوهم ومضوا في طريقهم**. وسبيت امرأتا داوود مع المسبيين... (سفر صموئيل الأول: ٣٠).

وترى الفرق شاسعاً في أخلاق الفلسطينيين والعمالقة وأخلاق بني إسرائيل وأنبيائهم كما تزعم التوراة المحرَّفة. فالعماليق عندما يغزون أرضاً لا يقتلون صغيراً ولا كبيراً، وأنبياء بني إسرائيل عندما يغزون أرضاً يقتلون الرضيع والشيخ والمرأة والرجل وجميع البهائم.. وترى الكرم وحسن الخلق والشجاعة في فعال الفلسطينيين، وترى نقيضها في فعال بني إسرائيل وأنبيائهم حسب ما تزعم التوراة المحرَّفة.

وقام داوود كما تزعم التوراة بملاحقة العماليق واستخلص منهم جميع الأسرى بما فيهم زوجتيه، وقتل جميع العماليق رجالاً ونساءً، شيوخاً وأطفالاً سوى أربعمائة شاب فروا من وجهه.

وينتهي سفر صموئيل الأول بهزيمة شاول أمام الفلسطينيين هزيمة منكرة وانتحاره حتى لا يقع في الأسر.

ويبدأ سفر صموئيل الثاني مباشرة بخبر مختلف تمام الاختلاف عن نهاية شاول حيث يزعم أن شاول لم ينتحر وإنما قتله رجل عماليقي حسب طلب شاول.

داوود يتظاهر بالبكاء والمناحة على شاول:

ولما سمع داوود أن شاول قد مات، وأخبره العماليقي بأنه قتل شاول بناء على طلبه، قال داوود: كيف لم تخف أن تمد يدك لتهلك مسيح الرب. ثم دعا أحد غلمانه وأمره بقتل العماليقي الذي جاء يبشر داوود بقتل عدوه.

وقام داوود ورثى شاول ويوناثان، وقال أن يتعلم بنو يهوذا نشيد القوس. هو ذلك مكتوب في سفر ياشر ــ وسفر ياشر من الأسفار الضائعة التي لا وجود لها في أسفار العهد القديم ــ وأمسك داوود ثيابه ومزّقها وكذا فعل جميع الرجال الذين معه. وندبوا وبكوا وصاموا إلى المساء على شاول وعلى يوناثان ابنه وعلى شعب الرب وعلى بيت إسرائيل لأنهم سقطوا بالسيف. (سفر صموئيل الثاني الإصحاح الأول).

داوود يصعد إلى يهوذا حيث يمسح ملكاً:

وصعد داوود إلى يهوذا ــ منطقة في فلسطين سكنها سبط يهوذا ــ بعد مشاورة بينه وبين الرب إلّه إسرائيل. وأتى رجال يهوذا إلى حبرون ــ الخليل ــ حيث سكن داوود، ومسحوه ملكاً على بيت يهوذا.

إيشبوشت بن شاول يُعيّن ملكاً على إسرائيل:

وقام رئيس الجيش اليهودي ابنير بن نير بتعيين أشبوشت بن شاول ملكاً على إسرائيل.. وهكذا انقسمت مملكة إسرائيل إلى مملكتين إحداها في الشمال هي إسرائيل وعليها أشبوشت والأخرى في الجنوب وهي يهوذا وملك أشبوشت سنتين. وملك داوود في حبرون سبع سنوات وستة أشهر ثم قام بتوحيد المملكة وتوسيع رقعتها.

الحرب بين بيت شاول وداوود:

وتصارع رجال داوود ورجال أشبوشت ــ اثنا عشر من كل فريق ــ وقتل كل واحد صاحبه ولم ينج منهم أحد. فدعي ذلك الموضع هصوريم.

ووقعت مقتلة بعد ذلك بين رجال أشبوشت ورجال داوود. وفرَّ أبنير قائد جيش أشبوشت وعبر الأردن إلى محنايم.

وكانت الحرب طويلة بين بيت شاول وبيت داوود. وكان داوود يذهب ويتقوى وبيت شاول يذهب ويضعف (سفر صموئيل الثاني ٣ : ١ ــ ٢).

وولد لداوود في حبرون ستة من البنين وبكره أمنون.

أبنير قائد الجيش يتحالف مع داوود ويترك أشبوشت:

لقد كان أبنير مخلصاً وفياً لشاول وابنه من بعده. وقام أبنير بأخذ سرية شاول رصفة بعد موت شاول وجعلها إحدى سراريه. وقام أشبوشت ذات يوم ووبخ أبنير قائلاً له: لماذا دخلت على سرية أبي؟ فغضب أبنير غضباً شديداً. وأرسل من فوره إلى داوود يعاهده؛ فأجابه داوود لذلك، ولكنه اشترط عليه أن يأتيه أولاً بزوجته السابقة ميكال بنت شاول التي زوجها أبوها لداوود بمائة غلفة من الفلسطينيين، والتي غضبت من داوود عندما تزوج أبيجايل وأخينوعم وذهبت لوالدها شاول، والذي بدوره زوجها لفلطئيل بن لايش.

وقام أشبوشت حسب نصائح أبنير بأخذ ميكال من زوجها فلطيئيل وأرسلها إلى داوود بينما كان زوجها يمشي وراءها ويبكي.

وجاء أبنير إلى داوود، فقبله داوود وأرسله. ولما علم قائد جيش داوود بمجيء أبنير ذهب وراءه دون علم داوود، ولما وصل إليه أخذ يحادثه حتى اطمأن إليه؛ فقام واغتاله بدم أخيه عسائيل الذي قتله أبنير.

فلما علم داوود بالخبر ناح كعادته على أبنير ومشى في جنازته ورثى أبنير بمرثاة عظيمة.

واستطاع داوود بهذه الحيل حسبما تزعم التوراة المحرَّفة أن يكتسب قلوب رجال بني إسرائيل وخاصة رجال شاول وابنه أشبوشت. وارتعب أشبوشت لموت أبنير. وقام بعض الرعاة باغتيال أشبوشت عندما كان نائماً في الظهيرة واحتزا رأسه وأتيا بالرأس إلى داوود.

وقام داوود بنفس المسرحية التي قام بها عندما قتل من بشره بقتل عدوه شاول. وقتل داوود قاتلي أشبوشت وتظاهر داوود بالحزن على أشبوشت كما تظاهر من قبل بالحزن على قتل أبيه شاول ــ هكذا تزعم التوراة المحرَّفة ــ.

داوود ملكاً على إسرائيل ويهوذا:

استطاع داوود بهذه الحيل والألاعيب كما تزعم التوراة المحرَّفة أن يكسب قلوب بني إسرائيل. فلما مات أشبوشت ولم يبق من بني شاول أحد، اجتمع بنو إسرائيل على تنصيب داوود ملكاً.

وبهذا اجتمعت كلمة بني إسرائيل بجميع أسباطهم على مسح داوود ملكاً. كان داوود ابن ثلاثين سنة حين ملك. وملك أربعين سنة: في حبرون ملك على يهوذا سبع سنين وستة أشهر، وفي أورشليم ملك ثلاثاً وثلاثين سنة على جميع إسرائيل ويهوذا.

داوود يجازي الفلسطينيين على حسن صنيعهم شر الجزاء:

وسأل داوود الرب: أأصعد إلى الفلسطينيين؟ أتدفعهم ليدي؟ فقال الرب لداوود: اصعد، لأني دفعاً أدفع الفلسطينيين ليدك. فجاء داوود إلى بعل فراصيم، وضربهم داوود هناك وقال: قد اقتحم الرب أعدائي أمامي كاقتحام المياه. لذلك دعي اسم ذلك الموضع بعل فراصيم (سفر صموئيل الثاني ٥)، ثم قام بضرب الفلسطينيين في وادي الرفائيين بعد أن اختبأ مع الرب وراء الأشجار، فلما قام الرب بضرب الفلسطينيين من وراء الأشجار تبعه داوود وجنوده فقتلهم قتلاً ذريعاً. (سفر صموئيل الثاني، الإصحاح ٥).

وهكذا تصور التوراة المحرَّفة الرب بصورة رجل فظ يقاتل بنفسه الفلسطينيين، كما تصور داوود ناكراً للجميل مجرماً قاتلاً سفاكاً كذاباً أفاقاً مخادعاً مختالاً.

داوود يرقص ويغني والرب جالس في التابوت. ويقتل الرب رجلاً لأنه ساعده:

«وجمع داوود جميع المنتخبين في إسرائيل ثلاثين ألفاً. وقام داوود وذهب هو وجميع الشعب معه من بعلة يهوذا ليصعدوا من هناك تابوت الله الذي يدعى رب الجنود الجالس على الكروبيم. فأركبوا تابوت الله على عجلة جديدة، وحملوه من بيت أبيناداب. وكان عُزَّة وأخيو ابنا أبيناداب يسوقان العجلة الجديدة. وكان أخيو يسير أمام

التـابوت. وداوود وكـل بيت إسرائيـل يلعبون أمـام الرب بكـل أنواع الآلات من خشب السرو بالعيدان والرباب وبالدفوف والجنوك وبالصنوج. ولما انتهوا إلى بيدر ناخون مدَّ عُزَّة يده إلى تابوت الله وأمسكه لأن الثيران انشمصت. فحمى غضب الرب على عُزَّة؛ وضـربه الله هنـاك لأجل فعله فمـات هناك لـدى تابـوت الله. فاغتـاظ داوود لأن الـرب اقتحم عُزَّة اقتحاماً وسمى ذلك الموضـع فارص عُـزَّة إلى هذا اليـوم. وخاف داوود من الرب في ذلك اليوم. وقال كيف يأتي إليَّ تابوت الله». ونقل داوود تابوت الله إلى بيت عوبيد أدوم الجتي ــ وهـو فلسطيني من جت ــ. وبـارك الرب عـوبيد أدوم وكـل بيته. فلما سمـع بذلك داوود أخذ تابوت الله وأصعده إلى مدينـة داوود. **وكان داوود يـرقص بكل قوته أمام الـرب. وأشرفت ميكـال بنت شاول ــ زوجـة داوود ــ من الكوة ورأت الملك داوود يطفر ويرقص أمام الرب فاحتقرته في قلبها. وقالت له: ما كان أكرم ملك إسـرائيل اليـوم حيث تكشف اليوم في أعين إمائه وعبيده كما يتكشف أحـد السفهـاء»**. (سفر صموئيل الثاني، الإصحاح السادس).

وهكذا تصوّر التوراة المحرَّفـة أن الله ــ تعالى الله عن ذلـك علواً كبيراً ــ يجلس على التـابوت وتجـره العجلات، وداوود وبنـو إسرائيـل يغنون ويـرقصون أمـامه، وهـو مسرور بهذه البهلوانيـات والحماقـات، حتى أن داوود تكشّف أثناء رقصـه العنيف أمام الرب. وفي نفس الوقت نرى هذا الرب سريـع الغضب أحمق، حيث يقتل عُزَّة الـذي كان يسوق عجلة الرب. مـع أن عُزَّة هذا لم يفعل شيئاً سوى أنه أمسك بـالتابـوت كي لا يقـع على الأرض عنـدمـا انشمصت الثيـران التي تجـره، حتى أن داوود اغتـاظ من تصرف الرب الأحمق هذا كما تزعم التوراة المحرَّفة.

ويا لهـا من صـورة وضيعـة وحقيـرة تـرسمهـا التـوراة المحـرَّفـة للرب ذي العـزة والجلال. ألا لعنة الله على يهود أبد الآبدين. فإذا كان يهود قـد بلغت بهم الوقـاحة أن يصوروا الله ــ تبارك اسمه وتعالى جده ــ بصورة حقيرة وضيعة، فما أحراهم بعـد ذلك أن يصوروا الأنبياء أيضاً بصور حقيرة وضيعة..

وإذا كان الرب ــ تعالى الله عما يصـف الظالمون ــ سريـع الغضب كثير النـدم، أحمقـاً ممالئـاً ابنه البكـر إسـرائيـل، حـاقـداً على البشـر والكـون، وإذا كـان الأنبيـاء

مخادعين كذبة محتالين قتلة سفاكين مجرمين أوغاداً زناةً لصوصاً فجرة، فما أحرى بني إسرائيل بأن يتلبسوا بهذه الصفات الحقيرة.

وكيف يا ترى تعيش البشرية في سلام وبين ـرانيها يهود يأمرهم دينهم بكل نقيصه، وتتحدث إليهم توراتهم وتلمودهم بأن عليهم أن يقتلوا ويسرقوا ويكذبوا ويفجروا ويخدعوا البشر، لأن البشر لم يخلقوا إلاَّ من أجل خدمتهم وراحتهم. فلا نجاة للبشرية إذن إلاَّ بما ورد في الأحاديث الصحيحة (البخاري ومسلم) من أن اليهود يقاتلون المسلمين في آخر الزمان، فيقتلهم المسلمون حتى يقول الحجر والشجر: يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي ورائي تعال فاقتله.

لا نجاة للبشرية إلاَّ عندما يأتي ذلك اليوم وتخلص البشرية من شرهم وشر مسيحهم الدجال الذي يعيث في الأرض فساداً، والذي يقتله عيسى بن مريم عليه السلام في باب لد ــ بالقرب من مطار تل أبيب الحالي ــ كما أخبرنا بذلك الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله.

التوراة المحرَّفة تزعم أن الرب عقد حلفاً أبدياً مع داوود وإسرائيل في مقابل أن يصنعوا له بيتاً من الأرز:

جاء في سفر صموئيل الثاني الإصحاح السابع ما يلي:

«وكان لما سكن الملك في بيته وأراحه الرب من كل الجهات من جميع أعدائه، أن الملك قال لناثان النبي: **انظر إني ساكن في بيت من أرز وتابوت الله ساكن داخل الشقق**، فقال ناثان للملك: افعل كل ما بقلبك لأن الرب معك... **وقال الرب: أأنت تبني لي بيتاً لسكناي؟ لأني لم أسكن في بيت منذ يوم أصعدت بني إسرائيل من مصر إلى هذا اليوم، بل كنت أسير في خيمة وفي مسكن. في كل ما سرت مع جميع بني إسرائيل هل تكلمت بكلمة واحدة إلى أحد قضاة إسرائيل قائلاً لماذا لم تبنوا لي بيتاً من الأرز؟**»... **وأعلن الرب أنه مسرور من داوود لأنه يريد أن يبني للرب بيتاً فاخراً يسكن فيه؛ ولذا فإن الرب سيجازيه بأن يثبت مملكته إلى الأبد «هو يبني بيتاً لاسمي وأنا أثبت كرسي مملكته إلى الأبد. أنا أكون له أباً وهو**

يكون لي ابناً. إن تعوج أؤدّبه بقضيب الناس وبضربات بني آدم. ولكن رحمتي لا تنزع منه كما نـزعتها من شـاول الذي أزلتـه من أمامـك. ويأمن بيتـك ومملكتك إلى الأبـد أمامك. كرسيك يكون ثابتاً إلى الأبد».

صورة بشريـة حقيرة وتـافهة للرب ـ تعـالى الله عن ذلك علواً كبيـراً ـ ومـع هذا فإن وعود الرب هذا ذهبت أدراج الـرياح إذ إن كـرسي داوود الثـابت الأبـدي ومملكتـه الدائمة انتهت بموت ابنه سليمان.

وتستمـر التوراة في هـذه المحاورة التـافهة التي تبـدو وكأنهـا بين رجلين عـاديين مهتمين بالتحالف فيما بينهما لاقتسام المملكة.

«فـدخـل الملك داوود وجلس أمـام الـرب وقـال: من أنـا يـا سيـدي الـرب؟ ومـا هو بيتي حتى أوصلتني إلى هـا هنا؟ وقـلَّ هذا أيضـاً في عينيك يـا سيـدي الـرب، فتكلمت أيضـاً من جهة بيت عبـدك إلى زمان طـويل. وهـذه عادة الإنسـان يـا سيـدي الرب. . . لذلـك قد عـظمت أيها الـرب الإلّـه لأنه ليس مثلك. وأيـة أمة على الأرض مثل شعبك إسرائيل الذي سار الله ليفتـديه لنفسـه شعباً ويجعـل له اسمـاً، ويعمل لكم العظائم والتخاويف لأرضك أمام شعبـك الذي افتـديته لنفسـك من مصر من الشعـوب وآلهتهم. وثبتَّ لنفسك شعبك إسرائيل شعباً لنفسك إلى الأبد وأنت يا رب صرت لهم إلّهاً. والآن أيها الرب الإلّـه أقم إلى الأبد الكلام الذي تكلمت به عن عبدك وعن بيتـه وافعل كما نـطقت، وليتعظم اسمـك إلى الأبد فيقـال رب الجنود إلّـه على إسـرائيل. وليكن بيت عبدك داوود ثابتاً أمامك».

وانتهت المقـايضة بـأن يبني داوود للرب بيتاً فـاخراً ليسكن فيـه ويبني الرب بيتـاً لداوود يحكم به بني إسرائيل إلى الأبد، ويحكم بنو إسرائيل البشرية بـأجمعها بـواسطة بيته إلى أبد الآبدين!!!.

داوود يقوم مرة أخرى بضرب الفلسطينيين والموآبيين الذين أحسنوا إليه:

«وبعد ذلك ضـرب داوود الفلسطينيين وذللهم، وأخـذ داوود زمام القصبـة من يد

الفلسطينيين وضرب الموآبيين وقاسهم بالحبل. أضجعهم على الأرض فقاس بحبلين للقتل وبحبل للاستحياء. وصار الموآبيون عبيداً لداوود». (سفر صموئيل الثاني، الإصحاح الثامن).

ثم قام داوود بضرب ملك صوبة الذي يدعى هود وملك دمشق. وصار الآراميون عبيداً لداوود. وأخذ داوود أتراس الذهب التي كانت مع هود وأتى بها إلى أورشليم، وأخذ النحاس من مدن هود.

وخاف ملك حماة من بطش داوود فأرسل له الهدايا من الذهب والفضة. واستمرت مذابح داوود فجعل كل الأدوميين عبيداً له وكذلك فعل ببني عمّون. وقدّس داوود جميع الذهب والفضة التي أخذها من هذه الشعوب من آرام وموآب وبني عمّون والفلسطينيين والعماليق. ونصب داوود تذكاراً عند رجوعه من ضربه ثمانية عشر ألفاً من آرام في وادي الملح ـ ما أكثر النصب التذكارية في التوراة المحرَّفة ـ (سفر صموئيل الثاني، الإصحاح ٨).

داوود يزني بحليلة جاره وقائد جنده أوريا الحثّي ـ حسب زعمهم ـ :

وتأتي الطامة حينما تصف التوراة المحرَّفة كذباً وبهتاناً وزوراً أن داوود عليه السلام اعتدى على حليلة جاره وأحد قواده أوريا الحثي وزنى بها عنوة. وهي صورة في منتهى الحقارة والسفالة. ثم لم يكتف داوود بذلك بل أرسل إلى أوريا الحثي زوج المرأة أن يأتي من ميدان المعركة حتى يغطي على حملها سفاحاً منه. ولما رفض أوريا أن يذهب لزوجته، لأن جنده مشغولون بالجهاد فكيف يمتّع نفسه بامرأته والجيش في وسط المعركة!! فما كان من داوود إلاَّ أن أرسل معه رسالة إلى القائد العام للجيش تطلب منا أن يدفع بأوريا مع كوكبة من الجند إلى وسط العدو ثم ينسحب الجند فجأة ويتركوه لسيوف الأعداء، وبذلك تخلص داوود من أوريا الحثي، وأخذ امرأته محظية من محظياته العديدات وولدت له ابنه سليمان.

وإليك القصة البشعة المرعبة كما ترويها التوراة المحرَّفة (سفر صموئيل الثاني،

الإصحاح ١١): «وكان في وقت المساء أن داوود قام يتمشى على سطح بيته فرأى من على السطح امرأة تستحم وكانت المرأة جميلة جداً؛ فأرسل داوود وسأل من المرأة؟ فقال واحد: أليست هذه بتشبع بنت أليعام امرأة أوريا الحثي. فأرسل داوود وأخذها فدخلت إليه فاضطجع معها وهي مطهرة من طمثها ــ يا لقذارة يهود!! ما فائدة كونها طاهرة من الطمث وهي تزني؟! إنها عقلية يهود المنكوسة الفريسية التي لعنها عيسى عليه السلام. حيث يهتمون بالقشور ويتركون الأصول. . ــ ثم رجعت إلى بيتها. وحبلت المرأة فأرسلت وأخبرت داوود وقالت: إني حبلى. فأرسل داوود إلى يوآب ــ قائد الجيش ــ يقول: أرسل إليَّ أوريا الحثي. فأرسل يوآب أوريا إلى داوود. فأتى أوريا إلى داوود. وسأله داوود عن سلامة يوآب ــ قائد الجيش ــ وسلامة الشعب ونجاح الحرب ــ كلها خداع ــ وقال داوود لأوريا: انزل إلى بيتك واغسل رجليك. فخرج أوريا من بيت الملك. ونام أوريا على باب بيت الملك ولم ينزل إلى بيته. فأخبروا داوود قائلين: لم ينزل أوريا إلى بيته. فقال داوود لأوريا: أما جئت من السفر؟ فلماذا لم تنزل إلى بيتك؟ فقال أوريا لداوود: إن التابوت وإسرائيل ويهوذا ساكنون في الخيام، وسيدي يوآب ــ قائد الجيش ــ وعبيد سيدي نازلون على وجه الصحراء، وأنا آتي إلى بيتي لآكل وأشرب واضطجع مع امرأتي!! وحياتك وحياة نفسك لا أفعل هذا الأمر ــ ما أنبل هذا الرجل من بني حثّ!! وما أعظم الشقة والفرق بينه وبين داوود الذي تصوره التوراة حقيراً مخادعاً زانياً كاذباً فاجراً ماكراً قاتلاً مجرماً خبيثاً!! والسبب أن أوريا ليس من بني إسرائيل ولو كان من بني إسرائيل لكانت صورته حقيرة مثلهم ــ فقال داوود لأوريا: أقم هنا اليوم أيضاً وغداً. فأقام أوريا في أورشليم ذلك اليوم وغده. ودعاه داوود فأكل أمامه وشرب وأسكره ــ داوود ــ.

وفي الصباح كتب داوود مكتوباً إلى يوآب ــ رئيس الجيش ــ وأرسله بيد أوريا. وكتب في المكتوب يقول: «اجعلوا أوريا في وجه الحرب الشديدة وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت». وبهذه المكيدة الحقيرة سقط أوريا شهيداً في ميدان الوغى مقبلاً غير مدبر. وسرّ داوود بذلك عندما أخبره يوآب بمقتل أوريا وبعض العبيد معه.

ولما سمعت امرأة أوريا أنه قد مات رجلها ندبت بعلها. ولما مضت المناحة أرسل داوود وضمها إلى بيته وصارت له امرأة وولدت له ابناً». (سفر صموئيل الثاني ١١ : ٢٦).

وهكذا أسدل الستار على أبشع جريمة وأقذرها وأحقرها. ويا لها من جريمة بشعة حقيرة تزعم التوراة المحرَّفة أن داوود عليه السلام، ارتكبها. وهو لا ريب منها بريء.

المستشرقون يهاجمون الإسلام ويتهمون الرسول صلى الله عليه وسلم بالشبق:

إن أعجب العجب هو أن يقوم أناس يدّعون العلم ممن يسمون مستشرقين، وهم من اليهود والنصارى الذين يؤمنون بما جاء في العهد القديم من أكاذيب وأساطير، ثم يهاجمون الإسلام لأنه أباح الزواج بأربع وأباح التسري ويهاجمون رسول الإسلام محمداً صلى الله عليه وسلم لأنه تزوج بتسع نساء.

ويا له من تناقض غريب في مسلكهم حيث يؤمنون بأن ما جاء في العهد القديم من قذف وشتم لله سبحانه وتعالى، وقذف واحتقار وانتقاص للأنبياء والمرسلين، ووصمهم بكل رذيلة، يؤمنون بأن ذلك كله وحي من عند الله. وأن ما جاء في القرآن الكريم من صفات التنزيه للمولى وتشريف الأنبياء والمرسلين وتكريمهم ورفعهم إلى المستوى اللائق بهم من الطهارة والسمو وحسن الخلق والأمانة والصدق، هو من تأليف محمد بمساعدة نجار رومي لا يعرف العربية ولا يكاد يبين: ﴿لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين﴾.

وأحمق الحمق أن يقوم جهابذة الكتاب في العالم الإسلامي على مدى قرابة قرن من الزمان للرد على تخرصات وأكاذيب هؤلاء المستشرقين من اليهود والنصارى عن الإسلام دون الإشارة إلى ما هو مسجل ومكتوب في التوراة والإنجيل اللذين يتعبد بهما اليهود والنصارى.

وكيف يتهم محمد صلى الله عليه وسلم بالشبق وداوود تتهمه التوراة المحرَّفة الكاذبة بالزنى بحليلة جاره وبالكذب والخداع والمكر والدس والوقيعة والقتل وسفك

الدماء!!! والتوراة المحرَّفة من أولها لآخرها تتهم الأنبياء عليهم السلام بكل نقيصة، حيث تصورهم بصورة اللصوص الكذبة الخونة الفجرة المخاتلين المخادعين الزناة القتلة مدمني خمر. وذلك منذ عهد نوح الذي تصوره التوراة شارب خمر عربيد حتى يتعرى، فلما رآه ابنه حام على هذه الهيئة لعنه أبوه ونسله إلى أبد الآبدين، وقال ملعون كنعان ــ ابن حام وليس لكنعان أي دخل في القصة سوى أن الكنعانيين كانوا ساكنين في فلسطين ــ عبد العبيد يكون لإخوته. مبارك الرب إلّه سام ــ وسام حسب زعمهم هو جد اليهود ــ.

ثم تصور التوراة إبراهيم عليه السلام بأنه تزوج أخته من أبيه سارة وأنه عرضها على ملك مصر، ثم على ملك الفلسطينيين أبيمالك من أجل حفنة من المال. وبذلك صوروا إبراهيم بأنه قواد ديوث يعرض زوجته على الملوك من أجل المال.

ثم يأتي إسحاق ويفعل نفس الفعل.

وأما يعقوب الذي يدعى أيضاً إسرائيل فجرائمه لا تحد ولا تعد ولا تحصى. فهو يكذب على أخيه عيسو، ويكذب على أبيه إسحاق، ويسرق بركة أخيه، ويأخذ العهد لنفسه من أبيه بدلاً من الابن البكر عيسو، ثم يسرق أموال خاله لابان، ويتزوج ابنتيه، ويسرق أموال من يسكن معهم، ثم يصارع الله حتى الفجر ولا يطلقه حتى يعطيه عهداً أبدياً له ولنسله ويجعل له أرض كنعان ــ فلسطين وما حولها هدية مجانية أبدية ــ.

ثم يقوم أبناء يعقوب بجرائم متعددة فراؤبين الابن البكر يزني بزوجة أبيه في حياة أبيه، ويهوذا سبط إسرائيل وأشجع أبنائه يزني بحليلة ابنه وهي ثمارا، ويوسف يسرق أرض المصريين ويستغل حاجتهم إلى الأكل فيجعلهم يبيعون أرضهم، ثم يبيعون أنفسهم عبيداً لفرعون.

ثم يظهر موسى عليه السلام فتصفه التوراة المحرَّفة بأقذع الأوصاف وتجعله حقوداً لئيماً يبيد أهل مدين الذين أكرموه وزوجوه بنتهم، ولا يكتفي بأن يقتل قائده يوشع بن نون جميع الرجال بل يقوم بنفسه بقتل جميع الأطفال الذكور وجميع النساء.

وتجعل التوراة المحرَّفة هارون صانعاً للعجل وداعياً بني إسرائيل إلى عبادته،

وتجعله ساخراً من موسى، فيقوم هو وأخته مريم بتعريته والسخرية منه أمام بني إسرائيل!!! وكل الصفات الحقيرة المعوجة المخادعة المخاتلة تجعلها التوراة في هارون.

وأما يوشع بن نون فتى موسى ووارث أمره من بعده، فتصفه التوراة المحرَّفة بأقذع الصفات وتجعله سفاكاً مجرماً متعطشاً للدماء يبيد الأخضر واليابس ويقتل الطفل الرضيع والشيخ الفاني والمرأة والرجل، بل إنه يبيد البهائم كذلك، ويحرق المدن، ويجمع الناس في الفرن ويحرقهم أحياء.

وهكذا تستمر التوراة المحرَّفة في وصف الأنبياء جميعاً بالكذب والخداع والدس والوقيعة والاحتيال والابتزاز والجبن عند قراع الخصوم والفرار من المعارك والاختباء في الجحور كالفئران المذعورة، فإذا جاء الرب وحارب عنهم قاموا وقتلوا النساء والأطفال وأقاموا المجازر والمذابح بما تقشعر لهوله الأبدان، وبما تتصاغر معه جرائم حرب هولاكو وجنكيز خان، وما يدّعيه اليهود من جرائم هتلر.

وإنه لمن أحمق الحمق أن نضيّع آلاف الصفحات وجهود مئات الكتاب في محاولة تبيين زيف دعاوى المستشرقين والمبشرين من اليهود والنصارى، وزيف اتهاماتهم للإسلام ولنبي الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم.

ويكفي للرد عليهم فضح ما هو موجود في كتابهم الأقدس وهو العهد القديم، الذي يؤمن به اليهود والنصارى على اختلاف مللهم ونحلهم. والتلمود الذي يؤمن به اليهود، وهو أشد خبثاً وحقارة من العهد القديم.

وللأسف نجد فريقاً آخر من الكتاب العرب وخاصة في الخمسينات والستينات الذين كتبوا عن اليهود وكتبهم، لم يميزوا بين الزيف والكذب الموجود في كتب اليهود العهد القديم والتلمود ـ وبين الحقيقة الناصعة، وهي أن الأنبياء والمرسلين الذين وصفتهم التوراة المحرَّفة بأقبح الصفات هم أبرياء من كل ما ألصقه بهم يهود.

فترى هؤلاء الحمقى من الكتاب يهاجمون موسى عليه السلام لأنه قام بمذبحة ضد أهل مدين الذين أكرموه. ويهاجمون يوشع بن نون عليه السلام لأنه قام بالمذابح والمجازر في أريحا وعاي ولبنة ولخيش... إلخ؛ ويهاجمون يعقوب عليه السلام لأنه

كما تصفه التوراة المحرَّفة أخذ العهد من أخيه عيسو بالخداع والحيلة وسرق أموال خاله لابان. ويهاجمون الأسباط أبناء يعقوب، بما في ذلك يوسف عليه السلام لأن أوصاف التوراة المحرَّفة عن هؤلاء ذميمة حقيرة.

وهكذا يستمر هؤلاء الحمقى من الكتاب في مهاجمة داوود وسليمان عليهما السلام لأن التوراة المحرَّفة تصفهما بكل نقيصة.

ويدعي بعض هؤلاء الكتّاب الحمقى أن إبراهيم وموسى وغيرهم من الأنبياء ليس لهم وجود حقيقي وإنما هي أساطير اكتتبها أحبار يهود وأملوها في عصور متأخرة. وهكذا ترى هؤلاء الكتاب العرب يهاجمون الأنبياء باسم القومية العربية، أو ينفون وجود هؤلاء الأنبياء. وكل ذلك من أجل مهاجمة يهود ومهاجمة إسرائيل وسياستها العنصرية.

وهو موقف ينبىء عن جهل بالإسلام وبكتاب الإسلام. وقد أدى بهم فعلاً إلى الخروج من دائرة الإسلام حيث يهاجمون أنبياء بني إسرائيل، ويعتمدون في هجومهم ذلك على ما ورد في التوراة المحرَّفة، أو في التلمود. وكلاهما مكذوب على موسى عليه السلام. وكان الموقف الصحيح هو أن يوضحوا للناس زيف التوراة المحرَّفة وكذبها وفجورها واتهامها الأنبياء بالرذائل، بل اتهامها رب العزة بالخور والندم والحمق والغضب والطيش والحقد!!.

وعليهم أن يبرئوا ساحة الأنبياء من كل ما ألصقته بهم التوراة والتلمود المحرفين الكاذبين.

الرب يغضب على داوود لفعلته الشنعاء بأوريا الحثي:

جاء في (سفر صموئيل الثاني، الإصحاح ١٢: ٨ ــ ١٢):

«هكذا قال الرب إلّه إسرائيل لداوود. أنا مسحتك ملكاً على إسرائيل وأنقذتك من يد شاول وأعطيتك بيت سيدك ونساء سيدك في حضنك وأعطيتك بيت إسرائيل ويهوذا. وإن كان ذلك قليلاً كنتُ أزيد لك كذا وكذا. لماذا احتقرت كلام الرب لتعمل الشرَّ في عينيه؟ قد قتلت أوريا الحثي بالسيف وأخذت امرأته لك امرأة وإياه قتلت بسيف بني عمّون. والآن لا يفارق السيف بيتك إلى الأبد لأنك احتقرتني وأخذت امرأة أوريا الحثي لتكون لك امرأة. هكذا قال الرب هأنذا أقيم عليك الشرَّ من بيتك وآخذ

نساءك أمام عينيك وأعطيهن لقريبك فيضطجع مع نسائك في عين هذه الشمس. لأنك فعلت بالسر وأنا أفعل هذا الأمر قدام جميع إسرائيل وقدام الشمس».

وضرب الرب الولد الذي ولدته امرأة أوريا لداوود فثقل، ومات الولد الذي في بطنها من زنى داوود حسب زعم التوراة المحرَّفة. وعزى داوود بتشبع امرأته ودخل إليها واضطجع معها فولدت فدعا اسمه سليمان والربُّ أحبه. (سفر صموئيل الثاني ١٢: ١٥ ــ ٢٥).

داوود يضع بني عمّون تحت المناشير ويحرقهم في الأتون:

وتتفاقم جرائم داوود حسب زعم التوراة المحرَّفة (سفر صموئيل الثاني، الإصحاح ١٢: ٢٦ ــ ٣١): «وحارب يوآب ــ قائد جيش داوود ــ رِبَّة بني عمّون وأخذ مدينة المملكة، وأرسل إلى داوود لكي يأتي ويدخل المدينة. فجمع داوود كل الشعب وذهب إلى رِبَّة وحاربها وأخذها، وأخذ تاج ملكهم عن رأسه ووزنه وزنة من الذهب مع حجر كريم، وكان على رأس داوود. وأخرج غنيمة المدينة كثيرة جداً. **وأخرج الشعب الذي فيها ووضعهم تحت مناشير ونوارج حديد وفؤوس حديد وأمرّهم في أتون الآجر. وهكذا صنع بجميع مدن بني عمّون ثم رجع داوود وجميع الشعب إلى أورشليم**».

إنها جرائم تتصاغر دونها جرائم جنكيز خان وهولاكو وهتلر وبيغن وشارون.

أمنون بن داوود البكر يزني بأخته ثمارا حسب نصيحة حكيم بني إسرائيل:

لا تكاد تنتهي من قراءة فضيحة أو جريمة في التوراة المحرَّفة إلاَّ وتأتي بعدها جريمة أشنع وأقذر منها. وماذا نتوقع من بيت يكون فيه سيده قاتلاً مجرماً جباناً مخاتلاً مخادعاً زانياً بحليلة جاره قاتلاً لقائد جنده المخلص الوفي أوريا الحثي؟

ما دام رب الدار بالطبل ضارباً فشيمة أهل الدار كلهم الرقص

وها هو ابن داوود البكر الذي يدعى أمنون يقع في غرام أخته الجميلة ثمارا.. فما كان من حكيم بني إسرائيل المسمى يوناداب بن شمعي وهو ابن أخي داوود،

إلاّ أن نـصح الفتى بـأن يطلب من أبيـه الملك أن تأتي أختـه وتمرضـه وتطعمـه خبزاً بيـدها. وهكـذا تمارض أمنـون وزاره أبوه الملك، فـطلب من أبيه أن يـأتي لـه بـأخته الجميلة ثمارا لكي تمرّضه وتطعمه بيدها. فأخذها إلى المخدع وزنى بها. وأخته كانت تقـول لـه: اطلب ذلـك من أبـي، فـإن أبـي لن يمـانـع في إعـطائــك إيـاي، وأبـي لا يمنعني منك. فلم يسمـع لقولها وزنى بها، ثم أبغضها في نفس اللحظة وطردها من غرفته فحنقت عليه وأخبرت شقيقها أبشالوم.

وتـرد القصة بتفـاصيلها القـذرة في سفر صمـوئيل الثـاني، الإصحـاح ١٢ وتبـدأ هكذا:

«وجـرى بعد ذلـك ــ أي بعد جـرائم داوود المتتاليـة حسب زعمهم ــ أنـه كـان لأبشـالوم بن داوود أخت جميلة اسمهـا ثامـار فأحبهـا أمنون بن داوود. وأُحصـر أمنـون للسقم من أجل ثامار أخته لأنها كانت عـذراء وعسر في عيني أمنـون أن يفعل لهـا شيئاً ــ ولو كانت متـزوجة كمـا كانت زوجـة أوريا الحثي لفعـل معها مـا فعل أبـوه ــ وكـان لأمنون صاحب اسمه يوناداب بن شمعي أخي داوود. وكان يوناداب رجـلاً حكيماً جـداً ــ ومن شدة حكمته نصـح ابن عمه أمنون أن يزني بأخته ثامار ــ فقال له: لماذا يـا ابن الملك أنت ضعيف هكـذا من صباح إلى صبـاح؟ أما تخبـرني؟ فقـال لـه أمنـون: إني أحب ثامار أخت أبشالوم أخي. فقال يونـاداب اضطجـع على سـريرك وتمـارض، وإذا جاء أبوك ليراك فقل له دع ثامار أختي فتأتي وتطعمني خبزاً وتعمـل أمامي الـطعام لأرى فـآكل من يـدها. فـاضطجـع أمنـون وتمارض فجـاء الملك ليراه ــ والخـداع وراثة في بني إسرائيل ــ فقال أمنون للملك: دع ثامار أختي فتـأتي وتصنـع أمامي كعكتين فـآكل من يدها».

وأرسـل داوود ثامـار إلى أمنون وصنعت لـه الكعـك وأبـى أن يـأكـل إلاّ بعـد أن يخرج كل إنسان من الغرفة. ودعاها إلى المخدع وطلب منها أن تنام معه. فقالت لـه: كلم أباك الملك لأنه لا يمنعني منك. . ــ أمر غـريب جداً أن تتـوقـع أن أباهـا يسمـح لها بالزنى مـع أخيها!! ــ وتمكّن منها أمنون ولم يسمـع لصـوتها واضـطجـع معها. ثم أبغضها أمنون بغضة شديدة جداً فجأة بعد بعـد أن قضى وطره منهـا، وقال لهـا أمنون: قومي انطلقي. فقالت له: لأي سبب تـطردني؟ وهذا الشـر بطردك إيـاي هو أعـظم من

الآخر الذي عملته بي. فلم يشأ أن يسمع لها ودعا غلامه وقال: اطرد عني هذه واقفل الباب وراءها. فأخرجها الخادم إلى الخارج وأقفل الباب وراءها.

فجعلت ثامار رماداً على رأسها ومزقت ثوبها الملون الذي عليها ووضعت يدها على رأسها، وكانت تذهب صارخة، فقال لها أبشالوم أخوها: هل كان أمنون أخوك معك؟ فالآن يا أختي اسكتي، فأقامت ثامار عند أخيها أبشالوم. وسمع داوود بجميع هذه الأمور واغتاظ جداً ولكنه لم يكلم ابنه أمنون وتجاهل الأمر كأن لم يكن.

أبشالوم يدبر لاغتيال أخيه أمنون لأنه أذل أخته:

ودبر أبشالوم مكيدة وأقام حفلة لأمنون حتى إذا أخذت الخمر من أمنون أوعز إلى غلمانه بقتله، وهرب أبشالوم من وجه أبيه الملك. ثم قام يوآب قائد الجيش بإرجاع أبشالوم إلى أورشليم. وأقام أبشالوم في أورشليم سنتين لم يرَ فيها وجه أبيه الملك داوود.

أبشالوم يستلب قلوب بني إسرائيل بالمكر ويحارب أباه، وأبوه يمكر به:

واستطاع أبشالوم أن يستلب قلوب بني إسرائيل كما فعل أبوه من قبل حسب زعم التوراة المحرَّفة. وذهب أبشالوم إلى حبرون وأعلن نفسه ملكاً. وكانت الفتنة شديدة والشعب يتزايد مع أبشالوم. فقال داوود لجميع عبيده الذين معه في أورشليم: قوموا بنا نهرب لأنه ليس لنا نجاة من أبشالوم. أسرعوا للذهاب لئلا يبادرنا ويضرب المدينة بحد السيف. وهرب الملك وجميع من معه حتى جنوده من بني حثّ. وكانت جميع الأرض تبكي بصوت عظيم وجميع الشعب معه. وعبر الملك وادي قدرون نحو البرية فراراً من ابنه أبشالوم، وصعد داوود جبل الزيتون باكياً.

واستعمل داوود الحيلة وأرسل جواسيس إلى ابنه أبشالوم، وجعل حوشاي الأركي يذهب إلى أبشالوم ويتظاهر بالنصيحة له، ثم يخدعه ويخبر أباه بجميع ما يفعل أبشالوم. وتظاهر حوشاي بالإخلاص لأبشالوم.

أبشالوم ينكح سراري أبيه :

واستشار أبشالوم أخيتوفل صاحب سره ماذا يفعل؟ فأشار عليه بأن يدخل على سراري أبيه حتى يسمع جميع بني إسرائيل بما فعلت وأنك صرت مكروهاً من أبيك فتتشدد أيدي جميع الذين معك. فنصبوا لأبشالوم الخيمة على السطح ودخل أبشالوم إلى سراري أبيه أمام جميع إسرائيل. وكانت مشورة أخيتوفل في تلك الأيام كمن يسأل بكلام الله. هكذا كانت كل مشورة أخيتوفل على داوود وعلى أبشالوم جميعاً (سفر صموئيل الثاني ١٦ : ٢٠ ـ ٢٣).

أخيتوفل يشير على أبشالوم بملاحقة داوود وحوشاي يبطل مشورته ويخبر داوود بذلك :

وأشار أخيتوفيل بالهجوم مباغتةً لداوود قبل أن يستريح. ولكن حوشاي استطاع أن يقنع أبشالوم بأن يجمع كل بني إسرائيل أولاً ثم يهجم على داوود. وهكذا استطاع حوشاي أن يخذّل عن داوود، وأرسل جواسيسه ليخبروا داوود بما ينوي أن يفعله أبشالوم.

نهاية أبشالوم وخداع داوود حتى في حزنه حسب زعم التوراة المحرَّفة :

وقامت معركة رهيبة بين أبشالوم وأبيه داوود، وقتل أبشالوم في المعركة الرهيبة. فلما قتل أبشالوم ناح عليه داوود وقام يبكي ويصرح: يا أبشالوم يا ابني يا أبشالوم. يا ليتني متُّ عوضاً عنك يا أبشالوم. وخرج داوود هائماً على وجهه وهو يبكي ويصرخ من أجل ابنه. ولكنه في نفس الوقت لم ينس أن يرسل إلى صادوق وأبيثار الكاهنين قائلاً لهما: كلما شيوخ يهوذا قائلين: لماذا تكونون آخرين في إرجاع الملك إلى بيته؟!. وهكذا كان داوود حسب زعم التوراة مخادعاً حتى في حزنه على ابنه أبشالوم. وتظاهر بالحزن الشديد والخروج من أورشليم وفي نفس الوقت أرسل إلى صديقيه الكاهنين أن يطلبا من شيوخ يهوذا أن يذهبوا لإرجاع الملك.

وهكذا عاد داوود إلى عرش المملكة في أورشليم وهو متظاهر بالحزن على موت ابنه أبشالوم حسب زعم التوراة المحرَّفة (سفر صموئيل الثاني، الإصحاح ١٩).

وفي أثناء العودة قام شبع بن بكري من بني بنيامين فضرب بالبوق وقال لبني إسرائيل: ليس لنا قسم في داوود. كل رجل إلى خيمته يا إسرائيل. فصعد كل رجال إسرائيل وراء شبع بن بكرى البنياميني وتركوا داوود ولم يبق معه إلّا سبط يهوذا عشيرته.

واستاء داوود وقام بالمكر والخديعة فأمر قائد جنده بأن يتظاهر بأنه منضم لشبع بن بكرى فإذا تمكن منه اغتاله.

ووجد يوآب (قائد جيش داوود) عماسا ــ أحد رجال شبع بن بكرى ــ فتظاهر بأنه سيقبله وأمسك بلحيته وضربه بالسيف الذي كان تحت ثيابه في بطنه.

وجمع يوآب من استطاع من رجال إسرائيل وتوجه خلف شبع بن بكرى الذي تحصن في مدينة آبل بيت معكة وحاصره أياماً. فقامت امرأة ونادت يوآب من أحد الحصون وقالت له: لماذا تريد أن تميت من في المدينة جميعاً؟ فأجاب يوآب: سلمونا رأس شبع ونحن ننصرف عنكم. فقامت المرأة مع رجال من قومها فاحتزوا رأس شبع بن بكرى ورموه من فوق السور ليوآب فأخذه يوآب وانصرف.

وبذلك تمت السيطرة لداوود مرة أخرى وعادت له مملكته.

داوود يتخلى عن وعده بحماية من بقي من أولاد شاول ويسلمهم للجبعونيين ليقتلوهم:

وحدث جوع أيام داوود ثلاث سنين، فطلب داوود الرب، فأخبره الرب أنه ضربهم بالجوع لأن شاول قتل الجبعونيين وهم من بقايا الأموريين. ــ وهذا أمر غريب جداً لأن الرب كان راضياً عن شاول عندما قام بقتل الأموريين والحيثيين والموآبيين... إلخ. ودائماً كما تزعم أسفار العهد القديم نجد الرب مسروراً جداً بقتل هذه الشعوب. فما الذي جعله يغضب فجأة لقتل الجبعونيين؟ ــ وذهب داوود للجبعونيين وقال: مهما قلتم أفعله لكم. فقالوا لداوود: الرجل الذي أفنانا فلنعط سبعة رجال من بنيه فنصلبهم للرب. فقام داوود بتسليم الجبعونيين سبعة من أحفاد شاول، فصلبوهم على الجبل أمام الرب. وآنذاك سُرَّ الرب وأنزل الغيث. (سفر صموئيل

الثاني: ٢١). وهكذا غدر داوود بأحفاد شاول الذين لا ذنب لهم مع أنه حلف مراراً وتكراراً بأن يرعى بيت شاول ويكرم بنيه.

نشيد داوود للرب:

بعد أن قام الرب بضرب جميع أعداء داوود أنشد داوود يغني للرب. وفي النشيد كلمات جميلة وأخرى تافهة حقيرة. وكلها تدور على أن الرب هو سيف داوود وحصنه وترسه والمقاتل عنه. وإليك مقطعاً منه: «الرب صخرتي وحصني ومنقذي. إله صخرتي، به أحتمي وقرن خلاصي. ملجئي ومناصي.. في ضيقي دعوت الرب وإلى إلهي صرخت فسمع من هيكله صوتي وصراخي دخل أذنيه. فارتجت الأرض وارتعشت.. لأنه غضب، **صعد دخان من أنفه ونار من فمه أكلت. جمراً اشتعلت منه... انكشفت أسس المسكونة من زجر الرب من نسمة ريح أنفه... مع الرحيم تكون رحيماً. مع الطاهر تكون طاهراً. ومع الأعوج تكون ملتوياً...** تعطيني أعدائي فأهلكهم وأفنيهم وأسحقهم، فلا يقومون بل يسقطون تحت رجلي... تصرع القائمين عليَّ تحتي. وتعطيني أقفية أعدائي ومبغضي فأفنيهم... يتطلعون فليس مخلص... إلاَّ الرب فلا يستجيب لهم... فأسحقهم كغبار الأرض... مثل طين الأسواق أدوسهم... وتنقذني من مخاصمات شعبي وتحفظني رأساً للأمم... الإله المنتقم لي والمخضع شعوباً تحتي... أنت برج خلاص لملِكِه ــ داوود ــ والصانع رحمة لمسيحه، لداوود ونسله إلى الأبد». (سفر صموئيل الثاني: ٢٢).

غضب الرب الفجائي على بني إسرائيل:

وبدون مقدمات ولا أسباب يخبرنا سفر صموئيل الثاني (الإصحاح ٢٤)، أن الرب حمى غضبه فجأة على إسرائيل... وقال الرب لداوود أحص إسرائيل ويهوذا. وإحصاء اليهود أمر مستنكر لديهم لأن الإحصاء يتبعه دائماً هلاك وعذاب. فأحصاهم داوود ووجد عدد المقاتلين من إسرائيل ــ جميع الأسباط ما عدا يهوذا ولاوي ــ ثمان مئة ألف رجل ذي بأس مستل السيف.. ورجال يهوذا خمسمائة ألف رجل ــ أما سبط لاوي فهم لا يقاتلون لأن منهم الأحبار والكهنة والأنبياء ــ وهذا العدد كالمعتاد مبالغ فيه جداً.

وحزن داوود بعد أن أحصى الشعب وتضرع للرب. ولكن الرب كلم النبي جاد رائي داوود ــ وكان لكل ملك أو حاكم من بني إسرائيل نبياً خاصاً له. . والتوراة تتحدث عن داوود على أنه ملك وليس نبياً ــ وقال له: كلم داوود وخيّره بين واحدة من ثلاث:

(١) جوع في الأرض لمدة سبع سنين؛ أو:
(٢) تهرب ثلاثة أشهر أمام أعدائك وهم يهزمونك؛ أو:
(٣) ثلاثة أيام وباء.

فاختار داوود الوباء فمات من الشعب سبعون ألف رجل. وبسط الملك يده على أورشليم ليهلكها، **فندم الرب عن الشر**. ــ دائماً يندم الرب على الشر الذي يفعله بابنه البكر إسرائيل كما تزعم أسفار العهد القديم. . ألا لعنة الله على يهود ــ. . وقال الرب للملاك كفى الآن رد يدك عن الشعب. وقام داوود وقدم اللحم المشوي والمحرقات للرب لأن الرب اشتاق جداً لرائحة اللحم المشوي كما تزعم التوراة المحرَّفة. (سفر صموئيل الثاني ٢٤).

شيخوخة داوود ووصاياه الإجرامية الحاقدة حسب زعم التوراة:

«وشاخ الملك داوود. تقدم في الأيام. وكانوا يدثرونه بالثياب فلم يدفأ. فقال له عبيده: ليفتشوا لسيدنا الملك على فتاة عذراء، فلتقف أمام الملك، ولتكن له حاضنة، ولتضطجع في حضنك، فيدفأ سيدنا الملك. ففتشوا على فتاة جميلة في جميع تخوم إسرائيل فوجدوا أبيشج الشونمية فجاءوا بها إلى الملك. وكانت الفتاة جميلة جداً فكانت حاضنة الملك. وكانت تخدمه، ولكن الملك لم يعرفها» (سفر الملوك الأول ١ : ١ ــ ٢).

وبدأت المعارك بين أبناء داوود لخلافته. وقام أدونيا بتعيين نفسه خليفة. وتحركت أم سليمان مع ناثان وصادوق الكاهن، وتحدثت إلى داوود حتى قام داوود وطلب من الكاهن صادوق والنبي ناثان أن يقوموا ويمسحوا سليمان ملكاً على إسرائيل.

وتمت بذلك خلافة سليمان لداوود دون إراقة دماء. وأوصى داوود سليمان

بمجموعة من الوصايا، وأن يقوم بقتل مجموعة ممن عفا عنهم داوود في السابق ولكن قلبه المليء بالحقد كما تزعم التوراة لم يسمح له أن يموت قبل أن يفنيهم!! والغريب حقاً أنه أوصاه بقتل يوآب قائد جيشه، والذي حقق له كل انتصاراته على أعدائه!! والذي أجلسه على العرش وقال له: لا تدع شيبته تنحدر بسلام إلى الهاوية بل اقتله!! وشمعي البنياميني الذي عفوت عنه.. الآن لا تبرره وأحدر شيبته بالدم إلى الهاوية.

داوود عليه السلام في القرآن الكريم:

تختلف قصة داوود في القرآن الكريم اختلافاً شاسعاً عن قصته في التوراة المحرَّفة.. فبينما تقص علينا أسفار العهد القديم ـ صموئيل الأول والثاني وبداية سفر الملوك الأول ـ قصة داوود في صورة رجل يبحث عن الملك، ذي حيلة واسعة ومكر وخداع، جبان رعديد عند الشدائد والمصاعب، جبار سفاك عندما يملك، يبيد للمدن والقرى ويهلك الحرث والنسل ويحرق النساء والأطفال في الأتون وينشر الرجال بالمناشير، يفسق ويكذب ويفجر ويسرق ويزني بحليلة جاره أوريا الحثي.. ولا يترك موبقة من الموبقات ولا كبيرة من الكبائر إلَّا يأتيها.

بينما نرى هذه الصورة الفظة الغليظة الحقيرة لداوود حتى في ابتهالاته في التوراة المحرَّفة، يعرض القرآن الكريم صورة وضيئة كلها نور لداوود عليه السلام الذي تسبح معه الجبال والطير:

(١) وأول ذكر يرد في القرآن الكريم عن داوود يأتي في قصة طالوت ـ شاول ـ حينما برزت القلة القليلة المؤمنة تحارب الكثرة الكاثرة الكافرة.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ ـ أي نهر الأردن ـ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾.

لا كما تزعم التوراة المحرَّفة ــ سفر صموئيل الأول ــ أن طالوت ــ شاول ــ وبني إسرائيل معه دخلوا الجحور خوفاً من جالوت وأنهم ارتعدوا ارتعاداً عظيماً ورفضوا مبارزة جالوت وهو يتحداهم أربعين يوماً صباح مساء حتى جاء الغلام الراعي داوود وضربه بمقلاعه فقتله.

ويبدو من السياق القرآني أن المعركة قامت فعلاً بين القلة المؤمنة والكثرة الكافرة، وثبت الله المؤمنين فانتصروا على الكافرين. وقتل داوود جالوت في المعركة. قال تعالى بعد أن ذكر ذلك الدعاء الخاشع من القلة المؤمنة:

﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ﴿٢٥١﴾ (البقرة: ٢٥١).

وهكذا برز داوود الفتى على المسرح دون ذكر أي تفاصيل.. ويخبرنا المفسرون أن طالوت ــ شاول ــ الملك سُرَّ بداوود جداً وزوَّجه ابنته فلما مات طالوت تولى المُلك بعده داوود. ولم تقم معارك بين داوود وطالوت وحاشا أن تقوم، فطالوت قد آتاه الله بسطة في العلم والجسم واختاره الله بنفسه ليكون ملكاً على بني إسرائيل. وداوود قد جمع الله له الملك والحكمة وهي النبوة وعلمه مما يشاء.

وحاشا أن يقوم بين هذين الشخصين الكريمين صراع مرير حاقد من أجل الكرسي. وكل ما ورد في التوراة المحرَّفة ــ سفر صموئيل الأول ــ من قصة الصراع المرير الحاقد بين داوود وشاول ــ طالوت ــ ليس له أصل، وهو موضوع من موضوعات بني إسرائيل وتحريفاتهم الكثيرة التي سودت صحائف الأنبياء وجعلتها في أقذر صورة حقيرة يتصورها إنسان.

(٢) ويأتي ثاني ذكر لداوود في القرآن في سورة النساء في معرض الامتنان على النبي صلى الله عليه وسلم بالوحي كما أوحي إلى الأنبياء قبله ومنهم داوود عليه السلام الذي آتاه الله الزبور.

قال تعالى:

﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ ﴾. (النساء: ١٦٣).

والزبور هو أحد الكتب الموحىٰ بها من الله، والتي فقدت مثلما فقدت صحف إبراهيم وتوراة موسى وإنجيل عيسى عليهم السلام أجمعين.

والزبور الموجود باسم المزامير فيما يسمى العهد القديم مكذوب دون ريب أو شكٍّ على داوود عليه السلام. . ويزعم مؤلفو المزامير أنها من وضع داوود وسليمان ومجموعة كبيرة أخرى من أنبياء بني إسرائيل. وهي مجموعة من الأناشيد فيها الغث والسمين والطيب والخبيث وشيء من الحق وفوقه أطنان من الباطل واللغو والأكاذيب. (انظر فصل المزامير).

(٣) ويأتي ثالث ذكر لداوود في القرآن الكريم في سورة **المائدة**.

قال تعالى:

﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ (المائدة: ٧٧ ــ ٧٨).

ولا شك أن داوود عليه السلام قد ضاق ذرعاً بأكاذيب يهود وخداعهم وجبنهم وعبادتهم للأوثان، وحبهم للمال وعبادتهم الذهب، وانتشار الزنى والربا والخمور بينهم. ورغم أنه استطاع أن يقيم مملكة شملت العديد من الشعوب المحيطة به إلاَّ أنه لم يستطع أن يقيم أنفس بني إسرائيل المعوجة. لذا جاء في دعاء داوود في سفر صموئيل الثاني، الإصحاح ٢٢ «وتنقذني من مخاصمات شعبي وتحفظني رأساً للأمم».

لذا قام بلعنهم كما أخبرنا القرآن الكريم، كما فعل كثير من أنبياء بني إسرائيل من قبله ومن بعده. وآخرهم المسيح عيسى بن مريم عليه السلام.

(٤) ويأتي رابع ذكر لداوود عليه السلام في القرآن الكريم في معرض الامتنان على إبراهيم عليه السلام وكيف آتاه الله الحجة والنبوة وجعل من نسله الأنبياء.

قال تعالى:

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾. (الأنعام: ٨٣ ــ ٨٤).

ولا يفيد الترتيب ها هنا الترتيب الزمني فداوود وسليمان بعد يوسف وموسى وهارون عليهم السلام.

والآية الكريمة تربط الأنبياء جميعاً بوحدة الدين كما تربطهم بإبراهيم أبي الأنبياء بآصرة النسب عدا من سبق إبراهيم عليه السلام من الأنبياء.

(٥) ويأتي الذكر الخامس لداوود في القرآن الكريم في سورة الإسراء حيث يذكر المولى سبحانه وتعالى تفضيله بعض الأنبياء على بعض، ومنهم داوود عليه السلام الذي آتاه الله الزبور.

قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾. (الإسراء: ٥٥).

(٦) أما الذكر السادس فيشمل داوود وسليمان ابنه حيث نراهما يحكمان في قضية الحرث الذي نفشت فيه غنم القوم، فألهم الله سليمان الحكم الصواب. وسُرَّ بذلك داوود حيث رأى حكمة ابنه تفوق حكمته. وكلاهما قد آتاه الله الحكمة والعلم. وسخَّر مع داوود الجبال يسبحن والطير، وعلمه صنعة الزرود بطريقة فنية جديدة بحيث تكون سابغة غير ثقيلة على الجسم. قال تعالى:

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ

يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾. (الأنبياء: ٧٨ ــ ٨٠).

وفي هذه القصة التي قصها الله علينا نرى حكمة سليمان تفوق حكمة أبيه داوود في القضاء وليس ذلك بقادح في داوود عليه السلام.

روى أهل التفسير عن ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم أجمعين: أن الغنم نفشت ليلاً في حقل كرم قد أينعت عناقيده، فجاء صاحب الحقل والغنم إلى داوود ليحكم بينهما، فحكم داوود عليه السلام بأن يأخذ صاحب الحقل غنم الرجل تعويضاً له. فلما علم سليمان بالحكم قال: ليس هو كذلك. فقضى بأن يدفع الغنم لصاحب الحرث، فيكون له أولادها وألبانها وسلاؤها ومنافعها، ويدفع الأرض لصاحب الغنم فيقوم على إصلاحها حتى تعود كما كانت فإذا بلغ الحرث ما كان عليه أخذه صاحب الحرث ورد الغنم لصاحبها.

وقد قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن على أصحاب المزارع أن يحفظوها نهاراً فإذا اعتدت السائمة عليها فهي هدر. وأن على أصحاب المواشي أن يحفظوا مواشيهم ليلاً فإذا انطلقت واعتدت على الحرث والزرع فهم ضامنون. وقد روى الإمام أحمد وأبو داوود وابن ماجه أن ناقة البراء بن عازب دخلت حائطاً ــ بستاناً ــ فأفسدت فيه فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على أهل الحوائط ــ البساتين ــ حفظها بالنهار، وما أفسدت المواشي بالليل ضامن على أهلها. وخطأ الحاكم في القضية لا يفسد أجره وثوابه إن اجتهد في الأمر. قال صلى الله عليه وسلم: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر». (أخرجه البخاري عن عمرو بن العاص).

ثم ذكر المولى سبحانه وتعالى أن الله قد وهب كلاً من داوود وسليمان علماً وحكماً. وسخَّر مع داوود الجبال والطير تسبح بتسبيحه. وكان داوود عليه السلام ذا صوت رخيم جميل، فإذا تغنى في هدأة الصبح أو عند المغيب؛ توقفت الطير عن طيرانها وترنمت معه، وأوبت الجبال بصوته وهو يترنم بالزبور الذي آتاه الله إياه.

ولم يؤت أحد من البشر من حسن الصوت وجماله ورقته وعذوبته ما أوتي داوود. حتى أن النبي صلى الله عليه وسلم لما سمع أبا موسى الأشعري وهو يتلو القرآن ــ وكان صوته جميلاً حسناً ــ قال: «لقد أوتي مزماراً من مزامير آل داوود». وقال أبو موسى لما علم بذلك: «يا رسول الله لو علمت أنك تستمع لحبّرته لك تحبيراً».

وقد ورد أن داوود عليه السلام يغني لأهل الجنة بصوته العذب ويقرأ من مزاميره بحمد الرب، فيكون ذلك من نعيم الجنة الذي يتنعم بها المؤمنون.

وقد أفاض الله على داوود من نعمه، وما أجمل أن تتجاوب الكائنات مع هذا النبي الكريم في تسبيحاته وقراءته.

وأعطاه فوق ذلك علم صناعة الدروع السابغة ﴿وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون﴾، وكانت الدروع قبل داوود صفائح. وداوود عليه السلام كان أول من سردها حلقاً حلقاً بعضها آخذ برقاب بعض. فيلبسها المحارب فتكون خفيفة سابغة وفي نفس الوقت تحميه من النصال والسهام والرماح. فهي من نعم الله التي أنعم بها على البشر بواسطة داوود الذي ألان الله له الحديد: ﴿وألنا له الحديد أن اعمل سابغات وقدر في السرد﴾.

فيا له من نبي كريم أوتي الحكمة وفصل الخطاب مع صوت شجي يوقف الطير في كبد السماء، وشجاعة وبسالة نادرة، وكرم خلق ومهارة في صناعة الدروع وجمال صوت وصورة.

والغريب أن التوراة المحرَّفة لم تذكر شيئاً من هذه الصفات الرائعة الجميلة، ولم تحدثنا عن حكمة داوود، ولا عن صوته الجميل ولا عن مهارته في صنع الدروع. بل حدثتنا فقط عن ما زعمته من خداع وغش وكذب وجور وقتل وسفك دماء بدون وجه حق، وإفساد الحرث والنسل وقتل النساء والأطفال وحرقهم في الأتون ونشر الرجال بالمناشير، ومهره الغريب لزوجته وهي ميكال التي قدم لها مائتي غلفة ــ مائتي قضيب ــ من الفلسطينيين. وزناه بحليلة جاره أوريا الحثي... إلخ. وشتان ما بين الصورتين. صورة وضيئة كريمة لداوود في القرآن الكريم وصورة وضيعة حقيرة له في

أسفار العهد القديم. ومع هذا يزعم يهود أنهم يتولون داوود ويضعون نجمته السداسية علامة عليهم. وداوود منهم براء.

وتتكرر في القرآن الكريم صفات داوود النبيلة في سورة النمل، قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ ﴾. (النمل: ١٥).

وفي سورة سبأ. قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾. (سبأ: ١٠ ـ ١١).

(٧) ويأتي آخر ذكر لداوود عليه السلام في القرآن الكريم **في سورة ص**، حيث يقص علينا المولى قصة جديدة عن داوود عليه السلام.

قال تعالى:

﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾.

(ص: ١٧ ـ ٢٦)

يذكر المولى تعالى أن داوود عليه السلام كان ذا أيد، والأيد هو القوة في العلم والعمل. وقد وصف لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عبادة داوود وصيام داوود. كان داوود عليه السلام يقوم ثلث الليل، ويصوم يوماً ويفطر يوماً. قال صلى الله عليه وسلم: «أحب الصلاة إلى الله صلاة داوود. وأحب الصيام إلى الله صيام داوود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه. وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً. ولا يفر إذا لاقى وإنه كان أواباً». (أخرجه البخاري ومسلم).

وهي صفات ربانية مشرقة على نقيض ما وصفته به التوراة المحرَّفة حيث لم نسمع ولم نقرأ شيئاً عن صلاة داوود ولا صيامه، سوى أنه صام لما كانت امرأته بتشبع التي زنا بها حاملاً من زناها وأصابها طلق الإجهاض، ونزل الجنين ميتاً. وكان صيامه من أجل الجنين الذي حملت به امرأة أوريا الحثي من زناها بداوود حسبما تزعم التوراة المحرَّفة. ولم تصفه التوراة بالشجاعة بل بالجبن والخسة، يفرُّ إذا رأى العدو قوياً، ويهجم على غرة ثم يقتل النساء والأطفال، ويضعهم في الأتون والمحارق ويتمتع بمنظرهم وهم يحترقون أحياء، كما يتمتع بمنظر الشيوخ والرجال وهم ينشرون بالمناشير.

وتستمر السورة الكريمة في عرض صفات داوود عليه السلام الجميلة وكيف أن الجبال كانت تسبح معه بالعشي والإشراق مع صوته الندي الرخي العذب الذي يمجّد المولى سبحانه وتعالى فتتجاوب أصداء الكائنات بهذه الأناشيد الجميلة الرائعة، حيث يرتعش الكون تسبيحاً لخالقه. فإذا ما رفع داوود صوته الرخيم حُشرت له الطيور من السماء ينادي بعضها بعضاً: إن داوود يترنم ترنيماته المسبحة الحامدة للرب. بهذا الصوت الشجي تتجمع الطيور في كبد السماء فوق رأس داوود حتى ينتهي داوود من تسبيحاته وترنيماته.

قال تعالى:

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾.

وصلاة الضحى التي صلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت أم هانىء بنت أبي طالب يوم فتح مكة هي من تسبيحات الإشراق، حيث ورد عن ابن عباس

رضي الله عنهما، أنه قال: «قد ظننت أن لهذه الساعة ــ أي الإشراق ــ صلاة. يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿يسبحن بالعشي والإشراق﴾ وما علمت صلاة الإشراق إلَّا الآن ــ أي عندما أخبرته أم هانىء بصلاة النبي وقت الإشراق عند دخوله مكة فاتحاً ــ. وكانت الطير تؤوب إليه إذا سمعت صوته وتطيعه فيما يقول. وذلك قوله تعالى: ﴿والطير محشورة كل له أواب﴾ وأعلن المولى سبحانه وتعالى كيف جعل لداوود ملكاً شديداً مؤيداً بالحماية الربانية والهيبة النبوية والعدد والعتاد ﴿وشددنا ملكه﴾ وزاده ﴿وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب﴾ ويا له من مُلك مهيب مبني على الحق والعدل والحكمة والصراحة وفصل الخطاب مع القوة والتأييد والهيبة والرهبة والشجاعة النادرة والإقدام الكامل والتواضع، وقد جمع الله له ذلك كله مع حسن الصوت وجمال الصورة وبهاء الطلعة.

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟
لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ
﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ
لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾
فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾. (صٓ: ٢١ ــ ٢٥).

أعرض ابن كثير عن التفاصيل التي أوردها بعض المفسرين وقال: إنها مأخوذة من الإسرائيليات. والأولى عنده أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة وأن يرد علمها إلى الله تعالى تنزيهاً لمقام النبوة عما ألصق به مما لا يليق.

وقال آخرون: بل القصة على ظاهرها حيث جاءه رجلان فجأة ودخلا عليه محرابه دون استئذان، وقصا عليه قصتهما: حيث كان لأحدهما تسعُ وتسعون نعجة ولأخيه نعجة واحدة، فقال صاحب النعاج الكثيرة: إنك لا تستطيع أن تقوم بمؤنتها وحاجتها، وأنا لدي المال الوفير والرعاة الذين يرعونها، ونعجتك لا تجد من يقوم برعايتها؛ فأعطني إياها حتى أرعاها لك.

فقال داوود: ﴿لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه﴾ حيث لم يكتف بما آتاه الله بل أراد أن يكمل بها المئة ويحرم أخاه من نعجته الوحيدة.

وقال المفسرون الذين أخذوا بالإسرائيليات ــ والتي تحرّج كثير من المفسرين من أمثال ابن كثير من المتقدمين وسيد قطب من المتأخرين أن يأخذوا بها ــ: إن القصة مثال ضربه الله لداوود حيث أراد أن يتزوج امرأة أحد جنوده فطلب من الجندي أن يطلق زوجته لأن الجندي لا مال له وداوود سيكفل لها عيشة هانئة سعيدة.. وبما أن زوجة الجندي جميلة وذكية فما أحراها بعيشة مع داوود النبي الملك بدلاً من أن تعيش حياة بسيطة مليئة بالمتاعب مع الجندي البسيط.

فظهر لداوود ملكان في هيئة بشر اقتحما عليه خلوته فجأة ففزع منهم قالوا: لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض. وضربا له مثلاً ﴿إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزّني في الخطاب. قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه﴾. فقال أحدهما للآخر: لقد حكم على نفسه. فتنبه داوود واختفى الملكان فجأة كما ظهرا فجأة. ﴿وظن داوود إنما فتناه فاستغفر ربَّهُ وخرَّ راكعاً وأناب﴾. وسجد داوود سجدة طويلة، وانتحب ما شاء الله له أن ينتحب. وذكر بعضهم: أنه استمر ساجداً أربعين صباحاً. وقد سجد رسول الله هذه السجدة. تأسياً بداوود عليه السلام؛ لأن الله تعالى قال بعد أن ذكر الأنبياء ومنهم داوود وسليمان ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ فتأسى بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم.. والمسلمون من ورائه.

وهذه الصورة التي رفضها أهل التفسير على أساس أنها قادحة في عصمة النبوة لا تقارن بما ورد في التوراة المحرَّفة، حيث تزعم أن داوود عليه السلام أخذ زوجة أوريا الحثي بعد أن رآها تستحم عارية في بيتها، وأرسل جنوده لأخذها عنوة ثم زنى بها. فلما حملت دعا زوجها من جبهة القتال ليأتيها ويختفي حملها، ولكن زوجها أبى أن يدخل عليها والجيش كله في وسط المعمعة. فما كان من داوود حسب زعم التوراة إلَّا أن أرسل معه رسالة لقائد الجيش يأمره فيها بأن يدفع بأوريا الحثي إلى الالتحام بالعدو مع كوكبة من الفرسان ثم يأمر الفرسان بأن ينسحبوا ويتركوه لسيوف الأعداء

فتنوشه وتقتله. وهكذا تخلص داوود من زوج المرأة الجميلة بتشبع التي زنى بها. وما كاد الرجل يقتل حتى ضمها إلى نسائه.

والفارق بين الصورتين كالفارق بين السماء والأرض وبين الطُّهر والرذيلة. ولم يفعل داوود المعصية حيث نبهه المولى إلى ما عزم عليه من أن يجعل جُنديَه يطلق زوجته فيأخذها داوود ويضيفها إلى قائمة نسائه العديدات.. ﴿وظن داوود إنما فتناه فاستغفر ربه وخرَّ راكعاً وأناب﴾.

وهكذا ترى الصورة التي يتحرج منها فضلاء المفسرين لا تقارن بما هو موجود فعلاً في سفر صموئيل الثاني من العهد القديم الذي اتهم داوود بالزنى بحليلة جاره وبقتل زوجها. فجمع ضغثاً على إبّاله، وزاد جريمة على جريمة، واجتمعت له بذلك جرائم عدة من الزنى بحليلة الجار إلى الكذب والاحتيال والخداع والخسة والنذالة إلى تدبير جريمة قتل لشخص بريء.

وحاشا داوود من ذلك كله وإنما هي قاذورات يهود وأخلاق يهود وطبائع يهود الذين لعنهم الله ولعنهم داوود وعيسى بن مريم، فألصقوا بالأنبياء الأصفياء الأتقياء كل نقائصهم ورذائلهم وأخلاقهم المنحطة الذميمة، وجعلوها مكان التوراة الحقة التي أضاعوها. وتعبّدوا بتلاوة هذه الجرائم ليستمروا في ارتكابها دون شعور بالإثم ولا وخزة من ضمير.

أما داوود عليه السلام فقد قال له ربه: ﴿وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾ له يوم القيامة قربى عند الله؛ لأن داوود عليه السلام، كان خليفة مقسطاً عادلاً رحيماً. والرسول صلوات الله وسلامه عليه يقول كما جاء في الصحيح: «المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمٰن وكلتا يديه يمين... الذين يقسطون في أهليهم وما ولوا». وقال: «إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأقربهم منه مجلساً إمام عادل. وإن أبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشدهم عذاباً إمام جائر» (أخرجه الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه).

وروى الترمذي بسنده قال: «يقام داوود يوم القيامة عند ساق العرش ثم يقول: يا داوود مجدني اليوم بذلك الصوت الحسن الرخيم الذي كنت تمجدني به في الدنيا.

فيقول وكيف وقد سلبته؟! فيقول الله عزَّ وجلَّ إنى أرده عليك اليوم. فيرفع داوود عليه السلام بصوت يستفرع نعيم أهل الجنان».

﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾. (صٓ: ٢٦).

قال ابن كثير في تفسيره: «هذه وصية من الله عزَّ وجلَّ لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيل الله. وقد توعد تبارك وتعالى من ضل عن سبيله وتناسى يوم الحساب بالوعيد الأكيد والعذاب الشديد»... فإذا كان الله تعالى قد أوصى داوود وهو من هو بذلك، وحذره من مغبة الهوى فغيره أحرى بالوصية والتنبيه والتحذير. وقد وقف أبو زرعة أمام عبد الملك بن مروان وقال له: يا أمير المؤمنين أأنت أكرم على الله أم داوود عليه السلام؟ إن الله تعالى جمع له النبوة والخلافة ثم توعده في كتابه فقال تعالى ﴿يا داوود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله. إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب﴾.

فارتعب منها عبد الملك بن مروان.

مزامير داوود (عليه السلام)

تنسب هذه المزامير إلى داوود حيث نرى ٧٣ من بين ١٥٠ منسوبة إلى داوود عليه السلام. ولا شك لدينا أن داوود عليه السلام قد أنشد كثيراً من الأناشيد تمجيداً لله وحمداً وتسبيحاً له، ولكن هذه الأناشيد دخلها التحريف والإضافة والحذف والزيادة كما سنوضحه إن شاء الله تعالى.

ينقسم العهد القديم إلى ثلاثة أقسام كما أسلفنا في أول الكتاب، وهي:

(١) **الأسفار الخمسة**: والتي يطلق عليها أحياناً اسم التوراة أو أسفار الشريعة أو أسفار موسى وهي التي تنتهي بموت موسى عليه السلام.

(٢) **أسفار الأنبياء**: وهي مجموعة من الأسفار تنسب إلى بعض أنبياء بني إسرائيل، وتدعى أحياناً أسفار التاريخ لما تقصه من حكايات لتاريخ بني إسرائيل. وفيها قصص ملفقة وأكاذيب كثيرة.

(٣) **أسفار الشعر والحكمة**: وتشمل سفر المزامير والأمثال والجامعة ونشيد الإنشاد.

وتنسب المزامير إلى مجموعة من أنبياء بني إسرائيل وأدبائهم وشعرائهم. وتشتمل على ١٥٠ مزموراً. منها ٧٣ منسوبة إلى داوود عليه السلام، والأخرى منسوبة إلى موسى وسليمان عليهما السلام، وإلى آساف وبني قورح وراجع وهيمان وأيتان ويدوتون.

---

(١) المدخل لدراسة التوراة والعهد القديم.

ويذكر كتاب «المزامير»[1] المأخوذ من الترجمة المسكونية للكتاب المقدس، وترجمة أورشليم الفرنسية للكتاب المقدس، والمترجَم من قبل الرهبانية اليسوعية في الشرق الأدنى، أن المزامير هي مجموعة من الأناشيد الدينية المنسوبة لعدد كبير من المؤلفين على مدى أجيال طويلة، منذ عهد موسى ـ عليه السلام ـ الذي عاش في القرن الرابع عشر قبل الميلاد إلى أواخر القرن الثالث قبل الميلاد. أي إنها كتبت على مدى ألف ومائة عام.

وتذكر الرهبانية اليسوعية في الشرق الأدنى في دراستها الموضوعية بين يدي كتاب المزامير: أن هناك عدة مزامير منفردة ومبعثرة في أسفار أخرى من العهد القديم، وهي غير موجودة في سفر المزامير. وترجع هذه المزامير إلى أزمنة مختلفة وبيئات مختلفة وأشخاص مختلفين. وقد يذكر المزمور الواحد مرتين في سفر المزامير. ومن ذلك المزمار ١٣، ذكر مرة أخرى تحت رقم ٥٣. أو جزء من المزمار ويكرر في مزمار آخر.

ويختلف طول المزامير، ولها عناوين غير مفهومة في معظم الأحيان، كما يذكر ذلك أصحاب الرهبانية اليسوعية في مدخل كتاب المزامير.

ويعتبر داوود عليه السلام مرنّم إسرائيل ويذكر بأنه شاعر وموسيقار ومخترع آلات الطرب ومنظم الأناشيد الغنائية الجماعية ـ الليتورجي ـ.

ورغم أنه لم تثبت نسبة أي من هذه المزامير الموجودة لداوود أو غيره، إلاّ أنها أصبحت جزءاً من الفولكلور الشعبي اليهودي، وجزءاً هاماً من الليتورجي ـ الأناشيد الدينية الجماعية والطقوس ـ لليهود والمسيحيين على مدى القرون والأجيال. وتكتسب أهميتها بذلك من هذا الدور الذي تمثله في إغناء الحياة الروحية لدى اليهود والنصارى مهما قيل في صحة نسبتها إلى الأشخاص المنسوبة إليهم.

ورغم أن المزامير قيلت وكتبت باللغة العبرية القديمة إلاّ أن هذه الأصول القديمة ضاعت وبقيت الترجمة اليونانية التي كتبت في القرن الثاني قبل ميلاد

(١) كتاب «المزامير»، دار المشرق، بيروت ١٩٨٤م، جمعيات الكتاب المقدس في المشرق.

المسيح. وهي المعروفة باسم الترجمة السبعينية للعهد القديم بأكمله. ووضع سفر المزامير بين سفر أيوب وأسفار الأنبياء وكان عددها ١٥١ مزموراً.

ويذكر الذين قدموا لكتاب المزامير أن هذه المزامير قد ألفت مرة أخرى في أوقات متأخرة. «وهناك عقبات كبرى تعترض طريقنا إن أردنا إدراج القصائد في تاريخ إسرائيل وتحديد تواريخها. فقد تَضمّ وثيقة متأخرة نسبياً تقاليد قديمة العهد. وقد يُقْدِمُ مؤلفون حديثون على إعادة التأليف لما تركه أسلافهم؛ فيتبنّون أو يكيّفون مواد قديمة، وقد يرصّعون بمجوهرات جديدة أجزاءً قديمة جداً، وحتى من بقايا أدب الشعوب المجاورة إن أمكن الأمر. لن ينتهي الجدل بسرعة في مسألة عمر النصوص والتأثيرات الغريبة التي طرأت عليها فهي من أشد المسائل تعقيداً وصعوبة، ولكن الدقة في تاريخ مزمور من المزامير ليست ــ والحمد لله ــ من العناصر التي لا غنى عنها لإبراز معناه الجوهري ومغزاه الروحي».

وهكذا يعترف آباء الكنيسة ومترجمو المزامير أنها محرَّفة وأنها كتبت على مدى ألف عام أو تزيد، وأنها غير معروفة المصدر على وجه الدقة، وأن المؤلفين المتأخرين أضافوا إليها وبدلوا فيها كما شاءت لهم أهواؤهم. بل جعلوا فيها أشياء كثيرة من آثار الفراعنة والآشوريين والكلدانيين والكنعانيين والقصائد الموجهة لعبادة الشمس وعبادة البعل ــ البعليم ــ وغيرها من الأوثان والأرجاس. وقد ذكر بعض شراح الكتاب المقدس أن نشيد العاصفة مسروق من أناشيد إكرام الوثن الإله بعل، الذي كان يعبد في لبنان وما حولها، والذي عبده الكنعانيون بصورة خاصة[1]. وأن مطلع المزمور رقم ١٩ يتضمن الابتهالات التي كانت تقدم لإله الشمس، وأن نشيد الخلق رقم ١٠٤ مستلهم من الترنيمة المصرية للإله آتون، وهو نشيد أخناتون. ويذكر هوجو جرسمان

---

(١) ورد ذكر البعل في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿أتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين﴾، ونبيهم إلياس عليه السلام، الذي قيل إنه من نسل هارون عليه السلام. أرسل إلى أهل بعلبك ــ بعل بك ــ الذين كانوا يعبدون الصنم بعل في لبنان. قال تعالى: ﴿إن إلياس لمن المرسلين. إذ قال لقومه ألا تتقون. أتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين. الله ربكم ورب آبائكم الأولين. فكذبوه فإنهم لمحضرون إلاّ عباد الله المخلصين. وتركنا عليه في الآخرين. سلام على إلياسين﴾. (الصافات: ١٢٣ ــ ١٣٠).

ود. أحمد فخري في كتابه مصر الفرعونية ود. عبد العزيز صالح في كتابه الشرق الأدنى القديم والأستاذ حسن في كتاب الأدب المصري القديم والدكتور بدران حسن بدران في كتابه التوراة العقل والعلم التاريخ: أن المزمور ١٠٤ منقول من نشيد الخلق لأخناتون.

تقسيم المزامير إلى ثلاث مجموعات:

تقسم المزامير إلى ثلاث مجموعات أساسية تندرج تحتها مجموعات أصغر. وهذه المجموعات الثلاث هي:

(١) **مجموعة التسابيح**: وهي منتشرة في مزامير كثيرة متفرقة. ويرى معظم الباحثين من رجال اللاهوت أن «التسابيح» قد ألفت للخدمة الليتورجية ـ أي الأناشيد الدينية الجماعية ـ وعزفت بمناسبة أعياد إسرائيل. وطابعها الجماعي بارز جلي يعبّر عنه بترنيم الجوقة الغنائية والهتاف والتصفيق والرقص والتطواف الجماعي والتظاهر المهيب، والترديد الجماعي لمقاطع معينة أو لكلمة هللويا[١].

وهذه التسابيح قد ترفع إلى الله أو إلى صهيون أو إلى الهيكل أو إلى الملك!!![٢]. وعندما توجه الأناشيد إلى الله. فإنما توجه إليه باعتباره رب العهد الذي قطعه على نفسه لإبراهيم وإسحاق ويعقوب بأنه سيعطيهم أرض الكنعانيين وأرض الأمم الأخرى ويجعلهم عبيداً أبد الدهر لإسرائيل. «وأرضك يا إسرائيل من النيل للفرات»، وتذكير بذلك العهد الأبدي الذي قطعه الله لابنه البكر إسرائيل. عهد لا ينقطع مهما أجرم هذا الابن وعبد الأوثان وترك عبادة إلّهه. والرب كما أسلفنا في التوراة والعهد القديم وكتب الأدب والأناشيد يجعلونه رب إسرائيل فقط. فهو عندهم إلّه قبيلة وإن كان يتسلط على الآلهة الآخرين، فهو بمثابة زيوس رب الأرباب عند

(١) يذكرنا ذلك بعبادة المشركين من قريش عند البيت وغيرهم من مشركي العرب الذين قال الله تعالى عن صلاتهم وعبادتهم: ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلَّا مكاءً وتصدية﴾، أي تصفيقاً وغناءً ورقصاً وضجيجاً. وهذا ما يفعله اليهود والنصارى في صلاتهم حسبما نقلناه عنهم آنفاً.

(٢) مدخل إلى المزامير، كتاب «المزامير»، دار المشرق بيروت، ص ١٥.

اليـونان، وجـوبتير رب الأربـاب عند الـرومان، مـع فـارق واحـد، هـو أن يهـوه ــ إلّـه إسرائيل الخاص ــ منحاز لشعبه وابنه البكـر إسرائيـل. والذي يعتبـره كالابن الحقيقي الذي خرج من صلبه. ومهما كان الابن عاقاً فإن قلب الأب معلق أبداً بابنـه. وخاصـة إذا جاء هذا الابن العـاق وأعلن توبتـه وندمـه أمام أبيـه، وبكى أمامـه بقليل من دمـوع التماسيـح فإن قلب الأب يرق له بسرعة ويخـرجه من ورطـاته، ويحـارب بالنيـابة عنـه ويشـرد قاتليـه، ويجعلهم تحت أقدام شعبـه وابنه البكـر إسرائيـل!!! وهـذه الأنـاشيـد أو التسابيـح تذكّر الله بعهوده القديمة لإبراهيم وإسحاق ويعقوب، وعجائب صنعتـه في إنقاذ ابنه البكر إسرائيل، وكيف خلّص شعبه من نير الظلم، وكيف مـزّق أعداء شعبـه. وكلها تذكّر الرب بأن عليه أن يلتزم بهذا العهد ولا يخون شعبه وابنه البكر إسرائيل حتى ولو زاغ ابنه عن الطريق يوماً ما.

وقد توجـه الأناشيـد إلى الله بصفته ملك إسـرائيل الجـالس في بيته ومسكنـه في القدس أو في جبل صهيون، والذي يعيش قاضياً وملكاً لإسرائيـل ومدافعـاً عنها وسيـداً للشعـوب كافـة. ويقول مفسـرو العهد القـديم والمزاميـر: إنها تشبـه أنـاشيـد تنصيب الملوك. وكانت تنشد في طقوس تنصيب ملوك إسرائيل.

أما أناشيد صهيون[1] فتشيـد بأورشليم وهيكلهـا. . «وتضفي هذه الأنـاشيد على صهيون صفات بهية مختلفة، فهي عـاصمة سـلالة داوود، والعـاصمة الـدينية وأقـدس مساكن العليّ ومدينة الملك الأعظم. وتوجه هذه التسابيـح آخر الأمر إلى الـرب نفسه. فهو الذي اختار جبل صهيون مقراً ومكاناً لراحته»!!![2] تعالى الله عن ذلك.

وتقـول دراسة الـرهبانيـة اليسوعيـة في مقدمتهـا مدخـل إلى المـزاميـر: إن هـذه الأناشيد مأخوذة من الأناشيد القديمة والمرتبطة بالأساطيـر الكنعانيـة التي كانت تضفيهـا

(١) صهيـون: اسم لجبل من جبـال مدينـة القـدس، يـزعمـون أن الـرب سكن فيـه كمـا سكن في الهيكل.

(٢) نقلاً عن دراسة الرهبانية اليسوعية في الشرق الأدنى: مدخل إلى المـزامير، كتـاب «المزاميـر»، دار المشرق بيروت، ص ١٦.

على معبودها البعل، والذي جعلت مقرّه «أقاصي الشمال». . والتي تعتبر مدينته المدينة المثالية للبشرية وعاصمة الشعوب في المستقبل. وهكذا حولت الأناشيد المزمورية المتعلقة بصهيون والهيكل وأورشليم تلك المعاني المتعلقة بمدينة أقاصي الشمال مسكن الإلّه البعل إلى صهيون وأورشليم والهيكل قدس الأقداس ومسكن الرب ومحل راحته، ومدينة المستقبل والماضي لكل شعوب الأرض التي تتمجد في إسرائيل!!

وترجع مزامير المراقي إلى زمن متأخر عن عهد اليهودية حيث تمثل اللاويين الذين كانوا ينشدون هذه المزامير على درجات باب فكانور الأربع عشرة. والتي أنشدها من بعدهم «الحجاج» أثناء صعودهم إلى بيت المقدس والهيكل.

أما مزامير الملك فكانت تشيد بالملكية. وكانت الاحتفالات تقام في القصر الملكي وفي الهيكل بمناسبة التتويج والتنصيب وذكرى ارتقاء العرش وزواج الملك. أو قبل الذهاب إلى الحرب أو في ذكرى الانتصار على الأعداء. وهي بالتالي أناشيد مناسبات البلاط.

وتقول دراسة «مدخل إلى المزامير»: «وينشأ وجه الشبه بينها وبين بيئتها الأصلية، أي البلاط، ومن الشخص الموجهة إليه، أي الملك. والإكرام المؤدي إلى الملك ــ رئيس الأمة ــ يعود إلى الرب الذي باسمه تحكم هذه الأمة. **فالملك هو ابن الله بالتبني ووريثه بما أنه مسيح الرب، فهو جالس عن يمين الله العلي**، ويستفيد من استقرار عرش داوود وخلوده، ذلك العرش الذي هو في نفس الوقت «عرش ملك الرب على إسرائيل. وكثيراً ما يبرز في هذه المزامير ذلك الوعد الذي قطع لداوود على يد ــ النبي ــ ناثان».

وهكذا يدعي مؤلفو العهد القديم والمزامير أن الملك هو ابن الله بالتبني ووريثه وأنه جالس عن يمين الله العلي. وهي صورة تشابه تماماً ما لدى الأمم السابقة حيث زعم فرعون أنه إلّه أو ابن الإلّه. وحيث زعم الأكاسرة الذين حكموا الأمبراطورية الفارسية أنهم من نسل الإلّه. وكذلك فعل النمرود في العراق، حيث زعم أنه إلّه، وأنه من نسل الإلّه. . وهكذا كان يزعم أباطرة الصين وأباطرة اليابان. وبهذه

النظرة الفوقية ادعى ملوك أوروبا في العصور الوسطى بالحق الإلّهي للملوك. رغم أن هؤلاء لم يبلغوا في الإسفاف ما بلغته أسفار العهد القديم المختلفة. ولا شك أنهم اتخذوا نصوص التوراة وأسفار الأنبياء والمزامير وسيلة للتمكن من الحكم المطلق، وأنهم يستمدون ذلك مباشرة من اتصال نسبهم بالله ــ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ــ.

ولا شك في صدق المقولة الخبيثة التي تتهم هذا الدين الكاذب بأنه أفيون الشعوب. فقد جعل الأحبار هذا الدين مطية لأهوائهم وأهواء الملوك واستغلوه استغلالاً بشعاً حقيراً للتحكم في الشعوب.

ولا عجب إذن أن تثور الشعوب على هذه الكهنوتية التي تمتص دماءهم وتجعلهم عبيداً لحفنة من الطغاة، وتزعم أن ذلك كله قد تم بأمر الله ــ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ــ.

(٢) **مجموعة صلوات الاستغاثة**: وهذه هي المجموعة الثانية من المزامير. وهي تتحدث عن حالات الضيق الفردية أو الجماعية التي أصابت بني إسرائيل وخاصة في فترات نكوصهم، والتي أدت إلى تسليط الأمم الأخرى عليهم وتشريدهم وتحطيم هيكلهم. وهي تمثل استغاثات فردية أو جماعية تأتي بعدها صلوات الحمد عند انتهاء الأزمة والشدة. وتتميز الاستغاثات الجماعية بأن تذكّر الربّ بعهوده التي قطعها على نفسه لإبراهيم وإسحاق ويعقوب ولشعبه إسرائيل. وكما تقول دراسة المدخل إلى المزامير: «فالأمر في النهاية يتعلق بكرامة الله وأمانته وإخلاصه لإسرائيل. ولا فرق بين قضية الشعب وقضية الرب!!».

وهذا يوضح لنا إلى حد بعيد عقلية اليهود وعقلية النصارى الذين يتعبدون بهذه المزامير. لهذا نجد النصارى الذين يترنمون بالمزامير والذين يقرؤون العهد القديم على أساس أنه كتاب مقدس يميلون إلى اليهود ضد أعدائهم من العرب والفلسطينيين على أساس أن تعاليم الرب وعهوده قد دلت دلالة قاطعة على أنه يقف مع ابنه البكر إسرائيل ضد هذه الشعوب التي تريد أن تستولي على الأرض التي حلف الله مراراً وتكراراً أن يجعلها لابنه البكر إسرائيل.

أما الصلوات الفردية فهي تمثل حالات يأس أو مرض أو هزيمة لفرد من الأفراد

وهو يحارب أعداءه. وفي أحيان كثيرة يُقرِّع الرب على عدم نجدته له. وتوضح مدى تعلق المنشد بالحياة وخوفه من الموت العدو الأكبر للإنسان. «لذلك كان المرضى والمضطهدون يشكون من النزول إلى مثوى الأموات حيث يسود الظلام والصمت والنسيان. وكانوا يطلقون على مدينة الأموات هذه اسم «شئول» وهو غير الجحيم بمعنى «جهنم» كما تقول دراسة مدخل إلى المزامير الذي أعدته لجنة مسكونية قامت بالترجمة للكتاب المقدس[1].

ويظهر في بعض الصلوات نوع من الفرح بعد استجابة الله لنداء واستغاثة المظلوم حيث يتجلى ذلك فيما يعبرون عنه بالاتحاد بالله ـ تعالى الله عن ذلك ـ وحيث يتجلى الرب في الهيكل. ويتوحّد العبد والرب ـ أعوذ بالله ـ.

(٣) **مجموعة التعليم**: تتضمن المجموعتين السابقتين بعض التعاليم المتفرقة. ولكن هناك بعض المزامير القليلة التي تختص بنوع من التعليم حيث تذكر بعض المزامير التاريخَ المقدس لليهود، وتذكر بعض المزامير الطقوس بشكل تفصيلي، وهناك مجموعة من المزامير التي تحثُّ على فعل الخير وتنفيذ تعاليم الشريعة.

ينظر الدارسون من علماء اللاهوت للمزامير على أساس أنها مجموعة كبيرة من الأناشيد الدينية الجماعية التي تمثل ثروة شعرية وأدبية وتراثاً فكرياً لأكثر من عشرة قرون من الزمان هي التي أُلّفت فيها هذه المزامير وجمعت. وهي تمثل ثقافة وتجارب الشعب اليهودي على مدى أكثر من ألف عام وعمقه الروحي. . .

ونظرة هؤلاء من رجال اللاهوت لا تفترق كثيراً عن نظرة الباحثين الآخرين إلاَّ في درجة الإيمان بهذه الثروة الأدبية والشعرية والنظر إليها بتقديس أو غير تقديس.

فرجال اللاهوت والكنائس والمعابد اليهودية والنصرانية ينظرون إلى ما هو موجود في ما يسمى الكتاب المقدس شاملاً بذلك المزامير التي نتحدث عنها، على اعتبار أنها إلهام من الله لآلاف البشر الذين قاموا بكتابة هذه الكتب والأسفار. بينما ينظر الباحثون

(١) كتاب «المزامير»، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٤م، ص ١٩.

الآخرون على أساس أن هذه الكتب والأسفار تمثل ثقافات مختلفة لمجموعات كبيرة من البشر كتبت هذه الأسفار والأناشيد والأشعار في أوقات مختلفة وأزمان متباينة. ولا يجمعها إلَّا أنها تراث لمجموعة من الناس تدين بعقيدة تجعلها فوق البشر، وأنها الابن البكر لله وشعبه الخاص. وهي بالتالي ليست لها أي قدسية... وليس لها أي قيمة سوى قيمتها الأدبية والتاريخية ـ لا على أساس أنها كتب في التاريخ موثقة ـ والأسطورية الفولكلورية.

أما نحن فنعتقد اعتقاداً جازماً بأن الله قد أوحى إلى موسى عليه السلام بالتوراة وأنه أوحى إلى الأنبياء العديدين من بني إسرائيل، وأنه أوحى إلى داوود الزبور، وأن هذه الكتب والأسفار مقدسة في أصلها، ولكنها قد حرّفت وغُيرت وبُدّلت ولم يبق منها مما أنزل الله إلَّا شذرات تلمح هنا وهناك، تضيء مثل الجواهر والألماس ضمن ركام من المزابل والقاذورات.

ونحن نعتقد أن داوود عليه السلام قد آتاه الله صوتاً جميلاً حسناً. وكان ينشد بهذا الصوت الجميل الرخيم، فتُؤَوِّبُ معه الجبال والطير... ﴿يا جبال أوّبي معه والطير﴾... وأنه كان يسبح لله بهذه الترنيمات الرائعة الفذة فتتوقف الطير في جو السماء تردد معه هذه التسابيح.

ونحن نلمح ضمن هذا الركام الموجود بين أيدينا بصيصاً من نور في هذه الترنيمات التي كان داوود عليه السلام ينشدها بكرة وعشياً والتي سنستعرض شيئاً منها.

ولعل جمال هذه الترنيمات والمقاطع يضيع بسبب أسلوب الترجمة الرديء. وقد حاولنا أن نصحح بعض التعابير ولكنا آثرنا عدم التدخل فيها إلَّا بشكل محدود جداً حفاظاً على أمانة النقل.

أمثلة من مزامير داوود عليه السلام:

المزمور الأول:

«طوبى للرجل الذي لم يسلك في مشورة الأشرار، وفي طريق الخطاة لم يقف. وفي مجلس المستهزئين لم يجلس. لكن في ناموس الرب مسرَّتهُ وفي ناموسه يلهج

نهاراً وليلاً. فيكون كشجرة مغروسة عند مجاري المياه التي تعطي ثمرها في أوانه. وورقها لا يذبل. وكل ما يصنعه ينجح.

«ليس كذلك الأشرار لكنهم كالعصافة التي تذريها الريح لذلك لا تقوم الأشرار في الدين ولا الخطاة في جماعة الأبرار. لأن الرب يعلم طريق الأبرار. أما طريق الأشرار فتهلك».

المزمور الرابع، لداوود:

«عند دعائي استجب لي يا إلٰه برِّي. في الضيق رحَّبت لي. تراءَف عليَّ واسمع صلاتي. يا بني البشر حتى متى يكون مجدي عاراً. حتى متى تحبون الباطل وتبتغون الكذب. فاعلموا أن الربَّ قد ميّز تقيّهُ. الرب يسمع عندما أدعوه. ارتعدوا ولا تخطئوا. تكلموا في قلوبكم على مضاجعكم واسكتوا. اذبحوا ذبائح البر. وتوكلوا على الرب.

كثيرون يقولون من يرينا خيراً. ارفع نور وجهك يا رب. جعلتُ سروراً في قلبي أعظم من سرورهم إذ كثرت حنطتهم وخمرهم. بسلامة اضطجعُ بل أيضاً أنام. لأنك أنت يا رب منفرداً في طمأنينة تسكنني».

المزمور الثامن لداوود:

«أيها الربُّ سيدنا أمجّد اسمك في كل الأرض حيث جعلت جلالك فوق السمٰوات. من أفواه الأطفال والرضع أسّستَ حمداً بسبب أضدادك لتسكيت عدوٍ ومنتقم. إذا أرى سمٰواتك عمل أصابعك، القمر والنجوم التي كونتها. فمن هو الإنسان حتى تذكره. وابن آدم حتى تفتقده. وتنقصه قليلاً عن الملائكة وبمجد وبهاء تكلله. تسلطه على أعمال يديك. جعلت كل شيء تحت قدميه. الغنم والبقر جميعاً وبهائم البرِّ أيضاً، وطيور السماء وسمك البحر السالك في سبل المياه أيها الربُّ سيّدُنا أمجّد اسمك في كل الأرض».

المزمور التاسع لداوود:

«أحمدُ الربَّ بكل قلبي. أحدّثُ بجميع عجائبك. أفرح وأبتهج بك. أُرنّمُ لاسمك أبها العلي. عند رجوع أعدائي إلى خلف يسقطون ويهلكون من قدام وجهك.

لأنـك أقمت حقي ودعواي. جلست على الكـرسي قاضيـاً عادلاً. . أهلكت الشـريـر، محوت اسمهم إلى الدهر والأبد. العدو تم خرابـه إلى الأبد. . أمـا الرب فـإلى الدهـر يجلس، ثبت للقضـاء كـرسيـه. وهـو يقضي للمسكـونـة بـالعـدل. يـدين الشعـوب بـالاستقامـة. ويكون الـرب ملجأً للمستحق. ملجـأً في أزمنـة الضيق. ويتكـل عليـك العارفون اسمك. لأنك لم تترك طالبيك. . .

رنّموا للرب الساكن في صهيون!! أخبروا الشعـوب بأفعـاله. . . لم ينس صـراخ المساكين. . . ارحمني يا رب. انظر مذلتي من مبغضيّ. يا رافعي من أبواب المـوت. لكي أحدّثَ بكل تسابيحك.

تـورطت الأمم في الحفـرة التي عملوهـا. في الشبكـة التي أخـفـوهـا انتشبت أرجلهم. معروف هو الرب قضاء أمضى. الشـرير يَعلقُ بعمـل يديـه. الأشرار يـرجعون إلى الهاوية. كل الأمم الناسيين الله. لأنه لا ينسى المسكين إلى الأبد. رجـاء البائسين لا يخيب إلى الـدهر. قم يـا رب!! لا يعتز الإنسـان. لتُحـاكم الأمم قـدامـك. يـا رب اجعل عليهم رعباً. ليعلم الأمم أنهم بشر.

المزمور الثاني عشر لداوود:

خلص يـا رب لأنه قـد انقرض التقي، لأنـه قد انقـطـع الأمنـاء من بني البشـر. يتكلمون بالكذب، كل واحد مـع صاحبـه بشفاه ملقـةٍ. . . يقطـع الـرب جميـع الشفاه المَلِقة واللسان المتكلم بالعظائم. الذين قالوا بألسنتنا نتجبر. شفاهنا معنـا من هو سيـد علينا؟

من اغتصاب المساكين، من صرخة البائسين الآن أقوم. يقول الربُّ. أجعـلُ في وسـع الذي ينفث فيه.

كلام الرب كلام نقي، كفضَّةٍ مصفَّـاة في بوطـة الأرض ممحوصـة سبـع مرات. أنت يا رب تحفظهم، تحـرسهم من هذا الجيـل إلى الدهـر. الأشرار يتمشَّـون من كل ناحية عند ارتفاع الأرذال بين الناس.

المزمور الرابع عشر لداوود:

قال الجاهل في قلبه ليس إلّه. فسدوا ورجسوا بأفعالهم. ليس هناك من يعمل صلاحاً. الرب من السماء أشرف على بني البشر لينظر هل من إنسان فاهم يطلب الله. الكل قد زاغوا، فسدوا، ليس من يعمل صلاحاً، ليس ولا واحد.

ألم يعلم كل فاعلي الإثم الذين يأكلون شعبي كما يأكلون الخبز والرب لم يدعوا. هناك خافوا خوفاً لأن الله في الجيل البار. رأي المسكين ناقضتم لأن الرب ملجؤه.

المزمور الخامس عشر لداوود:

يا رب من ينزل في مسكنك، من يسكن في جبل قدسك. السالك بالكمال والعامل بالحق والمتكلم بالصدق في قلبه. الذي لا يشي بلسانه ولا يصنع شراً بصاحبه ولا يحمل تعييراً لقريبه. والرذيل محتقر في عينيه ويكرمُ خائفي الرب. يحلف للضرر ولا يُغيّر. فضته لا يعطيها بالربا، ولا يأخذ الرشوة على البريء. الذي يصنع هذا لا يتزعزع إلى الدهر.

المزمور التاسع عشر لداوود:

السمٰوات تُحدِّثُ بمجد الله. والفَلَك يُخبرُ بعمل يديه. يوم إلى يوم يذيع كلاماً. وليل إلى ليل يبدي علماً... جعل للشمس مسكناً فيها. وهي مثل العروس الخارج من حجلته، مثل الجبّار للسباق في الطريق من أقصى السموات خروجها ومدارها إلى أقاصيها ولا شيء يختفي من حرها.

ناموس الرب كامل يرد النفس. شهادات الرب صادقة تُصيّرُ الجاهل حكيماً. وصايا الرب مستقيمة تفرّح القلب. أمر الرب طاهر ينير العينين. خوف الرب نقي ثابت إلى الأبد. أحكام الرب حق عادلة كلها. أشهى من الذهب والإبريز الكثير، وأحلى من العسل وقطر الشهاد. أيضاً عبدك يُحذَّرُ بها وفي حفظها ثواب عظيم.

السهوات من يشعر بها. من الخطايا المستترة أبرئني. أيضاً من المتكبرين احفظ

عبدك فلا يتسلطوا عليّ. حينئذ أكون كاملاً وأتبرأ من ذنب عظيم. لتكن أقوال فمي وفكر قلبي مُرضية أمامك. يا رب صخرتي ووليّي.

المزمور الخامس والعشرون لداوود:

إليك يا رب أرفع نفسي يا إلّهي عليك توكلت فلا تدعني أخزى. لا تشمت بي أعدائي. أيضاً كل منتظريك لا يخزوا. ليخزَ الغادرون بلا سبب. طرقك يا ربِّ عرّفني. سبلك علّمني. درّبني في حقّك وعلمني. لأنت إلّه خلاصي. إياك انتظرت اليوم كله. اذكر مراحمك يا رب وإحساناتك لأنها منذ الأزل هي. لا تذكر خطايا صباي ولا معاصيّ. كرحمتك اذكرني أنت من أجل جودك يا رب.

الرب صالح ومستقيم. لذلك يعلم الخطاة الطريق. يدرّبُ الودعاء في الحق. ويعلّمُ الودعاء طرقه كل سبل الرب رحمة وحق لحافظي عهده وشهاداته. من أجل اسمك يا رب اغفر إثمي لأنه عظيم. من هو الإنسان الخائفُ الربَّ. يعلّمُهُ طريقاً يختاره. نفسه في الخير تبيت ونسله يرث الأرض. سرُّ الرب لخائفيه. وعهدُهُ لتعليمهم. عيناي دائماً إلى الرب لأنه هو يخرج رجلي من الشبكة.

التفت يا رب إليَّ وارحمني لأني واحدٌ ومسكين أنا. افرج يا رب ضيقات قلبي من شدائدي أخرجني. انظر إلى ذُلّي وتعبي واغفر جميع خطاياي. انظر إلى أعدائي لأنهم قد كثروا. وبغضاً ظُلماً أبغضوني. احفظ نفسي وأنقذني. لا أخزي لأني عليك توكلت. يحفظني الكمال والاستقامة لأني انتظرتك.

المزمور السادس والعشرون لداوود:

اقضِ لي يا ربُّ لأني بكمالي سلكت وعلى الربِّ توكلتُ بلا تقلقل... لم أجلس مع أناس السوء. ومع الماكرين لا أدخل. أبغضت جماعة الأثمة ومع الأشرار لا أجلس. أغسل يديّ في النقاوة فأطوف بمذبحك يا رب. لأسمّع بصوت الحمد وأُحدِّث بجميع عجائبك يا رب أحببت محل بيتك وموضع مسكن مجدك.

لا تجمع مع الخطاة نفسي ولا مع رجال الدماء حياتي، الذين في أيديهم

رذيلة ويمينهم ملآنة رشوة. أما أنا فبكمالي أسلك. أفدني وارحمني. رجلي واقفة على سهل. في الجماعات أبارك الرب.

المزمور السابع والعشرون لداوود:

الرب نوري وخلاصي ممن أخاف. الرب حصن حياتي ممن أرتعب. عندما اقترب إليَّ الأشرار ليأكلوا لحمي، مضايقيَّ وأعدائي عثروا وسقطوا. إن نزل عليّ جيش لا يخاف قلبي. إن قامت عليَّ حربٌ ففي ذلك أنا مطمئن... واحدةً سألتُ الربَّ وإياها ألتمس. أن أسكنَ في بيت الرب كل أيام حياتي لكي أنظر إلى جمال الرب وأتفرس في هيكله. لأنه يخبئني في مظلته يوم الشر. يسترني بستر خيمته. على صخرة يرفعني. والآن يرتفع رأسي على أعدائي حولي. أغني وأرنّمُ للرب.

استمع يا رب. بصوتي أدعو فارحمني واستجب لي.. وجهك يا رب أطلب. لا تحجب وجهك عني لا تخيّب بسُخطٍ عبدك. قد كنتَ عوني فلا ترفضني ولا تتركني يا إله خلاصي. إن أبي وأمي قد تركاني والربُّ يضُمّني علمني يا رب طريقك. واهدني في سبيل مستقيم. لا تسلمني إلى مرام مُضائقي لأنه قد أقام عليّ شهود زور ونافث ظلم. لولا أنني آمنت بأن أرى جود الرب في أرض الأحياء. انتظر جود الرب.. ليتشدد وليتشجع قلبك وأنتظر الرب.

المزمور الرابع والثلاثون لداوود:

أبارك الرب في كل حين. دائماً تسبيحه في فمي، بالرب تفتخر نفسي. يسمع الودعاء فيفرحون. عظّموا الرب معي ولنُعلّي اسمه معاً.. طلبت إلى الرب فاستجاب لي ومن كل مخاوفي أنقذني. نظروا إليه واستناروا ووجوههم لم تخجل. هذا المسكين صرخ والربُّ استمعه ومن ضيقاته خلّصه.. ذوقوا وانظروا، ما أطيب الرب. طوبى للرجل المتوكل عليه. اتقوا الرب يا قديسيه لأنه ليس عَوَزٌ لمتّقيه. الأشبال احتاجت وجاعت وأما طالبو الرب فلا يعوزهم شيء من الخير...

صُن لسانك عن الشر وشفيتك عن التكلم بالغش. حِدْ عن الشر واصنع الخير. اطلب السلامة واسع وراءها. عينًا الرب نحو الصديقين وأذناه إلى صراخهم. وجْهُ الربِّ ضد عاملي الشر ليقطع من الأرض ذكرهم... قريب هو الربُّ من المنكسري

القلوب ويخلص المنسحقي الروح. كثيرة هي بلايا الصدّيق ومن جميعها ينجّيه الرب. . الشر يميت الشرير ومبغضو الصدّيق يعاقبون. الرب فادي نفوس عبيده وكل من اتّكل عليه لا يُعاقب.

هذه بعض اللمحات الشفافة في ترنيمات داوود عليه السلام. . ومع هذا نرى في بعض هذه المزامير غثاء وأكاذيب وافتراءات لا يمكن لداوود عليه السلام أن يقولها. . وهي من إضافات الأحبار.

مثال ذلك ما جاء في المزمور الثاني:

«إني أخبر من جهة قضاء الرب قال لي: أنت ابني. أنا اليوم ولدتك. اسألني فأعطيك الأمم ميراثاً لك وأقاصي الأرض ملكاً لك». . .

وما جاء في المزمور العاشر:

«يا رب لماذا تقف بعيداً. لماذا تختفي في أزمة الضيق. في كبرياء الشرير يحترقُ المسكين. يؤخذون بالمؤامرة التي فكروا بها. لأن الشرير يفتخر بشهوات نفسه. والخاطف يجدّف. يهين الرب. الشرير حسب تشامخ أنفه يقول لا أُطالب. كل أفكاره أنه لا إلّه. . . قال في قلبه إن الله قد نسي. حجب وجهه. لا يرى إلى الأبد. قم يا رب. . ارفع يدك. لماذا أهان الشريرُ اللّهَ!!

وفي المزمور (١٣):

جاء على لسان داوود كذباً: «إلى متى يا رب تنساني كل النسيان. إلى متى تحجب وجهك عني. إلى متى أجعل هموماً في نفسي وحزناً في قلبي كل يوم. إلى متى يرتفع عدوي عليّ!!

وفي المزمور (١٨):

تصوير للرب بصورة غير لائقة ولا متصورة من داوود عليه السلام: «في ضيقي دعوت الرب وإلى إلّهي صرخت. فسمع من هيكله صوتي. وصراخي دخل أذنيه فارتجت الأرض وارتعشت، أسس الجبال ارتعدت وارتجت لأنه غضب. صعد دخان من أنفه ونار من فمه أكلت. جمراً اشتعلت منه. طأطأ السموات ونزل ضباب تحت

رجليه. ركب على كروب وطار وهفَّ على أجنحة الرياح. . . أرعد الرب من السموات والعلي أعطى صوته برداً وجمراً وناراً. أرسل سهامه فشتتهم وبروقاً كثيرة فأزعجهم. فظهرت أعماق المياه وانكشفت أسس المسكونة من زجرك يا رب. من نسمة ريح أنفك. . .».

وفي المزمور (٢٢):

«إلّهي إلّهي لماذا تركتني بعيداً عن خلاصي، عن كلام زفيري، إلّهي في النهار أدعو فلا تستجيب، في الليل أدعو فلا هدوّ لي».

وفي المزمور (٢٨):

«إليك يا رب أصرخ. يا صخرتي لا تتصامم من جهتي لئلا تسكت عني فأشبه الهابطين في الجب».

وفي المزمور (٢٩):

«قدّموا للرب يا أبناء الله. قدّموا للرب مجداً وعزاً. قدّموا للرب مجد اسمه».

وفي المزمور (٣٥):

«خاصم يا رب مخاصمي قاتل مقاتلي. أمسك مجنّاً وترساً وانهض إلى معونتي. واشرع رمحاً وصُدَّ تلقاءَ مطاردي».

وفي المزمور (٥٠):

«إلّه الآلهة الرب تكلم ودعا الأرض من مشرق الشمس إلى مغربها».

وفي المزمور (٦٩) على لسان داوود:

«خلصني يا الله لأن المياه قد دخلت إلى نفسي. غرقتُ في حمأة عميقة. وليس مقر دخلت إلى أعماق المياه والسيل غمرني. تعبت من صراخي. يبس حلقي. كلّت عيناي من انتظار إلّهي. أكثر من شعر رأسي الذين يبغضونني بلا سبب. . .».

وفي المزمور (٧٤):

«لماذا رفضتنا يا الله إلى الأبد. لماذا يدخّن غضبك على غنم مرعاك اذكر جماعتك التي اقتنيتها منذ القدم وفديتها سبط ميراثك. جبل صهيون هذا الذي سكنت

فيه ـ مثل جبل الأولمب الذي سكن فيه زيوس ـ ارفع خطواتك إلى الخُرب الأبدية. الكل قد حطم العدو في المقدس. . .

«حتى متى يا الله يُعيّر المقاوم ويهين العدو اسمك إلى الغاية. لماذا ترد يدك ويمينك أخرجها من وسط حضنك».

وفي المزمور (٧٦):

«الله معروف في يهوذا اسمه عظيم في إسرائيل. كانت في ساليم مظلته ومسكنه في صهيون».

وفي المزمور (٧٧):

«هل إلى الدهور يرفض الرب ولا يعود للرضا بعد. هل انتهت إلى الأبد رحمته؟ انقطعت كلمته إلى دور فدور. هل نسي الله رأفة؟ أو قنص برجزه مراحمه؟

وفي المزمور (٨٢):

«الله قائم في مجمع الإلّهة. في وسط الآلهة يقضي» وهي صورة زرية أخذها اليهود من الأمم الأخرى حيث هناك كبير الآلهة يقضي بينهم. فعند اليونان زيوس جالس في جبل الأولمب يقضي بين الآلهة الأصغر. وعند الرومان جوبيتير يقضي بين الآلهة. . . وعند الكنعانيين البعل. . . وعند البابليين عشتروت. . . إلخ. وكما سكن زيوس في جبل الأولمب فإن يهوه ـ رب إسرائيل الخاص ـ سكن في جبل صهيون. . .

وبما أن العهد القديم بأكمله قد فقد نصّه العبري القديم ولم يبق منه إلاَّ النص اليوناني الذي ظهر في القرن الثاني قبل الميلاد، فإن تأثر كاتب العهد القديم بالنصوص اليونانية والعقائد الرومانية واضح تمام الوضوح. وكان فيلون الإسكندري يتزعم يهود الإسكندرية الذين أظهروا النص اليوناني للعهد القديم ـ التوراة وأسفار الأنبياء والتاريخ وأسفار الأدب والحكمة والشعر ـ.

وفي نفس المزمور (٨٢) يقول الرب حسب زعمهم:

«أنا قلت إنكم آلهة. وبنو العلي كلكم». وهو نفس الزعم القديم الذي ذكر في

سفر التكوين من أن هناك آلهة كثيرة وإن لها إلّهاً أعظم منها هو رب الأرباب، تماماً مثل ما لدى الأمم الأخرى. وهذه الآلهة من نسل الإلّه العظيم الأكبر بشكل من الأشكال. . . وهو يقضي بين هذه الآلهة المتخاصمة حيناً المتفقة حيناً آخر. . . وهو يقر بألوهيتها بشرط أن تكون في وضع أقل وأدنى مرتبة منه.

وهذا يوضح مدى الانحدار والشرك الذي وصل إليه بنو إسرائيل. . . وقد ذكرت أسفار التوراة وأسفار الأنبياء كيف عبد بنو إسرائيل الأصنام المختلفة والآلهة الكثيرة، حتى ادعوا أن هارون هو الذي صنع لهم العجل ليعبدوه، وأن سليمان عبد آلهة كثيرة مع زوجاته وسرياته اللائي بلغ عددهن ألف واحدة، كما عبد ملوك بني إسرائيل عشرات الآلهة الأخرى وأقاموا لها المعابد والمحارق وقربوا لها القرابين. وحتى في لحظات التوحيد التي تظهر بين الفينة والفينة في حياة بني إسرائيل فإن تلك اللحظات تكون مليئة بالغبش وتصوير الله في صورة إنسان حقود كثير النسيان سريع الغضب متقلب المزاج يندم لأتفه سبب. وهوإلّه شعب إسرائيل فقط. . . ولا علاقة له ببقية البشر والكون. فهو مشغول ليل نهار بابنه البكر إسرائيل إما ليوقعه في المصيدة أولكي يخلصه منها. مع اعتقاد جازم بأنهم من نسل الإلّه. . . وهذا التناسل يظهر بصور جلية عند من يمسحهم الرب، وبصورة أقل عند الباقين. . . «اليهود هم أبناء الله على وجه الحقيقة لا المجاز كما يزعم بعض المفسرين!!». تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

لهذا كله نجد في المزامير بعض اللمحات النورانية الحقيقية التي صدرت عن داوود عليه السلام ترين عليها مزابل الأكاذيب التي أضافها أحبار يهود الذين تأثروا بالثقافات الأخرى وبالشعوب الأخرى، وخاصة الذين كانوا في فلسطين وما حولها، والثقافة اليونانية لأن كتب العهد القديم كلها تُرجمت إلى اليونانية ولم يبق شيء من الأصول القديمة. . .

المزمور (١٠٦):

ويذكر المزمور (١٠٦) بعض خطايا بني إسرائيل قائلاً: «صنعوا عجلاً في حوريب وسجدوا لتمثال مسبوك. وأبدلوا مجدهم بمثال ثور آكل عشب. نسوا الله مخلصهم الصانع عظائم في مصر وعجائب في أرض حام ومخاوف على بحر سوف.

فقال بإهلاكهم لولا موسى مختاره وقف في الثغر قدامه ليصرف غضبه عن إتلافهم. ورذلوا الأرض الشهية. لم يؤمنوا بكلمته. . . لم يسمعوا لصوت الرب. . . وتعلقوا ببعل فغور وأكلوا ذبائح الموتى وأغاظوه بأعمالهم فاقتحمهم الوباء فوقف فينحاس ودان فامتنع الوباء. . وأسخطوه على ماء مريبة حتى تأذى موسى بسببهم لأنهم أمرّوا روحه حتى فَرَط شفتيه. لم يستأصلوا الأمم الذين قال الرب عنهم، بل اختلطوا بالأمم وتعلموا أعمالهم وعبدوا أصنامهم فصارت لهم شركاً. وذبحوا بنيهم وبناتهم للأوثان وأهرقوا دماً زكياً، دم بنيهم وبناتهم الذين ذبحوهم لأصنام كنعان. وتدنست الأرض بالدماء وتنجسوا بأعمالهم وزنوا بأفعالهم. فحمي غضب الرب على شعبه وكره ميراثه. وأسلمهم ليد الأمم وتسلط عليهم مبغضوهم. . . ثم ذكر لهم عهده وندم!!».

وهكذا يندم الرب عندهم على أفعاله!!.

المزمور (١٠٤):

ويعتبر المزمور (١٠٤) والمنسوب لداوود من المزامير التي أثارت جدلاً واسعاً بين علماء الآثار والتاريخ.

وقد وجد هؤلاء العلماء بعض التشابه بين نشيد الإلّه آتون ـ الشمس ـ الذي وضعه الملك المصري أخناتون، وبين هذا المزمور. وأدى ذلك إلى أن يقول هؤلاء الكتاب: إن المزمور منقول من نشيد أخناتون.

ويبدو أن أول من نبه إلى ذلك العالم جيمس هنري برستد في كتابه فجر الضمير[١] وقد كتب برستد يقول[٢]: «صار لدينا الآن الأصل الهيروغليفي الذي ترجمت ونشرت منه فقرات كاملة في كتاب العهد القديم العبراني!! فقد تعرف الأستاذ هوجو جرسمان، البحاثة الضليع وصاحب الرأي الثاقب في الأدب العبراني بلا تردد، على المنهل المصري الذي استقي منه المزمور (١٠٤) المذكور. . بل ذهب الأستاذ جرسمان إلى أبعد من ذلك حيث يقول: إن أقدم موضوع أسطوري تناولته الأناشيد

(١) نقلا عن كتاب د. بدران محمد بدران «التوراة»: العقل، العلم، التاريخ، إصدار دار الأنصار، القاهرة، ص ١٨٠ وما بعدها.

(٢) كتابه «فجر الضمير»، ص٣٦٢ و ٣٩٤ ـ ٣٩٥، نقلاً عن المصدر السابق.

العبرانية هو خلق العالم، وهو وأسطورة الخلق نفسها نشآ في بابل. وأما موضوع العناية الربانية بالعالم فإنها فكرة جاءت فيما بعد وشقت طريقها إلى المزامير بتأثير مصر القديمة.

«وبذلك تكشف لنا أنشودة أخناتون عن المنهل الذي استقى منه مؤلف المزمور العبراني، إدراكه لرحمة الله في عون مخلوقاته حتى أصغرها. إن موقف العبرانيين من جهة تصورهم لعناية الخالق الرؤوف بخلقه، وبصفته يعلم ما في الكون، إنما يرجع إلى نشيد أخناتون وما يشبهه من الأناشيد الدينية بمصر القديمة[1].

ويقول الدكتور أحمد فخري في كتابه مصر الفرعونية كما ينقله عنه الدكتور بدران محمد بدران في كتابه التوراة؛ العقل، العلم، التاريخ: «ليس هناك شك في أن نشيد أخناتون لإلٓهه كانت ذات أثر مباشر على المزامير وأن المزمور (١٠٤) يكاد يكون منقولاً عن النشيد الكبير وليس من قبيل توارد الخواطر».

وينقل الدكتور بدران أيضاً عن عالم المصريات عبد العزيز صالح قوله: ومن حيث أناشيد الدين الجديد ــ أي دين أخناتون ــ خرجت تناجي ربها بالود والحب والتبجيل. وعرضت الأناشيد مِنن الإلٓه الظاهرة في حجج فطرية مقنعة، استخدمت المقابلة فيها بين حال الأرض وأهلها حين غاب نور كوكب الرب ــ كان يعبد الشمس ــ وحين ظهوره. فكلما غاب أظلم الكون وأصبح كالموت... وقد ظهرت نفس الحجج ضمن ما رددته فيما بعد مزامير العبرانيين. مما دعا إلى الربط بينهما. واعتبار الأناشيد المصرية أصلاً لها».

ويعقد الأستاذ سليم حسن في كتابه الأدب المصري القديم[2] مقارنة بين نشيد

---

(١) هذا الرأي مرفوض بالنسبة لنا نحن المسلمين لأن الله سبحانه وتعالى أرسل إبراهيم وإسحاق ويعقوب والأسباط وموسى وهارون برسالة التوحيد النقية.. وليس مصدرها أخناتون عابد الشمس.

(٢) ٢/ ١١٠، نقلاً عن د. بدران حسن بدران، «التوراة: العقل، العلم، التاريخ».

أخناتون الموجه للإلّه آتون ـ الشمس ـ والمزمور (١٠٤)، وينتهي إلى أن المزمور (١٠٤) منقول من نشيد أخناتون الكبير. . . وما أورده من دليل لا يعتبر في رأينا مقنعاً. فالمزمور (١٠٤) يتوجه إلى الله سبحانه وتعالى رب الكون ورب الشمس والقمر ونشيد أخناتون يتوجه إلى الشمس فقط.

ويبدأ المزمور (١٠٤) هكذا:

باركي يا نفسي الرب. يا رب إلّهي قد عظمت جداً. مجداً وجلالاً لبست. اللابس النور كثوب الباسط السموات كشقة، المسقف علاليه بالمياه، الجاعل السحاب مركبته، الماشي على أجنحة الريح ـ لا نقبل نحن المسلمين هذه الأوصاف لله سبحانه وتعالى ـ الصانع ملائكته رياحاً وخدامه ناراً ملتهبة المؤسس الأرض على قواعدها فلا تتزعزع إلى الدهر والأبد. . .

ويستمر المزمور في ذكر الجبال والأنهار والعيون. ورحمة الله التي تسقي الحيوانات في البراري والقفار والمنبت العشب للبهائم ولخدمة الإنسان. ومنبت الأشجار. وصانع القمر والشمس ومواقيتها. ويدلّل الأستاذ سليم على التشابه فيما يلي:

المزمور (١٠٤):	نشيد أخناتون:
● تجعل ظلمة فيصير ليل. فيه يدب كل حيوان الوعر الأشبال تزمجر لتخطف ولتلتمس من الله طعامها.	● وعندما تغرب في الأفق ـ أي الشمس الإلّه آتون ـ تصبح الأرض سوداء كما لو حلَّ بها الموت. ينام في حجره وقد لفّوا رؤوسهم! فلا ترى عين عيناً أخرى. ويخرج كل أسد من عرينه وجميع الزواحف ـ تخرج ـ لتلدغ ويلفّ الظلام كل شيء ويعمّ السكون الأرض، لأن الذي خلقهم يرتاح في أفقه ـ أي الشمس تذهب للراحة ـ وعندما يصبح الصباح وتطلع أنت في الأفق.
● تشرق الشمس؛ فتجتمع وفي مآويها تربض، الإنسان يخرج إلى عمله وإلى شغله إلى المساء.	● وعندما تضيء النهار، تطرد الظلمة وتمنع أشعتك. فالأرضان ـ الدلتا والصعيد ـ في عيد كل يوم. ويستيقظ ـ الناس ـ ويقفون على الأقدام لأنك أنت الذي أنقذتهم.

● ما أعظم أعمالك يا رب. كلها بحكمة صنعت ملآنة الأرض من غناك. هذا البحر الكبير الواسع الأطراف هناك دبابات بلا عدد. صغار حيوان مع كبار. هناك تجري السفن... كلها تترجى لترزقها قوتها في حينه. تعطيها فتلتقط. تفتح يدك فتشبع خبزاً. تحجب وجهك فترتاع. تنزع أرواحها فتموت وإلى ترابها تعود. ترسل روحك فتخلق وتجدد.

● ما أعظم أعمالك التي عملت. إنها خافية على الناس يرفعون أذرعهم ابتهالاً عند ظهورك والناس جميعاً يؤدون أعمالهم. إنك أنت الذي يمدّهم بكل ما يحتاجون ويحصل كل شخص على طعامه عندما تبزغ في الأفق الشرقي تملأ كل الأرض بجمالك.

هذه هي المقتطفات التي أوردها الأستاذ سليم حسن من نشيد أخناتون ومن المزمور (١٠٤). وزعم فيها أن المزمور (١٠٤) منقول لفظاً ومعنى من نشيد أخناتون. ونحن نرى في هذه المقولة شططاً كبيراً. فأخناتون يتحدث عن الشمس الإلّه، وصاحب المزمور يتحدث عن رب العالمين. وشتان ما بين المفهومين... ثم تختلف الصور الفنية المعروضة هنا وهناك. وأما الاتفاق في بعض الصور فهو أمر كثير الحدوث، لاتفاق الموضوع. والناس كلهم يعلمون منذ أن خلق الله آدم أن هذه المخلوقات تتوجه إلى بارئها، وأن الله هو الرزاق ذو القوة المتين، وأنه هو الذي يدبر شؤونها. فما هو الجديد في هذا الأمر إذا كان آدم عليه السلام وبنوه قد قالوا هذا الكلام بشكل من الأشكال!!؟

فإذا جاء أخناتون وانحرف بذلك ووجه عبادته إلى الشمس فأي ضلال أكبر من هذا الضلال!!؟ أو يسمى هذا الضلال توحيداً... ويقال عن أخناتون أنه أول موحد في تاريخ البشرية؟!! يا لها من قولة مليئة بالكذب والبهتان.

صحيح أن أخناتون دعا إلى عبادة الشمس وحدها وإنكار جميع الآلهة الأخرى التي كانت تعبد في مصر... ولكن هذا لا يجعله أول موحد في تاريخ البشرية حتى لو كانت دعوته إلى الله العلي القدير خالق الشمس والقمر. فقبله كان آدم وشيث وأبناء آدم وأخنوخ ــ إدريس ــ ونوح وعدد لا يعلمه إلاَّ الله من الموحدين.

فكيف يمكن أن يقال إذن إن أخناتون هو أول من دعا إلى توحيد الإلٓه في العالم!!؟.

وكيف يمكن أن يقال: إن مزمور داوود عليه السلام منقول لفظاً ومعنى من نشيد أخناتون!!؟ وشتان ما بينهما. أحدهما يمجد الله سبحانه وتعالى والثاني يمجّد الشمس!! الأول يذكر الشمس كمخلوق لله أنعم بها على الكون، والثاني ــ أخناتون ــ يذكر الشمس باعتبارها الإلٓه الذي خلق الكون وأنعم عليه بالحياة.

* * *

سليمان (عليه السلام)
(٩٦١ ــ ٩٢٢ قبل الميلاد)

زمن سليمان عليه السلام:

تقول دائرة المعارف البريطانية ــ الطبعة ١٥ ج ٨٧٩/٢ وما بعدها ــ: إن فترة حكم سليمان امتدت حوالي أربعين عاماً. وتقول إنه تسنم عرش المملكة عام ٩٦١ قبل الميلاد، وتوفي سنة ٩٢٢ قبل الميلاد.

وهي نفس المدة التي حكمها داوود عليه السلام. وتختلف المصادر الأخرى في تحديد المدة وبدايتها ونهايتها، فيجعلها بعض الكتاب من سنة ٩٦٣ حتى سنة ٩٢٣. وتذكر مصادر أخرى أن نهاية عهد سليمان كانت عام٩١٠قبل الميلاد. بينما تذكر بعض المصادر أن وفاة سليمان كانت عام ٩٠٠ قبل الميلاد.

ومما تقدم يتضح أن تحديد التاريخ على وجه الدقة لزمن سليمان تحفّه الاضطرابات والشكوك مثلما تحفُّ تحديد زمن إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى وهارون ويوشع بن نون وشاول وداوود.

إذ إن جميع التحديدات الزمنية تختلف من مصدر لآخر، ولكن الشيء الجيد هو أنها جميعها تتفق تقريباً في القرن الذي عاشوا فيه. وإن كانت هناك اختلافات شديدة بين ما يرد في التوراة ــ المحرَّفة ــ وبين ما يرد في المصادر التاريخية الأخرى حول زمن إبراهيم وزمن يوسف وزمن موسى عليهم السلام.

ومهما كان من أمر فإنه من المتفق عليه أن سليمان عليه السلام حكم فلسطين وما حولها في القرن العاشر قبل الميلاد، وبالذات في النصف الأخير منه. وأن عصره

كان أزهى العصور بالنسبة لبني إسرائيل. وأن مملكته نعمت بسلام ورخاء في عهده لم يسبق له نظير ولا أتى بعده مثله ولا قريب منه.

ومع هذا فإن التوراة المحرَّفة عبثت بسيرة سليمان عليه السلام وشوهت صورته كما شوهت صورة أبيه داوود عليه السلام من قبل، وكما شوهت صور الأنبياء عليهم السلام من لدن نوح عليه السلام إلى إبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب والأسباط، ولم تترك موسى وهارون ويوشع بن نون فلوثت صورتهم ووصفتهم بأقبح الأوصاف والصفات، وألصقت بهم كل رذائل بني إسرائيل... وهم منها أبرياء.

سليمان في التوراة المحرَّفة:

تأتي سيرة سليمان عليه السلام في التوراة المحرَّفة في سفر الملوك الأول ـ النسخة البروتستانتية ـ وهو ما يوازي سفر الملوك الثالث عند الكاثوليك من الإصحاح الثاني إلى الإصحاح الحادي عشر، ثم تأتي في سفر أخبار الأيام الثاني من الإصحاح الأول إلى التاسع.

ويكتنف هذه السيرة تناقضات وغلو وخيال وأكاذيب واتهامات باطلة على نبي الله سليمان عليه السلام.

جلوس سليمان على العرش:

عندما شاخ الملك داوود قام ابنه أدونيا بتنصيب نفسه ملكاً بالاتفاق مع قائد الجيش يوآب بن صرويه والكاهن أبياثار. وكان أدونيا شقيقاً لأبشالوم الذي قتل في المعركة ضد والده داوود في الصراع على السلطة.

وكانت حركة أدونيا أشبه بانقلاب عسكري إلاّ أن الحرس الخاص لداوود لم ينضم له، وكذلك لم ينضم لحركته صادوق الكاهن وبناياهو بن يهويا داع وشمعي وناثان النبي.

وقام أدونيا بدعوة القادة والشعب للاحتفال بتنصيبه ملكاً وذبح لهم الذبائح ووزع عليهم العطايا. وأسرع ناثان إلى أم سليمان بتشبع يخبرها الخبر ويشير عليها بأن تذهب إلى الملك داوود وتقول له: «أما حلفت يا سيدي الملك لأمتِك قائلاً: إن

سليمان يملك بعدي وهو يجلس على كرسيّي، فلماذا صار أدونيا ملكاً؟ فدخلت بتشبع وقالت له ما أشار به عليها ناثان. ثم تبعها ناثان وحرّض داوود على أدونيا، فغضب داوود، ودعى صادوق الكاهن وناثان النبي وبناياهو بن يهويا داع وقال لهم: «خذوا معكم عبيد سيدكم ــ الحرس الخاص لداوود ــ وأركبوا سليمان ابني على البغلة، وانزلوا به إلى جيحون. وليمسحه هناك صادوق الكاهن وناثان النبي ملكاً على إسرائيل واضربوا بالبوق وقولوا: ليحيا سليمان. وهو يملك عوضاً عني وإياه قد أوصيت أن يكون رئيساً على إسرائيل ويهوذا. فأجاب بناياهو: «هكذا يقول الرب إلّه سيدي الملك. كما كان الرب مع سيدي الملك كذلك ليكن مع سليمان ويجعل كرسيه أعظم من كرسي سيدي الملك داوود». (سفر الملوك الأول ١ : ٥ ــ ٣٧).

«وأخذ صادوق الدهن ومسح سليمان ملكاً وضربوا بالبوق. وقال جميع الشعب ليحيا الملك سليمان. وصعد جميع الشعب وراءه. وكان الشعب يضربون بالناي فرحين مهللين حتى انشقت الأرض من أصواتهم». (سفر الملوك الأول ١ : ٣٩ ــ ٤١).

واضطرب أدونيا اضطراباً شديداً عندما علم بالخبر وارتعد. . . وخاف خوفاً شديداً وانطلق «وتمسك بقرون المذبح قائلاً: ليحلف لي اليوم الملك سليمان أنه لا يقتل عبده بالسيف. فقال سليمان: إن كان ذا فضيلة لا يسقط من شعره إلى الأرض ولكن إن وجد به شرّ فإنه يموت. فأرسل الملك سليمان فأنزلوه عن المذبح، فأتى وسجد لسليمان، وأطلقه سليمان قائلاً: اذهب إلى بيتك». (سفر الملوك الأول ١ : ٤٢ ــ ٥٢).

وصية داوود لسليمان عند احتضاره:

وأوصى داوود ابنه سليمان عند احتضاره بأن يحفظ وصايا الرب وفرائضه وأحكامه، وأن ينفذ شريعة موسى، وأن يقيم ملكه على العدل والأمانة، ثم قام داوود بتوصية سليمان بقتل مجموعة من الرجال أحسنوا إلى داوود طوال حياتهم، أو أشخاصاً أخطأوا خطايا تافهة وعفا عنهم داوود في حياته. وجعل بذلك ختام حياته كبدايتها قتلاً

وسفكاً وظلماً كما تزعم التوراة المحرَّفة. وداوود براء من ذلك كله. وأمر داوود سليمان بأن يقتل:

(١) **يوآب بن صُرُويه**: القائد الأعلى للجيش والذي مكّن لداوود في الأرض وحقق له معظم انتصاراته، وقتل له معظم أعدائه، قائلاً له: «لا تدع شيبته تنحدر بسلام إلى الهاوية».

وكان لسليمان غرض آخر في قتله إذ كان يوآب أيضاً هو مدبر انقلاب أدونيا بن داوود وساعده الأيمن حينما نصّب نفسه ملكاً.

(٢) **شمعي بن جيرا البنياميني**: الذي شتم داوود ثم عفا عنه داوود ورفض أن يقتله عندما تمكن منه، وذلك ليكسب عشيرته بني بنيامين... ولكن الحقد في قلب داوود لم يذهب كما تزعم أسفار العهد القديم بل بقي ذلك الحقد حتى لحظة الوفاة؛ فقام وأوصى ابنه سليمان بقتل شمعي لأنه «لعنني لعنة شديدة يوم انطلقت إلى محنايم، وقد نزل للقائي إلى الأردن، فحلفت له بالرب قائلاً: إني لا أميتك بالسيف. والآن فلا تبرره. وأحدر شيبته بالدم إلى الهاوية». (سفر الملوك الأول ٢: ٨ ــ ٩).

أدونيا يذهب إلى والدة سليمان ويتشفع بها لكي يزوِّجه ابيشج امرأة أبيه داوود:

ذهب أدونيا إلى والدة سليمان بتشبع وطلب منها أن تشفع له عند سليمان وأن يزوِّجهُ أبيشج الشونمية ــ الفتاة الصغيرة الجميلة التي أتوا بها إلى داوود في شيخوخته لكي تحضنه وتدفيه ــ فقامت والدة سليمان وقالت له: لتعط أبيشج الشونمية لأدونيا أخيك امرأة. وقال سليمان لأمه: لماذا أنت تسألين أبيشج الشونمية لأدونيا؟ فاسألي له الملك لأنه أخي الأكبر».

سليمان يغتال أخاه أدونيا:

وكتم سليمان طلب أدونيا في نفسه، وقال لعل أدونيا يطلب الملك لنفسه. فأرسل الملك سليمان بناياهو بن يهوياداع قائد جيشه وأمره أن يبطش بأخيه أدونيا؛ فبطش به. (سفر الملوك الأول ٢: ٢٣ ــ ٢٥).

وهكذا قام سليمان كما تـزعم التوراة المحـرَّفة بـاغتيال أخيـه أدونيا بعـد أن أمّنه على نفسه وبدون أي مبرر. أما طلب زواج أدونيا من امرأة أبيه فيبدو أنه كان أمراً عادياً عنـد بني إسرائيـل لأن الابن الأكبر ليعقـوب، راؤبين نكـح سريـة أبيه في حيـاة أبيـه، وكذلك فعل أبشالـوم بسراري أبيـه. وكان الـدافـع كما تـزعم التوراة المحـرَّفة لعمليـة الاغتيال هذه أن سليمان توهم أن طلب أدونيا ليس إلاَّ مقدمة لطلب الملك. وبناء على هذا الوهم الذي لا أساس له من الصحة قام باغتيال أخيه.

سليمان يقوم بمجموعة من التصفيات الجسدية:

وما كاد سليمان يبطش بأخيه أدونيا حتى تذكر أولئك النفـر الذين سـاعدوا أدونيـا ونصّبوه ملكاً على إسرائيل والذين كان تظاهر بالعفو عنهم، وهم:

(١) **أبياثار الكاهن**: ولم يقتله سليمان فوراً بل طـرده أولاً من الكهانـة ثم قضى عليه.

(٢) **يوآب بن صرويه**: قائـد الجيش وصاحب الفضـل على داوود. وهو الـذي مكّن له في الأرض وحقق له معظم انتصاراته، وقضى له على معظم أعدائـه، بما فيهم أبشالوم بن داوود الذي ثار على أبيه واستولى على الملك بانقلاب عسكري.

وهرب يوآب عندما سمـع بقتل أدونيا وطرد أبياثار الكاهن، هرب إلى خيمة الرب وتمسـك بقرون المـذبـح. وهو أقـدس بقعة عنـد بني إسرائيـل. فذهب بنـايـاهـو إلى سليمـان وأخبره أن يـوآب قد التجـأ إلى خيمة الـرب وتمسك بقـرون المـذبـح. فقـال سليمان: ولو.. ابطش به. فبطش به بناياهو.

(٣) **شمعي بن جيرا البنياميني**: وكان لشمعي ذنبان، الأول أنـه شتم داوود ذات مرة وعفا عنه داوود آنذاك ظاهرياً، ولكن داوود أوصى عند موته بقتل شمعي انتقاماً من تلك الشتيمة التي مضى عليها ربـع قرن من الزمان. ــ ويا لها من صورة حـاقدة لئيمـة تصور بها التـوراة المحرَّفـة داوود عليه السـلام، إذ يظل طـوال هذه المـدة يكنُّ الحقد والغل في قلبه رغم أنه تظاهر بالعفو ــ والثاني أن شمعي كـان من الملأ الـذين مسحوا أدونيا ملكاً. لذا قام سليمان بالتخلص من شمعي وإرسال شيبته إلى الهاوية بـالدم كمـا أمر داوود.

سليمان يقوم بسياسة جديدة ويتزوج من كل الجنسيات:

رغم أن التوراة المحرَّفة تعلن مراراً وتكراراً عدم جواز التزوج من غير الإسرائيليات، وعدم جواز تزوج الإسرائيليات من غير اليهود، إلاَّ أن داوود وكثيراً من الآباء، تزوجوا غير إسرائيليات، وأما سليمان فقد تزوج حسب زعم التوراة المحرَّفة سبعمائة امرأة من كل جنس ولون. وتسرى بثلاثمائة أخرى.

وصاهر سليمان فرعون مصر وأخذ بنت فرعون، ووطد علاقاته بملك مصر وبالملوك من حوله فأصهر إليهم.

وظهرت حكمة سليمان وخبرته في القضاء بهذه القصة التي يرويها سفر الملوك الأول ٣: ١٦ ــ ٢٧: «أتت امرأتان زانيتان إلى الملك ووقفتا بين يديه. فقالت إحداهما: استمع يا سيدي. إني وهذه المرأة ساكنتان في بيت واحد وقد ولدت معها في البيت. وفي اليوم الثالث بعد ولادتي ولدت هذه المرأة أيضاً. ولم يكن معنا غريب في البيت. فمات ابن هذه في الليل لأنها اضطجعت عليه فقامت في وسط الليل وأخذت ابني من جانبي وأمتك نائمة وأضجعته في حضنها واضجعت ابنها الميت في حضني.

وكانت المرأة الأخرى تقول: كلا بل ابني هو الحي وابنك الميت. وهذه تقول: لا بل ابنك الميت وابني الحي. وتلاحيا أمام الملك. فقال الملك: إيتوني بسيف. ثم قال: اشطروا الولد الحي اثنين وأعطوا نصفاً للواحدة ونصفاً للأخرى. فصرخت الأم الحقيقية آنذاك: أعطوها الولد حياً ولا تميتوه. وقالت الأخرى: بل اشطروه. فعرف الملك الأم الحقيقية وأعطاها الولد».

ولما سمع بنو إسرائيل بالقصة تعجبوا من حكمة سليمان وخافوا منه.

وكان سليمان متسلطاً على جميع الممالك من النهر إلى أرض فلسطين وإلى تخوم مصر. وكان الملوك يقدمون له الهدايا. «وكان له صلح من جميع جوانبه». وسكن يهوذا وإسرائيل آمنين كل واحد تحت كرمته وتحت تينته من دان إلى بئر سبع كل أيام سليمان». (سفر الملوك الأول ٤: ٢١ ــ ٢٤).

«وأعطى الله سليمان حكمة وفهماً كثيراً جداً ورحبة قلب كالرمل الذي على شاطىء البحر. . . وتكلم بثلاثة آلاف مَثَل وكانت نشائده ألفاً وخمساً. وتكلم عن الأشجار من الأرز الذي في لبنان إلى الزوفا النابت في الحائط. وتكلم عن البهائم وعن الطير وعن الدبيب وعن السمك. . وكانوا يأتون من جميع الشعوب ليسمعوا حكمة سليمان». (سفر الملوك الأول ٤ : ٢٩ ــ ٣٤).

ولا تحدثنا التوراة ــ المحرَّفة ــ عما إذا كان سليمان قد علمه الله منطق الطير وأنه كلم النمل، بل تتحدث التوراة عن علم سليمان الواسع بالنبات والحيوان وعن حكمته التي اشتهرت في الآفاق.

بناء الهيكل :

وعزم سليمان على بناء هيكل للرب، لأن الرب ساكن وسط الخيمة كما تزعم التوراة المحرَّفة. فبعث سليمان وأتى بالأرز من لبنان وأتى بالصنّاع من كل البلاد، لأن الصناع من بني إسرائيل قليل وخبرتهم محدودة.

وفي سنة ٤٨٠ من الخروج من مصر كما تزعم التوراة، بني سليمان هيكلاً فخماً ضخماً للرب ليسكن فيه بدلاً عن الخيمة التي كان ينتقل فيها مع بني إسرائيل أثناء رحلاتهم وتجوالهم، وبقيت الخيمة في المرتفعات عندما سكن بنو إسرائيل المدن.

وتختلف المصادر التاريخية حول السنة التي بنى فيها سليمان الهيكل، ولكنها جميعاً لا تقر أن ذلك وقع سنة ٤٨٠ بعد الخروج، لأن الخروج وقع حوالي سنة ١٢٣٧ قبل الميلاد وسليمان تولى الملك حوالي سنة ٩٦١. (دائرة المعارف البريطانية الطبعة ١٥، ١٩٨٢، ج ٢/ ٨٧٩ وما بعدها).

وتطنب التوراة المحرَّفة في وصف بناء الهيكل وأعمدته وغرفه، وكيف غشاها سليمان بالذهب. . وأن الهيكل بأكمله لم يكن فيه حجر، بل كان البناء كله من خشب الأرز اللبناني. وأما المحراب والمذبح فكان من خشب شجر الزيتون.

وبنى سليمان لنفسه قصراً بعد بناء الهيكل. واستغرق بناء قصر سليمان مدة أطول بكثير من بناء الهيكل، لأن قصره جعله أفخم وأعظم من الهيكل كما تزعم

التوراة المحرَّفة. وأن القصر لم يتم بناؤه سوى في ثلاثة عشرة سنة بينما استغرق بناء الهيكل سبع سنين.

ووضع سليمان تابوت الرب في محراب الهيكل في قدس الأقداس تحت جناحي الكروبين، لأن الكروبين بسطا أجنحتهما على موضع التابوت الذي يسكن فيه الرب ــ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ــ وملأ السحاب بيت الرب ولم يستطع الكهنة أن يقفوا للخدمة بسبب السحاب لأن مجد الرب ملأ بيت الرب. حينئذ تكلم سليمان: قال الرب إنه يسكن في الضباب. إني قد بنيت لك بيت سُكنى مكاناً لسكناك إلى الأبد». (سفر الملوك الأول ٨: ٦ ــ ١٣).

وهكذا تصور التوراة المحرَّفة أن الرب يسكن في تابوت، وأن التابوت الذي فيه الرب كان ينتقل مع بني إسرائيل من مكان إلى آخر، وأن الأعداء الفلسطينيين استولوا عليه ثم أعادوه لبني إسرائيل عندما ضربهم بالفئران والبواسير، ثم عزم سليمان على أن يجعل له مسكناً أبدياً بدلاً من التشتت والسكن في الخيمة، لأن عصر البداوة قد انتهى وآن للرب أن يستريح ويسكن في قصر، فجعل له الهيكل. ألا لعنة الله على اليهود. لكأنما الله سبحانه وتعالى بشر، ينتقل من طور البداوة والسكن في الخيام إلى السكن في القصور.

ووقف سليمان بعد أن وضع تابوت الرب في المحراب في قدس الأقداس حيث يكون السكن الأبدي للرب ــ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ــ كما تزعم التوراة المحرَّفة وقال للرب القابع في التابوت أمامه:

«يا أيها الرب إلّه إسرائيل ليس إلّه مثلك في السماء من فوق ولا على الأرض من أسفل، حافظ العهد والرحمة لعبيدك السائرين أمامك بكل قلوبهم» ــ كلام طيب حسن مخالف لكون الرب ساكناً في التابوت ــ ثم واصل سليمان كلامه قائلاً: «والآن أيها الرب إلّه إسرائيل احفظ لعبدك داوود ما كلمته به قائلاً: لا يعدم لك أمامي رجل يجلس على كرسي إسرائيل... والآن يا إلّه إسرائيل فليتحقق كلامك الذي كلمت به عبدك داوود أبي. لأنه هل يسكن الله حقاً على الأرض. هوذا السمٰوات وسماء السمٰوات لا تسعك فكم بالأقل هذا البيت الذي بنيت». (سفر الملوك الأول ٨: ٢٢ ــ ٢٩).

هيكل سليمان:

يعتبر هيكل سليمان لدى اليهود بمثابة الكعبة لدى المسلمين فهو محط أحلامهم وآمالهم.. وهو الذي بُني ليسكن فيه الرب (تعالى الله عن ذلك).. وفي آخر الزمان يزعمون أن الرب المسيح (المسيح الدجال) سيظهر فيه.

ويذكر سفر الملوك الأول (عند الكاثوليك، صموئيل الأول عند البروتستانت) أن داود عزم على أن يبني بيتاً للرب يرتاح فيه من التجوال والسكن في الخيام حيث تزعم التوراة أن الرب كان يسكن في خيمة الاجتماع.. وكان يسير مع بني إسرائيل في مرحلة التيه في الصحراء. جاء في سفر الخروج (الإصحاح: ٢٠ ــ ٢١): «وارتحلوا من سكوت ونزلوا في أيثام في طرف البرية. **وكان الربُّ يسير أمامهم نهاراً في عمود من سحاب ليهديهم في الطريق، وليلاً في عمود نار ليضيء لهم، لكي يمشوا نهاراً وليلاً. لم يبرح عمود السحاب نهاراً وعمود النار ليلاً من أمام الشعب**».

ولما عرف الرب ما ينويه داود قال له: «**أأنت تبني لي بيتاً لسكناي؟ لأني لم أسكن في بيت منذ يوم أصعدت بني إسرائيل من مصر إلى هذا اليوم، بل كنت أسير في خيمة!!**».

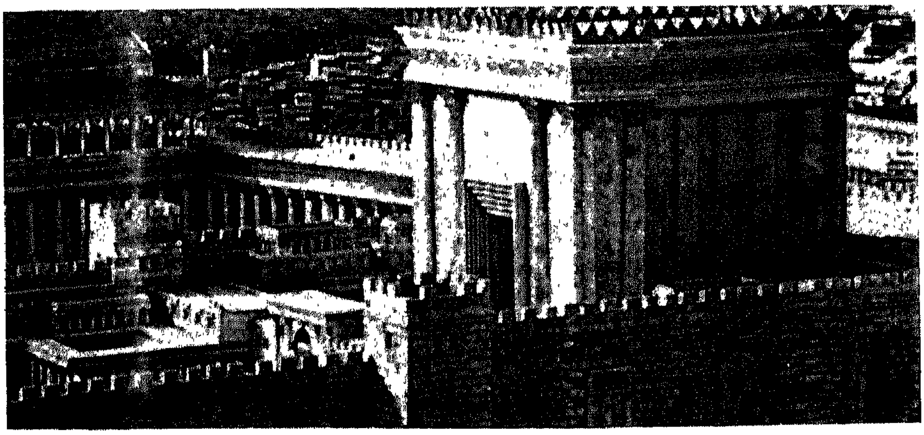
وأعلن الرب أنه مسرور جداً وأن بركاته ستحل على داود وبيته من أجل ذلك. وتمت المقايضة حسب زعم كاتب سفر الملوك، بين داود والرب، حيث قال الربّ: هو ذا يبني بيتاً لاسمي وأنا أثبتُّ كرسي مملكته إلى الأبد. أنا أكون له أباً وهو يكون لي ابناً».

ولم يستطع داود أن يبني بيت الرب، وإنما قام سليمان ابنه ببنائه. وقد استغرق البناء سبع سنوات (٩٦٠ ــ ٩٥٣ قبل الميلاد).

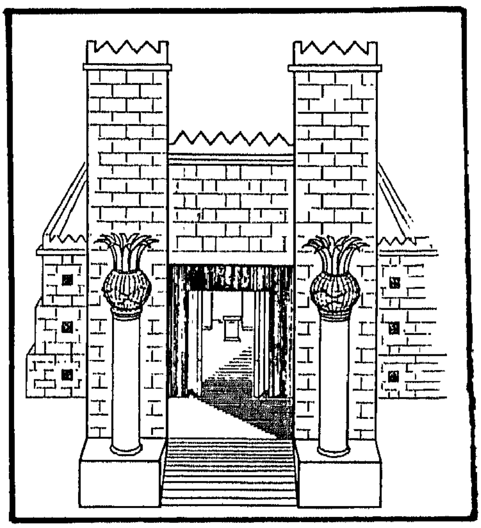
ويشبه الهيكل في تصميمه الهياكل الكنعانية المنتشرة في فلسطين وسوريا ولبنان والأردن.. وهو مقسم إلى صالة (المدخل) ثم البهو المقدس ثم قدس الأقداس وهو المذبح ومكان التابوت الذي يجلس فيه رب الجنود الجالس على الكروبيم!!

وقد بنى سليمان عليه السلام قصره الفخم بجوار الهيكل. واستغرق بناء القصر

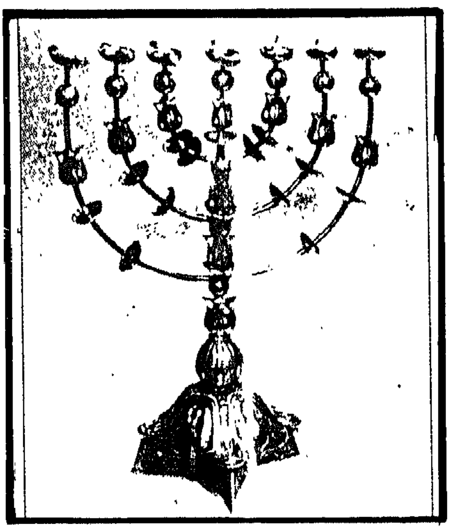
ثلاثة عشر عاماً. كما يحيط بالهيكل أبنية أخرى مثل المحكمة العليا وقاعة الاجتماعات ومراكز قيادة الجند... إلخ.



● صورة لهيكل سليمان كما تخيله علماء الآثار.



● مدخل هيكل سليمان.



● المنوراة (الشمعدان المستخدم للإضاءة).

بقي هيكل سليمان حتى الغزو البابلي حيث تمّ تحطيمه على يد نبوخذ نصر سنة ٥٨٦ قبل الميلاد الذي حمل كنوزه معه إلى بابل. وقد أعيد بناء الهيكل مرة أخرى بإذن من الملك داريوس الفارسي وعلى يد جماعة من الكهنة أشهرهم زربابل وعزرا ونحميا وقد تم بناؤه فيما بين عامي ٥٢٠ ــ ٥١٥ قبل الميلاد.

وبطبيعة الحال كان هذا الهيكل أقل روعة من هيكل سليمان ويذكر لنا سفر حجي أن اليهود كانوا يبكون على تواضع بناء الهيكل الجديد بالمقارنة مع البناء السابق الذي بناه سليمان. . وزعم لهم حجي أن مجد البناء الجديد الذي سيبنيه المسيح (الدجال) سيكون أعظم من هيكل سليمان وستنحني له كل الجباه في الأرض. . وسيحطم كل الممالك وبذل كل الشعوب وتأتي الأمم كلها ساجدة لملكوته وتتوجه إليه بالعبادة. . وتتمجد الشعوب بخدمة شعب الله المختار. . الشعب المقدس الذي جعله الله أخص من كل الشعوب!! ويحكم شعب الرب المقدس كل شعوب الأرض. . وتتمجد هذه الشعوب بلعق حذاء إسرائيل!!

وتحطم الهيكل مرة أخرى على يد القائد الروماني بومبي سنة ٦٣ قبل الميلاد ، ومع هذا بقيت آثار من الهيكل يتعبد فيها اليهود ويعمل فيه عدد من الكهان.

وفي عام ٢٠ ــ ١٩ قبل الميلاد بدأ هيرود بناء الهيكل مرة أخرى، ولكنه مات قبل أن يتم بناءه. . وظل كذلك فترة طويلة حتى عام ٦٤ بعد الميلاد عندما أتمه أجريبا.

وفي عام ٧٠ بعد الميلاد هدمه القائد الروماني تيتوس للمرة الأخيرة. . ولم تقم للهيكل قائمة حتى اليوم. . ومُنع اليهود من دخول أورشليم (القدس) وكان من شروط العهد مع عمر رضي الله عنه أن لا يسمح لليهود بدخول إيليا (القدس).

ولم يسمح لليهود بدخولها منذ ذلك الوقت حتى عهد صلاح الدين الأيوبي

الـذي اعتبر العهـد لاغياً بسبب ما فعله الصليبيـون بالمسلمين في القـدس وما حـولهـا عندما استولوا عليها.

وقد سمح صلاح الدين لأسـر يهوديـة معدودة بـدخول القـدس تحت تأثير طبيبه الخاص موسى بن ميمون المشهور لدى العرب بـاسم أبو عمـران ولدى الغـربيين باسم ميمونيد (Miamonides)، والذي كانت لـه حظوة خـاصة عنـد صلاح الـدين الذي اتسم بالصفاء ونقاء السريرة والطيبة.

وقد ذكرت أسفار العهد القديم أن المسيح المنتظر (الدجال) سيقوم ببناء الهيكل مرة أخرى.. وستخضع لابن يسي كل الشعـوب وتتمجد فيـه كل الأرض.. ويخضـع الجميع لإسرائيل.. ويتمجدون بخدمة شعب الرب المقدس إسـرائيل.. (يعـرف داود بابن يسي..وسيكون المسيح المنتظر من نسل داود).

والغريب حقاً أن في الولايات المتحدة اليوم أكثر من أربعين مليون شخص يـدينون بهـذه العقيدة.. وينتـظرون مجيء مسيـح الـرب الـذي سيبني الهيكـل.. وعلى رأس هؤلاء الرئيس السابق كارتر والرئيس السابق ريجان.. وهم يجمعون الملايين استعداداً لبناء الهيكل.

وبطبيعة الحال لن يقوم الهيكل إلا على أنقاض المسجد الأقصى لأنهم يدَّعون أن المسجد مقام على أرض الهيكل.. وأن حائط البراق الذي يسمـونه حـائط المبكى هو جزء سن حائط الهيكل.

ويعتقد هؤلاء أن المسيح لن يأتي إلا بعد أن يتم بناء الهيكل.

لذلك كله ترى الدعم المستمر لليهود من ملايين النصارى في الولايات المتحـدة وأوروبا والذين يتخذون الخطوات المتتالية لإزالـة المسجد الأقصى وبنـاء الهيكل حتى يتمكن الرب (المسيح الدجال) من النزول إلى هيكل قدسه.

ثم يتحدث سليمان عن مرحلة السبي التي لم تقع إلّا بعد قرون طويلة من وفاته حيث حدثت وفاة سليمان سنة ٩٢٠ قبل الميلاد. وحدث السبي على يد نبوخذ نصر سنة ٥٨٥ قبل الميلاد. أي أن بين عصر سليمان وعصر السبي أربعة قرون تقريباً... وذلك يدل دلالة قاطعة على أن هذا الكلام منحول، وأنه قيل بعد مرحلة السبي أو أثناءها أي بعد وفاة سليمان بأكثر من ثلاثة قرون ونصف قرن من الزمان.

يقول سليمان حسب زعم سفر الملوك: «إذا أخطأوا إليك لأنه ليس إنسان لا يخطىء وغضبت عليهم **ودفعتهم أمام العدو وسباهم سابوهم إلى أرض بعيدة أو قريبة. فإذا ردوا إلى قلوبهم في الأرض التي يسبون فيها ورجعوا وتضرعوا إليك في أرض سبيهم قائلين قد أخطأنا... ورجعوا إليك من كل قلوبهم في أرض أعدائهم الذين** سبوهم وصلّوا إليك نحو أرضهم التي أعطيت لآبائهم، نحو المدينة التي اخترت ــ بيت المقدس: أورشليم ــ والبيت الذي بنيت لاسمك ــ الهيكل ــ فاسمع في السماء مكان سكناك صلاتهم وتضرعهم... **وأعطهم رحمة أمام الذين سبوهم فيرحموهم لأنهم شعبك وميراثك الذين أخرجت من مصر من وسط كور الحديد. لتكون عيناك مفتوحتين نحو تضرع عبدك وتضرع شعبك إسرائيل فتصغي إليهم في كل ما يدعونك. لأنك أنت أفرزتهم ميراثاً لك من جميع شعوب الأرض». (سفر الملوك الأول ٨: ٤٤ ــ ٥٣).**

وهكذا ترى التناقض في الأدعية المزعومة لسليمان، وفيها كلام رباني وكلام غث تافه، جمعها الأحبار وأضافوا إليها ما أضافوا من ترهات وتفاهات وشنشنة بأنهم شعب الله المختار، وأن الله جعلهم ميراثه من الشعوب وأنه لا ينظر إلى سواهم إلّا بعين الحقد والمكر.

وتزعم التوراة أن الرب سُرَّ جداً ببناء الهيكل وتراءى لسليمان وأخبره بأنه سيسكن في ذلك البيت إلى الأبد، وأنه سيقيم كرسي ملكه إلى الأبد إذا عبدوا الله وحده، وأما إن عبدوا معه آلهة أخرى فإنه سيقطع إسرائيل من وجه الأرض».

سليمان يفرض أعمال السخرة:

ويتهم سفر الملوك الأول وسفر أخبار الأيام الثاني أن سليمان فرض أعمال

السخرة على بني إسرائيل وغيرهم من الشعوب ليبني الهيكل والقصر وليبني القلعة وسور أورشليم وحاصور وجازر.

وكان فرعون قد قدم مدينة جازر مهراً لزواج ابنته من سليمان ـ والمهر يقدم عندهم من المرأة للرجل ـ فقام فرعون بالهجوم على جازر وقتل أهلها الكنعانيين وأحرق المدينة بالنار وقدمها محروقة خالية من السكان مهراً لسليمان. فقام سليمان بإعادة بناء مدينة جازر وأسكن فيها جنوده من مختلف الشعوب.

وجعل سليمان جميع الشعوب من الآموريين والحيثيين والفرزيين والحويين واليبوسيين الذين لم يقدر بنو إسرائيل أن يحرّموهم ـ أي أن يقتلوهم ويبيدوهم ـ جعلهم سليمان عبيداً وسخرة لأعمال البناء (سفر الملوك الأول ٩: ٢٠ ـ ٢٢).

ملكة سبأ وسليمان:

«وسمعت ملكة سبأ بخبر سليمان وحكمته فأتت لتمتحنه بمسائل، فأتت إلى أورشليم بموكب عظيم جداً، بجمال حاملة أطياباً وذهباً كثيراً وحجارة كريمة، وأتت إلى سليمان وكلمته بكل ما كان بقلبها. فأخبرها سليمان بكل كلامها ـ أي بجواب كل أسئلتها ـ. فلما رأت ملكة سبأ كل حكمة سليمان، والبيت الذي بناه وطعام مائدته ومجلس عبيده وموقف خدامه وملابسهم وسقاته ومحرقاته التي كان يصعدها في بيت الرب، لم يبق فيها روح بعد. فقالت للملك: صحيحاً كان الخبر الذي سمعته في أرضي عن حكمتك. . . ولم أصدق الأخبار حتى جئت وأبصرت عيناي فإذا هو النصف مما أخبرت به. طوبى لرجالك وطوبى لعبيدك هؤلاء الواقفين أمامك دائماً السامعين حكمتك». (سفر الملوك الأول ١٠: ١ ـ ٨).

وأعطت الملك مئة وعشرين وزنة ذهباً وأطياباً كثيرة جداً وحجارة كريمة وكذلك أرسل الملك حيرام هدايا وذهباً كثيراً. وكان وزن الذهب الذي أتى سليمان في سنة واحدة مائة وستة وستين وزنة ذهب ما عدا الذي من عند التجار وتجارة التجار وجميع ملوك العرب وولاة الأرض.

وعادت ملكة سبأ إلى بلادها في اليمن بعد أن أكرمها «وأعطى الملك سليمان

لملكة سبأ كل مشتهاها الذي طلبت عدا ما أعطاها إياه حسب كرم الملك سليمان. فانصرفت وذهبت إلى أرضها هي وعبيدها». (سفر الملوك الأول ١٠ :١٣).

وسنستعرض الفوارق الشاسعة بين قصة بلقيس مع سليمان في القرآن الكريم وقصتها في سفر الملوك عند الحديث عن سليمان عليه السلام في القرآن الكريم.

سليمان يعبد الأوثان ويصنع لها المعابد:

بعد أن سمعنا شيئاً من دعوات سليمان وأناشيده المليئة بالتوحيد وتمجيد الله مع ما فيها من إضافات حول إسرائيل شعب الله المختار، تتحول التوراة المحرَّفة فجأة إلى شتم سليمان عليه السلام وأنه صنع التماثيل والمعابد لزوجاته ونسائه الألف، وأنه عبد معهن البعل والعشتروت وملكوم وغيرها من الأوثان.

ولا شك أن ذلك افتراء على نبي الله سليمان وحاشاه أن يفعل ذلك ولكنها أحقاد يهود على الأنبياء بحيث يلوثون صورتهم ويجعلونهم في أحقر صورة وأبغضها، لكي يفعلوا ما شاءوا من الموبقات ومن عبادة الأوثان.

وإليك ما ذكره سفر الملوك الأول (الإصحاح ١١ :١ ــ ١٢)، ليوضح لك مدى حقد هؤلاء اليهود حتى على أنبيائهم بدءاً من إبراهيم وانتهاء بعيسى بن مريم مروراً بموسى وهارون وداوود وسليمان عليهم السلام.

قال مؤلف سفر الملوك الأول:

«وأحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون. موآبيات وعمونيات وأدوميات وصيدونيات وحثيات من الأمم الذين قال عنهم الرب لبني إسرائيل: لا تدخلون إليهم ولا يدخلون إليكم لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم. فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة وكانت له سبعمائة من النساء السيدات وثلاثمائة من السراري فأمالت نساؤه قلبه.

«وكان في زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى. ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلهه كقلب داوود، فذهب سليمان وراء عشتروت إلهة الصيدونيين، وملكوم رجس العمونيين. وعمل سليمان الشرَّ في عيني الرب ولم

يتبع الرب تماماً كداوود أبيه. حينئذ بنى سليمان مرتفعة ــ معبداً ــ لكموش رجس الموآبيين على الجبل الذي تجاه أورشليم. ولمولك رجس بني عمّون. وهكذا فعل لجميع نسائه الغريبات اللواتي كُنَّ يوقدن ويذبحن لآلهتهن. فغضب الربُّ على سليمان لأن قلبه مال عن الرب إلّه إسرائيل الذي تراءى له مرتين وأوصاه في هذا الأمر أن لا يتبع آلهة أخرى. فلم يحفظ ما أوصى به الرب. فقال الرب لسليمان: من أجل أن ذلك عندك ولم تحفظ عهدي وفرائضي التي أوصيتك بها فإني أمزق المملكة عنك تمزيقاً وأعطيها لعبدك». (سفر الملوك الأول ١١: ١ ــ ١٢).

هكذا يزعم مؤلف سفر الملوك الأول أن سليمان عليه السلام تحول إلى عابد للأوثان من أجل نسائه اللائي بلغن ألفاً. ويا لها من صورة قميئة حقيرة تنتهي بها شيخوخة سليمان حيث يتحول إلى عابد للأصنام مع زوجاته العديدات. فيغضب عليه الرب ــ حاشاه بل غضب الله ولعناته على اليهود الذين افتروا على الله وعلى أنبيائه الكذب والبهتان ــ. وقد نفى الله تعالى في القرآن الكريم تهمة السحر والكفر التي ألصقها به يهود فقال تعالى: ﴿وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر﴾، وسنستعرض ذلك بتفصيل عند الحديث عن سليمان عليه السلام في القرآن الكريم.

وتزعم التوراة المحرَّفة أن الرب أقام خصماً لسليمان هو هود الأدومي. ثم أقام له خصوماً آخرين منهم رزون بن أليداع وكان في دمشق وصار ملكاً عليها، وملك على أرام، وحارب سليمان عليه السلام كما تزعم التوراة ولم يستطع سليمان أن ينتصر عليه بل حقق رزون عدة انتصارات عليه.

ومنهم يربعام بن ناباط ــ من نسل أفرايم بن يوسف عليه السلام ــ وكان عبداً لسليمان وجعله سليمان رئيساً للعمال ومسؤولاً عن جميع بيت يوسف. وفي ذات يوم كان يربعام خارج أورشليم فوجده أحد أنبياء بني إسرائيل ويدعى أخِيّا الشيلوني، فقام ذلك النبي بتمزيق رداء كان يلبسه إلى اثني عشر قطعة وأعطى يربعام عشرة قطع ثم قال حسب زعم (سفر الملوك الأول ١١: ٣١ ــ ٣٢): «لأنه هكذا قال الرب إلّه إسرائيل هاأنذا أمزق المملكة من يد سليمان وأعطيك عشرة أسباط ويكون له سبط

واحد من أجل عبدي داوود ومن أجل أورشليم المدينة التي اخترتها من كل أسباط إسرائيل. لأنهم تركوني وسجدوا لعشتروت إلّهه الصيدونيين ولكَمُوش إلّه الموآبيين ولملكوم إلّه بني عمّون، ولم يسلكوا في طرقي ليعملوا المستقيم في عيني وفرائضي وأحكامي كداوود أبيه».

وطلب سليمان قتل يربعام. ففر يربعام إلى مصر وبقي بها إلى وفاة سليمان، ولم يستطع يربعام أن يفعل شيئاً طوال أيام سليمان. فلما مات سليمان وملك ابنه رحبعام قام كل جماعة بني إسرائيل وقالوا له: إن أباك سليمان قسّى نيرنا ــ أي اضطهدنا بأعمال السخرة ــ وأما أنت فخفف الآن من عبودية أبيك القاسية ومن نيره الثقيل الذي جعله علينا فنخدمك. . . فأجاب الملك رحبعام الشعب بقساوة قائلاً: أبـي ثقّل نيركم. وأنا أزيد على نيركم. أبـي أدبكم بالسياط وأنا أؤدبكم بالعقارب». (سفر الملوك الأول ١٢: ٤ ــ ١٤).

وتحول بنو إسرائيل إلى يربعام ما عدا سبط يهوذا. وبهذا انقسمت مملكة داوود إلى مملكتين متنافستين أشد التنافس هما مملكة يهوذا في الجنوب وعاصمتها أورشليم ــ القدس ــ ومملكة إسرائيل في الشمال وعاصمتها شكيم ــ نابلس في الضفة الغربية اليوم ــ.

وقد تحطمت مملكة إسرائيل وانتهت على يد الآشوريين سنة ٧٢٠ قبل الميلاد بينما بقيت مملكة يهوذا إلى عام ٥٨٧ قبل الميلاد عندما قام نبوخذ نصر ــ بختنصر ــ بالهجوم عليها وتحطيم بيت المقدس ونفي اليهود إلى بابل.

وهكذا انتهت مملكة داوود والتي لم تدم سوى ثمانين عاماً. وقد حكم داوود عليه السلام أربعين عاماً سبعة منها كان فيها حاكماً على سبط يهوذا فقط ثم وحّد بني إسرائيل تحت حكمه لمدة ثلاثة وثلاثين عاماً. . . ــ من سنة ١٠١٠ إلى سنة ٩٦١قبل الميلاد ــ. وامتد حكم سليمان عليه السلام من سنة ٩٦١ قبل الميلاد حتى عام ٩٢١ قبل الميلاد أي أربعين عاماً أخرى.

وأما حكم رحبعام بن سليمان فلم يدم حكمه على كل إسرائيل سوى بضعة أيام

حيث قام في وجهه يربعام ومعه عشرة من أسباط بني إسرائيل. وأقام يربعام مملكة إسرائيل في الشمال.

ومنذ ذلك اليوم لم تتوحد إسرائيل قط. وسرعان ما انتهت دويلة الشمال على يد الآشوريين سنة ٧٢٠ قبل الميلاد. وأما دويلة الجنوب ـ يهوذا ـ فقد استمرت حتى عام ٥٨٧ قبل الميلاد عندما قضى عليها نبوخذ نصر قضاء مبرماً.

ولم تظهر إسرائيل كدولة واحدة إلّا عام ١٩٤٨م، وها هي اليوم تبسط سلطانها على أراضي لم تمتلكها حتى في أيام داوود وسليمان عليهما السلام.

سليمان عليه السلام في القرآن الكريم:

تتناقض الصورة التي ترسمها التوراة المحرَّفة (سفر الملوك الأول، وسفر الأخبار الثاني) مع الصورة المشرقة المتلألئة التي يرسمها القرآن الكريم لسليمان عليه السلام.

وتتحدث التوراة المحرَّفة عن سليمان عليه السلام وتصوره بصورة ملك ذو أبهة وعظمة، وفي نفس الوقت تصوره بأنه رجل خائن للعهد حيث قام بقتل أخيه أدونيا بعد أن أمّنه على نفسه. وكذلك قام بقتل أبياثار الكاهن وشمعي ويوآب بن صرويه بعد أن أمّنهم على أنفسهم... وتتهم التوراة المحرَّفة سليمان عليه السلام بأنه كان يقيم أعمال السخرة لتشييد المباني الفخمة ومنها هيكل سليمان وقصره. حتى إن بني إسرائيل تقدموا إلى رحبعام بن سليمان عند توليه العرش وقالوا له: «إن أباك سليمان قسّى نيرنا وأما أنت فخفف الآن من عبودية أبيك القاسية ومن نيره الثقيل الذي جعله علينا فنخدمك». (سفر الملوك الأول ١٢ : ٤).

وما هو أفظع من ذلك كله أن يزعم مؤلف سفر الملوك الأول والأخبار الثاني أن سليمان عليه السلام عبد الأوثان والأصنام مع زوجاته ونسائه اللائي بلغ عددهن ألفاً، وأنه قام بإنشاء المعابد لهذه الأصنام على المرتفعات في أورشليم وغيرها، كما تقدم معنا.

ألا لعنة الله وغضب الله على يهود الذين افتروا على الله وأنبيائه الكذب والبهتان.

وأما القرآن الكريم فيتحدث عن سليمان عليه السلام في صورة نبي كريم أنعم الله عليه بالنبوة والملك والحكمة وعلمه مما يشاء، وسخّر له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب، وجعل له الجن تأتمر بأمره، وجعل في جيشه الجن والإنس والطير فهم يوزعون، وعلَّمه منطق الطير، وفهّمه لغة النمل وآتاه من الملك ما لا ينبغي لأحد بعده. قال المولى: ﴿هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب. وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾.

ويأتي ذكر سليمان مقترناً مع ذكر أبيه داوود عليهما السلام في معظم المواضع والآيات التي جاء فيها ذكر سليمان في القرآن الكريم.

وقد جاء ذكره في سورة البقرة (١٠٢)، وسورة النساء (١٦٣)، وسورة الأنعام (٨٤) وسورة الأنبياء (٧٨ ــ ٨٢) وسورة النمل (١٥ ــ ٤٤) وسورة سبأ (١٢ ــ ١٤) وسورة صٓ (٣٠ ــ ٤٠). وأطول ذكر لقصة سليمان عليه السلام يرد في القرآن الكريم هو في سورة النمل تليها سورة صٓ ثم تليها سورة سبأ فسورة الأنبياء.

وكل مقطع من هذه السور يعرض لجانب جديد من حياة سليمان عليه السلام الحافلة بجلائل الأعمال وغرائب الحكمة والأحداث.

قصة سليمان عليه السلام في سورة البقرة:

قال تعالى:

﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ ﴿١٠٢﴾ ﴾. (البقرة: ١٠٢).

تتحدث هذه الآية الكريمة والآية التي قبلها عن اليهود الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم وبدلاً من ذلك اتبعوا الشياطين التي كانت تعلم الناس السحر.

قال تعالى:

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ ﴿١٠٢﴾﴾. (البقرة: ١٠١ ــ ١٠٢).

وقد ذكر أهل التفسير ــ ابن جرير، ابن كثير، القرطبي... إلخ ــ أن اليهود لما سمعوا أن القرآن يذكر سليمان في الأنبياء والمرسلين سخروا وضجوا بالضحك وقالوا: ما هو إلَّا ملك ساحر. وقال بعض أحبارهم: يزعم محمد أن ابن داوود كان نبياً، والله ما كان إلَّا ساحراً. فأنزل الله تعالى قرآناً يُتلى ينفي هذه الفرية عن عبده سليمان: ﴿وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا﴾ وذكر أهل التفسير أن سليمان ابتلاه الله ونزع منه ملكه. وفي هذه الفترة قامت الشياطين وكتبت كتباً للسحر وأخفتها تحت كرسي سليمان حيث دفنت هناك. فلما مات سليمان أوحت الشياطين إلى أوليائها أن يستخرجوا الكتب وعليها ختم سليمان. فقالوا: إنما ملككم سليمان بهذا السحر.

وقال القرطبي في تفسيره: «والشياطين هنا قيل: هم شياطين الجن، وهو المفهوم من هذا الاسم. وقيل: المراد شياطين الإنس المتمردون في الضلال».

وقد برأ الله تعالى سليمان من تهمة السحر. والسحر قرين الكفر قال تعالى:

﴿وما كفر سليمان﴾ وقد ذكر المفسرون أن اليهود نسبوا سليمان إلى السحر ولم ينسبوه إلى الكفر، وبما أن السحر قرين الكفر صار بمنزلته.

ولكن التوراة المحرَّفة الموجودة بين أيدينا ــ سفر الملوك الأول وسفر الأخبار الثاني ــ مليئة بالافتراءات التي تدّعي أن سليمان عبد الأوثان وشيد لها المعابد وقد

تقدم ذكرها ـ سفر الملوك الأول الإصحاح ١١ : ١ ـ ١٢ ـ ومن ذلك قول مؤلف سفر الملوك: «وكان في زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى. ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب كقلب داوود. فذهب سليمان وراء عشتروت إلّهة الصيدونيين وملكوم رجس العمونيين وعمل سليمان الشرَّ في عينيّ الرب. . . إلخ».

وهذا يدل على واحد من الأمور التالية:

الأول: أن الله سبحانه وتعالى نفى عن سليمان الكفر وعبادة الأوثان كما نفى عنه السحر في صورة مجملة. وأن أهل التفسير لم يطلعوا على سفر الملوك الأول وسفر الأخبار الثاني الذي فيه التهم الواضحة بعبادة سليمان للأوثان.

الثاني: أن التهمة الموجودة في سفر الملوك الأول وسفر الأخبار الثاني حول عبادة سليمان لم تكن موجودة حين نزول القرآن، بل كتبت وألصقت بسليمان زوراً وبهتاناً بعد نزول القرآن.

وليس ذلك مستغرباً فالتوراة المحرَّفة لا تزال تحرف وتغيّر وتبدل باستمرار إلى اليوم.

الثالث: أن اليهود الموجودين في المدينة لم يكونوا يتهمون سليمان عليه السلام بالكفر وعبادة الأوثان بل كان يتهمونه بالسحر. ومعنى ذلك أنه كانت هناك أكثر من نسخة من التوراة مختلفة في أقوالها.

والتوراة الموجودة بين أيدينا اليوم لا تذكر تهمة السحر بل تذكر تهمة الكفر وعبادة الأوثان.

وهذا يؤكد أن هناك نسخاً مختلفة من هذه الكتب التي تدعى الكتاب المقدس.

ويكفينا هذا القدر حيث نرى القرآن الكريم يبرىء سليمان عليه السلام من تهمتي السحر والكفر بلفظة واحدة.

موضـوع السحـر:

ولا يعنينا أن ندخل في تفاصيل السحر وكيفية تعلمه، وقصة الملكين ببابل هاروت وماروت لأن ذلك خارج أساساً عن موضوعنا. وكتب التفسير مختلفة فيه أشد الاختلاف والروايات الواردة كلها أو أغلبها من الإسرائيليات التي لم يصح منها شيء.

ويكفينا هنا أن نثبت حقيقة السحر كما أثبتها القرآن الكريم وأن له تأثيراً سيئاً على النفوس. وقد ذكر الله تعالى في قصة سحرة فرعون:

﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾. (الأعراف: ١١٦ ــ ١١٨).

وقال تعالى:

﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ ﴾. (طه: ٦٥ ــ ٦٩).

وعلى هذا ذهب المعتزلة وطائفة من أهل السنّة أن السحر لا حقيقة له بل هو تخييل وإلقاء في الروع.

ولا يمنع أن يؤثر هذا التخييل في نفس الشخص المسحور.

﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟

يَعۡلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾. (البقرة: ١٠٢).

وقد قسم الإمام القرطبي في تفسيره «الجامع لأحكام القرآن»[1] القول في السحر إلى ما يلي:

(١) **السحر**: أصله التمويه والتخييل وذكر على ذلك أمثلة من كلام العرب وشعرهم ومن القرآن الكريم في قصة سحرة فرعون ما يثبت أنه تخييل.

(٢) **السحر عند المعتزلة وطائفة من العلماء**: لا أصل له وهو نوع من الخداع والشعبذة ــ الشعوذة ــ وخفة اليد.

(٣) **السحر عند أغلب أهل السنّة**: حق وله حقيقة يخلق الله عنده ما يشاء. والسحر على هذا الوجه أنواع:

(أ) خفة اليد كالشعوذة.

(ب) إن من البيان لسحراً.

(ج) إن الساحر يستطيع أن يغيّر حقائق الأشياء فيقلب الحيوان من صورة إلى صورة ويجعل الإنسان حماراً ونحوه. واختلف الفقهاء في قبول هذا الكلام، فمنهم من نفاه ومنهم من قال به. ومن قبل ذلك قال بقتل الساحر. ومن قال: إن السحر تمويهات وتخييلات لم يقل بقتل الساحر.

(د) إن السحر حقيقة ويمكن تعلمه كما جاء في سورة البقرة (آية ١٠٢) وأنه يفرّق بين المرء وزوجه.

(هـ) إن لبيد بن الأعصم اليهودي سحر النبي صلى الله عليه وسلم في مشط ومشاطة وطلعة جف ذكر، فكان يخيّل إليه أنه يأتي النساء ولا يأتيهن. ثم نزل جبريل ورقاه بالمعوذتين فانحلّ السحر. وقد أخرج الحديث الإمامان البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها.

(١) ج ٢، سورة البقرة: آية ١٠٢، ص ٤٣ ــ ٥٠.

(و) يظهر الساحر خرق العادات مما ليس في مقدور البشر من مرض وتفريق بين زوجين وزوال عقل، ولكنها جميعاً دون المعجزة ولا تحدث إلاَّ بإذن الله وليس لها قاعدة. فأحياناً يستطيع الساحر أن يُحدثها وأحياناً لا يستطيع.

(ز) **الفرق بين السحر والمعجزة**: السحر يوجد من الساحر وغيره ويمكن تعلمه والتدرب عليه، والمعجزة لا يستطيع أحدٌ أن يأتي بمثلها أو معارضتها، لأن من شروط المعجزة التحدي بها.

(ح) **الحكم في الساحر**: ذهب أغلب أهل الفقه ــ مالك وأبو حنيفة والشافعي وأحمد ــ إلى قتل الساحر إذا سحر بكلام فيه كفر. ولا تقبل توبته عند بعضهم وتقبل عند الآخرين.

وقال بعض الفقهاء: إن كان السحر من التخييل فعليه التعزير. وقال الشافعي في رواية عنه: لا يقتل الساحر إلاَّ أن يقتل بسحره، ويقول تعمّدتُ القتل. وإن قال لم أتعمده لم يقتل وكانت فيه الدّية كقتل الخطأ. وإن أضرَّ بالمسحور أُدِّب الساحر على قدر الضرر الذي ألحقه بالمسحور.

القول في الملكين:

قال تعالى:

﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾.

قال القرطبي في تفسيره: ﴿وما أنزل على الملكين﴾: «ما» نفي، والواو للعطف على قوله وما كفر سليمان. وذلك أن اليهود قالوا: إن الله أنزل جبريل وميكائيل بالسحر

فنفى الله ذلك. وفي الكلام تقديم وتأخير: **التقدير وما كفر سليمان، وما أنزل على الملكين** ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت. فهاروت وماروت بدل من الشياطين في قوله: ﴿ولكن الشياطين كفروا﴾ هذا أولى ما حملت عليه الآية من التأويل، وأصح ما قيل فيها، ولا يلتفت إلى سواه. فالسحر من استخراج الشياطين للطافة جوهرهم ودقة أفهامهم».

وذكر القرطبي **أن هاروت وماروت هما من الشياطين بل من أقطابهم الذين قاموا بتعليم الناس السحر**. وقد وافقه على ذلك ابن كثير في تفسيره بعد أن ذكر مختلف الأقوال، وأنه لم يصح في ذلك شيء عن النبي صلى الله عليه وسلم. وأن الرواية التي تُذكر عن عبد الله بن عمر صحّت عنه إلى كعب الأحبار وليس إلى النبي صلى الله عليه وسلم. وكعب الأحبار نقل كثيراً من الإسرائيليات وقد طُعن في إسلامه، ووثقه بعضهم. ومع حسن النية فيه فإنه نقل كثيراً من الإسرائيليات التي تصادم النصوص في بعض الأحيان أو التي سكت عنها القرآن الكريم وأحاديث المصطفى فينبغي السكوت عنها.

وخلاصة القول: إن ما ذهب إليه القرطبي وابن كثير هو الذي ينبغي القول به في هذه المسألة. وأن لا يلتفت إلى الأقاويل الكثيرة التي لم يصح منها شيء عن المعصوم صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله.

ذكر سليمان عليه السلام من جملة الرسل ووحدة الرسالة:

يذكر المولى سبحانه وتعالى أنه أوحى إلى محمد صلى الله عليه وسلم كما أوحى إلى النبيين من قبل قال تعالى:

﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾. (النساء: ١٦٣ ــ ١٦٥).

وقدّم المولى ذكر محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وقد ذكر القاضي عياض في الشفاء أن ذلك من دلالة أفضليته على الأنبياء والمرسلين جميعاً صلوات الله عليهم أجمعين.

وقد ذكر المولى سبحانه وتعالى سليمان عليه السلام في هذه السلسلة الكريمة التي أتت برسالة التوحيد من لدن آدم عليه السلام إلى محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ خاتم الأنبياء والمرسلين.

سليمان عليه السلام من ذرية إبراهيم عليه السلام:

قال تعالى:

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾. (الأنعام: ٨٣ ـ ٨٤).

وقد مدح الله سليمان عليه السلام ضمن قائمة الأنبياء المنتسبة إلى إبراهيم عليهم السلام جميعاً وقال عنهم:

﴿ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

(الأنعام: ٨٦ ـ ٨٨).

وهكذا نجد القرآن الكريم يصف سليمان عليه السلام بالهدى والنبوة والإحسان وإخلاص العبودية لله، وأنه أفضل أهل زمانه. بينما تصفه التوراة المحرَّفة بالغش والخداع وعبادة الأوثان والاستبداد وأعمال السخرة، ووصفه اليهود بالسحر وأنه ما كان نبياً بل ساحراً كذاباً أفاقاً.

سليمان في سورة الأنبياء عليهم السلام:

بعد أن نفى الله عن سليمان تهمة الكفر وتهمة السحر التي ألصقها به يهود عليهم لعائن الله من سورة البقرة، وذكره في قائمة الأنبياء من ذرية إبراهيم عليه السلام في سورة الأنعام، وجعله ضمن خيرة خلق الله المصطفين المجتبين، وأن كلاً منهم هو أفضل أهل زمانه، يأتي ذكر سليمان وأباه داوود بشيء من التفصيل في سورة الأنبياء، حيث يقص علينا المولى جانباً من حكمة سليمان التي فاقت حكمة أبيه داوود، وكلاهما قد آتاه الله حكماً وعلماً.

قال تعالى:

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾. (الأنبياء: ٧٨ ـ ٨٢).

وهكذا ترد تفاصيل جديدة عن سليمان وأبيه داوود عليهما السلام. ويبدأ المشهد بمجموعة من الأغنام ترعى ليلاً حرث رجل أجهد نفسه في ذلك الحرث، حتى إذا استوت عناقيد الكرم فيه جاءت الأغنام ونفشت فيه فأفسدته وأكلته. فذهب صاحب الحرث وخصمه صاحب الغنم إلى داوود ليحكم بينهما. فحكم داوود بعد تأمل أن يأخذ صاحب الحرث الغنم تعويضاً له على ما أفسدته من حرثه.

ويأتي المشهد الثاني حيث يخرج الخصمان فيجدان سليمان فيسألهما: بم قضى بينكما نبي الله داوود؟ فقالا: قضى بالغنم لصاحب الحرث. فقال: لعل الحكم غير هذا، انصرفا معي. فأتى أباه فقال: يا نبيّ الله إنك حكمت بكذا وكذا وإني رأيت ما هو أرفق بالجميع قال: وما هو؟ قال: ينبغي أن تُدفع الغنم إلى صاحب الحرث

فينتفع بألبانها وأصوافها، وتدفع الحرث إلى صاحب الغنم ليقوم على إصلاحه. فإذا عاد الزرع إلى حاله ردَّ كل واحد منهما مال الآخر لصاحبه. فقال داوود: وُفقت يا بني. وقضى بما قضى به سليمان.

﴿وكلاً آتينا حكماً وعلماً﴾ ولقد كان حكم داوود عدلاً، ولكن حكم سليمان كان أرفق وأوفق. وفضيلة الولد على أبيه تسر أباه لأنها راجعة في النهاية إليه. وحتى لو قلنا: إن حكم داوود عليه السلام لم يكن صواباً، فهو اجتهاد منه عليه السلام وقد صح عن النبي محمد صلى ا لله عليه وآله وسلم أنه قال: «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر» رواه مسلم واللفظ له.

وقال الحسن البصري: «لولا هذه الآية لرأيت القضاة هلكوا ولكنه تعالى أثنى على سليمان بصوابه وعذر داوود باجتهاده».

وقد استنبط العلماء عدة مسائل من هذه القصة ذكرها القرطبي في تفسيره الجامع لأحكام القرآن. منها جواز الاجتهاد للأنبياء وأنهم لا يقرون على خطأ وقعوا فيه اجتهاداً. وقال بعض العلماء: إن جميع الأنبياء معصومون عن الخطأ في اجتهادهم. وخالفهم في ذلك مجموعة أخرى جوّزوا الخطأ عليهم لكنهم لا يقرون عليه، بل يأتيهم الوحي ليصحح لهم ذلك. ومنها أن للقاضي أن يرجع عن حكمه في القضية إذا تبين له الخطأ فيها، كما فعل داوود حيث نفذ حكم سليمان. وأن القاضي المجتهد له أجر إذا أخطأ وأجران إذا أصاب بشرط أن يكون أهلاً للاجتهاد في المسألة. أما من لم يكن أهلاً لذلك فهو مأزور غير مأجور. وأنه يجوز الاستئناف في القضية بحيث ينظر فيها قاض آخر أعلى رتبة من الأول، أو أن يوجه القاضي الثاني القاضي الأول ويعرّفه خطأه. على خلاف بين العلماء في هذا الموضوع، حيث اعتبر بعضهم أن حكم سليمان كان فتيا، لأن الحاكم والقاضي في ذلك الوقت كان داوود... وأن الحكم لم يصدر إلّا من داوود عندما فهم القضية من سليمان عليهما السلام.

وقد حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن على أهل الحوائط ــ أي البساتين والزرع ــ حفظها بالنهار. فإذا دخلتها الأغنام أو الإبل أو غيرها من الأنعام فأكلت منها

وأفسدتها بالنهار فلا شيء على صاحب الأنعام. وأن على أصحاب المواشي حفظها ليلًا فإن خرجت المواشي وأتلفت الزرع فصاحب المواشي ضامن. وقد روى الإمام مالك أن ناقة للبراء بن عازب دخلت حائط رجل فأفسدت فيه. فقضى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن على أهل الحوائط بالنهار ضمان وأن ما أفسدت المواشي بالليل ضامن على أهلها (أي أن الضمان على أهل الحوائط بالنهار لأن عليهم حراستها وأن الضمان يقع على أصحاب المواشي بالليل لأن عليهم حفظ مواشيهم ليلًا).

ورغم أن هذا الحديث مرسل إلَّا أن العلماء قد أخذوا به ما عدا الإمام أبو حنيفة الذي ذهب إلى أن هذا الحكم منسوخ بقوله: «جرح العجماء جبار» أي أن الجرح الذي تسببه البهيمة هدر ولا ضمان فيه. وذهب الليث بن سعد إلى وجوب الضمان على أصحاب الماشية بالليل والنهار.

ثم أثنى الله على داوود ثناءً عاطراً، حيث تسبح معه الطير والجبال وتتجاوب مع ترنيماته وتسبيحاته وصوته الرخيم الذي يهز الجماد والطير والحيوان.

قال تعالى: ﴿وسخرنا مع داوود الجبال يسبِّحن والطير. وكنا فاعلين﴾.

وعلّمه الله صنعة لبوس من الحديد حيث كانت الدروع تصنع قطعة واحدة فلا يكاد يتحرك فيها المقاتل، فجاء داوود عليه السلام وجعلها حلقاً حلقاً آخذ بعضها برقاب بعض. فجعل فيها المرونة ليتحرك فيها المقاتل بيسر وسهولة ومع ذلك تعطيه الحماية والوقاية. وكان داوود أول من اخترع ذلك، وألان الله له الحديد كما قد مرّ معنا في قصة داوود عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون﴾.

ثم ذكر فضله العظيم على سليمان حيث سخر له الريح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض التي بارك الله فيها.

قال تعالى: ﴿ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره، إلى الأرض التي باركنا فيها. وكنا بكل شيء عالمين﴾.

وقد أعطاه الله ملكاً لم يعطه أحداً من البشر في هذه الدنيا. ومن ضمن ذلك تسخير الرياح له تأتمر بأمره وتحمل جنده. وتعصف على أعدائه، وتكون رخاء تحمل السحاب والمطر كما جاء في صورة (صٓ): ﴿فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاءً حيث أصاب﴾. وتحمل جنده وأثقاله في يوم مسيرة شهر ﴿ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر﴾ أي أن مقدار غدوها مسيرة شهر ومقدار رواحها مسيرة شهر فيباغت سليمان الكفار المعاندين، حيث لا يتوقعون وصوله إليهم لبعد المسافة فإذا هو قد صبحهم أو مسّاهم.

والجدير بالذكر أن التوراة المحرَّفة لا تذكر شيئاً عن جهاد سليمان عليه السلام ولا غزواته. ولا عن تسخير الريح والجن له. بل كلما في القرآن الكريم من ذكر عاطر لسليمان عليه السلام غير موجود البتة في العهد القديم ـــ التوراة ـــ.

سليمان ولغة الطير والنمل:

يأتي أطول ذكر في القرآن لسليمان عليه السلام في سورة النمل (آيات ١٥ ـــ ٤٤): حيث ترد قصة سليمان شبه كاملة. منذ وراثته لداوود وتسنمه العرش وفضل الله عليه بالملك والنبوة والحكمة، ومعرفته لغة الطير وخضوع الإنس والجن له، وقصته مع النملة التي أنذرت قومها بأن يدخلوا مساكنهم قبل أن يحطمهم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون. ثم قصته مع الهدهد وما تبعها من قصة ملكة سبأ بلقيس التي أوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم. وكيف كانت وقومها تعبد الشمس من دون الله ثم كيف أسلمت في نهاية المطاف مع سليمان لله رب العالمين.

وتظهر هذه الآيات الكريمة نعم الله السابغة على داوود وسليمان وأولها نعمة العلم. العلم اللدني الرباني قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾.

يمن الله سبحانه وتعالى على عبديه المنيبين داوود وسليمان بنعمة العلم فيتقبلان

هذه النعمة بشكر المنعم الذي آتاهما هذا العلم وفضلهما على كثير من عباده المؤمنين ولقد علَّم الله داوود من العلم اللدني وأعطاه الزبور وجعل له الصوت الحسن الرخيم الذي يسبح به بكرة وعشياً فتجاوبه الجبال والطير. وعلمه الله صنعة لبوس ﴿أن اعمل سابغات وقدر في السرد﴾ فصنع الدروع لأول مرة بطريقة الحلق المتصلة، فكانت واقية في الحرب خفيفة في اللبس سابغة على الجسم. ﴿وعلَّمه الله الحكمة وفصل الخطاب﴾. وأما سليمان فقد أورثه الله علم داوود ونبوته وملكه، وعلمه لغة الطير والنمل وسخّر له الريح والجن. وورث سليمان عليه السلام ذلك كله من دون بقية إخوته وهم كثر، فضلاً من الله ونعمة فتحدث سليمان عليه السلام إلى الناس في عصره وزمنه مخبراً لهم بأنعم الله عليه، ومن أعجبها وأغربها فهمه لمنطق الطير وكلامه. وهو أمر لم تصل إليه البشرية بعد إلى يومنا هذا مع كثرة ما فتح الله به من العلوم الكونية في هذه القرون الأخيرة. ثم يذكر لهم أن الله قد آتاه من كل شيء بدون تحديد لتبدو ضخامة هذه النعم وتعددها بحيث لا يمكن حصرها كثرة.

ويأتي المشهد التالي مهيباً جليلاً حيث يحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون. ويجمع أوله على آخره حتى لا يتفرق هذا الموكب المهيب الذي لم تشهد له البشرية مثيلاً ولن تشهد. ذلك أن الله استجاب لسليمان عليه السلام وآتاه من الملك ما لا ينبغي لأحد من بعده.

قال تعالى:

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ
ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا
يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ
وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾.

يسير هذا الموكب المهيب الذي لم تعرف له البشرية نظيراً، جيش عرمرم من الجن والإنس والطير! حتى إذا اقترب هذا الموكب المهيب من وادي النمل ظهرت معجزة أخرى وخارقة لم نعرف لها نظيراً. قالت نملة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾.

ما هي هذه النملة الذكية المدركة لعواقب الأمور!! . وقفت هذه النملة الآمرة توجه أمة النمل الموجودة في ذلك الوادي إلى الخطر القادم. أمرتهم بدخول جحورهم ومساكنهم حتى لا تحطمهم أقدام سليمان وجنوده. ثم تعتذر لهذا الجيش الذي على رأسه نبي كريم فتقول: ﴿وهم لا يشعرون﴾. لأنه لا يليق بهذا الجيش الذي على رأسه نبي أن يظلم مثقال ذرة وأن يدوس بأقدامه نملاً وهو يشعر. فتبسم سليمان ضاحكاً من قولها... وحُقَّ له أن يبتسم تعجباً وسروراً بما قالت، فقد رأى لها من العقل والحكمة ما يفتقده كثير من البشر، ورآها تعتذر له ولجيشه فإنهم لا يقدمون على وطء نملة إلاَّ وهم لا يشعرون. مما يدل على عظيم حرصهم على إقامة العدل والبعد عن الحيف والجور والظلم مهما كان هذا الظلم والتعدي تافهاً في نظر الناس.

وقد سُرَّ سليمان عليه السلام بذلك سروراً مضاعفاً لأنه صدر عن هذا المخلوق الضعيف الضئيل الذي لا يكاد يرى، وأن هذه النملة قالته وهي لا تشعر بأن سليمان يسمعها ويدرك مقالها. فهي مقالة حق وصدق وليس فيها ما قد يكون في كلام البشر من تملق أو رياء أو طلب منفعة أو دفع مضرة. تلك كلمة خالصة وشهادة أقامها الله لنبيه على لسان هذه النملة الفذة العجيبة. وبهذا يخبرنا القرآن الكريم أن جميع المخلوقات تسبح لله وتعبده بلغة لا نفهمها ولا ندركها ﴿وإن من شيء إلاَّ يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ وأن الحيوانات المختلفة والطيور المتباينة ليست إلاَّ أمماً تسبح خالقها ولها لغات تتفاهم فيها على إدراك حاجاتها.

والعلم الحديث بدأ يدرك شيئاً يسيراً من هذه الحقائق التي لا تزال غيباً من الغيب الذي لا يدركه إلاَّ الله ومن شاء من خلقه. فالطير له لغة والنمل لها لغة والنحل لها لغة وكل حيوان من الحيوانات المختلفة له لغة يتفاهم بها ويدرك بها ما يحتاجه.

وقد تمكن الإنسان منذ أزمان وعهود طويلة من تعليم الخيل والكلاب والدببة وكثير من الحيوانات الأخرى مثل الدولفين والقرود والقطط والفئران والثعابين، فهي تأتمر بأمر مدربها وتفعل حسب ما يصدره لها من أوامر.

ومن أعظم ممالك الحيوان مملكة النحل ومملكة النمل وهي تنظم أمورها وشؤونها في دقة باهرة، ولها ملك أو ملكة وجنود وحرس وعمال، ولكل فرد منها عمل معين منوط به يؤديه على أحسن وجه دون كلل أو ملل.

وقد ورد في الحديث أن بعيراً اشتكى إلى النبي سوء معاملة صاحبه له. كما ورد أنه تكلم مع الغزالة، وأن الحمام المروع اشتكى له عندما أُخذت فراخها. وفهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم حديث هذه الحيوانات والطيور بل فهم حنين الجذع وتسبيح الأحجار وسلامها عليه.

لهذا كله تبسم سليمان عليه السلام ضاحكاً من كلام النملة الذكية العاقلة اللبيبة، وضحك الأنبياء تبسم، وامتلأ قلبه شكراً وحمداً لله الذي أنعم عليه بهذه النعم التي لا تعد ولا تحصى.

﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾.

لقد طلب سليمان أن يجعله الله شاكراً حامداً لأنعمه وأن يزداد من عمل الصالحات التي ترضي ربه، وأن يدخله الله برحمته في عداد العباد الصالحين، فذلك هو الفوز المبين.

﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ ﴾.

التفت سليمان عليه السلام فلم يجد الهدهد. وقد قيل إن سليمان كان يستخدم الهدهد ليدله على وجود الماء تحت الأرض كما تفعل الأقمار الصناعية اليوم، حيث تصور الأرض بالأشعة تحت الحمراء فتبدو المناطق التي تحتها الماء أقل في درجة حرارتها من المناطق المجاورة التي بدون ماء. جعل الله للهدهد تلك الخاصية. وبحث سليمان عن هذا الطير المقرب إليه فلم يجده. وغضب لأنه لم يستأذن في ذهابه، وتوعد بتعذيبه ونتف ريشه أو ذبحه أو أن يأتي بحجة واضحة وعذر مقبول.

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾﴾.

فمكث سليمان فترة وجيزة بعد تفقده للهدهد وإذا بالهدهد يصل ومعه خبر جديد، ويقول لسليمان الذي كان أعلم أهل زمانه: ﴿أحطت بما لم تحط به﴾ في ثقة وقوة ﴿وجئتك من سبأ بنبأ يقين﴾، ويخبره أنه وجد امرأة تملك قوم سبأ وقد آتاها الله ملكاً كبيراً واسعاً وعرشاً عظيماً. ولكن ويا للأسف، وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله، وزيّن لهم الشيطان أعمالهم فرأوها حسنة؛ فلم يهتدوا إلى الحق ولم يروا ما هم فيه من ضلال مبين، حيث تركوا عبادة الله الواحد الأحد الذي يخرج كل مخبوء في السماء والأرض، ويعلم سرهم وجهرهم، فيا لهم من حمقى ضلوا السبيل وتاهوا في أودية الضلال المبين.

انزعج سليمان عليه السلام لهذا النبأ فهو قد نشر الإسلام في ربوع مملكته وفي الممالك المجاورة عن طريق الحرب حيناً، وعن طريق الزواج والمصاهرة حيناً آخر، وعن طريق الدعوة إلى الله في كل وقت وحين. قال للهدهد:

﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

وينتقل المشهد فإذا نحن في اليمن في صنعاء في مدينة الملكة العظيمة بلقيس وإذا بالهدهد يتسلل إليها ويلقي كتاب سليمان عليه السلام في مخدعها. تنظر بلقيس يمنة ويسرة فلا تجد أحداً تتعجب من ذلك، تفتح الخطاب فإذا هو مكتوب بلغتها اللغة الحميرية ــ اليمنية القديمة ــ. . . الكتاب موجز قوي العبارة:

﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

خطاب في منتهى البلاغة والإيجاز والقوة، والغموض في طريقة وصوله إليها

وطريقة عرضه مما جعلها تصفه بأنه كتاب كريم.

﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ
الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ
قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا
تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ
يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

تبدو شخصية هذه الملكة اليمنية قوية ساحرة لها مهابة الملك وحصافة الرأي، لقد تعجبت من طريقة وصول خطاب سليمان لها. وتعجبت من لهجة الخطاب وقوته، وأدركت أن لهذا الرجل شأناً وشأواً غير شأن الملوك والعظماء الذين تعاملت معهم من قبل. احتاطت للأمر ودعت علية القوم وأخبرتهم الخبر وطلبت مشورتهم. فإذا هي تجد قوماً يفتخرون بقوتهم وبأسهم وانتصاراتهم في الحروب ولم يدركوا مغزى رسالة سليمان ولا قوتها، واعترفوا بأنهم لا رأي لهم فالرأي رأيها والمشورة مشورتها، فإليها يرجعون وعن رأيها يصدرون ولما اتصفت به من الحكمة والأناة وحصافة الرأي جعلوها ملكتهم التي لا يخالفون لها قولاً. حينئذ أفهمتهم أن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون... ولا يحسن بهم أن يردوا على سليمان بشيء من الجفاء، بل عليهم أن يلاطفوه ويبعثوا إليه بهدية. فإن كان ملكاً قَبِلَ الهدية، وإن كان نبياً يدعو إلى دين جديد فلن يقبل الهدية. وعلى ضوء موقفه من الهدية ستحدد خطواتها التالية.

وينتقل المشهد القرآني فجأة من صنعاء باليمن إلى بيت المقدس في فلسطين ليعرض لنا موقف سليمان عليه السلام من الهدية التي وصلته. وهي هدية وصفها المؤرخون وأهل التفسير بكثير من المبالغات وأن فيها كمية كبيرة من الذهب والفضة ومجموعة من الوصائف والغلمان، وأشياء ثمينة أخرى. فأمر سليمان بوضع سبائك الذهب والفضة لمسافة تسع فراسخ، ووضع دواب البحر والبر العجيبة، وأتى بغرائب في مملكته حتى ينبهر الوفد اليمني ويستصغر ما قدَّم من هدايا. ومهما كان من أمر فإن القرآن الكريم لا يذكر لنا شيئاً من هذه التفاصيل، وإنما يذكر أن سليمان عليه

السلام قال:

﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

ونحن نـدرك مدى الحـرج والضيق والصغار الـذي أحسه رئيس الـوفد بعـد هـذا التعنيف الشـديد. ولعله حـاول أن يستعـطف سليمـان عليه السـلام وأنـه سيحـاول أن يقنـع الملكة بأن تأتي بنفسها إليه.

ونفاجأ في المقـطـع الثاني بـأن الملكة قـد أقبلت بوفـدها الكبيـر من اليمن إلى سليمان مستسلمة طائعة بعد أن أخبرها الوفد بغنى مملكة سليمان وقوته الرهيبة.

وإذا هي تقترب من بيت المقدس ويشعـر سليمان بقـرب مقدمهـا، فيتحدث إلى الملأ من رجال بلاطه وحاشيته التي تضم الإنس والجن والطير والوحوش.

﴿قال: يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين﴾ سمـع سليمـان بوصف عرشها وعظمته ودقته، فأراد أن يمتحنها ويرى رباطة جأشهـا وقوة عقلهـا وشدة فطنتها التي سمـع عنها الكثير عندما يفاجأهـا بعرشهـا الذي خلّفتـهُ في اليمن، وأقفلت عليه الأبواب ووضعته في حرز حريز لا يمكن الوصول إليه.

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾.

قال سليمان عليه السلام أريد أعجل من ذلك. فقال آصف بن برخيا، وهـو رجل صدّيق آتاه الله علماً يستخدم فيه الاسم الأعظم:

﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

في لحظات كان العرش قد نبـع أمام سليمان. معجـزة لنبـي الله سليمان وكـرامة لولي الله آصف بن برخيا. خفض سليمان رأسه عندما رأى العرش مستقراً عنده تواضعاً لله وشكـراً له وقـال: ﴿هذا من فضـل ربـي ليبلوني أأشكر أم أكفـر؟ ومن شكر فـإنمـا يشكـر لنفسه ومن كفـر فإنَّ ربـي غني كـريم﴾. وإن سليمـان عليـه السـلام ليعلم أن

الغنى والثروة والملك والجاه والسلطان نوع من الابتلاء، قد يكون في بعض الأحيان أعظم وأشد من الفقر والمسكنة وضيق ذات اليد، ذلك لأن الإنسان في وقت الشدة والضيق غالباً ما يلتفت إلى مولاه وخالقه لينقذه ويفرج همه، أما في حالات السعة والرخاء فإنه ميال بطبعه إلى البطر والأشر والطغيان، إلاَّ من رحم ربك. قال تعالى: ﴿إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى﴾. ولذا اختلف العلماء في أيهم أفضل: الغني الشاكر أم الفقير الصابر؟... وكل ذلك ابتلاء من الله وامتحان ﴿ونبلوكم بالخير والشر فتنة﴾، ﴿فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن. وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن﴾. وليس في الغنى والسعة كرامة وليس في الفقر وضيق ذات اليد مهانة. بل الأمر كله نوع من الابتلاء لينظر المولى سبحانه وتعالى، وهو أعلم بعباده، من يشكر ومن يكفر عند الرخاء، ومن يصبر ومن يقنط عند الشدة.

﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾.

أمر سليمان عليه السلام الصناع المهرة بأن يغيروا في العرش ويبدلوا لينظر رباطة جأش هذه المرأة وهل تهتدي إلى معرفة عرشها الذي خلفته باليمن في حرز حريز؟ ﴿فلما جاءت قيل أهكذا عرشك؟﴾ لم يقل لها: أهذا عرشك؟ زيادة في التجهيل، فأجابت دون تلجلج: ﴿كأنه هو﴾ وهو جواب حصيف يدل على أنها أدركت أن الذي أمامها هو عرشها قد تمكن سليمان من إحضاره، فتماسكت ولم تفغر فاها دهشة. ولم تنفجر باكية أو صائحة: كيف جئتم بعرشي؟ أو من جاء بعرشي إلى بيت المقدس؟

أجابت بكل دقة وهدوء وثبات ورباطة جأش ﴿كأنه هو﴾ ولو سألها أهذا عرشك؟ لقالت: نعم. فلما غمّي عليها غمت عليهم. وأدرك سليمان عليه السلام رجاحة عقل هذه المرأة وثباتها وحسن تصرفها في الملمات. فأدرك أنها ستهتدي بإذن الله على يديه إلى الإسلام فقال: ﴿وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين. وصدّها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين﴾. ولقد منعها من الهدى وعبادة الله ما كانت تعبد من دون الله وهي عبادة الشمس. وسبب ذلك أنها نشأت في بيئة

وثنية وقوم كافرين. فلما رفعت عنها الغشاوة، وهي ذات العقل الراجح والرأي الحصيف، أدركت ما كانت عليه من الضلال. ورتب سليمان عليه السلام لها موقفاً آخر يجعلها تتنازل عن كبريائها وتسرع بإعلان إسلامها. أعد لها صرحاً عظيماً ممهداً من قوارير وزجاج رقيق يشف ما تحته من الماء والحيتان والنباتات البحرية والطحالب. وجلس سليمان في نهاية الصرح على عرشه المهيب تحفه الطير والجن والإنس.

﴿قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة﴾ حسبته ماء. إذ لم تتصور قط هذا الماء الذي يجري وفيه من الأسماك الصغيرة أنه مغطى بطبقة شفافة وقوية من الزجاج البلوري الرائق. تمالكت نفسها من الدهشة وجمعت أطراف ثوبها ورفعته لتخوض هذه اللجة بكل شجاعة وثبات وقد كشفت عن ساقيها ﴿قال ــ أي سليمان ــ إنه صرح ممرد من قوارير﴾ والممرد المملس الممهد، ومنه الأمرد الذي ليس له لحية. عند ذلك سقطت كل الأغشية والأقنعة التي كانت ترين على عقلها... سقطت الكبرياء وعزة الملك وعدم الخضوع لأجنبي ولو كان سليمان عليه السلام. سقط كل ذلك في لحظة وانجلى لها الحق. ﴿قالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين﴾. أسلمت لله واعترفت بظلمها حين أشركت بالله وعبدت الشمس: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ وأسلمت مع سليمان نبي الله حيث يجمع الإسلام الكل في إطار واحد، في أخوة الإسلام. أسلمت معه لله رب العالمين. فهي لم تخضع لملك من الملوك ولا لجبار من جبابرة الأرض، وإنما أسلمت لله رب العالمين مع نبي كريم، هو نبي الله سليمان عليه السلام.

وهكذا ينتهي السياق القرآني عند هذه النهاية الرائعة ولا يخوض فيما خاض فيه أهل التفسير والروايات والقصص والأخبار عن ساقيها التي هي مثل الماعز. ولا عن زواج سليمان بها ومن أنجب منها... إلخ، لأن ذلك كله خارج عن مقصد ومغزى هذه القصة العظيمة. فقد سعى سليمان عليه السلام إلى دعوة الأمم والملوك إلى دين الله القويم الحنيف. ولما أخبره الهدهد بملكة سبأ وعبادتها وقومها الشمس دعاهم إلى الله. ودبر لهذه الملكة التي اشتهرت بالحكمة ورجاحة العقل ورباطة الجأش مع الثراء

الواسع والملك العريض ما يدهشها ويبهرها ويحيرها ويخضعها، فيزيل عنها العُجب والكبرياء اللتان تمنعانها عن إدراك دعوة سليمان عليه السلام، وإنه لا مطمع له في دنيا ولا في ملك مع ما آتاه الله من ذلك الملك العريض، ولكنه يسعى لجعل ذلك كله في خدمة الدعوة إلى الله، وتسخير ذلك كله في سبيل الله وجذب الناس كافة في عصره إلى عبادة الواحد الأحد الفرد الصمد.

وقد نجح سليمان عليه السلام في ذلك نجاحاً باهراً. وربط مملكته القوية والواسعة بمصاهرات مع مجموعة من الملوك الأقوياء المحيطين به، وأبقاهم على ملكهم بعد أن دخلوا في دين الله أفواجاً.

سليمان عليه السلام في سورة صٓ:

تتعرض سورة «صٓ» لأحداث في حياة سليمان عليه السلام وابتلاءات لم تتعرض لها السور الأخرى التي ذكرت سليمان، مثل سورة البقرة والنساء والأنعام والأنبياء والنمل وسبأ. وقد سبق أن استعرضنا ما جاء في هذه السور من ذكر لسيدنا سليمان ما عدا سورة سبأ التي سنرجىء ذكرها إلى الختام لأن فيها قصة موت سليمان عليه السلام. ولهذا سنجعلها في الختام رغم أنها متقدمة في ترتيب المصحف على سورة صٓ.

بعد أن ذكر الله ابتلاء داوود عليه السلام[1] يأتي ذكر سليمان وما ابتلي به عليه السلام. قال تعالى:

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ ﴾.

مدح الله داوود ثم مدح سليمان، وكان سليمان من نعم الله الكبرى على داوود ـ عليهما السلام ـ ووصفه بأنه أواب كثير العودة والأوبة إلى الله. واستعرض سليمان عليه السلام خيلاً كان يعدها للجهاد في سبيل ا لله. وكانت من كرام الخيل وأجودها،

(١) انظر ص ٣٧١ وما بعدها.

وصفها الله تعالى بقوله: ﴿الصافنات الجياد﴾ والصافنة هي التي تقوم على ثلاث وإقامة الأخرى على طرف الحافر. وهو دلالة على قوة هذه الخيل ونفاستها. والجياد جمع جواد وهو السابق. فهي خيل كريمة تطيع أمر راكبها إن استوقفت وقفت، وإن أركضت سبقت. وكانت ألف جواد. وقد بدأ سليمان باستعراضها بعد الزوال وانشغل سليمان بها تماماً حتى توارت الشمس وغابت، ولم يصل سليمان صلاة العصر، وكانت من أحب الصلوات إليه، كما كانت لرسول الله محمد صلى الله عليه وسلم فيما بعد. حزن سليمان وندم على ذلك فقال: ﴿إني أحببت حب الخير ـ أي الخيل ـ عن ذكر ربي حتى توارت ـ الشمس ـ بالحجاب. ردوها علي فطفق مسحا بالسوق والأعناق﴾. ردوا عليه الخيل فضربها بالسيف وعرقبها لأنها شغلته عن الصلاة وتصدق بلحمها. وقيل بل مسح أعناقها وسوقها بيده إذ لا ذنب لها فيما حدث. وترك سليمان الخيل، فأبدله الله خيراً منها وهي الريح ﴿تجري بأمره رخاء حيث أصاب﴾، ﴿غدوها شهر ورواحها شهر﴾ فتروح وتؤوب فيما يقطعه المسافر شهراً في ذهابه وشهراً في إيابه وعودته بوسائل النقل المتاحة في ذلك الزمان. وهي تنقل سليمان وجنوده فيفاجىء بها الأعداء وتنهار بذلك مقاومتهم فيسلمون معه لله رب العالمين.

ويأتي الابتلاء الثاني في صورة جسد ألقي على كرسي سليمان. قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ ﴾.

ولقد روى البخاري بسنده في صحيحه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «قال سليمان: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة. كل واحدة تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله. ولم يقل إن شاء الله. فطاف عليهن فلم تحمل إلاَّ امرأة واحدة جاءت بشق رجل. والذي نفسي بيده، لو قال: إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون».

وهناك روايات وإسرائيليات لم يصح منها شيء فنضرب عنها صفحاً وإن ملأت كتب أهل التفسير. وتكفينا رواية البخاري في صحيحه. فقد أراد سليمان عليه السلام أن يطوف على سبعين امرأة. كل واحدة تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله ولكنه لم يقل

إن شـاء الله . . . وظن أن ذلك في مقـدوره. فعاقبـه الله على نسيـانـه وعـدم استثنـائـه للمشيئة فلم تلد إلّا امرأة واحدة، جاءت بمسـخ ألقوه على كرسي سليمان.

ولا داعي لإنكـار هذه الـرواية الصحيحـة أو التشكيك فيها كما فعل سيـد قـطب رحمه الله في الظلال أو أحمد بهجت في كتابـه القيم أنبياء الله. فقـد كانت نيـة سليمان عليه السلام واضحة في الطواف على زوجاته وسراريه. وهي نية خالصة لله تعالى حيث أعلن عن رغبته في خروج سبعين فارساً من صلبه يجاهـدون في سبيل الله ولا يخـافون لومة لائم. وكونه قادر على إتيان سبعين امـرأة في ليلة واحدة أمر ليس غـريباً على قـدرة الله تعـالى، فهو لـه معجزة وكم لـه ولـلأنبيـاء عليهم صلوات الله من معجـزات!! وكم لأولياء الله الصالحين من كرامات!! والزمن نسبـي تتوقف دورته عندمـا يأمـر الله بذلـك تمـاماً كمـا توقف لأهـل الكهف في نومتهم الـطويلة التي بلغت ثلاثمـائة عـام وازدادوا تسعاً. وكما توقفت في موتة عزير عندما أماته الله مائة عام ثم بعثـه ﴿قال كم لبثت قـال لبثت يوماً أو بعض يوم﴾. وكما توقفت الشمس عن المغيب ليوشع بن نون.

ولا شك أن الله قادر على أن يعطي نبيه أو وليـه كرامـة توقف دورة الـزمن فيفعل في خـلال دقائق مـا لا يعمل إلّا في أيـام. ويكفي أن آصف بن برخيـا قـد أتى بعـرش بلقيس من صنعـاء إلى بيت المقـدس في لمـح البصـر، وهـو أمـر لا يمكن أن يتحقق بأحدث الوسائل لدينا اليوم. وكما توقفت الشمس عن المغيب ليوشع بن نون.

وقد أدرك سليمان عليه السلام ما وقـع فيه من خطأ إذ لم يقل إن شـاء الله عندمـا هم بـالتطواف على نسـائه. فـاستغفر ربـه ﴿قال رب اغفـر لي وهب لي ملكـاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب﴾ طلب سليمان ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، لا حباً في الملك والأبهـة والسلطان، بـل من أجـل تـدعيم الـدعـوة إلى الله ونشـر كلمـة الله وإعلائها في الخافقين ﴿فسخرنا له الريـح تجري بأمره رخاء حيث أصاب﴾ فاستخدمها في نشر الدعوة ومعرفة أخبار العـدو ونقل جيشـه حتى يفاجىء الأعداء فيبغتهم ويجعلهم يستسلمون وينقادون. ﴿والشيـاطين كل بنـاء وغواص وآخـرين مقرنين في الأصفـاد﴾. وسخر الله لسليمان شيـاطين الجن ومردتهم، فكـانوا لا يستـطيعون أن يـزيغوا عن أمـره فمنهم من يبني لـه القصور والتمـاثيل والجفـان والقدور الـراسيات، ومنهم من يغـوص

أعماق البحر ويأتي له بالدر والمرجان، وأما من تمرد وعصى فإنه ينكل به ويعذب ويوضع في الأصفاد مغلولاً مذموماً. ﴿هذا عطاؤنا﴾ نعم هذا عطاء الله الذي لا نظير له. هذا عطاء الله الواسع ﴿فامنن ــ يا سليمان وأعط من شئت ــ أو أمسك﴾ عن العطاء عمن شئت فليس عليك حرج ولا حساب في ذلك كله، فقد جعلك الله خليفة في الأرض كما جعل أباك من قبل ﴿فامنن أو أمسك بغير حساب﴾ ليس ذلك فحسب وإنما له عند الله الزلفى والقربى والمآب الحسن الذي تتضاءل معه كل خيرات الدنيا وكنوزها. ﴿وإن له عندنا لزلفى وحُسن مآب﴾. ويا لها من كرامة يفوز بها سليمان عليه السلام في الدنيا والآخرة!! وهو بها جدير منذ وصفه الله بقوله: ﴿نعم العبد إنه أوّاب﴾. وهو كثير الأوبة والتوبة جم الاستغفار كثير الشكر لله تعالى حتى أصبحت سكناته وحركاته وأعماله كلها شكراً لله. ﴿اعملوا آل داوود شكراً وقليل من عبادي الشكور﴾ وكان داوود وسليمان عليهما السلام من هذا القليل. ألحقنا الله بهم بمنه وكرمه آمين.

ذكر سليمان عليه السلام في سورة سبأ:

يرتبط ذكر سليمان عليه السلام في القرآن الكريم بذكر أبيه داوود صلوات الله وسلامه عليه. قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾

وقد تقدم ذكر هذه الآيات عند الحديث عن داوود عليه السلام في القرآن الكريم. ثم يقول المولى تبارك وتعالى معدداً النعم على آل داوود:

﴿ وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾.

يـذكر المـولى نِعَمه المتتـالية على داوود وسليْمـان. فبعد أن ذكـر ما لـداوود من النعم جاء ذكر سليمان عليه السلام وكيف سخر الله له الريـح تجـري بأمـره رخاء حيث أصاب وأراد، وهي تسير في يوم ما يقطعه المسافر في ذلك الزمان في شهر ذهاباً وشهر إياباً. وبهذه الريـح التي جعلها الله لسليمان بـدلاً من الخيل التي ضـايقته بسبب تـركه لصـلاة العصـر يـومـاً أثنـاء استعـراضـه لهـا. كـان سليمـان يفـاجىء أعـداءه ويبغتهم فيستسلمون في أغلب الأحيان دون قتال. وسخّر الله له الجن يعملون بين يديه ويأتـون له بالدر والمرجان من أعماق البحار ويبنون له المعابـد والهياكـل والقصور والمحـاريب ــ والمحراب هو كل مكان مـرتفـع مخصوص للصـلاة ــ، والجفـان ــ جمـع جفنـة ــ وهي الصحفة الكبيرة التي تشبـه الجوابـي. والجـابية هي البـركة الكبيـرة التي يجتمـع فيها الماء. ولا يزال لفظ الجابية يستخدم في حضرموت إلى اليوم ويقصدون به مجمـع المياه، ومنه الجبـاية وجمـع الأمـوال. والجابيـة بركـة كبيرة يجتمـع فيهـا ماء المـطر. وتصنـع الجن لسليمـان هذه الجفـان الضخمة والقـدور الكبيرة الـراسية التي لا تتحـرك لثقلهـا وضخامتهـا، وقيل: إنهـا نحتت في الصخور والجبـال، وتوضـع فيهـا الأطعمـة ليأكل منها آلاف العمال الذين كانوا يعملون في بناء الهيكـل في بيت المقدس. وكـانوا يصنعـون لسليمان التمـاثيل الـرائعة الجميلة ولم تكن محـرمة في شـرعـه. وقيـل إنهـا لم تكن للحيوانات وقيل غير ذلك، وذكر بعضهـم أنها كانت صـوراً للأنبيـاء والصالحين توضـع في المسجد حتى يذكر الناس اجتهادهم في العبـادة فيجتهدون مثلهم ويتـأسون بهم. واستدلوا على ذلـك بقولـه صلى الله عليه وسلم: «إن أولئـك كان إذا مـات فيهم الرجل الصـالـح بنوا على قبـره مسجداً وصـوروا فيه تلك الصـور». وقد حـرم الإسلام التصـوير لكـل ما لـه روح؛ لأنها كـانت تعبد، فكـانت الحكمة منعهـا البتة. وقـد أباح الفقهاء لُعب البنات لمـا ثبت عن عائشـة، أن النبـي صلى الله عليه وسلم لمـا تزوجهـا وهي صغيرة كانت تلعب بالعرائس، وأنه كان بعضها على هيئة خيـل لها أجنحـة، فلما سألها النبـي عن هذه الخيل ذوات الأجنحة أجابت: بأن خيل سليمـان كان لهـا أجنحة فضحك النبـي من جوابها.

قال القرطبي في تفسيره: إن العلماء قد استثنوا هذه اللعب من التصوير وكذلـك

ما يصنع من الحلاوة أو العجين وما لا بقاء له. كما استثنى بعض العلماء ما كان رقْماً في ثوب وما كان يوطأ بالأقدام لمهانته.

وقد جعل الله لسليمان الريح في خدمته والجن تحت إمرته وأسال له عين القِطر. والقطر هو النحاس. فكما ألان الله لداوود الحديد وجعله يصنع منه الدروع السابغة، ولم يكن ذلك لأحد قبله، أذاب الله النحاس لسليمان، وكان سليمان عليه السلام أول من فعل ذلك وخلط النحاس بالحديد فصنع منه البرونز، وصنع من البرونز الأسلحة المتفوقة. فكان جيش سليمان عليه السلام متفوقاً تفوقاً كبيراً على جيوش أعدائه من جهة السلاح ومن جهة العدد ومن جهة العدة ومن جهة التنظيم ودقته، ومن استخدام قوى مذخورة مثل الجن والريح والطير. واستخدم سيدنا سليمان النحاس في الصناعة الحربية وفي الصناعة المدنية. وكان من ذلك عجائب لم يعرفها البشر من قبل.

لذلك كله صارت أعمال آل داوود كلها شكراً لله. قال داوود: «يا رب كيف أطيق شكرك على نعمك. وإلهامي وقدرتي على شكرك نعمة لك تستوجب الشكر». تحولت كل ذرة في كيان داوود وسليمان عليهما السلام إلى تمجيد وشكر لله تعالى على هذه النعم المتتالية. لم يكن شكراً باللسان فحسب ولا شكراً بالجنان فحسب، وإنما تحولت الأعمال كلها لتكون مظهراً لهذا الشكر. الصلاة شكر، والصوم شكر، والصدقة شكر، والجهاد شكر، والإحسان إلى الناس شكر، والقضاء بينهم بشرع الله شكر، وتنفيذ أوامر الله شكر.. ﴿اعملوا آل داوود شكراً. وقليل من عبادي الشكور﴾ وما أقل الذين تتحول حياتهم كلها إلى شكر متصل لله بالليل والنهار، بالسر والعلانية، باللسان والجنان. بهذا كان رجل يطوف بالبيت ويقول: «اللهم اجعلني من القليل» وعمر بن الخطاب يتعجب والرجل يكرر الدعاء العجيب، فسأله عمر عن ذلك فقال الرجل: «قال الله تعالى: ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾» فقال عمر: كل الناس أعلم منك يا عمر.

ويسدل الستار على قصة سيدنا سليمان بمشهد موته. وكما كانت حياته مليئة بالغرائب والعجائب والحكمة كذلك كان موته قال تعالى:

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾.

تخيَّل بعض الناس في عهد سليمان وفي مختلف الأزمنة أنَّ الجن بما لديهم من القدرات الهائلة التي تتضاءل معها قدرات البشر، أنهم يعلمون الغيب فأراد الله سبحانه وتعالى أن يجعل في موت سليمان آية تدل على أن هؤلاء الجن لا يعلمون الغيب، ولو علموه لأنقذوا أنفسهم. فقد مات سليمان وبقي واقفاً على عصاته وظن الإنس والجن أنه مستغرق في صلاته. ولبثوا أياماً طوالاً قيل إنها بلغت عاماً، وهم على حالهم تلك يعملون الأعمال الشاقة وسليمان في مكانه لا يريم.

وقد كان سليمان يدخل في صلوات طويلة فلا يجرؤ أحد على مخاطبته حتى ينتهي من تلك الصلاة. بقي سليمان أياماً وهو على تلك الحال، والكل مروع وخائف لا يتجرأ على أن يكلم سليمان. والكل دائب في عمله. فسليمان يرقبه من مكانه المغطى من كل جهة بالزجاج.

استمر الإنس والجن يعملون ويكملون بناء بيت المقدس فلما تم البناء أو كاد جاءت الأرضة وأكلت من عصا سليمان ولم تعد العصا تتحمل هذا الجسم فمالت وخرَّ الجسم القوي المتين إلى الأرض. سمع الكل صوت سقوط سليمان. ركضوا جميعاً فإذا بسليمان قد فارق الروح منذ وقت طويل. في تلك اللحظة قالت الجن: لو كنا نعلم الغيب ما لبثنا في هذا العذاب المهين، وهذا العمل المستمر، ولن يستطيع أحدٌ بعد سليمان أن يقهرنا ويسخرنا فقد جعل الله ذلك لسليمان خاصة.

وهكذا يسدل الستار على نهاية سليمان عليه السلام.. وكانت خاتمة حياته عبرة وحكمة مثلما كانت حياته كلها.

* * *

أسفار الحكمة والشعر

حكمة سليمان (عليه السلام)
في أسفار العهد القديم

لقد اشتهر سيدنا سليمان عليه السلام بالحكمة كما اشتهر بها أبوه من قبل. وقد قصَّ الله سبحانه وتعالى في سورة الأنبياء جانباً من حكمة سليمان عليه السلام، وهو شاب حدث. قال عزَّ مِن قال: ﴿وداوود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين. ففهَّمناها سليمان وكلاًّ آتينا حكماً وعلماً﴾، وقد استعرضنا ذلك في الفصل السابق فليرجع إليه القارىء الكريم. كما اشتهرت قصة المرأتين اللَّتين ادَّعت كل واحدة منهما الغلام ولم تكن هناك بيِّنة لأي منهما، فقال سليمان: نشطر الولد بينكما، فقالت الأم الحقيقية: لا تفعلوا ذلك وأعطوه لها، ووافقت الأخرى، فعلم سليمان من تكون الأم ومن هي المدَّعية، ثم أقرَّت بذلك المدَّعية.

وقد قصَّ القرآن الكريم جانباً من حكمة سليمان وحصافة رأيه في قصته مع بلقيس في سورة النمل، التي سبق استعراضها.

وقد زعم مؤلفو العهد القديم أنهم جمعوا ما قاله سليمان وجعلوه في ثلاثة أسفار، وهي: سفر الأمثال وسفر الجامعة ونشيد الأنشاد، ونسبوها كلها لسليمان عليه السلام. وتكوِّن هذه الأسفار الثلاثة، مع سفر المزامير، مجموعة أسفار الحكمة والشعر والأدب في كتاب العهد القديم. وقد يُضم إليها سفر أيوب الذي يُعتبر قطعة أدبية رائعة. ورغم أن هذه الأسفار تمثل الشعر والحكمة والأدب، إلاَّ أن ترجمتها ركيكة في اللغة العربية، مما يفقدها كثيراً من رونقها الشعري والأدبي.

وكما أسلفنا في حديثنا عن سفر المزامير المنسوب لداوود عليه السلام، فقد

أوضحنا أن ذلك السفر ضمَّ شيئاً مما قاله داوود عليه السلام مع ما أضيف إليه من ترهات الأحبار وكفرهم وبهتانهم. والشيء ذاته يقال عن هذه الأسفار الثلاثة المنسوبة لسليمان عليه السلام حيث نرى جواهر تلمع من بين الركام والمزابل المحيطة بها.

ويحوي سفر الأمثال مقدمة في امتداح العقل والحكمة والتحذير من أنواع الرذيلة (من الإصحاح الأول: ٧ إلى الإصحاح التاسع: ١٨). ويبدأ الإصحاح العاشر بقوله: أمثال سليمان: «الابن الحكيم يسر أباه والابن الجاهل غم لأمه». ويستمر ذلك إلى الإصحاح (٢٢: ١٦). ثم يذكر أقوال الحكماء بدون تحديد أي اسم بقوله: «أمِلْ أذنك واسمع كلام الحكماء»، وذلك من الإصحاح (٢٢: ١٧) إلى الإصحاح (٢٤: ٣٤). ثم تبدأ مجموعة جديدة من الأمثال المنسوبة لسليمان عليه السلام من الإصحاح (٢٥: ١) إلى الإصحاح (٢٩: ٢٧) وفيها أمثال تدل على أنها كُتبت بعد عهد سليمان بعدة قرون لأن فيها إشارة إلى السبي البابلي، كما أن هذا القسم يبدأ بقوله: «هذه أيضاً أمثال سليمان التي نقلها رجال حزقيا ملك يهوذا». وحزقيا عاش بعد سليمان بأكثر من ثلاثة قرون.. يبدأ الإصحاح الثلاثون بكلام آجور بن ياقة ويستمر إلى نهاية الإصحاح. ويبدأ الإصحاح ٣١ بقوله: «كلام لموئيل الملك. قول بليغ أدَّبته به أمه»، وهذا الملك مجهول. وينتهي هذا السفر بالحديث عن المرأة الفاضلة وصفاتها.

سفر الأمثال وهل هو منقول من حكم أمنموبي المصري؟

يعتقد كثير من الباحثين الغربيين وتابعهم في ذلك كثير من الباحثين المسلمين، في أن الذين كتبوا أسفار العهد القديم تأثروا تأثُّراً شديداً بما وجدوه من الأمم الأخرى. ويذكرون أن نشيد أخناتون الكبير قد نقله كاتب المزامير وغيَّر قليلاً من ألفاظه وسمَّاه المزمور ١٠٤، وقد سبق استعراضنا لذلك في فصل: مزامير داوود. وسنستعرض ها هنا موقف الباحثين من كتاب الأمثال المنسوب لسليمان عليه السلام. يذكر هؤلاء الباحثين أن سفر الأمثال منقول مع تحريفات بسيطة من كتاب «٣٠ فصلاً في الحكمة» لأمنموبي المصري. وقد عقد العلامة هوجو جرسمان (١٩٢٤م) مقارنة بين كتاب أمنموبي وبين كتاب الأمثال المنسوب لسليمان، وانتهى إلى القول بأن

أفكار أمنموبي سُرقت وظهرت في ثوب جديد حسبما تقتضيه الحاجة في سفر الأمثال.

ويذكر عالم الآثار المصرية (أرمان) والعالم (برستد) أن سفر الأمثال يعتمد اعتماداً كبيراً على كتاب «الحكم» لأمنموبي المصري. وقد قسم أمنموبي كتابه إلى ثلاثين فصلاً واشتهر كتابه باسم «ثلاثون فصلاً من الحكمة»، وأحياناً باسم «الثلاثون» فقط.

وقد نقل كاتب سفر الأمثال العبري كثيراً مما كتبه أمنموبي بعد تغيير طفيف في الألفاظ مع بقاء المعنى. وقد ذكر كاتب سفر الأمثال بعض النصوص المنقولة حرفياً من كتاب أمنموبي أنه كتب ثلاثين فصلاً في الحكمة تماماً مثلما فعل أمنموبي.

ويحتوي سفر الأمثال على ٣١ إصحاحاً ــ فصلاً ــ، ثلاثون منها منسوبة لسليمان عليه السلام، وواحد منسوب لموئيل ملك مسّا الذي علّمته إياه أمه، وقد عقد العالم (برستد) مقارنة بين ما ورد في سفر الأمثال وكتاب «الحكمة» لأمنموبي المصري[١]. وينقل سفر الأمثال أيضاً بعض الحِكَم المكتوبة على التوابيت المصرية. ونقل سفر أرميا شيئاً من حكم أمنموبي، كما أن المزمور الأول من المزامير المنسوبة لداوود ينقل عن حكم أمنموبي[٢].

ونحن لا نشكّ أن سليمان عليه السلام كان حكيماً، فقد شهد له القرآن الكريم بذلك، قال تعالى: ﴿وكلاً آتينا حكماً وعلماً﴾، أي داوود وسليمان. وورث سليمان داوود وكان مما ورثه عنه الحكمة وفصل الخطاب.

وإذا تشابهت بعض الأمثال لدى الأمم فهو أمر غير مُستغرَب. فإننا اليوم نجد كثيراً من الأمثال من الأمم المختلفة ذات الثقافات المتباينة جداً تتشابه في مقصد من المقاصد أو في صيغة من الصيغ.

وعند التدقيق في المقارنة التي وضعها (برستد) بين سفر الأمثال وكتاب

---

(١)و(٢) د. بدران محمد بدران: «التوراة العقل، العلم، التاريخ»، دار الأنصار، القاهرة، ص ١٨٠ وما بعدها.

«الحكمة» لأمنموبي، نجد أن التشابه بينهما لا يزيد عما هو موجود بين الأمثال الإنچليزية، والأمثال العامية المصرية، والأمثال الصينية. وهناك قاسم مشترك بين الإنسانية كلها تجعل شيئاً غير يسير من تراثها يتشابه في بعض الملامح.

ولا يصحّ أبداً أن نقول مثلاً إن عقيدة التوحيد لدى بني إسرائيل مأخوذة من عقيدة التوحيد عند أخناتون المصري، وهذا ما فعله كثير من الكتّاب والباحثين الغربيين، وتابَعهم فيه كثير من الكتّاب المسلمين!!.

فعقيدة التوحيد هي الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وهي دين آدم عليه السلام ودين أبنائه. وقد بعث الله آدم نبياً ورسولاً إلى أبنائه كما صحَّ في الحديث عن المصطفى صلى الله عليه وسلم. وكذلك بعث الله شيث بن آدم برسالة التوحيد إلى إخوته بعد وفاة والده وتناسل أبناء آدم، ثم ظهر إدريس أو أخنوخ عليه السلام بعقيدة التوحيد، وهو أحد أحفاد شيث، وقد تقدَّم ذكره في فصل آدم (عليه السلام)[1]. ثم جاء نوح عليه السلام ثم تتالت الأنبياء والرُّسل، وما من أمة إلا خلا فيها نذير.

وأما أخناتون فقد كان عابداً للشمس حسبما هو موجود في أناشيده المترجمة. ولا يصح أبداً أن يقال إن أخناتون هو أول من جاء برسالة التوحيد. فهو أولاً لم يعبد الله وإنما عَبَد الشمس، وعلى فرض أنه لم يعبد الشمس وإنما عَبَد الله فلا يكون أول موحد في تاريخ البشرية، إذ إن أول موحد بكل تأكيد هو آدم عليه السلام.

وأما بنو إسرائيل فقد كانوا موحدين، وكان إبراهيم وبنوه عليهم السلام يعبدون الله وحده على أنقى صور التوحيد، وكذلك كان يعقوب ـ إسرائيل ـ وبنوه، وجاءت رسالة موسى وهارون والأنبياء من بني إسرائيل برسالة واحدة هي رسالة التوحيد، ولم يكن ذلك نقلاً عن أخناتون المصري أو الآشوريين والبابليين كما يزعم علماء الآثار ومن تابعهم من الكتّاب المسلمين.

لهذا، فإن محاولة اتهام بني إسرائيل بأنهم سرقوا ميراث الأمم الأخرى ونسبوها لأنفسهم أمر لا يقوم عليه دليل. والقرآن الكريم ينقضه. صحيح أن بني إسرائيل

---

(١) انظر الفصل الثاني (آدم عليه السلام)، ص ٣٩ وما بعدها.

تأثّروا بالأمم الأخرى حولهم وعبدوا معهم العجل والبعليم وعشتروت وملكوم وغيرها من الأرجاس. . إلاّ أن التوراة والعهد القديم ذاتهما ينددان ببني إسرائيل على تلك الخصال والجرائم.

ونحن لا نشك أبداً في أنّ الله سبحانه وتعالى قد أرسل موسى بالتوراة، ولكننا نقول إن هذه التوراة قد أصابها التحريف والتبديل والتغيير على أيدي أحبار يهود مع تطاول الأيام وضياع نسخ التوراة الأصلية.

ومع هذا فإننا ننفي ما يزعمه بعض الباحثين من أن التوراة لم توجد أصلاً في عهد موسى. وأنها أُلِّفت وجُمعت بعد وفاة موسى بمئات السنين، وأنها ضمت أساطير الأمم الأخرى، ومن ذلك الأساطير البابلية في خلق العالم وقصة الطوفان. . . إلخ.

نحن نرفض ذلك رفضاً مطلقاً لأننا نؤمن بأن القرآن الكريم أنزله الله سبحانه وتعالى على محمد صلى الله عليه وسلم. وقد شهد القرآن الكريم بأن الله سبحانه وتعالى أنزل التوراة هدى ونور يحكم بها النبيُّون، وأنه أنزلها على موسى عليه السلام مكتوبة في الألواح، وأنّ كل ما ورد في التوراة الحقة هو من عند الله، وأنّ قصة خلق الكون وخلق آدم ليست أساطير، وأنّ قصة الطوفان ليس أسطورة بابلية، بل هي حق وصدق. وذكر البابليين له لا يعني أنه أسطورة، بل يعني دليلاً إضافياً على صدقه ووقوعه. وأما اختلاف التفاصيل فهو أمر متوقع مع الإضافات والتحريفات التي تقع بتطاول الأزمنة.

من ذلك كله نخلص إلى أن الأمثال المنسوبة إلى سليمان عليه السلام ليست كلها مكذوبة، وليست كلها من حكم أمنموبي المصري. ولا شك أن جزءاً منها على الأقل هو من كلام سليمان عليه السلام حقاً.

نماذج من سفر الأمثال:

يقول سليمان، الذي اتهمته التوراة المحرفة بأنه عبد الأوثان وسجد لها وأقام لها المعابد والمذابح، في سفر الأمثال: تأتي الكبرياء فيأتي الهوان. ومع المتواضعين تأتي الحكمة. لا ينفع الغنى في يوم السخط. وخنزيرة هي المرأة الجميلة العديمة العقل.

شهوة الأبرار هي للخير فقط. من يشتغل بحقله يشبع خبزاً. الكسل لا يمسك صيداً. ثروة العاطلين إلى نقص وغنى المجتهدين إلى زيادة. الحكماء يتشاورون والمتكبِّرون يختصمون. صلاة المستقيمين أفضل من ذبيحة الأشرار ـ أي أفضل مما يقدم من القرابين التي يقدسها بنو إسرائيل ـ. الأحمق الساكت يحسب مع الحكماء. اسم الرب حصن حصين. لقمة يابسة ومعها سلامة خير من بيت ملآن ذبائح مع خصام. من سبَّ أباه أو أمه ينطفىء سراجه في حدقة الظلام. الزارع إثماً يحصد بلية. أعد فرسك ليوم الحرب، أما النصر فمن الرب.

الصيت أفضل من الغنى. امرأة فاضلة من يجدها، إن ثمنها يفوق اللآلىء... هي تطلب صوفاً وكتاناً وتشتغل بيدين راضيتين، هي كسفن التجار تجلب طعامها من بعيد، وبثمر يديها تغرس كرماً، سراجها لا ينطفىء في الليل، تمد يدها إلى المغزل، تبسط كفيها للفقير، وتمد يديها للمسكين. ما أحسن امرأة متقية الربّ! أعطوها من ثمر يديها، أما الجمال والحُسن فهما غش وباطل.

مخافة الرب رأس المعرفة أما الجاهلون فيحتقرون الحكمة والأدب.

اسمع يا بني تأديب أبيك ولا ترفض شريعة أمك؛ لأنهما إكليل نعمة لرأسك وقلائد لعنقك. إذا دخلت الحكمة قلبك ولذّة المعرفة لنفسك، فالعقل يحفظك والفهم ينصرك، لإنقاذك من طريق الشرير ومن الإنسان المتكلم بالأكاذيب، التاركين سبل الاستقامة للسلوك في مسالك الظلمة، الفرحين بفعل السوء، المبتهجين بأكاذيب الشر، الذين طرقهم معوجَّة وهم ملتوون في سبلهم.

لإنقاذك من المرأة الأجنبية، من الغريبة المتملقة بكلامها، التاركة أليق صباها والناسية عهد إلـهها لأن بيتها يسوخ إلى الموت وسبلها إلى الأخيلة. كل من دخل إليها لا يؤوب، ولا يبلغون سبل النجاة. حتى تسلك في طريق الصالحين، وتحفظ سبل الصدِّيقين، لأن المستقيمين يسكنون الأرض والكاملين يبقون فيها. أما الأشرار فينقرضون من الأرض. والغادرون يُستأصلون... فم الصديق ينبوع حياة وفم الأشرار يغشاه ظلم.. موازين غِشٍّ مكرهة الرب، والوزن الصحيح رضاه. تأتي الكبرياء فيأتي الهوان. ومع المتواضعين حكمة.

لا تكن حكيماً في عيني نفسك. اتق الرب وابعد عن الشر.

يا بني لا تحتقر تأديب الرب ولا تكره توبيخه لأن الذي يحبه الرب يؤدبه وكأبٍ بابن يسرُّ به. طوبى للإنسان الذي يجد الحكمة وللرجل الذي ينال الفهم. لأن تجارتها خير من تجارة الفضة، وربحها خير من الذهب الخالص، هي أثمن من اللآلىء، وكل جواهرك لا تساويها. . . طرقها طرق نعم وكل مسالكها سلام. هي شجرة حياة لممسكيها، والمتمسِّك بها مغبوط.

الربُّ بالحكمة أسَّس الأرضَ. أثبت السمٰوات بالفهم. بعلمه انشقّت اللجج وتقطّر السحابُ ندى.

لا تمنع الخير عن أهله حين يكون في طاقة يدك أن تفعله، لا تقل لصاحبك اذهب فأعطيك غداً وموجود عندك. لا تخترع شراً على صاحبك وهو ساكن لديك آمناً. لا تخاصم إنساناً بدون سبب، إن لم يكن قد صنع معك شراً.

لا تحسد الظالم ولا تخترْ شيئاً من طرقه لأن الملتوي رجس عند الرب.

اذهب إلى النملة أيها الكسلان تأمل طرقها وكن حكيماً. مخافة الرب بغض الشر. من يوبخ مستهزئاً يكسب لنفسه هواناً، ومن ينذر شريراً يكسب عيباً. لا توبخ مستهزئاً لئلا يبغضك. وبِّخ حكيماً فيحبك أعط حكيماً فيكون أوفر حكمة. بدء الحكمة مخافة الرب.

هذه الستة يبغضها الرب وسبعة هي مكرهة نفسه: عيون متعالية، لسان كاذب، أيدٍ سافكة دماً بريئاً، قلبٌ ينشيء أفكاراً رديئة، أرجل سريعة الجريان إلى السوء، شاهد زور يفوه بالأكاذيب، وزارع خصومات بين إخوة.

وتتحدث الأمثال عن المرأة الساقطة والمرأة الفاضلة. ويعتبر المرأة الفاضلة نادرة الوجود جداً. . ربما لأن الزنى كان قد انتشر كما نعلم في بني إسرائيل بصورة فظيعة. ولهذا كررت الأمثال المنسوبة إلى سليمان عليه السلام التحذير من المرأة الساقطة. ومن ذلك قوله: «لحفظك من المرأة الشريرة من ملق لسان الأجنبية، لا تشتهينَّ جمالها بقلبك ولا تأخذك بهُدبها. لأنه بسبب امرأة زانية يفتقر المرء إلى رغيف خبز. وامرأة

رجل آخر تقتنص النفس الكريمة. أيأخذ إنسانٌ ناراً في حضنه ولا تحترق ثيابه، أو يمشي إنسان على الجمر ولا تكتوي رجلاه. هكذا كل من يدخل على امرأة صاحبه...».

ولنا ملاحظة سريعة: وهي أن المتحدث يركِّز القول على المرأة الأجنبية، أي غير اليهودية. مع العلم بأن سليمان عليه السلام تزوَّج، كما تقول التوراة، من جميع الأجنبيات حيث جاء في سفر الملوك الأول ما يلي: «وأحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون. موآبيات وعمونيات وأدوميات وصيدونيات وحثّيات من الأمم الذين قال عنهم الرب لبني إسرائيل: لا تدخلوا إليهم ولا يدخلون إليكم. لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم، فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة وكانت له سبعمائة من النساء السيدات وثلاثمائة من السراري فأمالت نساؤه قلبه...»، واتهموا سليمان بأنه عَبَد الأوثان وبنى لها المعابد والمرتفعات والمحارق وذبح لهذه الآلهة حتى زعموا أن الرب غضب عليه وطرده من رحمته.

أَوَيحذِّرُ سليمان من الأجنبيات ثم يتمرغ في أعتابهن ويقوم بعد ذلك بعبادة آلهتهنّ؟!! حاشا لله.. ما فعل سليمان ذلك ولا عَبَد أوثاناً، بل كان كما وصَفَه ربه بقوله: ﴿نعم العبد إنه أواب﴾، وهو نبي كريم ابن نبي كريم، بعيد كل البعد عن الرذائل والخنا وعبادة الأوثان. وقد تزوَّج سليمان عليه السلام من الأمم المجاورة حتى يقرِّبهم إلى الإسلام، وقد أسلمت زوجاته معه، وأسلم أقوامهنّ. وكان بلاط سليمان، كما كان بلاط أبيه من قبل، يحفل بالأمم الأخرى ويقربهم إليه ويجعل كثيراً من قواده ومستشاريه ممن صلح منهم.. فلم يكن داوود عليه السلام ولا سليمان عنصرياً ولا كان حاقداً مثل يهود.. حاشاهم من ذلك، كانت الرحمة والرأفة والمحبة في الله ولله صفاتهم وأخلاقهم ودينهم.. لهذا انجذبت إليهم الأمم الأخرى واشتركوا في خدمة بلاط داوود وسليمان عليهما السلام.

ونجد في أمثال سليمان عليه السلام تحذير الرجل من الوقوع في الزنى وإثارة النخوة التي ماتت في قلوب أكثر بني إسرائيل.. وتنبيه غيرة الرجال وحميتهم التي تمرغت في الوحل حتى استمرأوا الزنى والخنا.

تقول الأمثال: «أما الزاني بامرأة فعديم العقل. المهلك نفسه هو يفعله. ضرباً وخزياً يجدُ وعاره لا يُمحى، لأن الغيرة هي حميّة الرجل فلا يشفق في يوم الانتقام. لا ينظر إلى فدية ما ولا يرضى ولو أكثرت الرشوة»، وقد كان الرجال في بني إسرائيل يسكتون على زنى زوجاتهم وبناتهم.. وكانوا يكتفون من الزاني حين افتضاحه بأن يدفع مبلغاً من المال تعويضاً عن شرفهم الملوَّث.. ونبَّههم سليمان وقرَّعهم على هذا السلوك المشين: «الغيرة هي حميَّة الرجل فلا يشفق في يوم الانتقام»، ولا بد له من المطالبة بتنفيذ الحد، وعليه ألَّا ينظر إلى فدية ما ولا يرضى بالمال والرشوة لإسكاته عن الجريمة التي ارتكبت.

وفي مقطع آخر من الأمثال يقول: «قل للحكمة أنتِ أختي وادع الفهم ذا قرابة، لتحفظك من المرأة الأجنبية، من الغريبة الملقة بكلامها». ثم يصف غلاماً عديم الفهم يذهب إلى المرأة الزانية.. صخابة هي وجامحة.. في بيتها لا تستقر قدماها.. تارة في الخارج وأخرى في الشارع. وعند كل زاوية تكمن، فأمسكته وقبَّلته. أوقحت وجهها وقالت له: على ذبائح السلامة اليوم أوفيت نذوري ــ يبدو أنها نذرت إن وجدته أن تذبح ذبائح وتقرِّبها للكاهن ــ بالديباج فرشت سريري، بموشَّى كتان من مصر. عطَّرت فراشي بمرٍّ وعود وقرفة. هلمَّ نرتد إلى الصباح نتلذذ بالحب، لأن الرجل ليس في البيت، ذهب في طريق بعيدة. أخذ صرة الفضة بيده. يوم الهلال يأتي إلى بيته، أغوته بكثرة فنونها، بملْث شفتيها طوَّحته.. ذهب وراءها لوقته كثور يذهب إلى الذبح أو كالغبيّ إلى قيد القصاص، حتى يشقَّ سهم كبده. كطير يسرع إلى الفخ ولا يدري أنه لنفسه».

«لا يمل قلبك إلى طرقها ولا تشرد في مسالكها، لأنها طرحت كثيرين جرحى وكل قتلاها أقوياء. طرق الهاوية بيتها هابطة إلى خدور الموت».

خنزيرة هي المرأة الجميلة العديمة العقل!!
المرأة الجاهلة صخّابة حمقاء ولا تدري شيئاً.
المرأة الفاضلة تاج لبعلها. أما المُخزية فكَنَخْر في عظامه.
امرأة فاضلة من يجدها، إن ثمنها يفوق اللآلىء.

حكمة المرأة تبني بيتها والحماقة تهدمه بيدها.
فم الأجنبيات هوة عميقة. ممقوت الرب يسقط فيها.
المرأة المتقّية الرب فهي تمدح.
أمرّ من الموت المرأة التي هي شباك وقلبها أشراك ويداها قيود.
رجلاً واحداً بين ألف وجدتُ. أما امرأة فبين كل أولئك لم أجد.
(من سفر الجامعة الإصحاح ٧).

وفي سفر أشعيا (٥: ١١، ١٢) وصف لحالة بني إسرائيل وتنفير من الخمر واللهو: «ويلٌ للمبكرين صباحاً يتبعون المسكر، للمتأخرين في العتمة تلهيهم الخمر. وصار العود والرباب والدف والناي والخمر ولائمهم. وإلى فعل الرب لا ينظرون وعمل يديه لا يرون».

ويقول سفر الأمثال المنسوب لسليمان عليه السلام عن الخمر: «ليس للملوك أن يشربوا الخمر ولا للعظماء أن يحتسوا المسكر».

«الخمر مستهزئة. المسكر عجّاج ومن يترنح فليس بحكيم».

«لمن الويل!؟ لمن الشقاوة؟ لمن المخاصمات؟ لمن الكرب؟ لمن الجروح بلا سبب؟ لمن ازمهرارُ العينين؟ للذين يدمنون الخمر، الذين يدخلون في طلب الشراب الممزوج. لا تنظر إلى الخمر إذا احمرت حين تظهر حِبابها في الكأس، وساغت مرقرقة. في الآخر تلسع كالحية وتلدغ كالأفعوان. عيناك تنظران الأجنبيات وقلبك ينطق بأمور ملتوية، وتكون كمضطجع في قلب البحر أو كمضطجع على رأس سارية. يقول اضربوني ولم أتوجع. لقد لكأُوني ولم أعرف. متى أستيقظ، أعود أطلبها بعد؟!»، وهو وصف جيد للخمر وآثارها الاجتماعية والنفسية وما يحدث عنها من مخاصمات ومعارك وجروح وما تؤدي إليه من ارتكاب الشرور والموبقات وجرائم الزنى.. ويحس شاربها كأنه في قلب البحر بسبب الرأرأة والترنح أو كأنه على رأس سارية فيشعر بالدوار.. وسرعان ما يقع من أعلى السارية.. ثم هو يتبلد إحساسه فلا يشعر بالضرب واللكمات.. وينام في سكره ولا يكاد يفيق.. وإذا ما أفاق عاد يطلبها ثانية لأنه أدمن شربها.

هنـاك كنوز كثيـرة في سفر الأمثـال: يدعـوك لأن تجتنب الشـر وتجتنب الأشـرار ومطاعمهم وأطايبهم: «إذا جلست تأكل مـع متسلط فتأمل مـا هو أمـامك تـأملاً. وضـع سكيناً لحنجرتك إن كنت شرهاً. لا تشته أطايبه لأنها خبزُ أكاذيب. لا تتعب لكي تصير غنياً. كف عن فطنتك.. لا تأكل خبز ذي عين شـريرة ولا تشتـه أطايبـه.. اللقمة التي أكلتها تتقيؤها وتخسر كلماتك الحلوة. لا تتكلم في أذني الجاهل بالحكمـة لأنه يحتقـر حكمة كلامك.. لا تدخل حقول الأيتام لأن وليّهم قوي وهو يقيم دعواهم عليك».

«لا يحسدنّ قلبك الخـاطئين، بل كن في مخـافة الـرب اليوم كله لأنـه لا بد من ثـواب ورجاؤك لا يخيب.. لا تحسـد أهـل الشـر ولا تشتـهِ أن تكـون معهم لأن قلبهم يلهـجُ بالاغتصاب وشفاههم تتكلم بالمشقة..».

«لا تغر من الأشرار ولا تحسد الأثمة لأنه لا يكون ثواب للأشـرار. سراج الأثمـة ينطفىء، يا بني اخشَ الرب والملك. لا تخالط المتقلبين لأن بليتهم تقوم بغتة.

«محاباة الوجوه في الحُكم ليست صـالحة. من يقـول للشريـر أنت صدّيق تلعنـه الشعوب وتسبُّه العامة».

ويبدو في بعضها التناقض، مثل قوله: «لا تجـاوب الجاهـل حسب حماقتـه لئلا تعدله أنت. جاوب الجاهل حسب حماقته لئلا يكون حكيماً في عيني نفسه». وهو أمـر متناقض.

وفي بعضهـا كلام ملتـو غامض وفيـه ادعاء بـأنه أزلي خـالد كـان منذ الأزل مـع الله!! يقول صاحب الأمثال على لسان سليمان: الرب قناني أول طريقه من قبل أعماله منذ القدم. منذ الأزل مُسِحْتُ ــ أي صرت مسيحاً وهو الممسـوح بالـزيت. وللمسيـح مكانة خاصة، إذ يقف على يمين الرب ــ. منذ البدء، منذ أوائـل الأرض. إذ لم يكن غمـرٌ أُبدئت، إذ لم تكن ينـابيـع كثيرة الميـاه. من قبل أن قـرّرت الجبال، قبـل التلال أُبـدئت. إذ لم يكن قد صنـع الأرض بعـد ولا البراري ولا أول أعفـار المسكونـة. لمّا ثبّتت السماوات كنت هناك أنا. لمّا رسم دائرة على وجه القمـر، لما أثبت السحب من فوق، لما تشدّدت ينابيع الغمر. لمّا وضـع للبحر حدَّهُ فـلا تتعدى الميـاه تُخمَهُ، لمّـا

رسم أسس الأرض، كنتُ عنده صانعاً وكنتُ كل يوم لذَّته، فرحة دائماً قدامه، فرحة في مسكونة أرضه، ولذّاتي مع بني آدم».

ما معنى هذا الكلام الغامض؟! أيقصد المتكلم باسم سليمان أنه كان منذ الأزل قبل خلق الأرض والسماء.. قبل السحاب والماءِ.. قبل أن تقرّ الجبال وتبدأ التلال، قبل أن تتحدد للبحار تخومها وللأرض أسسها!! وعندما وضع الله ذلك كله كان المتحدث يشاركه في خلقه «كنت عنده صانعاً»!! وكان المتحدث هو لذة الله وفرحته!!! ولولاه لما خلق هذا الكون، بل كان هو يشاركه في صنعته!!!

سفر الجامعة:

يُنسب سفر الجامعة إلى سليمان عليه السلام أيضاً، وهو يتميز بأسلوب أدبي قوي، رغم ضعف الترجمة في كثير من الأحيان.

يبتدىء السفر هكذا: «باطل الأباطيل، الكل باطل. ما الفائدة للإنسان من كل تعبه الذي يتعبه تحت الشمس. دور يمضي ودور يجيء والأرض قائمة إلى الأبد. والشمس تشرق والشمس تغرب وتسرع إلى موضعها حيث تشرق. الريح تذهب إلى الجنوب وتدور إلى الشمال. تذهب دائرة دوراناً وإلى مداراتها ترجع الريح. كل الأنهار تجري والبحر ليس بملآن.. كل الكلام يقصر، لا يستطيع الإنسان أن يخبر بالكل. العين لا تشبع من النظر والأذن لا تمتلىء من السمع. ما كان فهو يكون والذي صُنِع فهو الذي يُصنع فليس تحت الشمس جديد.. ليس ذكر للأولين. والآخرون أيضاً الذين سيكونون لا يكون لهم ذكر عند الذين يكونون بعدهم...

«أنا الجامعة كنت ملكاً على إسرائيل في أورشليم. ووجَّهت قلبي للسؤال والتفتيش بالحكمة عن كل ما عمل تحت السمٰوات. هو عناء رديء جعلها الله لبني البشر ليعنوا ــ أي ليتعبوا ــ فيه. رأيت كل الأعمال التي عملت الشمس فإذا الكل باطل وقبض الريح. الأعوج لا يمكن أن يقوَّم والنقص لا يمكن أن يجبر. أنا ناجيت قلبي قائلاً: ها أنا قد عظمتُ وازددت حكمة أكثر من كل من كان قبلي على أورشليم.. ووجَّهت قلبي لمعرفة الحكمة ولمعرفة الحماقة والجهل، فعرفت أن هذا أيضاً قبض الريح لأن في كثرة الحكمة كثرة الغم والذي يزيد علماً يزيد حُزناً».

الرجل الـذي يتحـدث فـي هـذا السفر شـديد التشـاؤم مظلم النفس. . لا يؤمن بالحياة الأخرى ولا بالجنة والنار ولا بالثواب والعقاب. . لهذا كـل ما في الكـون باطـل الأباطيل. . لا يرى حكمة الله في الإيجاد ولا حكمته في الموت والحياة ولا حكمته في خلق السمٰوات والأرض. . ولا حكمتـه في خلق الأكوان وتعـريفها. . فـالكـل بـاطـل وقبض الريـح.

«ما الفائـدة للإنسـان من كل تعبـه الذي يتعبـه تحت الشمس؟». هكذا يتسـاءل الجامعة، إذ لا بعث ولا نشور. . وكل ما يجمعه يتـركه ويمـوت. . «كل الأنهـار تجري إلى البحر والبحر ليس بملآن». . «في كثرة الحكمة كثرة الغم والذي يزيـد علماً يـزيد حـزناً». . دعـوة لعدم الازديـاد من العلم والحكمة مـع أن العـاقل يقـول: ﴿ربِّ زدني علماً﴾، وسفر الأمثال السابق ذكره يدعو الإنسان لمزيد من طلب العلم والحكمة.

بعد أن ييأس الجامعة من الحكمة ذهب يجرب اللهو والفرح والخمر لعله يرتـاح من القلق المـروع الذي أنشب أظفـاره في قلبه، فـإذا هو يكتشف أنَّ الفـرح والسـرور أيضاً باطل وقبض الريـح. «قلت في قلبـي هلم أمتحنك بالفرح فترى خيـراً. وإذا هذا أيضـاً باطـل. . افتكرت في قلبـي أن أعلِّل جسـدي بالخمـر، ــ حاشـا لسليمان عليـه السـلام أن يسكر ويشـرب الخمر هـروباً من إحسـاسه بـالقلق ــ وأن آخـذ بـالحمـاقـة ــ يا للغرابة!! أيترك الحكمة ويأخذ بالحماقة!!ــ حتى أرى ما هو الخير لبني البشر حتى يفعلوه تحت السمٰوات مدة أيام حياتهم، فعظمتُ عملي، بنيتُ لنفسي بيوتاً، غـرستُ لنفسي كروماً، عملتُ لنفسي جنات وفراديس. . عملتُ لنفسي برك مياه. . قنيتُ عبيداً وجوارٍ وكان لي ولدان البيت. . وكانت لي أيضـاً قُنية بقـر وغنم أكثر من جميـع الـذين كـانـوا في أورشليم قبلي. جمعتُ لنفسي أيضـاً فضـة وذهبـاً وخصـوصيـات الملوك والبلدان. اتخذتُ لنفسي مغنِّين ومغنيَّات وتنعُّمات بني البشر سيدة وسيدات. فعـظمت وازددت أكثـر من جميـع الـذين كـانـوا قبلي في أورشليم وبقيت أيضـاً حكمت معي. **ومما اشتهته عيناي لم أمسكه عنهـا، لم أمنـع قلبـي من كل فـرح لأن قلبـي فرح بكـل تعبـي**،وهذا كان نصيبـي من كـل تعبـي ــ وهكذا انـطلق الجامعـة يعبُّ من الشهوات عباً، وحاشا لسليمان عليه السلام أن يكـون كذلـك ــ . ثم التفتُّ أنا إلى كـل أعمالي

التي عملتهـا يداي وإلى التعب الـذي تعبته فـإذا الكل بـاطل وقبض الـريـح ولا منفعة تحت الشمس».

إن هـذا الإنسان القلق التـائه الضـائـع الذي جـرَّب كل شيء ولم يقنـع بشيء، يشبه إلى حد كبير (ألبير كامي) و (سارتر) و (همنچواي). . مجموعة الأدبـاء المحدثين الـذين رأوا الكل بـاطل. . الحيـاة بـاطـل والمـوت بـاطـل. . لا إلّـه ولا حق ولا خيـر ولا آخرة ولا حساب ولا عقاب. . الكل باطل الأبـاطيل وقبض الـريـح ولا منفعة تحت الشمس، فأنهوا حياتهم بالانتحار، وأعلنوا قرفهم وضيقهم من هذه الحياة التي يمضـغ الإنسان فيها التفاهة. . ويجترّ الآلام. .

إنها فلسفة العدم والحيرة والشك تمثلها في العربية قصيـدة إيليا أبـو ماضي التي غناها محمد عبد الوهاب «لست أدري»:

جئت لا أعلم من أين ولكني أتيتُ
ولقد أبصرتُ قدامي طريقاً فمشيتُ
وسأبقى ماشياً إن شئت هذا أم أبيتُ
كيف جئتُ؟ كيف أبصرت طريقي؟ لست أدري

لقد كان الشاعر لبيد في جاهليته خيراً من الجامعة. فقد أدرك لبيد أن كـل شيء ما خلا الله باطل، أما الجامعة فالكل باطل الأباطيل وقبض الريـح. . وعندما أنشد لبيد قصيدته في مكة والرسول صلى الله عليه وسلم يسمـع ووصل لبيد إلى قوله:

«ألا كل شيء ما خلا الله باطل»، قال الرسول صلوات الله عليه: صدقت. فلمـا قال: «وكل نعيم لا محالة زائل»، قال: كذبت فنعيم الجنة لا يزول.

وأما الجامعة ــ الذي يدَّعون أنه سليمان عليه السلام ــ فليس لـديه حق أبـداً. . الكل باطل وقبض الريـح وليس هناك جنة ولا نار «ما الفائدة للإنسان من كل تعبه الذي يتعبه تحت الشمس».

والله يقول: ﴿كل نفس بمـا كسبت رهينة﴾، و﴿ومن يعمـل مثقال ذرة خيـراً يره

ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾، و ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسولُه والمؤمنون﴾، و ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها﴾.

إن الثواب والعقاب والجزاء والحساب لا يدخل ضمن مفاهيم الجامعة مطلقاً.. وإلا لعلم أن من يعمل خيراً يجازى بالخير ومن يعمل شراً يجازى بالشر وليس الأمر كما توهم باطل الأباطيل وقبض الريح.

لقد بلغ الأمر بيأس الجامعة أن يرى الحكمة سبيلاً للغم والعلم طريقاً للحزن. فجرَّب الشهوات وانغمس فيها وأخذ من كل أطايب الدنيا.. نساء، خمر، عبيد، أموال، أنعام، ذهب وفضة، حرث، كلها أخذ منها بحظ وافر لم يسبْقه إليه أحد ممن ملك أورشليم.. ومع هذا انتهى إلى أن الكل باطل..

رأى الحكيم والجاهل والغني والفقير والملك والصعلوك ينتهيان إلي نهاية واحدة محزنة.. هي الموت والعدم.. العدم النهائي الذي لا حياة بعده؛ فانقبضت نفسه وأظلمت، وقال: «كما يحدث للجاهل كذلك يحدث أيضاً لي أنا. وإذ ذاك فلماذا أنا أوفر حكمة؟ فقلت في قلبي: هذا أيضاً باطل. لأنه ليس ذكر للحكيم ولا للجاهل إلى الأبد. كما منذ زمان كذا الأيام الآتية. الكل يُنسى. وكيف يموت الحكيم كالجاهل؟ فكرهتُ الحياة لأنه رديء عندي العمل الذي عُمل تحت الشمس، لأن الكل باطل وقبض الريح فكرهتُ كلّ تعبي الذي تعبتُ فيه تحت الشمس حيث أتركه للإنسان الذي يكون بعدي».

إنها صورة قاتمة مظلمة.. تدفع بالإنسان إلى أن يتقيأ نفسه كما يقول (ألبير كامي). إنها حياة القلق والضِّيق والتعاسة التي يعيشها أُدباء أوروبا عندما فقدوا الإيمان بالله. والتي يمثلها أصدق تمثيل كتابات (ألبير كامي) و (سارتر) و (صموئيل بيكت) و (همنچواي).. وقد انتهت حياة معظم هؤلاء الأدباء بالانتحار. إذ الكل باطل وقبض الريح. فما الفائدة إذن من هذه الحياة الكريهة.

إن مصدر هذا الأدب القاتم المظلم هو كتاب الجامعة وسفر أيوب.. وكلاهما مليء بالكفر والتجديف، واليأس والقنوط ﴿ومن يقنط من رحمة الله إلا القوم الكافرون﴾.

يقول الجامعة: «فتحولتُ لكي أجعل قلبي ييأس من كل التعب الـذي تعبتُ فيه تحت الشمس. لأنه قد يكون إنسان تعبه بالحكمـة والمعرفـة وبالفـلاح فيتركـه لإنسان لم يتعب فيه. هذا أيضاً باطل وشر عـظيم لأنه مـاذا للإنسـان من كل تعبـه ومن اجتهاد قلبـه الذي تعب فيـه تحت الشمس. لأن كل أيـامه أحـزان وعمله غمّ. أيضـاً بـالليـل لا يستريـح قلبه. هذا أيضاً باطل هو».

إن الجـامعة لا يـريد لأحـد أن يستفيـد ممـا تـرك، لا مـال ولا حـرث، ولا علم ولا حكمـة. إنه شخص أنـاني جداً. يـريـد كـل شيء لنفسـه، ويـريـد لنفسـه الخلود الأبدي. وبما أنه لم يسمـع بالآخرة ولم يؤمن بها. . ويرى الموت في كل لحظة يخترم النفـوس: غنيها وفقيـرها، جـاهلهـا وحكيمهـا، تـأكـد أنـه ميت ولا مفـر من المـوت؛ فامتلأت نفسـه غماً، ولم يستـطـع أن يتمتـع بما جمـع من مـال وأثاث وريـاش ونساء وأولاد وأنعام وحرث. . . امتلأت نفسه حزناً ومات قبل أن يموت. .

وازداد همـاً وغماً عندما رأى مـوضـع الحق ظلم وموضـع العـدل جور. وبمـا أن الإنسان يموت كـالبهيمة فـلا فرق بين ظلم وعـدل وبين حق وباطـل. يقول الجـامعة: «لأن ما يحدث لبني البشر يحدث للبهيمة وحادثة واحدة لهم. مـوت هذا كمـوت ذاك. وقسمة واحدة للكل. **فليس للإنسان مزيَّة على البهيمة لأن كليهما باطـل. كان كـلاهما من التراب وإلى التراب يعودون**».

هل هناك كفر أشد من هـذا؟ أيعقل أن يقـول نبـي أرسله الله لهدايـة البشر هـذا الغثاء؟! لا حساب لا عقـاب، العدل مثـل الجور، والحق مثـل الباطـل!! الكل بـاطل وقبض الـريـح، لأن الموت يسـوّي بين الظالم والمـظلوم، والخيِّر والشـريـر، ينتهيـان جميعاً إلى التراب كمـا تنتهي البهيمة، وتنتهي القضيـة!!؟ وأي فائـدة تُرجى من عمـل الخيـر إذا كانت نهـايته التـراب. ولماذا يتسـاوى الجميـع؟ الظالم والمـظلوم، العـادل والقـاسط، المستقيم والجـائـر؟! الكـل يـذهب ويصيـر تـرابـاً. . لا بعث ولا نشـور ﴿وما يهلكنا إلاَّ الدهر﴾، فكما تموت البهيمـة يموت الإنسـان. . وليس للإنسـان مزيَّـة على البهيمة لأن كليهما باطل!!

ويستمر الجامعة في كل إصحاحات هـذا السفر على هـذا المنوال حتى امتـلأت

نفسه غماً وحزناً وغبط الأموات. قال: «فغبطت أنا الأموات الذين قد ماتوا منذ زمان أكثر من الأحياء الذين هم عائشون بعد. وخير من كليهما الذي لم يولد بعد.

إذا لم يكن هناك بعث ولا نشور ولا حساب ولا عقاب، فكيف يمضي الظالم في الدنيا دون أن يقتصّ منه؟ حينئذٍ يشعر الجامعة بأن الموت خير من الحياة وأن باطن الأرض خير من ظاهرها.

إن نفس الجامعة قلقة حائرة.. وهي لا تقبل الظلم.. ولكنها ترى أن النهاية واحدة للبارّ والشرير.. كلاهما يموت. فاعل الخير وفاعل الشر كلاهما يواريه التراب ويصبح هو تراب. وإذا كل الذي فوق التراب تراب. فيزداد يأساً وحيرة وانقباضاً وغماً وهماً فيصيح ويصرخ: الكل باطل الأباطيل وقبض الريح. «من يحب الفضة لا يشبع من الفضة، ومن يحب الثروة لا يشبع من دخل. هذا أيضاً باطل».

الغريب حقاً أن الجامعة يذكر الله ولكن ما يؤرقه ويقضُّ مضجعه هو أن الكل يموت موتاً أبدياً لا حياة بعده فيتفكر في الدنيا وأحوالها، وكلما تفكر ازداد تشاؤماً وغماً وهماً. «رجل أعطاه الله غنىً ومالاً وكرامة وليس لنفسه عوز من كل ما يشتهيه، ولم يعطه الله استطاعة على أن يأكل منه بل يأكله إنسان غريب. هذا باطل ومصيبة رديئة هو». إنه يرى نفسه في هذه الصورة وقد أعطاه الله مُلكاً لا حدود له، غنى ومال وكرامة. ونفسه قد فقدت كل رغبة وشهوة في كل هذا المال.. ولا بد أن يأكله الغرباء.. إذن هذا العطاء والكرامة باطل ومصيبة رديئة!!

الإنسان يولد ويموت ولو عاش مئة سنة.. «في الباطل يجيء، وفي الظلام يذهب، اسمه يغطى بالظلام!! وإن عاش ألف سنة مضاعفة ولم يرَ خيراً أليس إلى موضع واحد يذهب الجميع؟. كل تعب الإنسان لغمّه ومع ذلك فالنفس لا تمتلىء.. لأنه ماذا يبقى للحكيم أكثر من الجاهل؟ إذن الكل باطل الأباطيل وقبض الريح.. فيوم الممات خير من الولادة. الذهاب إلى بيت النوح خير من الذهاب إلى بيت الوليمة لأنه بكآبة الوجه يصلح القلب.. **لا تكن بارّاً كثيراً ولا تكن حكيماً بزيادة!! لماذا تُخرب نفسك؟ لا تكن شريراً كثيراً ولا تكن جاهلاً. لماذا تموت في غير وقتك. حسنٌ أن تتمسك بهذا وأيضاً أن لا ترخي يدك عن ذاك»**.

أمر في منتهى الغرابة. أن يدعو سليمان عليه السلام ــ وهذا كذب لا ريب فيه ــ إلى أن يعتدل الإنسان في عمل الخير وفي عمل الشر، وأن يعتدل في أمر الحكمة، لأن الحكمة تورث الغم. . وبما أن الإنسان لا يعيش إلّا مرة واحدة، فعليه أن يتمتع بهذه الحياة قدر استطاعته. لماذا يموت في غير وقته؟! عليه أن يأخذ من كل مُتَع الدنيا. . من الخير والشر. . المهم أن يتمتع بالدنيا لأنه لا آخرة هناك.

وهذا الكلام يمثل فلسفة أحبار يهود أصدق تمثيل، كما يمثل فلسفة الغرب اليوم. . تمتع بالحياة قدر ما تستطيع، فالموت سيحصد الكل. . ولكن لا تجعل هذه المتع سبباً في هلاكك وموتك قبل الأوان. فليس لك إلّا حياة واحدة.

«غداً بظهر الغيب واليوم لي. وكم يخيب الظن بالمقبل». كما يقول الخيّام. . فعليك إذن أن تمتِّع عينيك ونفسك بكل متع الدنيا حلالها وحرامها، بشرط واحد فقط هو أن لا تؤدي بك إلى الموت قبل الأوان. افعل الخير وافعل الشر كلاهما يزيد في متع الدنيا!! إنَّ من أراد أن يعرف فلسفة الغرب اليوم الذي يسيطر عليه اليهود بأرجاسهم فليقرأ ما كتبه أحبار يهود ونسبوه إلى سليمان عليه السلام وهو منه براء.

ومما يزيد في حيرة الجامعة أنه يرى الأشرار يُدفنون في الهيكل والأماكن المقدسة، بينما الذين عملوا بالحق ذهبوا ونُسوا في المدينة. ويصرخ قائلاً: هذا أيضاً باطل. يوجد باطل يجري على الأرض. أن يوجد صديقون يصيبهم مثل عمل الأشرار ويوجد أشرار يصيبهم مثل عمل الصدّيقين، فقلت: «إن هذا أيضاً باطل. فمدحت الفرح لأنه ليس للإنسان خير تحت الشمس إلّا أن يأكل ويشرب ويفرح». ﴿إن هم إلّا كالأنعام﴾ يأكلون ويشربون ويمرحون. هذا هو آخر ما توصل إليه الجامعة حسب زعمهم. . على الإنسان أن يكون مثل البهائم تأكل وتشرب ولا تفكر، إذ أنَّ الفكر هو سبب الغم والحكمة هي سبب الهلاك. . لا حياة ولا بعث ولا نشور، فالكل باطل الأباطيل. الصالح كالخاطىء، والصدّيق كالشرير، والطاهر كالنجس، والذي يذبح ــ أي يقدم القرابين لله ــ كالذي لا يذبح. حادثة واحدة للجميع. تضمهم جميعاً يأتيهم الموت جميعاً. هذا أشرُّ كل ما عمل تحت الشمس أن حادثة واحدة للجميع. . لكل الأحياء يوجد رجاء، فإن الكلب الحي خير من الأسد الميت. لأن الأحياء يعلمون

أنهم سيموتون، أما الموتى فلا يعلمون شيئاً وليس لهم أجر بعد لأن ذكرهم نُسي ومحبتهم وبغضتهم وحسدهم هلكت منذ زمان، ولا نصيب لهم بعد إلى الأبد في كل ما عمل تحت الشمس».

يرتعد الجامعة ويصرخ من هذه النتيجة الحتمية التي يصل إليها: الكل باطل الأباطيل وقبض الريح. لأنه لا يؤمن ببعث ولا نشور ولا حساب ولا عقاب. والواقع أن كل من كان له فكر ورويّة وحكمة، ولم يكن قد آمن بيوم الحساب فلا شك أنه سينتهي إلى ما انتهى إليه الجامعة.. قلق وضيق وكرب وغم. الكل باطل وقبض الريح، ولا منقذ من هذه النهاية الحزينة التي قذفت بمفكري الغرب اليوم إلى الانتحار إلا الإيمان بالله وباليوم الآخر.

إن عقيدة اليوم الآخر والجزاء أساسية للإنسان.. وإلاّ فالموت خير له من الحياة والذين لم يولدوا بعد هم السعداء.

يصرخ الجامعة ما دام الأمر كذلك. وما دامت الهاوية ستأخذ الجميع: «اذهب كُلْ خبزك بفرح واشرب خمرك بقلب طيب.. التذّ عيشاً مع المرأة التي أحببتها كل أيام حياة باطلك التي أعطاك إياها تحت الشمس، كل أيام باطلك لأن ذلك نصيبك في الحياة وفي تعبك الذي تتعبه تحت الشمس. كل ما تجده يدك لتفعله فافعل بقوتك لأنه ليس من عمل ولا اختراع ولا معرفة ولا حكمة في الهاوية التي أنت ذاهب إليها».

من أراد أن يعرف فلسفة البلاد الشيوعية فليقرأ سفر الجامعة.. من أراد أن يعرف فلسفة اليهود الذين يحكمون العالم والذين جعلوا معظم الناس في الغرب والشرق يسيرون على منهجهم في التفكير وضلالاتهم فليقرأ سفر الجامعة.

من أراد أن يعرف مصادر الفكر الحديث.. فكر (كامي) و(سارتر) و(بيكيت) و(همنچواي) فليقرأ سفر الجامعة، فإنه مصدر إلهام لكل هؤلاء بما فيهم إيليا أبو ماضي وبعض محاولات المازني حين يقلِّدهم.

بعد أن يئس الجامعة من كل ما رأى اتخذ مذهب (أبيقور) الفيلسوف اليوناني.. صاحب مذهب اللذّة. السعادة هي في اكتساب اللذّة. إن كانت اللذة في المال فعليك

---

(١) انظر كتاب عبد القادر المازني: قبض الريح.

بجمعه، إن كانت اللذّة في المرأة التي تحبها فلماذا تمنع نفسك عنها باسم العفّة؟! إن كانت اللذّة في الخمر فلماذا تصفها بأقبح الأوصاف وتقول الخمر عجاج. . الخمر مستهزئة ومن يترنّح فليس بحكيم. .

افعل ما شئت طالما أن فيه لذّة، ولكن اعلم أنَّ الإسراف في كل شيء يؤدي إلى الألم وإلى الهلاك. . فلماذا تريد أنت أن تقوّض حياتك؟ وليس لك إلّا حياة واحدة؟ لماذا تموت في غير وقتك؟!

لهذا كله يدعوك الجامعة إلى أن تمتع نفسك بالطعام الهني والخمر المعتّقة والفتاة الجميلة. . وإن احتجت لفعل الشر وظلم الآخرين فافعل. . لا تكن شريراً كثيراً لأن التمادي في الشر يضرّ القلب ويهلك النفس ويذهب متع الحياة. الخمر تفرح العيش لكن التمادي فيها يذهب لذّة الحياة. .

هذه هي خلاصة فلسفة الأحبار التي وضعوها في سفر الجامعة ونسبوها زوراً وبهتاناً وكذباً لسليمان عليه السلام، وهو منها براء.

سفر نشيد الإنشاد:

سفر نشيد الإنشاد، وهو السفر الثالث في العهد القديم المنسوب لسليمان عليه السلام، ويمثل مع سفر الأمثال وسفر الجامعة وسفر المزامير ــ المنسوبة لداوود ــ أسفار الأدب والشعر والحكمة، والتي قد يضاف إليها أيضاً سفر أيوب.

ونشيد الإنشاد هو نشيد يتغنّى به اليهود في أعيادهم وكنائسهم وبيعهم. . وهو شعر غزلي جنسي غليظ. . ليس بينه وبين الدِّين أي علاقة. إنه يمثل سياسة أحبار يهود نحو الجنس. . ونحن نعلم من حديث المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم أن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء. . وأنهم لفرط حبهم للنساء والزنى جعلوا الأنبياء كلهم زُناة والعياذ بالله، أو قوّادين. . ومنهم من لا يكتفي بكل ذلك بل يعتدي على ابنته أو أخته.

فإبراهيم حسب زعمهم تزوج سارة أخته، ثم عرضها على ملك مصر وعلى ملك

الفلسطينيين أبيمالك ليكسب من ذلك ذهباً وفضة. . والشيء ذاته فعله إسحاق حسب زعمهم.

ويعقوب تزوَّج راحيل وأختها ليئة. وغازل يعقوب راحيل وقبَّلها قبل أن يخطبها وقبل أن يتزوجها. . وكان يحب راحيل الجميلة ويبغض ليئة السمينة. وكانت راحيل تذكر له الفروق بينها وبين شقيقتها التي فتح الله رحمها فولدت له أولاداً كثيرين، . تقول راحيل: «كيف تمضي ليلة كاملة مع أختي هذه دون أن تلاحظ الفرق بيننا ولا مرة واحدة؟! ألم تلمس شعرها الخشن؟ ألم تشعر بيديها السمينتين الثقيلتين حولك. وعندما قبَّلتَ حلمتيها، كما اتفقنا، ألم تدرك مباشرة أنها لم تكن أنا، وأنه كان عليك أن تفتش عنهما على بطنها أو على الوسادة إلى جانبها»، لكبر ثدييها بدرجة مقرفة.

وأما أبناء يعقوب فزُناة على مستوى حقير. راؤبين زنى بامرأة أبيه بلهة في حياة أبيه. ويهوذا أسد إسرائيل زنى بحليلة ابنه ثمارا. . ولوط تتهمه التوراة المحرَّفة بأنه زنى بابنتيه. . ويوشع تزوَّج الزانية راحاب وأنجب منها مجموعة من الأنبياء. . وداوود من نسل فارص بن يهوذا من الزنى من كنته، زوجة ابنه، ثمارا، وداوود نفسه يزني بحليلة جاره وقائد جنده أوريا الحثي، ثم يدبِّر مكيدة للتخلُّص منه واغتياله. وسليمان هو ابنه من تلك الزانية. وأمنون بن داوود يزني بأخته. وأدونيا بن داوود يزني بحليلة أبيه أبيشج ثم يطلب من سليمان أن يزوِّجه إياها بعد وفاة أبيهما داوود.

وبنو إسرائيل، قادة وجنوداً، يتركون القتال ويذهبون للزنى مع نساء الفلسطينيين في عهد موسى ويوشع بن نون، ويكررون ذلك في مناسبات كثيرة. وأما عهد القضاة الذي استمر لعدة قرون فهو عهد الزنى وعبادة الأوثان في حياة بني إسرائيل.

«وكان بعد موت جدعون بن يواش أن بني إسرائيل رجعوا وزنوا وراء البعليم وجعلوا لهم بعل بريث إلّهاً. (سفر القضاة، الإصحاح ٨) «وكان يفتاح الجلعادي ــ أحد قادة بني إسرائيل ــ جبار بأس وهو ابن امرأة زانية» سفر القضاة، الإصحاح ١١). . «ثم عاد بنو إسرائيل يعملون الشر في عيني الرب» يعبدون الأوثان ويزنون وراءها في كل مكان»، فدفعهم الرب ليد الفلسطينيين أربعين سنة».

وشمسون الجبّار الذي أنقذهم من الفلسطينيين ــ حسب زعمهم ــ كان زانياً. جاء في سفر القضاة (الإصحاح ١٦):

«ثم ذهب شمسون إلى غزة ورأى هناك امرأة زانية فدخل عليها». «وكان بعد ذلك أنه ــ أي شمسون ــ أحبَّ امرأة في وادي سورق اسمها دليلة» وزنى بها أيضاً..

وتاريخ بني إسرائيل كما تقصه أسفار العهد القديم تاريخ ملوث بالدماء والاغتيال وشرب الخمور والزنى، واللواط في بعض الأحيان، وعبادة التماثيل والأصنام في كل حين وآن. حيث إن كبار الكهنة كانوا لا يستحون من مضاجعة النساء علناً. يقول سفر صموئيل الأول (الإصحاح ٢): «وشاخ عالي جداً ــ وكان كبير الكهنة وجعل بنيه كهنة معه ــ وسمع بكل ما عمله بنوه بجميع إسرائيل وأنهم كانوا يضاجعون النساء المجتمعات في باب خيمة الاجتماع»، وخيمة الاجتماع هذه قدس الأقداس، وهي سكن الله حسب زعمهم قبل أن يبني سليمان الهيكل. هناك يسكن وينام ويأكل ويشرب حسب زعمهم، ومع هذا كان الكهنة يضاجعون النساء اللائي كُنَّ يذهبن للصلاة والبركة إلى خيمة الاجتماع... والرب حسب زعمهم يأمر النبي هوشع بأن يتزوج زانية.

بعد هذه المقدمة الطويلة نستطيع أن نفهم لماذا يكون أهم نشيد ديني عند اليهود قصيدة غزل فاضح.

يبدأ السفر هكذا: نشيد الإنشاد الذي لسليمان ــ كذباً وزوراً وبهتاناً ــ:

ليقبلني بقبلات فمه لأن حبك أطيب من الخمر... نذكر حبك أكثر من الخمر ــ جماعة سكارى مدمنين لا يستطيعون أن يتركوا الخمر ــ.

أنا سوداء وجميلة يا بنات أورشليم كخيام قيدار، كشقق سليمان.. حرة المُرِّ لي بين ثدييَّ يبيت. طاقة فاغيه حبيبي لي في كروم..

كالتفاح بين شجر الوعر كذلك حبيبي بين البنين. تحت ظله اشتهيت أن أجلس وثمرته حلوة لحلقي. أدخَلَني إلى بيت الخمر وعَلَمُهُ فوقي محبة. أسندوني بأقراص الزبيب، أنعشوني بالتفاح فإني مريضة حباً. شماله تحت رأسي ويمينه تعانقني..

أحلفكن يـا بنات أورشليم بـالظبـاء وبأيـائل الحقـول ألاّ تُيْقِظْنَ ولا تُنَبِّهْنَ الحبيب حتى يشاء.. في الليل على فراشي طلبت من تحبه نفسي فما وجدته. إني أقوم وأطوف في المـدينة في الأسـواق وفي الشـوارع أطلب من تحبـه نفسي. طلبتـه فمـا وجـدتـه... وجـدت من تحبه نفسي فـأمسكته ولم أرخـه حتى أدخلتـه بيت أمي وحجـرة من حبلت بـي. ـ نامت معه في تلك الغرفة وقامت في الصباح وحبيبها لا يزال نـائماً ـ أحلفكن يا بنات أورشليم بالظباء وبأيائل الحقل ألا تُيقظن ولا تُنبّهن الحبيب حتى يشاء.

ثم ينتقل الغزل، ويتحدث الرجل هذه المرة عن حبيبته الجميلة:

هـا أنت جميلة يا حبيبتي هـا أنت جميلة.. عيناك حمـامتان من تحت نقـابك، شعرك كقطيـع معز رابض على جبل جلعاد.. شفتاك كسلسلة من القرمز وفمـك حلو. خدّك كفلقة رمانة تحت نقابك. عنقك كبرج داوود المبني للأسلحة!! **ثـدياك كخشفتي ظبية، توأمين يرعيان بين السوسن**، إلى أن يفيـح النهار وتنهزم الظلال أذهب إلى جبل المُرّ وإلى تل اللبان. كلك جميل يا حبيبتي ليس فيك عيبة.

شفتاك يا عروس تقطران شهداً. تحت لسانك عسل ولبن، ورائحة ثيابك كرائحة لبنان. قد دخلتُ جنتي. قطفت مُرّي مـع طيبـي. أكلت شهدي مـع عسلي.. شربت خمري مـع لبني. كلوا أيها الأصحاب واسكروا أيها الأحباء.

ما أجمل رجليك بالنعلين يا بنت الكريم. **دوائر فخذيك مثل الحليّ صنعةِ يدي صنّاع. سُرّتُـك كأس مـدوّرة لا يعوزهـا شراب ممـزوج. بطنـك صُبرة حنـطة مسيَّجة بالسوسن (يـا للوقح يصف شعـر العانـة) ـ. ثديـاك كخشفتين، توأمي ظبيـة، عنقك كبرج من عاج**. عيناك كالبرك في حشبون عن بـاب بثّ ربيم ـ لأن مياههـا عميقة ـ، أنفك كبرج لبنان الناظر تجاه دمشق. رأسك عليك مثل الكرمل وشعر رأسـك كـأرجوان مُلك قد أسر بالخُصل. ما أجملك وأحلاك أيتها الحبيبة بـاللذّات. قامتـك هذه شبيهـة بالنخلة وثدياك بالعناقيد. قلت إني أصعد إلى النخلة وأمسك بعذوقها. وتكـون ثديـاك كعناقيد الكـرم، ورائحة أنفـك كالتفـاح. وحنكك كـأجود الخمـر. لحبيبـي السائغـة المرقرقة السائحة على شفاه النائمين.

وهكذا يمضي هذا السفر الوقـح، الذي يسمّونه نشيد الإنشاد وينسبونـه لسليمان

عليه السلام وهو منه براء. . ويتغنون به في الكنائس والمعابد والأعياد، . . . أيُّ دين هذا الذي وضعه أحبار بني إسرائيل وملأوه بالبهتان والرجس وشرب الخمور والزنى. .

السفر كله من أوله لآخره غزل من المرأة بحبيبها. . وغزل غليظ من الرجل بفتاته. .

وينتهي الإصحاح الثامن بالعشيقة وهي تدعو عشيقها ليدخل بيتها وتسقيه من الخمر السلاف، وأن تنام معه الليل كله، فإذا أصبح الصباح طلبت من بنات أسرائيل أن لا يوقظن حبيبها حتى يستيقظ متى شاء. وتحلفهنَّ كما مرّ بالظباء وبنات أيل.

وتتمدَّح بثدياها، تقول: أنا سور وثدياي كبرجين. . لكن المشكلة معها أن أختها الصغيرة ليس لها ثديان. فماذا نصنع لأختنا في يوم تخطب؟! هذه هي المشكلة الوحيدة التي تؤرقها أن ثديي أختها صغيران جداً. . على عكس مشكلة راحيل حيث كانت ثديا أختها ليئة تصل إلى الوسادة بجانبها عندما تنام أو تنزل إلى أسفل بطنها عندما تقف.

هذه هي المشكلة الوحيدة أمام إسرائيل. ولا بدّ من تدبير الحل؟! وعلى سليمان الحكيم أن يفكّر بحكمته كيف يحل هذه المشكلة العويصة!!

* * *

أيّـوب (عليه السلام)

أيوب عليه السلام يُضرب به المثل في الصبر، فيقال: صَبْر أيّوب. قال تعالى:

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾. (الأنبياء: ٨٣، ٨٤).

وقال عنه عزَّ مِن قائل:

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾.
(صٓ: ٤١ ــ ٤٤).

من هو أيوب عليه السلام؟

اشتهرت قصة أيوب وصبره على البلايا، والرزايا، فَقَدَ ماله فحمد الله، وفقد أولاده وأهله فحمد الله، وفقد صحته فحمد الله، وبقي في البلواء سنين طوالاً لا يتضجَّر ولا يتبرَّم قائلاً: الله أعطى.. الله أخذ. ولم يشكو لأحد من الخلق، واكتفى بعلم خالقه، حتى إذا بلغ السيل الزبى توجَّه إلى ربه بالدعاء والضراعة فأنقذه وأكرمه وأعاد له صحّته وأهله ومثلهم معهم وضاعف له ثروته وماله.

لهذا كله اشتهرت قصة أيوب بين الأمم وادَّعته كل أمة لنفسها. ومن أشهر من ادَّعاه المصريون، حتى قيل: أيوب المصري.

والحق أنه ليس مصرياً، بل هو من نسل إبراهيم عليه السلام. قال تعالى:

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ ـ أي إبراهيم ـ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿٨٤﴾﴾. (الأنعام: ٨٤).

وقال تعالى:

﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ ﴿١٦٣﴾﴾. (النساء: ١٦٣).

ونحن نعلم أن الأنبياء الذين جاءوا من بعد إبراهيم عليه السلام وقصهم الله على رسوله في القرآن الكريم هم من نسل إبراهيم. ولذا سمّي إبراهيم أبو الأنبياء. ولكن ليس معنى ذلك أن كل الأنبياء الذين جاءوا من بعد إبراهيم ولم يقصصهم الله علينا هم من نسل إبراهيم عليه السلام. قال تعالى: ﴿ومنهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك﴾. ويُذكر أن عدد الأنبياء أكثر من مائة ألف، وأن عدد الرسل أكثر من ثلاثمائة(١) ـ مع أن المذكورين في القرآن الكريم عدد محدود، وهو ٢٥ نبياً رسولاً.

ويذكر المؤرخون نسباً لأيوب. قال ابن إسحاق: هو أيوب بن موص بن رازح بن العيص ـ وهو عيسو ـ بن إسحاق بن إبراهيم الخليل.

قال ابن كثير في كتابه «قصص الأنبياء»: «وقال غيره ـ أي غير ابن إسحاق ـ هو أيوب بن موص بن رعويل بن العيص ـ عيسو ـ بن إسحاق بن إبراهيم الخليل».

وها هنا شبه اتفاق في نسبة أيوب عليه السلام إلى العيص ـ عيسو ـ بن إسحاق بن إبراهيم. والعيص هو عيسو شقيق يعقوب التوأم والذي نزل قبله، وتبعه يعقوب ماسكاً بعقبه كما ترويه التوراة في سفر التكوين ـ وقد مرَّ معنا ذلك في قصة يعقوب ـ.

قال ابن كثير: «فالصحيح أنه من سلالة العيص ـ عيسو ـ بن إسحاق». وقد ذكر المؤرخون الأوروبيون، ومنهم (بنيامين جرمين) والأديب الفرنسي (ڤولتير): أن أيوب أقدم من موسى ـ عليهما السلام ـ وأن أيوب عاش في حدود ١٥٢٠ قبل

---

(١) ورد أنَّ عدد الأنبياء (١٠٤) ألف، وأن عدد الرسل على عدة أهل بدر (٣١٣).

الميلاد. وأن سفر أيوب كُتب قبل التوراة بقرون عدة، وأنه كُتب باللغة الكلدانية أصلاً. وأن السفر يوضح تنافس الشيطان والرب على أيوب. وذلك راجع إلى عقائد الثنوية الفارسية ـ إلَه الخير وإلَه الشر ـ .

وقد استغرب بعض الباحثين الأوروبيين ورود قصة أيوب وقصة يونس في العهد القديم وكلاهما لا علاقة له ببني إسرائيل. . وقد تابع هؤلاء الغربيين بعض الباحثين من العرب ونقلوا كلامهم مؤيِّدين لقولهم ذاك، ومنهم الدكتور حسن ظاظا في كتابه القيِّم «الفكر الديني اليهودي».

والحق أن أيوب ويونس ـ عليهما السلام ـ كلاهما من ذرية إبراهيم كما ذكره المولى سبحانه وتعالى في سورة الأنعام (٨٣ ـ ٨٦) على أرجح القولين[1]، وقد ذكر أهل التاريخ أن أيوب عليه السلام كان من نسل العيص ـ عيسو ـ بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام. أما يونس عليه السلام فهو يونس بن متى. وقد أخرج البخاري ومسلم وأبو داوود وأحمد قوله صلى الله عليه وسلم: «ما ينبغي لعبد أن يقول: إني خير من يونس بن متى»، وزاد البخاري: ونسبه إلى أبيه.

وقد جاء في كتاب «النبوّة والأنبياء»، للأستاذ محمد علي الصابوني: أن متّى هي أم يونس. وأنه لم ينسب إلى أمه من الرسل إلاّ عيسى بن مريم ويونس بن متى. وهو مخالف لحديث البخاري المتقدِّم ذكره.

قال الصابوني: «ويتّصل نسبه ـ أي يونس ـ ببنيامين أحد أولاد يعقوب وهو أخو يوسف الشقيق».

ومهما يكن من أمر فإن يونس وأيوب كلاهما من نسل إبراهيم. وذكرهما في العهد القديم أمر ليس بمستغرَب إذاً. وكون أيوب من نسل عيسو ـ العيص ـ وليس من نسل يعقوب لا يؤثر كثيراً، إذ أن التوراة أوردت أيضاً قصة لوط وهو ابن أخ إبراهيم عليه السلام وليس ولده. . وأما تفاصيل القصة المذكورة فلا شك أنها محرَّفة وأنها

(١) قال تعالى: ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب. كلاً هدينا، ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داوود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون﴾. . قال أهل العلم والضمير في ذرّيته يعود إلى إبراهيم، وقال بعضهم: بل إلى نوح لأنه أقرب مذكور.

ليست قصة أيوب الحقيقية. وأن إضافات وتغييرات كثيرة قد حدثت فيها.

والأدباء والباحثون الغربيون مغرمون جداً بهذا السفر المليء بالشك والبهتان والكفر الصريح.

قصة أيوب في العهد القديم:

ترد قصة أيوب عليه السلام في سفر كامل هو سفر أيوب، ويدخله الباحثون في الأسفار الأدبية لما فيه من وصف بليغ للآلام التي كان يعانيها أيوب. والسفر مليء بالكفر والبهتان من أوله لآخره.. وهو صورة وضيعة لنبي كريم من أنبياء الله.

ويظهر أيوب في هذا السفر على صورة رجل ناقم على الله تعالى كافر بأنعمه شديد اللوم والعتاب له إلى حد التقريع والتوبيخ.. وحاشا لأيوب عليه السلام أن يفعل ذلك.

يبدأ السِفْرُ هكذا: «كان رجل من أرض عوص اسمه أيوب»، ويذكر بعد ذلك أن الرجل كان كاملاً. ويعدد ذكر أولاده وثروته من الغنم والبقر والجمال والأتان والخدم والأراضي المزروعة، وكان أيوب كما يزعم العهد القديم يقدم المحارق للرب باستمرار. وكان مقابل اللحم المشوي الذي يحبه الرب جداً حسب زعمهم، يستلم أيوب ثروات جديدة وأموالاً وضياعاً وذهباً وفضة.

«وكان ذات يوم أنه **جاء بنو الله ليمثلوا أمام الرب، وجاء الشيطان أيضاً في وسطهم. فقال الرب للشيطان: من أين جئت؟** فأجاب الشيطانُ الربَّ وقال: من الجَولان في الأرض ومن التمشي فيها. **فقال الربُّ للشيطان: هل جعلت قلبك على عبدي أيوب؟ لأنه ليس مثله في الأرض رجل كامل ومستقيم يتقي الله ويحيد عن الشر. فأجاب الشيطانُ الربَّ وقال: هل مجاناً يتقي الله أيوب؟** أليس إنك سيَّجت ــ أي وضعت سياجاً ــ حوله وحول بيته وحول كل مالَهُ من كل ناحية؟ باركت أعمال يديه فانتشرت مواشيه في الأرض!!؟ ولكن ابسط يدك الآن ومُسَّ كل ماله فإنه في وجهك يجدِّف عليك. فقال الرب للشيطان: هوذا كل ماله في يدك. وإنما إليه لا تمد يدك: . ثم خرج الشيطان».

«وكان ذات يوم وأبناؤه وبناته يأكلون ويشربون خمراً في بيت أخيهم الأكبر أن رسولاً جاء أيوب وقال: البقر والأتن ترعى بجانبها، فسقط عليها السبئيون وأخذوها. . . وبينما هو يتكلم جاء آخر وقال: نار الله سقطت من السماء فأحرقت الغنم والغلمان. . . وجاء آخر وقال: الكلدانيون هجموا على الجمال وأخذوها. . وجاء رابع وقال: بنوك وبناتك كانوا يأكلون ويشربون خمراً في بيت أخيهم الأكبر، وإذا ريح شديدة جاءت من عبر القفر وصدمت زوايا البيت الأربع فسقط على الغلمان فماتوا، ونجوتُ أنا وحدي لأخبرك. . **فقام أيوب ومزّق جبّته، وجزَّ شعر رأسه، وخرَّ على الأرض وقال: عرياناً خرجت من بطن أمي، وعرياناً أعود إلى هناك. الربُّ أعطى والرب أخذ فليكن اسم الرب مباركاً»**. (سفر أيوب، الإصحاح الأول).

هكذا تبدأ قصة أيوب في العهد القديم، سفر أيوب، صورة نلمح فيها بعض الشفافية ولكن سرعان ما تغلفها أكاذيب يهود وغلظتهم وماديتهم. تبدأ بذكر ثروة أيوب وصلاحه. وعلامة صلاحه وكماله أنه كان يقدِّم المحارق واللَّحم المشوي الذي يحبّه الرب جداً حسب زعمهم، والذي يقدِّم في سبيله كل شيء. فقد أعطى إبراهيم وإسحاق ويعقوب العهد في مقابل رائحة الشواء الذي يسرُّ به كثيراً حسب مزاعم مؤلفي العهد القديم.

ويُرفع الستار، فإذا نحن بمشهد غريب **أبناء الله** مجتمعون مع الرب. . وقد أسلفنا القول في أبناء الله هؤلاء وأنهم حسب مفهوم أحبار اليهود الذين حرَّفوا التوراة وألَّفوا أسفار العهد القديم هم: أبناء آدم من حواء، وآدم هو ابن الله. تعالى الله عن ذلك. . خلقه على صورة الله وشبهه تماماً! ! ــ أعوذ بالله ــ وبما أنَّ آدم كان له عشيقة من الجن اسمها ليليت عاشرها ١٣٠ سنة وأنجب منها أولاداً، وبما أن حواء كانت لها عشاقاً كثيرين من الجن وأنجبت منهم أولاداً أيضاً، فإن أولاد الجن من حواء وآدم ليسوا أبناء الله. . وحدث أن أبناء الله ــ أي آدم وحواء ــ تزوجوا من بنات الناس ــ أي بنات الجن من حواء وآدم ــ فولد لهم الجبابرة الذين هم منذ الدهر ذوو اسم، كما يقول سفر التكوين من التوراة المحرَّفة. ثم جاء الطوفان وتركَّزت بنوّة الله في سام بن نوح لأنه غطّى أباه عندما سكر ــ لعنة الله على اليهود ــ وبقيت اللّعنة والطرد لكنعان

لأن حام لم يغطِّ نوحاً عندما سكر. ثم انتقلت البنوّة إلى إبراهيم ومن إبراهيم إلى إسحاق ومن إسحاق إلى يعقوب ومن يعقوب إلى الأسباط. بنو إسرائيل هم بنو الله على الحقيقة لا على المجاز كما يظن بعض الكتّاب!! هكذا يعتقدون، وهكذا تقول أسفارهم.. وتطلق أسفار العهد القديم أحياناً لقب بنو الله أو بنات الله على الملائكة!!؟

المهم نحن في مشهد غريب: أبناء الله مجتمعون يتشاورون مع الرب. وإذا نحن نفاجَأ بالشيطان في وسطهم!! ويبدأ الرب بالسؤال: من أين جئت؟ فيجيب الشيطان: بأنه كان يتجول في الأرض. فيحذِّره الرب من أن يمسَّ عبده الكامل أيوب. ويقول له الشيطان: هل مجاناً يتقي الله؟ إنه يعبدك ويقرِّب لك القرابين في مقابل ما تعطيه وتباركه وتحرسه.. فيعطيه الرب الإذن بأخذ ماله وأولاده... فقط يمنعه من أن يمسّ أيوب في نفسه.

في لحظات، الأنعام والأموال والأولاد يذهبون، وإذا بنا في منظر متناقض «فقام أيوب ومزَّق جبَّته وجزَّ شعر رأسه». موقف يدلُّ على الجزع وعدم الصبر. لماذا يمزِّق أيوب جبَّته؟ لماذا يجزُّ شعر رأسه؟! ثم يأتي بعدها كلام نبي، كلام نوراني لا شك أن أيوب قاله حقاً: «عرياناً خرجت من بطن أمي وعرياناً أعود إلى هناك. الربُّ أعطى والربُّ أخذ، فليكن اسم الرب مباركاً». يا له من كلام نوراني شفاف. أنوار النبوة تظلِّله وهو مناقض تماماً لما سبق ولكثير مما سيأتي.

ويرتفع الستار مرة أخرى في الإصحاح الثاني عن اجتماع مماثل للاجتماع الأول: بنو الله مجتمعون مع الرب وجاء الشيطان أيضاً في وسطهم!! ويتكلم الرب حسب زعمهم، مخاطباً الشيطان وموبخاً له: «هل جعلت قلبك على عبدي أيوب؟ لأنه ليس مثله في الأرض. رجل كامل ومستقيم يتَّقي الله ويحيد عنه الشر.. **وقد هيَّجتني عليه لأبتلعه بلا سبب**». أعوذ بالله كيف يمكن أن يتصوَّر إنسان له ذرّة من إيمان أن يقول الربُّ مثل هذا الكلام؟! كيف يستطيع الشيطان أن يهيِّج الرب على أتقى عبد من عباده في ذلك الزمان؟!! ولماذا هذا الرب يلعب به الشيطان ويوجهه حيثما أراد؟! إنها صورة فظيعة حقيرة قميئة للرب ــ تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً ــ وبينما الرب

ندمان على ما فعل بأيوب، يهيِّجه الشيطان مرة أخرى على أيوب؛ فيسمح له الرب بأن يبسط يده عليه ويمس عظمه ولحمه. فخرج الشيطان مبتهجاً وضرب أيوب بقرح رديء من باطن قدمه إلى هامته.. فقالت له امرأته: أنت متمسك بعد بكمالك. بارك الله ومُت!! فرد عليها رداً فيه أنوار النبوة تتلألأ: «تتكلمين كلاماً كإحدى الجاهلات. آلخير نقبل من عند الله والشرَّ لا نقبل؟!!».

وذهب أصحاب أيوب الثلاثة إليه ليعزوه؛ فرفعوا أصواتهم وبكوا، ومزَّق كل واحد جبَّته، وذرّوا تراباً فوق رؤوسهم، وقعدوا معه على الأرض سبعة أيام وسبع ليال ولم يكلِّمه أحد بكلمة، لأنهم رأوا أن كآبته كانت عظيمة جداً. بعد هذا فتح أيوب فاه وسبَّ يومه وقال: ليته هلك اليوم الذي ولدتُ فيه، والليل الذي قال قد حبل برجل. ليكن ذلك اليوم ظلاماً. لا يعتنِ به الله من فوق ولا يُشرق عليه نهار. ليملكه الظلام وظل الموت.. أما ذلك الليل فليمسكه الدجى ولا يفرح بين أيام السنة ولا يدخلنَّ في عدد الشهور. هوذا ذلك الليل ليكن عاقراً. لا يسمع فيه هتاف. ليلعنه لاعنو اليوم المستعدون لإيقاظ التنين. لتظلم نجوم عشائه.. لأنه لم يغلق أبواب بطن أمي ولم يستر الشقاوة عن عيني، **لِمَ لَمْ أَمُت من الرحم؟ عندما خرجت من البطن لِمَ لَمْ أسلم الروح؟! لماذا أعانتني الركب ولِمَ الثدي حتى أرضع؟!.**

ويبدأ أيوب حسب زعمهم بالتجديف، ويستمر فيه طوال السفر الخبيث الذي ألَّفه أحبار يهود.

يقول: «لِمَ يعطَى لشقي ــ أي أيوب ــ نور وحياة لمُرِّي النفس. الذين ينتظرون الموت وليس هو. ويحفرون عليه أكثر من الكنوز... لأنه مثل خبزي يأتيني أنيني ومثل المياه تنسكب زفرتي. لأني ارتعاباً ارتعبت فأتاني، والذي فزعتُ منه جاء عليَّ، لم أطمئن ولم أسكنْ ولم أسترح وقد جاء الرجز».

حاشا حاشا لأيوب الصابر الشاكر أن يقول هذا الكلام الذي لا يقوله إلَّا من قنط من رحمة الله وأبلس منها..

حاول أصحاب أيوب واحداً بعد الآخر أن يردوه إلى إيمانه وإلى ثباته ولكن

هيهات. فالأحبار الذين صنّفوا هذا السفر مصرّون على تلويث صورة أيوب كما لوّثوا الأنبياء من قبل.

يقول أليفاز التيماني لأيوب:

«إن امتحن أحد كلمة معك فهل تستاء؟ ها أنت قد أرشدت كثيرين.. قد أقام كلامُك العاثرَ، وثبتَّ الركبَ المرتعشة. والآن إذ جاء عليك ضجرت. إذ مسَّكَ ارتعت؟ أليست تقواك هي معتمدك ورجاؤك؟!! آلإنسان أبرُّ من الله؟! أم الرجل أطهر من خالقه؟! هوذا عبيده لا يأتمنهم وإلى ملائكته ينسب حماقة ـ ما هي يا ترى حماقة الملائكة في نظر الأحبار مؤلفي هذه الأسفار ـ فكم بالحريّ سكان بيوت من طين الذين أساسهم في التراب، ويُسحقون مثل العثّ. بين الصباح والمساء يُحطمون. بدون منتبه إليهم يبيدون.. يموتون بلا حكمة».

ويواصل أليفاز كلامه لأيوب:

«ادع الآن فهل لك من مجيب؟ وإلى أي القديسين تلتفت؟ لأن الغيظ يقتل الغبي والغيرة تميت الأحمق... إن البلية لا تخرج من التراب والشقاوة لا تنبت من الأرض، ولكن الإنسان مولود للمشقة، كما أن الجوارح لارتفاع الجناح؟!».

يوبخ أليفاز أيوب ويقول له: ادع فليس لك من مجيب، وتلفَّت إلى القديسين هل ينقذك منهم أحد؟ ليس هناك أحد إلّا الله «طوبى لرجل يؤدبه الله فلا ترفض تأديب القدير. لأنه هو يجرح ويعصب. يسحق ويداه تشفيان. في ست شدائد ينجّيك وفي سبع لا يمسّك سوء. في الجوع يفديك من الموت، وفي الحرب من حدّ السيف». ويحاول جاهداً أن يطمئن أيوب ويبعث فيه الأمل، وأن الله سيعيد عليه ما فقد من المال والصحة: «وأن خيمتك آمنة، وتتعهد مربضك ولا تفقد شيئاً، وتعلم أن زرعك كثير وذريتك كعشب الأرض ، وأنك ستموت في شيخوخة صالحة في أوان الموت.

بعد هذه الموعظة الجيدة من رجل قوي الإيمان يردّ أيوب بردٍّ متبرم ساخط. قال أيوب حسب زعمهم: «ليت كربي وُزنَ. ومصيبتي رُفعت في الموازين جميعها لأنها الآن أثقل من رمل البحر. لأن سهام القدير فيَّ، وحُمتها شاربة روحي.. أهوال الله مصطفَّة ضدي...

«يـا ليت طلبتي تأتي ويعـطيني الله رجائي. أن يـرضى الله بأن يسحقني ويـطلق فيقطعني.. ما هي قوّتي حتى أنتظر؟ وما هي نهايتي حتى أصبِّـر نفسي؟ هل قـوتي قوة الحجـارة؟ هـل لحمي نحـاس؟ ألا أنـه ليست في معـونتي والمسـاعـدة مـطرودة عني...».

ويستمر أيوب في تقريـع صاحبه الذي أمره بالصبر. ويقول له: حتى متى أصبر؟ «إذا اضطجعت أقول متى أقـوم؟! الليل يـطول وأشبـع قلقاً حتى الصبـح. لبس لحمي الـدود مـع مدر التـراب. جلدي كرش وسـاخ. أيامي أسـرع من الوشيعـة وتنتهي بغيـر رجاء»، أعوذ بالله من هذا القنوط والكفر!! ويواصل أيوب حسب زعمهم كلامه قائـلاً: «اذكـرْ أنمـا حيـاتي هي ريـح وعيني لا تعـود تـرى خيـراً.. عينـاك عليَّ ولست أنـا. السحاب يضمحل ويزول، هكذا الـذي ينزل إلى الهـاوية لا يصعـد». أيعقل أن يقـول النبـي الكريم أيوب عليه السلام عن نفسه: أنه ينزل إلى الهاوية؟! ويواصل الحديث: «أنا أيضاً لا أمنـع فمي ــ من التجـديف والشكوى الغيـر لائقة ــ أتكلم بضيق روحي. أشكو بمرارة نفسي.. إن قلتُ فراشي يعزيني، مضجعي ينزع كربتي، تريعني الأحلام وترهبني برؤى فـاختارت نفسي الخنق، المـوت على عظامي هـذه...» ويوجـه أيوب صرخة نحو الرب حسب زعمهم قائلاً: «ما هو الإنسـان حتى تعتبره وحتى تضـع قلبـك عليـه؟! وتتعهده صبـاح وكل لحـظة تمنحـه؟! متى لا تلتفت عنِّي، ولا تُـرخيني ريثمـا أبلـع ريقي؟! أأخطأت؟ ماذا أفعل لك يـا رقيب الناس؟ لمـاذا جعلتني عاثـوراً لنفسك حتى أكـون على نفسي حمـلاً؟ ولمـاذا لا تغفـر ذنبـي ولا تـزيـل إثمي؟ لأني الآن أضطجـع في التراب تـطلبني فلا أكـون!!! قريبـاً سأهـرب منك بـالموت.. ستـطلبني فلا تجدني...». أعوذ بالله. أهكذا يقول النبـي أيوب؟ حاشاه حاشـاه!! إنهم الأحبار الذين لا يؤمنون بالآخرة.. ولا بالله.

وانزعـج صاحب أيوب الثاني وهو يلدد الشوحي لهذا الكلام والتجديف. وحاول كما حاول صاحبه أليفاز أن يرد أيوب إلى الإيمان بالله والرضـا بقضائـه، ولكن هيهات.. مؤلف هذا السفر مصرٌّ على تلويث أيوب، وأن يخرج سخائم نفسه كلها وينسبها لأيوب، تماماً كما فعل الأحبار الذين لـوَّثوا سيـرة الأنبياء جميعـاً من لدن آدم إلى عيسى عليهم صلوات الله جميعاً.

يقول يلدد الشوحي لأيوب: «إلى متى تقول هذا؟! هل الله يعوِّج القضاء أو القدر يعكس الحق؟! إن كنت أنت زكياً مستقيماً فإنه الآن ينتبه لك ويسلم مسكن برك. وإن تكن أُولاك صغيرة فآخرتك تكثر جداً ــ المقصود مبتدأ أمرك في الدنيا ومنتهاه أيضاً في الدنيا، لأن ليس في العهد القديم كله ذكر للقيامة والآخرة ــ .

ويستمر صاحب أيوب يذكره بالأمم الخالية وبرحمة الله وبغضب الله على من يكفر نعمته. ولكن أيوب يرد عليه رداً مليئاً بالتمرد والعصيان والضيق والتبرم من ابتلاء الله، يقول: «لو دعوت فاستجاب لي لما آمنتُ بأنه سمع صوتي، ذاك الذي يسحقني بالعاصفة ويكثِّرُ جروحي بلا سبب. لا يدعني آخذ نَفَسي ولكن يشبعني مرائر. إن كان من جهة قوة القوي يقول هـٰأنذا!! وإن كان من جهة القضاء يقول من يحاكمني!! إن تبرَّرت يَحكمُ عليَّ فمي. وإن كنت كاملاً يستذنبني».

كلام فظيع.. كله كفر وتجديف ومخاصمة لله الذي يدَّعي أنه يسحقه ويكثِّر جروحه بلا سبب، ولا يسمح له حتى يأخذ نَفَسه، ويشبعه مرائر ومصائب وآلام.

«أيفعل ذلك لأنه قوي وأنا ضعيف؟ ويتبجح بقوته ويقول من يحاكمني!! وإن أردت أن أتكلم إليه أَحْكَم فمي وأقفله بالرتاج.. ويعاملني كمذنب مع أني كامل وبار. أين عدله؟! أين رحمته؟».. كفر كامل بالله وثورة عليه وعلى قضائه.. «أَلِأنّه قوي وأنا ضعيف يُظهر جبروته عليَّ!!؟».

ويواصل أيوب كلامه حسب زعمهم: «كامل أنا. لا أبالي بنفسي. رذلت حياتي.. أيامي أسرع من عدّاءٍ ــ سريع الجري ــ تفرُّ ولا ترى خيراً... أخاف من كل أوجاعي، عالم أنك لا تبرّيني. أنا مستذنب فلماذا أتعب عبثاً؟ ولو اغتسلتُ في الثلج ونظَّفتُ يديَّ بالأشنان فإنك في النقع تغمسني حتى تكرهني ثيابي. لأنه ليس هو إنساناً مثلي فأجاوبه فنأتي جميعاً إلى المحاكمة. ليس بيننا مُصالح ــ يُصلح بيننا ــ يضع يده على كلينا. **ليرفع عني عصاه ولا يبغتني رعبه. إذاً أتكلم ولا أخافه. لست هكذا عند نفسي**». ينتهي إلى الكفر الصريح يثور علناً على الرب «ليرفع عني عصاه ولا يبغتني رعبه إذاً أتكلم ولا أخاف الرب!!». أعوذ بالله، أعوذ بالله، أهكذا يزعم الأحبار المجرمون أن أيوب يقول للرب؟!!

ويستمر أيوب حسب زعمهم في هذا التجديف والكفر الصريح:

«قد كرِهتْ نفسي حياتي. أتكلَّمُ في قرارة نفسي قائلاً لله: لا تستذنبني. فهِّمني لماذا تخاصمني؟ أحسنٌ عندك أن تظلِم؟ ـ الله ظالم حسب زعمهم ـ أن ترذل عمل يديك وتشرق على مشورة الأشرار؟ ـ الرب استمع لمشورة الشيطان وأصبح تابعاً له ـ ألك عينا بشر؟ أم كنظر الإنسان تنظر؟ أأيامك كأيام الإنسان؟ أم سنوك كأيام الرجل حتى تبحث عن إثمي وتفتِّش على خطيئتي؟ في علمك أني لست مذنباً ولا مُنقذ من يدك».

وهكذا يزعم كاتب هذا السفر أن أيوب كفر بالله وقرَّعه ووبَّخه لأنه ظلمه وعذَّبه بالفقر وموت الأبناء والمرض. مع أن أيوب ليس له ذنب وهو كامل يقدِّمُ الذبائح والقرابين واللحم المشوي في ميعاده كل عام.. فلماذا إذن يعذِّبه الرب؟ إن الرب ظالم طاغي متجبر يؤذي الرجل الكامل ويترك الأشرار ويستمع لنصيحة الشيطان!!! أعوذ بالله من هذا الكلام الذي لا يقوله إلاّ الفَسَقة الفَجَرة الكَفَرة من بني إسرائيل. لهذا لا نستغرب أن تأتي كل الدعوات الهدّامة الكافرة منهم فهم ينبوع الشر في هذه الأرض وهم حَمَلة رايات الكفر.

إن قراءة هذه الأسفار الملوّثة تعطينا بعداً وفهماً لعقائد هؤلاء اليهود ومن تبعهم من النصارى الذين يرون أن هذه الكتب مقدَّسة.. وأن الأنبياء كلهم قد اقترفوا هذه الجرائم الكبرى والكفر الصراح.

يواصل أيوب كلامه مع الله:

«يداك كوَّنَتاني وصَنَعَتاني أفتبتلعني؟ اذكر أنك جبلتني كالطين. أفتعيدني إلى التراب؟! منحْتني حياة ورحمة وحَفِظتْ عنايتُك روحي. لكنك كتمت هذه في قلبك.. إن أخطأتُ تلاحظني ولا تبريني من إثمي. إن أذنبت فويلٌ لي. وإن تبرَّرت ـ وصرت باراً ـ لا أرفع رأسي. إني شبعان هواناً وناظر مذلَّتي. **وإن أرتفع تصطادني كأسد ثم تعود وتتجبَّر عليَّ... فلماذا أخرجتني من الرحم؟** كنت قد أسلمت الروح ولم ترني عين. فكنت كأني لم أكن فأُقادُ من الرحم إلى القبر. **أليست أيامي قليلة. اترك. كُفَّ عني فأبتلج قليلاً. قبل أن أذهب ولا أعود. إلى أرض ظلمة وظل الموت. أرض ظلام مثل دجى، ظل الموت. وبلا ترتيب وإشراقها كالدجى».**

كفر صريح ووقاحة متناهية وقلّة أدب في خطاب الرب وتهديد: اترك. كفَّ عني قبل أن أذهب ولا أعود. سأموت ولن تقدر علي. سأذهب إلى الظلام. إلى الهاوية؟ هكذا هي عقائد يهود. لا بعث ولا نشور ولا حساب. الموت هو الظلام هو النهاية التي ليس بعدها نهاية. هو الهاوية التي ليس لها قرار. لهذا هم يرتعبون من الموت ﴿يودّ أحدهم لو يعمِّر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر﴾. (البقرة: ٩٦).

ويردّ صوفر النعماني، الصاحب الثالث لأيوب، مستنكراً هذا الكفر وهذه الثرثرة الفارغة: أو تظن يا أيوب أن كثرة الكلام تفحم الناس عن الرد عليك؟! أصلفك يفحم الناس أم تلِجُّ وليس من يخزيك؟ لا بدّ من الرد عليك، وليت الله يتكلّم ويعلن لك خفيات الحكمة. إنها مضاعفة الفهم فتعلم أن الله يغرِّقك بأقلّ من إثمك.. عُد إلى ربك يا أيوب وابسط إليه يديك فإنه قريب مجيب رؤوف ودود.. كثير الرحمة. أبعِد الإثم عن قلبك ويدك؛ حينئذٍ ترفع وجهك بلا عيب، وتكون ثابتاً ولا تخاف لأنك تنسى المشقّة، كمياه عبرت تذكرها. وفوق الظهيرة يقوم حظك.. الظلام يتحوَّل صباحاً وتطمئن لأنه يوجد رجاء، تضطجع آمناً وتربض وليس من يزعج. ويتضرع إلى وجهك كثيرون. أما عيون الأشرار فتتلف ومناصهم يبيد ورجاؤهم تسليم النفس ـ أي الموت ـ.

ويا له من كلام مؤمن عظيم الرجاء لله سبحانه وتعالى!! لكن كلام صوفر النعماني يذهب أدراج الرياح كما ذهب كلام يلود الشوحي وأليفاز التيماني، ولا يقبل أيوب النصح منهم بل يستمر في شكاته وفي ثورته العارمة ضد الرب الذي ابتلاه. والغريب حقاً أن هؤلاء الثلاثة الذين ملأهم الله إيماناً لم يكونوا من بني إسرائيل، بل من الأمم الأخرى المجاورة لليهود. وكلامهم نوراني.. أما كلام أيوب حسب زعمهم فكلام يغشاه الكفر والظلمة، والاعتراض على الله وقدره.

يردّ أيوب على صاحبه الأخير ويقول له: إن الحكمة التي معه تفوق الحكمة التي عند أصحابه.. ولكن أصحابه يتكلّمون وهم معافون من البلاء.. لذا هم يتكلّمون بالحكمة.. أما هو فيتكلّم بمرارة نفس لأنه مبتلى.. وقد دعا الله فلم يجبه بل زاده هواناً وعذاباً. فأين الله إذن؟ وأين رحمته؟. وأما كلامكم أيها الأصدقاء فإنه

يـزيد في عـذابـي وآلامي. «سخـرة هـو الصـديق الكـامـل. للمبتلى هـوانٌ في أفكـار المطمئن.. خيام المخـرِّبين مستريحـة والذين يغيـظون الله مطمئنـون.. الذين يـأتون بـإلـههم في يدهم». أعـوذ بالله. يغبط أيـوب ــ حسب زعمهم ــ المشـركين والكَفَـرة الذين يعبدون الأوثـان ويحملون آلهتهم بأيـديهم.. إنهم يعيشون مـطمئنين في سـلام وعافية. خيرهم كثير ورزقهم وافر.. أين هو الرب إذن؟!!!

يقول أيوب حسب زعمهم: **أريد أن أكلِّم القدير وأن أحاكم الله. أمـا أنتم** ــ أي أصحابه الذين نصحوه ــ **فملفقو كذب. أطباء بطّالـون كلكم. ليتكم تصمتون صمتـاً. يكون ذلك حكمة. اسمعوا الآن حجتي واصغوا إلى دعاوي شفتي. أتقـولون لأجل الله ظلماً وتتكلمون بغش لأجله؟ أتحابون وجهه أم عن الله تخاصمون؟**.

ويستمر أيوب في تقريـع أصحابه لأنهم وبَّخوه على أقواله الفاسدة وأرشـدوه إلى حكمة الله، وهو يرد عليهم بعنف ويقول لهم: أين هذه الحكمة؟ لماذا يعذبني أنا البارّ والكـامل ويغـدقُ النعم على عبّاد الأوثان والأصنام؟! أتـدافعون عن الله وقـد ظلمني؟! أتحابون عنه وأنتم تعلمون أنه أذنب إليَّ؟؟!! كفر كفر رهيب. يدَّعي كاتب هذا السفـر ــ عليه لعنات الله الأبدية ــ أن أيوب قاله لأصحابه. يصرخ أيـوب قائـلاً: اسكتوا عني فـأتكلم أنا وليصيبني مهمـا أصاب ــ فهـو لم يعد يخـاف من الله ــ لمـاذا آخـذ لحمي بأسناني وأضـع نفسي في كفي. هوذا يقتلني. لا أنتظر شيئاً ــ هكذا يعلن بكـل وقاحـة أنه لم يعد يخـاف شيئاً.. أليس أقصى مـا يمكن أن يفعله الربُّ هـو أن يميته، فليمتـه إذن وليـرحه.. فهـو لا يخاف الـرب.. ولم يعد يحتمـل أن يسكت على إهـانـاتـه لـه وتعذيبه إيـاه.. وما دام الأمـر هكذا فـالكفر والإيمـان سيان والخيـر والشر واحـد. وهو لا يخشى أن يقول لله: إنه قد ظلمه دون جريرة، وعذَّبه دون ذنب ــ.

صورة بشعة وقحة.. يهدِّد الربَّ ويخاصمه قائلاً: «كم لي من الآثام والخـطايا؟ أعلمني ذنبـي وخـطيئتي. لمـاذا تحجب وجهـك وتحسبني عـدواً لـك؟ أتـرعبُ ورقـة مندفعة وتطارد قشاً يـابساً؟ لأنـك كتبت عليَّ أموراً مـرة وورثتني آثام صبـاي. فجعلت رجلي في المقطرة.. وعلى رجلي نبشت.. وأنا كمتسوِّس يبلى، كثوب أكلته العُثُّ».

ويطلب من ربه أن لا يُظهر جبروته عليـه.. فهو مخلوق ضعيف.. ولكن لمـاذا

لا يريد أن يريحه؟! لماذا يعذِّبه بالباطل والظلم!!؟ إذا كان لا بدَّ من ذلك فليُرِحه.. فليُمِته.. ليتركه للظلام.. للهاوية.. فهي أرحم من هذا العذاب!!! «لماذا تحصي عليَّ خطواتي.. معصيتي مختوم عليها في صرة وتلفّقُ عليَّ فوق إثمي».

يستمر أيوب في كلامه للربِّ: «إن الجبل الساقط ينتثر والصخر يزحزح من مكانه. الحجارة تبليها المياه وتجرف سيولها تراب الأرض. **وكذلك أنت تبيد رجاء الإنسان، تتجبر عليه أبداً فيذهب. تغيِّرُ وجهه وتطرده**».

ويعود أليفاز التيماني إلى الحديث وإلى محاولة ردّ أيوب إلى حظيرة الإيمان بعد أن كَفَر حسب زعم مؤلف هذا السفر. ويرد أيوب ويسخر من تلك الحكمة ويقول: «قد سمعت كثيراً مثل هذا الكلام. معزّون متعبون كلكم. هل من نهاية لكلام فارغ؟ أو ماذا يهيِّجك حتى تجاوب». لو كنت مكانكم في عافية لاستطعت أن أقول مثل كلامكم وأحسن وأَحْكَم. ولكن ما الفائدة الآن «إن تكلمت لم تمتنع كآبتي. وإن سكتُّ فماذا يذهب عنّي. إنه الآن ضجَّرني. خرَّب كلَّ جماعتي.. قبض عليَّ.. قام عليَّ هُزالي يجاوبُ في وجهه.. غضبه افترسني واضطهدني.. دفعني الله إلى الظالم وفي أيدي الأشرار طرحني. كنت مستريحاً فزعزعني. وأمسك بقفاي فحطَّمني، ونصبني له غرضاً. أحاطت بي رماتُه. شقَّ كليتي ولم يشفق. سفك مرارتي على الأرض. يعدو عليَّ كجبار.. احمرَّ وجهي من البكاء. وعلى هُدبي ظِلُّ الموت. مع أنه لا ظلم في يدي وصلاتي خالصة»، فقد كنت باراً وكاملاً، ومع ذلك فإن الله ــ تعالى الله عن ذلك ــ ظلمني وعذَّبني وعدا عليَّ كجبار.. لم يشفق عليَّ ولم يرحمني».

ويستمر أيوب في هذه المناحة وهذا التجديف والكفر الصريح حسب زعمهم.. ويعلن: «رجوت الهاوية بيتاً لي. وفي الظلام مهَّدتُ فراشي. وقلتُ للقبر أنت أبي، وللدود أنتِ أمي وأختي. فأين إذاً آمالي؟ من يعاينها؟ من يهبط إلى مغاليق الهاوية إذ نرتاحُ معاً في التراب؟!».

ويتكلم يلدد الشوحي مرة أخرة يحاول أن يردَّ أيوب إلى الجادة وإلى طريق الله وإلى الثقة بالله والأمل فيه والبعد عن اليأس والقنوط ويرجِّيه رحمة الله ويخوِّفه من

عـذابه، فـلا يزداد أيـوب حسب زعم مؤلف هذا السفـر إلاّ عتواً ونفـوراً ويأسـاً وظلمـة واعتراضاً على الله، وكفراً به واتهاماً له بالظلم والجهل والاغترار بقوته وجبروتـه. . وأنه يسمـع كلام الشيطان ويتّبعه في نصائحه المرذولة، ويستمـع إلى الأشرار الذين يغرونـه بأن ينكِّل بعبده البارّ الكامل أيوب!!!!

يـرد أيـوب على أصحـابـه ويقـول: «اعلمـوا إذن أنّ الله قـد عـوَّجني ولفَّ عليَّ أُحبـولته. هـا إني أصرخ ظلمـاً فلا أُستجـاب. أدعـو وليس حَكَمْ. قـد حـوّط طـريقي فلا أعبر، وعلى سُبُلي جعل ظلاماً. أزال عني كرامتي ونـزع تاج رأسي. . هـدمني من كـل جهة فـذهبتُ، وقلـع شجرة رجـائي وأضرم عليَّ غضبـه وحسبني كأعـدائـه. معـاً جاءت غزواته. . قد أبعـد عني إخوتي. ومعـارفي زاغوا عني. أقـاربـي قد خـذلوني، والذين عرفوني نسوني. نزلاء بيتي وإمائي يحسبونني أجنبياً. صـرت في أعينهم غريبـاً ــ ألم يهلكهم الله حسبمـا مـرَّ معنـا من قبـل؟! ــ عبـدي دعـوتُ فلم يجب. بفمي تضرَّعت إليه. نكهتي مكروهة عنـد امرأتي، وخممت ــ أي صـرت خامّـاً منتناً ــ عنـد أبنـاء أحشـائي، ــ المفـروض أنهم قـد مـاتـوا ــ الأولاد أيضـاً قـد رذلـوني. إذا قمت يتكلمـون عليَّ. كرهني كـل رجالي، والـذين أحببتهم انقلبوا عليَّ. عـظمي قـد لصق بجلدي ولحمي. . ونجوت بجلد لساني!!».

ويردُّ صوفر النعماني للمرة الثالثة ليعيد أيوب إلى رشده وإيمانه. ولكن هيهـات، فكاتب هذا السفر ــ عليه اللعنات ــ مصمِّم على تلويث أيوب كما لوَّث أسلافه الأنبياء الآخرين من قبل.

يـردّ أيوب ويقـول: «لماذا تحيـا الأشرار ويشيخـون ويتجبَّرون؟ قـوة نسلهم قائم أمامهم معهم وذريتهم في أعينهم. بيوتهم آمنة من الخوف وليس عليهم عصا الله. .

الله يخزنُ إثمه لبنيه. . لتنظر عينـاه هلاكـه، ومن حُمةِ القـدير يشـرب. فما هي مسرَّته في بيته بعده وقد تعيَّن عدد شهوده؟!

«آلله يعلم معـرفة وهـو يقضي على العالمين؟ هـذا يموت في عين كمـالـه. كله مطمئن ساكن. أحواضه ملآنة لبناً ومـخ عظامه طري. وذلك يموت بنفس مُرّة ولم يذق خيراً. كلاهما يضطجعان معاً في التراب والدود يغشاهما».

أعوذ بالله: إنكار لعلم الله وحكمته، وكفر صريح حيث لا يرى المتحدِّث الكافر في قدر الله عدلاً. هذا يموت وأحواضه ملآنة لبناً، والآخر يموت بنفس مرَّة ولم يذق خيراً قط. وكلاهما ينتهي والدود يأكلهما!! لأنه لا قيامة ولا بعث في تصوُّر هذا الحبر اليهودي الذي كَتَب هذا السفر ونَسَبه إلى أيوب.

ويعود أليفاز التيماني إلى مجاوبة أيوب بكلام قيِّم. قال: «هل ينفع الإنسانُ اللَّهَ؟ بل ينفع نفسَه الفطنُ. هل من مسرَّة للقدير إذا تبرَّرْتَ أو من فائدة إذا قوَّمت طرقك؟ هل على تقواك يوبِّخك أو يدخل معك في المحاكمة؟ ألأنك ارتهنت أخاك بلا سبب وسلبتَ ثياب العراة!.

ماءً لم تسقِ العطشان وعن الجوعان منعت خبزاً؟! الأرامل أرسلت خاليات.. وذراع اليتامى انسحقت. لأجل ذلك حواليك فخاخ ويريعك رعبٌ بغتة، أو ظلمة فلا ترى وفيض الماء يغطيك.

«هوذا الله في علوّ السماوات. وانظر رأس الكوكب ما أعلاه. فقلتَ كيف يعلمُ الله. هل من وراء الضباب يقضي؟ السحاب ستر له فلا يرى... تعرَّف به وأسلم. بذلك يأتيك خير. اقبل الشريعة من فيه، وضع كلامه في قلبك. إن رجعت إلى القدير تُبنى... يكون القدير تِبْرك وفضة أتعاب لك، لأنك حينئذٍ تتلذذ بالقدير وترفع إلى الله وجهك تصلي له فيستمع لك ونذورك توفِّيها. وتجزم أمراً فيثبّتُ لك وعلى طرقك يضيء نوره».

كلام جميل من أليفاز التيماني يذكِّر أيوب بالله وبقدرته وبرحمته.. ويصفع المسمى أيوب ـ وهو قطعاً ليس النبي أيوب عليه السلام ـ صفعات قوية لكفرِهِ ويذكِّره بآثامه ورجسه، وكيف جَمَع الأموال من حرام، ومن أموال الأيتام، وكيف لم يشفق على الأرملة والمسكين، وكيف سلَب العراةَ ثيابهم ليزيد في ثروته، وارتهن إخوته في الإنسانية وجعلهم عبيداً لدريهمات سلَّفها لهم. «ماء لم تسقِ عطشان، الجوعان منعت خبزاً».

فأين هو البرّ والكمال الذي يتحدثون عنه؟! أين هو برّك وكمالك يا من يسمى

أيـوب؟! أفتحسب أنك عنـدما تقـدِّم بعض المحارق وشيئـاً من اللَّحم المشوي الـذي يحبُّه الرب!! أنك بذلك اكتسبت رضاه. لا لا، ذلك لا يكفي.

ويردّ أيوب بحرقة وقسوة على صاحبه أليفاز قائلاً:

«اليوم أيضاً شكواي تمرُّد. ضربتي أثقل من تنهُّدي. من يعطيني أن أجـده ــ أي الرب ــ فآتي إلى كرسيِّه». أحسنُ الدعوى أمـامه وأمـلأ فمي حججاً فـأعرف الأقـوال التي بهـا يجيبني وأفهم ما يقـوله لي؟ أبكثـرة قـوة يخاصمني؟! كـلا. ولكنه كـان ينتبه إليَّ. هنالك كان يُحاجُّـهُ المستقيم، وكنتُ أنجو إلى الأبـد من قاضيّ. **هـأنـذا أذهب شـرقاً فليس هـو هناك وغـرباً فـلا أشعرُ بـه، شمـالاً حيث عمله فـلا أنـظُرُه. يتعـطفُ الجنوب فلا أراه».**

يعترف أيوب بأنَّ شكواه تمرُّد وثورة.. ويسـأل من يدلّني على الـرب حتى أجده وأرفـع قضيتي أمامه وأسمـع ما يقوله لي.. أو يستطيـع أن يخاصمني؟! كلا لو وجدتـه لحجحجتــه وكنتُ أنجـو إلى الأبــد من قـاضيَّ.. **ولكني لم أجــده.. ذهبت شـــرقـــاً فلم أجده.. ذهبت غرباً فلم أشعر بـه.. شمالاً فلم أره.. جنـوباً فليس هـو هناك.. إذن لا إلـه». هذا هو الإلحـاد والكفر.. أصبـح أيـوب حسب قولهم وجـودياً شيـوعياً كافراً حتى بوجود الله.. ويسخر أيوب من هذا القديـر الذي لا يـرى عارفـوه يومـه.. ويرى هو الأشرار يغتصبون ويسرقون أموال اليتامى، ويرتهنون ثور الأرملة، ويصدّون الفقـراء عن الطريق، فـلا يتحرَّك ولا يغضب ولا يفعـل بهؤلاء الأشـرار الأفـاعيـل بـل يزيدهم قـوة إلى قوة، وثـراء إلى ثراء، ومنعـة إلى منعة. تفيض حيـاتهم لبناً وعسـلاً. أمـا مساكين الأرض فيختبئـون جميعاً.. ويعملون ويكـدحون ليـزداد الشـرّير غنى.. يبيتـون عراة بـلا لبس، جياعـاً بلا طعـام، والأشرار يخـطفون اليتيم عن الشـدي، ومن المسـاكين يرتهنـون. عراة يـذهبون بـلا لبس وجـائعين يحملون حـزمـاً.. يـدوسـون المعاصر ويعطشون. من الـوجـع أناس يئنـون ونفس الجرحى تستغيث. والله لا ينتبـه إلى الظلم.**

أولئك يكونون بين المتمردين على النور، لا يعرفـون طرقـه ولا يلبثون في سبله. مـع النور يقوم القاتل يقتل المسكين والفقير، وفي الليـل يكون كـاللص. وعين الزاني

تلاحظ العِشاء. يقول لا تراقبني عين فيجعل ستراً على وجهه».

ويستمر كاتب هذا السفر في هرائه وكفره وجحوده ويتحدث على لسان أيوب: **أين العدل؟ أين الرب؟ لماذا يعطي الأشرار ويمنع الأخيار؟ لماذا يقف مع المتمرِّدين على النور؟ ويسمح للقاتل أن يقتل المسكين والفقير؟. أين ذهبت عينه عندما يكون المجرم كاللص يأخذ مال الفقير واليتيم؟ أين ذهب نور بصره عندما يزني الزاني ويسرق السارق؟. أين عدله إذا كانت نهايتهم واحدة وهي الموت؟ هذا ينزل إلى الهاوية ويموت وهو راضي النفس قرير العين معه اللبن والعسل والأولاد والأموال. ويموت الفقير والمسكين بمرارة نفس وخيراً لم يرَ في حياته. الجميع يكتنفهم صمت مطبق وظلام تام.. ولا عدل يقوم ولا يبرّ البار ولا يعذَّب الشرير والآثم والقاتل.**

وهذا كله نتيجة حتمية ومنطقية لعدم الإيمان بالبعث والنشور والجزاء والحساب. فإذا لم يكن هناك يوم آخر وجزاء وحساب، فكيف يمكن أن نُبَرِّر غلبة الشرّ في الدنيا ونرى الأشرار يتنعَّمون بالأموال والبنين والذهب والفضة، ونرى الأخيار يتعذَّبون ويعيشون حياة المذلة والفقر والمهانة؟! ولا بد إذن من يوم آخر للجزاء..

الفراعنة خير من هذا الحبر اليهودي كاتب سفر أيوب وأولئك الأحبار من اليهود الذين وضعوا أسفار العهد القديم.. فالفراعنة يؤمنون باليوم الآخر والجزاء. وهؤلاء لا يؤمنون.. وتكون النتيجة الحتمية أنهم أيضاً يكفرون بوجود الله.. يقول مؤلف سفر أيوب على لسان أيوب: **«ها أنذا أذهب شرقاً فليس هو هناك وغرباً فلا أشعر به. شمالاً حيث عمله فلا أنظرهُ. يتعطف الجنوب فلا أراه». أي أنه ذهب في الجهات الأربع كلها فلم يجد لله أثراً.**

وبعد هذا كله يدَّعي كاتب السفر أنَّ أيوب عاد وقال: «حي هو الله الذي نزع حقي، والقدير الذي أمرّ نفسي. إنه ما دامت نسمتي فيَّ ونفخة الله في أنفي لن تتكلم شفتاي إثماً ولا يلفظ لساني بغش». وأي إثم أكبر من هذا الإثم وأي كلام أوقح من هذا الكلام الذي نقلنا جانباً منه.. ويعود بذلك أيوب ــ حسب زعمهم ــ إلى تقريع الله على إهماله الأشرار، ومعاقبته الأخيار، وتعذيبه هو بالذات بدون جريرة ارتكبتها

يداه، ولا جرم اجترحتها جوارحه. ويذكِّره كيف كان به رحيماً وكان يغدق عليه العطايا والنِّعَم . . أما الآن فقد تحولتَ وتغيرتَ وتبدلتَ، فأصبحتَ قاسياً عليَّ يا رب متجبِّراً عليَّ . . تضطهدني دون ظلم ولا جريرة . . تسحق عظامي، تنثر لحمي، وإلى الموت تعيدني . . . »إلخ . لقد فعلتُ الخير كله وساعدتُ الأرملة والمسكين وقدَّمتُ المحارق واللحم المشوي للرب، ومع هذا يعذِّبني الرب كل هذا العذاب دون ذنب ولا جريرة . .

ويستمر في ذلك التقريع والتوبيخ إصحاحاً وراء إصحاح ـ ٣٢ إصحاحاً ـ حتى ملَّ أصحابه الثلاثة من نصحه وتركوا مجاوبة أيوب لكونه باراً في عيني نفسه. وغضب إليهو بن برخئيل من عشيرة (رام) على أيوب، لأنه حسبَ نفسَهُ أبرَّ من الله (الإصحاح ٣٣)، وحمي غضبه على أيوب للكفر الذي قاله وبدأ يرد على أيوب ويتحدّاه ويوبخه: لماذا يخاصم الله؟ لأن الله أعظم من الإنسان . . وبدأ يردِّد أقوال أيوب ويرد عليها ويفنِّدها . . ويقول حاشا لله من الشر، وللقدير من الظلم، ويورد كلاماً جيداً. ولكن في ذلك كله لا يورد موضوع اليوم الآخر والجزاء والحساب والبعث والجنة والنار . . الجزاء عنده في الدنيا إذ إن الله يغضب على الشرير فيميته ويذلّه. كل ذلك في الدنيا أما الآخرة فلا ذكر لها البتّة في العهد القديم بأكمله لا في سفر أيوب فقط ـ عدد صفحات العهد القديم ١٣٥٨ صفحة، طبعة دار الكتاب المقدس، القاهرة ـ . . وأخذ إليهو يذكِّرُ أيوب بقدرة الله وبمخلوقاته وبسمائه وأرضه وبعجائب الله في مخلوقاته . . ولكنه لم يذكِّره أبداً بالآخرة لأن مؤلفَ أو مؤلفي العهد القديم منكرون للبعث. فلا جزاء في الدنيا . . ثم موت وهاوية وظلام ونسيان تام لكل شيء.

وأخيراً في السفر ٣٨ أجاب الربُّ أيوب وقال: «من هذا الذي يظلم القضاء بكلام بلا معرفة. اشدد الآن حقويك كرجل. فإني أسألك فتعلِّمني. أين كنتَ حين أسَّستُ الأرض؟ أخبر إن كان عندك فهم؟ من وضع قياسها؟ أو من مدَّ عليها سطماراً؟ على أي شيء قرَّت قواعدها؟ أو من وضع حجر زاويتها عندما ترنَّمت كواكب الصبح معاً وهتف جميع بني الله؟!

ومن حجز البحر بمصاريع حين اندفق فخرج من الرحم، إذ جعلتُ السحاب

لباسه والضباب قماطه، وجزمتُ عليه حدّي، وأقمتُ له مصاريع ومغاليق، وقلتُ إلى هنا تأتي ولا تتعدَّ. وهنا تتخم كبرياء لججك؟».

ويستمر في توضيح آيات الصبح.. الليل.. ينابيع البحر.. سكن النور والظلمة والشمس والقمر.. خزائن الثلج ومخازن البرد، ومواقع النجوم وعقد الثريا، وربط الجبّار، ومنازل النعش مع بناته، وسنن السمٰوات، والسحب والبروق والرعد، ومن كيَّف لهذه المخلوقات أمورها وهيَّأ لها معيشتها؟؟

أتعرف وقت ولادة وعول الصخور؟ أو تلاحظ مخاض الأيائل؟. جناح النعامة.. الفرس.. الوحوش... إلخ. إلخ.

ولا يرد في كلام الرب حسب زعمهم، على ما فيه من لفت نظر لآيات الله وعجائب مخلوقاته، أي ذكر لليوم الآخر.

وأخيراً يجيب أيوب ويقول: «ها أنا حقير فماذا أجاوبك. وضعت يدي على فمي. مرة تكلمتُ فلا أجيبُ ومرتين فلا أزيد. فأجاب الرب من العاصفة: «لعلك تناقض حكمي.. تستذنبني لكي تتبرّر أنت. هل لك ذراع كما الله وبصوت مثل صوته ترعد؟ واستمر في استعراض قوته ويحدثه عن بهيموث ــ الثور الذي على قرنه ترسو الأرض ــ[1]، ولوياثان ــ وهو حيوان مائي هائل خلقه الله يمرح في البحر وقد يقصد به التمساح ــ وقد قتل الله التنانين ــ جمع تنين ــ ورضَّ رؤوس لوياثان وتركه طعاماً لأهل البرية..

أأنت اصطدت لوياثان هذا وقتلته؟ أم أن الرب هو الذي اصطاده وقتله؟! ويستعرض الرب مخلوقاته المهولة ويتحدى أيوب أن يمسك بزمامها. فيخضع أيوب في آخر الأمر ويقول: «قد علمتُ أنك تستطيع كل شيء ولا يعسر عليك أمر، فمن ذا

---

(١) جاء في قاموس الكتاب المقدس: بهيموث: كلمة مصرية قديمة معناها ثور الماء. وبناء على ذلك فبهيموث هو فرس البحر الموجود قديماً في أرض مصر، والآن في أعالي النيل.. وأما علماء اليهود فيزعمون أن بهيموث حيوان كبير الحجم جداً ذو قدرة عظيمة ومنظره هائل، ومن شأنه أنه كان ولا يزال يسمن منذ ابتداء الخليقة إلى مجيء المسيح فإذا جاء قُدِّم عندها وليمة للمؤمنين.

الذي يخفي قضاء بلا معرفة؟ ولكني قد نطقت بما لم أفهم، بعجائب فوقي لم أعرفها، اسمع الآن وأنا أتكلم. أسألك فتعلمني. بسمع الأذن قد سمعت عنك والآن رأتك عيني. لذلك أرفض وأندم في التراب والرماد».

والغريب حقاً أن الرب حَمِي غضبه على أليفاز التيماني وصحبه لأنهم وبّخوا أيوب ومنعوه من الكفر ومن شتم الله عز وجل.

«وكان بعدما تكلّم الرب مع أيوب بهذا الكلام. أن الربَّ قال لأليفاز التيماني: قد احتمى غضبي عليك وعلى صاحبيك لأنكم لم تقولوا فيَّ الصواب كعبدي أيوب. ـ يا منتهى العجب!! ما قال هؤلاء إلاَّ الحق ولقد وبَّخوا أيوب لما سمعوه منه من كلام رديء وساخط على الله ومتبرِّم بقضائه.. وهو كله من تأليف الأحبار ـ والآن فخذوا لأنفسكم سبعة ثيران وسبعة كباش واذهبوا إلى عبدي أيوب وأصعدوا محرقة لأجل أنفسكم. وعبدي أيوب يصلي من أجلكم ـ المسألة كلها أنَّ الرب، حسب زعمهم، اشتاق للمحارق واللَّحم المشوي ورائحة الشوي، فلا بدَّ من عذر لإيجاد سبعة ثيران وسبعة كباش وحرقهم حتى يتنسَّم الرب نسيم الرضا. وبما أن أيوب مريض وقد فقد كل ثروته فلا بد أن يفعل ذلك أصحاب أيوب بحجة تافهة وهي أنهم أغضبوا أيوب ـ لأني أرفع وجهه لئلا أصنع معكم حسب حماقتكم. لأنكم لم تقولوا فيَّ الصواب كعبدي أيوب ـ قد رأينا أنهم ما قالوا إلاَّ الصواب وما قال أيوب إلاَّ الفحش والافتراء على الله ـ فذهب أليفاز التيماني ويلدد الشوحي وصوفر النعماني وفعلوا كما قال الرب لهم. ورفع الربُّ وجه أيوب. وردَّ الرب سبي أيوب لمَّا صلى لأجل أصحابه، وزاد الرب على ما كان لأيوب ضعفاً ـ السبب أنه شمَّ رائحة المشويات.. سبعة ثيران وسبعة كباش ـ. فجاء إليه إخوته وكل أخواته وكل معارفه من قبل وأكلوا معه خبزاً في بيته ورثوا له وعزّوه عن كل الشر الذي جلبه الربّ عليه. وأعطاه كل واحد منهم قسيطة وكل واحد قُرطاً من ذهب. وبارك الربّ آخرة أيوب أكثر من أُولاه. وكان له أربعة عشر ألفاً من الغنم وستة آلاف من الإبل وألف فدان من البقر وألف أتان.. وكان له سبعة بنين وثلاث بنات.. ولم توجد نساء جميلات كبنات أيوب في كل الأرض، وأعطاهن أبوهن ميراثاً بين إخوتهن. وعاش أيوب بعد هذا مئة وأربعين سنة. ورأى بنيه وبني بنيه إلى أربعة أجيال. ثم مات أيوب شيخاً وشبعان أياماً!!

هذه هي الصورة التي يرسمها سفر أيوب للنبي الكريم أيوب. . صورة بشعة مقززة. . كلها كفر وتجديف وصراخ. . تماماً مثل أخلاق اليهود. لا صبر على البلاء، ولا قدرة على التحمُّل. . مع وقاحة متناهية ومخاصمة لله ذاته. .

ويعلن مؤلف هذا السفر كفره مراراً على لسان أيوب. . ولا نجد ذكراً لليوم الآخر على الإطلاق. ويصل الكفر إلى درجة إنكار وجود الله. . ثم يعود ويؤمن بالله بعدما يظهر له الربُّ ذاته، ويكلِّمه ويوبخه. . ويوضح له عجائب صنعه فيقرّ أيوب ويعترف بذنبه. . وها هنا يستغل الرب الفرصة ـ تعالى الله عن ذلك ـ فيوجِّه لأصحاب أيوب ـ وهم من غير اليهود ـ تهمة إيذاء أيوب وشتم الرب، ويطلب منهم سبعة ثيران وسبعة كباش يصعدونها محرقة. . لأن له مدة طويلة من رائحة الشواء. . وأيوب مريض طوال هذه المدة ولم يقدم له محارق. ولا أحد في الوادي كله يقدم له المحارق. . إذن على هؤلاء أصحاب أيوب، أن يتحمّلوا ذلك ويصعدوا له بالثيران والكباش ويحرقوها حتى يتنسَّم نسيم الرضا، وإلا أنزل غضبه بهم وسحقهم. . فلما فعلوا ذلك أعلن رضاه عن أيوب وضاعف له ثروته وأمواله كلها، وأعطاه بنين وبنات وعاش مئة وأربعين سنة أخرى حتى مات وهو شبعان أياماً. .

هذه أهم نقطة في العهد القديم كله منذ إبراهيم إلى آخر ملوكهم وأنبيائهم أن يتنعَّموا في الدنيا بأكبر قدر مستطاع من المتع وأن تطول حياتهم بأقصى مدة ممكنة وأن يموتوا وقد شبعوا من الدنيا ومن متعها. . إذ ليس بعد ذلك إلاَّ الهاوية والظلام والنسيان التام.

وإذا فهمنا أسفار العهد القديم فإننا نكون قد فهمنا العقلية اليهودية فهماً جيداً. كما إننا سنفهم تماماً تأثيراتها على الغرب ومدى تغلغل هذا الفكر اليهودي فيها. والواقع أن مصدر كثير من هذه الأفكار اليهودية عقائد الأمم السابقة على اليهود، مثل قدماء المصريين والبابليين والفرس والآشوريين واليونان. . ولليونان تأثير خاص، لأن أسفار العهد القديم نُقلت من العبرية القديمة إلى اليونانية. . وضاعت كل تلك الأسفار، ثم تُرجمت من اليونانية إلى العبرية وإلى غيرها من اللغات. . لهذا دخل

الفكر اليوناني بكثافة إلى الفكر اليهودي. وسيطر الفكر اليونـاني واليهودي على الفكـر الأوروبـي المسيحي وعلى الفكر الحديث سيطرة كاملة..

ولا يستـطيـع الإنسان أن يفهم الفكـر الأوروبـي الحـديث وفلسفـاتـه إلّا إذا فهم الفكر اليونـاني ودرس دراسة وافيـة أسفار العهـد القديم ففيهـا مفتاح العقليـة الأوروبية الحديثة.

* * *

النبـي يونس ـ يونان ـ (عليه السلام)
في القرآن الكريم

يونس بن متى عليه السلام نبـيّ كريم، وَصَفَه الله سبحانه وتعالى بقوله:

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾. (الصافات: ١٣٩).

ثم قص الله سبحـانه وتعـالى علينا قصتـه العجيبـة في سـورة يـونس وفي سـورة الأنبياء وفي سورة الصافات وفي سورة القلم.

ووصفه النبـي صلى الله عليه وسلم بقوله: «مـا ينبغي لعبد أن يقـول أنا خيـر من يـونس بن متى». أخرجـه البخاري ومسلم وأحمـد في مسنده. وفي روايـة للبخـاري: «ولا أقول إن أحداً أفضل من يونس بن متى».

وقد فُسِّر ذلـك بأنـه «لا ينبغي لشخص أن يقول: أنـا أفضل من يـونس بن متى» على ظاهر الحديث، بحيث لا يتحدث هذا الشخص عن فضله. والقول الثاني: هو أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال ذلك من باب التواضـع وهضم النفس. ولا شك أنـه أفضل خلق الله أجمعين. والقول الثالث: إنه قال ذلك قبل أن يعلمه الله بأنه صلى الله عليه وسلم أفضل الكائنات طراً.

وعندما ذهب النبـي صلى الله عليه وآله وسلم إلى أهل الطائف يدعوهم إلى الله بعد أن كذَّبته قريش وزاد أذاهم لـه بعد وفـاة عمه أبـي طـالب وزوجته خـديجة، لجـأ رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حائط لعتبة بن ربيعة وأخيه شيبـة. فلما رأيـاه على تلك الحالة بعثا له بقـطف من عنب مـع خادمهمـا عدّاس. فلمـا وضـع عدّاس العنب قـال النبـي صلى الله عليـه وسلم: «بسم الله الـرحمـٰن الـرحيم»، قبـل أن يـأكـل؛ فاستغرب ذلك عدّاس وقال: لم أسمـع أحداً يقول ذلك في هذه البلاد. فسأله النبـي:

«من أي البلاد أنت»؟ فقال: من نينوىٰ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «من بلد العبد الصالح يونس»؟ فقال عدّاس: وما أدراك من يونس؟ فقال: «ذاك نبي وأنا نبي». فأكبَّ عدّاس على قدمي النبي يقبِّلهما.

وقد وصف المولى سبحانه وتعالى قصة يونس، حيث قال:

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾. (الأنبياء: ٨٧، ٨٨).

بعث الله يونس عليه السلام إلى أهل «نينوىٰ» من أرض الموصل في العراق، فدعاهم إلى الله عز وجل فكذَّبوه وتمردوا. وطال به وبهم الأمر، وهو يكرر الدعوة لهم باللين حيناً والشدة حيناً آخر، وبالتبشير تارة وبالإنذار تارة أخرى، وبالسر وقتاً وبالعلانية وقتاً آخر، ولم يجدِ ذلك فتيلاً. لم يؤمن به أحد. استمرت الأيام وضاقت نفس يونس عليه السلام.. لا أنيس ولا صديق. بلد بكامله يرفض الدعوة ويصرّ على هذا الرفض. قوم غِلاظ شِداد عُتاة القلوب عُمي الأبصار صُمّ الآذان، غلف القلوب.

ويئس يونس عليه السلام، هؤلاء قوم لا أمل فيهم. وخرج يونس من تلك القرية الظالمة. ولكنه خرج بدون أمر من الله!! لم ينتظر هذا الأمر الصريح. ظنَّ أنَّ الله سبحانه وتعالى سيعذره في انسحابه من الدعوة وتركه لهؤلاء القوم. فهو لم يتركهم إلَّا بعد أن بذل جهده كله، واستفرغه من دعوتهم بكافة الوسائل. ﴿فظن أن لن نقدر عليه﴾، أي ظن أننا لن نقدّر عليه لوماً بتركهم، لأنهم قوم فاسقون ظالمون جاحدون كافرون.

وما أن خرج يونس من «نينوىٰ» إلَّا وقذف الله في قلوبهم خوفه ورجاءه. أحسُّوا بجريرتهم. بحثوا عن يونس فلم يجدوه. كرَّروا البحث فلم يعثروا ليونس على أثر. كأنما الأرض انشقت وبلعت يونس. وأحسَّ هؤلاء القوم بالندم يعتصرهم لما فعلوه بنبي الله الكريم الذي كان بين أظهرهم، وعزموا على ترك آلهتهم والعودة لعبادة الله.

ولكن أين يونس ليدلهم عليها؟! وكان العذاب قد أوشك أن يصيبهم؛ فنفعهم ذلك الإيمان:

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ ﴾. (يونس: ٩٨).

قال ابن مسعود ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة، كما يرويه عنهم ابن كثير في كتابه «قصص الأنبياء»[1]: «فلما خرج من بين ظهرانيهم وتحققوا نزول العذاب بهم، قذف الله في قلوبهم التوبة والإنابة، وندموا على ما كان منهم إلى نبيهم، فلبسوا المسوح وفرقوا بين كل بهيمة وولدها، ثم عجّوا إلى الله عزَّ وجلَّ، وصرخوا وتضرَّعوا إليه وتمسكنوا لديه، وبكى الرجال والنساء والبنون والبنات والأمهات، وجأرت الأنعام والدواب المواشي، ورَغت الإبل وفصيلاتها، وخارت البقر وأولادها، وثغت الغنم وحملانها، وكانت ساعة عظيمة هائلة».

«فكشف الله العظيم بحوله وقوّته ورأفته ورحمته عنهم العذاب الذي كان قد اتصل بهم بسببه ودار على رؤوسهم كقطع الليل المظلم». وقد نفعهم بهذا الإيمان في الدنيا والآخرة.

«وقد كانوا مائة ألف أو يزيدون»، قيل: إنهم كانوا أكثر من ذلك بعشرين ألفاً، وقال بعضهم: بضعة وثلاثون ألفاً.. وهم دون ريب قد زادوا عن هذه المائة ألف.

ومِنْ جهة ثانية ما إن خرج يونس عليه السلام من «نينوىٰ» إلَّا وأحسَّ بكآبة وضيق يكتنفانه دون أن يعرف لهما سبباً في أول الأمر. ثم بدأ الشك يراوده: هل كان محقاً عندما ترك قريته؟ لقد كان هؤلاء القوم يرفضون دعوته بإصرار وعناد.. لقد مضت سنوات وسنوات وهو يدعوهم.. ولم يؤمن به شخص واحد!! ولكنك يا يونس قد خرجت من قريتك دون أن يأتيك الإذن من الله صريحاً..

استمر القلق والأفكار المشوّشة يسيطران على يونس عليه السلام في هذه

---

(١) «قصص الأنبياء» لابن كثير الدمشقي، ص ٢٨٦، دار القلم، بيروت.

اللحظة، وهو يحاول أن يهدِّىء من روع نفسه وقلقها، ويقول: إن الله سيعذره في تركهم. فهو لم يتركهم إلَّا بعد أن بلغ غاية الجهد في دعوتهم إلى الله، وكم من الأنبياء قبله قد تركوا أقوامهم لمَّا أعلنوا كفرهم وعنادهم.. ثم يعود يونس ويقول لنفسه: لكنهم لم يتركوا هؤلاء الأقوام إلَّا بعد أمر صريح من رب العزة والجلال. أما أنا فلم أستلم أمراً بتركهم!! ولكنك أيضاً لم تستلم أمراً بعدم المغادرة وإلَّا لَمَا فعلت..

قادته قدماه إلى شاطىء البحر، فوجد سفينة توشك أن ترحل، فدفع ما معه من نقود ليركب معهم.. رأى القبطان والنوتية في يونس شخصية مهيبة جليلة يكسوها النور والجلال.. أفسحوا له في سفينتهم بعد أن امتلأت من البضائع والركاب.. وأحسنوا معاملته.

ولكن ما أن أبحرت السفينة وبعدت عن الشواطىء حتى تحوَّل النسيم العليل إلى رياح عاتية، وتحوَّل البحر الهادىء إلى بحر ثائر مغتلم شديد الموج. واجتمع القبطان والنوتية وقرَّروا إلقاء الحمولات والأثقال في البحر فألقوها، ولكن الأمر ازداد سوءاً فقالوا: ها هنا رجل سوء أفسد علينا رحلتنا وأثار غضب الرب.

وأجروا القرعة بينهم لمعرفة هذا الرجل الخبيث الذي أغضب رب السمٰوات والأرض وأثار البحر عليهم في وقت لم يكن البحر فيه ليثور.. وجاءت القرعة على يونس.. وتعجب القوم.. وقالوا: لعلَّ هذا الرجل الذي يبدو في ظاهره الصلاح والتقوى خبيث النفس سيِّىء الطوية مظلم السريرة. ولكنهم لم يتعجَّلوا أمرهم؛ فأعادوا القرعة ثانية وثالثة. وتحوَّل الشك إلى يقين.. إنه هو الذي جرَّ عليهم غضب الجبار. فألقوه في البحر الهائج المضطرب. وسرعان ما هدأت الأمواج وسكن عصف الرياح وسارت السفينة في هواء منعش جميل يدفع الأشرعة ويسير بالسفينة نحو غايتها وخطتها المرسومة.

كان الوقت ليلاً، وأَمَر الله حوتاً من الحيتان الضخمة (Whales) أن تتبع السفينة.. وما أن ألقىٰ القوم بيونس في لجج البحر إلَّا والتقفه الحوت، فغر فاه، واندفع يونس مع المياه إلى بطن الحوت. لم يمضغه الحوت، لم يطحنه. توقفت إفرازات المعدة الهاضمة عن عملها بأمر الله. واشتد الكرب على يونس.

ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل، ظلمات بعضها فوق بعض. إنه يتكوّر ويتنفس بطريقة عجيبة جداً لا تخطر على بال بشر، طريقة لم يعرفها البشر ولن يعرفوها. لأنها طريقة خاصة بيونس جعلها الله له وحده.

ومع كلّ نفس من أنفاس يونس كان صوته الخافت يقول: لا إلّه إلّا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين. لا إلّه إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

لا ندري كم من الزمن مضى ويونس في هذه الظلمات وهذا الكرب العظيم. على أيّة حال ما فائدة الزمن؟ الدقيقة ها هنا تساوي عمراً بأكمله. والساعة تعدل دهوراً.

ولكن يونس لم يقنط من رحمة ربه. وأنّى له أن يقنط!! استمرَّ في تسبيحه. والله العلي القدير يسمعه من فوق سبع سماواته فيرحمه ويتعطف عليه؛ ويأمر الحوت بأن يلقيه على الشاطىء. ويأمر الله نبتة من اليقطين ــ من القرع ــ أن تنمو على يونس وتظلّله بأوراقها على غير عادة القرع الذي يحبو على الأرض دون ساق.

وسخَّر الله له وعلة أو ظبية يشرب من لبنها حتى قَوِي بدنه فتحرك إلى قومه نادماً على تركه لهم. فإذا المدينة بأكملها تخرج فَرِحة هَزِجة عندما سمعت بنبأ قدومه. مائة ألف أو يزيدون، يسلِّمون عليه بالنبوة ويعلنون إسلامهم وتوبتهم.

وتمتلىء العيون والمآقي بدموع الفرح، ويبكي يونس وقومه بكاء تتخلله الابتسامات. ها قد منَّ الله علينا ــ أنجاني من بطن الحوت وظلمات البحر ــ وأنجاكم من ظلمات الكفر والضلال.

وسجَّل الله ذلك كله في آيات تتلى في جنبات الكون وتتردد أصداؤها بين أهل الأرض وأهل السماء.

قال تعالى:

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ ﴾. (يونس (٩٨).

وقال تعالى:

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾. (الأنبياء: ٨٧، ٨٨).

وقال عزَّ مِن قال:

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾.

(الصافات: ١٣٩ ــ ١٤٨).

وقال تعالى:

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

(القلم: ٤٨ ــ ٥٠).

يونان ــ يونس بن متى ــ في العهد القديم:

يرد سفر صغير مكوَّن من أربعة إصحاحات ــ فصول ــ باسم يونـان ــ أي يونس عليه السلام ــ ضمن أسفار العهد القديم المعروف باسم الأسفار النبوية.

ويبدأ السفر هكذا: «وصار قول الرب إلى يونان بن أمتـاي قائـلاً: قم اذهب إلى نينوىٰ، المدينة العظيمة، ونادِ عليها لأنه قد صعد شرهم أمامي».

ويذكر الأستاذ زكي شنوده في كتابه «المجتمـع اليـهـودي»: أن يونـان بن أمتاي

كان من سبط زبولون من أهالي مدينة «جت حافر» التي تبعد ثلاثة أميال فقط عن مدينة الناصرة ــ المدينة التي ينسب إليها عيسى فيقال يسوع الناصري ــ . وقد عاش في القرن الثامن للميلاد في عهد يربعام الثاني ملك مملكة الشمال ــ إسرائيل ــ . وبذلك كان معاصراً للأنبياء عاموس وهوشع في مملكة الشمال ــ إسرائيل ــ وأشعيا وميخا في مملكة الجنوب ــ يهوذا ــ .

ولا يذكر العهد القديم هذه المعلومات، ولست أدري من أين أتى الأستاذ شنوده بهذه المعلومات ومدى مصداقيّتها.

بالنسبة لنا، ليس لدينا من مصدر تاريخي في قصة يونس سوى ما ذكره القرآن الكريم وأحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم. وهي جميعها لم تعيّن زمنه وإن عيَّنت مكانه. وقد أخبرنا الله سبحانه وتعالى أنه لا يرسل إلى قوم إلّا نبياً منهم ــ أو له صلة قرابة ومصاهرة معهم ــ فيحدِّثهم بلسانهم ليفهموا عنه ويكون أقرب إلى الإعذار والإنذار.

وزَعْمُ الأستاذ شنوده بأن يونان (يونس) بن أمتاي (متى) من نسل زبولون بن يعقوب، فيه نظر لدينا، لأن يونس بعثه الله إلى نينوىٰ بالموصل في العراق، وأهل نينوىٰ كانوا من الكلدانيين ولم يكونوا من بني إسرائيل. وكانت لهم لغة تختلف عن اللغة العبرية التي كان يتكلّم بها بنو إسرائيل، والتي كانت سائدة فيهم في ذلك الزمان ــ القرن الثامن قبل الميلاد ــ .

على أية حال تختلف القصتان: تلك الواردة في القرآن الكريم وتلك الموجودة في العهد القديم، اختلافاً كبيراً في كثير من التفاصيل. وإن كانت هناك نقاط التقاء ليست بالقليلة.

تبدأ القصة في سفر يونان بنداء من الله ليونان ليذهب من بلدته إلى نينوىٰ، لأن شرهم قد صعد إلى السماء.

وهرب يونان من أمر الرب وذهب إلى يافا وركب سفينة متجهة إلى ترشيش ــ في أسبانيا ــ فأرسل الرب ريحاً شديدة كادت تكسر السفينة، فخاف الملاحون

وصرخوا كل واحد إلى إلـهه. وطرحوا الأمتعة التي في السفينة إلى البحر ليخفّفوا عنها. وكان يونان ــ يونس ــ نائماً نوماً ثقيلاً في وسط هذه العاصفة. فجاء إليه رئيس النوتية وأيقظه قائلاً: «قم اصرخ إلى إلـهك عسى أن يفتكر الإلّه فلا نهلك».. وألقوا القرعة فوقعت القرعة على يونان. فسألوه عن أمره فأخبرهم أنه عبراني وأنه هارب من وجه الرب، ولذا فهو خائف من الرب إلّه السماء الذي صنع البر والبحر. ولمّا زاد البحر اغتلاماً طلب منهم أن يلقوه في البحر ليسكن، فلمّا ألقوه سَكَن على الفور «فخاف الرجال من الرب خوفاً عظيماً وذبحوا ذبيحة للرب».

وما أن أُلقِيَ يونان حتى التقمه الحوت وبقيَ في بطنه ثلاثة أيام بلياليها.. وفي جوف الحوت دعا يونان ربه وناداه بصلاة خاشعة متبتّلة. فأمر الربُّ الحوتَ فقذف يونان إلى البر.

وأمر الربُّ يونان أن يذهب إلى نينوىٰ، فذهب إليها وآمن أهل نينوىٰ «ولبسوا مسوحاً من كبيرهم إلى صغيرهم»، وخلع الملك رداءه وتغطّى بمسح وجلس على الرماد.. ونادوا بصوم للجميع وصرخوا إلى الله بشدة وأعلنوا توبتهم وندمهم وبكوا بكاءً شديداً. «**لعلَّ الله يعود ويندم ويرجع عن حمو غضبه**»!! (سفر يونان ٣: ٩)، «فلما رأى الله أعمالهم أنهم رجعوا عن طريقهم الرديئة ندم الله على الشر الذي تكلم أن يصنعه بهم فلم يصنعه». (سفر يونان ٣: ١٠).

ونفاجأ بموقف غريب جداً من يونان. فبدلاً من أن يفرح بتوبة أهل نينوىٰ ورجوعهم إلى الله نراه يغتم غماً شديداً ويغتاظ!! «فغمَّ ذلك يونان غماً شديداً فاغتاظ وصلّى إلى الرب. وقال: آه يا رب أليس هذا كلامي إذ كنتُ بعدُ في أرضي. لذلك بادرتُ إلى الهرب إلى ترشيش لأني علمت أنك إلّه رؤوف ورحيم بطيء الغضب وكثير المرحمة، ونادم على الشر. فالآن يا رب خذ نفسي مني لأن موتي خير من حياتي. فقال الرب: هل اغتظت بالصواب؟!». (سفر يونان ٤: ١ ــ ٤).

وهو موقف في منتهى الغباء والتعقيد ولا يمكن أن يخطر على بال بشر سوى أن يكون حبراً من أحبار اليهود الذين كتبوا هذا السفر.

الموقف الطبيعي أن يُسرَّ هذا النبي الكريم بقبول قوم نينوىٰ دعوته وبإنابتهم إلى

الله، واعترافهم بذنوبهم، وطلبهم المغفرة من الله. وسيزداد فرحه وسروره بتوبة الله عليهم. ولكننا هنا نفاجأ بموقف في منتهى الغرابة. إنَّ النبي الكريم يغتم غماً شديداً لأن القوم آمنوا وندموا على ما قدَّموا وتابوا إلى الله توبة نصوحاً. . وزاد غمَّهُ وغيظه لأن الله تاب عليهم!! ولا يفعل ذلك إلاَّ حبر من أحبار اليهود ـ عليهم لعائن الله ـ ويونس بريء من ذلك ولا ريب.

ثم طلب يونس من الله أن يُميته ويُريحه من هذا العذاب حتى لا يرى رحمة الله تنزل على قوم نينوىٰ. ويعاتب الله قائلاً له: أليس من الأفضل أنك كنت تركتني لأذهب إلى ترشيش بعيداً عن هؤلاء القوم الذين بمجرد أن وصلت إليهم تابوا إلى الله ولم تُنزل بهم عقابك؟!

وغضب يونان ـ حسب زعمهم ـ جداً، وخرج من المدينة المؤمنة وصنع لنفسه مظلة، لعل الله يغيِّر كلامه فيُنزل عقابه بهؤلاء القوم على جرائمهم السابقة، ولعله يرفض توبتهم. ولكن الله أنبت له يقطينة وسرعان ما أظلت رأسه في خلال لحظات. وفرح يونان باليقطينة فرحاً عظيماً. وعندما طلع فجر اليوم التالي وجد دودة قد أكلت اليقطينة وقضت عليها؛ فاغتمَّ يونس غماً شديداً. فناداه الرب قائلاً: «أنت شفقت على اليقطينة التي لم تتعب فيها ولا ربيتها، أفلا أشفق أنا على نينوىٰ المدينة العظيمة التي يوجد فيها أكثر من اثنتي عشرة ربوة من الناس ـ لعل الربوة هي عشرة آلاف ـ الذين لا يعرفون يمينهم من شمالهم وبهائم كثيرة». (سفر يونان ٤: ٥ ـ ١١). وتنتهي القصة هكذا. .

وفي القصة مواقف متشابهة لما في القرآن الكريم، وخاصة مناجاة يونس لربه وهو في بطن الحوت. ولكن الموقف المتناقض هو غيظ يونس وغمه لأن مدينة نينوىٰ آمنت ولم ينزل الله عقابه عليها. «وندم الرب على الشر الذي تكلم أن يصنعه بهم!!»، والتوراة والعهد القديم مليئة بذكر ندم الله على الشر الذي فعله أو سيفعله!! وهو تعبير وقح من حاخام وقح.

* * *

الأنبيـاء المتأخِّـرون

يقسم أهل الكتاب الأنبياء الذين ظهروا في كتب العهد القديم إلى قسمين:

● **الأنبياء المتقدِّمـون:** وترد قصصهم في الأسفار الخمسة (التكـوين، الخروج، اللاويين، العـدد، التثنيـة)، وسفـر يشـوع وصمـوئيـل الأول والثـاني. والملوك الأول والثـاني ــ رغم أن سفر الملوك يـذكر عـدداً من الأنبياء والمتـأخِّرين بعـد وفاة سليمـان وانقسام المملكة إلى مملكتين صغيرتين هما مملكة إسرائيل في الشمال ومملكـة يهوذا في الجنوب ــ .

● **الأنبياء المتأخِّرون:** وهم عدد كبير جداً من الأنبياء الذين يرد ذكر بعضهم في سفرَي الملوك، كما أن عدداً من هؤلاء الأنبياء قام بتأليف سفر خاص بـاسمه، أو قـام تلاميذه أو الأحياء من بعده ونسبوا إليه سفراً. وهؤلاء هم أشعيا وأرميا وباروخ وحـزقيال ودانيال وهوشـع ويوئيل وعاموس وعوبديا ويونان وميخا وناحوم وحبقـون وصفينا وحجي وزكريا وملاخي.. ومنهم أنبياء كثيرون آخرون لم تكن لهم أسفار خاصة أو كانت لهم أسفار ولم تدخل ضمن أسفار العهد القديم.

وقـد استعرضنـا في فصول خـاصة قصص الأنبيـاء الكبار الـذين ورد ذكـرهم في أسفار التوراة والعهـد القديم ابتـداء من آدم عليه السـلام إلى سليمان عليـه السلام.. وقارنّا سيرتهم الملوَّثة في هذه الأسفار بسيرتهم الناصعة النقية في القرآن الكريم.

وسنستعـرض هـٰهنـا الأنبياء الـذين لم نتعـرض لهم هنـاك بـإيجـاز شـديـد لأن دورهم، وإن كان مهماً في تاريـخ بني إسرائيل، إلاَّ أنه أقل أهمية ممن سلف.. ثم إن القرآن الكريم لم يذكرهم، سـوى اثنين منهم هما إليـاس وإليشـع، وكذلـك الأحاديث

النبوية إلاَّ على صورة إجمالية. . ولهذا فليس لدينا من مرجع موثوق به نستطيع أن نَزِن به أقوال أسفار العهد القديم في هؤلاء الأنبياء، وهل هذه الأقوال ملفقة أم لا؟ ولكنّا نسترشد بما ينبغي أن يكون للأنبياء من عصمة. وننزِّههم أن يرتكبوا الموبقات مثل الزنى أو الكذب أوعبادة الأوثان، بل إنّا ننزّهُ هؤلاء الأنبياء أن يرتكبوا الصغائر فضلاً عن الكفر والكبائر.

وأما الأمور التي ليس فيها مساس بدين وأخلاق هؤلاء الأنبياء فهي أمور تحتمل الوقوع ونثبتها كما هي. . وليس لدينا دليل لإثباتها أو نفيها سوى ما يذكره علماء التاريخ والآثار.

إيليا ــ إلياس ــ عليه السلام في القرآن الكريم:

قال تعالى في سورة الصافات:

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥) اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٢٩) سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٣٢)﴾. (الصافات: ١٢٣ ــ ١٣٢).

أورد ابن كثير الدمشقي في كتاب «قصص الأنبياء» قصة إلياس عليه السلام، وقال: هو إيليا أو إلياس التشبي وإنه من نسل هارون عليه السلام من بني لاوي.

وقد أُرسل إلى قومه وكانوا قد تركوا عبادة الله واتخذوا عبادة البعل ــ في عهد الملك آخاب بن عمري ملك إسرائيل وزوجته الصيدونية إيزابيل التي نشرت عبادة البعل في مملكة الشمال ــ إسرائيل ــ . . وكذَّبه قومه، وهرب منهم واختفى في كهف جبل أربعين ليلة تأتيه الغربان برزقه.

وقد وردت أحاديث كثيرة عن إلياس ــ إيليا ــ قال عنها ابن كثير: إنها كلها ضعيفة أو موضوعة. وذكر مكحول عن كعب الأحبار: أربعة أنبياء أحياء اثنان في الأرض: إلياس والخضر، واثنان في السماء: إدريس وعيسى عليهم السلام.

وذكر وهب بن منبه ــ أيضاً من أحبار اليهود الذين أسلموا في زمن الصحابة ــ : أنه لمَّا كـذَّبه قـومه دعـا الله سبحانـه وتعالى أن يقبضـه؛ فجاءتـه دابة لـونها لـون النار فركبها. وجعل الله له ريشاً وألبسه النور وقطـع عنه لذة المطعم والمشرب وصـار ملكياً بشرياً، سماوياً أرضياً، وأوصى اليسع ــ اليشع ــ بن أخطوب. قال ابن كثير: ففي هذا نظر. وهو من الإسرائيليات التي لا تصدق ولا تكـذب، بل الـظاهر أنَّ صحتهـا بعيدة ــ وهي موجودة بكاملها في سفر الملوك الثاني (٢ : ١ ــ ١٨) كما سيأتي معنا ــ .

وذكر ابن كثير اجتماع إلياس بالنبـي صلى الله عليه وسلم الذي أخرجه البيهقي. وقد قال البيهقي عنه: هذا حديث ضعيف بمرة. وقـد أخرجـه الحاكم النيسـابوري في المستدرك على الصحيحين، وأنكر ذلـك عليه ابن كثيـر، وقال: هـذا حديث مـوضوع وهو مما يستدرك على المستدرك. وقـد ساق ابن عسـاكر أيضـاً هذا الحـديث من طرق أخرىٰ واعترف بضعفهـا. وقد أورد ابن عسـاكر طـرقاً فيمن اجتمـع بـإلياس من العبـاد وكلها، كما يقول ابن كثير، لا يفرح بها لضعف إسنادها أو لجهالة المسنَد إليه فيها.

وقد أثنى الله سبحانه وتعالى على إلياس ــ إيليا ــ . وقال تعالىٰ: ﴿وتركنا عليـه في الآخـرين. . .﴾، أي أبقينا بعـده ذكراً حسنـاً له في العـالمين فلا يـذكر إلا بخيـر. ولهذا قال تعالى: ﴿سلام على إلياسين﴾، أي سلام على إلياس. والعرب تُلحق النون من أسماء كثيرة مثل إسماعيل إسماعين وإسرائيل إسرائين. وقرأ بعضهم: ﴿سلام على آل ياسين﴾، أي على آل محمد صلى الله عليه وسلم.

وفي رواية عن ابن مسعود أن إليـاس هو إدريس، حكى هـذا القول ابن إسحـاق وقتادة. وقال ابن كثير: والصحيـح أنه غيره كما تقدم.

وقد أورد الأستاذ أحمد بهجت في كتابه «أنبياء الله» بعضـاً من نصائـح إيليـا نقلاً عن إنجيل برنابا جـاء فيه: «إيليـا عبد الله يكتب هـذا لجميـع الذين يبتغـون أن يسيروا مـع الله خـالقهم. . إن من يطلب كـلاماً مـزوقاً لا يـطلب الله. . على من يشتهـون أن يطلبوا الله أن يُحكموا إغلاق بيتهم ونوافذه لأن السيـد لا يرضى أن يـوجد خـارج بيته، حيث لا يحب، فاحرسوا مشاعركم واحرسوا قلوبكم، لأن لا يوجد خارجاً عنّـا في هذا العالم الذي يكرهه. .

على من يريدون أن يعملوا أعمالاً صالحة أن يلاحظوا أنفسهم، لأنه لا يجدي المرء نفعاً أن يربح كل العالم ويخسر نفسه.

على من يريدون تعليم الآخرين أن يعيشوا أفضل من الآخرين، لأنه لا يُستفاد بشيء ممن يعرف أقل منّا نحن، فكيف إذن يصلح الخاطىء حياته، وهو يسمع من هو شرٌّ منه يعلّمه!!

على من يطلبون الله أن يخرجوا مرة كل ثلاثين يوماً إلى حيث يكون أهل العالم، لأنه يمكن أن يعمل في يوم واحد أعمال سنتين من خصوص شغل الذي يطلب إليه..

عليه متى تكلم أن لا ينظر إلاّ إلى قدميه.. وأن لا يقول إلاّ ما كان ضرورياً.. وعليهم متى أكلوا أن يقوموا عن المائدة وهم دون الشبع.. مفكّرين كل يوم أنهم لا يبلغون اليوم التالي.. وصارفين وقتهم كما يتنفس المرء ـ أي يحافظون على أوقاتهم ـ..

ليكن ثوب واحد من جلد الحيوانات كافياً.. على كتلة التراب أن تنام على الأديم.. لتكفِ كل ليلة ساعتان من النوم.. وعليه ألا يبغضنَّ أحداً إلاّ نفسه.. وعليهم أن يكونوا واقفين أثناء الصلاة بخوف كأنهم أمام الدينونة الآتية.. فافعلوا هذا في خدمة الله مع الشريعة التي أعطاكم إياها الله على يد موسى.. لأنه بهذه الطريقة تجدون الله، وإنكم ستشعرون في كل زمان ومكان أنكم في الله وأن الله فيكم».

إيليا كما يصوره العهد القديم:

يعتبر النبي إيلياء من أعظم أنبياء بني إسرائيل، وقد عاش في القرن التاسع قبل الميلاد. ويسمى إيليا التشبي نسبة إلى مدينة «تشبة» التي قيل إنه وُلد ونشأ فيها.

وأمضى إيلياء حياته في البراري، مرتدياً ثوباً من الشعر ومتمنطقاً بمنطقة من الجلد، زاهداً في مباهج الحياة الدنيا.

وانتقل إلى مملكة إسرائيل في الشمال حيث كان يحكمها الملك آخاب بن عمري ملك إسرائيل وزوجته الصيدونية الوثنية إيزابيل التي نشرت عبادة البعل والأوثان

الأخرى في إسرائيل. وكان زوجهـا مطيعـاً لها في ذلـك. . وقد قـامت بقتل مئـات من أنبياء بني إسرائيل، حتى أن أحد قواد آخاب، ويدعى ذلك القائد عوبديا، خبَّأ مائةً من هؤلاء الأنبياء سراً في أحـد الكهوف وكـان يتعاهـدهم سراً بـالطعـام ثم سهَّل لهم أمـر الفرار من وجه إيزابيل.

وتحدى إيلياء آخاب بن عمري وإيـزابيل وجميـع الأنبيـاء الكذبـة وهم ٤٥٠ نبياً للبعـل و ٤٠٠ نبي للسواري. وقـد أوردنا قصـة تحدّيـه لهم، ووضـع ثوراً بعـد ذبحه على المحرقة دون إيقاد نار، فيدعون الرب، فأيهم أتت نار فأكلت الثور فهو الصـادق. وقـد فشل الأنبيـاء الكَذَبـة ونجـح إيلياء. وأدّى ذلـك إلى أن يقوم إيليـاء والشعب بقتل أولئك الأنبياء الكَذَبة.

وحصلت لإيلياء معجزات كثيرة، منها: أنـه أقام عنـد امرأة من بـلاد الصيدونيين فباركها ولم ينفذ من بيتها الدقيق والزيت طوال مدة القحط. كما أنَّ ابنها مرض ومات، فقام إيلياء ودعا الله فعادت الروح إلى الصبـي. . وبعد أن قَتَل إيلياء الأنبياء الكَذَبة دعا الله فنزل المطر وارتفـع القحط.

وهـرب إيلياء من وجـه إيزابيـل التي غضبت لأن إيليا قَتَـل أنبياءهـا؛ فهـرب إلى الجنوب حتى وصل إلى بئر سبـع في مملكة يهـوذا، ثم ارتحل أربعين يـوماً إلى جبـل حوريب ــ جبل سينـاء كما يقـولون ــ وهنـاك تراءى الله لـه وأرسله ليمسـح ياهـو ملكاً على إسـرائيل ويقضي على آخـاب وإيزابيـل. وليمسـح حـزائيـل ملكـاً على الآراميين ــ خروج عن دائرة إسرائيل لأول مرة ــ ويمسـح إليشـع نبياً يخلفه.

ورغم أن آخـــاب بن عَمـري كـــان يعبـــد الأوثـــان، إلاَّ أن سفـــر الملوك الأول (٢٠ : ١ ــ ٣٤) يـزعم أن الرب وقف مـع آخـاب ضد ملك الآراميين بن هـود. ومات مائة ألف رجل من جيش بن هود في يوم واحد!!

وازداد ظلم آخـاب واستولى على مـزرعة نـابـوت اليـزراعيلي، واحتـال في قتله بتهمة الكفر والزندقة. . .

وغضب الـرب لذلـك وأرسل إيليـاء التشبـي يهدده ويقـول له: «قـال الـرب في

المكـان الذي لحسَت فيـه الكلاب دم نـابوت تلحس الكـلاب دمك أيضـاً»، فـاتضـع آخاب وشقَّ ثيابه وجعل مسحاً على جسده، وسـرعان مـا تراجـع الـرب عن تهديـده، وكلَّم إيليا قائـلاً: «هل رأيت كيف اتضـع آخـاب أمامي. فمن أجـل أنه اتضـع أمـامي لا أجلب الشـر في أيـامـه، بـل في أيـام ابنـه أجلب الشـر على بيتـه». (سفـر الملوك الأول ٢١: ٢٧ ــ ٢٩).

ومـع هذا رجـع الرب مرة أخرى وغيَّـر كلامـه وغضب على آخاب وجعله ينهـزم في راموت جلعاد، بعد أن جعل الـرب روح كذب في أفـواه جميـع أنبياء آخـاب!!!؟ ومات آخاب في المعركة، وأُدخل السامرة ودفن فيها. وغُسلت المركبة التي كان يركبها وعليها دم آخاب في بركة السامرة؛ فلحست الكلاب دمه حسب كلام الرب الذي تكلَّم به إيليا. (سفر الملوك الأول ٢٢: ١ ــ ٤٠).

ومَلكَ أخزيا بن آخـاب بعد أبيـه في مملكة إسـرائيل ولم تحـدث نبوءة إيليـا. . ومرض الملك أخزيا فأرسل رسلاً إلى كهنة الآلهة بعل زبوب إلـه عقـرون إن كنت أبرأ من مرضي هذا. (سفر الملوك الثاني ١: ٢)، وغضب إيليـا وصرخ في الـرسل: أليس هنـاك رب إسرائيـل!! لماذا تـذهبون إلى البعـل. . وأخبرهـم أن الـرب قد غضب على أخزيا وأنه يموت في مرضه ذاك. فمات حسب كلام الرب الذي تكلَّم بـه إيليا. (سفـر الملوك الثاني ١: ٣ ــ ١٧).

وتولى الملك بعد أخزيا بن آخـاب يهورام، ولم تصـدق أيضاً نبـوءة إيليا في أن يتولى الملك ياهو الذي مسحه إيلياء ملكـاً في أيام آخـاب، ووعده بـالملك وبالقضـاء على آخاب وزوجته ولكن ذلك كله لم يحدث. ولا يتحدث السفر عن ياهو ومـا آل إليه مصيره.

وجـاء في سفر الملوك الثـاني (٢: ١ ــ ١٨). أن إيليا ذهب مـع تلميـذه اليشـع إلى نهر الأردن «وأخذ إيليا رداءه ولفَّه وضرب الماء فانفلق إلى هنا وهناك فعبرا كـلاهما في اليبس. . وبينمـا هما يسيـران ويتكلمان إذا مـركبة من نـار وخيـل من نـار ففصلت بينهما فصعد إيلياء في العاصفة إلى السماء، وكان إليشـع يرى وهـو يصرخ: يـا أبـي! يا أبي! مركبة إسرائيل وفرسانها ولم يره بعد. فأمسك ثيابه ومزقها قطعتين. . فأخذ رداء

إيليا الذي سقط عنه وضرب الماء وقال: أين هو الرب إلّه إيلياء؟ ــ فلم ينفلق الماء ــ ثم ضرب الماء أيضاً فانفلق إلى هنا وهناك فعبر اليشع. ولما رآه بنو الأنبياء الذين في أريحا قبالته قالوا: قد استقرت روح إيليا على اليشع، فجاؤوا للقائه وسجدوا له إلى الأرض».

ويعتقد اليهود أن إيلياء سيعود في آخر الزمان. ويقول بعضهم: إنه هو المسيح المنتظر في آخر الزمان.

وقد جاء في سفر ملاخي (٤ : ٥): «هأنذا أرسل إليكم إيليا النبي قبل مجيء يوم الرب، اليوم العظيم والمخوف فيرد قلب الآباء على الأبناء، وقلب الأبناء على آبائهم. لئلا آتي وأضرب الأرض بلعن».

وقد أصبح من التقاليد المرعية لدى اليهود أن تترك كل أسرة وهي تحتفل بعيد الفصح مقعداً خالياً من أجل إيليا، ويضعون أمامه الطعام وكأس النبيذ ليأتي ويأكل ويشرب من النبيذ.

ويعتبر إيلياء من أعظم أنبياء بني إسرائيل مكانة لديهم.. بل إن مكانته لا يضاهيها إلاّ موسى.

النبي اليشع ــ اليسع ــ عليه السلام في القرآن الكريم:

قال تعالى في سورة صٓ (٤٥ ــ ٤٨):

﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ ﴾.

وقال تعالى في صورة الأنعام (٨٦):

﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾.

ذكر ابن كثير في كتابه «قصص الأنبياء» عن الحسن البصري أن اليسع ظهر بعد

إليـاس ــ وهو تلميـذ إلياس (إيليـا) كما قـد مـرَّ معنـا ــ فمكث مـا شـاء الله أن يمكث يدعوهم إلى الله مستمسكاً بمنهاج إلياس وشريعتـه حتى قبضه الله عـز وجل. ثم خلف فيهم الخلوف وعظمت فيهم الأحداث والخطايا وكثـرت الجبابـرة وقتلوا الأنبياء، وكـان فيهم ملك عنيـد طاغ، ويقـال إنه الـذي تكفل لـه ذو الكفل إن هـو تاب ورجـع دخـل الجنـة فسمي ذا الكفل. ــ لعـل ذلك الملك هـو جوشيـاهو الـذي تاب وحـطّم الأوثان وعبادة البعل وعشتروت وغيرها، وأعاد بني إسرائيل إلى عبـادة الله. وقد بـدأ إصلاحـه الـديني عام ٦٢٠ قبـل الميلاد عنـدما عثـر الكاهن حلقيـا على نسخة من التـوراة أثناء ترميم الهيكل ــ .

وقال محمد بن إسحـاق: هو اليسـع بن أخطـوب(١)، وهو من سبط أفـرائيم بن يوسف عليه السلام. وكان مستخفياً مـع إلياس ــ إيليا ــ بجبل قاسيون من ملك بعلبك ثم ذهب معه ــ أي مـع إيليا ــ فلما رُفـع إيليا إلى السماء خلفه اليسـع في قومه.

ويُقرأ اليسـع بالتخفيف والتشديد. ومنهم من قرأ الليسـع.

وتُنسب إلى اليسـع ــ اليشع ــ معجـزات كثيـرة، منهـا: أنـه أقـام من المـوت إنساناً.

النبـي اليشع ــ اليسع ــ في العهد القديم:

اليشـع بن شافاط هو تلميذ إيليا وخليفته. وقد عاش في مملكـة إسرائيـل أيضاً. وهو من سبط يساكر بن يعقوب. وكان يقيم في آبل محولة بوادي الأردن. وهو من أسرة ثرية تملك حقلاً كبيراً.

وكانت بداية نبوّته عندما وجده إيليـاء في الحقل فـطرح رداءه عليه ومسحـه نبياً. وتبعـه اليشـع في رحلته إلى نهـر الأردن وشاهـد معجزاتـه وارتفـاعـه إلى السمـاء كمـا أسلفنا.

---

(١) في سفـر الملوك الثاني من العهـد القديم أن اسمـه اليشع بن شـافاط، وأنَّ والـده كان صـاحب زرع. وكان هو في حقل أبيه فمرَّ به إيلياء وطرح رداءه فتبعه اليشع وترك والده الحقل.

وكان اليشع يتجول في المدن والقرى في مملكة إسرائيل يدعوهم لترك عبادة الأوثان والعودة لعبادة الله.

وقام اليشع بكثير من المعجزات. ومن ذلك أنه كان يأوي بعد رحلاته وتجواله إلى بيت امرأة شونمية كانت تُكرمه وتقدِّم له الطعام وتخدمه. وذات يوم مات ابنها فتضرَّع إلى الله وأعاد الحياة إلى ابنها. (سفر الملوك الثاني ٤ : ٨ ــ ٣٧).. وأطعم مائة رجل بخبز قليل. (سفر الملوك الثاني ٤ : ٤٢ ــ ٤٤).. وأبرأ نعمان السرياني من البَرص بعد أن دعا الله له بالشفاء. (سفر الملوك الثاني ٥ : ١ ــ ١٩).. ويزعمون أن وضع جثة في قبر اليشع كفيلة بإعادة الحياة إلى تلك الجثة. ويذكر سفر الملوك الثاني (١٣ : ٢٠و ٢١) أن ذلك قد حدث بالفعل.

النبي ميخا بن يملة:

وهو معاصر أيضاً لإيليا واليشع.. وعاش في زمن آخاب ملك إسرائيل وزوجته إيزابيل.. وهو الذي أنذر آخاب بأنه إذا خرج للقتال في راموت جلعاد لمحاربة الآراميين فإنه يُقتل ويُهزم، منددأ بنبوءات الأنبياء الذين زعموا لآخاب أنه ينتصر. وأخبر آخاب أن الرب قد أعلمه أنه قد جعل روح كذب في أفواه أنبياء آخاب. فغضب آخاب ورماه في السجن وانطلق للحرب فانهزم وقُتل. (سفر الملوك الأول ٢٢ : ١ ــ ٣٩).

النبي ميخا المورشتي:

وهو يختلف عن ميخا بن يملة الذي عاصر إيليا واليشع الذين عاشوا في زمن الملك آخاب بن عَمري ملك إسرائيل.

أما ميخا المورشتي فقد ظهر في مملكة الجنوب يهوذا وعاصر من ملوكها يوثام وآحاز وحزقيا. وقد لُقِّب بالمورشتي نسبة إلى القرية التي ولد فيها والتي تسمى (مورشة)، وقد عاصر ميخا النبي أشعيا. وقد كتب سفراً من أسفار العهد القديم ــ سفر ميخا ــ وقد تضمن نبوءات عن خراب السامرة وأورشليم وسبي اليهود كما تضمن نبوءات بخراب مدن الوثنيين أيضاً. وتنبَّأ بمجيء المسيح المنتظر.

ويبدأ السفر بنداء يوجهه ميخا إلى جميع الشعوب قائلاً:

«اسمعوا أيها الشعوب جميعكم. اصغي أيتها الأرض وملؤها. وليكن السيد الرب شاهداً عليكم. السيد من هيكل قدسه. فإنه هو ذا الرب يخرج من مكانه وينزل ويمشي على شوامخ الأرض فتذوب الجبال تحته وتنشقُّ الوديان كالشمع قدام النار، كالماء المنصب في منحدر، كل هذا من أجل إثم يعقوب ــ يقصد أبناء يعقوب اليهود ــ ومن أجل خطيئة بيت إسرائيل. ما هو ذنب يعقوب؟ أليس هو السامرة ــ عاصمة مملكة إسرائيل في الشمال ــ وما هي مرتفعات يهوذا؟ أليست هي أورشليم. فاجعل السامرة خربة في البرية مغارس للكروم.. وجميع تماثيلها المنحوتة تُحطَّم وكل أعقارها تُحرق بالنار، وجميع أصنامها أجعلها خراباً لأنه من عُقرِ الزانية جَمَعتها وإلى عُقرِ الزانية تعود».

«من أجل ذلك أنوح، أمشي حافياً وعرياناً أصنع نحيباً كبنات آوىٰ ونوحاً كرعال النعام. لأن جراحاتها عديمة الشفاء، لأنها قد أتت إلى يهوذا، وصلت إلى شعبي.. إلى أورشليم!!».

ويستمر ميخا يوبِّخ بني إسرائيل على فجورهم وعلى عبادتهم الأوثان، وعلى «الظَلَمة الذين يصنعون الشر ويغتصبون الحقول والبيوت من الضعفاء، والذين يكرهون الحق ويعوجون كل مستقيم».. ويتحدث عن «الذين يبنون صهيون بالدماء وأورشليم بالظلم. رؤساؤها يقضون بالرشوة وكهنتها يعلّمون بالأجرة وأنبياؤها يعرفُون بالفضة.. لذلك بسببكم تُفلَحُ صُهيون، كحقل، وتصير أورشليم خرباً وجبل البيت شوامخ وعر».

وبعد هذه الإنذارات بخراب مملكة إسرائيل ومملكة يهوذا، سيأتي في آخر الزمان المسيح فينشر السلام والعدل في الأرض، ومع هذا «فجميع الشعوب يسلكون كل واحد باسم إلـهه ونحن نسلك باسم الرب إلـهنا».

فالرب ليس رب العالمين بل هو رب إسرائيل ولا يريد أحداً غيرها أن يعبده. أما الشعوب الأخرى فعليها حسب هذا القول أن تدعو آلهتها الأخرى.. ولا يغضب الربُّ لذلك. فهو ربُّ شعب إسرائيل فقط، وما دامت إسرائيل معه فليذهب الآخرون لأربابهم الكثيرين.. وليكن سلام في الأرض!!

ثم يعود بعد ذلك ليتحدث عن بقية يعقوب «فتكون كالأسد بين وحوش الوعر وكشبل الأسد بين قطعان الغنم فيفترسها جميعاً وليس من ينقذ»، ويقصد من ذلك أن إسرائيل تفترس جميع شعوب الأرض من أجل بقية يعقوب!!

ويتحدث ميخا أن الرب لا يريد كثرة محارق فقد أصابه الغثيان من كثرة المحارق واللحم المشوي.. ولأول مرة نسمع نبياً يطلب من بني إسرائيل أن يتقدموا للرب بالحب والرحمة والتواضع، ومحبة الحق والخير بدلاً من أن يتقدموا له بالمحارق. فالرب لا يريد آلاف الكباش ولا أنهار الزيت، وإنما يريد محبة الخير والتواضع لله، وصنع المعروف والبُعد عن الرذيلة. (الإصحاح السادس من سفر ميخا).

ويستمر بعد ذلك ميخا في تأنيب إسرائيل ويهوذا على الفجور الذي فعلته كل واحدة منهما.. وعلى عبادة الأوثان ويهددها بالخراب والسبي والهلاك.. ثم يذكر لهم أن بعد ذلك الخراب ستُبنى أورشليم وستأتي آشور ومدن مصر وبابل وسكان الأرض من البحر إلى البحر، ومن الجبل إلى الجبل، كلهم سيأتون إلى أورشليم خاضعين مستسلمين منقادين لشعب إسرائيل. الشعب المقدس!! الشعب الذي حلَّ فيه روح الله!! شعب الله المختار!!

النبي أشعيا بن آموص

يُعتبر أشعيا بن آموص من أنبياء بني إسرائيل المشهورين، وقد عاش في مملكة يهوذا، وعاصَر من ملوكها عزيا ويوثام وآحاز وحزقيا.. وكان في عصر أشعيا أيضاً عدد من الأنبياء مثل ميخا المورشتي.

وعندما بلغ الأربعين أعلن الله له ذاته ـ أي صار نبياً ـ في السنة التي توفي فيها الملك عزيا. وتنبَّأ أشعيا للملك آحاز بفشل الهجوم الذي سيشنه على مملكته ملك مملكة إسرائيل وملك الآشوريين، وكانا قد تحالفا ضده.. ولكنه تنبَّأ أيضاً بأن الآشوريين سيجتاحون مملكة يهوذا. وغضب الملك آحاز على أشعيا الذي اضطر

للهرب والاختفاء. . ولم يظهر أشعيا إلاّ بعد وفاة آحاز عندما وصل الملك حزقيا إلى المُلك.

وتوطدت الصلات بين أشعيا النبي وحزقيا الملك، وأصبح مستشاره. وقد نصحه بمهادنة سنحاريب ملك آشور، ولكن حزقيا لم يعمل بمشورته، وأدى ذلك إلى أن يقوم سنحاريب بالهجوم على مملكة يهوذا والاستيلاء على معظم مدنها ومحاصرة أورشليم. .

ولمّا تولى الملك منسيّ قام هذا الملك الطاغية بنشر جسد أشعيا بالمنشار.

وقد أورد ابن كثير في كتابه«قصص الأنبياء» (ص ٥٢٠) قصة النبي أشعيا، وقال عنه: إنه ممن بشَّر بعيسى وبمحمد عليهم الصلاة والسلام أجمعين. وأورد قصة عن الملك حزقيا وهو أنه استشار أشعيا عندما هجم سنحاريب على مملكة يهوذا فأخبره أشعيا بأنه سيموت. . فبكى الملك حزقيا وصلّى للرب فاستجاب الله للملك وأوحى إلى أشعيا أن يبشِّره بأنه زاد من أجله خمس عشرة سنة. وأنجاه من عدوه سنحاريب. . وشفي الملك حزقيا من قرحته عندما وضع عليها ماء التين كما أمره أشعيا. وانهزم جيش سنحاريب، ومات منهم ألوف دون قتال!!

ولمّا مات حزقيا ارتدَّ بنو إسرائيل وعبدوا الأوثان وكثر شرّهم؛ فقام إليهم أشعيا فوعظهم ووبخهم، فأمسكوا به ونشروه بالمنشار.

وقد كُتب سفر أشعيا بعد وفاته. وقد تضمَّن هذا السفر توبيخاً قاسياً لليهود بسبب عبادتهم الأوثان وفسقهم وفجورهم وقسوتهم على الضعيف. كما تضمَّن نبوءات كثيرة مثل سقوط دمشق والسامرة وامتداد سلطان دولة آشور إلى كل البلاد المحيطة بها. . ثم قيام دولة بابل واستيلائها على كثير من الممالك، ومنها مملكة يهوذا وحدوث السبي. . ثم تنبّأ بعودتهم من السبي على يد ملوك فارس وبالذات الملك قورش. ويذكر الباحثون أن هذا كله دليل على أن السفر قد كُتِب بعد النفي إلى بابل وبعد العودة إلى أورشليم.

وقد تنبّأ أشعيا بظهور المسيح ووصف في نبوءاته شيئاً كثيراً من صفات

المسيح عليه السلام. ولكنه يحدد أنه سيكون من نسل داوود بن يسي «ويخرج قضيب من جذع يسي وينبت غصن من أصوله ويحل عليه روح الرب، روح الحكمة والفهم، روح المشورة والقوة، روح المعرفة ومخافة الرب. ولذته تكون في مخافة الرب فلا يقضي بحسب نظر عينيه، ولا يحكم بحسب سمع أذنيه، بل يقضي بالعدل للمساكين ويحكم بالإنصاف لبائسي الأرض. ويضرب الأرض بقضيب فمه ويميت المنافق بنفخة شفتيه. ويكون البِرُّ منطقة متنيه والأمانة منطقة حقوَيه». . ويعتقد النصارى أن هذه النبوءة واضحة جداً في المسيح عيسى بن مريم. أما اليهود فيقولون: إنها صفات المسيح الذي سيأتي في آخر الزمان وإنه لم يأتِ بعد، وعندما يظهر سيحكم اليهود العالم. وأنَّ يسوع الناصري كذاب ــ عليهم لعنات الله ــ وأنه في لجات الجحيم. وأن معجزاته هي نوع من السحر الذي تعلّمه في مصر. ويستدلُّون على أنَّ صفات المسيح غير منطبقة على يسوع بقول أشعيا: بأن السيد الرب يجمع إسرائيل ويهوذا من أربعة أطراف الأرض إلى أورشليم. . وأن اليهود ينقضون على أكتاف الفلسطينين غرباً وينهبون بني المشرق. يكون على آدوم وموآب ــ في الأردن ــ امتداد يدهما وبنو عمون ــ في الأردن أيضاً ــ طاعتهما. ويبيد الرب لسان بحر مصر ويهز يده على النهر بقوة ريحه، ويضربه إلى سبع سواقٍ، ويجيز فيها بالأحذية. . وتكون سكة لبقية شعبه التي بقيت من آشور، كما كان لإسرائيل يوم صعوده من مصر (أرميا ١١: ١ ــ ١٦).

وهكذا حتى عند ظهور المسيح في آخر الزمان، وحدوث السلام في الأرض، حتى أن الذئب يسكن مع الخروف، ويربض النمر مع الجدي. . والبقرة والدابة ترعيان معاً. . والأسد كالبقر يأكل تبناً، ويلعب الرضيع على سرب الصل ــ الثعبان ــ ويمدّ الفطيم يده على حجر الأفعوان. يقول سفر أشعيا: إن إسرائيل ويهوذا ستدمِّر الفلسطينيين وتبيد الكنعانيين وتهلك لسان مصر وتحطِّم الآراميين والموآبيين والعمونيين. . . إلخ.

شيء في منتهى الغرابة أن لا ينسى كاتب السفر أحقاده وغلّه، حتى في اللّحظة التي يسود فيها السلام بين وحوش الغاب، وبين الأفاعي والإنسان. ولا بد إذن أن يبيد

شعب إسرائيل شعوب الأرض قاطبة، وعلى وجه الخصوص الشعوب المحيطة بإسرائيل.

ويتكرر هذا الكلام في جميع النبوءات: أشعيا وأرميا وميخا. . . إلخ، كلهم يذكر المسيح وصفاته، والسلام الذي يسود البشرية، بل والعالم أجمع، ثم فجأة يتذكر كاتب السفر أن عليه أن يغرز أحقاده وأضغانه فيعلن لعناته على الكنعانيين والفلسطينيين والمصريين. . . إلخ. . جميع شعوب الأرض ويدمرها تدميراً.

ثم يأتي كاتب آخر ويقرِّر أن لا داعي للإبادة فإن شعوب الأرض كلها ستأتي طائعة، لتلعق حذاء إسرائيل وتتمجَّد بخدمة شعب الله، لأن الله نفسه سيتجلى في هذا الشعب الذي هو أخص من جميع الشعوب، وابن الله على الحقيقة والمجاز.

النبي أرميا:

يُعتبر أرميا أيضاً من أنبياء بني إسرائيل المشهورين. . وهو أرميا بن حلقيا الكاهن الذي ادَّعى أنه وَجَد التوراة في عهد الملك يوشيا سنة ٦٢٠ قبل الميلاد.

ويُرجع الباحثون سفر التثنية إلى حلقيا الكاهن. ويقولون: إنه هو الذي بدأ كتابته، وعلى أسس هذا السفر قام الملك يوشيا بإصلاحه الديني وحطَّم عبادة الأوثان، وأعاد عبادة الله ــ يهوه ــ رب إسرائيل. . وقد أتمَّ الأحبار من بعد عهد حلقيا كتابة سفر التثنية. .

وقد ظهر أرميا في القرن السابع قبل الميلاد وعاصَر ثلاثة من ملوك مملكة يهوذا، وهم: يوشيا ويهوياقيم وصدقيا.

وأرسله الله إلى قومه وهو صغير السن، فأبدى أرميا خوفه من ذلك، ولكن الرب طمأنه قائلاً: «جعلتك نبياً للشعوب فقلت: آه ياسيدي الرب، إني لا أعرف أن أتكلم لأني ولد. . فقال الرب لي: لا تقل إني ولد، لأنك إلى كل من أرسلك إليه تذهب وتتكلم بكل ما آمرك به. لا تخَف من وجوههم لأني أنا معك. ومد الرب يده ولمس فمي. وقال الرب لي: ها قد جعلت كلامي في فمك». (أرميا ١: ١ ــ ١٠).

ولعل القارىء الكريم قد لاحظ أن أسفار التوراة والعهد القديم كلها تجسم الرب وتجعله في صورة بشر يظهر للأشخاص ويكلمهم ويضع يده عليهم وأحياناً يعاركهم كما فَعل مع يعقوب . .

وقد كتب أرميا نبوءاته على يد الكاتب باروخ، ووقع السفر في يد الملك يهوياقيم فأمر بإحراقه . . ولكن أرميا أعاد كتابته مرة أخرى.

وحين حاصَر البابليون أورشليم راح أرميا يوبخ اليهود على معاصيهم وينذرهم بالهزيمة وبدمار أورشليم، فأمر الملك بأن يوضع في السجن فبقي كذلك حتى جاء نبوخذ نصر ودمَّر أورشليم وقتل ثلث سكانها وسبى الثلث الآخر وترك ثلثاً.

وسمع نبوخذ نصّر بنبوءة أرميا، وأنه قد أخبر قومه بأنهم سيهلكون على يده وأنه سيدمر أورشليم وينتصر عليهم انتصاراً ساحقاً . . فتعجب من ذلك وأطلق سراحه وعرض عليه أن يأتي معه. ولكن أرميا فضَّل أن يبقى في أورشليم . . وجعل نبوخذ نصّر حاكماً محلياً لمن بقي من اليهود في أورشليم هو جدليا. فلما مات جدليا قام مَن بقي من أشراف اليهود بأخذ أرميا معهم إلى مصر، حيث لاقى حتفه هناك.

وقد كتب أرميا سفره المشهور بالإضافة، إلى المراثي التي بكى فيها أورشليم وما حلَّ بها من خراب ودمار، وما حلَّ بأهلها من أهوال مروعة جزاء ما ارتكبوا من معاصي وآثام، وعبادة للأوثان وتجبُّر وطغيان، وقتْل للأنبياء وانتشار للفاحشة، وظلم للضعيف والمسكين.

وكتب أرميا أيضاً رسالة معروفة باسمه وردت في الترجمة السبعينية ولكنها حُذفت من الأسفار المعترف بها. وقد ندَّد أرميا في هذه الرسالة بعبادة الأوثان بصورة خاصة.

وقد ذكر ابن كثير قصة أرميا في كتابه «قصص الأنبياء»، وذكر مطلع سورة الإسراء ومنها قوله تعالى:

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا
﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ
وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ
أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ
لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟
تَتْبِيرًا ﴿٧﴾﴾.

وذكر ابن كثير قصة أرميا نقلاً عن وهب بن منبه ــ من أحبار اليهود الذين أسلموا ــ وفيها شبه كبير لما أوردناه مع اختلاف في بعض التفاصيل وأسلوب جيد أفضل بكثير مما هو موجود في سفر أرميا ضمن ترجمة الكتاب المقدس إلى العربية.

ومن ذلك قوله: «أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل يقال له أرميا حين ظهرت فيهم المعاصي: أن قُم بين ظهراني قومك فأخبرهم أن لهم قلوباً ولا يفقهون، وأعيناً ولا يبصرون، وآذاناً ولا يسمعون، وأني تذكرتُ صلاح آبائهم فعطفني ذلك على أبنائهم. فسلهم كيف وجدوا غِبَّ طاعتي؟ وهل سعد أحد ممن عصاني بمعصيتي؟ وهل شقي أحد ممن أطاعني بطاعتي؟ إن الدواب تذكر أوطانها فتنزع إليها، وإن هؤلاء القوم تركوا الأمر الذي أكرمت عليه آباءهم والتمسوا الكرامة من غير وجهها.

أما أحبارهم فأنكروا حقي، وأما قراؤهم فعبدوا غيري، وأما نساكهم فلم ينتفعوا بما علموا، وأما ولاتهم فكذبوا عليَّ وعلى رُسلي. خزنوا المكر في قلوبهم وعوَّدوا الكذب ألسنتهم. وإني أقسم بجلالي وعزتي لأهيجنَّ عليهم جيولاً لا يفقهون ألسنتهم ولا يعرفون وجوههم ولا يرحمون بكاءهم، ولأبعثنَّ فيهم ملكاً جباراً قاسياً له عساكر كقطع السحاب، ومواكب كأمثال الفجاج، كأن خفقان راياته طيران النسور، وكأن حمل فرسانه كرُّ العقبان، يعيدون العمران خراباً، ويتركون القرى وحشة. فيا ويل إيلياء ــ القدس ــ وسكانها كيف أذلّلهم للقتل وأسلّط عليهم السبا، وأعيد بعد لجب الأعراس صراخاً، وبعد صهيل الخيل عواء الذئاب، وبعد شرفات القصور مساكن السباع، وبعد ضوء السرج وهج العجاج، وبالعز الذل، وبالنعمة العبودية، وأبدلنَّ نساءهم بعد الطيب التراب، وبالمشي على الزرابي الخبب، ولأجعلنَّ أجسادهم زبلاً

للأرض وعظامهم ضاحية للشمس، ولأدوسنهم بألوان العذاب. . . ثم لآمرن السماء فتكون طبقاً من حديد والأرض سبيكة من نحاس، فإن أمطرت لم تنبت الأرض، وإن أنبتت شيئاً في خلال ذلك فبرحمتي للبهائم، ثم أحبسه في زمان الزرع وأرسله في زمان الحصاد، فإن زرعوا في خلال ذلك شيئاً سلَّطْتُ عليه الآفة، فإن خلص منه شيء نزعت منه البركة، فإن دعوني لم أجبهم، وإن سألوني لم أعطهم، وإن بكوا لم أرحمهم، وإن تضرعوا صرفت وجهي عنهم»[1].

النبي دانيال:

نشأ دانيال النبي في مدينة أورشليم ــ القدس ــ وكان معاصراً لأرميا. ولمّا هجم نبوخذ نصّر على مملكة يهوذا وحطّمها سنة ٥٨٧ قبل الميلاد أخذ خلقاً كثيراً من أهلها سبايا. وكان ممن أخذ معه النبي دانيال.

وقد اختار نبوخذ نصّر ثلاثة من نبهاء اليهود ليخدموه في قصره وهم: حنانيا وميشائيل وعزريا ومعهم دانيال. وقد أحسنوا خدمة الملك نبوخذ نصّر؛ فارتقت منزلتهم عنده، وقد غيَّر الملك أسماءهم اليهودية وأبدلها بأسماء بابلية.

ورأى نبوخذ نصّر حلماً مزعجاً ذات ليلة، فطلب مَن يفسِّر له الحلم ويؤوّله فلم يستطع أحد من رجاله وكهّانه أن يفعل، فعرض الأمر على دانيال ففسَّر له الحلم؛ وسُرَّ الملك بذلك؛ وعيَّن دانيال رئيساً لجميع قضاة بابل.

ولمّا مات نبوخذ نصّر تولى بعده بيلشاصر، واستطاع دانيال أن يطوِّر علاقته به، وخاصة بعد أن فسَّر له حلماً مزعجاً. وتولى دانيال مناصب هامة في الدولة البابلية، وكان من رجال القصر.

ولكن الغريب حقاً هو أن دانيال ومجموعة اليهود الذين وصلوا إلى البلاط

(١) نقلاً عن «قصص الأنبياء»، للإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير، دار القلم، بيروت، ص ٥٢٣ وما بعدها.

الملكي البابلي، سرعان ما بدَّلوا ولاءهم لمن أحسن إليهم، وذلك عندما انتصر دارا الفارسي على البابليين.

وقدَّم اليهود خدماتهم للسيد الجديد. واستطاع دانيال أن يتقرَّب إلى الملك الفارسي حتى أصبح الوزير الأول في مملكته.

ولكن أعداء دانيال، وهم كثر، دسّوا للملك أن دانيال يخفي دينه، وأنه لا يحترم الملك ولا دينه، وأنه يتوجَّه بصلاته لإله اليهود مستقبلاً أورشليم. فغضب الملك وطرحه في جب الأسُود. ولكن الأسُود لم تفترسه كما جاء في سفر دانيال، بل لم تمسسه.

فلمّا رأى الملك دارا ذلك أخرجه من الجب وأكرمه.

واستمر دانيال في منصبه إلى عهد قورش.

وقد كتب دانيال ــ أو أحد تلاميذه ــ سيرته ونبوءاته في السفر المعروف باسم دانيال، وسجَّل قصته مع ملوك بابل: نبوخذ نصّر وبيلشاصر، ثم قصته مع الملك الفارسي دارا.

وفي الكتاب رؤى رمزية كثيرة، منها وأولها: رؤيا الملك نبوخذ نصّر. . وقد جاء فيها ما يلي: «أنت أيها الملك كنت تنظر وإذا بتمثال عظيم. . هذا التمثال البهي جداً وقف قبالتك ومنظره هائل. رأس هذا التمثال من ذهب جيد، صدره وذراعاه من فضة. بطنه وفخذاه من نحاس. ساقاه من حديد. قدماه بعضهما من حديد والبعض من خزف. كُنتَ تنظر إلى أن قطع حجر بغير يدين فضرب التمثال على قدميه اللتين من حديد وخزف فسحقهما؛ فانسحق حينئذٍ الحديد والخزف والنحاس والفضة والذهب معاً، وصارت كعصافة البيدر في الصيف، فحملتها الريح فلم يوجد لها مكان. أما الحجر الذي ضرب التمثال فصار جبلاً كبيراً وملأ الأرض كلها».

وأخبر دانيال الملك بتفسير ذلك الحلم قائلاً له: أنت أيها الملك ملك الملوك. . . فأنت هذا الرأس من ذهب، وبعدك تقوم مملكة أخرى أصغر منك، ومملكة ثالثة أخرى من نحاس فتسلط على كل الأرض، وتكون مملكة رابعة صلبة

كالحديد تسحق كل شيء. وبما أن القدمين بعضها من خزف وبعضها من حديد، فإن هذه المملكة تنقسم ويكون بعضها قوياً كالحديد، وبعضها هشاً كالخزف. وفي أيام هؤلاء الملوك يقيم إلٰه السمٰوات مملكة لن تنقرض أبداً، وملكها لا يترك لشعب آخر، وتسحق وتفنى كل هذه الممالك، وهي تثبت إلى الأبد. (سفر دانيال ٢ : ٢١ ــ ٤٥). . وسُرَّ الملك جداً بهذا التأويل وقال لدانيال: «حقاً إن إلٰهكم إلٰه الآلهة ورب الملوك وكاشف الأسرار». . وولّاه على كل ولاية بابل وأعطاه أموالاً كثيرة وجعله رئيساً لحكماء بابل.

ويروي السفر أن الملك نبوخذ نصّر صنع تمثالاً ضخماً، وأمر جميع من في مملكته أن يسجدوا له عندما يضرب بالبوق والعود والناي وكل أنواع العزف. فسجد الجميع إلاَّ ثلاثة من اليهود كان قد ولّاهم دانيال مناصب في الدولة، وهم: شدرخ ومشيخ وعبد نقولا. وغضب الملك لعدم سجودهم لتمثاله، وأعلن هؤلاء أنهم لن يسجدوا لأي صنم أو وثن، وأنهم لم ولن يسجدوا لأحد سوى الله؛ فوضعهم الملك في أتون النار. ولكنهم خرجوا من النار سالمين؛ فانبهر الملك من ذلك وقال: «تبارك إلٰه شدرخ وميشخ وعبد نقولا الذي أرسل ملاكه وأنقذ عبيده الذين اتكلوا عليه. وغيَّروا كلمة الملك وأسلموا أجسادهم لكيلا يعبدوا أو يسجدوا لإلٰه غير إلٰههم. . .». (سفر دانيال ٣ : ١ ــ ٣٠).

ثم يروي السفر حلماً آخر للملك نبوخذ نصّر، ويبدأ الحديث فيها نبوخذ نصّر بحمد الله وشكره على آياته وعجائبه: «من نبوخذ نصّر الملك إلى كل الشعوب والأمم والألسنة الساكنين في الأرض كلها: ليكثر سلامكم، الآيات والعجائب التي صنعها معي الله العليُّ حَسُنَ عندي أن أخبر بها، آياته ما أعظمها، وعجائبه ما أقواها، ملكوته ملكوت أبدي وسلطانه إلى دور فدور ــ أي دائم ــ». (سفر دانيال ٤ : ١ ــ ٣).

وهو أمر غريب غير معروف في التاريخ. فهذا كلام يدل على إيمان نبوخذ نصّر بالله إيماناً كاملاً قوياً. . ثم يقص السفر بعد ذلك هذا الحلم الجديد، حيث رأى شجرة امتدَّ نموها حتى بلغت عنان السماء، ومنظرها إلى أقصى الأرض، وأوراقها جميلة وثمرها كثير، وفيها طعام للجميع، وإذا بساهر وقدوس نزل من السماء، وأمر بقطع

الشجرة، ولكنه ترك ساق أصلها في الأرض، وقيَّدها بقيد من حديد ونحاس. . . وليتغيَّر قلبه عن الإنسانية وليعط قلب حيوان ولتمضِ عليه سبعة أزمنة».

ويوجه الملك الخطاب إلى دانيال ولكنه يسميه بيلشاصر. . وأجاب بيلشاصر قائلاً: «الشجرة التي رأيتها كبرت وقويت وبلغ علوها إلى السماء ومنظرها إلى كل الأرض. . إنما هي أنت يا أيها الملك الذي كبرت وتقويت. وعظمتك قد زادت وبلغت إلى السماء وسلطانك إلى أقصى الأرض. . .». ثم عبَّر للملك نزول الملك وقطع الشجرة بأن الملك سيطرد من مملكته، وتكون سكناه مع الحيوانات، ويبقى كذلك سبعة أزمنة حتى يعلم أن المُلك لله وحده، فإذا علم ذلك تثبت مملكته وتعود إليه. ويوجه النصيحة للملك قائلاً: «أيها الملك فلتكن مشورتي مقبولة لديك وفارق خطاياك بالبر وآثامك بالرحمة للمساكين لعله يطال اطمئنانك». (سفر دانيال ٤: ١ ــ ٢٨).

ويزعم السفر أن هذا الأمر تم فوراً وأن نبوخذ نصّر طُرد من مملكته، وأكل العشب كالثيران وابتل جسمه بندى السماء حتى طال شعره مثل النسور وأظفاره مثل الطيور، ولا شك أن هذه قصة خرافية من تأليف كاتب السفر.

وتستمرّ الحكايات والأحلام وتفسيرها، ويتولى بعد نبوخذ نصّر ملك آخر يدعى بيلشاصر. . ويدَّعي كاتب السفر أن الملك كان يشرب الخمر مع غلمانه وجواريه، فرأى يداً خفية تكتب على حائط القصر كتابة، وارتعب الملك، وطلب السحرة والمنجِّمين، وطلب منهم أن يقرأوا ما هو مكتوب على الحائط. ولم يعرف السَحرة والكهّان والمنجمِّين ما هو مكتوب ــ لأنه لم يكن هناك شيء مكتوب ــ . . ثم طلب دانيال، فقام دانيال بذكر قصة نبوخذ نصّر ــ والد بيلشاصر ــ السابقة، وأن الله أخذ منه ملكه وجعله يأكل العشب كالثور لأنه تجبَّر وطغى ــ كان خطاب نبوخذ نصّر إيماناً كاملاً كما رأينا من قبل ــ وأنت الآن أيها الملك تشرب في آنية بيت الله ــ آنية من الهيكل ــ لهذا أرسل الله يداً خفية تكتب: منامنا ثقيل وفرسين؛ وتفسيرها: منا: أحصى الله ملكوته وأنهاه، ثقيلٌ وُزنت بالموازين فَوُجِدْتَ ناقصاً. فرس: قُسِمتْ مملكتك وأعطيت لمادي وفارس!!

والغريب حقاً أن الملك لم يغضب لهذا الكلام المزعج جداً، بل أمر بإلباس دانيال الأرجوان وقلادة من ذهب في عنقه ونادوا عليه أن يكون متسلّطاً ثالثاً في المملكة!! «في تلك الليلة قتل بيلشاصر ملك الكلدانيين، فأخذ المملكة داريوس المادي وهو ابن اثنتين وستين سنة». (سفر دانيال، الإصحاح الخامس).

وتستمر الخرافات والأساطير والأحلام والرؤى والألغاز وتفسيراتها من دانيال وينقذ الله دانيال من الأسُود فيؤمن الملك دارا بالله.

ويصُدر الملك أمره «إلى كل الشعوب والأمم والألسنة الساكنين في الأرض كلها ليكثر سلامكم. من قِبَلي صدر أمر بأنه في كل سلطان مملكتي يرتعدون ويخافون قدام إلّه دانيال، لأنه هو الإلّه الحي القيوم إلى الأبد، وملكوته لن يزول وسلطانه إلى المنتهى. هو ينجّي وينقذ ويعمل الآيات والعجائب في السموات والأرض. هو الذي نجّى دانيال من الأسُود». (سفر دانيال ٦: ١٠ ــ ٢٧).

وتستمر الأحلام والرؤى فيرى دانيال هذه المرة: أربع رياح السماء هجمت على البحر الكبير، وصعد من البحر أربعة حيوانات عظيمة.. الأول كالأسد وله جناحا نسر وكنت أنظر حتى انتتف جناحاه، وانتصب على الأرض وأوقف على رجلين كإنسان وأُعطيَ قلب إنسان. وإذا بحيوان آخر شبيه بالدب.. وفي فمه ثلاثة أضلع بين أسنانه، فقالوا له: قم كُلْ لحماً كثيراً.. وإذا بحيوان آخر مثل النمر وله أربعة أجنحة، وأربعة رؤوس وأُعطي سلطاناً.. وإذا بحيوان رابع هائل وقوي وشديد جداً وله أسنان من حديد كبيرة. أكل وسحق وداس الباقي برجليه.. وله عشرة قرون.. وإذا بقرن آخر صغير يطلع من بين القرون العشرة، وقلعت ثلاثة من القرون الأولى قدامه. وإذا بعيون كعيون الإنسان في هذا القرن وفم يتكلم بالعظائم.. وصنع له عرش.. لباسه أبيض كالثلج ورأسه كالصوف وعرشه لهيب نار.. نهر نار جرى وخرج من قدامه.. ألوف ألوف تخدمه.. كنت أرى إلى أن قُتل الحيوان وهلك جسمه ودُفع لوقيد النار.. أما باقي الحيوانات فنزع عنهم سلطانهم ولكن أعطوا طول حياة».. ثم رأى دانيال ابن إنسان أتى وأعطى سلطاناً ومجداً وملكوتاً لتتعبد له كل الشعوب والأمم والألسنة. سلطانه أبدي، لن يزول، وملكوته لا ينقرض».

ثم فسّر دانيال الحلم: الحيوانات العظيمة هي أربعة ملوك يقوون على الأرض، أما قدّيسو العلي فيأخذون المملكة ويمتلكونها إلى الأبد.. أما الحيوان الرابع فمملكة رابعة تأكل الأرض وتدوسها وتسحقها. والقرون العشرة من هذه المملكة هي عشرة ملوك. ويقوم بعدهم آخر وهو مخالف الأولين ويذل ثلاثة ملوك ويتكلم بكلام ضد العلي ويستمر جبروته وبطشه إلى زمان ونصف زمان!! فينزعون عنه سلطانه وتُعطى المملكة والسلطان لشعب قديسي العلي. ملكوته ملك أبدي وجميع السلاطين إياه يعبدون ويطيعون». (سفر دانيال، الإصحاح السابع).

وهي نفس قصة المسيح المنتظَر التي تتكرر كثيراً في أسفار العهد القديم والذي سيخرج حسب قولهم من نسل داوود ويحكم العالم حكماً أبدياً، ويبيد جميع الشعوب والأمم المعارضة، وتخضع له كل الكائنات في السماء والأرض.. ويتمجد فيه شعب إسرائيل شعب الله ويعطي الملك والخلود لهذا الشعب المقدس!! ويكون هو معبوداً من دون الله!!

وتستمر الأحلام على هذا المنوال دون نهاية.

النبي حزقيال:

ظهر حزقيال في زمن نبوخذ نصّر أيضاً.. وكان من بين الذين سباهم من أورشليم وأرسلهم إلى بابل. وعاش حزقيال مع المسبيين من اليهود على نهر خابور في بابل.

واضطلع بالرسالة قبل خراب أورشليم بسبع سنين ــ خربت أورشليم سنة ٥٨٧ قبل الميلاد ــ وكان عمره آنذاك ثلاثين سنة.. وظل مضطلعاً بهذه الرسالة نحو اثنتين وعشرين سنة. وقد كتب حزقيال ــ أوتلاميذه ــ نبوءاته في سفر يحمل اسمه. ومن هذه النبوءات قسم نطق به حزقيال قبل أن تسقط أورشليم، تنبّأ فيه بسقوطها وخرابها بسبب فجورها وعصيانها.

وأما القسم الثاني من النبوءات فكانت في المنفى، وهي تتنبّأ بأن الله سيعيد

اليهـود من السبـي والنفي إلى أورشليم . . وقد تحقَّق هـذا فعلاً في أيـامـه حين سمـح الملك قورش ملك الفرس بعودة اليهود وبإعادة بناء الهيكل .

وأمـا القسم الثالث من النبـوءات فيتعلق بممـالـك أدوم وصـور وصيـدا ومصـر. وكـالمعتاد دعـا عليها بـالخراب والهـلاك لأن المنقـذ المسيـح المنتـظَر سيـأتي ويهلك الجميـع ، ويقيم مملكـة الرب الأبـديـة في الشعب المقـدس الأبـدي . . ويعـطي لهم الخلود على الأرض . . وتعبـد الشعـوب كلهـا مسيـح الـرب ، وشعب الـرب والشعب المقدس ! !

ويرجـع الباحثون النص الكهنوتي من التـوراة ــ الموجـود في الأسفار الخمسـة ، وخاصة في سفر اللاويين ــ إلى حزقيال وعزرا وهما من أنبياء النفي إلى بابـل وما بعـد النفي .

ويشدِّد حزقيال الدعوة لبني إسرائيـل أن لا يتزوَّجـوا من الأجنبيات وأن لا يعـطوا بناتهم للأجانب . . وهي نفس دعوة عزرا ــ عزير ــ والأنبياء المتـأخرين الـذين عاشـوا فترة السبـي .

النبـي حجـي :

عـاش النبـي حجي بعد فتـرة السبـي ، والعـودة من بـابـل إلى أورشليم . وكـان العمل في هيكل أورشليم قد توقَّف نحو خمسة عشر عامـاً ، فقام حجي يستنهض همم اليهود لمتابعة البناء . وكان له في ذلك أثر عظيم .

وقد كتب حجي ــ أو تلاميـذه ــ سفراً يحمـل اسمه يتضمَّن النبـوءات التي نطق بها حجي نحو عام ٥٢٠ قبل الميلاد ، وهي تشتمل على توبيـخ لليهود الـذين تقاعسـوا عن بناء الهيكل بعد خرابه ، في حين أنهم يبنون لأنفسهم بيوتاً يقيمون فيها .

ويتحدث إلى أولئك الذين يبكون على تواضـع بناء الهيكل الجديد بالمقارنة مـع البناء السابق الذي بناه سليمان . ويبشِّرهم بـأن مجد البنـاء الجديـد سيكون أعـظم من البنـاء القديم لأن المسيـح المنتـظَر سيأتي إليـه ، وستنحني كل الجبـاه المتعـاليـة أمـام ملكـوته . . وسيحـطِّم كل الملوك والممـالك ويـذل كـل الشعـوب ، وتـأتي الأمم كلهـا

ساجدة خاضعة لملكوته، وتتوجّه إليه بالعبادة، وتتمجّد الشعوب بخدمة شعب الله المختار.. الشعب المقدس الذي جعله الله أخصّ من كل الشعوب.. ويكون شعب إسرائيل سيداً على كل شعوب الأرض.. وأورشليم عاصمة للدنيا كلها.. ويحكم المسيح المنتظَر العالم كله من عاصمته أورشليم حكماً أبدياً خالداً.. ويكون فيه الخلود لابن داوود ــ المسيح المنتظَر من نسل داوود ــ ولشعب الله المختار، وتسعد جميع الأمم بالسجود له وعبادته.. ويكون عزها وفخارها خدمة شعب الله المقدس!!

زكريا بن عدو:

زكريا بن عدو من سبط لاوي.. وهو من سبي إسرائيل في مملكة بابل.. والغريب حقاً أنه كان كاهناً لمعبد وثني.. وظهر في زمن الملك داريوس ــ دارا ــ الفارسي وتنبَّأ له.

وكان زكريا معاصراً لحجي.. وكان أحدهما في بلاد الكلدانيين ــ وهو زكريا ــ من اليهود الذين فضلوا البقاء في بابل على العودة إلى أورشليم. وكان الآخر ــ حجي ــ من الذين عادوا وشاركوا في بناء الهيكل الثاني مشاركة فعّالة.

وقد كَتب زكريا بن عدو سفراً يحمل اسمه ويدعو فيه اليهود إلى العودة إلى فلسطين وأن يعمّروها من جديد، مبشِّراً إياهم بمجيء مملكة الرب التي سيقيمها المسيح المنتظَر، والذي سيهلك جميع الشعوب والأمم، ويخضعها للشعب المقدس، شعب الله، ويجعلها تعلن عبادتها للمسيح ولهذا الشعب المبارك المقدس الذي جعلت فيه روح الله.. الشعب الذي ينتسب إلى الله كما ينتسب الابن إلى أبيه... إلخ.

عوبديا:

ظهر عبوديا من سبط يهوذا وعاش بعد عودة اليهود من المنفى.. وكان الأدوميون يتشفون بما حدث لليهود في المنفى.. ولهذا كتب عوبديا سفره يتنبَّأ فيه بخراب أدوم وبهلاك الأدوميين، وظهور مسيح الرب الذي سيحكم العالم من عاصمته أورشليم،

وتخضع لـه جميع الشعوب وتقبِّل أقدام إسرائيل الشعب المقدس الذي حلت فيه روح الله!!. . . إلخ.

يوئيل:

يُعتبر يوئيل بن فنوئيل أيضاً من أنبياء اليهود بعد عصر السبي إلى بابل. وقد حدث في أيامه قحط شديد وأسراب من الجراد أكَلَت كل شيء. فأنبأ اليهود بأن هذا عقاب من الله على عصيانهم وتمرُّدهم، ودعاهم إلى الندم والتوبة والرجوع إلى الله والكف عن الشرور والعصيان.

ثم أخبرهم بقرب مجيء مسيح الرب الذي ستخضع له كل الشعوب، وتتمجَّد فيه إسرائيل، وتبلغ أورشليم عنان مجدها. . مجداً أبدياً خالداً، ويحكم شعب الرب، الشعب المقدس كل الشعوب. . وتتمجَّد شعوب الأرض بلعق حذاء إسرائيل!!

صفنيا:

ظهر صفنيا بن كوش في عهد الملك يوشيا ملك يهوذا صاحب الإصلاح الديني سنة ٦٢٠ قبل الميلاد.

وقد تركَّز سفر صفنيا على التبشير بمجيء مسيح الرب وخلاص البشرية على يده. . وأنه سيقيم مملكة الرب على جبل صهيون في أورشليم، وتخضع له كل شعوب الأرض. . ويتمجَّد الشعب المقدس، شعب الله المختار ويحكم العالم، وتسعد كل الشعوب بخدمة شعب الله ولعق حذاء شعب الله!!

ناحوم:

ظهر ناحوم أثناء السبي إلى بابل بعد خراب أورشليم. . وقد عاش فترة قبل النفي في أورشليم وتنبأ فيها بخرابها وتحطيم الهيكل، بسبب فجور إسرائيل. . وأعلن أنها ستقع في يد البابليين، كما أعلن أن مصر ستسقط في يد الآشوريين. . وأخيراً ستسقط بابل ونينوى في يد الفرس.

وقد وصف ناحوم في السفر الـذي ظهر بـاسمه هـذه النبوءات وركّـز فيه على أن الذنوب والمعاصي تؤدي إلى غضب الله وعقابه.

حـبـقـوق:

كان حبقوق أحد المرنمين في هيكـل أورشليم في القرن السـابع قبل الميـلاد، وقد عاش في أيام ملك يهوذا الفاسق يهو ياقيم.

وقد كتب حبقوق سفره الذي أكّـد فيه أن الأشـرار مهما نجحـوا في حياتهم على الأرض فإنهم سيلاقـون جزاءهم.. ووصف حبقـوق مجيء الله في رعب عظيم ليـدين البشر.

مـلاخـي:

عاش ملاخي في القرن الخامس قبل الميلاد. وهـو من يهود فتـرة ما بعـد العودة من نفي بابل. وقد ظهر بعد زكريـا بن عدو وعـوبديـا. وقد نبّـه ملاخي في سفـره إلى فسـاد الكهنة بصـورة خاصـة واليهود بصـورة عامـة. وركّز اهتمـامـه على منـع الـزواج بـالأجنبيـات أو زواج الأجـانب بـاليهـوديـات منـذراً إيـاهم بغضب الله عليهم وعقـابـه الأليم لهم.

ثم بشّـرهم بقرب مجيء المسيـح المنتـظَر الـذي سيحكم العـالم من عـاصمتـه أورشليم.. وتُستعبد له كل الشعوب.. وتكون إسرائيل سيدة الدنيا.

النبـي زكريا بن يهويـاداع:

زكريا هو ابن الكاهن يهوياداع الذي عاش في عهد الملك أخزيا ملك يهوذا في القرن التاسـع قبل الميلاد. وقامت الملكة عثليـا أم الملك الجديـد ياهـو بقتل كـل من بقي من بيت أخزيا ما عدا طفل صغير استطاع الكاهن يهوياداع أن يخبِّئه سراً.. وكبـر هذا الطفل في بيت الكاهن وكان اسمه يهـواش، واستطاع عنـدما اشتـد عوده أن ينتقم لوالده ولأسـرته كلهـا؛ فقتل الملكـة عثليا واعتلى العـرش.. وذلك كله بفضـل رعايـة يهوياداع ومساعدته القوية في السر والعلن.

وكان يهواش طوال حياة راعيه الكاهن يهويـاداع متمسّكاً بالـدين نابـذاً لعبادة الأوثـان التي كانت متفشيـة جـداً في أيـام الملكـة عثليـا وابنهـا. . ولكن مـا إن مـات يهوياداع حتى ارتكب الملك يهواش نفس الخطأ والجريمة التي ارتكبها ملوك إسرائيل وملوك يهوذا ــ الأماندر ــ وهي عبادة الأوثان، وخاصـة عبادة البعـل التي كانت منتشـرة في بعلبك ــ لبنان ــ وفلسطين.

وأوحى الله إلى زكريا بن يهوياداع أن يقوم بالدعوة إلى العبادة الحقة وترك عبادة الأوثان، وأخذ يـوبِّـخ بني إسرائيـل على تكرار سقـوطهم في هوة الكفـر والردة وعبـادة الأوثان. وأخذ ينذرهم بعذاب الله وبالويلات التي تنتظر أورشليم الزانية. . فأمر الملك بقتله فرجمه اليهود بالحجارة داخل الهيكل نفسه.

عـامـوس:

ظهـر النبـي عامـوس في مملكة الشمـال ــ إسرائيـل ــ في عصر الملك يـربعام الثـاني ملك إسـرائيـل في القـرن الثـامن قبـل الميـلاد. . وشـدَّد حملتـه على الفسـاد الأخلاقي والديني وعلى عبـادة الأوثان التي انتشـرت في مملكة الشمـال ــ إسرائيـل ــ كما انتشرت في أختها مملكة الجنوب يهوذا. .

ولمَّا شدَّد عاموس حملتـه على فساد الملك وحـاشيته والكهنـة؛ طرده الملك من مملكته، ونفاه إلى مسقط رأسه قرية «تقوع» الواقعة في مملكة يهوذا.

وكَتب عاموس السفر المعروف بـاسمه ــ وهـو من أسفار الأنبيـاء ــ. وسجَّل فيـه الحـوادث التي وقعت في أيام الملك يـربعام الثـاني بن يواش ملك إسـرائيـل ونـظيـره ومعاصره الملك عـزيا ملك مملكـة يهوذا. كمـا سجَّل في هـذا السفر انتقـاداته لفسـاد الشعب الإسرائيلي والكهنة والملوك. وأعلن نبـوءاته عن تخـريب هذه البـلاد وتخريب البلاد المجاورة دمشق وغزة وصور وأدوم وبني عمون وموآب بسبب معاصيهم. وقد تنبَّأ بحـدوث خراب أورشليم والسبـي إلى بـابل ثم العـودة من السبـي، ممـا جعـل بعض الباحثين يعتقد أن أجزاء من هذا السفر على الأقل كُتبت بعد العودة من المنفى على يد كتّاب مجهولين. . وألحقوا ذلك بسفر عاموس. .

وقد اتهم الكهنة النبي عاموس بأنه تزوج عاهرة.

النبي هوشع :

كان هوشع معاصراً للنبي عاموس، وظهر أيضاً في مملكة الشمال ــ في القرن الثامن قبل الميلاد ــ وقد اشتهر أيضاً بإدانته للفساد الديني ونفاق رجال الكهنوت، ووصفهم بأقبح الأوصاف، ونعتهم بأرذل النعوت، فأدى ذلك إلى معاداتهم له واتهامه بأنه تزوَّج عاهرة تابعة لأحد المعابد الوثنية المنتشرة في إسرائيل، وأنه مارس معها الطقوس الوثنية.

وقد استمر هوشع في عمله النبوي لمدة ٤٠ عاماً. عاصر فيها عدداً من ملوك إسرائيل: يربعام الثاني، وملوك يهوذا: عزريا ويوثام وآحاز وحزقيا. وبينما كان هوشع وعاموس يدعوان في مملكة الشمال كان أشعيا وميخا يضطلعان بنفس العمل في مملكة الجنوب يهوذا.

وقد شهد هوشع سقوط السامرة ــ شكيم ــ عاصمة مملكة إسرائيل على يد الملك تجلت فلاسر الآشوري وتحطيم هذه المملكة تحطيماً تاماً سنة ٧٢٢ قبل الميلاد. .

وكان قد تنبأ لهم بهذا الخراب بسبب عصيانهم وكفرهم وتمرُّدهم.

* * *

عزير ــ عزرا ــ
(القرن الخامس قبل الميلاد)

تختلف قصة عزير الذي أشارت إليه الآية الكريمة في سورة البقرة (٢٥٩) عن قصته كما يوردها سفر عزير من العهد القديم. .

ويختلف أهل العلم في عزير أيضاً هل هو نبي أم رجل صالح فقط. وسنورد ها هنا ما ورد عن عزير في القرآن الكريم مع ما ذكره أهل التفسير وابن كثير في «قصص الأنبياء»، ثم نعرض لما جاء في العهد القديم في سفر عزير ــ عزرا ــ .

عزير في القرآن الكريم :

ورد ذكر عزير في آية صريحاً، وفي الآية الأخرى إشارة دون ذكر اسمه.

قال تعالى :

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴿٣٠﴾ ﴾. (التوبة: ٣٠).

وقال تعالى :

﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ ﴾. البقرة: ٢٥٩).

وقد ذكر أهل التفسير أن بطل هذه القصة هو عزير، ثم اختلفوا في ذكر تفاصيل القصة كما اختلفوا في عزير نفسه، هل هو نبي أو رجل صالح من بني إسرائيل؟

وقد ذكر ابن كثير في «قصص الأنبياء» عن ابن عباس ووهب بن منبه: أن عزيراً كان عبداً صالحاً خرج إلى ضيعة له يتعاهدها، فلما انصرف أتى إلى خربة حين قامت الظهيرة وأصابه الحر، ودخل الخربة وهو على حماره، فنزل عن حماره ومعه سلة فيها تين وسلة فيها عنب، فنزل في ظل تلك الخربة وأخرج قصعة معه، فاعتصر من العنب الذي كان معه في القصعة، ثم أخرج خبزاً يابساً معه فألقاه في تلك القصعة ليبتل ليأكله، ثم استلقى على قفاه وأسند رجليه إلى الحائط، فنظر سقف تلك البيوت ورأى ما فيها، وهي قائمة على عروشها وقد باد أهلها. ورأى عظاماً بالية، فقال: ﴿أنَّى يحيي هذه الله بعد موتها﴾!! قالها تعجُّباً لا شكاً. ﴿فأماته الله مائة عام ثم بعثه﴾.

أحسَّ بالنوم الثقيل يداعب جفنيه فاستسلم له قبل أن يأكل طعامه ويشرب شرابه قائلاً لنفسه: سأرتاح قليلاً ثم أقوم..

ومضت سنون وسنون وتبدَّل سكان القرية، ومات بعض أولاده، وشاخ أبناؤهم وهو لا يزال نائماً.

وحدثت أحداث هجم نبوخذ نصّر على أورشليم القدس وحطَّمها وسبى أهلها.. ولم يبق أحد ممن يحفظ التوراة.

تثاءب بعد مائة عام واستيقظ وهو يفرك عينيه.. آه لقد نام نوماً طويلاً كانت الشمس في الظهيرة وها هي تقترب من المغيب.. لا شك أنه نام عدة ساعات، وبعث الله له ملكاً يسأله: ﴿كم لبثت؟﴾ فأجاب عزير على البديهة ﴿قال: لبثت يوماً أو بعض يوم. قال ــ الملك ــ بل لبثت مائة عام. وفغر عزير فاه دهشاً، أيعقل هذا!؟ مائة عام كاملة؟! وأتمَّ الملك قائلاً: ﴿فانظر إلى طعاك وشرابك لم يتسنّه. ــ أي لم يأسن ويتعفن ــ وانظر إلى حمارك﴾، فوجد الحمار قد أصبح كومة من العظام ﴿وانظر إلى العظام كيف ننشرها ــ أي نرفعها.. وفي قراءة: ننشرها، أي نبعثها من الموت ــ ثم نكسوها لحماً﴾.

اندهش عزير ولكنه أيقن إيقاناً تاماً بأن الله على كل شيء قدير. ﴿فلما تبيَّن له قال: أعلمُ أن الله على كل شيء قدير﴾.. وهو علم عين اليقين الذي سأله إبراهيم عليه السلام حين قال: ﴿رب أرني كيف تحيي الموتى. قال: أوَلم تؤمن؟ قال: بلى ولكن ليطمئن قلبي﴾.

وقُرىء اعلمْ بالتسكين، فالكلام على هذه القراءة من الله سبحانه وتعالى يخبره بقدرته.

ركب عزير حماره ومشى وهو يتكفَّر فيما مرَّ بِهِ، ويكرر قول: سبحان الله، سبحان ربي، سبحان ربي الأعلى.. سبحان ربي العظيم.. لما رآه من دلائل القدرة الإلّهية التي تقول للشيء كن فيكون.

ويبحث عزير عن طريقه المعتاد فلا يجده.. ويبحث عن بيته فلا يجده.. والناس ينظرون إليه باستغراب.. ويسأل: ألا أحد يعرف بيت عزير؟ فيضحكون ويستغربون.. من عزير هذا؟ حتى أوصلوه إلى عجوز عمياء مقعدة قد أتى عليها مائة وعشرون سنة كانت أمةً لهم. كانت ابنة عشرين سنة عندما خرج عزير. وفغر عزير فاه من الدهشة.. يا لله قد مضت هذه السنون وذهب ذلك الجمال والرونق والبهاء، وها هي عجوز عمياء مقعدة نصف صماء..

وصرخ عزير: أهذا منزل عزير؟ قالت العجوز: نعم هذا منزل عزير. وبكت العجوز وهي تقول: ما سمعت أحداً منذ كذا وكذا سنة يذكر عزيراً. لقد نسيه الناس منذ أن ذهب من هٰهنا منذ مائة سنة ولم يعد.. لا شك أنه قد مات فليرحمه الله.

وفوجئت العجوز بالرجل يقول لها: أنا عزير، وضحكت قائلة: أين عزير يا بني.. لعله قد مات منذ مائة سنة. قال لها: أنا عزير وأنت فلانة أمتنا وجاريتنا. قالت: فإن عزيراً كان مجاب الدعوة فادع الله أن يرد بصري حتى أراك فأعرفك.

فدعا عزير ربه وأجاب الله دعاءه ورد بصرها؛ فصرخت فرحة: إنك أنت عزير.. وكانت مقعدة فقامت تمشي من شدة الفرحة والمفاجأة، وانطلقت به إلى محلة بني إسرائيل وهم مجتمعون وفيهم أصغر أبنائه. وقالت لهم: هذا عزير. فسخروا

منها، فقالت لهم: أنا فلانة وقد كنت عمياء مقعدة ورد الله عليّ بصري وأطلق ساقي ببركة دعاء عزير.

وكان ابن عزير موجوداً، فقال: كان لأبي شامة سوداء بين كتفيه، فكشف عن كتفيه فإذا الشامة السوداء.. فأكبَّ عليه ابنه يقبله ويحتضنه..

وقال شيوخ بني إسرائيل: لم يكن فينا أحد يحفظ التوراة مثل عزير، ثم جاء نبوخذ نصّر ــ بختنصّر ــ وأحرق جميع نسخ التوراة، وما بقي من بني إسرائيل من يحفظها فاكتبها لنا. فكتبها لهم عزير واشتهرت التوراة بأنها توراة عزير، أي الذي جدد كتابتها عزير.

وغلت طائفة من بني إسرائيل في عزير، فقالت: ﴿عزير ابن الله﴾، حيث قالوا: لم يستطع موسى أن يأتينا بالتوراة إلاَّ في كتاب. وقد جاء بها عزير من غير كتاب..

وكان عزير يجلس مع بنيه وبني بنيه وهم شيوخ قد ابيضّت لحاهم وهو شاب في الأربعين أسود اللمة.

وقد أنشد أبو حاتم السجستاني في ذلك:

أسود رأس شاب من قبله ابنه	ومن قبله ابن ابنه فهو أكبر
يرى ابنه شيخاً يدبّ على العصا	ولحيته سوداء والرأس أشقر
وما لابنه حيل ولا فضل قوة	يقوم كما يمشي الصبي فيعثر
يعد ابنه الناس في الناس تسعين حجة	وعشرين لا يجرى ولا يتبختر
وعمر أبيه أربعون أمرها	ولابن ابنه تسعون في الناس غبر
فما هو في المعقول إن كنت دارياً	وإن كنت لا تدري فالجهل تعذر

عزير هو عزرا بن سرايا بن عزريا.. بن هارون ــ الكاهن ــ وعاش في فترة النفي إلى بابل في القرن الخامس قبل الميلاد.. وكتب النص الكهنوتي من التوراة بالإضافة إلى السفر المنسوب إليه.

عزير ــ عزرا ــ كما يذكره سفر عزرا من العهد القديم:

يقال: إن مؤلف سفر عزرا أو سفر نحميا وسفر أخبار الأيام هو شخص واحد

أو مجموعة واحدة. وقد كان سفر عزرا وسفر نحميا سفراً واحداً، ولكنهما فصلا إلى سفرين في الترجمة اليونانية السبعينية التي تمت في الإسكندرية على عهد بطليموس الثاني ــ القرن الثالث قبل الميلاد ــ.

ويسرد هذا السفران قصة عودة الشعب اليهودي من السبي ببيانات تفصيلية توضح كيفية إقامة الحياة السياسية والدينية من جديد في أورشليم وما جاورها.

ويتكون سفر عزرا من قسمين: الأول يتحدث عن أخبار عودة اليهود وإعادة بناء الهيكل، وذلك في عصر قورش ثم التوقف عن البناء بسبب وشاية من سكان السامرة الذين أرادوا أن يشتركوا مع اليهود في بناء الهيكل فمنعوهم؛ فكتبوا إلى الملك أحشويروش رسالة يخبرونه فيها بأنه إذا بنيت هذه المدينة العاصية وهيكلها فإنها ستمتنع عن دفع الجزية، وستثور على الملك، وطلبوا منه أن يقرأ تاريخ أورشليم ليعرف صدق ما يقولون. وبالفعل توقف البناء حتى مات أحشويروش وتولى بعده الملك دارا، فكتب إليه رؤساء اليهود يستأذنونه في إكمال البناء ويخبرونه بأن قورش الملك العظيم قد سمح لهم بالبناء، فوافق دارا على ذلك واستطاعوا أن يكملوا البناء في مدة وجيزة.

وكان زعيم اليهود في أورشليم يسمى زربابل قدلعب دوراً كبيراً في بناء الهيكل من جديد. ويبدو أن عزرا في هذه الفترة كان في بابل، وكانت له حظوة عند الملك أرتحشتا. وكتب له الملك خطاباً لكي يأخذ فضة وذهباً وخمراً وحنطة وثيراناً. . .إلخ، لكي تقدم إلى الهيكل. وعاد عزرا ومعه فوج آخر من يهود بابل إلى أورشليم. . ويشكل هذا الخبر وتفاصيله الجزء الثاني من سفر عزرا.

وعندما عاد عزرا قام بإصلاحه الديني وتنفيذ تعاليم الشريعة وتقديم المحارق والذبائح اليومية والأسبوعية والتي في الأعياد. . وأصدر أمراً قوياً بمنع الزواج من الأجنبيات وعدم زواج اليهوديات من الأجانب. . واعتبر ذلك الزواج لاغياً وفي مقام الزنى. . ويطرد الشخص الذي يتزوج من أجنبية من دائرة شعب الله.

يبدأ سفر عزرا بقصة العودة من السبي بناء على أمر قورش.

«وفي السنة الأولى لكورش ملك فارس. . نبّه الرب روح كورش ملك فارس

فـأطلق نداء في كـل مملكته وبـالكتابـة أيضاً قـائلاً: هكـذا قال كـورش ملك فـارس: جميـع ممـالك الأرض دفعهـا لي الرب إلّـه السمـاء وهو أوصـاني أن أبني لـه بيتـاً في أورشليم التي في يهوذا. من منكم من كل شعبه ليكن إلـهه معه، ويصعد إلى أورشليم التي في يهوذا فيبني بيت الرب إلّـه إسـرائيل. هـُو الإلّـه الذي في أورشليم. وكـل من بقيَ في أحـد الأماكن حيث هـو متغرب فلينجـده أهل مكـانِه بفضـة وبذهب وبـأمتعـةٍ وببهائم مـع التبرع لبيت الرب الذي في أورشليم». (سفر عزرا ١: ١ ــ ٤).

ولا نعرف ما هو الدافـع لقورش ملك الفرس لاتخاذ هذا الإجراء وإعلان إيمـانه بإلّـه إسرائيل واهتمامه ببناء الهيكـل من جديـد، وحث اليهود على العـودة، وحث غير اليهود على دفـع التبرعات السخية لبنـاء الهيكل!! هـل كانت هنـاك استير أخرى خفيـة لم تتحدث عنها الأسفار؟ أمر مستبعد أيضاً، إذ أن اليهـود يفتخرون بـأي فتاة إسـرائيلية تستطيـع أن تغوي أي ملك أو رئيس وتستـطيـع بواسـطته أن تحقق أحـلام إسرائيـل.. على أية حال لم أجد في ما لدي من المراجـع مـا يوضـح السبب الـذي من أجله أقدم قورش على هذا الإجراء.

واجتمـع زعماء اليهود: يشـوع بن يوصـادات وإخوتـه الكهنة وزربـابل وغيـرهم وأخرجوا المذابـح والمحارق بصورة مكثّفة جداً حتى يتنسّم الرب رائحة الشواء ويسعد بها جداً وينجـح غرضهم فب إعادة بناء الهيكل..

وبـالفعل بـدؤوا البناء وجـاء أهل السـامرة وهم خليط من اليهـود والأمم الأخـرى الذين أسكنهم تجلت فلاسر الآشوري ــ سرجون ــ وطلبوا أن يشتركـوا مـع اليهود في البناء ولكن اليهود رفضوا.

ومات قورش وخلفـه أحشويـروش الثاني.. ويـذكر سفـر عزرا أن أهـل السامـرة كتبـوا للملك أحشويـروش يذكـرون له عصيـان أورشليم، وأنهم ينصحونـه بألا يسمـح لليهود بإتمام البناء، والغريب أن أحشويروش رغم أنه لا يرفض لأستير أي طلب، منـع اليهـود من بناء الهيكـل واستمروا على ذلـك حتى مات. وتـولى بعـده دارا، فكتب لـه رؤساء اليهود يطلبون منـه أن يسمـح لهم بإتمـام البناء الـذي سمـح به قـورش ففعل، وأعطاهم ذهباً وفضة وخرافاً وثيراناً... إلخ هدية للهيكل. مـع دعوات وتبريكات «والله

الذي أسكن اسمه هناك يهلك كل ملك وشعب يمد يده لتغيير أو لهدم بيت الله هذا الذي في أورشليم. أنا داريوس قد أمرتُ فليفعل عاجلاً». (سفر عزرا ٦ : ١٢).

وهو أمر أيضاً مستغرب من ملك فارسي وليس يهودياً.. ولا يوجد ما يبرر هذا التصرف أيضاً من الملك داريوس الفارسي.

ومات الملك داريوس، وتولى بعده أرتحششتا. ويبدو أن عزرا ــ عزير ــ كانت له حظوة لدى هذا الملك. وقام عزرا وهو من نسل هارون عليه السلام، .وصعد من بابل ومعه فوج آخر من اليهود القاطنين هناك. ويذكر السفر أن عزرا بن سرايا كاتب ماهر في شريعة موسى التي أعطاها الرب لإسرائيل. وأعطاه الملك أرتحششتا كل سؤله. ووصل إلى أورشليم في الشهر الخامس من السنة السابعة من حكم الملك أرتحششتا.

وكانت رسالة الملك الفارسي إلى عزرا الكاهن كاتب كلام وصايا الرب وفرائضه على إسرائيل أيضاً غريبة، إذ يتحدث الملك الفارسي وكأنه يهودي يؤمن بإلّه إسرائيل. وقد تبرع الملك بفضة وذهب لإلّه إسرائيل في أورشليم مسكنه. بالإضافة إلى كل الفضة والذهب التي تجد في كل بلاد بابل مع تبرعات الشعب والكهنة المتبرعين لبيت إلّههم الذي في أورشليم. لكي تشتري عاجلاً بهذه الفضة ثيراناً وكباشاً وخرافاً وتقدماتها وسكائبها، وتقربها على المذبح الذي في بيت إلّهكم الذي في أورشليم» (عزرا ٧: ١٢ ــ ٢٠).، ثم أصدر الملك أمراً إلى كل الخزنة ــ بيت المال ــ أن يدفعوا فوراً كل ما يطلبه عزرا الكاهن كاتب شريعة السماء إلى مئة وزنة من الفضة ومئة كُرّ من الحنطة ومئة بثٍّ من الخمر، ومئة بث من الزيت والملح من دون تقييد... إلخ كل ما أمر به إلّه السماء فليعمل باجتهاد لبيت إلّه السماء، لأنه لماذا يكون غضب على مُلك الملِكِ وبنيه». (سفر عزرا ٧: ٢١ ــ ٢٥)، مع أمر مشدد بالعمل بالشريعة وكل من لا يعمل بالشريعة فليقضَى عليه عاجلاً إما بالموت أو بالنفي أو بغرامة المال أو بالحبس. وتعطى صلاحيات واسعة لتنفيذ قوانين الشريعة لعزرا الكاهن كاتب كلام وصايا الرب وفرائضه على إسرائيل!!

وينفذ عزرا هذا الأمر ويجمع شتات من بقي من اليهود، ويذهب بفوج جديد

إلى أورشليم محملاً بالذهب والفضة ومئات الثيران والكباش والخرفان، ويقدمها محرقة دائمة للرب فيتنسم الرب نسيم الرضا بعد أن شم رائحة اللحم المشوي بصورة تسبب الربو.

وأصدر عزرا تشريعاً جديداً لم تذكره التوراة ولم يعمل به موسى عليه السلام وداوود وسليمان الذين تزوجوا من أجنبيات. . أصدر عزرا هذا قراراً يعتبر بموجبه الزواج من غير يهودي أو يهودية كفراً بواحاً وخروجاً عن الملة.

والآن فلا تعطوا بناتكم لبنيهم ولا تأخذوا بناتهم لبنيكم ولا تطلبوا سلامتهم وخيرهم إلى الأبد لكي تتشددوا وتأكلوا خير الأرض وتورثوا بنيكم إياها إلى الأبد». (سفر عزرا ٩: ١٢).

وهكذا يدعي اليهود أن عزرا كان عنصرياً شديد العنصرية حاقداً على الشعوب الأخرى ومندداً بالاختلاط بها، أو حتى السماح لها بأن تأكل من خير الأرض، لأن خير الأرض قد جعله الرب فقط لإسرائيل!!

وأمر عزرا كل أولئك المتزوجين من غير اليهوديات أن يطردوا نساءهم «وانفصلوا عن شعوب الأرض والنساء الغريبة». وقام عزرا والكهنة بالتفتيش على اليهود بحثاً عن زوجات أجنبيات ليتم طردهن، فوجد بين بني الكهنة من اتخذ نساء غريبة فأخرجوا نساءهم حسب أوامر عزرا مع كباش ذبائح خطيئة. . وينتهي السفر بتعداد أسماء الذين اتخذوا نساء غريبات، وكيف قام عزرا بطردهن كلهن والتفريق بينهن وبين أزواجهن.

تعليق:

تختلف قصة عزرا الواردة في القرآن والتفاسير اختلافاً كبيراً جداً عن قصة عزرا الواردة في سفر عزرا وسفر نحميا. . فلا ترد في هذين السفرين ولا في أخبار اليوم قصة موت عزرا مائة عام وكيف بعَثه الله. .

وما ورد في السفرين ـ عزرا ونحميا ـ لا يرد في التفاسير ولا كتب قصص الأنبياء. .

ويذكر سفر نحميا أن عزرا أتى بسفر شـريعة مـوسى وقرأه على جمـاعة إسـرائيل رجـالاً ونسـاءً وكـل من يـدرك ويفهم، في اليـوم الأول من الشهـر السـابـع من السنـة العبرية، وقرأ أمام الساحة التي أمام باب المـاء من الصباح إلى نصف النهار (نحميا ٨: ١ ــ ٣).

وقرأ عليهم في اليوم التالي أيضاً وأفهمهم أن هـذا هو عيـد المظال الـذي يستمر سبعة أيام. فخرجوا من بيوتهم وسكنوا في المظال حسب أوامر عزرا.. ومنذ زمن بعيد جداً لم يحتفل اليهود بعيد المظال إلى أن جاء عزرا.. حتى في زمن الملكية منذ عهد داوود لم يحتفلوا بعيـد المظال إلا في عهـد يوشيـا الملك ــ٦٢٢ قبل الميلاد ــ عندمـا وجد الكاهن حلقيا التوراة الضائعة، فقرأها على الشعب واحتفلوا بعيد المظال.

ولا نجد في هذه الأسفار أي ذكر لنبـوة عزرا، بـل تصفه الأسفـار بعزرا الكـاتب والكـاهن مـع احترام بـالـغ لأنه أعـاد قراءة سفـر الشـريعـة بعـد أن نسيهـا الشعب في المنفى..

ويعتبر الباحثون عزرا والكهنة الذين معه هم الذين قاموا بكتـابة النص الكهنـوتي الموجود في أسفار التوراة، وبالذات في سفر اللاويين.. ويذكرون صـراحة أن مـوسى لم يكتب هذه الأسفار، وإنما كتبها عـزرا والكهنة. أمـا النص الألهيمي والنص اليهوي فقد كُتبا في فترة سابقة ــ القرن التاسـع والثامن قبل الميلاد ــ وأما نص تثنية الاشتـراع فقد كُتب في زمن الملك يوشيا ــ ٦٢٢ قبل الميلاد ــ.

ويتميـز عزرا بـالتعصُّب الشديـد ومنـع الاختلاط والـزواج من الأجـانب، حسب ما تصوِّره أسفار العهد القديم.

• • •

المـــراجع

القرآن الكريم والتفاسير:

(١) القرآن الكريم.

(٢) القرطبي (أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري): الجامع لأحكام القرآن. تصوير عن الطبعة الثانية، دار الكتب المصرية.

(٣) ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي القرشي): تفسير القرآن العظيم. طبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة.

(٤) ابن جرير (أبو جعفر محمد بن جرير الطبري): جامع البيان في تفسير القرآن. دار المعرفة، بيروت.

(٥) الزمخشري (جار الله محمود بن عمر): الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. دار المعرفة، بيروت.

(٦) الجلالين: (جلال الدين محمد بن أحمد المحلّي وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي): تفسير القرآن العظيم. المكتبة الشعبية، القاهرة.

(٧) سيد قطب: (في ظلال القرآن. الطبعة السادسة (غير مذكور الناشر ولا سنة الطبع).

(٨) عبد الباقي(محمد فؤاد عبد الباقي): المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. كتاب الشعب، القاهرة.

تاريخ وقصص الأنبياء وبني إسرائيل (مصادر إسلامية):

(١) ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي): قصص الأنبياء. دار القلم، بيروت لبنان، (بدون تاريخ).

(٢) أحمد بهجت: أنبياء الله. دار الشروق، القاهرة، الطبعة الحادية عشرة، ١٩٨٣م.

(٣) محمد الطيب النجار: تاريخ الأنبياء في ضوء القرآن الكريم والسنّة. دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٨١م.

(٤) محمد علي الصابوني: النبوة والأنبياء. الناشر السيد حسن عباس الشربتلي، الطبعة الثانية، مكة المكرمة.
(٥) عفيف عبد الفتاح طبارة: مع الأنبياء في القرآن الكريم. دار العلم للملايين، الطبعة (١٣)، ١٩٨٣م.
(٦) السيد حسن اللواساني: تواريخ الأنبياء. منشورات لواسان، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٦م.
(٧) الفخر الرازي (محمد بن عمر التيمي البكري): عصمة الأنبياء. دار المطبوعات الحديثة، جدة، ١٩٨٦م.
(٨) د. محمد سيد طنطاوي: بنو إسرائيل في القرآن والسنَّة. الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ١٩٨٧م.

كتب عن العهد القديم واليهود:

(١) الكتاب المقدس: دار الكتاب المقدس (جمعية الكتاب المقدس سابقاً)، القاهرة.
(٢) الرهبانية اليسوعية: الكتاب المقدس: كتب الشريعة الخمسة (المدخل من الترجمة الفرنسية المسكونية للكتاب المقدس والحواشي من ترجمة أورشليم الفرنسية للكتاب المقدس)، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٤م.
(٣) الرهبانية اليسوعية: الكتاب المقدس: كتب التاريخ (المدخل والهوامش مثل سابقه)، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٦م.
(٤) الرهبانية اليسوعية: الكتاب المقدس: كتاب المزامير (المدخل والهوامش مثل سابقه)، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٤م.
(٥) أحمد شلبي شتيوي: التوراة دراسة وتحليل، مكتبة الفلاح، الكويت، ١٩٨٤م.
(٦) ترجمة سهيل ديب (إسم المؤلف غير مذكور): التوراة تاريخها وغاياتها. دار النفائس، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٠م.
(٧) د. محمد بدران محمد بدران: التوراة: العقل ــ العلم ــ التاريخ. دار الأنصار، القاهرة، ١٩٧٩م.
(٨) الباجي (علي بن محمد بن عبد الرحمن بن خطاب): على التوراة، تحقيق د. أحمد حجازي السقا، دار الأنصار، القاهرة، ١٩٨٠م.
(٩) د. مصطفى محمود: التوراة. دار العودة، بيروت، ١٩٧٢م.
(١٠) دائرة المعارف البريطانية، الطبعة ١٥ (ج ٢ : ٨٧٩) وما بعدها، مادة الكتاب المقدس، ١٩٨٢م.

(١١) د. بطرس عبد الملك وزملاؤه: قاموس الكتاب المقدس. مكتبة المشعل، بيروت، بإشراف رابطة الكنائس الإنجيلية في الشرق الأوسط، الطبعة السادسة، ١٩٨١م.
(١٢) د. حسن ظاظا: الفكر الديني اليهودي: أطواره ومذاهبه. دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية، ١٩٨٧م.
(١٣) د. حسن ظاظا: الشخصية الإسرائيلية: دار القلم، دمشق، ١٩٨٥م.
(١٤) محمد عزة دروزة: تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٦٩م.
(١٥) زكي شنوده: المجتمع اليهودي. مكتبة الخانجي، القاهرة.
(١٦) د. موريس بوكاي: القرآن والتوراة والإنجيل والعلم. دار المعارف، القاهرة.
(١٧) روجيه جارودي: إسرائيل الصهيونية السياسية، دار الشروق، القاهرة ــ بيروت، ١٩٨١م.
(١٨) د. أحمد شلبي: مقارنة الأديان: اليهودية. مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الخامسة، ١٩٧٨م.
(١٩) وفاء صادق: أخلاق اليهود وأثرها في حياتهم المعاصرة. دار الفرقان، عمان، ١٩٨٧م.
(٢٠) السيد محمد الشيرازي: هؤلاء اليهود. مؤسسة الوفاء، بيروت لبنان، ١٩٨٤م.
(٢١) ابن القيم (محمد بن أبي بكر): هداية الحيارى في الرد على اليهود والنصارى. منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.
(٢٢) ابن القيم (محمد بن إبي بكر): إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان. مكتبة الدعوة الإسلامية، القاهرة.
(٢٣) ابن تيمية (أحمد بن عبد الحليم): الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، مطابع المجد التجارية.
(٢٤) ابن حزم (علي بن أحمد): الفصل في الملل والأهواء والنحل، مكتبة محمد علي صبيح، القاهرة.
(٢٥) الشهرستاني (محمد بن عبد الكريم): الملل والنحل. مكتبة محمد علي صبيح، القاهرة.

(مطبوعان في كتاب واحد)

(٢٦) رحمة الله بن خليل الهندي: إظهار الحق. تحقيق عمر الدسوقي، بإشراف عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، الشؤون الدينية، دولة قطر.

(٢٧) د. إسماعيل الفاروقي: الملل المعاصرة في الدين اليهودي. معهد البحوث والدراسات العربية ــ جامعة الدول العربية.
(٢٨) د. إسماعيل الفاروقي: أصول الصهيونية في الدين اليهودي. معهد الدراسات العربية العالية ــ جامعة الدول العربية، ١٩٦٤م.
(٢٩) داوود عبد العفو سنقراط: جذور الفكر اليهودي. دار الفرقان، عمان، الطبعة الثانية، ١٩٨٤م.
(٣٠) د. محمد بن الشريف: الشعب الملعون في القرآن. دار مكتبة الهلال، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٢م.
(٣١) عفيف عبد الفتاح طبارة: اليهود في القرآن. دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثامنة، ١٩٨٠م.
(٣٢) عبد الكريم الخطيب: اليهود في القرآن. دار الشروق، القاهرة، ١٩٧٤م.
(٣٣) ليني برينر: الصهيونية في زمن الدكتاتورية. ترجمة وتقديم د. محجوب عمر، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ١٩٨٥م.
(٣٤) صابر طعيمة: لتاريخ اليهودي العام. دار الجيل، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٣م.
(٣٥) محمد خليفة التونسي: بروتوكولات حكماء صهيون. تقديم الأستاذ عباس محمود العقاد، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة السابعة، ١٩٨٤م.
(٣٦) عبد الله التل: خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية. المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٧٩م.
(٣٧) جودت السعد: الشخصية اليهودية عبر التاريخ. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٥م.
(٣٨) هنري فورد ترجمة خيري حماد: اليهودي العالمي. دار الآفاق الجديدة، بيروت.
(٣٩) د. هادي حسين محمود: منهج المسعودي في بحث العقائد والفرق الدينية. دار القادسية للطباعة، بغداد، ١٩٨٤م.
(٤٠) د. يوسف نصر الله: تقديم مصطفى الزرقاء وحسن ظاظا: الكنز المرصود في قواعد التلمود. دار القلم، دمشق ــ دارة العلوم، بيروت، ١٩٨٧م.
(٤١) إبراهيم خليل أحمد: إسرائيل والتلمود. مكتبة الوعي العربي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٨٣م.
(٤٢) ظفر الإسلام خان: التلمود، تاريخه وتعاليمه. دار النفائس، الطبعة الثالثة، بيروت، ١٩٨٠م.

(٤٣) د. محمد علي البار: المسيح المنتظر وتعاليم التلمود. الدار السعودية، جدة، ١٩٨٧م.
(٤٤) د. نجيب الكيلاني: دم لفطير صهيون. دار النفائس، الطبعة الثانية، ١٩٧٤م.
(٤٥) الحكيم السموءل بن يحيى المغربي: بذل المجهود في إفحام اليهود. تقديم وتعليق عبد الوهاب عبد السلام طويلة، دار القلم، دمشق، ١٩٨٩م.
(٤٦) إسرائيل بن شموئيل الأورشليمي: الرسالة السبيعية بإبطال الديانة اليهودية، تقديم وتعليق عبد الوهاب عبد السلام طويلة، دار القلم، دمشق، ١٩٨٩م.
(٤٧) د. مراد كامل: الكتب التاريخية في العهد القديم. معهد البحوث والدراسات العربية ــ جامعة الدول العربية، ١٩٦٨م.
(٤٨) د. عبد المنعم الحفني: الموسوعة النقدية للفلسفة اليهودية. دار المسيرة، بيروت، ١٩٨٠م.
(٤٩) جورج فيدا: ترجمة وتعليق علي سامي النشار وعباس أحمد الشربيني: الفكر اليهودي وتأثره بالفلسفة الإسلامية. منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٧٢م.

● ● ●

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الأنبياء عليهم السلام في التوراة المحرَّفة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

● ● ●